الاكتفاء

بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء

تأليف

أبي الربيع سليمان بن موسى الكلاعي الأندلسي

(٥٦٥ - ٦٣٤هـ)

المجلد الأول - الجزء الثاني

[مغازي الرسول صلى الله عليه وسلم وسيرته]

تحقيق

دكتور محمد كمال الدين عز الدين علي

عالم الكتب

© جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للدار

الطبعة الأولى
١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م

يمنع طبع هذا الكتاب، أو أي جزء منه، أو اختزال مادته بطريقة الاسترجاع، كما يمنع الاقتباس منه أو التمثيل أو الترجمة لأية لغة أخرى، أو نقله على أي نحو، وبأية طريقة، سواء كانت إلكترونية او ميكانيكية أو بالتصوير أو بالتسجيل أو خلاف ذلك، إلا بموافقة خطية مسبقة من الناشر.

عالم الكتب
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان

ص.ب: ٨٧٢٣ - ١١، برقياً: نابعلبكي
هاتف: ٨١٩٦٨٤ - ٣١٥١٤٢ - ٦٠٣٢٠٣ (٠١)
خليوي: ٣٨١٨٣١ (٠٣)
فاكس: ٦٠٣٢٠٣ - ١ (٩٦١)

WORLD OF BOOKS
FOR PRINTING, PUBLISHING & DISTRIBUTION
BEIRUT - LEBANON

P.O.BOX : 11- 8723, CABLE : NABAALBAKI
TEL.: 01- 819684 / 315142 / 603203
CELL. 03 - 381831 FAX : 961 - 1 603203

بسم الله الرحمن الرحيم

شروع رسول الله صلى الله عليه وسلم في حرب المشركين
وذكر مغازيه التي أعزّ الله بها الإيمان والمؤمنين

قال ابن إسحاق[1] : ثم إن رسول الله ﷺ تهيّأ لحربه وقام فيما أمره الله ـ تبارك وتعالى ـ به من جهاد عدوّه وقتال مَنْ أمره الله بقتاله مِمَّن يليه من مشركي العرب.

وخرج غازياً في صَفَر على رأس اثني عشر شهراً مِن مَقْدمه المدينة.

حتى بلغ وَدّان وهي غزوة الأبْواء، يريد قريشاً وبني ضَمْرة من بكر بن عبد مناة بن كِنانة، فوادعَتْه فيها بنو ضَمْرة، وكان الذي وادعه [منهم] عليهم مَخْشِيٌّ بن عمرو الضَّمْري، وكان سيدَهم في زمانه ذلك.

ثم رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة ولم يلقَ كيداً، فأقام بها[2].

وبعث في مقامه ذلك عبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف بن قُصَي في ستين أو ثمانين راكباً من المهاجرين، ليس فيهم من الأنصار أحد.

فسار حتى بلغ ماءً بالحجاز بأسفل ثنيَّة الْمُرَّة، فلقي بها جمعاً عظيماً من قريش، فلم يكن بينهم قتال، إلاَّ أن سعدَ بن أبي وقاص قد رمي يومئذٍ بسهم، فكان أولَ سَهْم رُمِيَ به في سبيل الله.

وقال سعد في رَمْيته تلك فيما يذكرون:

ألاَ هلْ أتى رسولَ الله أني ... حَمَيْتُ صَحابتي بصدورِ نَبْلي
أذودُ بها أوائلَهم ذِياداً ... بكلِّ حُزونة وبكل سَهْلِ ٥٣ ب

(١) ابن هشام. السيرة. ج١ ص٥٩، وراجع: الزهري. المغازي النبوية، الواقدي. المغازي، الذهبي. تاريخ الإسلام (المغازي).
(٢) ابن هشام. السيرة ج١ ص٥٩١.

فما يعتــــدُّ رامٍ في عـــــدوٍّ بِسَهْـمٍ يـــا رســـولَ الله قَبْلِـــي

[الوافر]

في أبيات ذكرها ابن إسحاق، وذكر ابن هشام أن أكثر أهل العلم بالشعر ينكرها لسعد.

ثم انصرف القوم عن القوم وللمسلمين حاميةٌ.

وفرَّ من المشركين إلى المسلمين المِقْدادُ بن عمرو البَهْراني وعُتْبة بن غَزْوان، وكانا مسلمين ولكنهما خرجا ليتوصَّلا بالكفار.

ويقال: إن أبا بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ قال في غزوة عُبيدة هذه:

أَمِنْ طيفِ سَلْمى بالبِطاحِ الدَّمائـثِ أَرِقْـتَ وأَمْـرٍ في العشيرة حـادثِ
[تَرى مِنْ لُؤَيٍّ فِـرْقـةً لا يَصُـدُّهـا عن الكفرِ تذكيرٌ ولا بَعْثُ باعـثِ]
رسـولٌ أتـاهـم صـادقٌ فتكـذَّبـوا عليـه وقـالـوا لستَ فينـا بماكـثِ
إذا ما دعونـاهـم إلى الحق أَدْبَـرُوا وهرُّوا هَريرَ الْمُحْجَرَاتِ اللواهـثِ
فكـم قـد مَتَتْنا فيهـمُ بقـرابـة وتَرْكُ التُّقَـى شيءٌ لهم غيرُ كـارِثِ
فإن يَرْجعوا عن كفرهم وعقوقِهـم فما طَيِّبـات الحِلِّ مثـلُ الخبـائـث
وإن يـركبـوا طُغيـانهم وضلالهم فليس عـذاب الله عنهـم بِلاَبِـثِ
ونحن أنـاسٌ مِـن ذُؤابـةِ غـالـب لنا العِزُّ منهـا في الفـروع الأثـائـثِ
فـأولـي بِـرَبِّ الراقصاتِ عشيَّـةً حراجيج تجري في السَّريح الرَّثائـثِ
كـأُدْمِ ظِبَـاءٍ حـولَ مكـةَ عُكَّـفٍ بَرِدْنَ حِياضَ البئـرِ ذات النَّبـائـثِ
لَئِنْ لم يُفيقوا عاجلاً مـن ضلالِهِـمْ ولستُ إذا آليـتُ قـولا بحانـثِ
لتَبْتَـدِرَنْهُـمْ غـارةٌ ذاتُ مَصْـدقِ تحرِّمُ أطهـارَ النّسـاء الطـوامـثِ

[الطويل]

وكانت راية عبيدة أولَ راية عقدها رسولُ الله ﷺ في الإسلام(١).

(١) راجع: المصدر السابق ج١ ص ٥٩١ ـ ٥٩٥.

وبعض العلماء يزعم أنه بعثه حين أقبل من غزوة الأَبْواء قبل أن يصل إلى المدينة، وأنه بعث في مقامه بالمدينة حمزة بن عبد المطلب إلى سِيف البحر من ناحية العِيص في ثلاثين راكباً من المهاجرين، فلَقِيَ أبا جهل بذلك الساحل في ثلاثمائة راكب من أهل مكة، فحجز بينهم مَجْدِيُّ بن عمرو الْجُهَنِيّ، وكان مُوَادِعاً للفريقين.

فانصرف بعضُ القوم عن بعض، ولم يك بينهم قتال.

وبعض الناس يقول: كانت راية حمزة أولَ راية عقدها رسول الله ﷺ لأَحَدٍ من المسلمين، وذلك أنَّ بَعْثَه وبَعْثَ عُبيدة كانا معاً، فَشُبِّه ذلك على الناس.

وقد زعموا أن حمزة قال في ذلك شعراً يذكر فيه أن رايته أول راية عقدها رسول الله ﷺ.

فإن كان حمزة قال ذلك فقد صدق إن شاء الله، لم يكن يقول إلا حقًّا، فالله أعلم أيّ ذلك كان.

فأما ما سمعنا من أهل العلم عندنا: فعبيدة بن الحارث أولُ من عُقِد له.

والشعرُ المنسوب لحمزة رضي الله عنه:

ألا يا لقومي للتحكُّم والجهلِ ... ولِلنَّقْصِ مِنْ رَأْيِ الرجالِ وللعقلِ
ولِلرَّاكبينا بالمظالمِ لم نَطَأْ ... لهم حُرُماتٍ من سَوَامٍ ولا أهلِ
كأنَّا تَبَلْنَاهم ولا تَبْلَ عندنا ... لهم غيرُ أمرٍ بالعفافِ وبالعَدْلِ
وأمرٍ بإسلامٍ فلا يَقْبَلونه ... ويَنْزل منهم مثلَ منزلةِ الهَزْلِ
فما بَرِحوا حتى انتُدبتُ بغارةٍ ... لهم حيث حلُّوا أبتغي راحةَ الفَضْلِ
بأمرِ رسولِ الله أولَ خافقٍ ... عليه لواءٌ لم يكن لاحَ مِن قَبْلِ
لواءٌ لديه النصرُ من ذي كرامةٍ ... إلٰهٍ عزيزٍ فِعْلُه أفضلُ الفِعْلِ
عشيةَ ساروا حاشدين وكلُّنا ... مَرَاجله من غيظِ أصحابِه تَغْلِي
فلَمَّا تَرَاءَيْنا أناخوا فعقَّلوا ... مطايا وعقَّلنا مَدَى غَرَضِ النَّبْلِ
فقلنا لهم حبلُ الإلٰه نصيرُنا ... وليس لكم إلا الضلالة مِن حَبْلِ

فثارَ أبـو جهـل هنـالـك بـاغيًا ‌ ‌ ‌ ‌ فخـاب وردَّ الله كيـدَ أبي جهــل
ومــــا نحن إلا في ثلاثين راكبــاً ‌ ‌ ‌ ‌ وهـم مئتـان بعـد واحـدة فَضْـل
فيـال لُـؤَيٍّ لا تطيعـوا غُـواتكـم ‌ ‌ ‌ ‌ وفِيئوا إلى الإسلام والْمَنْهج السهـل
فـإني أخـاف أن يُصـبَّ عليكــمُ ‌ ‌ ‌ ‌ عذابٌ فتَدْعـوابـالنـدامة والثُّكْل(١)

[الطويل]

ثم غزا رسولُ الله ﷺ في ربيع الأول يريد قريشاً حتى بلغ بُوَاط من ناحية رَضْوَى، ثم رجع إلى المدينة ولم يلقَ كيداً(٢).

ثم غزاهم فسلك على نقب بني دينار ثم على فيفاءِ الخبَار، فنزل تحت شجرة ببطحاءِ ابن أَزْهر، يقال لها: ذات الساق، فصلى عندها، فَثَمَّ مسجده ﷺ، وصُنِع له عندها طعام فأكل منه وأكل الناس معه، فموضع أثافيّ البُرْمة معلوم هنالك، واستقى له من ماء يقال له: المشرب الْمُشْتَرِب.

ثم ارتحل حتى هبط بَلْيَل، ثم سلك فرش مَلَل حتى لقى الطريق بصُخَيْرات اليمام، ثم اعتدل به الطريق حتى نزل العشيرة من بطن يَنْبع، فأقام بها جمادي الأولى وليالي من جمادي الآخرة. ووادَع فيها بني مُدْلج وحلفاءهم من بني ضَمْرة ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيداً(٣).

وبعث [سَرِّية] فيما بين ذلك من غزوة سعد بن أبي وقاص في ثمانية رهطٍ من المهاجرين، فبلغ الخرَّار من أرض الحجاز، ثم رجع ولم يلق كيداً(٤).

ولم يُقم رسول الله ﷺ بالمدينة حين قدم من غزوة العَشيرة إلا ليالي قلائل لا تبلغ العَشْر، حتى أغار كُرْز بن جابر الفِهْري على سَرْح المدينة.

---

(١) المصدر السابق ج١ ص ٥٩٥ ـ ٥٩٨.
(٢) نفسه ج ١ ص ٥٩٨.
(٣) نفسه ج١ ص٥٩٨ ـ ٦٠٠.
(٤) نفسه ج ١ ص ٦٠٠.

فخرج ﷺ في طلبه حتى بلغ وادياً يقال له: سَفْوان من ناحية بدر، وفاته كرزٌ فلم يدركه.

وهي غزوة بدر الأولى.

ثم رجع إلى المدينة(١).

وبعث عبدَ الله بن جحش بن رئاب الأسدي في رجب مَقْفَله من تلك الغزاة، وبعث معه ثمانية رَهْط من المهاجرين، وهم: أبو حُذَيفة بن عُتْبة، وسعد بن أبي وقاص، وعُكاشة بن مِحْصَن، وعُتبة بن غَزوان، وعامر بن ربيعة، وواقد بن عبد الله التميمي، وخالد بن البكير، وسُهيل بن بيضاء. وكتب له كتاباً وأمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين ثم ينظر فيه فيمضي لما أمره به، ولا يستكرِهَ من أصحابه أحداً.

فلما سار عبدُ الله يومين فتح الكتاب فإذا فيه: «إذا نظرتَ في كتابي هذا فامضِ حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف، فترصّد بها قريشاً وتعلم لنا من أخبارهم».

فقال عبدُ الله: سمعاً وطاعة. ثم قال لأصحابه: قد أمرني رسول الله ﷺ أن أمضي إلى نخلة أرصُد فيها قريشاً حتى آتيه منهم بخبَر، وقد نهاني أن أستكره أحداً منكم، فمن كان منكم يريد الشهادة ويَرْغب فيها، فلينطلق، ومن كره ذلك فليرجع، فأمّا أنا فماضٍ لأمر رسول الله ﷺ.

فمضى ومضى معه أصحابه، لم يتخلف عنه منهم أحد، وسلك على الحجاز حتى إذا كان بمعدن فوق الفرُع يقال له: بَحْران أضلّ سعد بن أبي وقاص وعُتبه بن غَزْوان بعيراً لهما كانا يعتقبانه، فتخلفا في طلبه.

ومضى عبدُ الله في بقية أصحابه حتى نزل بنخلة، فمرت به عيرٌ لقريش تحمل زبيباً، وأدَماً، وتجارة من تجارة قريش، فيها عمرو بن الْحَضْرمِيّ وعثمان بن عبد الله بن المغيرة المخزومي وأخوه نوفل، والحكم بن كَيْسان، فلما

(١) المصدر السابق ج١ ص ٦٠١.

٥٤ أ رآهم القوم/ هابوهم ـ وقد نزلوا قريباً منهم ـ فأشرف لهم عكاشة بن محصن، وكان قد حلق رأسه، فلما رأوه أمنوا وقالوا: عُمَّارٌ لا بأس عليكم منهم، وتشاور القوم فيهم، وذلك في آخر يوم من رجب. فقالوا: والله لئن تركتموهم هذه الليلة ليدخُلنَّ الحرم فليمنعنّ منكم به، ولئن قتلتموهم لتقتلُنّهم في الشهر الحرام.

فتردّد القومُ وهابُوا ثم شجعوا أنفسهم وأجمعوا قتلَ من قدروا عليه منهم، وأخذ ما معهم.

فرمَى واقدُ بن عبد الله عمرَو بن الحضْرمي بسهم فقتله، واستأسر عثمان بن عبد الله، والحكم، وأفلت القومَ نوفلٌ فأعجزهم.

وأقبل عبدُ الله بن جحش وأصحابه بالعير والأسيرين حتى قدموا على رسول الله ﷺ المدينة.

وعَزل عبد الله بن جحش لرسول الله ﷺ خُمْس تلك الغنيمة وقسم سائرها بين أصحابه، وذلك قبل أن يفرض الله الْخُمس من المغانم فلما أحلَّ الله الفيء بعد ذلك وأمر بقسمه وفرض الْخُمس فيه، وقع على ما كان عبدُ الله صنع في تلك العير.

فلما قدموا على رسول الله ﷺ قال: ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام. فوقف العيرَ والأسيرين وأبَى أن يأخذ من ذلك شيئاً.

فلما قال ذلك رسول الله ﷺ سُقِطَ في أيدي القوم وظنوا أنهم قد هلكوا، وعنَّفهم إخوانهم من المسلمين فيما صنعوا، وقالت قريش: قد استحلّ محمدٌ وأصحابه الشهر الحرام، وسفكوا فيه الدم وأخذوا فيه الأموال، وأسَروا فيه الرجال!

فقال من يردُّ عليهم من المسلمين ممن كان بمكة: إنما أصابوا ما أصابوا في شعبان. وقالت يهود، تفاءلُ بذلك على رسول الله ﷺ: عمرو بن الْحَضْرمي قتله واقد بن عبد الله: عمرو: عَمِرت[1] الحرب، والحضرمي: حضرت الحرب،

---

(١) في الأصل: «عمر الحرث».

وواقد بن عبد الله: وقدت الحرب. فجعَل الله ـ تباك وتعالى ـ ذلك عليهم لا لهم.

فلما أكثر الناسُ في ذلك، أنزل الله على رسوله: ﴿**يسألونك عن الشهر الحرام قتالٍ فيه. قل قتالٌ فيه كبير وصَد عن سبيل الله وكُفْر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبرُ عند الله**﴾ [البقرة: ٢١٧].

أي إن كنتم قتلتم في الشهر الحرام فقد صدوكم عن سبيل الله مع الكفر به، وعن المسجد الحرام، وإخراجكم منه وأنتم أهله أكبرُ عند الله من قتل من قتلتم منهم، والفتنة أكبر من القتل، أي قد كانوا يفتنون المسلم في دينه حتى يردّوه إلى الكفر بعد إيمانه، فذلك أكبر عند الله من القتل.

فلما نزل القرآن بهذا من الأمر وفرّج الله عن المسلمين ما كانوا فيه من الشَّفق، قَبض رسول الله ﷺ العير والأسيرين، وبعثتْ قريش في فدائهما، فقال رسول الله ﷺ: «لا، حتى يقدَم صاحبانا، يعني سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غَزْوان، فإنا نخشاكم عليهما، فإن تقتلوهما، نقتل صاحبيكم». فقدِم سعدُ وعتبة، فأفْدَى الأسيرين عند ذلك منهم.

فأما الحكَمَ فأسلم فحسن إسلامه، وأقام عند رسول الله ﷺ حتى استشهد يوم بئر مَعُونة، وأما عثمان فلحق بمكة فمات بها كافراً.

فلما تجلّى عن عبد الله بن جحش وأصحابه ما كانوا فيه حين نزل القرآن طمعوا في الأجر، فقالوا: يا رسول الله، أنطمع أن تكون لنا غزوة نعطَى فيها أجرَ المجاهدين؟ فأنزل الله ـ تبارك وتعالى ـ فيهم: ﴿**إنّ الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهَدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله، والله غفور رحيم**﴾ [البقرة: ٢١٨]. فوضعهم الله من ذلك على أعظم الرجاء.

وقال أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ في تلك الغزوة [أبياتاً]، ويقال بل عبد الله بن جحش، قالها حين قالت قريش: قد أحلّ محمدٌ وأصحابه الشهرَ الحرام، فسفكوا فيه الدم وأخذوا المال وأسروا الرجال:

تعــدُّون قَتْلا في الحرام عظيمــــةً		وأعظمُ منه لو يَرى الرشدَ راشدُ
صــدودُكُــم عمّــا يقــول محمدٌ		وكفــرٌ بــه واللهُ راءٍ وشــاهــدُ
وإخراجكمُ من مسجد الله أهْلَـهُ		لئلاّ[1] يُرى في البيتِ لله ساجدُ
فـإنّـا وإن عيّـرْتمونـا بقتلـه		وأرجفَ بـالإسلام بـاغٍ وحـاسـدُ
سَقَينا من ابـن الحضرمـي رمـاحَنـا		بنخلـة لما أوقـد الحربَ واقـدُ
دمـاً وابـنُ عبـدالله عثمان بيننـا		ينـازعـه غُـلٌّ مـن القيـد عاقدُ[2]

[الطويل]

* * *

1) في الأصل: «لأن لا».
(2) المصدر السابق ج1 ص 601 - 606.

غزوة بدر الكبرى

قال ابن إسحاق[1]: ثم إن رسول الله ﷺ سمع بأبي سفيان بن حرب مُقْبلاً من الشام في عير لقريش عظيمة.

فندَب المسلمين إليهم، وقال: هذه عير قريش، فيها أموالهم، فاخرجوا إليها لعلّ الله يُنْفِلكموها.

فانتدب الناس، فخفّ بعضهم وثقل بعضهم، وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله ﷺ يَلقي حَرْبا.

وكان أبو سفيان حين دنا من الحجاز يتجسّسّ الأخبار، ويسأل من لقي من الرُّكبان، تخوّفاً، حتى أصاب من بعضهم خبراً باستنفار رسول الله ﷺ له ولعيره، فحذر عند ذلك، واستأجر ضَمْضَم بن عمرو الغفَاريّ، فبعثه إلى مكة ليُخْبرَ قريشاً بذلك، ويستنفرهم إلى أموالهم.

فخرج ضمضم سريعاً.

وكانت عاتكة بنت عبد المطلب قد رأت قبلَ قدوم ضمضم مكةَ بثلاث رؤيا أفزعتها، فقالت لأخيها العباس: يا أخي، والله لقد رأيتُ الليلة رؤيا لقد أفْظَعتني وتخوَّفتُ أن يدخل على قومك منها شر ومصيبة، فاكتم عني ما أحدّثك.

فقال لها: وما رأيت؟

قالت: رأيت راكباً أقبل على بعير له حتى وقف بالأبْطَح ثم صرخ بأعلى صوته: ألا أنفروا يا لَغدَرٍ لمصارعكم في ثلاث. فأرى الناسَ اجتمعوا إليه، ثم دخل المسجد والناس يتبعونه، فبَيْناهم حوله، مثَل به بعيره على ظهر الكعبة، ثم صرخ بمثلها، ألا أنفروا يالْغَدَرٍ إلى مصارعكم في ثلاث، ثم مثَل به بعيرُه على

(١) المصدر السابق ج١ ص٦٠٦ - ٦٠٧.

رأس أبي قُبَيس فصرخ بمثلها، ثم أخذ صخرة فأرسلها فأقبلت تهوِي، حتى إذا كانت بأسفل الجبل ارفضَّت فما بقي بيت من بيوت مكة ولا دارٌ إلا دخلتْها منها فلقة.

قال العباس: والله إنّ هذه لرؤيا، وأنت فاكتميها ولا تَذْكريها لأحد.

ثم خرج العباس فلقي الوليدَ بن عُتْبة بن ربيعة، وكان له صديقاً، فذكرها له واستكتمه إياها، فذكرها الوليد لأبيه عتبة.

ففشَا الحديثُ حتى تحدثت به قريش.

قال العباس: فغدوتُ لأطوف بالبيت وأبو جهلٍ في رهطٍ من قريش قُعود يتحدثون برؤيا عاتكة.

فلما رآني قال: يا أبا الفضل، إذا فرغتَ من طوافك فأقبلْ إلينا.

٥٤ب فلما فرغتُ أقبلتُ حتى جلست معهم، فقال لي أبو جهل/: يا بني عبد المطلب، متى حدثت فيكم هذه النَّبِيئة؟! قال: قلت: وما ذاك؟ قال: الرؤيا التي رأت عاتكة فقلت: وما رأت؟.

قال: يا بني عبد المطلب، أمَا رضيتم أن يتنبأ رجالكم حتى تتنبأ نساءكم! قال: زعمت عاتكةُ في رؤياها أنه قال: انفروا في ثلاثٍ. فسنتربَّص بكم هذه الثلاث، فإن يك حقًّا ما تقول فسيكون، وإن تمضِ الثلاث ولم يكن من ذلك شيء نكتب عليكم كتاباً أنكم أكذَبُ أهل بيتٍ في العرب.

قال العباس: فوالله ما كان مني إليه كبير، إلا أني جحدتُ ذلك وأنكرت أن تكون رأت شيئاً، ثم تفرقنا.

فلما أمسيتُ لم تبق امرأة من بني عبد المطلب إلا أتتني، فقالت: أقررتم لهذا الفاسق الخبيث أن يقع في رجالكم، ثم قد تناول النساء وأنت تسمع، ثم لم يكن عندك غِيَرة بشيء مما سمعتَ؟ فقلت: قد والله فعلت، وما كان مني إليه من كبير، وايم الله لأتعرضن له فإن عاد لأكفيكُنَّه.

قال: فغدوت في اليوم الثالث من رؤيا عاتكة وأنا حَدِيدٌ مُغْضَبٌ، أرى أنه قد فاتني أمرٌ أُحبُّ أن أدركه منه، فدخلت المسجد فرأيته، وكان رجلاً خفيفاً حديدَ الوجه حديد اللسان حديد النظر، فوالله، إني لأمشي نحوه أتعرّضه ليعود لبعض ما قال، فأقَع به، إذ خرج نحو باب المسجد يشتد، فقلت في نفسي: ماله، لعنه الله؟! أكلَّ هذا فَرَقاً مني أن أُشَاتمه! وإذا هو قد سمع ما لم أسمع، صوتَ ضَمْضم بن عمرو [الغِفاري] وهو يصرخ ببطن الوادي واقفاً على بعيره قد جدَّعه وحوَّلَ رَحْله وشقَّ قميصه وهو يقول: يا معشر قريش، اللطيمةَ اللطيمة، أموالكم مع أبي سفيان قد عرَض لها محمدٌ في أصحابه، لا أرى أن تدركوها، الغوثَ الغوث.

قال: فشغلني عنه، وشغله عني ما جاء من الأمر(١).

فَتَجَهَّز الناس سراعاً وقالوا: أيظن محمد وأصحابه أن تكون كعِير ابن الْحَضْرمي؟! كلاّ والله ليعلمن غير ذلك.

فكانوا بين رجلين، إمَّا خارجٌ وإما باعث مكانَه رجلاً.

وأَوْعَبت قريش فلم يتخلف من أشرافها أحدٌ، إلا أن أبا لهب تخلّف وبعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة. وكانت عليه لأبي لهب أربعة آلاف درهم، فاستأجره بها على أن يُجزيء عنه بَعْثَه.

وأجمع أميةُ بن خلف القعودَ ـ وكان شيخاً جليلاً جسيماً ثقيلاً ـ فأتاه عُقْبة بن أبي مُعَيط وهو جالسٌ في المسجد بين ظهري قومه بمَجْمرة فيها نار ومَجْمَر حتى وضعها بين يديه، ثم قال: يا أبا عليّ، استجمر فإنما أنت من النساء! فقال: قبَّحك الله وقبّح ما جئتَ به. ثم تجهز وخرج مع الناس.

ولما فرغوا من جهازهم وأجمعوا السير ذكروا حَرْباً كانت بينهم وبين بني بكر ابن عبد مناة بن كنانة، وقالوا: إنا نخشى أن يأتونا من خَلْفنا، فكاد ذلك يَثْبتهم، فتبدَّي لهم إبليس في صورة سُراقة بن جُعْشُم الْمُدْلجِيَ، وكان من

(١) المصدر السابق ج١ ص ٦٠٧ ـ ٦٠٩.

أشراف بني كنانة، فقال: أنا لكم جارٌ من أن تأتيكم كنانة من خلفكم بشيء تكرهونه.

فخرجوا سِراعاً.

وخرج رسول الله ﷺ في ليالٍ مضت من شهر رمضان في أصحابه، ودفع اللواءَ إلى مُصْعَب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار، وكان أبيض، وكان أمام رسول الله ﷺ رايتان سوداوان، إحداهما مع علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ والأخرى مع بعض الأنصار، وجعل على الساقة قيسَ بن أبي صَعْصَعة أخا بني مازن بن النجار، وكانت راية الأنصار مع سعد بن معاذ فيما قال ابن هشام.

فسلك رسول الله ﷺ طريقه من المدينة إلى مكة حتى إذا كان قريباً من الصفراء بعث بَسْبَسَ بن عمرو، وعَدِيّ بن أبي الزَّغْبَاء الْجُهَنِيَّيْن إلى بذر يتجسَّسان له الأخبار عن أبي سفيان وغيره.

فمضيا حتى نزلا بدراً، فأناخا إلى تَلّ قريب من الماء، فسمعا جاريتين من جواري الحاضر تتلازمان على الماء، والملزومة تقول لصاحبتها: إنما تَرِدُ العيرُ غداً أو بعده فأعمل لهم ثم أقضيك. فقال مجديّ بن عمرو، وكان على الماء: صدقت، ثم خَلّص بينهما.

فلما سمع بذلك عديّ وبَسْبَس، انطلقا حتى أتيا رسول الله ﷺ فأخبراه.

ثم تقدم أبو سفيان العير حَذِراً حتى ورد الماء، فقال لمجديّ: هل أحسست أحداً؟ قال: لاَ، إلاّ أنّي قد رأيت راكبين أَنَاخَا إلى هذا التلّ، ثم استقيَا في شنٍّ لهما، ثم انطلقا.

فأتي أبو سفيان مناخهما، فأخذ من أبْعَار بعيريهما ففتّه فإذا فيه النَّوَى، فقال: هذه والله علائِف يثرب! فأسرع إلى أصحابه فضرب وجهَ عيره عن الطريق فساحَل بها، وترك بدراً بيساره.

ثم ارتحل رسول الله ﷺ حتى أتى وادياً يقال له: «ذَفِران»، فجزَع فيه، ثم نزل.

وأتاه الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عيرهم، فأخبر الناسَ واستشارهم.

فقام أبو بكر الصديق فقال وأحسن، ثم قام عمر بن الخطاب فقال وأحسن، ثم قام الْمِقْداد بن عمرو فقال: يا رسول الله، امضِ لما أراك الله فنحن معك، والله لا نقول لكَ كما قالت بنو إسرائيل لموسى عليه السلام: «اذهب أنت وربُّك فقاتِلا إنا ها هنا قاعدون»، ولكن اذهب أنت وربك فقاتِلا إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سرتَ بنا إلى بَرْكِ الغِماد لجالَدْنا معك من دونه حتى تَبْلغه. فقال له رسول الله ﷺ خيراً ودَعَا له، ثم قال رسول الله ﷺ: أَشِيرُوا عليَّ. وإنما يريد الأنصارَ، وذلك أنهم عَدَد الناس، وأنهم حين بَايَعُوه بالعقبة قالوا: يا رسول الله، إنا برآء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا، فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمتنا، نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا. فكان رسول الله ﷺ يتخوَّف أن لا تكون الأنصار ترى عليها نَصْره إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم من بلادهم إلى عدُوٍّ، فلما قال ذلك رسول الله ﷺ قال له سعد بن معاذ: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال: أجل، قال: فقد آمنّا بك وصدَّقْناك؛ وشهدْنا أنَّ ما جئتَ به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامضِ يا رسول الله لما أردتَ فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق لو استعرَضْت بنا هذا البحر فخضتَه لخُضْناه معك، ما يتخلف منا رجل واحدٌ، وما نكره أن تلقي بنا عدُوَّنا غداً، إنا لَصُبرٌ في الحرب صُدُقٌ عند اللقاء لعل الله يريك منا ما تقرّبه عينك، فسِرْ بنا على بركة الله.

فسُرَّ رسول الله ﷺ بقول سعد ونشَّطَه ذلك، ثم قال: سيروا وأبشرُوا
فإن الله تبارك وتعالى قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأنّي الآن انظرُ إلى / ٥٥
مصارع القوم.

ثم ارتحِل رسول الله ﷺ من «ذَفران» حتى نزل قريباً من بَدْر فركب هو

ورجل من أصحابه، قيل: هو أبو بكر الصديق، حتى وقف على شيخ من العرب فسأله عن قريش، وعن محمد وأصحابه، وما بلَغه عنهم، فقال الشيخ: لا أخبركما حتى تخبراني ممن أنتما؟ فقال له رسول الله ﷺ: إذا أخبرتنا أخبرناك. قال: أَوَذاك بذاك، قال: نعم، قال الشيخ: فإني بلَغني أن محمداً وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا، فإنْ كان صَدَق الذي أخبرني فهم اليوم بمكان كذا وكذا، للمكان الذي به رسولُ الله ﷺ، وبلغني أن قريشاً خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان صدق الذي أخبرني فهم اليوم بمكان كذا وكذا، للمكان الذي به قريش. فلما فرغ من خبره، قال: ممن أنتما؟ فقال رسول الله ﷺ نحن من ماءٍ. ثم انصرف عنه رسول الله ﷺ.

قال: يقول الشيخ: ما من ماءٍ! أمن ماءِ العراق؟

ثم رجع رسول الله ﷺ إلى أصحابه، فلما أَمْسَى بعث عليَّ بن أبي طالب والزبير بن العوَّام، وسعد بن أبي وقاص في نفرٍ من أصحابه إلى ماء بدر يلتمسون الخبر له عليه، فأصابوا راوية لقُريش فيها غلامان لبعضهم، فأتوا بهما فسألوهما، ورسول الله ﷺ قائم يصلي، فقالا: نحن سُقاةقريش، بعثونا نسقيهم من الماء، فكره القوم خبرهما، ورجَوا أن يكونا لأبي سفيان، فضربوهما، فلما أذْلقوهما قالا: نحن لأبي سفيان، فتركوهما.

وركع رسول الله ﷺ وسجد سجدتيه، ثم سلَّم وقال: إذا صدَقاكم ضربتموهما، وإذا كذباكم تركتموهما! صدقا والله، إنهما لقريش، أَخْبِرَاني عن قريش. فقالا: هم وراء هذا الكَثِيب الذي ترى. قال: كم القوم؟ قالا: كثير. قال: ما عِدَتهم؟ قالا: ما ندري. قال: كم ينْحَرون كلَّ يوم؟ قالا: يوماً تسعاً ويوماً عشراً. قال رسول الله ﷺ: القومُ ما بين التسعمائة والألف.

ثم قال لهما: من فيهم من أشراف قريش؟ قالا: عُتبة بن ربيعة، وشَيْبة بن ربيعة، وأبو البَخْتَريّ بن هشام، وحكيم بن حِزام، ونوفل بن خُويلد، والحارث ابن عامر، وطُعَيْمة بن عَديّ، والنَّضْر بن الحارث، وزَمْعة بن الأسود، وأبو

جهل بن هشام، وأُمية بن خلَف، ونبيه ومُنَبِّه ابنا الحجاج، وسُهَيْل بن عمرو، وعمرو بن عبد وَدّ.

فأقبل رسول الله ﷺ على الناس فقال: هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها!.

وأقبلت قريش، فلما نزلوا الْجُحْفة رأى جهَيْم بن الصَّلْت بن مَخْرِمَة بن المطَّلب بن عبد مناف رؤيا، فقال: إني أرى فيما يرى النائم، وإني لَبين النائم واليقظان، إذ نظرت إلى رجل أقبل على فرس حتى وقف ومعه بعير له، ثم قال: قُتل عُتبة بن ربيعة وشَيبة بن ربيعة، وأبو الْحَكم بن هشام، وأُمية بن خَلَفٍ وفلان وفلان، فعدَّدَ رجالاً ممن قُتل يوم بدرٍ من أشراف قريش، ثم رأيته ضرب في لَبَّة بعيره ثم أرسله في العسكر فما بقي خباء من أخبية العسكر إلا أصابه نَضحٌ من دمه.

فبلغت أبا جهل فقال: وهذا ـ أيضاً ـ نبي آخر من بني المطلب! سيعلم غداً من المقتول إنْ نحن التقينا.

قال(1): ولما رأى أبو سفيان أنه قد أحرز عيره أرسل إلى قريش: إنكم خرجتم لتمنعوا عِيركم ورجالكم وأموالكم فقد نجَّاها الله، فارجعوا

قال أبو جهل: والله لا نرجع حتى نرد بدْراً ،وكان موسماً للعرب لهم به سوق كل عام، فنقيم عليه ثلاثاً، فننحر الجزُر، ونطعم الطعام، ونسقي الخمر، وتْعزِفَ علينا القِيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجَمْعنا، فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها، فامضوا.

وقال الأخنس بن شَرِيق الثَّقفي: يا بني زُهْرة، وكان حليفاً لهم: قد نجّي الله أموالكم وخلَّصَ لكم صاحبكم مَخْرمة بن نوفل، وإنما نفَرْتم لتمنعوه ومالَه، فاجعلوا بي جُنْبها وارجعوا، فإنه لا حاجة لكم بأن تخرجوا في غير ضَيْعةٍ، لا ما يقول هذا.

---

(1) المصدر السابق ج1 ص 618.

فرجعوا فلم يشهدها زُهْرّي واحدٌ، أطاعوه وكان فيهم مطاعاً.

ولم يكن بقي من قريش بطن إلا وقد نفرَ منهم ناس إلا بنو عَديّ بن كعب، لم يخرج منهم رجل واحد، فرجعت بنو زهرة مع الأخْنَس، فلم يشهد بدراً من هذين القبيلين أحد.

وكان بين طالب بن أبي طالب وكان في القوم، وبين بعض قريش محاورة، فقالوا: والله لقد عرفنا يا بني هاشم وإن خرجتم معنا أنَّ هَوَاكم لمع محمد. فرجع طالب إلى مكة مع من رجع، وقال:

لاَ هُمَّ إمَّا يغزُوَنَّ طالب ... في عُصْبَةٍ مخالفاً[1] محاربْ

في مِقْنَب من هذه المقانب ... فليكن المسلوب غير السالب

وليكن المغلوب غيرَ الغالب

[السريع]

ومضت قريش حتى نزلوا بالعُدْوة القصوى من الوادي خلف العقَنْقَل والقُلُب ببدرٍ في العدوة الدنيا إلى المدينة.

وبعث الله ـ عزَّ وجل ـ السماء، وكان الوادي دَهْساً، فأصاب رسول الله ﷺ وأصحابه منها ما لبَّدَ لهم الأرض ولم يمنعهم من المسِير، وأصاب قريشاً منها ما لم يقدروا علي أن يرتحلوا معه.

فخرج رسول الله ﷺ يبادرهم إلى الماء، حتى إذا جاءوا أدنى ماءٍ من بدر نزلوا به.

فذكروا أنَّ الْحُبَاب بن المنذِر بن الْجَمُوح الأنصاري قال: يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل، أَمَنزِلٌ أَنْزَلَكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخَّر عنه؟ أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟

فقال: بل هو الرأي والحرب والمكيدة. قال: يا رسول الله، فإن هذا ليس بمنزل، فانهض بنا حتى نأتي أدنى ماءٍ من القوم فننزله ثم نغُوِّر ما وراءه من القُلُب، ثم نبني عليه حوضاً فنملأه ماءً ثم نقاتل القومَ، فنشرب ولا يشربون.

1) في الأصل: «مخالف».

فقال رسول الله ﷺ : لقد أشرتَ بالرأي . فنهض رسول الله ﷺ ومن معه من الناس، فساروا حتى إذا أتي أدنى ماء إلى القوم نزل عليه، ثم أمر بالقُلُب فغوِّرت وبني حوضاً على القَلِيب الذي نزل عليه فملىء ماءً ثم قذفوا فيه الآنية.

وقال سعد بن معاذ : يانبي الله، ألا نَبْني لك عريشاً تكون فيه، ونُعدَّ عندك ركائبك، ثم نلَقي عدوّنا، فإن أعزنا الله وأظهرَنا على عدوّنا، كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى جلستَ على ركائبك فلحقت بمن وراءنا من قومنا، فقد تخلَّف عنك أقوام يا نبي الله ما نحن/ بأشد حبًّا لك منهم، ولو ظنُّوا أنَّك تَلْقى ٥٥ ب
حرباً ما تخلفوا عنك، يمنعك الله ـ عز وجل ـ بهم يناصحونك ويجاهدون معك.

فأثني رسول الله ﷺ عليه خيراً ودعا له بخير، ثم بني لرسول الله ﷺ عريش فكان فيه.

وارتحلت قريش حين أصبحت فأقبلت، فلما رآها رسول الله ﷺ تصوَّب من الكَثِيب الذي جاءوا منه، قال: اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تُحادّك وتكذِّب رسولك، اللهم فنصرَك الذي وعدتني به، اللهم أحِنهم الغَداة.

وقد كان خُفاف بن أيماء بن رَحْضة الغِفَاريّ أو أبوه بعث إلى قريش حين مرّوا به ابناً له بجزائر أهداها لهم، وقال: إن أحببتم أن نُمدكم بسلاح ورجال فعلنا. فأجابوه: أن وصلَتْك رَحِمٌ، قد قضيتَ الذي عليك، فلعمري لئن كنا إنما نقاتل الناسَ ما بنا ضَعف عنهم، ولئن كنا إنما نقاتل الله كما يزعم محمد ما لأحدٍ بالله من طاقة!

فلما نزل الناس أقبل نفر من قريش فيهم حَكيم بن حزام حتى وردوا حوضَ رسول الله ﷺ، فقال: دَعُوهم. فما شرب منه يومئذٍ رجل إلا قتل، إلا ما كان من حَكيم بن حزام فإنه لم يقتل، ثم أسلم بعد فحُسن إسلامه، فكان إذا اجتهد في يمينه قال: لا، والذي نجّاني من يوم بدر.

ولما اطمأنّ القومُ بعثوا عُمَير بن وهب الْجَمحي فقالوا: احزِر لنا أصحابَ محمد. فدار بفرسه حول العسكر ثم رجع إليهم، فقال: ثلاثمائة رجل يزيدون

قليلاً أو ينقصونه، ولكن أمهلوني حتى أنظر أللقوم كمينٌ أو مَدَدٌ،وضرب في الوادي حتى أبعدَ فلم ير شيئاً، فرجع إليهم فقال: ما رأيت شيئاً، ولكن قد رأيت يا معشر قريش البلايا تحمل المنايا، نواضح يثرب تحمل الموتَ الناقع، قومٌ ليس لهم منَعة ولا ملجأ إلا سيوفهم، والله ما أرى أن يُقتل رَجلٌ منهم حتى يَقْتلَ رجلاً منكم، فإذا أصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك، فرَوْا رأيكم.

فلما سمع حكيم بن حزام ذلك مشى في الناس فأتى عُتبةَ بن ربيعة فقال: يا أبا الوليد، إنك كبير قريش وسيدها والمطاع فيها، هل لك إلى أن لا تزال تُذكر منها بخير إلى آخر الدهر، قال: وما ذلك يا حكيم؟ قال: ترجع بالناس، وتحمل أمر حليفك عمرو بن الْحَضْرميِّ. قال: قد فعلتُ، أنت عليَّ بذلك إنما هو حليفي فعلي عقله وما أصيب من ماله، فأتِ ابنَ الْحَنْظلية ـ يعني أبا جهل ـ فإني لا أخشى أن يَشْجر أمرَ الناس غيرُه.

ثم قام عتبة خطيباً فقال:

يا معشر قريش، إنكم والله ما تصنعون بأن تلقَوا محمداً وأصحابه شيئاً، والله لئن أصبتموه لا يزال رجل ينظر في وجه رجل يكره النظر إليه، قَتل ابن عمه أو ابن خاله أو رجلاً من عشيرته، فارجعوا وخلّوا بين محمد وبين سائر العرب، فإن أصابوه فذلك الذي أردتم، وإن كان غير ذلك ألفاكم، ولم تعرَّضوا منه ما تريدون.

وقد كان رسول الله ﷺ رأى عتبة في القوم على جمل له أحمر فقال: إن يك عند أحد من القوم خير فعند صاحب الجمل الأحمر، إن يطيعوه يرشُدوا.

قال حكيم: فانطلقت حتى جئت أبا جهل فوجدته قد نَثل درعاً له من جرابها فهو يَهيئها، فقلت له: يا أبا الحكم، إن عُتبة أرسلني إليك بكذا وكذا، للذي قال. فقال: انتفخ والله سَحْرُه حين رأي محمداً وأصحابه، كلاً والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمدٍ وما بعُتْبَة ما قال، ولكنه قد رأى أن محمداً وأصحابه أكَلة جَزُور وفيهم ابنه، فقد تخوّفكم عليه.

ثم بعث إلى عامر بن الْحَضْرِميّ، فقال: هذا حليفك يريد أن يرجع بالناس، وقد رأيتَ ثأرك بعينيك، فقم فانشُد خُفْرتك، ومقتل أخيك.

فقام عامر بن الحضرميّ فاكتشفَ ثم صرخ: واعَمْراه، واعمراه! فحَمِيَت الحربُ وحَقب أمرُ الناس واستوسَقوا علي ما هم عليه من الشر وأفسد على الناس الرأي الذي دعاهم إليه عتبة.

فلما بلغ عتبة قولُ أبي جهل: انتفخ والله سَحْره، قال: سيعلم مُصفِّر اسْتِه من انتفخ سحره أنا أم هو؟!

ثم التمس عتبةُ بيضةً ليدخلها في رأسه فما وجد في الجيش بيضةً تَسَعُه من عِظَم هامته، فلما رأى ذلك اعتَجر على رأسه بُبردٍ له.

وخرج الأسود بن عبد الأسد المخزوميّ وكان رجلاً شرساً سيِّءَ الْخُلُق، فقال: أعاهد اللَّهَ لأَشرَبنَّ من حوضهم أوَ لأهدمنَّه أو لأموتنَّ دُونه.

فخرج إليه حمزة بن عبد المطلب فَضَربه فأَطَنَّ قدمه بنصف ساقه وهو دون الحوض، فوقع على ظهره تشْخُب رجله دماً، ثم حَبَا إلى الحوض حتى اقتحم فيه يُريد. زعم أن يبرَّ يمينه، وأتْبعه حمزةَ فضربه حتى قتله في الحوض.

ثم خرج بعده عُتبة بن ربيعة بين أخيه شيبة وابنه الوليد بن عتبة حتى إذا نَصَل من الصف دعا إلى المبارزة، فخرج إليه فتية من الأنصار ثلاثة، وهم: عوف ومُعوِّذ ابنا الحارث وأمهما عَفْراء، وعبدالله بن روَاحة. فقالوا: من أنتم؟ قالوا: رهط من الأنصار. قالوا: ما لنا بكم من حاجة، ثم نادى مناديهم: يا محمد، أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا. فقال رسول الله ﷺ: قم يا عبيدة بن الحارث، وقم يا حمزة وقم يا عليّ. فلما قاموا ودنَوا منهم، قالوا: من أنتم، فقال عبيدة: عبيدة، وقال حمزة: حمزة، وقال علي: علي. قالوا: نعم، أَكفاء كرام.

فبارز عبيدةُ، وكان أَسَنَّ القوم، عتبةَ، وبارز حمزةُ شَيْبة، وبارز عليٌّ الوليدَ. فأَمَّـا حمزةُ فلم يُمْهل شيبة أنْ قتله. وأما عليٌّ فلم يمهل الوليدَ أن قتله،

واختلف عبيدةُ وعتبة بينهما ضربتين كلاهما أثبتَ صاحبه، وكرَّ حمزةُ وعليٌّ بأسيافهما على عتبة فذفَّفا عليه، واحتملا صاحبهما فحازاه إلى أصحابه.

وذكر ابن عُقْبة، أنه لما طلب القومُ المبارزةَ فقام إليهم ثلاثة نفر من الأنصار، استحيا النبيّ ﷺ من ذلك لأنه كان أولَ قتالٍ التقي فيه المسلمون والمشركون ورسول الله ﷺ شاهد معهم، فأحبَّ النبي ﷺ أن تكون الشوكة ببني عمِّهِ، فناداهم أن ارجعوا إلى مَصَافِّكم، وليقم إليهم بنو عمهم. فعند ذلك قام حمزة وعليّ وعُبَيْدة.

ثم تزاحف الناسُ وَدَنَا بعضهم من بعض، وأمَرَ رسولُ الله ﷺ أصحابَه أن لا يَحْملوا حتى يأمرهم، وقال: إن أكتنَفكم القومُ فانضحوهم عنكم بالنَّبْل.

٥٦ أ ورسول الله ﷺ في العريش معه أبو بكر الصدّيق، وكان شعار/ أصحاب رسول الله ﷺ: أَحَدٌ، أَحَدٌ.

وعَدَّلَ رسول الله ﷺ ـ يومئذٍ ـ صفوف أصحابه وفي يده قِدْحٌ يعدل به القوم، فمر بسواد بن غزية ـ حليف بني عدي بن النجار ـ وهو مستنتل من الصف ـ أي بارز ـ فطعن في بطنه بالقِدْح وقال: اسْتَوِيا سواد. فقال: يا رسول الله أَوْجَعْتني، وقد بعثك الله بالحق والعدل فأقِدْني. فكشف رسول الله ﷺ عن بطنه وقال: استَقِدْ، فاعتنقه فقبَّل بطنه، فقال له: ما حملك على هذا يا سواد؟ قال: يا رسول الله، حضَر ما ترى، فأردت أن يكون آخرُ العهد بك أن يَمَسَّ جلدي جلدَك، فدعا له بخير، وقاله له.

ثم عدّل رسول الله ﷺ الصفوف ورجع إلى العريش، فدخله ومعه فيه أبو بكر، ليس معه فيه غيره، ورسول الله ﷺ يناشد ربَّه ما وعده من النَّصْرِ ويقول فيما يقول: اللهم إن تَهْلك هذه العصابةُ اليومَ لا تُعبد. وأبو بكر يقول: يا نبيَّ الله، بعضَ مناشدتك ربّك، فإن الله منجزٌ لك ما وعدك.

وخفق رسول الله ﷺ خفقةً وهو في العريش، ثم انتبه فقال: أبشر يا أبا

بكر، أتاك نصرُ الله! هذا جبريل آخذاً بعِنَان فرسه يقوده على ثناياه النّقْع. يريد الغبار.

ورُمي مِهْجَعٌ مولى عمر بن الخطاب بسهم فقتله، فكان أوّلَ قتيل من المسلمين.

ثم رُمي حارثةُ بن سُراقَةَ - أَحَدُ بني عديٍّ بن النجار - وهو يشرب من الحوض بسهم فأصاب نحره فقتله.

ثم خرج رسول الله ﷺ إلى الناس فحرَّضَهم، ثم قال: والذي نفسُ محمد بيده لا يقاتلهم اليومَ رجلٌ فيقتَل صابِراً محتسباً مُقْبلاً غير مُدْبر إلا أدخله الله الجنة.

فقال عُمَير بن الحِمَام، أخو بني سلمة وفي يده تمرات يأكلهنّ: بَخٍ بخٍ! أفما بيني وبين أن أَدْخُلَ الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء! ثم قذف التمرات من يده وأخذ سيفه فقاتل حتى قُتل.

وقال - يومئذٍ - عوف بن الحارث وهو ابن عَفْراء: يا رسول الله، ما يُضحك الرَّب من عبده؟ فقال: غَمْسه يَدَه في العدو حاسراً! فنزعَ درعاً كانت عليه فقذفها ثم أخذ سيفه فقاتل القومَ حتى قُتل.

وقاتل عُكاشة بن مِحْصَن الأسدي حليف بني عبد شمس يوم بدرٍ بسيفه حتى انقطع في يده، فأتى رسولَ الله ﷺ فأعطاه جِذْلاً من حطبٍ، فقال: قاتِلْ بهذا يا عُكّاشة، فلما أخذه هزّه فعاد في يده سيفاً طويل القامة شديد المتن أبيضَ الحديدة، فقاتل به حتى فتح الله على المسلمين، وكان ذلك السيف يُسمَّى العون، ثم لم يزل عنده يشهد به المشاهد مع رسول الله ﷺ حتى قُتل في الرِّدة وهو عنده، قتله طليحة الأسَدي.

ثم إن رسول الله ﷺ أخذ حفنة من الحصباء فاستقبل بها قريشاً ثم قال: شاهت الوجوه، ثم نفَحهم بها، ثم أمر أصحابه فقال: شُدُّوا، فكانت الهزيمة [عليهم].

وجعل الله تلك الحصباء عظيماً شأنها، لم تترك من المشركين رجلاً إلا ملأت عينيه.

واستولى عليهم المسلمون معهم الله وملائكته يقتلونهم ويأسرونهم ويجدون النفر كل رجل منهم مُنْكَبٌّ علَى وجهه لا يدري أين يتوجه، يعالج التراب ينزعه من عينيه.

فقتل الله من قتل من صناديد قريش، وأسَر من أسر من أشرافهم.

فلما وضع القوم أيديهم يأسرون وسعد بن معاذ قائم على باب العريش الذي فيه رسول الله ﷺ متوشِّح السيف في نفر من الأنصار يحرسُون رسول الله ﷺ خوفَ كَرَّةِ العدوّ عليه، رأى رسولُ الله ﷺ في وجه سعد الكراهِيةَ لما يصنع الناسُ، فقال له: لكأنك والله يا سعد تكره ما يَصنع القوم؟ فقال: أجل والله يا رسول الله، كانت أولَ وقعة أوقعها الله بأهل الشرك، فكان الإثخان في القتل أحبَّ إليَّ من استقبال الرجال.

وقال رسول الله ﷺ يومئذٍ لأصحابه: إنِّي قد عرفت أن رجالاً من بني هاشم وغيرهم أُخرجوا كُرْهاً، لا حاجة لهم بقتالنا، فمن لقي منكم أحداً من بني هاشم فلا يقتله، ومن لقي أبا البَخْتَريّ بن هشام فلا يقتله، ومن لقي العباس عمَّ رسول الله فلا يقتله، فإنه إنما خرج مستكرَهاً. فقال أبو حذيفة: أَنَقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وعشيرتنا ونترك العباس! والله لئن وجدته لأُلْحِمَنَّه السيفَ. فبلغت رسول الله ﷺ فقال لعمر بن الخطاب: يا أبا حفص. قال عمر: والله، إنه لأول يوم كَنَّاني فيه رسولُ الله ﷺ بأبي حفص. أَيُضْرَبُ وجه عم رسول الله ﷺ بالسيف؟ فقال عمر: يا رسول الله، دَعْني فلأضرب عنقه بالسيف، فوالله لقد نافَق.

فكان أبو حذيفة يقول: ما أنا بآمنٍ من تلك الكلمة التي قلت يومئذٍ ولا أزال منها خائفاً إلا أن تكفِّرها عني الشهادة، فَقُتل يومَ اليمامة شهيداً رحمه الله.

وإنما نَهى رسول الله ﷺ عن قتل أبي البَخْتَرِيّ لأنه كان أكفَّ القوم عنه

بمكة، وكان لا يؤذيه ولا يبلغُه عنه شيء يكرهه، وكان ممن قام في نقض الصحيفة التي كَتبت قريش على بني هاشم وبني المطلب.

فلقيه المجذَّر بن زِياد البَلوِيّ حليف الأنصار - يوم بدر - فقال له: إن رسول الله ﷺ قد نهانا عن قتلك، ومع أبي البختري زميل له خرج معه من مكة، قال: وزميلي؟ قال المجذّر: لا والله ما نحن بتاركي زميلك، ما أمرنا رسول الله ﷺ إلا بك وحدك.

قال: إذاً والله لأموتن أنا وهو جميعاً، لا تحدّث عني نساء مكة إنّي تركت زميلي حرصاً على الحياة، وقال يرتجز:

لن يُسْلِم ابنُ حُرَّةٍ زميلَه حتى يموت أو يرى سبيلَه

ثم اقتتلا فقتله المجذّر، ثم أتى رسول الله ﷺ فقال: والذي بعثك بالحق لقد جَهدْت عليه أن يستأسِر فآتيك به فأبَى إلا أن يقاتلني، فقاتلتُه فقتلته.

هذا الذي ذكر ابن إسحاق في قتل أبي البختري(١).

وقال موسى بن عُقْبة: يزعم ناس أن أبا اليُسْر قتل أبا البختري ويأبى أعظم الناس إلا أن المجذر هو الذي قتله.

ثم أضربَ ابنُ عقبة عن القولين، وقال: بل قتَله - غيرَ شكّ - أبو داود المازني وسلَبه سيفه فكان عند بنيه حتى باعه بعضهم من بعض/ بني أبي البختري. ٥٦ ب

وكان المجذّر قد ناشَده أن يستأسر، وأخبره بنهي رسول الله ﷺ عن قتله، فأبى أبو البختري أن يستأسر وشدَّ عليه المجذر بالسيف وطعنه الأنصاريُّ، يعني أبا داود المازني، بين ثدييه فأجهز عليه فقتله.

ويومئذٍ قال المجذّر فيما ذكروا:

إمّا جَهلتَ أو نسيتَ نَسبي فأثْبت النسبةَ أنّي من بَلِي
الطّاعنين برماح اليزَنى والضاربين الكبشَ حتى ينحنِي

---

(١) المصدر السابق ج١ ص ٦٢٩ - ٦٣٠.

بَشِّرْ بيُتْمِ مَنْ أبوه البَخْتَرِي أو بَشِّرَنْ بِمِثْلِهَا مِنِّي بَني
أنا الذي يُقَال أَصْلِي مِن بَلِي أطعن بالصَّعْدَة حتى تنثني
وأعْبط القِرْن بعَضْب مَشْرَفي أَرْزِم للموت كإرزام الْمَرِي
فلا ترى مُجذَّراً يَفْري فَري

[الرجز]

وقال عبد الرحمن بن عوف[1] رضي الله عنه: كان أمية بن خلف لي صديقاً بمكة، وكان اسمي عبد عمرو، فلما أسلمتُ تسمَّيت عبدَ الرحمن، فكان يلقاني فيقول: يا عبدعمرو، أرَغبْتَ عن اسمٍ سمَّاكه أبوك؟ فأقول نعم. فيقول: فإني لا أعرف الرحمن، فاجعل بيني وبينك شيئاً أدعوك به، أمّا أنت فلا تجيبني باسمك الأول، وأما أنا فلا أدعوك بما لا أعرف. فقلت له: يا أبا عليّ، اجعل ما شئتَ. قال: فأنت عبد الإله. فقلت: نعم.

حتى إذا كان يوم بدر مررت به وهو واقفٌ مع ابنه علي آخذٌ بيده ومعي أدراع لي قد استلَبْتها فأنا أحملها، فلما رآني قال: يا عبد عمرو. فلم أجبه فقال: يا عبد الإله. فقلت: نعم. قال: هل لك فيَّ فأنا خيرٌ لك من هذه الأدراع؟ قلت: نعم.

فطرحتُ الأدراعَ من يدي وأخذت بيده ويد ابنه، وهو يقول: ما رأيتُ كاليوم قط! أما لكم حاجة في اللبن؟ يريد الفِدَاء.

وقال عبد الرحمن: قال لي أمية وأنا بينه وبين ابنه آخذ بأيديهما: مَن الرجُل منكم المعَلَّم بريشة نعامة في صدره؟ قلت: ذلك حمزة بن عبد المطلب. قال: ذلك الذي فعل بنا الأفاعيل.

قال عبد الرحمن: فوالله، إني لأقودهما إذ رآه بلال، وكان هو الذي يعذّبه بمكة على تَرْك الإسلام، فيخرجه إلى رَمْضَاءِ مكة إذا حَمِيت فيضجعه على ظهره ثم يأمر بالصَّخْرة العظيمة فتوضع على صدره ثم يقول: لا تزال هكذا أو

(١) المصدر السابق ج١ ص٦٣١.

تفارق دين محمد. فيقول بلال: أَحَدٌ أَحَدٌ. فلما رآه قال: رأسُ الكفر أُمَيَّة بن خلف، لا نجوتُ إن نجوتَ، قال: قلتَ أيْ بلال أبأسيريّ؟!

قال: لا نجوتُ إن نجا. قلت: أتسمع يا ابن السوداء؟ قال: لا نجوتُ إن نجا. ثم صرخ بأعلى صوته: يا أنصار الله، رأس الكفر أمية بن خلف، لا نجوتُ إن نجا.

فأحاطوا بنا حتَّى جعلونا في مثل المُسْكة، وأنا أذبُّ عنه، فأخلَف رجلٌ السيفَ فضرب رِجل ابنه فوقع، وصاح أمية صيحةً ما سمعت مثلها قط، فقلت: انجُ بنفسك، ولا نجاء به، فوالله ما أغني عنك شيئاً، فهبَروهما بأسيافهم حتى فرغوا منهما، فكان عبد الرحمن يقول: رحم الله بلالاً، ذهَبتْ أدْراعي وفجعَني بأسِيرَيَّ.

وقاتلت الملائكة يوم بدر. قال ابن عباس: ولم تقاتل في يوم سواه، وكانوا يكونون فيما سواه من الأيام عَـدَداً ومَـدَداً لا يضربون، وكانت سِيماهم يوم بدر عمائمَ بيضاء، قد أرسلوها في ظهورهم، ويوم حُنَيْن عمائم حُمراً.

وذكر ابن هشام عن عليٍّ - رضي الله عنه - في سيماهم يوم بدرٍ مثلَ ما قال ابن عباس، إلا جبريل، فإن في حديث عليٍّ أنَّه كانت عليه عمامة صفراء.

وقال ابنِ عباسٍ[1]: حدثني رجل من غفَارٍ قال: أقبلتُ أنا وابن عمٍّ لي حتى أصْعَدنا في جبلٍ يشرف بنا على بَدْر، ونحن مشركان، ننتظر لمن تكون الدبرة فننتهب مع من ينتهب؛ فبينا نحن في الجبل إذ دَنَتْ منا سحابة فسمعنا فيها حَمْحَمَةَ الْخَيْل، فسمعت قائلاً يقول: أَقْدِم حَيْزومُ. فأمَّا ابن عمِّي فانكشف قِناعُ قلبه فمات مكانه، وأمَّا أنا فكدْتُ أهلك ثم تماسَكْتُ.

وقال أبو أُسَيْد الساعِدِيّ[2] بعد أن ذهب بصره، وكان شَهِدَ بدراً: لو كنت

---

(١) المصدر السابق ج١ ص ٦٣٣.

(٢) نفسه.

اليوم ببدرٍ ومعي بَصَرِي لأريتكم الشِّعب الذي خرجت منه الملائكة، لا أشكّ ولا أتمارى.

وقال أبو داود المازني(١): إني لأتبع رجُلاً من المشركين يوم بدرٍ لأضربه إذ وقع رأسه قبل أن يصل إليه سيفي، فعرفت أنه قد قتله غيري.

فلما فرغ رسول الله ﷺ من عدوه أمر بأبي جهل أن يُلتمس في القتلى، وقال لهم: انظروا إن خَفِيَ عليكم في القتلى إلى أَثَرِ جُرح في ركبته، فإني ازدحمتُ يوماً أنا وهو على مأدبةٍ لعبدالله بن جُدْعانٍ ونحن غلامان وكنت أشفَّ منه بيسير، فدفعته فوقع على ركبتيه فجحشت في إحداهما جحشاً لم يزل أثره به.

وكان من حديث عدوّ الله يوم بدرٍ أنه لما التقى الناس ودنا بعضهم من بعض قال: اللهم أَقْطعنا للرَّحم وآتانا بما لا نعْرف فأحِنْه الغداةَ. فكان هو المستفتِح، وأقبل يرتجز وهو يقول:

ما تَنْقِم الحربُ العَوَانُ منِّي ... بازلُ عامين حديثٌ سِنِّي

لمثل هذا ولدتْني أُمي

[السريع]

وكان أوَّل من لقيه فيما ذكر مُعاذ بن عمرو بن الجموح أخو بني سلمَة، قال: سمِعتُ القوم وأبو جهل في مثل الْحَرَجةِ يقولون: أبو الحكم لا يُخلصنَّ إليه.

فلما سمعتها جعلتُه من شأني، فصمَدْتُ نحوه، فلما أمكنني حملت عليه فضربته ضربةً أَطَنَّتْ قدمه بنصف ساقه، فضربني ابنه عكرمة على عاتقي فطرحَ يدي فتَعَلَّقَتْ بجلدةٍ مِنْ جنبي، وأجهَضني القتال عنه، فلقد قاتلتُ عامةَ يومي وإني لأسحبها خلفي، فلما آذتني وضعت عليها قدمي ثم تمطّيتُ بها عليها حتى طرحتها وعاش بعد ذلك معاذٌ هذا ـ رحمه الله ـ إلى زمان عثمان رضي الله عنه.

ثم مرَّ بأبي جهلٍ، وهو عَقِير، معوَّذُ بن عَفْراء فضربه حتى أثبته فتركه وبه رمَق، وقاتل معوَّذ حتى قتل.

---

(١) المصدر السابق.

فمرَّ عبدُ الله بن مسعود بأبي جهل حين أَمَر رسول الله ﷺ بالتماسه في القتلى. قال عبد الله: وقد كان ضَبَثَ بي مرةً بمكة فآذاني ولكزَني، فوجدته بآخرِ رَمَق فعرفْتُه فوضعت رجلي على عنقه ثم قلت له: أخزاك الله يا عدوَّ الله! قال: وبماذا أخزاني؟ أَعْمَدُ من رجل قتلتموه[1]، أخبرني لمن الدائرة اليوم؟ قلت: لله ولرسوله.

ثم احتززت رأسه، ثم جئت به رسولَ الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله هذا رأس عدو الله أبي جهل. فقال: آلله الذي لا إله غيره؟ وكانت يمينَ رسول الله ﷺ، قلت: نعم، والله الذي لا إله غيره. ثم ألقيت رأسه بين يديه، فحمِد الله.

وخرّج مسلم في صحيحه عن عبد الرحمن بن عوف، قال: بينا أنا واقف في الصف يوم بدرٍ/أنظرتُ عن يميني وشمالي، فإذا أنا بَيْن غلامين من الأنصار حديثةٍ ٥٧ أ
أَسنانهما، فتمنَّيْتُ لو كنت بين أضلَعَ منهما فغمزني أحدهما، فقال: يا عم، هل تعرف أبا جهل؟ قلت: نعم وما حاجتك إليه يا ابن أخي؟ قال: أُخْبرت أنه يسُبُّ رسولَ الله ﷺ، والذي نفسي بيده لئن رأيته لا يفارق سَوادي سواده حتى يَمُوت الأعْجلُ منَّا. قال: فتعجبت لذلك، فغمزني الآخر فقال مثلها.

قال: فلم أنشب أن نظرت إلى أبي جهل يَجُول في الناس، فقلت: ألا تريان؟ هذا صاحبكما الذي تسألان عنه.

فابتدراه، فضرباه بسيفيهما حتى قتلاه، ثم انصرفا إلى رسول الله ﷺ فأخبراه، فقال: أيكما قتلَه؟ فقال كل واحدٍ منهما: أنا قتلته. فقال: هل مسَحتُما سيفيكما؟ قالا: لا، فنظر في السيفين، فقال: كِلاَكما قتله. وقضى بسَلَبه لمعاذ بن عمرو بن الجموح. والرجلان: معاذ بن عمرو بن الْجَمُوح، ومعاذ بن عفراء.

وذكر ابن عُقْبة أن رسول الله ﷺ وقف يوم بدر على القتلى، فالتمس أبا جهل فلم يجده، حتى عُرِف ذلك في وجه رسول الله ﷺ فقال: اللهم لا يُعجزَنَّ فرعونُ هذه الأمّة.

---

(١) في: الذهبي. تاريخ الإسلام. المغازي ص ٦٢: «وهل فوق رجل قتلتموه».

فسعى له الرجال حتى وجده عبد الله بن مسعود مصروعاً، بينه وبين المعركة غير كبير، مقنّعاً في الحديد واضعاً سيفه على فخذيه، ليس به جرح ولا يستطيع أن يحرّك منه عضواً، وهو مكِبّ ينظر إلى الأرض، فلما رآه ابن مسعود طاف حوله ليقتله وهو خائف أن ينوء إليه، فلما دنا منه وأبصره لا يتحرك ظنّ أنه مثبت جراحاً، فأراد أن يضربه بسيفه، فخاف أن لا يغني شيئاً فأتاه من ورائه، فتناول قائمَ سيف أبي جهل فاستلّه وهو مكبٌّ لا يتحرك، ثم رفع سابغة البَيْضة عن قفاه، فضربه فوقع رأسه بين يديه، ثم سلبَه، فلما نظر إليه إذا هو ليس به جراح وأبصر في عنقه حَدْراً وفي يديه وكتفه مثل آثار السياط.

فأتى ابنُ مسعود النبيَّ ﷺ فأخبره بقتله، والذي رأى به، فقال النبي ﷺ، زعموا: ذلك ضرب الملائكة.

وأمر رسول الله ﷺ بالقتلى أن يُطْرَحوا في القَلِيب فطرحوا فيه إلا ما كان من أُميَّة بن خلف، فإنه انتفخ في درعه فملأها، فذهبوا ليحركوه فتزايل، فأقروه وألقوا عليه ما غيَّبه من التراب والحجارة.

ويقال: إنهم لما أُلقوا في القَليب وقف عليهم رسول الله ﷺ فقال: يا أهل القليب، بئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم، كذَّبتموني وصدَّقني الناس، وأخرجتموني وآواني الناس، وقاتلتموني ونصرَني الناس. يا أهل القليب، هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقًّا، فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقًّا.

فقال له أصحابه: يا رسول الله، أتكلم قوماً موتى؟

فقال لهم: لقد علموا أن ما وعدهم ربهم حق.

قالت عائشة: والناس يقولون: لقد سمعوا ما قلت لهم، وإنما قال رسول الله ﷺ: لقد عَلِموا.

وفي حديث أنس أن المسلمين قالوا لرسول الله ﷺ حين نادى أصحاب القَليب: يا رسول الله، أتنادي قوماً قد جيَّفوا. فقال: ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنَّهم لا يستطيعون أن يجيبوني.

وذكر ابن عقبة نحواً من ذلك عن نافع عن عبد الله بن عمر.

وقال حسَّان بن ثابت (١):

عـرفـت ديارَ زينبَ بـالكَثِيـب ... كخـط الوَحْـي في الورق القَشيـبِ
تَـداولها الريـاح وكـلُّ جَـوْنٍ ... مـن الوَسْمـيِّ مُنْهمـرٍ سَكُـوبِ
فـأمسَى رَسْمها خَلَقاً وأمست ... يَبابـاً بعـد سـاكنهـا الحبيـبِ
فَـدَعْ عنـك التـذكُّـرَ كـلَّ يـومٍ ... ورُدَّ حـرارةَ الصَّـدر الكئيـبِ
وخبِّـرْ بـالـذي لا عيـبَ فيـه ... بصـدْقٍ غير أخبـار الكَـذُوبِ
بما صنَـع المليـك غَـداة بـدرٍ ... لنـا في المشركين مـن النصيـبِ
غـداةَ كـأن جمعهـم حِـراءٌ ... بَـدَتْ أركـانـه جُنْـحَ الغُـروبِ
فلاقَيْنَـاهُـمُ منَّـا بجمـع ... كـأسـد الغـاب مُـرْدانٍ وشيـبِ
أمـامَ محمدٍ قـد وازروه ... على الأعـداءِ في لَقْـح الحروبِ
بـأيـديهم صـوارمُ مُـرْهَفـات ... وكـل مجرَّب مـاضِـي الكعـوبِ
بنـو الأوْس الغَطَـارفِ آزَرَتْهَـا ... بنـو النجَّـار في الدِّيـن الصَّلِيـبِ
فغـادَرْنـا أبـا جهـلٍ صريعـاً ... وعُتبـة قـد تـركنـا بـالْجُبُـوبِ
وشَيْبـة قـد تـركْنـا في رجـال ... ذوي حَسَـبٍ إذا نُسبـوا حسيـبِ
ينـاديهم رسـولُ الله لـمَّـا ... قـذفنـاهـم كبَـاكِـبَ في القَلِيـبِ
ألم تجدوا كلامـي كـان حقَّـا ... وأمـرُ الله يَـأخـذ بـالقلـوبِ
فما نَطقـوا، ولـو نطقـوا لقـالـوا ... صدقـتَ وكنـتَ ذا رأيٍ مُصيـبِ

[الوافر]

ولما أمر رسول الله ﷺ أن يُلقوا في القَلِيب أُخذ عتبة بن ربيعة فسُحب إلى القَليب، فنظر رسول الله ﷺ - فيما ذكر - في وجه أبي حذيفة بن عُتْبة فإذا هو كئيب قد تغيّر، فقال: يا أبا حذيفة، لعلك دَخلك من شأن أبيك شيء؟ أو كما قال ﷺ.

قال: لا والله يا رسول الله، ما شككتُ في أبي ولا في مَصْرعه، ولكني كنت

---

(١) ابن هشام. السيرة ج ١ ص ٦٣٩ - ٦٧٠.

أعرف من أبي رأياً وحلماً وفضلاً، فكنت أرجو أن يهديه ذلك للإسلام، فلما رأيت ما أصابه، وذكرت ما مات عليه من الكفر بعد الذي كنت أرجو له، أحزنني ذلك.

فدعا له رسول الله ﷺ بخير وقال له خيراً.

وكان في قريش فِتْية أسلموا ورسول الله ﷺ بمكة، فلما هاجر إلى المدينة حبسَهم آباؤهم وعشائرهم بمكة، وفَتنوهم فافتَتَنُوا، ثم ساروا مع قومهم إلى بدر فأصيبوا به جميعاً، فنزل فيهم من القرآن فيما ذكر: ﴿إنَّ الذين توفَّاهم الملائكةُ ظالمِي أنفسهم قالوا: فِيم كنتم؟ قالوا: كنّا مُسْتَضْعَفِين في الأَرْض، قالوا: أَلَمْ تَكُنْ أرضُ الله واسعةً فتهاجروا فيها؟ فأُولَئِكَ مَأْوَاهم جهنَّمُ وساءَتْ مَصِيراً﴾ [٩٧: النساء].

وأُولَئك الفتية: الحارث بن زَمْعة بن الأسود، وأبو قيس بن الفاكِه، وأبو قيس بن الوليد بن المغيرة، وعليُّ بن أمية بن خلف، والعاص بن مُنبه بن الحجاج.

ثم إن رسول الله ﷺ أمر بما في العسكر مما جَمع الناسُ فجُمع.

فاختلف فيه المسلمون، فقال مَن جمعه: هو لنا. وقال الذين كانوا يقاتلون العدُوّ ويطلبونه: والله لولا نحن ما أصَبْتموه، لَنحن شغَلْنا عنكم القومَ حتى أصبتم ما أصبتم.

وقال الذين كانوا يحرسون رسول الله ﷺ مخافةَ أن يخالِف إليه العدُوّ:

والله، ما أنتم بأحقَّ به/ منا، لقد رأينا أن نقتل العدوّ إذ منحنا الله أكتافهم، ولقد رأينا أن نأخذ المتاع حين لم يكن دونه من يمنعه، ولكنَّا خِفْنا على رسول الله ﷺ كرَّةَ العدوّ فقمنا دونه، فما أنتم بأحق به منا. ٥٧ ب

فكان عبادة بن الصامت إذا سُئل عن الأنفال، قال: فينا معاشرَ أصحاب بدر أُنزلت حين اختلفْنا في النَّفَل وساءت فيه أخلاقُنا، فنزعه الله من أيدينا، فجعله إلى رسوله ﷺ فقَسَمه بيننا عن بَوَاءٍ.

يقول: على السواء.

فكان في ذلك تقوى الله وطاعته وطاعة رسوله، وصَلاح ذات البَيْن.

ثم بعث رسول الله ﷺ عبدَ الله بن رَوَاحة بشيراً إلى أهلِ العالية بما فتح الله على رسوله وعلى المسلمين، وبعث زيدَ بن حارثة إلى أهل السافلة، قال أسامة بن زيد: فأتانا الخبرُ ـ حِينَ سوَّينا على رُقَيَّة بنت رسول الله ﷺ، وكان رسول الله ﷺ خلَّفني عليها مع زوجها عثمان ـ أنّ زيدَ بن حارثة قد قدِم.

قال: فجئته وهو واقف بالمصلَّى وقد غشيه الناس وهو يقول: قتل عُتبة بن ربيعة، وشَيبة بن ربيعة وأبو جهل بن هشامَ، وزَمْعة بن الأسود، وأبو البَخْتَري ابن هشام، وأُمية بن خلَف، ونُبَيْه ومُنَبِّه ابنا الحجاج. قلت: يا أبه أحقٌّ هذا؟ قال: نعم والله يا بني.

ثم أقبل رسول الله ﷺ قافلاً إلى المدينة ومعه الأساري من المشركين، وفيهم عُقْبة بن أبي مُعَيط والنَّضْر بن الحارث، حتى إذا خرج رسول الله ﷺ من مَضِيق الصفراء، نزل على كثيب يقال له: سَيرٌ إلى سَرْحة به، فقسَّمَ هنالك النَّفَل الذي أفاء الله على المسلمين من المشركين على السواء.

ثم ارتحل حتى إذا كان بالرَّوْحاء، لقيه المسلمون يهنئونه بما فتح الله عليه ومن معه من المسلمين، فقال لهم سلمَة بن سلامة بن وَقْشٍ: ما الذي تهنئوننا به؟ فوالله، إنْ لقينا إلاّ عجائز صُلْعاً كالبُدْنِ المعقَّلة فنحرناها، فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: أي ابنَ أخي؟ أُولئك الْمَلأُ.

حتى إذا كان رسولُ الله ﷺ بالصَّفْراء، قُتل النَّضْر بن الحارث، قتله عليٌّ ابن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ ثم خرج حتى إذا كان بعِرْق الظبية، قُتل عُقْبة بن أبي مُعَيْط، فقال عقبة حين أمِرَ بقتله: فمن للصبْيَة يا محمد؟ قال: النار!

فقتله عاصمُ بن ثابت بن أبِي الأَقْلح، في قول ابن عُقْبة وابن إسحاق. وقال ابن هشام: قتله علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

وقالت قُتَيْلة أُخت النَّضر بن الحارث لما بلغها مقتل أخيها:

يــا راكبــاً إن الأثيــل مَظَنّــةٌ ... من صُبْح خـامسـةٍ وأنـت مُـوفّـقُ
أبلــغْ بها مَيْتــاً بــأنّ تحيــةً ... ما إنْ تـزال بها الركـائـبُ تَخْفـقُ
مني إليــك وعَبْـرة مسفــوحــةً ... حادتْ بـواكفهـا وأُخـرى تَخْنُـقُ
هـل يَسْمَعَنّـي النّضْـر إنْ نـاديتُـه ... أم كيـف يَسْمَعُ ميّـتٌ لا يَنطـقُ
أمحمدٌ يــا خير ضــنو كــريمةٍ ... في قـومهـا والفحـلُ فَحْـلٌ مُعْـرِقُ
مـا كـان ضَـرّك لـوْ مَنَنْـتَ وربما ... مَـنَّ الفتى وهـو المغيـظُ المحنَـقُ
فالنَّضرُ أقربُ مـن أَسَرْتَ قـرابـةً ... وأحقّهـم إن كــان عِتْـق يُعْتَـقُ
ظلّـت سيـوفُ بني أبيـه تنُـوشُـه ... لله أرحــامٌ هنــاك تُشَقَّــقُ!

[الكامل]

قال ابن هشام: فيقال - والله أعلم - إن رسول الله ﷺ لمّا بلغه هذا الشعر قال: لو بلغني هذا الشعر قبلَ مقتله، لمننتُ عليه.

ثم مضى رسول الله ﷺ حتى قدم المدينة قبل الأساري بيوم، وقد كان فرّقهم بين أصحابه، وقال: استوصوا بالأساري خيراً.

وكان أبو عزيز بن عمير أخو مُصْعب بن عمير لأبيه وأمّه في الأساري، قال: وكنتُ في رهطٍ من الأنصار حين أقبلوا بي من بدرٍ، وكانوا إذا قدّموا غداءهم وعشاءهم خصّوني بالخبز، وأكلوا التمر، لوصية رسول الله ﷺ إياهم بنا، ما تقع في يد رجل منهم كِسرةً من الخبز إلا نَفَحني بها، قال: فَأَسْتَحي[1] فأردُّها عليه فيردها عليَّ ما يمسّها!

قال: ومرَّ بي أخي مُصْعبٌ ورجلٌ من الأنصار يَأسرني، فقال له: شدَّ يديك به، فإن أمّه ذات متاعٍ، لعلها تَفدْيه منك، فقال له أبو عزيز - فيما ذكر ابن هشام - يا أخي، هذه وصاتك بي! فقال له مصعب: إنه أخي دونك، فسألت أمُّه عن أَغْلَى ما فُدِيَ به قرشيّ، فقيل لها: أربعة آلاف درهم، فبعثت ففدته بها.

وذكر قاسم بن ثابت في دلائله: أن قريشاً لمّا توجهت إلى بدرٍ مرَّ هاتف

1) في الأصل: «فأستحيي».

من الجن على مكة ـ في اليوم الذي أوقع[1] بهم المسلمون ـ وهو ينشد بأبعد صوتٍ ولا يرى شخصه:

أزارَ الحنيفيّون بدراً وَقِيعةً ... سيَنْقضُ منها ركنُ كِسْرى وقيصَرا
أبادت رجالاً من لُؤَيٍّ وأبرزَتْ ... خَرائدَ يَضرِبْنَ التَّرائبَ حُسَّرَا
فيا ويح من أمسَى عدوَّ محمدٍ ... لقد جارَ عن قَصْدِ الْهُدَى وتحيَّرَا

[الطويل]

فقال قائلهم: من الحنيفيّون؟ فقالوا: هو محمدٌ وأصحابه، يزعمون أنهم على دين إبراهيم الحنيف، ثم لم يلبثوا أن جاءهم الخبر اليقين.

وكان أول من قدِم مكة بمصاب قريش: الْحَيْسُمَانُ بن عبد الله الخزاعي. فقالوا: ما وراءك؟ قال: قُتل عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو الحكَم بن هشام، وأُمية بن خلَف، وزَمْعة بن الأسود، ونبيه ومُنبّه ابنا الحجاج، وأبو البَخْتَرِيّ بن هشام، فلما جعل يعدّد أشرافَ قريش، قال صفوان بن أمية وهو قاعد في الحِجْر: والله إنْ يَعْقل هذا، فسَلوه عني. قالوا: ما فعل صفوان بن أمية؟ قال: ها هو ذاك جالس في الحِجْر، وقد والله رأيت أباه وأخاه حين قُتلا.

وقال أبو رافع مولى رسول الله ﷺ: كنت غلاماً للعباس بن عبد المطّلب، وكان الإسلام قد دَخَلنا أهلَ البيت فأسلم العباسُ، وأُمُّ الفضل، وأسْلَمتُ، وكان العباسُ يهاب قومه، ويكره خِلاَفهم، فكان يكتم إسلامه، وكان ذا مالٍ كثير متفرق في قومه، وكان أبو لهب قد تخلّف عن بدر، فلما جاءه الخبر عن مصاب أصحاب بدرٍ من قريش كَبته الله وأخزاه، ووجَدْنا في أنفسنا قوةً وعزةً، وكنت أعمل الأقداح في حُجْرة زمزم، فوالله، إني لجالسٌ فيها أنْحتُ أقداحي وعندي / أُمُّ الفضل جالسةً، وقد سرَّنَا ما جاءنا من الخبر، إذ أقبل أبو ٥٨ أ
لهب يجرُّ رجليه بشرٍّ حتى جلس إلى طُنُب الحجرة ظهره إلى ظهري.

---

١) في الأصل: «وقع».

فبينا هو جالس إذ قال الناس: هذا أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب قد قَدِم. فقال أبو لهب: هلُمَّ إلي فعندك لَعمري الخبر، فجلس إليه والناس قيام عليه، فقال: يابن أخي، أخبرني كيف كان أمرُ الناس؟ قال: والله، ما هو إلا أن لِقينَا القوَم منحناهم أكتافنا يقتلوننا كيف شاءوا ويأسروننا كيف شاءوا، وأَيمُ الله مع ذلك ما لُمْتُ الناسَ، لَقِينا رجالاً بيضاً على خَيْل بُلْق بين السماء والأرض، والله ما تُليق شيئاً، ولا يقوم لها شيء.

قال أبو رافع: فرفعتُ طُنُب الحجرة بيدي ثم قلت: تلك والله الملائكة! فرفع أبو لهب يده فضرب وجهي ضربة شديدة، وثاوَرْته فاحتملني وضرب بي الأرض، ثم برك عَلَيَّ يضربني وكنت رجلاً ضعيفاً، فقامت أُمُّ الفضل إلى عمود من عُمدُ الحجرة فضربْته به ضربة فلقَتْ في رأسه شَجَّةً منكرة. وقالت: أتستضعفه أن غاب عنه سيده! فقام مولِّياً ذليلاً، فوالله ما عاش إلا سبع ليالٍ حتى رماه الله بالعَدسة فقتلته.

وذكر محمد بن جرير الطبري في تاريخه أن العَدسة قرحةً كانت العرب تتشاءم بها، ويَرَوْنَ أنها تُعْدِي أشدَّ العدْوي(١).

فلما أصَابَتْ أبا لهب تباعد عنه بنوه، وبقي بعد موته ثلاثاً لا تُقرب جَنازته، ولا يحاوَل دفنه، فلما خافوا السُّبَّةَ في تركه حفروا له ثم دفعوه بعُودٍ في حُفرته، وقذفوه بالحجارة من بعيد، حتى وارَوْه.

وقال ابن إسحاق في رواية يونس بن بُكَير عنه: إنهم لم يحفروا له ولكن أسندوه إلى حائطٍ وقدفوا عليه الحجارة من خلف الحائط، حتى وارَوْه.

ويُرْوى أن عائشة ـ رضي الله عنها ـ كانت إذا مرَّت بموضعه ذلك غطَّت وجهها.

وخرَّج البخاري في صحيحه: أن أبا لهب رآه بعضُ أهله في المنام بشَرِّحيبةٍ، أي حالة، فقال: ما لقيتُ بعدكم راحةً، غير أنِّي سُقيت في مثل هذه ـ وأشار إلى النقرة بين السبَّابة والإبهام ـ بِعتْقي ثُوَيْبة.

---

(١) الطبري. التاريخ ج٢ ص٤٦٢.

وثُوَيْبة هذه أرضعت رسول الله ﷺ وأرضعت عمه حمزةَ وأبا سلَمة بن عبد الأسد.

ورَوَى غير البخاري أن الذي رأى أبا لهب من أهله هو أخوه العباس، وأنه قال: مكثت حولاً بعد موت أبي لهب لا أراه في نوم، ثم رأيته في شرِّ حال، فقال: ما لقيتُ بعدكم راحةً، إلاَّ أن العذاب يُخفِّفُ عنِّي كلَّ يوم اثنين.

وذلك أن رسول الله ﷺ ولد يوم الاثنين، فبشَّرتْ أبا لهب بمولده ثوَيْبة مولاته، فقالت له: أشعرتَ أن آمنة ولدت غلاماً لأخيك عبد الله؟ فقال لها: اذهبي فأنت حرَّة، فنفعه ذلك وهو في النار، كما نفع أخاه أبا طالب ذَبُّه عن رسول الله ﷺ واجتهاده في منعه ونصرته، فهو أهونُ أهل النار عذاباً.

ويفعل الله ما يشاء مما يطابق سابق تقديره، وقد قضى الله - سبحانه - بإحباط عمل الكافرين، فمحال أن يقيم لهم يومَ القيامة وزْناً، أو ينالوا عنده بشيء قدموه [مما يتصور] بصورة الأعمال الصحالة نعيماً، إلا أنه ربما جعل التفاوت بين جماهيرهم وبين من شاء منهم بمقدار العذاب، فيضاعفه على قومٍ أضعافاً، ويضع من شدائـده عن آخرين تخفيفاً.

وكل عذاب الله شديد، فنعوذ برضا مولانا الكريم من سخطه، وبمعافاته من عقوبته.

وحدَّث محمد بن إسحاق بن يَسار(١) عن يحيى بن عبَّاد، عن أبيه عبَّاد بن عبد الله بن الزبير، قال: ناحتْ قريش على قتلاهم، ثم قالوا: لا تفعلوا فيبلغَ محمداً وأصحابه فيشمتوا بكم، ولا تبعثوا في أسراكم حتى تستأنُوا بهم لا يَأرب عليكم محمدٌ وأصحابه في الفداءِ.

قال: وكان الأسود بن المطَّلب قد أصيب له ثلاثة من ولده: زَمْعة وعَقِيل ابناه، والحارث بن زمعة وهو ابن ابنه، وكان يحب أن يبكي عليهم، فسمع نائحة من الليل فقال لغلام له وقد ذهب بصره، انظر هل أُحِلَّ النَّحْب؟ هل

(١) المصدر السابق ج١ ص ٦٤٧ - ٦٤٨.

بكت قريش على قتلاها؟ لعلِّي أبكي على أبي حكيمة ـ يعني زَمْعة ـ فإن جوفي قد احترق!

فلما رجع إليه الغلام، قال: إنما هي امرأة تبكي على بعير لها أضلّته. قال: فذاك حين يقول الأسود:

أتبكِي أن يَضِلَّ لها بَعيرٌ ويمنَعُهَا من النومِ السهودُ
فلا تبكي على بَكْرٍ ولكن على بَدْرٍ تقاصَرت الْجُدودُ

[الوافر]

في أبيات ذكرها ابن إسحاق.

وقد تقدم دعاء رسول الله ﷺ على الأسود بن عبد المطلب هذا بأن يُعْمى الله بَصَره ويُثْكله ولده، فاستجيب له وفق دعائه، سبَق العمي أولاً إلى بصره، ثم أصيب يومَ بدر بمن سُمِّيَ آنفاً من ولده، فتَمت إجابةُ الله سبحانه رسولَه فيه.

وكان في الأساري أبو وَدَاعة السَّهْمِيّ، فقال رسول الله ﷺ: إنّ له بمكة ابناً كيِّساً تاجراً ذا مال، وكأنكم به قد جاءكم في طلب فداء أبيه، فلما قالت قريش: لا تَعْجلو بفداء أسْراكم لا يأرَّب عليكم محمد وأصحابه، قال الْمّطلب ابن أبي ودَاعة، وهو الذي كان رسول الله ﷺ عَنَي: صدَقتم لا تَعْجلوا. وانسَلَّ من الليل فقدِم المدينة فأخذ أباه بأربعة آلاف درهم.

ثم بعثت قريش في فداء الأساري، فقدم مِكْرَز بن حَفْص بن الأَخْيَف في فداء سُهيل بن عمرو وكان الذي أسره مالك بن الدُّخْشم أخو بني سالم بن عوف، فلما قاوَلهم فيه مِكْرز وانتهى إلى رضاهم قالوا: هات الذي لنا، قال: اجعلوا رِجْلي مكان رجله، وخلوا سبيله حتَّى يبعث إليكم بفدائه. فخلوا سبيل سُهَيل، وحبسوا مكرزاً[1] مكانه عندهم، فقال مكرزٌ:

فَدَيْت بأذْوادٍ ثَمانٍ سِبَا فتًى ينالُ الصميمَ غُرْمُها لا الْمَوالِيَا
رُهِنتُ يدِي والمالُ أيسرُ من يدي عليّ ولكنّي خَشِيتُ الْمخَازِيَا

١) في الأصل: «مكرز».

وقلت سُهَيْلٌ خيرُنا فاذهبوا به ... لأبنائنا حتى نديرَ الأمانيا

[الطويل]

وكان سهيل قد قام في قريش خطيباً عندما اسْتنفرهم أبو سفيان، فقال: يا لَغالب أتاركون أنتم محمداً والصُّبَّا من أهل يثرب يأخذون عِيرانكم وأموالكم، من أراد مالاً فَهذَا مالِي، ومن أراد قوةً فهذه قوّة.

فَيُرْوَى أن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قال لرسول الله ﷺ لما أُسِرَ سُهيل يوم بدر: يا رسول الله، انزع ثَنِيَّتَيْ سُهيل بن عمرو يَدْلع لسانه، فلا يقوم عليك خطيباً في موطن أبداً.

فقال رسول الله ﷺ: «لا أُمَثِّل به، فَيُمَثِّل الله بي، وإن كنت نبيًّا! إنه عسى أن يقوم مقاماً لا تذمُّه».

فصدّق اللهُ رسولَه، وكان/ لسهيل بعد وفاته ﷺ في تثبيت أهل مكة على ٥٨ ب
الإيمان مقام سيأتي ذكر حديثه في موضعه إن شاء الله.

وكان عمرو بن أبي سفيان بن حرب أسيراً في يدي رسول الله ﷺ من أسارَي بدرٍ، فقيل لأبي سفيان بن حرب: أفد عمراً ابنك. فقال: أيجمع عليَّ دَمِي ومالي، قتلوا حنظلة وأفْدي عمراً؛ دعوه في أيديهم يمسكونه ما بدا لهم!

فَبَيْنا هو كذلك محبوس بالمدينة عند رسول الله ﷺ إذ خرج سعدُ بن النعمان بن أكّال أخو بني عمرو بن عوف معتمراً، ومعه مُرَيّة له، وكان شيخاً مسلماً في غنم له بالبقيع، فخرج من هنالك معتمراً ولا يخشى الذي صُنع به، لم يظن أنه يُحبس بمكة، إنما جاء معتمراً، وقد كان عَهِد قريشاً لا يَعْرضون لأحدٍ جاء حَاجاً أو معتمراً إلاّ بخيرٍ، فعدا عليه أبو سفيان بن حرب بمكة فحبسه بابنه عمرو. ثم قال:

أَرَهَطَ ابنِ أكّالٍ أجيبوا دعاءَه ... تعاقدْتُمُ لا تُسْلِموا السَّيِّدَ الكهلاَ

فإن بني عَمرٍو لِئامٌ أذلّةٌ ... لئن لم تفكّوا عن أسيرهم الكَبْلاَ

[الطويل]

فأجابه حسان بن ثابت فقال:

[و]لو كان سعدُ يوم مكة مُطْلقاً لأكْثَرَ فيكم قَبْل أن يُؤسَرَ القَتْلا
بعَضْبٍ حُسَام أو بصفراء نَبْعةٍ تحنّ إذا ما أنْبضتْ تَحْفِز النّبْلا

[الطويل]

ومشى بنو عمرو بن عوف إلى رسول الله ﷺ فأخبروه خبره، وسألوه أن يعطيهم عمرو بن أبي سفيان، فيفكوا به صاحبهم، ففعل رسولُ الله ﷺ فبعثوا به إلى أبي سفيان، فخلى سبيل سعد.

وكان في الأساري -أيضاً- أبو العاص بن الرّبيع بن عبد العُزّي بن عبد شمس، خَتَن رسول الله ﷺ زوج ابنته زينب، وكان ﷺ يثني عليه في صِهْره خيراً، وكان من رجال مكة المعدودين مالاً وأمانةً وتجارة، وهو ابن أخت خديجة -رضي الله عنها- وهي سألت رسول الله ﷺ قبل أن ينزل عليه الوحي أن يزوّجه، وكان لا يخالفها، فزوجه، وكانت تعدُّه بمنزلة ولدها.

فلما أكرم الله رسوله ﷺ بنبوته، آمنت به خديجة وبناتُه، فصدَّقْنه ودِنّ بدينه، وشَهِدْن أن الذي جاء به هو الحق، وثبت أبو العاص على شرْكه.

فلما بادَى رسولُ الله ﷺ قريشاً بأمر الله تبارك وتعالى وبالعداوة، قالوا: إنكم فرّغتم محمداً من همه، فَرُدُّوا عليه بناته فاشْغُلوه بهنّ. فمشوا إلى أبي العاص فقالوا له: فارقْ صاحبتك ونحن نزوّجك أيّ امرأةٍ من قريش شئت. قال: لا ها الله، إذاً لا أفارق صاحبتي، وما أحبُّ أن لي بها امرأة من قريش.

ثم مشوا إلى عُتْبة بن أبي لهب وكان رسول الله ﷺ قد زوّجه رقية أو أمَّ كلثوم، فقالوا له: طلق ابنة محمدٍ ونحن ننكحك أي امرأة من قريش شئت، فقال: إن زوجتموني ابنة أبان بن سعيد بن العاص، أو ابنة سعيد بن العاص فارقتُها. فزوجوه بنت سعيد بن العاص وفارقها، ولم يكن دخل بها، فأخرجها الله من يده كرامةً لَهَا وهَوَاناً له. وخلَف عليها عثمان بن عفان بعده.

وكان رسول الله ﷺ لا يُحلّ بمكة ولا يُحرم، مغلوباً على أمره، وكان

الإسلام قد فرّق بين زينب ابنته وبين أبي العاص، إلاّ أنه كان لا يقدر أن يفرق بينهما، فأقامت معه على إسلامها وهو على شركه، حتى هاجر رسول الله ﷺ.

فلما سارت قريش إلى بدرٍ سار فيهم أبو العاص فأصيب في الأساري، فكان بالمدينة عند رسول الله ﷺ، فلما بعث أهلُ مكة في فداء أسْراهم بعثت زينب بنت رسول الله ﷺ في فداء أبي العاص بمال وبعثت فيه بقلاَدة لها كانت خديجة أدخلْتها بها على أبي العاص حين بَني بها، فلما رآها رسولُ الله ﷺ رقَّ لها رقةً شديدة، وقال: إنْ رأيتم أن تُطْلقوا لها أسيرها، وتردّوا عليها الذي لها فافعلوا قالوا: نعم يا رسول الله. فأطلقوه وردوا عليها مالها.

وكان رسول الله ﷺ قد أخذ عليه أن يُخلَي سبيل زينب إليه، أو وعده أبو العاص بذلك، أو شَرطه عليه رسولُ الله ﷺ في إطلاقه، ولم يَظهر ذلك منه ولا من رسول الله ﷺ فيُعلم ما هو.

إلاّ أنه لما خرج أبو العاص إلى مكة وخلّى سبيله، بعث رسول الله ﷺ مكانه زيد بن حارثة، ورجلاً من الأنصار، فقال: كُونا ببطن يأجَج حتى تمرّ بكما زينب فتصحباها، حتى تأتياني بها. فخرجا وذلك بعد بَدْر بشهر أو سبعة، فلما قَدم أبو العاص مكة أمَرها باللّحوق بأبيها، فخرجت تتجهّز.

قالت زينب: بَيْنا أنا أتجهز بمكة لقيتني هند ابنة عُتْبة، فقالت: يا ابنة محمد ألم يبلغني أنك تريدين اللحوق بأبيك؟ قالت: ما أردتُ ذلك. قالت: أي ابنة عمّ لا تفعلي، إن كانت لك حاجة بمتاع مما يَرْفق بك في سفرك أو بمالٍ تتبلغين به إلى أبيك، فإن عندي حاجتَكِ، فلا تَضْطَني منّي فإنه لا يدخل بين النساء ما [يدخل] بين الرجال. قالت زينب: فوالله ما أراها قالت ذلك إلا لتفعل، ولكني خِفْتها فأنكرت أن أكون أريد ذلك، وتجهزتُ.

ولما فَرَغَتْ بنتُ رسول الله ﷺ من جهازها قدَّم إليها كِنَانة بن الربيع أخو زوجها بعيراً فركبتْه، وأخذ قوسه وكنانته ثم خرج بها نهارًا يقود بها وهي في هَوْدج لها، وتحدّث بذلك رجال قريش، فخرجوا في طلبها حتى أدركوها بذي طوًى، فكان أوّل من سبق إليها هبّار بن الأسود الفِهْري، فروَّعها هَبَّارٌ بالرُّمْح

وهي في هودج لها، وكانت حاملاً ـ فيما يزعمون ـ فلما رِيعَتْ طرحتْ ذا بَطْنها، وبرَكَ حَمُوها كِنانةُ ونثر كِنانته ثم قال: والله، لا يدنو مني رجلٌ إلاَّ وضعتُ فيه سهماً. فتكَرْكر الناسُ عنه، وأتى أبو سفيان بن حرب في جِلّة من قريش فقال: أيها الرجل، كُفَّ عنَّا نَبْلك حتى نكلّمك. فكفَّ، فأقبل أبو سفيان حتى وقف عليه، فقال: إنك لم تُصِبْ، خرجتَ بالمرأة على رءوس الناس علاَنيةً، وقد عرفتَ مُصيبتَنا ونكبتنا، وما دخل علينا من محمد، فيظنَّ الناسُ إذا خرجتْ إليه ابنتُه علانية على رءوس الناس من بين أظْهُرنا أن ذلك عن ذلٍّ أصابنا عن مصيبتنا التي كانت، وأن ذلك من ضعف ووَهن، ولعمري! ما لنا بَحبْسها عن
٥٩ أ أبيها من حاجة، وما لنا في ذلك من ثُؤْرة/ ولكن أَرْجع المرأة، حتى إذا هدأت الأصوات وتحدّث الناسُ أنْ قد رددْناها، فسُلَّها سرًّا وألحقْها بأبيها. ففعل، فأقامت لَيَالَي حتى إذا هدأت الأصوات خرج بها ليلاً حتى أسلَمها إلى زيد بن حارثة وصاحبه، فقدِما بها على رسول الله ﷺ.

ولما انصرف الذين خرجوا إلى زينب لقيتهم هند بنت عتبة فقالت لهم:

أفي السّلْم أعْيارٌ جفـاءً وغِلْظـةً ... وفي الحرب أَشْباهُ النسـاءِ العَـوارِكِ

[الطويل]

وأَمَر رسول الله ﷺ بسرية بعثها بتحريق هَبَّار بن الأسود أو الرجل الذي سبق معه إلى زينب إن ظفروا بهما، ثم بعث إليهم فقال: إني كنت قد أمرتكم بتحريق هذين الرجلين إنْ أَخَذْتُموهما، ثم رأيتُ أنه لا ينبغي أن يعذِّب بالنار إلا الله عزَّ وجل، فإن ظفرتم بهما فاقتلوهما(١).

وأقام(٢) أبو العاص بمكة وأقامت زينب عند رسول الله ﷺ، حين فرَّق بينهما الإسلام، حتى إذا كان قبيل الفتح خرج أبو العاص تاجراً إلى الشام، وكان رجلاً مأموناً، بمالٍ له وأموالٍ لرجال من قريش أبضَعُوها معه، فلمَّا فَرَغَ من

---

(١) المصدر السابق ج١ ص ٦٥٣ ـ ٦٥٧.
(٢) نفسه ج ١ ص ٦٥٧ ـ ٦٥٩.

تجارته وأقبل قافلاً لقيته سريَّةٌ لرسول الله ﷺ فأصابوا ما معه وأعجزهم هارباً، فلما قدمت السَّرية بما أصابوا من ماله أقبل أبو العاص تحت الليل حتى دخل على زينب بنت رسول الله ﷺ فاستجار بها فأجارته، وجاء في طلب ماله، فلما خرج رسول الله ﷺ إلى الصبح فكبّر وكبّر الناس معه صرخت زينب من صُفّة النساء: أيها الناس: إني قد أجرتُ أبا العاص بن الربيع. فلما سلّم رسول الله ﷺ من الصلاة أقبل على الناس فقال: أيها الناس، هل سمعتم ما سمعتُ؟ قالوا: نعم، قال: أمَا والذي نفس محمد بيده، ما علمتُ بشيءٍ حتى سمعتُ ما سمعتم، إنه يجير على المسلمين أَدْناهم.

ثم انصرف، فدخل على ابنته فقال: أيْ بُنَيَّة، أكرِمي مَثْواه ولا يَخْلصنَّ إليك، فإنك لا تَحِلِّينَ له. وبعث إلى السَّرية الذين أصابوا مال أبي العاص فقال لهم: إنّ هذا الرجل منا حيث قد علمتم، وقد أصبتم له مالا، فإن تُحْسنوا وتردّوا عليه الذي له فإنا نحبُّ ذلك، وإن أبيتم فهو فَيْءُ الله الذي أفاء عليكم، فأنتم أحق به. قالوا: يا رسول الله، بل نرُدّه عليه، فردوه عليه، حتى إن الرجل لَيأتي بالدَّلْو ويأتي الرجل بالشَّنة والإداوة، حتى إن الرجل لَيأتي بالشِّظَاظ حتى ردُّوا عليه مالَه بأَسْره لا يفقدُ منه شيئاً، ثم احتَمل إلى مكة فأدَّى إلى كل ذي مالٍ من قريش مالَه ثم قال: يا معشر قريش، هل بقي لأحدٍ منكم عندي مال لم يأخذه؟ قالوا: لا، فجزاك الله خيراً، فقد وجدناك وفيًّا كريماً. قال: فإني أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، والله ما منعني من الإسلام عنده إلا تخوّفُ أن تظنوا أني إنما أردت أن آكل أموالكم، فلما أداها الله إليكم وفرغتُ منها، أسلمتُ. ثم خرج حتى قدِم على رسول الله ﷺ.

وحكي ابن هشام(١) عن أبي عبيدة، أن أبا العاص لما قدم من الشام ومعه أموال المشركين قيل له: هل لك أن تُسْلم وتأخذ هذه الأموال، فإنها للمشركين؟ فقال: بئس ما أبدأ به إسلامي أن أخـون أمانتي!

ومنَّ رسول الله ﷺ على نَفَرٍ من الأساري من قريش بغير فداء، منهم أبو

(١) المصدر السابق ج١ ص ٦٥٩.

عَزّة عمرو بن عبد الله الجمحي، كان محتاجاً ذا بناتٍ، فكلم رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، لقد عرفْتَ مالي من مال، وإني لذو حاجةٍ وذو عيالَ، فَامْنُنْ عَلَيَّ. فَمَنَّ عليه رسولُ الله ﷺ وأخَذ عليه أن لا يظاهِرَ عليه أحداً، فقال أبو عزة في ذلك يمدح رسول الله ﷺ ويذكر فضله على قومه:

[و] مَنْ مُبْلِغٌ عنّي الرسولَ محمداً ... بأنك حقٌّ والمليكُ حَميدُ
وأنت امرؤٌ تدعو إلى الحق والهُدَى ... عليك من الله العظيمِ شهيدُ
وأنت امرؤٌ بُوِّئْتَ فينا مَباءَةً ... لها درجاتٌ سهلةٌ وصُعُودُ
فإنك من حاربته لَمحارَبٌ ... شقيٌّ ومن سالَمْتَه لَسعيدُ
ولكن إذا ذُكِّرتُ بَدْراً وأَهْلَهُ ... تأَوّبَ ما بي حَسْرة وقعودُ

[الطويل]

وذكر موسى بن عُقْبة أن المسلمين جهدوا على أبي عَزّة هذا عندما أُسِر ببدر أن يسلم، فقال: لا، حتى أضرب في الخَزْرجية يوماً إلى الليل.

وما وقع في شِعْرِهِ ومحاورته رسولَ الله ﷺ مما يقتضي التصريح برسالته، فلا أعلم له مَخْرجاً، إن صَحّ، إلا أن يكون ذلك من جملة ما قصد به أبو عزة أن يَخْدع رسولَ الله ﷺ، فعاد على عدوّ الله ما ائتمر، ولم يخدع إلا نفسه وما شعر، وذلك أنه لما أخذت قريشٌ قبلَ أُحد في الإعداد لحرب رسول الله ﷺ طلباً بثأرهم في يوم بدر قال صفوان بن أمية لأبي عزة هذا: يا أبا عزة، إنك امرؤ شاعر، فأعِنّا بلسانك، فاخرج معنا. فقال: إن محمداً قد منَّ عليَّ فلا أريد أن أُظاهر عليه. قال: بلى، فأعنّا بنفسك، فلك الله عليَّ إن رجعت أن أُعينك، وإن أُصبتَ أن أجعل بناتك مع بناتي، يُصيبهنّ ما أصابهنّ من عزٍّ ويُسرٍ. فخرج أبو عزة يسير في تهامة ويدعو بني كنانة ويقول:

أيا بني عبد مناة الرّزامْ ... أنتم حُمَاةٌ وأبوكم حامْ
لا تَعْدموني نَصْركم بعد العامْ ... لا تُسْلموني لا يحلّ اسلامْ

[الراجز]

ثم كان من الأمر يوم أحد ما كان، وخرج رسول الله ﷺ بعد الوقعة

مُرهباً لعدوه حتى انتهى إلى حَمراء الأسَد، فأخَذ رسولُ الله ﷺ في وجهه ذلك أبا عَزّة الْجَمحى، فقال: يا رسول الله، أقِلْني. فقال رسول الله ﷺ: «والله لا تمسح عارضيك بمكة، تقول: خَدَعْتُ محمداً مرتين! اضرب عنقه يا زبير». فضرب عنقه.

وذكر ابن هشام ـ فيما بلغه عن سعيد بن المسيِّب ـ أن رسول الله ﷺ قال له: «إن المؤمن لا يُلْدغ من جُحْر مرتين، اضرب عنقه، يا عاصم بن ثابت» فضرب عنقه.

وكان عُمَيْر بن وهب[1] شيطاناً من شياطين قريش، وممن كان يؤذي رسولَ الله ﷺ وأصحابه بمكة ويَلْقون منه عنَتاً، وكان ابنه وَهْب بن عمير في أساري بدر، فجلس عمير مع صفوان بن أمية/ في الحِجْر بعد مُصَاب أهل بدر بيسير، ٥٩ ب
فذكر أصحاب القَلِيب ومُصابهم، فقال له صفوان: فوالله، إنْ في العيش خيرٌ بعدَهم. فقال له عمير: صدقت والله، أمَا والله لولا دَيْن عليَّ ليس له عندي قضاءٌ وعيال أخشى عليهم الضَّيْعة بعدي لركبتُ إلى محمد حتى أقتله، فإن لي فيهم علةً، ابني أسيرٌ في أيديهم. فاغتنمها صفوان فقال: عليَّ دَيْنك أنا أقضيه عنك، وعيالُك مع عيالي أواسيهم ما بقُوا لا يَسعني شيء ويَعْجز عنهم، قال عمير: فاكتم عنّي شأني وشأنك، قال: أفعل. ثم أمر عمير بسيفه فشُحِذ له وسُمَّ، ثم انطلق حتى قدم المدينة. فبَيْنا عمر بن الخطاب في نفر من المسلمين يتحدثون عن يوم بدرٍ ويذكرون ما أكرمهم الله به وما أراهم من عدوّهم، إذ نظر عمر إلى عُمَير بن وهب حين أناخ على باب المسجد متوشّحاً السيف، فقال: هذا الكلب عدوّ الله عُمير بن وهب ما جاء إلا لشر، وهذا الذي حرَّش بيننا وحزَرنا للقوم يومَ بدر.

ثم دخل عمر على رسول الله ﷺ فقال: يا نبيّ الله، هذا عدو الله عمير بن وهب، قد جاء متوشّحاً سيفه. قال: فأدْخله عليّ. فأقبل عمر حتى أخذ بِحمَالة سيفه في عنقه فلبَّبَه بها وقال لرجال من الأنْصَار كانوا معه: ادخلوا على رسول

(١) المصدر السابق ج١ ص ٦٦١ ـ ٦٦٤.

الله ﷺ فاجلسوا عنده واحذروا عليه هذا الخبيث فإنه غير مأمون. ثم دخل به، فلما رآه رسول الله ﷺ كذلك قال: أرسِلْه يا عمر، أُدْنُ يا عُمَير. فدنا ثم قال: أنعموا صباحاً، وكانت تحية أهل الجاهلية بينهم، فقال رسول الله ﷺ: «قد أكرمنا الله بتحيةٍ خير من تحيتك يا عمير، بالسلام، تحية أهل الجنة». قال: أمَا والله إنْ كنت بها يا محمد لَحَديثَ عَهْد. قال: فما جاء بك يا عمير؟ قال: جئت لهذا الأسير الذي في أيديكم فأحسِنوا فيه، قال: فما بال السيف في عنقك؟ فقال: قبَّحها الله من سيوف، وهل أغنت شيئاً! قال: اصدقني، ما الذي جئت له؟ قال: ما جئتُ إلا لذلك. قال: بلى، قعدتَ أنت وصَفْوان بن أمية في الحِجر، فذكرتما أصحابَ القَليب من قريش، ثم قلتَ: لولا دَيْن عليّ وعيالٌ عندي لخرجتُ حتى أقتل محمداً، فتحمَّل لك صَفْوان بدَيْنك وعيالك على أن تقتلني له، والله حائلٌ بينك وبين ذلك. قال عمير: أشهد أنك رسول الله، قد كنا يا رسول الله نكذِّبك بما كنت تأتينا به من خبرَ السماء وما يَنْزل عليك من الوَحْي، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان، فوالله إنّي لأعلم ما أتاك به إلا الله، فالحمد لله الذي هداني للإسلام وساقني هذا المسَاق. ثم شهد بشهادَةَ الحقّ، فقال رسول الله ﷺ: «فَقِّهوا أخاكم في دِينه، وأقرئوه القرآن، وأَطْلقوا له أسيره» ففعلوا.

ثم قال: يا رسول الله، إني كنت جاهداً على إطفاء نور الله، شديد الأذى لمن كان على دين الله، وأنا أُحِبُّ أن تأذن لي فأقدم مكة فأدعوهم إلى الله وإلى الإسلام، لعل الله يهديهم، وإلا آذيتهم في دينهم كما كنت أوذِي أصحابك في دينهم.

فأذِن له رسول الله ﷺ فلحق بمكة. وكان صفوان حين خرج عمير يقول: أبشروا بوقعة تأتيكم الآن في أيام تُنْسيكم وقعة بدرٍ. وكان يسأل عنه الركبان، حتى قدم راكبٌ فأخبره عن إسلامه، فحلف أن لا يكلمه أبداً ولا ينفعه بنفع أبداً، فلما قدِم عميرٌ مكة أقام بها يدعو إلى الإسلام ويؤذي من خالفه أذى شديداً، فأسلم على يديه ناس كثير.

وعمير هذا أو الحارث بن هشام ـ يشك ابن إسحاق ـ هو الذي رأى إبليسَ حين نكص على عقبيه يومَ بدر فقال: أين أَيْ سُرَاق؟ ومثل عدوُّ الله فذهب. فأنزل الله ـ تبارك وتعالى ـ فيه: **﴿وإذْ زَيَّنَ لهم الشيطانُ أعمالَهم وقالَ لا غالبَ لكم اليومَ من الناسِ وإني جارٌ لكم﴾** [٤٨ : الأنفال] فذكر استدراجَ إبليس إياهم بتشبّهه[١] بسُراقة بن مالك بن جُعْشم لهم حين ذكروا ما بينهم وبين بني بكر من الحرب، يقول الله عز وجل: **﴿فلما تراءَتِ الفِئَتانِ﴾** ونظر عدوُّ الله إلى جنود الله من الملائكة قد أيّدَ الله بهم رسولَه والمؤمنين على عدوّهم **﴿نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْه وقال: إنِّي بَرِيءٌ منكم إنِّي أَرَى ما لا تَرَوْن﴾** وصدق عدوُّ الله الكَذُوب، رأى ما لم يروا وقال: **﴿إنِّي أَخَافُ اللَّهَ واللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾** فذكر أنهم كانوا يرونه في كل منزلٍ في صورة سُرَاقَةَ لا ينكرونه، حتى إذا كان يوم بدر والتقى الجمعان نَكَص على عقبية فأوردهم ثم أسلَمهم.

وفي ذلك يقول حسّان بن ثابت:

قَوْمِي الذين هُمُ آوَوْا نبيَّهمُ ... وصَدَّقُوهُ وأهلُ الأرضِ كُفَّارُ
إلاَّ خصائص أقوامٍ هُمُ سَلَفٌ ... للصالحين مع الأنصارِ أنصارُ
مُسْتبشرين بِقَسْمِ الله قولُهُمُ ... لَمّا أتاهم كريمُ الأصلِ مُخْتَارُ
أهلاً وسهْلاً ففي أَمْنٍ وفي سَعةٍ ... نِعْمَ النبيُّ ونعمَ القَسْمُ والجارُ
فأَنْزلوه بدارٍ لا يخافُ بها ... من كان جارَهمُ داراً هي الدارُ
وقاسموهم بها الأموالَ إذ قدموا ... مهاجِرين وقَسْمُ الجاحدِ النارُ
سِرْنا وساروا إلى بَدْرٍ لحَيْنِهم ... لو يعلمون يقينَ العِلْم ما سارُوا
دَلاَّهُمُ بغُرورٍ ثم أَسْلَمهم ... إنّ الخبيثَ لمن والاه غَرَّارُ
وقال إنّي لكم جار فأوردَهُم ... شرَّ الموارِدِ فيه الخِزي والعارُ
ثم التقينا فولّوا عن سَراتهم ... من مُنْجدين ومنهم فِرْقةٌ غارُوا

[البسيط]

ويُروَى أنَّ قريشاً رأوا سُرَاقة الْمُدْلجي بعد وقعة بدر، وهو الذي تمثّل لهم

١) في الأصل: «بتشبيهه».

إبليس في صورته يومَ بدر كما تقدم، فقالوا له: يا سُرَاقَة، أَخْرمتَ الصفَّ وأوقَعْتَ فينا الهزيمة؟! فقال: والله ما علمتُ بشيء من أمركم حتى كانت هزيمتكم، وما شهدتُ معكم. فما صدّقوه حتى أسلموا وسمعوا ما أنزل الله في ذلك، فعلموا أنه كان إبليس تمثَّل لهم.

ولَمّا انقضى أمر بدرٍ، أنزل الله ـ تبارك وتعالى ـ فيه من القرآن «الأنفالَ» بأسْرها.

وكان جميع من شهد بدراً من المسلمين من المهاجرين والأنصار، من شهدها ومن ضُرِب له بسْهمه وأجره ثلاثمائة رجل وأربعة عشر رجلاً، من المهاجرين ثلاثة وثمانون رجلاً: ثلاثة منهم ضُرِبَ لهم بسهامهم وأجورهم ولم يشهدوا،

٦٠ أ وهم: عثمان بن عفان، تخلّف على امرأته رقية بنت رسول الله ﷺ/ لمرضها الذي توفيت فيه قبل أن يرجع رسول الله ﷺ من بدر، فضرب له رسول الله ﷺ بسهمه. قال: وأجري يا رسول الله؟ قال: وأجرك. وطلحة بن عبيد الله، وسعيد بن زيد، كانا بالشام فرجعا بعد رجوع رسول الله ﷺ من بدر، فضرب لكلَيْهما بسهمه. قال: وأجري يا رسول الله؟ قال: وأجرك.

ومن الأوس: واحد وستون، اثنان منهم ضُرِب لهما بسهميهما: عاصم بن عدِيّ العَجْلاني، رده رسول الله ﷺ بعد أن خرج معه وضرب له بسهمه، وخوَّات بن جُبَير ضرب له ـ أيضاً ـ بسهمه.

ومن الخزرج مائة وسبعون رجلاً، منهم الحارث بن الصِّمّة كُسِر به بالروحاء فضرب له رسول الله ﷺ بسهمه.

واستشهد ـ يومئذ ـ من المسلمين مع رسول الله ﷺ أربعة عشر رجلاً: ستة من قريش: عُبَيْدة بن الحارث بن المطَّلب، وعُمَيْر بن أبي وقاص الزُّهْري، وذو الشِّمالين بن عبد عمرو حليفٌ بني زهرة، وعاقل بن البُكَير حليف لبني عَدِيّ، ومِهْجَع مولى عمر بن الخطاب، وصفوان بن بَيْضَاء.

ومن الأنصار ثمانيةُ نفر، خمسة من الأوس: سعد بن خيثمة، ومبشّر بن عبد

المنذر من بني عمرو بن عوف، ويزيد بنُ الحارث الذي يقال له: ابن فُسْحم من بني الحارث بن الخزرج، وعُمَيْر بن الْحُمَام من بني سَلِمَةَ، ورافع بن المعلّى من بني جُشَم.

وثلاثةٌ من الخزرج من بني النجّار: حارثة بن سُرَاقة، وعوف ومُعَوِّذ ابنا الحارث بن رفاعة منهم، وهما ابنا عفراء، رحمة الله على جميعهم ورضوانه.

وكان مع المسلمين يوم بدرٍ من الخيل فَرَس الزبير بن العوام، وفرس مَرْثِد بن أبي مرثدٍ الغَنَوي، وفرس المقداد بن عمرو البَهْرانيّ.

وذكر ابن إسحاق(1) أن جميع من أُحْصِيَ له من قتلى قريش من المشركين يوم بدر خمسون رجلاً. وقال ابن هشام: حدثني أبو عبيدة عن أبي عمرو أنَّ قَتْلَى بدرٍ من المشركين كانوا سبعين رجلاً والأسرى كذلك، وهو قول ابن عباس وسعيد بن المسيَّب. وفي كتاب الله تبارك وتعالى: ﴿**أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا**﴾ يقول لأصحاب أُحُد ـ وكان من أستشهد منهم سبعين رجلاً ـ يقول: قد أصبتم يومَ بدرٍ مِثْلَيْ من استشهد منكم يوم أُحدٍ: سبعين قتيلاً وسبعين أسيراً.

وأنشدني أبو زيد الأنصاري لكعب بن مالك من قصيدة له ينعي قتلى بدرٍ:

فأقامَ بالعَطَنِ المعطّنِ منهم سبعون عُتْبَةُ منهمُ والأسودُ

[الكامل]

وكان مما قيل في يوم بدر من الشعر: قول حمزة بن عبد المطّلب يرحمه الله، ومن أهل العلم من ينكرها له:

أَلَم تر أمراً كان من عجبِ الدهرِ وللحَيْنِ أسبابٌ مُبيَّنةُ الأمرِ
وما ذاك إلا أن قوماً أفادهم فحانُوا تواصٍ بالعقوق وبالكفر
عشيةَ راحوا نحو بَدْرٍ بِجَمْعهم فكانوا رُهوناً للركيَّةِ من بَدْرِ
وكنا طَلَبْنا العِيرَ لم نبغِ غيرها فساروا إلينا فالتقينا على قَدْرِ

(1) المصدر السابق ج1 ص 706 ـ 708.

فلما التقينا لم تكن مَثْنَوِيَّةٌ ... لنا غير طَعْنٍ بالمثقفة السُّمْرِ
وضرْبٍ ببيض يختلي الهامَ حدُّها ... مشهَّرَةُ الألوان بَيِّنة الأُثْرِ
ونحن تركْنا عُتْبة الغَيِّ ثاوياً ... وشَيْبَة في قتلي تُجَرْجَمُ في الْجَفرِ
وعمرٌو ثوَى فيمن ثوَى من حُمَاتهم ... فشُقَّت جيوب النائحات على عمرو
جُيوب نساءٍ من لُؤَيّ بن غالبٍ ... كرامٍ تَفَرَّعْنَ الذوائبَ من فِهْرِ
أولئك قوم قُتِّلوا في ضلالهم ... وخلَّوا لواءً غير مُحْتَضَر النَّصرِ
لواءُ ضَلالٍ قَادَ إبليسُ أهلَه ... فخَاسَ بهم إنَّ الخبيث إلى غَدْرِ
وقال لهم إذْ عاين الأمرَ واضحاً ... بَرِئْتُ إليكم ما بِيَ اليومَ من صَبْرِ
فإنِّي أرَى ما لا تَرون وإنني ... أخاف عقابَ اللهِ واللهُ ذو قَسْرِ
فقدَّمهم "للحَيْنِ" حتّى تورَّطوا ... وكان بما لم يُخْبَرِ القومُ ذا خُبْرِ
فكانوا غداةَ البئرِ ألْفاً وجَمْعُنَا ... ثلاث مِئِينٍ كالمسَدَّمة الزُّهْرِ
وفينا جنُودُ الله حين يُمِدُّنا ... بهم في مقامٍ ثَمَّ مُسْتَوْضَحِ الذِّكْرِ
فشدَّ بهم جبريل تَحتَ لوائنا ... لدَى مَأْزِقٍ فيه منَاياهُمُ تجري[1]

[الطويل]

وقال علي بن أبي طالب[2] ـ رضي الله عنه ـ في يوم بدر ، ولم ير ابن هشام أحداً يعرفُها من أهل العلم بالشعر:

ألم تر أنَّ الله أبْلَى رسولَه ... بلاءَ عزيزٍ ذي اقتدارٍ وذي فضلِ
بما أنزل الكفارَ دار مَذلَّةٍ ... فلاقَوا هَواناً من إسَارٍ ومن قَتْلِ
فَأَمْسَى رسولُ الله قد عَزَّ نَصْرُه ... وكان رسول الله أُرْسِلَ بالعدلِ
فجاءَ بفرقانٍ من الله مُنزَلٍ ... مُبَيَّنةٌ آياته لذوي العقلِ
فآمَن أقوامٌ بذاك وأيقنوا ... فأمسَوْا بحمد اللهِ مجتمعي الشملِ
وأنْكَرَ أقْوامٌ فزاغت قلوبُهم ... فزادهُم ذو العرش خَبْلاً على خبْلِ
وأمْكَنَ منهم يومَ بدرٍ رسولَه ... وقوماً غِضاباً فِعلُهم أحسنُ الفعلِ

(١) المصدر السابق ج٢ ص ٨ ـ ٩.
(٢) نفسه ج ٢ ص ١١ ـ ١٢.

بأيديهم بيضٌ خِفَافٌ عَصُوا بها ... وقد حادَثوها بالجلاءِ وبالصَّقلِ
فكم تركوا من ناشيءٍ ذي حَمِيَّةٍ ... صَريعٍ[1] ومن ذي نجدةٍ منهم كهلِ
تبيت عيونُ النائحات عليهمُ ... تجود بإسبال الرشاشِ وبالوبْلِ
نوائحُ تنعي عُتْبةَ الغيِّ وابنَه ... وشَيْبةَ تَنْعاه وتنعَى أبا جهلِ
وذا الرِّجْلِ تنعَى وابن جُدْعان فيهمُ ... مَسَلِّبةٌ حَرَّي مبيِّنَة الثُّكْلِ
ثوَى منهمُ في بئر بدرٍ عِصابةٌ ... ذَوي نَجداتٍ في الحروب وفي الْمَحْلِ
دعا الغيُّ منهم من دعا فأجابه ... ولِلْغَيِّ أسبابٌ مرمّقةُ الْوَصلِ
فأضحوا لدَى دارِ الجحيم بمَعْزِلٍ ... عن الشَّغْبِ والعُدْوان في أَشْغَلِ الشغلِ

[الطويل]

وقال كعب بن مالك(١) أخو بني سلَمة يذكر بدراً:

عَجِبْتُ لأمْرِ اللهِ والله قادرٌ ... على ما أرادَ ليس لله قاهرُ
قضَى يوم بدرٍ أنْ نُلاَقِيَ مَعْشراً ... بَغَوْا وسبيلُ الغيِّ في النار جائرُ
وقد حشَدُوا واستنفَروا من يليهمُ ... من الناس حتى جَمْعُهم متكاثرُ
وسارت إلينا لا تحاول غيرَنا ... بأجمعها كعبٌ جميعاً وعامرُ
وفينا رسول الله والأوس حوله ... له معقل منهم عزيز وناصرُ
وَجَمْع بني النجّارِ تحت لوائه ... يمشّون في الماذِيِّ والنَّقْع ثائرُ
فلما لقيناهم وكلٌّ مجاهدٌ ... لأصحابه مُسْتَبْسِلُ النفسِ صابرُ
شَهِدْنَا بأنَّ اللهَ لا ربَّ غيره ... وأنّ رسولَ الله بالحق ظاهرُ
وقد عُرِّيَتْ بيضٌ خِفَاف كأنها ... مَقَاييس يزْهيها لعينيك شاهِرُ
بهن أبَدْنا جَمْعهم فتبدَّدوا ... وكان يلاقِي الحيْنَ من هو فاجرُ
فكُبَّ أبو جهل صريعاً لِوجهه ... وعُتْبة قد غادَرْته وهو عاثِرُ
/وشَيْبة والتَّيْميَّ غادَرْن في الوغى ... وما منهما إلا بِذِي العَرْشِ كافرْ ٦٠ ب
فأمسَوا وقودَ النار في مُستقرِّها ... وكل كَفُورٍ في جهنم صائرُ

---

١) في الأصل: «صريعاً».

---

(١) المصدر السابق ج٢ ص١٤ ـ ١٥.

تلظَّى عليهم وهي قد شُبَّ حَمْيُها ... بزبْر الحديد والحجارةِ ساجرُ
وكان رسول الله قد قال أقْبِلوا ... فولَّوْا وقالوا إنما أنت ساحرُ
لأمَرٍ أراد الله أن يَهْلِكوا به ... وليس لأمرٍ حَمَّه الله زاجرُ

[الطويل]

ولضِرار بن الخطاب الفِهْريّ في هذا الرويّ شعرٌ، ذكر ابن إسحاق(١) أن كعب بن مالك أجابه عنه بهذا الشعر الذي كتبناه آنفاً، والأظْهَرُ من [مقتضى] الشْعر أن ضِراراً هو الذي أجاب كعبَ بن مالك ونقَض عليه. وهذا شعر ضرار:

عجبتُ لفخر الأوْسِ والْحَيْنِ دائرٌ ... عليهم غداً والدهرُ فيه بصائرُ
وفخر بني النجار أنْ كان معشرٌ ... أُصيبوا ببدرٍ كلهم ثَمَّ صابرُ
فإن تك قتلَى غُودِرَتْ من رجالنا ... فإنَّا رجالٌ بعدهم سنغادرُ
وتَرْدِي بنا جُرْدٌ عَنَاجِيجُ وَسْطَكُم ... بني الأوس حتى يَشْفي النفسَ ثائرُ
ووسْط بين النجار سوف نكُرُّها ... لها بالقَنَا والدَّارِعينَ زَوافرُ
فنترك صرعَي تَعْصِبُ الطيرُ حولهم ... وليس لهم إلا الأمانيَّ ناصِرُ
وتبكيهمُ من أهل يثرب نِسْوَةٌ ... لهنَّ بِهالَيْلٌ عن النومِ ساهرُ
وذلك أنَّا لا تزالُ سيوفنا ... بهن دمٌ ممن يُحَارِبْنَ مائرُ
فإنْ تظفَروا في يوم بدرٍ فإنما ... بأَحْمَدَ أمسَى جدُّكم وهو ظاهِرُ
وبالنَّفرِ الأخيار هم أولياؤه ... يُحامون في الّلأْواءِ والموتُ حاضِرُ
يُعَدُّ أبو بكر وحمزة منهم ... ويُدْعَى عليٌّ وَسْطَ من أنت ذاكرُ
أولئك لا من نَتَّجَتْ في ديارها ... بنو الأوسِ والنَّجّار حين تفاخِرُ
ولكنْ أبوهم من لُؤَيِّ بن غالبٍ ... إذا عُدَّت الأنسابُ كعبٌ وعامرُ
هم الطّاعِنُون الخيل في كل مَعْركٍ ... غَدَاةَ الهياج الأطيبون الأكاثرُ

[الطويل]

---

(١) المصدر السابق ج٢ ص ١٣ ـ ١٤.

ومن شعر حسَّان بن ثابت[1] يُعَرِّضُ بالحارث بن هشام وفراره عن يوم بدرٍ:

إن كنتِ كاذبة الذي حَدَّثْتِني ... فَنَجَوْتِ مَنْجَى الحارِث بن هشامِ
ترك الأحبّة أن يُقَاتِلَ دونهم ... ونجا برأسِ طِمرَّةٍ ولجام

[الكامل]

فأجابه الحارث بن هشام[2] ـ فيما ذكر ـ فقال:

اللهُ أَعْلَم ما تركت قتالهم ... حتى عَلَوْا فَرَسِي بأشقَر مُزْبِدِ
وعرفتُ أنّي إنْ أقاتلْ واحداً ... أُقتَلْ ولا يَضْرُرْ عدوِّيَ مَشْهدِي
فصدَدْتُ عنهم والأحبة فيهمُ ... طمعاً لهم بعقابِ يومٍ مُفسِد

وقال حسان بن ثابت[3] أيضاً، ويقال: إنها لعبد الله بن الحارث السَّهمي، يشبه أنها من قصيدة:

مُسْتَشْعِري حَلَق الماذيِّ يَقْدُمهم ... جَلْدُ النَّحيزة ماضٍ غير رِعْديدِ
أعني رسولَ الإلٰه الحقِّ فضَّله ... على البريَّةِ بالتقوى وبالجودِ
وقد زعمتم بأن تحموا ذِمَّاركُم ... وماءَ بدرٍ زعمتُمْ غير مَوْرُودِ
ثم ورَدْنا ولم نسمع لقولكمُ ... حتى شربنا رِوَاءً غير تصريدِ
مستعصمين بحبلٍ غير مُنْجَذمٍ ... مُسْتحكم من حبال الله ممدودِ
فينا الرسول وفينا الحق نَتْبعه ... حتى المماتِ ونصرٌ غير محدودِ

[البسيط]

وقال حسان بن ثابت أيضاً:

ألا ليت شِعري هل أتى أَهْلَ مكةٍ ... إبادتُنا الكفارَ في ساعة العُسْرِ
قتلنا سَرَاةَ القوم عند مجالنا ... فلم يرجعوا إلا بقاصمة الظَّهرِ
فكم قد قتَلْنا من كريم مرزء ... له حسَبٌ في قومه نابهُ الذِّكْرِ
تركناهمُ لِلْعاوياتِ يَنُبْنَهم ... ويَصْلَوْن ناراً بَعْد حامية القَعْرِ

(١) نفسه ج ٢ ص ١٧.
(٢) المصدر السابق ج٢ ص ١٨.
(٣) نفسه ج٢ ص٢٠.

لَعَمْرك ما حامتْ فوارسُ مالكٍ   وأشياعهم يومَ التقينا على بَدْرِ
[الطويل]

وقال عُبيْدة بن الحارث بن الْمطَّلب(1) في يوم بدر، يَذْكر مبارزته هو وحمزة وعليٍّ عدوَّهم، وما كان من إصابة رِجْله يومئذٍ. قال ابن هشام: وبعض أهل العلم بالشعر ينكرها له:

ستَبْلغ عنا أهلَ مكةَ وقعةٌ   يهب لها من كان عن ذاك نائيا
بعُتْبة إذ ولّي وشيبةُ بعده   وما كان فيها بِكْرُ عُتْبَةَ راضيا
فإن تَقْطَعوا رجْلي فإنّيَ مُسْلمٌ   أرجّي بها عيشاً من الله دانيا
مع الحور أمثال التماثيل أُخْلِصت   مع الجنّةِ العُلْيا لمن كان عاليا
وبعْتُ بها عيشاً تعرَّفتُ صَفْوَه   وعالجتُه حتى فقدتُ الأدانيا
وأكرَمني الرحمنُ من فضل مَنِّه   بثوبٍ من الإسلام غطّى الْمَساويا
وما كان مكروهاً إليَّ قتالُهم   غَدَاةَ دَعا الأكفاءَ مَن كان داعيا
لَقيناهم كالاسْد تَعْثرُ بالقَنا   نُقاتل في الرحمن من كان عاصيا
فما بَرِحَتْ أقدامُنا منْ مُقَامنا   ثلاثتنا حتى أزيروا الْمَنائِيا
[الطويل]

قال ابن هشام(2): لما أصيبت رِجْل عبيدة قال: أمَا والله لو أدرك أبو طالب هذا اليومَ لعلم أني أحق منه بما قال حين يقول:

كذَبْتم وبيتِ اللهُ نبْزَي محمداً   ولمّا نطاعن حولَه ونُناضِل
ونُسْلمهُ حتى نُصرَّعَ حَوْلَه   ونَذْهَلَ عن أبنائنا والحلائل
[الطويل]

ولمَّا هلك عبيدة بن الحارث من مُصَاب رِجله قالت هند ابنة أُثاثة بن عَبَّاد بن المطلب(3) ترثيه وكانت وفاته بالصفراء، وبها دفن يرحمه الله تعالى:

لقد ضمَّن الصَّفْراء مجداً وسؤدَداً   وحِلْماً أصيلاً وافرَ اللُّب والعقلِ

(1) المصدر السابق ج2 ص20 - 24.
(2) نفسه ج2 ص24.
(3) نفسه ج2 ص24 - 25.

عبيدةُ فابكيه لِأضْيَافِ غُرْبَةٍ وأرملةٍ تَهْوِي لأشعثَ كالجِذْلِ
وبكِّيه للأقوامِ في كلِ شَتْوةٍ إذا احمرَّ آفاقُ السماءِ من الْمَحْلِ
وبكِّيه للأيتامِ والريحُ زَفْزَفٌ وتشتيتُ قِدْرٍ طال ما أَزْبَدَت تَغْلي
فإن تُصبح النيران قد مات ضوؤها فقد كان يُذْكِيهنَّ بالحطَبِ الجَزْلِ
لِطَارِق ليلٍ أو لملتمس القِرَى ومُسْتَنْبِحٍ أَضْحَى لديه على رِسْلِ

[الطويل]

وقال طالب بن أبي طالب[1] يمدح النبي ﷺ، ويبكي أصحاب القليب من قريش:

ألاَ إنّ عيني أنفدَتْ ماءَها سَكْباً تبكّي على كعبٍ وما إنْ تَرَى كعْبا
ألاَ إن كعباً في الحروب تخاذَلوا وأرداهمُ ذا الدهرُ واجترحوا ذَنْبَا
وعامرُ تَبْكي للملمات غُدوةً فيا ليت شعري هل أرى لهما قُرْباً
هما أخواي لن يُعَدّا لغيَّةٍ تُعدّ ولن يُستامَ جارُهما غَصْبَا
فيا أَخَوَيْنا عبدَ شمسٍ ونوفلاً فِداً لكما لا تبعثوا بَيْننا حَرباً
وَلاَ تُصْبحوا من بعد ودٍّ وألفةٍ أحاديثَ فيها كلُّكم يَشْتكي النَّكْبَا
ألم تَعْلموا ما كان في حَرْب دَاحسٍ وجيش أبي يَكْسُومَ إذْ ملأوا الشِّعْبَا
فلولا دفاع الله لا شيءَ غيره لأصبحتُم لا تَمْنعون لكم سَرْبَا
فما إنْ جَنيْنَا في قريشٍ عظيمةً سوى أن حَمَيْنا خيرَ من وطىء التّربَا
أَخَا ثِقةٍ في النائباتِ مُرزَّأً كريماً ثناه لا بخيلاً ولا ذَرِبَا
يُطيف به العافون يَغْشون بابه يَؤُمُّون نهراً لا نَزُوراً ولاَ صَرْبَا
/فوالله لا تنفكُّ نفسي حزينةً تَمَلْمَل حتى تَصْدقوا الخزرج الضَّرْبَا ٦١ أ

[الطويل]

وكانت وقعة بدر يوم الجمعة، لسبع عشرة من شهر رمضان، وكان فراغ رسول الله ﷺ منها في عقبه أو في شوّال بعده.

---

(١) المصدر السابق ج٢ ص٢٦ ـ ٢٧.

فلما قدِم المدينة لم يقم بها إلا سبع ليال حتى غزا بنفسه يريد بني سُلَيم، فبلغ ماء من مياههم يقال له: الكُدْر، فأقام عليه ثلاثَ ليال، ثم رجع إلى المدينة ولم يَلْق كيداً، فأقام بها بقية شوال وذا القعدة وأفدى في إقامته تلك جُلَّ الأساري من قريش[(١)].

وكان أبو سفيان بن حرب حين رجع فَلُّ قريش من بدرٍ نَذَرَ أن لا يمسَّ رأسَه ماءٌ من جَنابة حتى يغزو محمداً ﷺ، فخرج في مائتي راكب من قريش لتَبرَّ يمينهُ، فسلَكَ النَّجديَّة حتى نزل بصَدْر قناة، على بَريد أو نحوه من المدينة، ثم خرج من الليل حتى أتي بني النضير تحت الليل، فأتي حُيَيَّ بن أَخطَب فضرب عليه بابه، فأبَى أن يفتح له وخافه، فانصرف عنه إلى سَلاَّم بن مِشْكَم، وكان سيد بني النَّضير في زمانه ذلك وصاحب كَنْزهم، فاستأذن عليه فأذن له فقراه وسقاه وبطَن له من خبَر الناس، ثم خرج في عَقِب ليلته حتى أتي أصحابه، فبعث رجالاً منهم، فأتوا ناحيةَ العُرَيض فحرقوا بها أصوار نخل وقتلوا رَجُلاً من الأنصار وحليفاً له في حَرْثٍ لهما، ثم انصرفوا راجعين، ونَذِر بهم الناسُ، فخرج رسول الله ﷺ في طلبهم حتى بلغ قَرْقرة الكُدْرِ، ثم انصرف وقد فاتَه أبو سفيان بن حرب وأصحابُه، وطرَحوا من أزوادهم يتخفّفون منها للنَّجاء، وكان أكثر ما طرحوه السَّويق، فهجم المسلمون على سويق كثير، فسمِّيت غزوة السَّويق، فقال المسلمون حين رجع بهم رسول الله ﷺ: يا رسول، أتطمع لنا أن تكون غزوةً؟ قال: نعم[(٢)].

ثم غزا رسول الله ﷺ نجداً يريد غطفان، وهي غزوة ذي أَمَرٍ، فأقام بنجدٍ ثم رجع ولم يلق كيْداً.

ثم غزا قريشاً حتى بلغ بَحْران - معدناً بالحجاز من ناحَية الفُرُع - ثم رجع منه إلى المدينة ولم يلق كيداً، وذلك بعد مقامه به نحواً من شهرين، ربيع الآخر وجُمادَى الأولى من سنة ثلاث[(٣)].

---

(١) المصدر السابق ج٢ ص٤٣ - ٤٤.
(٢) نفسه ج٢ ص٤٤ - ٤٦.
(٣) نفسه ج ٢ ص ٤٦.

أمرُ بني قَيْنُقَاع

وكان فيما بين ما ذكر مِن غَزْو رسول الله ﷺ أمرُ بني قينقاع.

وكانوا أولَ يهود نقضوا ما بينهم وبين رسول الله ﷺ وحاربوا فيما بين بدرٍ وأحدٍ.

وكان رسول الله ﷺ جمعهم في سوقهم، ثم قال: «يا معشر يهود احذروا من الله مثلَ ما نزل بقريش من النِّقمة وأَسْلِموا، فإنكم قد عرفتم أنّي نبيٌّ مرسَل، تجدون ذلك في كتابكم وعَهْد الله إليكم».

قالوا: يا محمد، إنك ترى أنّا قومُك! لا يغرنّك أنك لقيتَ قوماً لا عِلْم لهم بالحرب فأصبتَ منهم فُرصةً، إنّا والله لئن حاربناك لتعلَمَنَّ أنّا نحن الناس.

فقال ابن عباس[1]: ما أُنزل هؤلاء الآيات إلا فيهم: ﴿**قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ**﴾. [آل عمران: ١٢: ١٣].

وكان مَنْشأ أمرهم: أن امرأة من العرب قدمت بَجَلَبٍ لها فباعته بسوق قَيْنُقَاع وجلست إلى صائغ بها، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها فأبَتْ، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها، فلما قامت انكشفت سَوْءتها، فضحكوا بها فصاحت، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله، وكان

---

(١) المصدر السابق ج٢ ص٤٧.

يهوديًا، فشدَّت اليهودُ على المسلم فقتلوه، فاستصرَخَ أهلُ المسلم المسلمين على اليهود، فأغضب المسلمون فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع.

حُلفاء الخزرج، فأبطأ عليه رسول الله ﷺ، فقال: يا محمد أحسنْ في مواليّ، فأعرض عنه رسول الله ﷺ فأدخل يد ـه في جيب دِرْع رسول الله ﷺ وكان يقال لها: ذات الفُضول، فقال له: أَرسِلْني ى! وغضب ﷺ حتى رأوا لوجهه ظُللاً، ثم قال: ويحك أَرسِلْني. قال: لا والله لا أرسلك حتى تحسِن في مواليّ، أربعمائة حاسِر وثلاثمائة دارع قد منعوني من الأ حمر والأسود تَحْصُدهم في غَداةٍ واحدةٍ! إني والله امرؤٌ أخشى الدوائر، فقال رسو ل الله ﷺ: هُمْ لَكَ.

ولما حاربت بنو قينقاع تَشَبَّثَ عبدُ الله بن أُبيّ بأمرهم وقام دونهم، قال: مشى عبادة بن الصامت، وكان أحدَ بني عو ف، لهم من حِلْفه مثل الذي لهم من عبد الله بن أُبيّ، إلى رسول الله ﷺ فخلـ ـعهم إليه وتبرأ إلى الله وإلى رسوله من حلْفهم، وقال: يا رسول الله، أتولَّى اللَّهَ ورسوله والمؤمنين، وأبرأ من حِلْف هؤلاء الكفار وولايتهم.

ففيه وفي عبد الله بن أُبيّ نزلت [ه ـذه] القصة من المائدة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لاَ يَ ـهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ يريد عبد الله بن أ ـبيّ ﴿يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ، فَعَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾. ثم القصة إلى قوله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُو نَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ وذلك لتولّي عُبادة بن الصا مت اللهَ ورسوله والذين آمنوا، وتبرّيه، من بني قينقاع وحِلْفهم وولايتهم ﴿وَ مَنْ يَتَوَلَّ الله وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾(1) [المائدة: ٥١ ـ ٥٦].

(1) المصدر السابق ج٢ ص٤٧ ـ ٥٠.

سرية زيد بن حارثة

ولمـا كان من وقعة بدر ما كان، خافت قريش طريقَهم التي كانوا يَسْلكون إلى الشام،فسلكوا طريق العراق، فخرج منهم// تجار فيهم أبو سفيان بن حرب، ٦١ ب
ومعه فضة كثيرة وهي عُظْمُ تجارتهم، وبعث رسول الله ﷺ زيدَ بن حارثة فلقيهم على القَرَدَة ـ ماء من مياه نجدٍ ـ فأصاب تلك العيرَ وما فيها وأعجزه الرجالُ فقَدِم بها على رسول الله ﷺ.

فذلك الذي يعني حسّان بن ثابت بقوله في غزوة بدر الآخرة يؤنّب قريشاً في أخذهم تلك الطريق:

دَعُوا فَلَجَاتِ الشام قد حالَ دُونها ... جِلاَدٌ كأفواه المخاض الأوارك
بِأَيْدِي رجالٍ هاجرُوا نحو ربّهم ... وأنصارِه حقًّا وأيدي الملائك
إذا سَلكتْ للغَوْر من بطن عالجٍ ... فقُولا لها ليس الطريق هُنَالك(١)

[الطويل]

* * *

(١) المصدر السابق ج٢ ص ٥٠ ـ ٥١.

مقتل كعب بن الأشرف(١)

ولما بعث رسول الله ﷺ زيدَ بن حارثة وعبد الله بن رواحة بشيرَيْن إلى من بالمدينة من المسلمين بفَتْح الله عليه وقَتْل من قُتل من المشركين ببدر، قال كعب بن الأشْرف وكان رجلاً من طيء، ثم أحد بني نَبْهان، وأمه من بني النَّضِير، حين بلَغه هذا الخبر: أحقٌّ هذا؟ أترون أن محمداً قَتل هؤلاء الذين يسمِّي هذان الرجلان؟ فهؤلاء أشراف العرب وملوك الناس، والله لئن كان محمدٌ أصاب هؤلاء القوم لَبَطْن الأرض خير لي من ظهْرها.

فلما تبيّن عدوّ الله الخبرَ، خرج حتى قدِم مكة، فجعل يحرّض على رسول الله ﷺ وينشد الأشعار، ويبكي أصحاب القَلِيب من قريش، ثم رجع إلى المدينة فشبَّب بنساء المسلمين حتى آذاهم.

فقال رسول الله ﷺ: من لي من ابن الأشرف؟ فقال له محمد بن مَسْلمة الأشْهلي: أنا لك به يا رسول الله، أنا أقتله. قال: فافعل إن قدرْت على ذلك.

فرجع محمد بن مَسْلمة فمكث ثلاثاً لا يأكل ولا يشرب إلا ما يُعْلق به نفسه، فذُكر ذلك لرسول الله ﷺ فدعاه فقال له: لم تَركتَ الطعام والشراب؟ فقال يا رسول الله، قلت لك قولاً لا أدري هل أَفِيَنّ لك به أم لا. قال: إنما عليك الْجَهْد، قال: يارسول الله، لا بد لنا من أن نقول. قال: قولوا ما بدا لكم فأنتم في حِلٍّ من ذلك.

فاجتمع في قتله محمد بن مَسْلمة، وسِلْكان بن سلامة أبو نائلة، وعبّاد بن بشْر والحارث بن أَوْس، وكلهم من بني عبد الأشهل، وأبو عَبْس بن جَبْر أخو بني

---

(١) المصدر السابق ج٢ ص٥١ ـ ٥٨.

حارثة، ثم قدّموا إلى عدو الله ابن الأشرف سِلْكان بن سلامة وكان أخاه من الرضاعة، فجاءه فتحدث معه ساعةً ثم قال: ويحك يا ابن الأشرف! إني قد جئتك لحاجة أريد ذكرها لك فاكتم عني، قال: أفعل، قال: كان قدوم هذا الرجل علينا بلاءً من البلاء، عادَتْنا العرب ورمَتْنا عن قوس واحدة، وقُطعت عنا السُّبل حتى ضاع العيال وجُهِدت الأنفس. فقال كعب: أنا ابن الأشرف! أمَا والله لقد كنت أخبرك يا ابن سلامة أن الأمر سيصير إلى ما أقول. فقال له سِلْكان: إني قد أردتُ أن تبيعنا طعاماً ونَرْهنك ونُوثّق لك. قال: أترهنوني نساءكم؟ قال: كيف نَرْهنك نساءنا وأنت أشَبُّ أهل يثرب وأعطرهم. قال: أترهنوني أبناءكم؟ قال: لقد أردت أن تفضحنا، يُسبَّ ابنُ أحدنا فيقال: رُهِن في وسق شَعِير! ثم قال له: إن معي أصحاباً لي على مثل رأيي وقد أردتُ أن آتيك بهم فتبيعهم وتُحْسن في ذلك ونرهنك من الْحَلْقة ما فيه وفاء وأراد سِلْكان أن لا ينكر السلاحَ إذا جاءوا بها. قال: إنّ في الحلْقة لَوفاءً.

فرجع سِلْكان إلى أصحابه فأخبرهم وأمرهم أن يأخذوا السلاحَ ويجتمعوا إليه، فاجتمعوا عنْد رسول الله ﷺ، فمشى معهم صلوات الله عليه إلى بَقِيع الغَرْقد في ليلة مُقْمرة، ثم وجّههم وقال: انطلقوا على اسم الله، اللهم أَعِنْهم. ثم رجع إلى بيته.

فأقبلوا حتى انتهوا إلى حصنه، فهتف به أبو نائلة، وكان حديث عهد بعُرْس، فوثب في مِلْحفته، فأخذت امرأته بناحيتها وقالت: إنك امرؤ محارب، وإن أصحاب الحرب لا ينزلون هذه الساعة. قال: إنه أبو نائلة لو وجدني نائماً ما أيقظني. فقالت: والله إني لأعرف في صوته الشر. فقال لها كعب: لو يُدْعى الفتى لِطَعنةٍ لأجاب!

فنزل فتحدث معهم ساعةً وتحدثوا معه، فقالوا له: هل لك يا ابن الأشرف إلى أن نتماشَى إلى شِعْب العجوز فنتحدث فيه بقية ليلتنا هذه. قال: إن شئتم.

فخرجوا يتماشون، فمشوا ساعة، ثم إن أبا نائلة شامَ يدَه في فَوْد رأسه ثم شم

يده، فقال: ما رأيتُ كالليلة طيباً أعْطَر قط، ثم مشى ساعة ثم عاد لمثلها، حتى اطمأن، ثم مشى ساعة ثم عاد لمثلها، فأخذ بفَوْد رأسه.

ثم قال: اضربوا عدوّ الله، فضربوه فاختلفت عليه أسيافهم فلم تُغْن شيئاً. قال محمد بن مَسْلمة: فتذكرت مِعْولاً كان في سيفي حين رأيت أسيافنا لا تُغْني شيئاً، فأخذتُه وقد صاح عدو الله صيحةً لم يَبْق حولنا حِصْن إلا أوقدت عليه نار، قال: فوضعته في ثُنيَّته[1] ثم تحاملتُ عليه حتى بلغتُ غايته فوقع عدو الله وقد أصيب الحارث بن أوس بجرح في رجله أو رأسه أصابه بعض أسيافنا، فخرجنا حتى أَسْنَدنا في حَرّة العُرَيْض وقد أبطأ علينا الحارث بن أوس صاحبنا ونزفَه الدم، فوقفنا له ساعة ثم أتانا يتبع آثارنا فاحتملناه فجئنا به رسولَ الله ﷺ آخر الليل وهو قائم يصلي، فسلّمنا عليه فخرج إلينا فأخبرناه بقتل عدو الله، وتفَل على جُرح صاحبنا، ثم رجعنا إلى أهلينا فأصبحنا وقد خافت يهود لوقعتنا بعدوّ الله، فليس بها يهودي إلا وهو يخاف على نفسه.

وذكر ابن عُقْبة أن كعب بن الأشرف لَمّـا قدِم على قريش يستنفرهم على رسول الله ﷺ قال له أبو سفيان والمشركون: نناشدك الله، أدِيننا أحبّ إلى الله أم دين محمد وأصحابه؟ وأيّنا أهْدَى في رأيك وأقرب إلى الحق، فإنا نُطْعم الْجَزُورَ الكَوْماء ونَسْقي اللبنَ على الماء ونُطْعِم ما هَبَّت الشَّمال.

فقال ابن الأشرف: أنتم أهدَى سبيلاً، فأنزل الله فيه والله أعلم بما ينزل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً﴾ [النساء: ٥١].

٦٢ أ / وذكر ابن إسحاق أن هذه الآية إنما نزلت في حُيَيّ بن أَخْطَب وسَلاّم بن أبي الْحُقَيْق وجماعة غيرهما من أحبار يهود، ليس ابن الأشرف مذكوراً فيهم، وهم الذين حَزَّبوا الأحزاب من قريش وغَطَفان على رسول الله ﷺ، فلما قدموا

---

[1] في الأصل: «في ثنته».

غزوة أُحُـد(١)

وكان من حديث أُحد أنه لَمـا قَتل الله مَن قتل من كفار قريش يوم بدر ورجع فَلّهم إلى مكة، ورجع أبو سفيان بن حرب بعيرهم، مشى عبد الله بن أبي ربيعة وعِكْرمة بن أبي جهل وصفوان بن أُمية في رجال ممن أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم يوم بدر فكلموا أبا سفيان ومن كانت له في تلك العير تجارة من قريش، وقالوا لهم: إن محمداً قد وتَركم وقتل خِيارَكم، فأعينوا بهذا المال على حربه لعلنا ندرك منه ثأراً بمن أصاب منا. ففعلوا.

ففيهم يقال: أنزل الله عز وجل: ﴿**إنَّ الذين كفروا يُنْفِقُونَ أموالَهُمْ لِيَصُدُّوا عن سبيل الله فسيُنْفقونها ثم تكون عليهم حسرةً ثم يُغْلَبُونَ والذين كفروا إلى جهنم يُحْشَرُونَ**﴾[٣٦: الأنفال].

فاجتمعت قريش لحرب رسول الله ﷺ حين فعل ذلك أبو سفيان وأصحابُ العِير، وحرّكوا لذلك من أطاعهم من القبائل وحرّضوهم عليه وخرجوا بجَدّهم وجَدّهم وأحابيشهم ومن تابعَهم من بني كنانة وأهل تهامة، وخرجوا معهم بالظُّعْن التماسَ الحفيظة وأن لا يفرُّوا، فخرج أبو سفيان بن حرب وكان قائدَ الناس بهند بنت عُتبة، وكذلك سائر أشراف قريش وكبرائهم خرجوا معهم بنسائهم.

وكان جُبَير بن مُطْعم قد أمر غلامه وحشيًّا الحبشي بالخروج مع الناس وقال له: إنْ قتلت حمزة عم محمد بعمّي طُعَيْمة بن عدي فأنت عَتيق. فكانت هند بنت عُتبة كلما مرت بوحشيّ أو مَرَّ بها قالت: وَيْهاً أبا دَسْمة، وهي كنيته، اشفِ واشْتَفِ.

---

(١) المصدر السابق ج٢ ص ٦٠ - ١٦٨.

فأقبلوا حتى نزلوا بعَيْنين ـ جبل ببطن السَبْخة من قناة على شَفِيرِ الوادي مقابل المدينة.

فلما سمع بهم رسول الله ﷺ والمسلمون قد نزلوا حيث نزلوا، قال عليه السلام: إني قد رأيت والله خيراً، رأيت بَقَراً تُذْبح، ورأيت في ذُبَاب سيفي ثَلْماً، فأما البقر، فهي ناس من أصحابي يُقتلون، وأما الثَلْـم الذي في ذُبَاب سيفي فهو رجل من أهل بيتي يُقتل، ورأيت أني أدخلت يدي في دِرْع حصينة فأَوَّلْتها المدينة، فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدَعوهم حيث نزلوا فإن أقاموا أقاموا بشرّ مُقام وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها.

وكان رسول الله ﷺ يكره الخروج، وكان عبد الله بن أُبيّ يرى رأي رسول الله ﷺ في ذلك، فقال رجل من المسلمين ممن أكرم الله بالشهادة يوم أُحد وغيره ممن كان فاته بدر: يا رسول الله، اخرج بنا إلى أعدائنا، لا يرون أنا جَبُنّا عنهم. فقال عبد الله بن أُبي: يا رسول الله، أقم بالمدينة ولا تخرج إليهم، فوالله ما خرجنا منها إلى عدو لنا قط إلا أصاب منا، ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه، فدَعْهم يا رسول الله فإن أقاموا أقاموا بشر مَحْبِس وإن دخلوا قاتلهم الرجال في وجوههم ورماهم الصبيان والنساء بالحجارة من فوقهم، وإن رجعوا رجعوا خائبين كما جاءوا.

فلم يزل برسول الله ﷺ الناسُ الذين كان من أَمْرهم حُبّ لقاءِ العدو، حتى دخل رسول الله ﷺ فلبس لأمته، وذلك يوم الجمعة حين فرغ رسول الله ﷺ من الصلاة، وقد مات في ذلك اليوم رجل من الأنصار يقال له: مالك بن عمرو، أخو بني النجار، فصلى عليه رسول الله ﷺ، ثم خرج عليهم وقد ندِم الناسُ، فقالوا: يا رسول الله، استكرهناك ولم يكن ذلك لنا، فإن شئت فاقعد صلى الله عليك. فقال رسول الله ﷺ: «ما ينبغي للنبي إذا لبسَ لأُمته أن يضعها حتى يقاتل».

فخرج في ألف من أصحابه، حتى إذا كانوا بين المدينة وأُحد انخذَل عنه عبد الله بن أُبيّ بثلث الناس، وقال: أطاعهم وعصاني، ما ندري علامَ نقتل أنفسنا

٦٢ ب هاهنا أيها الناس. فرجع بمن اتبعه/ من أهل النفاق والرَّيْب، واتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام يقول: يا قوم، أذكّركم الله أن تخذلوا قومكم ونبيكم عند ما حضَر من عدوهم. قالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون ما أسْلمناكم، ولكنا لا نرى أنه يكون قتال. فلما استعصوا عليه وأبوا إلا الانصراف عنهم، قال: أَبْعَدَكم الله أعداءَ الله فسيُغني الله عنكم نبيه.

ومضى رسول الله ﷺ حتى سلك في حَرّة بني حارثة، فَذَبّ فرسٌ بذنَبه فأصاب كَلاَّبَ سيفٍ فاستلّه، فقال رسول الله ﷺ وكان يحب الفألَ ولا يعتاف:

«يا صاحب السيف، شِمْ سيفك، فإني أرى السيوف ستُسَلّ اليوم».

ثم قال رسول الله ﷺ: «من رجلٌ يخرج بنا على القوم من كَثَب - أي من قُرْب - من طريق لا تمرّ بنا عليهم»؟ فقال أبو خيثمة أخو بني حارثة: أنا يا رسول الله.

فنفَذ به في حَرّة بني حارثة وبين أموالهم حتى سلك في مالٍ لِمِرْبَع بن قَيْظيّ، وكان منافقاً ضرير البصر، فلما سمع حسَّ رسول الله ﷺ ومن معه من المسلمين قام يَحْثي في وجوههم التراب ويقول: إن كنتَ رسول الله فإني لا أُحلّ لك أن تدخل حائطي. وذكِر أنه أخذ حفنة من تراب في يده ثم قال: والله لو أعلم أني لا أصيب بها غيرك يا محمد لضربت بها وجهك. فابتدره القومُ ليقتلوه فقال رسول الله ﷺ: لا تقتلوه، فهذا الأعمى أعمى القلب أعمى البصر!.

ومضى رسول الله ﷺ حتى نزل الشِّعْب من أحد فجعل ظَهْره وعسكره إلى أُحد وقال: لا يقاتلن أحدٌ حتى نأمره بالقتال.

وقد سرَّحت قريشٌ الظّهر والكُرَاع في زروع كانت للمسلمين، فقال رجل من الأنصار: أتُرعى زرع بني قَيْلة ولَما نُضَارِب!

وتعبّى رسول الله ﷺ للقتال وهو في سَبعمائة رجل، وأَمّر على الرماة عبدَالله بن جبير أخا بني عمرو بن عوف، وهو مُعلَّم يومئذ بثياب بيض،

والرماة خمسون رجلاً، فقال: انضَحْ الخيلَ عنا لا يأتوننا من خَلْفنا، إن كانت لنا أو علينا فاثبت مكانك لا نُؤْتيَنَّ من قِبلك.

وظاهر رسولُ الله ﷺ بين دِرْعين، ودفع اللواء إلى مُصْعَب بن عُمَير أخي بني عبد الدار.

وتعبأت قريش وهم ثلاثة آلاف ومعهم مائتا فرس قد جَنَّبوها، فجعلوا على ميمنة الخيل خالد بن الوليد وعلى الميسرة عِكْرِمة بن أبي جهل.

وقد كان أبو عامر عبد عمرو بن صَيْفِيّ من الأوس، خرج عن قومه إلى مكة مباعداً لرسول الله ﷺ، فكان يَعِدُ قريشاً أن لو لَقِيَ قومه لم يختلف عليه منهم رجلان، فلما التقى الناس كان أول من لقيهم أبو عامر في الأحابيش وعُبْدان أهلِ مكة، فنادى: يا معشر الأوس أنا أبو عامر. قالوا: فلا أنْعَم الله بك عيناً يا فاسق. وبذلك سمَّاه رسول الله ﷺ، وكان يسمّى في الجاهلية الراهب، فلما سمع ردهم عليه، قال: لقد أصاب قومي بَعدي شرّ! ثم قاتلهم قتالاً شديداً ثم راضَخهم بالحجارة.

وقال أبو سفيان ـ يومئذٍ ـ لأصحاب اللواء من بني عبد الدّار يحرضهم بذلك: يا بني عبد الدار، إنكم قد وَلِيتم لواءنا يوم بدر فأصابنا ما قد رأيتم، وإنما يُؤتَى الناسُ من قِبَل راياتهم، إذا زالت زالوا، فإمّا أن تَكْفُونا لواءنا وإما أن تُخلّوا بيننا وبينه فنكفيكموه. فهمُّوا به وتواعَدوه وقالوا: أنحن نُسْلم إليك لواءنا! ستعلم غداً إذا التقينا كيف نصنع. وذلك أراد أبو سفيان.

فاقتتل الناسُ حتى حَميت الحرب.

وقاتل أبو دُجَانة سِمَاك بن خَرشة أخو بني ساعدة، حتى أمعنَ في الناس،

قال: أن تضرب به في العدوّ حتى ينحني. قال: أنا آخذه يا رسول الله بحقه. فأعطاه إياه، وكان أبو دجانة رجلاً شجاعاً يختال عند الحرب، وكان إذا أُعْلم بعصابة

له حمراء فاعتصب بها عَلِم الناس أنه سيقاتل، فلما أخذ السيف من يد رسول الله ﷺ أخرج عصابته تلك فعصب بها رأسه، ثم جعل يتبختر بين الصَّفين، فقال رسول الله ﷺ حين رآه يتبختر: إنها لِمشْية يبغضها الله إلا في مثل هذا الموطِن!

وكان الزبير بن العوام قد سأل رسولَ الله ﷺ ذلك السيف مع من سأله منه فمنعه إياه، فقال: وجدتُ في نفسي حين سألته إياه فمنَعنيه وأعطاه أبا دجانة، وقلت: أنا ابن صفية عمته ومن قريش وقد قمت إليه فسألته إياه قَبْله فأعطاه إياه وتركني! والله لأنظرن ما يصنع، فأتبعته، فأخرج عصابة حمراء فعصب بها رأسه، فقالت الأنصار: أخرج أبو دُجَانة عصابة الموت! وهكذا كانت تقول له إذا تعصَّب بها، فخرج وهو يقول:

أنا الذي عاهدَني خَليلي	ونحن بالسَّفْح لدَى النخيلِ
أن لا أقومَ الدهر في الكيُّولِ	اضرب بسيف الله والرسولِ

[السريع]

فجعل لا يَلْقي أحداً إلا قتله، وكان في المشركين رجل لا يدَع جريحاً إلا ذَفَّف عليه، فجعل كل واحد منهما يدنو من صاحبه، فدعوت الله أن يجمع بينهما، فالتقيا فاختلفا ضربتين، فضرب المشرك أبا دُجَانة فاتقاه بدرَقته فعضَّتْ بسيفه، وضربه أبو دجانة فقتله، ثم رأيته قد حمل السيف على مَفْرِق رأس هند بنت عُتبة ثم عدَل السيف عنها، قال الزبير: فقلت الله ورسوله أعلم.

وقال أبو دُجَانة[1]: رأيت إنساناً يَخْمِش الناس خمشاً شديداً فصَمَدت إليه، فلما حملت عليه السيف وَلْوَل فإذا امرأة، فأكرمتُ سيفَ رسول الله ﷺ أن أضرب به امرأة.

وقاتل حمزةُ بن عبد المطلب حتى قتل أحدَ النفر الذين كانوا يحملون اللواءْ
٦٣أ من بني عبد الدار، وكان جُبَير بن مُطْعم قد/ وعد غلامه وحشيًا بالعتق إن قتل حمزة بعمه طُعَيْمة بن عدي المقتول يوم بدر، قال وَحْشِي: فخرجت مع الناس وكنت رجلاً حبشياً أقذف بالْحَرْبة قذْفَ الحبشة قَلَّ ما أخطىء بها شيئاً، فلما

(١) المصدر السابق ج٢ ص ٦٩.

التقى الناسُ خرجت أنظر حمزةَ حتى رأيته في عُرْض الناس مثل الْجَمَل الأَوْرَق يهدُّ الناسَ بسيفه هدًّا ما يقوم له شيء، فوالله إني لأتهيأ لـه أريده وأستتر منه بشجرة أو بحجر ليدنو مني إذ تقدمني إليه سِبَاع بن عبد العُزّي الغبشاني، فلما رآه حمزة قال له: هلمّ إليَّ يابن مقطِّعة البظور. وكانت أمه خَتَّانة بمكة، قال: فضربه ضربةً فكأنما أخطأ رأسه، قال: وهَزَزْت حَرْبتي حتى إذا رضيت منها دفعتُها عليه فوقعت في ثُنَّته حتى خرجت من بين رجليه وذهب لينوء نحوى فغُلب وتركته وإياها حتى مات، ثم أتيته فأخذت حربتي ورجعت إلى العسكر فقعدت فيه، ولم تكن لي بغيره حاجة، إنما قتلته لأعْتق.

فلما قدمت مكة عتقت، ثم أقمت حتى إذا افتتح رسول الله ﷺ مكة هربت إلى الطائف فكنت بها، فلما خرج وفدُ الطائف إلى رسول الله ﷺ ليُسْلموا تعَيت عليَّ المذاهب، فوالله إني لفي ذلك إذ قال لي رجل: ويحك إنه والله ما يقتل أحداً من الناس دخل في دينه، فلما قال لي ذلك خرجت حتى قدمت على رسول الله ﷺ المدينة فلم يَرُعْه إلا بي قائماً على رأسه أتشهَّد شهادة الحق، فلما رآني قال: أوحشيّ؟ قلت: نعم يا رسول الله، قال: أقعد فحدثني كيف قتلتَ حمزة، فحدثته فلما فرغت قال: ويحك! غيِّب عني وجهك. فكنت أتنكَّبه ﷺ حيث كان لئلا يراني حتى قبضه الله تعالى.

فلما خرج المسلمون إلى مُسيْلمة الكذاب خرجت معهم وأخذت بحربتي التي قتلت بها حمزةَ، فلما التقى الناسُ رأيت مُسَيْلِمة قائماً في يده السيف وما أعرفه، فتهيأت له وتهيأ له رجل من الأنصار من الناحية الأخرى كِلاَنا يريده، فهزَزْت حَرْبتي حتى إذا رضيت منها دفعتها عليه فوقعت فيه وشدَّ عليه الأنصاري فضربه بالسيف، فربُّك أَعْلَم أيّنا قتله، فإن كنتُ قتلته فقد قتلتُ خيرَ الناس بعد رسول الله ﷺ، وقد قتلتُ شرَّ الناس!

وذكر ابن إسحاق(١) بإسناد له إلى عبد الله بن عمر، وكان شَهد اليمامة قال: سمعت ـ يومئذٍ ـ صارخاً يقول: قتله العبد الأسود.

(١) المصدر السابق ج٢ ص ٧٣.

قال ابن إسحاق(١): فبلغني أن وحشيًّا لم يزل يُحَدُّ في الخمر حتى خُلع من الديوان. فكان عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ يقول: قد علمتُ أن الله لم يكن ليدَع قاتل حمزة.

قال ابن إسحاق(٢):

وقاتل مُصْعَب بن عُمَيْر دونَ رسول الله ﷺ حتى قتـل، قتله ابن قَمِيئة الليثي، وهو يظن أنه رسول الله ﷺ، فرجع إلى قريش فقال: قتلت محمداً.

فلما قُتل مصعب أعطَى رسول الله ﷺ اللواءَ عليَّ بن أبي طالب، فقاتل عليٌّ ورجال من المسلمين.

ولما اشتد القتال ـ يومئذ ـ جلس رسول الله ﷺ تحت راية الأنصار وأرسلَ إلى عليٍّ أن قَدِّم الراية، فتقدم فقال: أنا أبو القُصَم، فناداه أبو سعد بن أبي طلحة: هل لك يا أبا القُصَم في البراز من حاجة؟ قال: نعم. فبرزا بين الصفين فاختلفا ضربتين فضربه عليّ فصرعه ثم انصرف ولم يجهز عليه، فقال له أصحابه: أفلا أجهزت عليه؟ فقال: إنه استقبلني بعورته فعطفَتْني عليه الرحم وعرفت أن الله قد قتله.

ويقال: إن أبا سعد هذا خرج بين الصفين وطلب من يبارزه مراراً فلم يخرج إليه أحد، فقال: يا أصحاب محمد، زعمتم أن قتلاكم في الجنة وقتلانا في النار، كذبتم واللات لو تعلمون ذلك حقًّا لخرج إليَّ بعضكم. فخرج إليه عليّ فاختلفا ضربتين فقتله علي. وقد قيل: إن سعد بن أبي وقاص هو الذي قتل أبا سعد هذا.

وقاتل عاصم بن ثابت بن أبي الأَقْلح، فقتل مُسَافعَ بن طلحة وأخاه الْجلاَس ابن طلحة، كلاهما يُشْعِره سهماً فيأتي أمه فيضع رأسه في حجرها فتقول: يا بني من أصابك؟ فيقول: سمعت رجلاً يقول حين رماني: خذها وأنا ابن أبي الأَقلح. فنذرتْ إن أمكنها الله من رأس عاصم أن تشرب فيه الخمر، وكان

---

(١) المصدر السابق.
(٢) نفسه ج٢ ص٧٣.

عاصم قد عاهد الله أن لا يمس مشركاً ولا يمسه مشرك أبداً، فتمم الله له ذلك حياً وميتاً حسب ما نذكره عند مقتل عاصم على الرَّجيع ـ ماء لهذيل ـ إن شاء الله تعالى.

والتقي يومَ أُحد حنظلةُ بن أبي عامر الغَسِيل وأبو سفيان، فلما استعلاه حنظلة رآه شداد بن الأسود بن شَعُوب قد عـلا أبا سفيان فضربه شداد فقتله، فقال رسول الله ﷺ: إن صاحبكم ـ يعني حنظلة ـ لتَغْسله الملائكة فسلوا أهلَه ما شأنه؟ فسئلت صاحبته، فقالت: خرج وهو جُنُب حين سمع الهاتفة. فقال رسول الله ﷺ: لذلك غسلته الملائكة.

ثم أنزل الله نصره على المسلمين وصدَقهم وعدَه فحَسُّوهم بالسيوف حتى كشفوهم عن العسكر ونهكوهم قتلاً.

وقد حَملت خيل المشركين على المسلمين ثلاثَ مرات، كل ذلك تُنْضَح بالنَّبْل فترجع مَفْلولَة، وكانت الهزيمة لا شك فيها.

فلما أبصرَ الرماةُ الخمسون أن الله قد فتح لإخوانهم قالوا: والله ما نجلس هنا لشيء، قد أهلك الله العدوَّ، وإخواننا في عسكر المشركين، فتركوا منازلَهم التي عَهِد إليهم رسولُ الله ﷺ أن لا يتركوها، وتنازعوا وفشلوا، وعصَوا الرسولَ فأوجفت الخيلُ فيهم قتلا، ولم يكن نَبْل يَنْضَحُها ووجدت مَدْخلا عليهم، فكان ذلك سبب الهزيمة على المسلمين بعد أن كانت لهم.

قال الزبير بن العوام(١) رضي الله عنه: والله، لقد رأيتني أنظر إلى خدَم هند بنت عُتبة وصواحبها منكشفات هوارب، ما دُون أخذهن قليل ولا كثير، إذ مالت الرماة إلى العسكر حتى كشفنا القومَ عنه، وخلَّوا ظهورنا للخيل، فأتتنا من خلفنا، وصرخ صارخ: ألا إن محمداً قد قُتل، فانكفأنا وانكفأ علينا القوم بعد أن أصبنا أصحابَ اللواء، حتى ما يدنو منه أحدٌ من القوم.

---

(١) المصدر السابق ج٢ ص ٧٧ ـ ٧٨.

٦٣ ب وانكشف المسلمون/ فأصاب فيهم العدو، ويقال: إن الصارخ هو الشيطان.

وكان يوم بلاءٍ وتمحيص أكرم الله فيه من أكرم من المسلمين بالشهادة. حتى خَلَص العدوُّ إلى رسول الله ﷺ فدُثَّ بالحجارة حتى وقع لِشقّه فأصيبت رَبَاعيته وكُلِمت شفته وشُجَّ في وجهه فجعل الدم يسيل على وجهه، وجعل ﷺ يمسحه وهو يقول: «كيف يفلح قومٌ خضبوا وجه نبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم»!.

فأنزل الله عليه في ذلك: ﴿ليس لك من الأمر شيء أو يتوبَ عليهم أو يعذّبهم فإنهم ظالمون﴾ [آل عمران: ١٢٨]:

وكان الذي كسَرَ رَبَاعيته وجرح شفته عُتْبة بن أبي وقاص وشجَّه عبدُ الله ابن شهاب الزُّهْري في جبهته وجرح ابنُ قميئة وجْنَته فدخلت حَلْقتان من حَلَق الْمِغْفَر في وجنته، ووقع صلوات الله عليه في حفرة من الحفر التي عمل أبو عامر ليقع فيها المسلمون وهم لا يعلمون، فأخذ علي بن أبي طالب بيده ورفعه طلحة ابن عبيد الله حتى استوى قائماً. ومصَّ مالك بن سِنَان والد أبي سعيد الْخُدْري الدمَ من وجهه ثم ازدرده، فقال رسول الله ﷺ: «من مَسَّ دَمه دمي لم تصبه النار».

وقال ﷺ: «من أحبَّ أن ينظر إلى شهيد يمشي على الأرض فلينظر إلى طلحة».

ونزع أبو عبيدة بن الجرَّاح إحدى الحلقتين من وجهه ﷺ فسقطت ثنيّته، ثم نزع الأخرى فسقطت ثنيته الأخرى، فكان ساقط الثنيتَيْن.

وكان سعد بن أبي وقاص يقول: والله، ما حرصت على قتل رجل قط حرصي على قتل عتبة بن أبي وقاص - وهو أخوه - وإن كان ما علمت لسيء الخلق مبغضاً في قومه، ولقد كفاني منه قول رسول الله ﷺ: اشتدَّ غضبُ الله على من دمَى وجهَ رسوله.

وقال رسول الله ﷺ حين غَشِيه القومُ: «من رجلٌ يَشْرى لنا نفسه»؟ فقام زياد بن السَّكَن في نفرٍ خمسة من الأنصار، وبعضُ الناس يقولون: إنما هو

عُمَارة بن زيَاد بن السَّكَن، فقاتلوا دونَ رسول الله ﷺ رجلاً ثم رجلاً، يقتلون دونه، حتى كان آخرهم زياد أو عمارة، فقاتل حتى أثْبَتَتْه الجراحة، ثم جاءت فئة من المسلمين فأجهضوهم عنه، فقال رسول الله ﷺ: أدنوه مني. فأدنَوْه منه فوسَّده قدمَه، فمات وخدُّه على قدم رسول الله ﷺ.

وقاتلتْ أُم عُمَارة نَسِيبه بنت كعب المازنية ـ يومئذ ـ قالت: خرجتُ أولَ النهار وأنا أنظر ما يصنع الناس ومعي سِقَاء فيه ماء، فانتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو في أصحابه والدولة والريحُ للمسلمين، فلما انهزم المسلمون انحزْتُ إلى رسول الله ﷺ، فقمت أباشر القتال وأذُبّ عنه بالسيف وأرمي عن القوس، حتى خَلَصتْ الجراح إليّ.

قالت: أم سعد بنت سعد بن الربيع: فرأيت على عاتقها جرحاً أجوف له غَوْر فقلت: من أصابك بهذا؟ قالت: ابن قَمِيئة أقمأه الله، لما ولّى الناسُ عن رسول الله ﷺ أقبل يقول: دُلّوني على محمد فلا نجوت إن نجا. فاعترضتُه أنا ومصعب بن عُمَير وأناس ممن ثبت مع رسول الله ﷺ فضربني هذه الضربة، ولقد ضربتُه على ذلك ضرباتٍ، ولكن عدوَّ الله كانت عليه دِرْعان.

وتَرَّس دونَ رسول الله ﷺ أبو دُجَانة بنفسه، يقع النَّبْل في ظهره وهو منحنٍ عليه، حتى كثرَ فيه النَّبْل.

ورمَى سعدُ بن أبي وقاص دونَ رسول الله ﷺ، قال سعدُ: فلقد رأيته يناولني النَّبْل ويقول: أرم فداك أبي وأمي! حتى إنه ليناولني السهم ماله من نَصْل فيقول: ارم به.

ورمى رسولُ الله ﷺ يومَ أُحد عن قوسه حتى اندقت سِيتها.

وأُصيبت ـ يومئذ ـ عينُ قتادة بن النعمان فردَّها رسول الله ﷺ بيده فكانت أحسن عينيه وأحدَّهما.

وأصيب فم عبد الرحمن بن عوف فهَتِم وجرح عشرين جراحة أو أكثر، أصابه بعضها في رجله فعَرِج.

وأتى أنسُ بن النضر عم أنس بن مالك وبه سمِّي، إلى عمر بن الخطاب وطلحة بن عبيد الله في رجال من المهاجرين والأنصار قد ألقوا بأيديهم، فقال: ما يُجلسكم؟ قالوا: قد قُتل محمد رسول الله. قال: فما تصنعون بالحياة بعده! قوموا على ما مات عليه رسول الله ﷺ. ثم استقبل القومَ فقاتل حتى قُتل، رحمه الله تعالى.

وروي حميد عن أنس، أن عمه أنس بن النضر هذا غاب عن قتال يوم بدر، فقال: غِبْت عن أول قتال قاتلَه رسول الله ﷺ المشركين لئن أَشْهَدني الله قتالاً ليرين الله ما أصنع، فلما كان يوم أُحد انكشف المسلمون فقال: اللهم إني أبرأ إليك مما جاء به هؤلاء، يعني المشركين، وأعتذر إليك مما جاء به هؤلاء، يعني المسلمين، ثم مشى بسيفه فلقيه سعد بن معاذ فقال: أيْ سعد، والذي نفسي بيده إني لأجد ريح الجنة دون أُحد! واها لريح الجنة. فقال سعد: فما استطعت يا رسول الله ما صنع. فوجدناه بين القتلى وبه بضع وثمانون جراحة من ضربة بسيف وطعنة برمح ورَمْية بسهم، وقد مثَّلوا به حتى عرفته أخته ببنَانه.

قال أنس: كنا نقول أنزلت هذه الآية: ﴿**من المؤمنين رِجَالٌ صدقوا ما عاهدوا الله عليه**﴾ [الأحزاب: ٢٣] فيه وفي أصحابه.

قال ابن إسحاق(١): وكان أول من عرف رسول الله ﷺ بعد الهزيمة وتحدّث الناس بقتله: كعبُ بن مالك الأنصاري، قال: عرفتُ عينيه تزْهران تحت الْمِغْفَر فناديت بأعلى صوتي: يا معشر المسلمين أبشروا، هذا رسول الله ﷺ. فأشار إليَّ أن أنصت. فلما عرف المسلمون رسول الله ﷺ نهضوا به ونهض معهم نحو الشِّعْب، معه أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام والحارث بن الصِّمة، ورهط من المسلمين.

٦٤ أ فلما أَسْنَد رسول الله ﷺ في الشِّعب أدركه أُبي بن خَلَف وهو/ يقول: أين محمد: لا نجوتُ إن نجوتَ! فقال القوم: يا رسول الله، أيعطف عليه رجلٌ منا؟ فقال:

(١) المصدر السابق ج٢ ص ٨٣.

دعوه. فلما دنا تناول رسولُ الله ﷺ الْحَرْبَةَ من الحارث بن الصمة، يقول بعض القوم: فلما أخذها رسول الله ﷺ منه انتفض بها انتفاضةً تطايرنا عنه تطاير الشَّعْراء من ظهر البعير إذا انتفض بها، ثم استقبله فطعنه في عنقه طعنةً تدأدأ منها عن فرسه مراراً.

وكان أُبيّ بن خلف يلقي رسولَ الله ﷺ بمكة فيقول: يا محمد، إن عندي العَوْذ، فرسا أعلفه كلّ يوم فرقاً من ذُرَة أقتلك عليه. فيقول رسول الله ﷺ: أنا أقتلك إن شاء الله.

فلما رجع إلى قريش وقد خدَشه في عنقه خدشاً غير كبير فاحتقن الدم قال: قتلني والله محمد! فقالوا له: ذهب والله فؤادك! والله إنْ بك بَأْس. قال: إنه قد كان قال لي بمكة: أنا أقتلك. فوالله لو بصَق عليَّ لقتلني.

فمات عدوُّ الله بسَرِف وهم قافلون به إلى مكة.

وقد قال رسول الله ﷺ فيما قاله يومئذ: «اشتدَّ غضبُ الله على رجل قتلَه رسولُ الله». فسُحْقاً لأصحاب السعير.

ولما انتهى رسول الله ﷺ إلى الشِّعب خرج علي بن أبي طالب حتى ملأ دَرَقَته من الْمِهْراس، فجاء به إلى رسول الله ﷺ ليشرب منه، فوجد له ريحاً فعافه ولم يشرب منه، وغسل عن وجهه الدم فصبَّ على رأسه وهو يقول: «اشتد غضب الله على من دمي وجهَ رسوله».

فبَيْنا رسول الله ﷺ في الشعب معه أولئك النفر من أصحابه إذا علت عاليةٌ من قريش الجبَل فقال: «اللهم إنه لا ينبغي لهم أن يَعْلونا» فقاتل عمرُ بن الخطاب ورهط معه من المهاجرين حتى أهبطوهم من الجبل.

ونهض رسول الله ﷺ إلى صخرة من الجبل ليعلوها فلم يستطع، وقد كان بَدَّن وظاهرَ بين درعين فجلس تحته طلحةُ بن عبيد الله فنهض به حتى استوى عليها، فقال ﷺ: أَوْجَبَ طَلْحة.

وصلى رسول الله ﷺ الظهر ـ يومئذٍ ـ قاعداً من الجراح التي أصابته، وصلى المسلمون خلفه قعوداً.

ولما خرج ﷺ إلى أحد رُفِع حُسَيل بن جابر وهو اليَمان أبو حذيفة بن اليمان، وثابت بن قيس في الآكام مع النساء والصبيان، فقال أحدهما لصاحبه وهما شيخان كبيران: لا أب لك! ما ننتظر؟ فوالله إنْ بَقي لواحدٍ منا من عمره إلا ظِمء حمارٍ، إنما نحن هامَة اليوم أو غد، أفلا نأخذ أسيافنا ثم نلحق رسولَ الله ﷺ، لعل الله يرزقنا شهادة معه؟ فأخذا أسيافهما ثم خرجا حتى دخلا في الناس ولم يُعلم بهما.

فأما ثابت فقتله المشركون، وأما حُسَيْل فاختلفت عليه أسياف المسلمين فقتلوه وهم لا يعرفونه، فقال حذيفة: أبي! قالوا: والله إن عرفناه. وصدَقوا. قال حذيفة: يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين. فأراد رسول الله ﷺ أن يَدِيَه فتصدق حذيفة بديته على المسلمين، فزاده عند رسول الله خيراً.

وكان ممن قُتِل يوم أحد مُخيريق من أحبار اليهود، وقد تقدم خبره وكيف قال ـ يومئذٍ ـ ليهود: لقد علمتم أن نصر محمد عليكم لَحق. فتعللوا عليه بأنه يوم السبت، فقال لهم: لا سَبْت لكم. وأخذ سيفه وعُدَّته فلحق برسول الله ﷺ فقاتل معه حتى قُتل بعد أن قال: إن أُصبْتُ فمالي لمحمد يصنع فيه ما شاء. وفيه قال رسول الله ﷺ: «مُخَيْريق خيرُ يهود».

وكان عمرو بن ثابت بن وَقْش أُصَيْرم بني عبد الأشهل يأبَى الإسلام على قومه، فلما كان يوم أحد بدا له في الإسلام فأسلم، ثم أخذ سيفه فغزا حتى دخل في عُرْض الناس فقاتل حتى أثبتته الجراحة، فبينا رجال من بني عبد الأشهل يلتمسون قتلاهم في المعركة إذا هم به، فقالوا: والله إن هذا لَلأُصيرِم، ما جاء به؟ لقد تركناه وإنه لمنكِر لهذا الحديث. فسألوه ما جاء بك يا عمرو؟ أحدَبٌ على قومك أم رغبة في الإسلام؟ قال: بل رغبة في الإسلام، آمنت بالله وبرسوله وأسلمتُ ثم أخذت سيفي فغدوت مع رسول الله ﷺ، ثم قاتلت حتى أصابني ما

أصابني. ثم لم يلبث أن مات في أيديهم، فذكروه لرسول الله ﷺ فقال: إنه لمن أهل الجنة.

وكان أبو هريرة يقول: حدّثوني عن رجل دخل الجنة لم يصلّ قط؟ فإذا لم يعرفه الناس سألوه من هو؟ فيقول: أُصَيْرم بني عبد الأشهل.

وكان عمرو بن الْجَمُوح أعرجَ شديد العرج، وكان له بنون أربعة مثل الأسْد يشهدون مع رسول الله ﷺ المشاهد، فلما كان يوم أحد أرادوا حبسه وقالوا له: إنّ الله قد عَذَرك. فأتى رسولَ الله ﷺ فقال: إن بنيّ يريدون أن يحبسوني عن هذا الوجه والخروج معك فيه، فوالله إني لأرجو أن أطأ بعَرْجتي هذه في الجنة. فقال له رسول الله ﷺ: «أمّا أنت فقد عذرك الله فلا جهاد عليك». وقال لبنيه: «ما عليكم أن لا تمنعوه لعل الله يرزقه الشهادة» فخرج معه فقتل، يرحمه الله.

ووقعت هند بنت عُتْبَة والنسْوة اللاتي معها يمثلن بالقتلى من المسلمين يجدّعن الآذان والأنوف، حتى اتخذت هند من آذان الرجال وأنوفهم خَدما وقلائد، وأعطت خدمها وقلائدها وقرطها وحشياً قاتل حمزة، وبقرَتْ عن كبد حمزة ـ رضي الله عنه ـ فلاكتها فلم تستطع أن تُسيغها فلفظتها، ثم علت على صخرة مشرفة فصرخت بأعلى صوتها:

نحن جزيناكم بيوم بدر ... والحربُ بعد الحرب ذات سُعْر
ما كان عن عُتْبة لي من صبر ... ولا أخي وعمه وبَكْر
شفَيْتُ نفسي وقضيت نَذْري ... شفيتَ وحشيٌّ غليلَ صدري
فشكْر وحشيٍّ عليّ عمري ... حتى تَرِمّ أَضْلُعي في قبري

[السريع]

فأجابتها هند بنت أُثاثة بن عبَّاد بن المطلب، فقالت:

خَزَيتِ في بَدْر وبعد بدر ... يا بنة وقاعٍ عظيم الكفرِ
صبحك الله غداة الفَجْر ... بالهاشميين الطوال الزّهْرِ
بكل قطاعٍ حُسام يفْري ... حمزةُ ليثي وعليٌّ صقْرِ

٦٤ب /إذ رام شَيْبٌ وأبوك غَدْري فخضَّبا منه ضواحي النَّحْرِ

ونَذْرك السوء فشرٌّ نَذْر

[السريع]

وقد كان الْحُلَيْس بن زَبّان أخو بني الحارث بن عبد مناة، وهو يومئذ سيد الأحابيش، مر بأبي سفيان وهو يضرب في شدق حمزة بن عبد المطلب بزُج الرمح ويقول: ذُقْ عُقَق، فقال الْحُلَيْس: يا بني كنانة، هذا سيد قريش يصنع بابن عمه ما ترون لحماً. فقال: ويحك، اكتمها عني فإنها كانت زَلّة.

ثم إن أبا سفيان حين أراد الإنصراف أشرف على الجبل ثم صرخ بأعلى صوته: أنْعَمت فعال، إن الحرب سجالٌ يومٌ بيوم بدر، اعْلُ هُبَل. أي ظهر دينك.

فقال رسول الله ﷺ: قم يا عمر فأجِبْه. فقل: «الله أعْلَى وأجلّ، لا سواء، قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار».

وفي الصحيح من حديث البَراء أن أبا سفيان قال: إنه لنا العزّي ولا عُزّي لكم. فقال النبي ﷺ: أجيبوه. قالوا: ما نقول؟ قال قولوا: «الله مولانا ولا مولى لكم».

وفيه أيضاً: أن أبا سفيان أشرف يوم أُحد فقال: أفي القوم محمد؟ فقال: لا تجيبوه. فقال: أفي القوم ابن أبي قحافة؟ قال: لا تجيبوه. قال: أفي القوم ابن الخطاب؟ فلما لم يجبه أحد قال: إنّ هؤلاء قتلوا، فلو كانوا أحياء لأجابوا، فلم يملك عمر نفسه، فقال: كذبتَ يا عدو الله قد أبقى الله لك ما يخْزيك.

قال ابن إسحاق: فلما أجاب عمر أبا سفيان قال له: هلم إليّ يا عمر، فقال رسول الله ﷺ لعمر: ايته فانظر ما شأنه. فجاءه فقال له أبو سفيان: أنشدك الله يا عمر: أقتلْنا محمداً؟ قال عمر: االلهم لا وإنه ليسمع كلامك الآن، قال: أنت أُصْدق عندي من ابن قميئه وأبرّ. لقول ابن قميئة لهم: إني قد قتلت محمداً، ثم نادى أبو سفيان: إنه قد كان في قتلاكم مَثْل، والله ما رضيت وما سخطت، وما أمرت وما نَهَيْت.

ولما انصرف أبو سفيان ومن معه نادى: إنّ موعدكم بدر العام القابل. فقال رسول الله ﷺ لرجل من أصحابه قل: نعم، هو بيننا وبينكم مَوْعِد.

ثم بعث رسولُ الله ﷺ عليَّ بن أبي طالب فقال: اخرج في آثار القوم فانظر ماذا يصنعون وماذا يريدون، فإن كانوا قد جنبوا الخيلَ وامتطوا الإبلَ فإنهم يريدون مكة، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فهم يريدون المدينة، والذي نفسي بيده لئن أرادوها لأسيرنّ إليهم فيها ثم لأُناجزنهم؛ فخرج عليٌّ فرآهم قد جنبوا الخيل وامتطوا الإبل ووجهوا إلى مكة.

وفرغ الناسُ لقتلاهم وانتشروا يبتغونهم، فلم يجدوا قتيلاً إلا وقد مثّلوا به إلا حَنْظلة بن أبي عامر فإن أباه كان مع المشركين فتركوه له، وزعموا أن أباه وقف عليه قتيلاً فدفع صدره بقدمه وقال: قد تقدمتُ إليك في مصرعك هذا، ولعمر الله إن كنت لَواصلاً للرحم برًّا بالوالدة.

وقال رسول الله ﷺ: من رجلٌ ينظر لي ما فعل سعد بن الربيع، أفي الأحياء هو أم في الأموات؟ فقال رجل من الأنصار: أنا أنظر لك يا رسول الله ما فعل. فنظر فوجده جريحاً في القتلى وبه رمق، قال فقلت له: إن رسول الله ﷺ أمرني أن أنظر أفي الأحياء أنت أم في الأموات؟ قال: أنا في الأموات، فأبلغ رسول الله ﷺ عني السلام وقل له: إن سعد بن الربيع يقول: جزاك الله عنا خيرَ ما جزَي نبيًّا عن أمته، وأبلغ قومك السلام عني وقل لهم: إن سعد بن الربيع يقول لكم: إنه لا عُذْر لكم عند الله إنْ خُلِص إلى نبيكم ومنكم عَيْن تَطْرف. قال: ثم لم أبرح حتى مات. فجئت رسولَ الله ﷺ فأخبرته خبرَه.

وفي سعد هذا يقول أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - وقد دخل عليه رجل وعلى صدره بنتٌ لسعد جارية صغيرة يَرْشفها ويقبّلها فقال الرجل: من هذه؟ فقال أبو بكر رضي الله عنه: بنت رجل خيرٍ مني، سعد بن الربيع، كان من النقباء ليلة العقبة وشهد بدراً، واستشهد يوم أُحد.

وخرج رسول الله ﷺ يلتمس حمزةَ بن عبد المطلب فوجده ببطن الوادي

قد بُقر بطنه عن كبده ومثِّل به فجُدع أنفه وأذناه، فقال رسول الله ﷺ حين رأى ما رأى: «لولا أن تحزن صفية ويكون سُنّةً من بعدي لتركته حتى يكون في بطون السباع وحواصل الطير، ولئن أظهرني الله على قريش في موطن من المواطن لأُمثلنّ بثلاثين رجلاً منهم».

فلما رأى المسلمون حزنَ رسول الله ﷺ وغيظه على من فعل بعمه ما فعل، قالوا: والله لئن أظفَرنا الله بهم يوماً من الدهر لنمثلن بهم مُثْلة لم يمثلها أحدٌ من العرب. فأنزل الله تعالى، فيما قاله من ذلك رسوله صلوات الله عليه وسلامه: **﴿وإنْ عاقَبْتم فعاقِبوا بمثل ما عُوقبتم به ولئن صَبَرْتم لهو خيرٌ للصابرين. واصبرْ وما صَبْرك إلا بالله، ولا تَحْزَن عليهم ولاتَكُ في ضَيْق مما يمكرون﴾**[النحل: ١٢٦، ١٢٧]، فعفا رسول الله ﷺ وصبرَونهى عن الْمُثْلَة.

ويقال: إن رسول الله ﷺ لما وقف على حمزة قال: لن أصاب بمثلك أبداً! ما وقفتُ موقفاً قط أَغْيَظ إليّ من هذا. ثم قال: جاءني جبريل فأخبرني أنّ حمزة مكتوب في أهل السموات السبع: حمزةُ بن عبد المطلب أسَدُ الله وأسد رسوله.

ثم أمر به رسول الله ﷺ فسجِّي ببُرْده، ثم صلى عليه فكبَّر سبع تكبيرات، ثم أُتي بالقتلى، يوضعون إلى حمزة وصلى عليهم وعليه معهم، حتى صلى عليه ثنتين وسبعين صلاة.

وأقبلت صفية بنت عبد المطلب لتنظر إليه، وكان أخاها لأبيها وأمها فقال رسول الله ﷺ لابنها الزبير بن العوام: الْقَها فأرجعها، لا ترى ما بأخيها. فقال لها: يا أُمه، إن رسول الله ﷺ يأمرك أن ترجعي. قالت ولم؟ وقد بلغني أن قد مُثِّل بأخي، وذلك في الله، فما أرضانا بما كان من ذلك، لأحتسبنّ ولأصبرن إن شاء الله. فلما أَخبر الزبير بذلك رسولَ الله ﷺ قال له: خَلِّ سبيلها. فأتته فنظرت إليه فصلّت عليه واسترجعت واستغفرت له.

ثم أمر به رسول الله ﷺ فدفن.

وزعم آل عبد الله بن جحش أن رسول الله ﷺ دفن عبد الله بن جحش مع حمزة في قبره، وهو ابن أخته أميمة بنت عبد المطلب، وكان قد مثِّل به كما مثل بخاله حمزة، إلا أنه لم يُبقر عن كبده وجُدع أنفه وأذناه، فلذلك يقال له: المجدَّع في الله.

٦٥ أ وكان في أول النهار قد لقي سعدَ بن أبي وقاص فقال له/ عبدُ الله: هلم يا سعد فلنَدْعُ الله وليذكر كلٌّ واحد منا حاجته في دعائه ولْيؤمِّن الآخر. فقال سعد: يا رب إذا لقيتُ العدو فلقِّني رجلاً شديداً بأسُه شديداً حَرده أقاتله فيك ويقاتلني ثم ارزقني الظَّفر عليه حتى أقتله وأَسْلبه سَلَبه. فأمَّن عبد الله بن جحش ثم قال: اللهم ارزقني رجلاً شديداً بأسه شديداً حَرْده أقاتله فيك ويقاتلني فيقتلني ثم يَجْدَع أنفي وأذني، فإذا لقيتك غداً قلت لي: يا عبد الله، فيم جُدع أنفك وأذناك؟ فأقول: فيك يا رب وفي رسولك. فتقول لي: صدقت. فأمَّن سعد على دعوته.

قال سعد: كانت دعوة عبد الله خيراً من دعوتي، لقد رأيته آخر النهار وإن أذنيه وأنفه معلقان في خيط، ولقيت أنا فلانا من المشركين فقتلته وأخذت سَلَبه.

وذكر الزبير أن سيف عبد الله بن جحش انقطع يوم أحد فأعطاه رسولُ الله ﷺ عرجوناً فعاد في يده سيفاً قائمه منه، فقاتل به فكان ذلك السيف يسمى العرجون، ولم يزل هذا يتوارث حتى بيع من بُغَا التركي بمائتي دينار.

واحتمل ناسٌ من المسلمين قتلاهم إلى المدينة فدفنوهم بها، ثم نهى رسول الله ﷺ عن ذلك وقال: ادفنوهم حيث صُرِعوا.

ولما أشرف صلوات الله عليه وسلامه يوم أُحد على القتلى قال: أنا شهيد على هؤلاء، إن ما من جريح يُجرح في الله إلا والله يبعثه يوم القيامة يدْمِي جُرْحه اللونُ لونُ دَمٍ والريح ريح مسك، انظروا أكثر هؤلاء جمعاً للقرآن فاجعلوه أمام أصحابه في القبر. وكانوا يدفنون الاثنين والثلاثة في القبر الواحد.

وقال ـ يومئذٍ ـ حين أمر بدفن القتلى: انظروا عمرو بن الجموح وعبد الله بن عمرو بن حرام، فإنهما كانا متصافيين في الدنيا فاجعلوهما في قبر واحد.

وذكر مالك بن أنس في مُوطَّئه أن السيل حفر قبرهما بعد زمان فحفر عنهما ليغيَّرا من مكانهما، فوجدا لم يتغيرا كأنما ماتا بالأمس، وكان أحدهما قد جُرح فوضع يده على جرحه فدفن وهو كذلك فأميطت يده عن جرحه ثم أُرسلت فرجعت كما كانت، وكان بين أُحد وبين يوم حُفِر عنهما ست وأربعون سنة.

ثم انصرف رسول الله ﷺ راجعاً إلى المدينة فلقيته حَمْنَة بنت جحش، فلما لقيت الناسَ نُعي لها أخوها عبدُ الله بن جحش فاسترجعت واستغفرت له، ثم نعى لها خالُها حمزة بن عبد المطلب فاسترجعت واستغفرت له، ثم نعي لها زوجها مُصْعَب بن عمير فصاحت ووَلْولت، فقال رسول الله ﷺ: « إن زوج المرأة منها لَبمكان » لما رأى من تثبّتها على أخيها وخالها وصياحها على زوجها.

ومر رسول الله ﷺ بدار من دور الأنصار فسمع البكاء والنوائح على قتلاهم، فذرفت عيناه فبكى، ثم قال: لكن حمزة لا بواكي له!

فلما رجع سعد بن معاذ وأسيد بن حُضَير إلى دار بني عبد الأشهل أمرا نساءهما أن يتحزّمْن ثم يذهبن فيبكين على عم رسول الله ﷺ، ففعلن، فلما سمع رسول الله ﷺ بكاءهن على حمزة خرج عليهن وهن على باب المسجد يبكين عليه فقال: ارجعن يرحمكن الله فقد آسَيْتن بأنفسكن. وقيل: إنه لما سمع بكاءهن قال. رحم الله الأنصار، فإن المواساة منهم ما علمتُ لقديمة، مروهن فلينصرفن.

ومر رسول الله ﷺ في انصرافه بامرأة من بني دينار وقد أصيب زوجها وأخوها وأبوها مع رسول الله ﷺ بأحد، فلما نعوا لها قالت: فما فعل رسول الله ﷺ؟ قالوا: خيراً يا أم فلان، هو بحمد الله كما تحبين. قالت: أرونيه حتى أنظر إليه. فأشير لها إليه حتى إذا رأته قالت: كلُّ مصيبة بعدك جَلل! تريد صغيرة.

فلما انتهى رسول الله ﷺ إلى أهله ناولَ سيفه ابنته فاطمة فقال: اغسلي عن هذا دمه يا بنية، فوالله لقد صدَقني اليومَ، وناولها عليٌّ بن أبي طالب سيفه فقال:

وهذا فاغسلي عنه دمه، فوالله لقد صدقني اليوم. فقال رسول الله ﷺ: لئن كنت صدَقْت القتالَ لقد صدَق معك سهلُ بن حُنَيْف وأبو دُجَانة.

وكان يقال لسيف رسول الله ﷺ: ذو الفِقَار. ونادي مناد يوم أُحد:

لا سيـــــفَ إلا ذو الفَقَـــــا ر ولا فتًـــــى إلا عَلِـــــي

[الكامل]

وقال رسول الله ﷺ لعلي بن أبي طالب: «لا يصيب المشركون منا مثلَها حتى يفتح الله علينا».

وكان يوم أحد يوم السبت للنصف من شوال.

فلما كان الغد منه يوم الأَحد أذَّن مؤذن رسول الله ﷺ بطَلب العدو، وأذَّن مؤذنه: أن لا يخرجن معنا أحدٌ إلا أحدٌ حضر يومَنا بالأمس.

فكلمه جابرُ بن عبد الله بن عمرو بن حرام فقال: يا رسول الله، كان أبي خلَّفني على أخوات لي سَبْع وقال: «يا بُنَي إنه لا ينبغي لي ولا لك أن نترك هؤلاء النسوة لا رجل فيهن، ولستُ بالذي أوثرك بالجهاد مع رسول الله ﷺ على نفسي، فتخلَّفْ على أخواتك. فتخلفتُ عليهن. فأذِن له رسول الله ﷺ فخرج معه.

وإنما خرج رسول الله ﷺ مرهباً للعدو ليَبْلُغهم أنه خرج في طلبهم فيظنوا به قوة، وأن الذي أصابهم لم يُوهنهم عن عدوّهم.

وشهد مع رسول الله ﷺ يومَ أُحد أخوان من بني عبد الأشهل فرجعَا جريحين، قال أحدهما: فلما أذَّن مؤذن رسول الله ﷺ بالخروج في طلب العدو قلت لأخي أو قال لي: أَتَفُوتنا غزوةٌ مع رسول الله ﷺ؟! والله ما لنا من دابة نركبها وما منّا إلا جريح ثقيل. فخرجنا وكنت أيسرَ جرحاً منه، فكان إذا غُلب حَمَلْته عُقْبة ومشَى عقبة، حتى انتهينا إلى ما انتهى إليه المسلمون.

وانتهى رسول الله ﷺ في خروجه ذلك إلى حَمْراء الأسَد، على ثمانية أميال من المدينة. فأقام بها الاثنين والثلاثاء والأربعاء ثم رجع إلى المدينة.

وقد مرَّ به هناك مَعْبَد بن أبي مَعْبَد الْخُزَاعي، وكانت خزاعة مسلمهم

ومشركهم عَيْبة نُصْح رسول الله ﷺ بتهامة، صَفْقتهم معه لا يُخْفون عنه شيئاً
٦٥ ب كان بها، ومَعْبَد يومئذ/ مشرك، فقال: يا محمد، أما والله لقد عزَّ علينا ما أصابك في أصحابك، ولَودِدْنا أن الله عافاك فيهم.

ثم خرج ورسول الله ﷺ بحمراء الأسد، حتى لقي أبا سفيان بن حرب ومن معه بالرَّوحاء وقد أجمعوا الرَّجْعة إلى رسول الله ﷺ وأصحابه، وقالوا: أصَبْنا حَدَّ أصحابه وقادتهم وأشرافهم ثم نرجع قبل أن نستأصلهم! لَنكُرَّن على بقيتهم فلنفرغن منهم. فلما رأى أبو سفيان معبداً قال: ما وراءك يا معبد؟ قال: محمد قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمعٍ لم أرَ مثله قط يتحرقون عليكم تحرقاً، قد اجتمع معه من كان تخلَف عنه في يومكم وندِموا على ما صنعوا، فيهم من الْحَنَق عليكم شيء لم أر مثله قط. فقال: ويحك ما تقول؟ قال: والله ما أرى أن ترتحل حتى ترى نواصي الخيل. قال: فوَالله لقد أجمعنا الكَرَّة عليهم لنستأصل بقيتهم. قال: فإني أنهاك عن ذلك، والله لقد حملني ما رأيتُ عليَ أن قلت فيه أبياتاً من الشعر. قال: وما قلت؟ قال قلت:

كادت تُهدُّ من الأصوات راحلتي ... إذ سالت الأرض بالْجُرْد الأبابِيل
تَرْدِي بأُسْد كرامٍ لا تنابلةٍ ... عند اللقاء ولا مِيلٍ معازيلِ
فظَلْت عَدْوا أظن الأرض مائلة ... لما سَمَوْا برئيس غير مخذولِ
فقلت ويل ابن حَرْب من لقائكم ... إذا تغَطْمطت البطحاءُ بالخيلِ
إنّي نذيرٌ لأهل البَسْل ضاحيةً ... لكل ذي إرْبة منهم ومعقولِ
من جيش أحمد لا وَخْشاً قنابله ... وليس يوصف ما أنذرتُ بالقيلِ

[البسيط]

فثَنى ذلك أبا سفيان ومن معه.

ومرَّ به ركْبٌ من عبد القيس فقال: أين تريدون؟ قالوا: نريد المدينة، قال: ولم؟ قالوا: نريد الميرة. قال: فهل أنتم مبلغون عني محمداً رسالة أرسلكم بها إليه وأحمل لكم بهذه غداً زبيباً بعكاظ إذا ما أتيتموها؟ قالوا: نعم. قال: فإذا وافيتموه فأخبروه أنّا قد أجمَعنا السير إليه وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم. فمرَّ

الركب برسول الله ﷺ وهم بحمراء الأسد فأخبروه بالذي قال أبو سفيان وأصحابه فقالوا: «حَسْبنا الله ونعم الوكيل».

ويقال: إنهم لما هموا بالرجعة إلى المدينة ليستأصلوا - كما زعموا - بقية أصحاب رسول الله ﷺ قال لهم صفوان بن أمية: لا تفعلوا فإن القوم قد حَرِبُوا وقد خشينا أن يكون لهم قتالٌ غير الذي كان، فارجعوا. فرجعوا.

فقال النبي ﷺ وهو بحمراء الأسد حين بلغه أنهم هَمُّوا بالرجعة: «والذي نفسي بيده لقد سوِّمَتْ لهم حجارة لو صبِّحوا بها لكانوا كأمسِ الذاهب».

وأخذ رسولُ الله ﷺ في وجهه قبل رجوعه إلى المدينة معاوية بن المغيرة بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس جد عبد الملك بن مروان أبا أمه وأبا عَزَّة الجمحي، وكان رسول الله ﷺ أسره ببدر ثم منَّ عليه، وقد تقدم ذكر ذلك وذكر مقتله إياه في هذه الأخذة الثانية صدر غزوة أحد، ولجأ معاوية بن المغيرة إلى عثمان بن عفان فاستأمن له رسولَ الله ﷺ فأمنَّه على أنه إن وجِد بعد ثلاث قُتل، فأقام بعدها وتوارَي. فبعث النبي ﷺ زيد بن حارثة وعمار بن ياسر وقال: إنكما ستجدانه بموضع كذا. فوجداه فقتلاه.

وكان يوم أُحد يومَ بلاءٍ ومصيبة وتمحيص، اختبر الله به المؤمنين ومحن به المنافقين ممن كان يُظهر الإيمان بلسانه وهو مستخفٍ بالكفر في قلبه، وأكرم الله فيه من أراد كرامته بالشهادة من أهل ولايته.

وكان مما أنزل الله - تبارك وتعالى - من القرآن في شأن أُحد ستون آية من آل عمران في طاعة من أطاع، ونفاق من نافق، وصفة ما كان في يومهم، وتعزية المؤمنين في مصيبتهم ومعاتبة من عاتب منهم.

يقول الله تبارك وتعالى - لنبيه ﷺ: ﴿وإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّيءُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سميع عَلِيمٌ﴾. أي سمِيع لما يقولون عليم بما يُخْفون.

﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ منكم أن تَفْشَلاَ﴾ أي تتخاذلا. والطائفتان: بنو سلَمة من الخزرج وبنو حارثة من الأوس، وهما الجناحان، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿والله وليُّهما﴾ أي المدافع عنهما ما همتا به من ذلك برحمته وعائذته حتى سَلِمتا ولحقتا

بنبيِّهما. وقيل: إنه لما أنزل الله ـ تعالى ـ في هاتين الطائفتين قالتا: ما نحب أنا لم نهمّ بما هَمَمْنَا لتولي الله إيانا في ذلك.

﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾، أي من كان به ضعف من المؤمنين فليتوكل عليَّ ولَيسْتعن بي أُعِنْه على أمره وأدفع عنه حتى أبلُغ به وأقوّيه على نيته.

﴿ولقد نصركم الله ببدْر وأنتم أَذِلة﴾ أقلّ عدداً وأضعف قوة ﴿فاتقوا الله لعلكم تشكرون﴾ أي فاتقوني فإنه شكرُ نعمتي.

﴿إذ تقولُ للمؤمنين أَلَنْ يكفيكم أن يُمدكم ربُّكم بثلاثة آلافٍ من الملائكة مُنْزَلِينَ؟ بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكمْ بخمسة آلافٍ من الملائكة مُسَوَّمِينَ﴾،أي إن تصبروا لعدوِّي وتطيعوا أمري ويأتوكم من وجههم هذا أمددكم بهذا العدد من الملائكة مسوَّمين أي معلّمين.

﴿وما جعَله الله إلا بُشْرى لكم ولتطمئنَّ قلوبكم به وما النصرُ إلا من عِنْد الله العزيزِ الحكيم﴾،أي ما سمَّيت لكم مَن سمَّيته من جنود ملائكتي إلا لتستبشروا بذلك وتطمئن قلوبكم إليه، لِمَا أعرف من ضعفكم، وما النصر إلا من عند الله لسلطاني وقدرتي، وذلك أن العزة والحكم لي لا إلى أحد من خَلْقي.

ثم قال لمحمد ﷺ: ﴿ليس لك من الأمر شيءٌ أو يتوبَ عليهم أو يعذِّبهم فإنهم ظالمون﴾، أي ليس لك من الحكم شيء في عبادي إلا ما أمرتك به فيهم، أو أتوب عليهم برحمتي فإن شئتُ فعلت، أو أعذبهم بذنوبهم فبحقي فإنهم ظالمون أي عصوا فاستوجبوا ذلك بمعصيتهم إياي.

ثم استقبل ذكر المصيبة التي نزلت بهم والبلاء الذي أصابهم والتمحيص لما كان فيهم واتخاذه الشهداء منهم، فقال تعزيةً لهم وتعريفاً لهم فيما صنعوا وفيما هو صانع بهم: ﴿قد خلَتْ من قَبْلكم سُنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذِّبين﴾،أي قد مضت مني وقائع نقمة في أهل التكذيب برسلي والشرك، في عاد وثمود وقوم لوط وأصحاب مَدْين، فرأوا مثلاتٍ قد مضت

منى فيهم/ ولمن هو على مثل ما هم عليه: ﴿هذا بَيَانٌ للناسِ وهُدّي وموعِظةٌ للمتّقين﴾،أي نور وأدَب لمن أطاعني وعرف أمري. ٦٦ أ

﴿ولا تَهِنوا ولا تحْزَنوا﴾، أي لا تَضْعفوا ولا تبتئسوا على ما أصابكم ﴿وأنتم الأَعْلَوْن﴾ لكم تكون العاقبة والظّهور ﴿إن كنتم مُؤْمنين﴾ أي إن كنتم صدّقتم نبيي بما جاءكم به عنّي.

﴿إنْ يَمْسَسْكم قَرْحٌ﴾ أي جِراحٍ ﴿فقد مَسَّ القومَ قَرْحٌ مثلُه﴾ أي جِراح مثلها ﴿وتلكَ الأيامُ نداوِلها بَيْنَ الناسِ﴾ أي نصرّفها للبلاء والتمحيص ﴿وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذَ منكم شُهَداءَ والله لا يحبُّ الظالمين. وليمحِّص الله الذين آمَنُوا ويمْحَقَ الكافرين. أم حَسِبْتم أن تَدْخلوا الجنة ولمَّا يَعْلم الله الذين جاهَدوا منكم ويَعْلم الصابرين﴾، أي حسبتم أن تدخلوا الجنة فتصيبوا كرامةَ ثوابي ولم أختبركم بالشدة وأبتليكم بالمكاره حتى أعلم صِدْقَ ذلك منكم، الإيمان بي والصبر على ما أصابكم فيَّ.

﴿ولقد كنتم تَمَنَّون الموتَ﴾ أي الشهادة ﴿من قَبْلِ أنْ تَلْقَوه﴾ يعني الذين استنهضوا رسولَ الله ﷺ إلى الخروج بهم إلى عدوّهم يوم أُحد لما فاتهم من يوم بدر رغبةً في الشهادة، يقول: ﴿فقد رأيتموه وأنتم تَنْظُرون﴾.

﴿وما محمدٌ إلا رسولٌ قد خلَتْ من قَبْله الرسُل أفئنْ مات أو قُتل انقلَبْتم على أعقابكم﴾، أي لقول الناس: قُتِلَ محمد. وانهزامهم عند ذلك وانصرافهم عن عدوهم. أفئن مات أو قُتل رجعتم عن دينكم كفاراً كما كنتم، وتركتم جهاد عدوكم وكتابَ ربكم وما خلّف نبيُّه من دينه معكم وعندكم وقد بين لكم فيما جاءكم به عنّي أنه ميت عنكم ومفارق لكم؟! ﴿ومن يَنْقلب على عَقِبيه﴾ أي يرجع عن دينه ﴿فلن يَضُرَّ الله شيئاً﴾ أي لن ينقص ذلك عز الله ولا مُلكه ولا سلطانه ولا قدرته ﴿وسيَجْزي الله الشاكرين﴾ أي من أطاعه وعمل بأمره.

﴿وما كان لِنفسٍ أن تموتَ إلا بإذنِ الله كتاباً مؤجّلاً ومن يُرِدْ ثوابَ

الدنيا نؤتِه منها ومن يُرِدْ ثوابَ الآخرةِ نُؤْتِه منها وسنجزي الشاكرين﴾ أي من أراد الدنيا خاصة أتاه منها ما كُتب له وماله في الآخرة من نصيب، ومن أراد الآخرة وسعَى لها سَعْيها وهو مؤمن آتاه منها ما وعد به مع ما يُجري عليه في دنياه من رزقه المقدَّر له، وذلك هو جزاء الشاكرين أي المتقين.

﴿وكَأَيِّنْ من نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا﴾، أي وكم من نبي أصابه القتلُ ومعه جماعات من أنصاره، فما وهنوا لفقد نبيهم وما ضعفوا عن عدوهم وما استكانوا لما أصابهم في الجهاد عن الله وعن دينهم، وذلك هو الصبر ﴿والله يحب الصابرين﴾.

﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾، أي فقولوا مثل ما قالوا، واعلموا أن ذلك بذنوب منكم فاستغفروه كما استغفروا، وامضوا على دينكم كما مضوا على دينهم ولا ترتدّوا على أعقابكم راجعين، وسَلُوه كما سألوه أن يثبت أقدامكم وينصركم على القوم الكافرين. فكل هذا من قولهم كان وقد قُتل نبيهم، ولم يفعلوا كما فعلتم.

﴿فآتاهم الله ثوابَ الدنيا﴾ بالظهور على عدوِّهم ﴿وحُسْن ثواب الآخرة﴾ الذي به وعدهم ﴿والله يحب المحسنين﴾.

﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يرُدُّوكم على أعقابكم فتَنْقَلِبوا خاسرين﴾ أي عن عدوكم فتذهب دنياكم وآخرتكم.

﴿بل الله مَوْلاَكُمْ وهو خيرُ الناصرين﴾ فإن كان ما تقولون بألسنتكم صِدْقاً عن قلوبكم فاعتصموا به ولا تنتصروا بغيره، ولا ترجعوا كفاراً على أعقابكم مرتدّين عن دينه.

﴿سَنُلْقِي في قلوب الذين كفروا الرعبَ﴾ الذي به كنت أنصركم عليهم جزاءً لهم بما أشركوا بي، فلا تظنوا أن لهم عاقبةَ نصر ولا ظهوراً عليكم ما

اعتصمتم بي واتبعتم أمري، وإنما أصابكم منهم ما أصابكم بذنوبٍ قدمتموها لأنفسكم خالفتم بها أمري وعصيتم فيها نبيي.

﴿ولقد صدَقكم الله وعده إذ تحسُّونَهم بإذنه حتى إذا فَشِلْتُمْ وتنازَعْتم في الأمر وعَصَيْتُم من بعدِ ما أراكم ما تُحِبُّون﴾، أي لقد وفَّيْت لكم ما وعدتكم من النصر على عدوكم إذ تَحُسُّونهم بالسيوف أي تستأصلونهم قتلاً بإذني وتسليطي أيديكم عليهم وكفِّي أيديهم عنكم ﴿حتى إذا فَشِلْتم﴾ أي تخاذلتم ﴿وتنازعتم في الأمر﴾ اختلفتم فيه ﴿وعَصَيْتم﴾ بترك أمر نبيكم، يعني الرُّمَاة الذين عُهِد إليهم ألا يفارقوا مكانهم فخالفوا أمره حتى أُتِي المسلمون من قِبَلهم ﴿من بَعْدِ ما أراكم ما تُحِبُّونَ﴾ أي الفتح لا شك فيه وهزيمة القوم عن نسائهم وأموالهم ﴿منكم من يريدُ الدنيا﴾ أي النهب «ومنكم من يريد الآخرة﴾ أي الذين جاهدوا في الله ولم يخالِفوا إلى ما نُهُوا عنه ﴿ثم صَرَفكم عنهم ليَبْتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضلٍ على المؤمنين﴾، أي أنه سبحانه وإن عاقب من يشاء من عباده ببعض الذنوب في عاجل الدنيا أدباً وموعظةً، فإنه غيرُ مستوفٍ كلَّ ماله فيهم من الحق بما أصابوا من معصية، فضلاً من الله ورحمة.

ثم أنَّبهم بالفرار عن نبيهم وهو يدعوهم ولا يَعْطفون عليه فقال: ﴿إِذْ تُصْعِدُون وَلاَ تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُم فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ﴾ أي كرباً بعد كرب بقتل من قُتل من إخوانكم وعلوّ عدوكم عليكم وما وقع في أنفسكم حين سمعتم أنه قُتِل نبيكم ﴿لكيلا تَحْزَنوا على ما فاتكم﴾ من الظهور على عدوكم بعد أن رأيتموه بأعينكم ﴿ولا ما أصابكم﴾ من قتل إخوانكم بما فرَّجت عنكم من الكرب بوقاية نبيكم وكشف كرب الشيطان في الصراخ بقتله بينكم، فكان هذا هو الذي فرج الله به عنهم ما تابع عليهم من الغم، فلما رأوا رسول الله ﷺ حيًّا بين أظْهرهم هان عليهم ما فاتهم من القوم بعد الظهور عليهم والمصيبة التي أصابتهم فيمن قتل منهم.

ثم قال تعالى بعد آيات ذكرَ فيها ما ذكر من قصة أُحد ﴿وما أصابكم يومَ

التقي الجمعان فبإذن الله وليَعْلَم المؤمنين وليعلم الذين نَافَقُوا وقيل لهم تعالَوْا قَاتِلُوا في سبيل اللهِ أو ادْفَعُوا، قالوا: لو نَعْلَمُ قِتَالاً لاتَّبَعْنَاكم﴾ يعني عبدَ الله بن أُبيّ والراجعين عن رسول الله ﷺ حين سار إلى عدوّه من المشركين. يقول الله تبارك وتعالى: **﴿هم لِلْكُفْرِ يومئذٍ أقْرَبُ منهم للإيمان**
٦٦ ب **يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم/ والله أعلم بما يكتمون الذين قالوا لإخوانهم وقَعَدُوا لو أطاعونا ما قُتِلُوا قل فادرأوا عن أنفسِكُمْ المَوْتَ إن كنتم صادقين﴾**.

ثم قال لنبيه عليه السلام يرغّب المؤمنين في الجهاد ويهون عليهم القتل: **﴿ولاَ تحْسَبَنَّ الذين قُتِلُوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياءٌ عند ربهم يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ ويَسْتَبْشِرُونَ بالّذِينَ لم يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ ألاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ولاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾**.

قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: قال رسول الله ﷺ: «لما أُصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في أجواف طَيرٍ خُضْرٍ تَرِدُ أنهارَ الجنة وتأكل من ثمارها وتأوى إلى قناديل من ذهب في ظل العرش، فلما وجدوا طِيبَ مَشْرَبهم ومأكلهم وحُسْن مَقِيلهم قالوا: يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله بنا لئلا يزهدوا في الجهاد ولا يَنْكلوا عن الحرب»، قال الله تبارك وتعالى: فأنا أبلغهم عنكم؛ فأنزل الله ـ عزَّ ذكْره ـ على رسوله ﷺ هذه الآيات: **﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ﴾** إلى آخرها.

وقال رسول الله ﷺ: «الشهداء على بارقِ نهر بباب الجنة في قبة خضراء يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشيًّا».

وسئل عبد الله بن مسعود عن هؤلاء الآيات: **﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الذينَ قُتِلُوا في سبيل الله أمواتاً﴾** فقال: أمَا إنّا قد سألنا عنها فقيل لنا: إنه لمّا أُصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في أجواف طَيرٍ خُضْر تَرِدُ أنهَارَ الجنة وتأكل من ثمارها وتأوى إلى قناديل من ذهب في ظل العرش فيطّلع الله إليهم اطلاعةً،

فيقول: يا عبادي، ما تشتهون فأزيدكم؟ فيقولون: ربَّنا لا فوق ما أعطيتنا، الجنة نأكل منها حيث شئنا. ثم يطلع الله إليهم اطلاَعة فيقول: يا عبادي، ما تشتهون فأزيدكم؟ فيقولون: ربنا لا فوق ما أعطيتنا، الجنة نأكل منها حيث نشاء، ثم يطلع إليهم اطلاعة فيقول: يا عبادي، ما تشتهون فأزيدكم؟ فيقولون: ربنا لا فوق ما أعطيتنا، الجنة نأكل منها حيث شئنا، إلا أنا نحب أن تردّ أرواحنا في أجسادنا ثم تردنا إلى الدنيا فنقاتل فيك حتى نُقتل فيك مرة أخرى».

وقال رسول الله ﷺ لجابر بن عبد الله: «ألا أبشِّرك يا جابر؟ قال: قلت: بلى يا رسول الله. قال: إن أباك حيث أُصيب بأُحد أحياه الله، ثم قال: ما تحبُّ يا عبد الله بن عمرو أن أفعل بك؟ قال: أيْ ربِّ أُحبّ أن تردّني إلى الدنيا فأقاتل فيك فأُقتل مرةً أُخرى»(١).

وقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، ما من مؤمن يفارق الدنيا يحب أن يرجع إليها ساعةً من النهار وأن له الدنيا وما فيها، إلا الشهيد فإنه يحب أن يُردَّ إلى الدنيا فيقاتل في الله فيقتل مرة أخرى».

واستشهد من المسلمين يوم أُحد مع رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار خمسة وستون رجلاً، أربعة من المهاجرين وسائرهم من الأنصار وقتل الله من المشركين يومئذ اثنين وعشرين رجلاً.

وكان مما قيل من الشعر في يوم أُحد قول كعب بن مالك الأنصاري(٢) رحمه الله:

ألاَ هــل أتى غَسَّــان عنــا ودونَهم ... من الأرض خَــرْقٌ سَــيْره مُتَتَعْتِــع
صَحـارٍ وأعلامٌ كــأن قَتَــامهــا ... مـن البعدِ نَقْـع هـامـدٌ متقطِّـع
تظَـل بـه البُـزْل العَـراميس دُرَّجـاً ... ويَخْلـو بـه غيـثُ السنين فيُمْـرعُ
بـه جِيَـف الحْسري يلـوح صَلِيبهـا ... كما لاح كَتَّـانِ التِّجَـارِ الموضَّـعُ
بـــه العين والآرام يمشين خِلْفَــةً ... وبَيْــض نعــامٍ قَيْضَــة يتقلَّــع

(١) راجع: مسلم. الجامع الصحيح، كتاب الإمارة، باب في بيان أن الشهداء في الجنة.
(٢) ابن هشام. السيرة ج ٢ ص ١٣٢ ـ ١٣٥.

مُجَالِدنـا عـن دِيننـا كـلَّ فَخْمـة	مُـذَرَّبـة فيهـا القـوانس تَلْمـعُ
وكـل صَمُـوتٍ في الصّوان كـأنها	إذا لُبِست نَهْيٌ مـن الماء مُتْـرَعُ
ولكـنْ ببـدر سـائِلـوا مـن لقيتُـم	من الناسِ والأنباءُ بـالغيـب تَنفـعُ
وإنا بأرض الخوف لو كـان أَهلُهـا	سوانا لقد أَجْلـوا بليـل فـأُقْشِـعُوا
إذا جاءَ منـا راكـبٌ كـان قـولـه	أَعِدُّوا لما يُزْجِي ابنُ حربٍ ويجمـعُ
ولْمّا ابتَنْوا بالعِرض قـال سَـراتُنـا	علامَ إذَا لم يُمنَـع العـرضُ نَـزرعُ
وفينـا رسـولُ الله نَتْبَـع أمـرَه	إذا قـال فينـا القـولَ لا نتطلّـعُ
تدلّـى عليـه الروح مـن عنْـدِ ربـه	ينـزَّل مـن جـوِّ السماءِ ويُـرفَـعُ
نشـاوره فيها نُـريـد وقَصْـدنـا	إذا مـا اشتهـى أنـا نطيـع ونسمـعُ
وقـال رسـول الله لما بَـدَوْا لنـا	ذَرُوا عنكمُ هَوْلَ المنيّـات واطمـعُوا
ولكن خذوا أسيافكـم وتـوكلـوا	على الله إن الأمـــــر لله أجمـعُ
وكونوا كمن يَشْرِي الحياة تقـرُّبـاً	إلى مَلِـك يُحْيَـا لـدَيْـه ويُـرْجَـعُ
فسِرْنـا إليهـم جهـرةً في رحـالِهِمْ	ضُحَيّـا علينـا البيـض لا نتخشَّـعُ
بملمـومـةٍ فيهـا السَّنَـوَّر والقنـا	إذا ضربـوا أَقـدامَهـا لا تُـرَوَّعُ
فجئنا إلى موجٍ مـن البحـر وَسْطـه	أَحـابيش منهـم حـاسرٌ ومقنَّـعُ
ثلاثـــةُ آلافٍ ونحن نَصِيَّـــةٌ	ثلاث مِيِين إن كَثُـرْنـا وأربَـعُ
نغَـاورهـم تجري المنيّـة بيننـا	نُشارعهـم حـوضَ المنـايـا ونَشْـرَعُ
تهادَي قِسيُّ النَّبْـع فينـا وفيهـمُ	ومـا هـو إلا اليثربيّ المقطَّـعُ
ومنجـوفـةٌ حَـرَميّـة صـاعِـديّـة	يُـذَرُّ عليهـا السُّـم سـاعـةَ تُصْنَـعُ
وخيـلٌ تـراهـا بـالفضـاء كـأنها	جـرادٌ صبـاً في قَـرَّة يتريَّـعُ
فلما تلاقَيْنـا ودارت بنـا الرحَـى	وليس لأمـرٍ حَمَّـه الله مَـدْفَـعُ
ضربنـاهُـم حتى تـركنـا سَـراتهمْ	كـأنهمُ بـالقـاع خُشْـب مُصَـرَّعُ
لَـدُنْ غُـدْوةٍ حتى استفقْنـا عشيـةً	كـأن ذَكَـاهـا حَـرُّ نـارٍ تَلفَّـعُ
وراحـوا سِرَاعـاً مـوجَعين كـأنهم	جَهامٌ هراقَـتْ مـاءه الريـح مُقْلَـعُ
ورُحْنـا وأَخـرَانـا بِطَـاءٌ كـأننـا	أسـودٌ على لحمٍ ببيشـة ظُلَّـعُ

فنِلْنـا ونـال القـومُ منـا وربما فعلنـا ولكـن مـا لـدي الله أوسـع
ودارت رحانا واستدارت رحـاهُـم وقدْ جعلـوا كـلٌّ مـن الشر يَشْبـعُ
ونحن أُنـاسٌ لا نـرى القتـلَ سُبَّـة على كل من يحمـي الذِّمـار ويَمنـعُ
جِلاَدٌ على رَيْـب الحوادث لا تُـرَى علىٰ هالك عينٌ لنـا الدهـرَ تَـدْمـع
بنـو الحرب لا نَعْيـا بشيء نقـولـه ولا نحن مما جـرَّت الحربُ نَجْـزعُ
بنو الحرب إن نظفر فلسنـا بفحَّش ولا نحن مـن أظفـارهـا نتـوجَّـعُ

[الطويل]

وقال حسان بن ثابت(١) يجيب عبدَ الله بن الزِّبَعْرَي عن كلمة له على روِيّ هذا الجواب يفخر فيها بيوم أحد، وكلتا الكلمتين ينكرها بعض أهل العلم لمن نسبت إليـه:

أشـاقَتْـك مـن أم الوليـد رُبُـوعُ بَلاقِـع مـا مـن أَهْلهـن جَميـعُ
عفَـاهـن صَيْفـيٌّ الريـاح وواكـفٌ من الدَّلْو زَحَّاف السحـاب هَمَـوعُ
فلم يبـق إلا مَـوْقـد النـار حَـوْلـه روَاكـدُ أمثـال الحمام كُنُـوعُ
فَدَعْ ذِكْـر دارٍ بُـدِّدَتْ بين أهلِهـا نـوًى لمتينـات الحِبـالِ قَطُـوعُ
وقُلْ إن يكـن يـومٌ بـأُحْـد يَعُـدّه سفيـه فـإن الحق سـوف يَشِيـعُ
/فقد صابرَتْ فيه بنو الأوس كلُّهـم وكـان لهم ذِكْـرٌ هنـاك رفيـعُ ٦٧ أ
وحامَى بنو النجار فيـه وصـابَـروا ومـا كـان منهـم في اللقـاء جَزُوعُ
أمـام رسـول الله لا يَخْـذُلـونـه لهم نـاصرٌ مـن ربِّهـم وشفيـعُ
وفَوا إذ كَفرتُـمْ يـا سَخِينُ بـربكـم ولا يستَـوي عَبْـدٌ وَفـي ومُضيـعُ
بـأيـديهمُ بيـضٌ إذا حَمِـي الوغَـى فلا بـد أن يـودِي بهن صريـعُ
كما غادرَتْ في النَّقْع عُتبـة ثـاويـاً وسَعـدا صَـريعـاً والوشيـجُ شرُوع
وقد غادرَتْ تحت العَجاجة مُسْنـداً أُبَيّـا وقـد بَـلّ القميـصَ نَجيـعُ
بكـفِّ رسـول الله حيـث تنصَّبـتْ على القـوم ممّا قـد يُثِـرْن نُقُـوعُ
أُولئك قوسم سادة من فـروعكـم وفي كـل قـومٍ سـادةٌ وفـروعُ

(١) المصدر السابق ج٢ ص ١٤٢ - ١٤٣.

بهن نُعِـزَّ الله حتى يُعِـزَّنـا وإنْ كـان أمرٌ يـا سَخِينَ فَظِيـعُ
فلا تـذكـروا قتلَـى وحمزةُ فيهـم قتيـلٌ ثَـوى لله وهـو مطيـعُ
فـإن جِنَـان الْخُلْـدِ مَنْـزِلـةٌ لـه وأمرُ الذي يقضِي الأمـورَ سَـريـعُ
وقتلاكُـم في النـار أَفْضـل رِزْقهـم حَمِيمٌ معـاً في جَـوْفهـا وضَـرِيـعُ

[الطويل]

وقال كعب بن مالك(١) يجيب ابنَ الزِّبَعْرَي وعمرو بن العاص عن كلمتين قالاها في ذلك:

أَبْلِغْ قريشاً وخير القـولِ أَصْـدَقُـه والصدق عند ذوي الألبابِ مقبـولُ
أنْ قـد قَتَلْنا بقتلانا سَـراتكـمُ أهـلَ اللـواء ففيما يَكْثر القِيـلُ
ويـومَ بـدر لَقِينـاكم لنـا مـدَدٌ فيـه مـع النصر ميكـالٌ وجبريـلُ
إنْ تقتلونـا فـدِيـن الحقِ فطِـرتنـا والقتـلُ في الحق عنـد الله تفضيـلُ
وإن تروا أمـرَنـا في رأيكـم سفهـاً فرأيُ من خالـف الإسلامَ تضليـلُ
فلا تمنَّـوا لِقَـاح الحرب واقتعِـدوا إنّ أخا الحرب أَصْدَى اللونِ مشغـولُ
إنّـا بنـو الحربِ نَمْـريها ونَنْتُجهـا وعندنـا لـذوي الأضغـانِ تنكيـلُ
إنْ ينج منها ابنُ حرب بعدما بلغَـتْ منـه التراقِـي وأمـر الله مفعـولُ
فقـد أفـادت لـه حِلْماً وموعظـةً لمن يكـون لـه لُـبٌّ ومعقـولُ
ولو هبطتم ببطن السيـل كـافحكـم ضربٌ لشـاكلة البطحـاء تَـرْعيـلُ
تلقـاكم عُصَـبٌ حـولَ النبيّ لها مما يُعِـدُّون للهَيْجـا سرابيـلُ
من جـذْم غَسّانَ مُسْترخ حمائلهـم لا جُبنـاء ولا مِيـلٌ مَعَـازيـلُ
يَمْشُون تحت عَمَايَـاتِ القتـال كما يمشِي المصَاعبـة الأُدْم المَرَاسِيلْ
أو مثلَ مَشْـيَ أُسود الطل أَلثقهـا يـومٌ رذَاذٌ مـن الْجَـوْزاء مشمـولُ
في كـل سابغـةٍ كـالنْهي محكمـةٍ قِيَـامُها فَلِـجٌ كـالسيف بُهْلـولُ
تَـردُّ حَـدَّ قِـرَان النَّبْـل خـاسئـةً ويَرْجع السيفُ عنهـا وهـو مَفْلـولُ
ولـو قـذفتم بسَلْع عن ظهوركـم وللحيـاة ودفـع الموت تـأجيـلُ

(١) المصدر السابق ج٢ ص ١٤٧ ـ ١٤٩.

ما زال في القومِ وترٌ منكمُ أبداً تعفو السّلامُ عليه وهو مَطْلولُ

[البسيط]

وقال كعب(١) ـ أيضاً ـ في يوم أُحد من قصيدة يفخر فيها بقومه:

فإن كنت عن شأننا سائلاً فَسَلْ عنه ذا العلم ممن يلينَا
بنا كيف نفعل إن قلصَتْ عواناً ضَرُوساً عَضُوضاً حَجُونَا
ألسنا نشدّ عليها العقا ب حتى تدرّ وحتى تَلِينَا
ويوم له رهَج دائم شديد التهاول حامي الأَرِينا
طويل شديد أُوَار القتا ل يَبْغي حواقزُه الْمُقْرفينا
تخال الكُمَاةَ بأعراضه ثِّمالَي على لذةٍ مُنْزفينا
تَعَاوَر أيمانُهم بَيْنهم كؤوسَ المنايا بحدّ الظُّبِينَا
شهدنا وكنا أولى(١) بأسه وتحت العصابة والْمعلَمينا
بخُرْس الْحَسِيسِ حِسَانٍ رِوَاء وبُصْريّه قد أَجْمِن الجفونا
فما يَنْفِللن وما ينحنين وما يَنْتهين إذا ما نُهينَا
كَبَرْق الخريف بأيدي الكُمَاةِ يفجّعن بالطَّلّ هاماً سُكونَا
وعلّمنا الضربَ آباؤنا وسوف نعلّم أيضاً بَنِينَا
جِلَادَ الكُمَاة وبَذْل التِّلا د عن جُلّ أحسابنا ما بَقِينَا
إذا مَرَّ قَرْنٌ كفي نسلَه وأورثه بعدَه آخرينا
نَشِبّ وتَهْلِك آباؤنا وبَيْنا نُرَبِّي بَنِينا فَنِينا

[المتقارب]

وقال حسان بن ثابت(٢) يبكي حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه:

أتعرف الدارَ عفَا رَسْمهَا بَعْدَكَ صَوْبُ الْمسْبِل الهاطِل
بين السَّراديح فأرمانة فَمَدْفع الروحاء في حائلِ
سألتها عن ذاك فاستعجمت لم تَدْرِما مَرْجوعةُ السائلِ

١) في الأصل: «إلى».

(١) المصدر السابق ج٢ ص ١٥٨ ـ ١٦١.
(٢) نفسه ج ٢ ص ١٥٥ ـ ١٥٦.

دَعْ عنك داراً قد عفا رَسْمها وابكِ على حمزةَ ذي النائلِ
المالئ الشّيزَي إذا أَعْصفَتْ غبراءُ في ذي الشَّبِمِ الماحِلِ
والتارك القِرْن لذي لِبْدةٍ يَعْثُر في ذي الْخُرص الذابلِ
واللابس الخيلَ إذا أحجَمتْ كالليث في غابته الباسلِ
أبيض في الذّرْوة من هاشمٍ لم يَمْرَ دُونَ الحق بالباطلِ
مال شهيداً بين أسيافكم شُلَّتْ يدا وحشيٍّ من قاتلِ
أيّ امرىءٍ غادَر في ألّةٍ مطرورة مارِنة العاملِ
أظلمت الأرضُ لفقدانِه واسودَّ نورُ القمرِ الناصلِ
صلَّى عليه الله في جنةٍ عاليةٍ مُكْرَمة الداخلِ
كنا نرى حمزة حرزاً لنا من كل أمر يأتنا نازلِ
وكان في الإسلام ذا تُدرّء يكفيك فَقْدَ القاعدِ الخاذلِ
لا تفرحي يا هند واستجلبي دمعاً وأذْرِي عَبْرة الثاكلِ
وابكي على عُتْبة إذ قَطَّه بالسيف تحت الرَّهَج الحائلِ
إذ خرَّ في مشيخةٍ منكمُ من كل عاتٍ قلبُه جاهلِ
أَرْداهُم حمزةُ في أُسرةٍ يمشون تحت الْحَلْق الفاضلِ
غداةَ جبريلُ وزيرٌ له نعم وزير الفارسِ الحاملِ

[الرجز]

وقال عبد الله بن رواحة(١) يبكي حمزة، وتروي ـ أيضاً ـ لكعب بن مالك رضي الله عنهم أجمعين:

بكت عيني وحُقَّ لها بُكاها وما يُغْني البكاءُ ولا العويلُ
على أَسَد الإلٰه غداةَ قالوا أحمزةُ ذاكم الرجلُ القتيلُ
أصيب المسلمون به جميعاً هناك وقد أُصيب به الرسولُ
أبا يَعْلَي لك الأركان هُدَّتْ وأنت الماجدُ البَرُّ الوَصُولُ

---

(١) المصدر السابق ج٢ ص ١٦٢ ـ ١٦٣.

عليك سلام ربِّك في جِنَانٍ   مُخالطها نعيمٌ لا يزولُ

[الوافر]

وقالت صفية بنت عبد المطلب[1] تبكي أخاها حمزة رضي الله عنهما:

أسائلة أصحابَ أُحْد مخافةً   بناتُ أبي من أعْجَمٍ وخبيرِ

فقال الخبير: إن حمزة قد ثَوى   وزير رسولِ الله خيْر وزيرِ

دعاه الإلٰهُ الحق ذو العرشِ دعوةً   إلى جَنةٍ يحيا بها وسرورِ

فذلك ما كنا نرجِّي ونرتجي   لحمزة يومَ الحشر خير مصيرِ

فوالله ما أنساك ما هبَّت الصَّبَا   بكاءً وحُزناً .مَحْضَري ومَسيرِي

على أَسَد الله الذي كان مِدْرهاً   يذودُ عن الإسلام كلَّ كفورِ

/فياليت شِلوي عند ذاك وأَعْظُمي   لدى أَضْبُع تَعْتادني ونُسورِ ٦٧ ب

أقول وقد أَعْيَي النعيُّ عَشِيرتي   جزَي الله خيراً من أخ ونصيرِ

[الطويل]

وقالت نُعْم امرأة شَمَّاس بن عثمان[2] تبكي زوجها شماساً وأصيب يوم أُحد:

يا عين جودِي بفيضٍ غير إبساسِ   على كريم من الفتيان لَبَّاسِ

صعب البديهة ميمون نَقِيبَتُه   حَمَّال ألوية رَكَّابَ أفراسِ

أقول لَمّا أتى الناعِي له جزَعا   أَوْدَى الجوادُ وأودَى المطْعِم الكاسِي

وقلت لَمّا خلَتْ منه مَجالسه   لا يُبْعِدُ الله منّا قُرْبَ شَمَّاسِ

[البسيط]

فأجابها أخوها[3] يعزيها فقال:

اقْنَيْ حياءَك في سِتْر وفي كرم   فإنما كان شَمَّاسٌ من الناس

لا تقتلي النفسَ إذ حانت مَنّيته   في طاعة الله يومَ الرَّوع والباسِ

(١) المصدر السابق ج٢ ص١٦٧.

(٢) نفسه ج ٢ ص ١٦٨.

(٣) نفسه ج٢ ص١٦٨.

قد كان حمزةُ ليثَ الله فـاصطبري فذاقَ يومئذٍ مـن كـأسٍ شَمَّـاسِ

[البسيط]

وقالت هند بنتِ عُتْبة(١) حين انصرف المشركون عن أُحد:

رجعـتُ وفي نفسي بَلاَبِـلُ جَمَّـةٌ وقد فاتني بعضُ الذي كان مَطْلَبِـي

من اصحاب بدر من قريش وغيرهم بني هـاشم منهـم ومـن آل يثربِ

ولكنني قـد نِلْـتُ شيئاً ولم يكـن كما كنت أرجو في مَسِيري وَمَرْكِبي

[الطويل]

وهذه هند أم معاوية بن أبي سفيان، وكانت امرأة فيها مكارة وذكورة ولها نفس وأنفَة، وكان المسلمون قد أصابوا يومَ بدر أباها عُتبة وعمها شيبة وأخاها الوليد، فأصابها من ذلك ما يصيب من مثله النفوس الشهمة والقلوب الكافرة، فخرجت إلى أُحُد مع زوجها أبي سفيان تبتغي الانتصار وتطلب الأوتار، فهذا قولها ـ يرحمها الله ـ والوِتْر يُقْلقها والكفر يُخنِقها والحزن يُحْرُقها والشيطان يُنْطِقها.

ثم إن الله سبحانه هداها إلى الإسلام وأَخَذَ بحُجْزتها عن سواء النار، فصَلُحت حالها وتبدلت أقوالُها، حتى قالت لرسول الله ﷺ فيما قالت له: والله يا رسول الله، ما كان على الأرض أهلُ خِبَاء أحبّ إلى أن يَذِلوا من أهل خبائك، وما أصبح اليوم على الأرض خبـاء أحبّ إلى أن يعزّوا من أهل خبائك. أو نحو هذا من القول.

فالحمد لله الذي هدانا برسوله أجمعين، وإياه سبحانه نسأل أن يميتنا على خير ما هدانا إليه، لا مبَدّلين ولا مغيرين.

* * *

(١) المصدر السابق.

غدر عضل والقارة بأصحاب رسول الله

صلى الله عليه وسلم[1]

وقَدِم على رسول الله ﷺ بعد أُحد رهطٌ من عَضَل والقارة، وهم بنو الهون ابن خُزَيمة بن مُدْركة، فقالوا له: يا رسول الله، إنّ فينا إسلاماً فابعث معنا نفراً من أصحابك يفقهوننا في الدين ويقرئوننا القرآن ويعلموننا شرائع الإسلام.

فبعث معهم ستة من أصحابه: مَرْثَد بن أبي مرثد الغَنَويّ وأمَّره عليهم، وخالد ابن الْبُكَيْر، وعاصم بن ثابت بن أبي الأقْلح، وخُبيب بن عَدِيّ، وزيد بن الدَّثِنة، وعبد الله بن طارق.

فخرجوا حتى إذا كانوا على الرجيع ـ ماءٍ لهذيل بناحية الحجاز من صدر الْهَدْأة[2] ـ غدَروا بهم فاستَصرخوا عليهم هُذَيْلا فلم يُرع القوْم وهم في رِحَالهم إلا الرجالُ بأيديهم السيوف قد غَشُوهم، فأخذوا أسيافهم ليقاتلوا القومَ فقالوا لهم: إنا والله ما نريد قتلكم، ولكنا نريد أن نصيب بكم شيئاً من أهل مكة، ولكم عهدُ الله وميثاقه أن لا نقتلكم.

فأما مَرْثَد وخالد وعاصم فقالوا: والله لا نقبل من مشركٍ عهدا ولا عَقْداً أبدا. وقال عاصم:

مـا عِلَتِي وأنـا جَلْـدٌ نـابِـلُ ... والقـوسُ فيهـا وَتَـرَ عُنَـابِـلُ

تـزِلَّ عـن صفحتهـا الْمَعَـابِـلُ ... الموتُ حَـقٌّ والحيـاة بـاطـلُ

وكـل مـا حَـمَّ الإلـهُ نـازلُ ... بـالمرء والمرءُ إليـه آيـلُ

إن لم أقاتلكم فأمِّي هابِلُ

[الرجز]

---

(١) المصدر السابق ج٢ ص١٦٩ ـ ١٧٥.

(٢) في الأصل: «الهدة».

ثم قاتل القومَ حتى قُتل وقتل صاحباه رحمهم الله.

فلما قُتل عاصم أرادت هُذيل أَخْذ رأسه ليبيعوه من سُلاَفة بنت سعد بن شُهَيْد بمكة، وكانت حين أصابَ ابنيها يومَ أُحد نذرت لئن قَدَرتْ على رأس عاصم لتشربنّ في قِحْفه الخمر، فمنعه الدَّبْر فقالوا: دَعُوه حتى يُمْسي فتذهب عنه فنأخذه. فبعث الله الوادي فاحتملَ عاصماً فذَهب به.

وقد كان عاصم أعطى الله عهداً أن لا يمسّ مشركاً وألاّ يمسّه مُشْرك أبداً، تنجّساً!.

فكان عمر بن الخطاب يقول: يحفظ الله العبدَ المؤمن! كان عاصم نذَر أن لا يمسّه مشركٌ ولا يمسّ مشركاً أبداً في حياته، فمنعه الله بعد وفاته كما امتنع منه في حياته.

وأما زيد بن الدَّثِنة وخُبَيْب بن عَدِيّ وعبد الله بن طارق فلانوا ورقُّوا ورغبوا في الحياة، فأعطَوا بأيديهم فأسروهم، ثم خرجوا بهم إلى مكة ليبيعوهم بها، حتى إذا كانوا بالظَّهران انتزع عبدُ الله بن طارق يده من القِرَان ثم أخذ سيفه واستأخرعنه القوم، فرموه بالحجارة حتى قتلوه، فقبره بالظهران.

وأما خُبيب بن عديّ وزيد بن الدَّثِنة فقدموا بهما [مكة] فابتاع خُبيباً حُجَيْرُ بن أبي إهاب التميمي لعُقْبة بن الحارث بن عامر بن نوفل ليقتله بأبيه.

وأما زيد بن الدَّثِنة فابتاعه صفوان بن أمية ليقتله بأبيه أمية بن خلَف، فبعث به مع مولى له يقال له: نسطاس إلى التَّنْعيم، فأخرجوه من الحرم ليقتلوه، واجتمع رهط من قريش منهم أبو سفيان بن حرب، فقال له أبو سفيان لما قُدِّم ليُقْتل: أنشدك الله يا زيد، أتحب أن محمداً الآن عندنا مكانك تُضرب عنقه وأنك في أهلك؟ فقال: والله ما أحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكةٌ تؤذيه وأني جالسٌ في أهلي!

يقول أبو سُفيان: ما رأيتُ من الناس أحداً يحب أحداً كحُبِّ أصحابِ محمد محمداً!

ثم قتله ـ رحمه الله ـ نسطاسُ مولى صفوان.

قال ابن عُقْبة: وزعموا أنهم رموه بالنَّبْل وأرادوا فتنته فلم يزده إلا إيماناً ويقيناً.

وأما خُبَيب بن عدِيّ فجلس بمكة في بيت ماوِيّة مولاة حُجَيْر بن أبي إهاب، فكانت تخبر بعد ما أسلمتْ، قالت: لقد اطّلعتُ عليه يوماً وإن في يده لقِطْفاً من عنب مثل رأس الرجل يأكل منه، ووالله ما أعلم في أرض الله عنباً يؤكل!

قالت: وقال لي حين حضره القتلُ: ابعثي إليّ بحديدة أتطهر بها للقتل، فأعطيت الموسَى غلاماً من الحي فقلت: ادخل/ بها على هذا الرجل، قالت: فوالله ما هو إلا أن ولّى الغلام بها إليه، فقلت: ماذا صنعت؟ أصاب والله الرجلُ ثأره يقتل هذا الغلامَ، فيكون رجلاً برجل. فلما ناوله الحديدة أخذها من يده ثم قال: لعَمْرك ما خافت أمك غَدْري حين بعثتك بهذه الحديدة إليّ؟ ثم خلّى سبيله. ٦٨ أ

ثم خرجوا بُخبَيْب حتى إذا جاءوا به التنعيم ليصلبوه قال لهم: إن رأيتم أن تَدَعوني حتى أركع ركعتين فافعلوا. قالوا له؛ دونك فاركع. فركع ركعتين أتَمّهما وأحسنهما، ثم أقبل على القوم فقال: أمَا والله لولا تظنوا أني إنما طوّلت جزعاً من القتل لاستكثرت من الصلاة.

فكان خبيب أول من سَنَّ هاتين الركعتين عند القتل للمسلمين.

ثم رفعوه على خشبة، فلما أوثقوه قال: اللهمّ إنا قد بلَّغنا رسالةَ رسولك فبلّغه الغداة ما يُصنع بنا. ثم قال: اللهم أحصهم عدداً واقتلهم بدداً ولا تغادر منهم أحداً. ثم قتلوه.

فكان معاوية بن أبي سفيان يقول: حضرت ـ يومئذٍ ـ فيمن حضره مع أبي أبي سفيان، فلقد رأيته يلقيني في الأرض فَرَقاً من دعوة خُبَيْب، وكانوا يقولون: الرجل إذا دُعِي عليه فاضطجع لجنبه زَلّت عنه.

وكان ممن حضره - يومئذٍ - سعيد بن عامر بن جِذْيم الجمحيّ، ثم أسلم بعد ذلك واستعمله عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - على بعض الشام، فكانت تصيبه غَشْيةٌ بين ظَهْري القوم، فذكر ذلك لعمر وقيل: إن الرجل مصاب. فسأله عمر - رحمه الله - في قَدْمة قدمها عليه فقال: يا سعيد، ما هذا الذي يصيبك؟ قال: والله يا أمير المؤمنين ما بي من بأس، ولكني كنت فيمن حضر خُبَيْبَ بن عدي حين قُتل وسمعتُ دعوته، فوالله ما خطرتْ على قلبي وأنا في مجلس قط إلا وغُشي عليّ فزادته عند عمر خَيْراً.

وذكر ابن عُقْبة أن خبيباً وزيداً قتلا في يوم واحد، قال: وزعموا أن رسول الله ﷺ قال وهو جالس في ذلك اليوم الذي قُتلا فيه: «وعليكما أو وعليك السلام، خبيب قتلتْه قريش»، لا ندري أذكَر ابنَ الدَّثِنة معه أم لا.

وقال خبيب(١) - يرحمه الله - لما اجتمع القومُ لصَلْبه:

لقد جمع الأحزابُ حَوْلِي وألّبوا ... قبائلَهم واستجمعوا كلَّ مَجْمَعِ
وقد جَمعوا أبناءهم ونساءهم ... وقُرِّبْتُ من جِذْعٍ طويلٍ مُمَنَّعِ
إلى الله أشكو غُربتي ثم كُرْبتي ... وما أَرْصدَ الأحزابُ لي عند مَصْرِعي
فذا العرش صَبِّرْني على ما يراد بي ... فقد بضَعوا لحميَ وقد ياسَ مَطْمعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ ... يبارِكْ على أوصال شِلْوٍ مُمَزَّعِ
وقد خيَّروني الكفرَ والموتُ دونَه ... وقد هَمَلَتْ عيناي من غير مَجْزَعِ
وما بي حِذارُ الموتِ إنّي لَمَيِّت ... ولكن حذاري جَحْمُ نارٍ ملَفّعِ
ولست أُبَالِي حين أُقْتَل مُسْلماً ... على أيِّ جَنْبٍ كان في الله مَضْجَعي
فلست بمُبْدٍ للعدوّ تخشّعاً ... ولا جزَعاً إنّي إلى الله مَرْجِعي

[الطويل]

وقال حسان بن ثابت(٢) يبكي خُبَيْباً:

يا عينُ جُودي بدمعٍ منك منسكبِ ... وابكي خُبَيْبا مع الفتيان لم يَؤُبِ

(١) المصدر السابق ج٢ ص ١٧٦.
(٢) نفسه ج٢ ص ١٧٧ - ١٧٨.

صَقراً توسَّط في الأنصار مَنْصِبُه ... سَمْح السجيّة محضاً غير مُؤْتشِب

قد هاج عَيْني على عِلاّت عَبرتها ... إذ قيل نُصّ إلى جِذْع من الخشَبِ

يا أيها الراكبُ الغادِي لِطِيَّتِه ... أبلغ إليك وعيداً ليس بالكذب

بني كُهَيْنَةَ إنّ الحرب قد لَقِحَت ... مَحْلوبُها الصابُ إذ تَمْرِي لمحتَلِب

فيها أسودُ بني النَّجار يقدمهم ... شُهْب الأسنّة في مُعْصَوْصب لِجَب

[البسيط]

وقال حسان(٢) ـ أيضاً ـ يهجو هذيلاً:

لَعَمْري لقد شانَتْ هُذَيلَ بن مُدْرك ... أحاديثُ كانت في خُبَيْب وعاصمِ

أحاديث لِحْيان صلَوْا بقبيحها ... ولحيان جَرّامُون شَرَّ الجرائم

أناس همُ من قومهم في صميمهم ... بمنزلة الزِّمْعان دُبْرَ القوائم

همُ غَدروا يومَ الرَّجيع وأسلَمتْ ... أمانتُهم ذا عفةٍ ومَكارِمِ

رسوَل رسول الله غَدْراً ولم تكن ... هُذَيْل تَوقَّى مُنْكَراتِ المحارِمِ

فسوف يرون النصر يوماً عليهمُ ... بقتل الذي يحميه دون المحارم

أبابيلُ دَبْر شُمَّس دون لَحْمه ... حَمَتْ لحمَ شَهّادٍ عِظَامَ الملاحِم

لعلّ هُذيلاً أن يروا بمصابه ... مصارع قتلَى أو مُقاماً لمأتمِ

ويوقع فيها وقعة ذات صَوْلة ... يوافي بها الركبانُ أهلَ المواسمِ

بأمر رسول الله إنّ رسوله ... رأي رأْي ذي حَزْم بِلحْيان عالمِ

قبيلته ليس الوفاءُ بهمهم ... وإن ظُلموا لم يدفعوا كفَّ ظالمِ

إذا الناسُ حَلّوا بالفضاء رأيتَهم ... بمَجْرى مَسِيل الماء بين الْمَخارم

محلّهم دارُ البَوار ورأْيهم ... إذا نابهم أمرٌ كرأي البهائم

[الطويل]

* * *

(١) المصدر السابق ج٢ ص ١٨٠ ـ ١٨١.

غزوة بئر معونة(١)

وبعث رسولُ الله ﷺ أصحابَ بئر مَعُونة في صفَر على رأس أربعة أشهر من أُحُد.

وكان من حديثهم أن أبَا براء مُلاَعِب الأسِنَّة، واسمه عامر بن مالك بن جعفر، قدِم المدينةَ على رسول الله ﷺ، فعرض عليه رسولُ الله ﷺ الإسلامَ ودعاه إليه، فلم يُسْلم ولم يَبْعُد من الإسلام، وقال: يا محمد، لو بعثتَ رجالاً من أصحابك إلى أهل نجد فدعوهم إلى أمرك رجوت أن يستجيبوا لك.

فقال رسول الله ﷺ: «إني أخشى عليهم أهلَ نجد». قال: أنا لهم جارٌ فابعثهم.

فبعث رسولُ الله ﷺ المنذَر بن عمرو أخا بني ساعدة، الْمعْنِق ليموت، في أربعين رجلاً من أصحابه، منهم الحارث بن الصِّمة، وحَرام بن مِلْحان، وعروة بن أسماء بن الصّلْت السُّلَمي، ونافع بن بُدَيْل بن وَرْقاء، وعامر بن فُهَيْرة، في رجال مسمَّين من خيار المسلمين.

فساروا حتى نزلوا بئر معونة وهي بين أرض بني عامر وحَرّة بني سُليم، كلاَ البلدين منها قريب، وهي إلى حَرّة بني سُلَيْم أقرب.

فلما نزلوها بعثوا حَرامَ بن مِلْحان بكتاب رسول الله ﷺ إلى عدو الله عامر بن الطّفَيل، فلما أتاهم لم ينظر في كتابه حتى عدا على الرجل فقتله، ثم استصرخ عليهم بني عامر فأبوا أن يجيبوه، وقالوا: لن نَخْفر أبا بَراء، وقد عقد لهم عَقْداً وجواراً.

---

(١) راجع: ابن هشام. السيرة ج ٢ ص ١٨٣ - ١٨٩.

فاستصرخ عليهم قبائل من [بني] سُلَيْم: عُصَيّة ورِعْلاً وذَكْوان، فأجابوه إلى ذلك، فخرجوا حتى غَشُوا القومَ فأحاطوا بهم في رحالهم فلما رأوهم أخذوا سيوفهم ثم قاتلوهم حتى قُتلوا من عند آخرهم رحمهم الله،/إلاّ كعبَ بن زيد أخا ٦٨ ب
بني دينار بن النجار ـ يرحمه الله ـ فإنهم تركوه وبه رمَق فارتُثّ من بين القتلى فعاش حتى قُتل يوم الخندق شهيداً.

وكان في سَرْح القوم عمرو بن أمية الضّمْري، ورجل من الأنصار من بني عمرو بن عوف قيل: إنه المنذر بن محمد بن عُقْبة بن أُحَيْحَة بن الْجُلاَح، فلم ينبئهما بمصاب أصحابهما إلا الطير تحوم على العسكر فقالا: والله إنّ لهذا الطير لَشأنا.

فأقبلا لينظرا فإذا القومُ في دمائهم وإذا الخيل التى أصابتهم واقفـة.

فقال الأنصاري لعمرو بن أمية: ما ترى؟

قال: أرى أن نلحق برسول الله ﷺ فنخبره الخبر. فقال الأنصاري: لـكني ما كنت لأرغبَ بنفسي عن موطنٍ قُتل فيه المنذر بن عمرو، وما كنتُ لتخبرني عنه الرجال.

ثم قاتل القومَ حتى قُتل.

وأخذوا عمرو بن أمية أسيراً، فلما أخبرهم أنه من مضر أطلقه عامر بن الطفيل وجزّ ناصيته وأعتقه عن رقبةٍ زعم أنها كانت على أمه.

فخرج عمرو بن أمية حتى إذا كان بالقَرْقرة من صدر قناة أقبَل رجلان من بني عامر حتى نزلا معه في ظلٍّ هو فيه فسألهما ممن أنتما؟ فقالا: من بني عامر. فأمهلهما حتى إذا ناما عدا عليهما فقتلهما، وهو يرى أنه قد أصاب بهما ثُؤْرة من بني عامر في ما أصابوه من أصحاب رسول الله ﷺ، وكان مع العامريين عَقْد من رسول الله ﷺ وجِوَار لم يعلم به عمرو بن أمية، فلما قدم عمرو على رسول الله ﷺ فأخبره الخبر قال: لقد قتلت قتيلين لأديّنهما. ثم قال رسول الله ﷺ: هذا عملُ أبي بَراء، قد كنت لهذا كارهاً متخوّفاً.

وكان فيمن أصيب ـ يومئذٍ ـ عامر بن فُهَيْرة، فكان عامر بن الطُّفَيْل يقول: من

رجلٌ منهمْ لمّا قُتل رأيتُه رُفِع بين السماء والأرض حتى رأيت السماء دونه؟ قالوا: هو عامر بن فُهَيْرة.

وذكر ابن عُقْبة أنه لم يوجد جسدُ عامر بن فهيرة يومئذ، فيرون أن الملائكة هي وارَتْه، رحمة الله عليه.

وكان جَبّار بن سَلْمى فيمن حضرها ـ يومئذٍ ـ مع عامر بن الطفيل ثم أسلم فكان يقول: إن مما دعاني إلى الإسلام أني طَعنت رجلاً منهم بالرمح بين كتفيه، فنظرت إلى سِنَان الرمح حين خرج من صدره، فسمعته يقول: فُزْتُ والله! فقلت في نفسي: ما فاز! ألستُ قد قتلت الرجل؟! حتى سألتُ بعد ذلك عن قوله فقالوا: الشهادة. فقلت: فاز لَعَمْر الله.

وأقام رسول الله ﷺ شهراً يدعو في صلاة الغداة على الذين قتلوا أصحاب بئر مَعُونة، يدعو على رعل وذَكوان وعُصَيّة الذين عصوا الله ورسوله، وأُنزل فيمن قُتل هنالك قرآن ثم رفع: «بلِّغوا عنا قومَنا أن لقينا ربَّنا فرضِي عنّا ورضينا عنه».

* * *

ذكر غزوة بني النضير(١)

والسبب الذي هاج الخروجَ إليهم

وذلك أن رسول الله ﷺ خرج إليهم يستعينهم في دية العامِرِيَّيْن، اللذين قتلَ عمرو بن أمية الضَّمْري، للجوار الذي كان رسول الله ﷺ عقَد لهما، فقالوا له لمّا كلّمهم في ذلك: نعم، يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه، اجلس حتى تَطْعم وترجع بحاجتك.

فجلس رسول الله ﷺ إلى ظل جدار من جُدر بيوتهم معه نفر من أصحابه فيهم أبو بكر وعمر وعلي، ينتظرون أن يصلحوا أمرهم.

فخلا بعضهم ببعض والشيطان معهم لا يفارقهم، فائتمروا بقتلِ رسول الله ﷺ وقالوا: إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه، فمن رجلٌ يعلو على هذا البيت فيلقي عليه صخرةً فيريحنا منه.

فانتدب لذلك عمرو بن جحَاش بن كعب، أحدهم، فقال: أنا لذلك. وصعد ليفعل.

فأتى رسولَ الله ﷺ الخبرُ من السماء بما أراد القومُ، فقام راجعاً إلى المدينة وترك أصحابه في مجلسهم، فلما استلبث النبيَّ ﷺ أصحابُه قاموا في طلبه، فلقوا رجلاً مقبلاً من المدينة فسألوه عنه فقال: لقيته داخلاً المدينة، فأقبلوا حتى انتهوا إليه فأخبرهم بما كانت يهود أرادت من الغدر به.

وأمر رسولُ الله ﷺ بالتهيؤ لحربهم والسير إليهم، ثم سار بالناس ونزل بهم، فتحصنوا منه في الحصون.

---

(١) المصدر السابق ج٢ ص ١٩٠ ـ ٢٠٣.

وعرض عليهم رسول الله ﷺ الجلاء عن أوطانهم وأن يسيروا حيث شاءوا، فراسلهم أولياؤهم من المنافقين ـ عبد الله بن أبيّ في رهط من قومه ـ حين سمعوا ما يراد منهم: أن اثبتوا وتمنّعوا فإنا لن نسْلمكم، إن قاتلتم قاتلنا معكم، وإن خرجتم خرجنا معكم.

فغرَّتهم أمانيّ المنافقين، ونادوا النبيّ ﷺ وأصحابه: إنا والله لا نخرج، ولئن قاتلتنا لنقاتلنك.

فمضى رسولُ الله ﷺ لأمر الله فيهم، فلما انتهى إلى أزِّقتهم وحصونهم كره أن يمكّنهم من القتال في دورهم وحصونهم، فحفظ الله له أمرَه وعزمَ له على رشده، فأمر بالأدْنى فالأدنى من دورهم أن تُهدم وبالنخيل أن تحْرق وتقطع، وكفَّ الله أيديهم وأيدي المنافقين فلم ينصروهم، وألقى الله في قلوب الفريقين كليهما الرعب، فهدموا الدورَ التي هم فيها من أدبارها، فلما كادوا يبلغون آخر دورهم وهم ينتظرون المنافقين ويتربصون مِن نصرهم ما كانوا يُمَنّونهم به حتى يئسوا مما عندهم، سألوا رسول الله ﷺ الذي كان عَرض عليهم قبلَ ذلك.

فقاضاهم ـ صلوات الله عليه وسلامه ـ علي أن يُجْليهم ويكفّ عن دمائهم وعلى أن لهم ما استقلّت به الإبلُ من أموالهم إلا الْحَلْقة فقط.

فطاروا بذلك كلَّ مَطِير وتحمَّلوا بما أقلّت إبلهم، حتى إن الرجل ليهدم بيته عن نِجَاف بابه فيضعه على ظهر بعيره فينطلق به. فخرجوا إلى خيبر، ومنهم من سار إلى الشام، وكان أشرافهم بنو أبي الْحُقَيْق وحُيَيّ بن أخطب فيمن سار إلى خيبر، فلما نزلوها دانَ لهم أهلها.

وخليّ بنو النضير الأموالَ لرسول الله ﷺ، فكانت له خاصّة بحكم الله له
٦٩ أ بها ليضعَها حيث/ شاء، فقسمها على المهاجرين الأوّلين دون الأنصار، إلا أن سهل بن حُنَيْف وأبا دُجَانة سِمَاك بن خرَشة ذكَرا فقراً فأعطاهما رسولُ الله ﷺ منها.

وكانت اليهود قد عيّروا المسلمين حين يهدمون الدور ويقطعون النخل

فنادوا: أن يا محمد قد كنت تَنْهى عن الفساد وتعيبه على من صَنعه، فما بال قَطْع النخيل وتحريقها؟ وما ذنب شجرة وأنتم تزعمون أنكم مصلحون في الأرض؟!

فأنزل الله - سبحانه - في قصتهم وما ذكروه من قولهم وبيان وجه الحكم في أموالهم سورةَ الحشر بأسْرها. فقال عز من قائل:

﴿**سَبَّح لله ما في السموات وما في الأرض وهو العزيزُ الحكيمُ، هو الذي أخرجَ الذين كفروا من أهلِ الكتاب من دِيَارهم لأوّلِ الْحَشْر ما ظننتم أن يَخْرُجوا وظنّوا أنهم مانِعتهم حصونُهم من الله فأتاهم الله من حيثُ لم يحتَسِبوا وقذَف في قلوبهم الرعب يُخْربون بيوتَهم بأيديهم وأيدي المؤمنين، فاعتبروا يا أولي الأبصار**﴾، للذي كان منهم من الهدْم من أدبار بيوتهم وهدم المسلمين لما يليهم منها.

﴿**ولولا أَنْ كتبَ الله عليهمُ الجلاء لعذَّبهم في الدنيا**﴾ أي بالسيف ﴿**ولهم في الآخرةِ عذابُ النارِ**﴾ أي مع ما لقوه في الدنيا من النقمة.

ثم قال - تعالى - فيما عابوه من قطع النخيل وعدُّوه من ذلك فساداً: ﴿**ما قَطَعْتُم من لِينَةٍ أو تركتموها قائمةً على أصولها فبإذْن الله**﴾ أي فبأمر الله قُطعت، لم يكن ذلك فساداً بل نقمة أنزلها بهم ﴿**وليُخْزي الفاسقين**﴾.

ثم بين تعالى لرسوله الحكم في أموالهم وأنها نَفل له لا سهمَ لأحدٍ فيها معه فقال عزَّ ذِكره وجَلَّ قولُه: ﴿**وما أفاء الله على رسولِه منهم فما أَوْجَفْتُم عليه مِنْ خَيْلٍ ولا رِكاب ولكنَّ الله يُسَلطُ رُسَله على من يشاء والله على كل شيء قدير**﴾، فقسمها رسول الله ﷺ فيمن أراه الله من المهاجرين الأولين كما تقدم، وأعطى منها الرجلين المسمَّيْن من الأنصار.

وقال علي بن أبي طالب[1] يذكر إجلاء بني النضير وما تقدم قبل ذلك من قتل كعب بن الأشرف، ويقال: بل قالها رجل من المسلمين غير عليّ:

---

(١) المصدر السابق ج٢ ص ١٩٧ - ١٩٨.

عرفْتُ ومن يعتدلْ يَعْرِفِ ... وأيقنتُ حقاً ولم أَصْدِفِ
عن الكَلِمِ المحكَمِ اللاءِ مِن ... لدَى الله ذي الرأفة الأرأفِ
وسائلَ تُدْرَس في المؤمنين ... بهن اصطَفى أحمدَ المصطَفِي
فأصبح أحمدُ فينا عزيزاً ... عزيزَ الْمُقامة والموْقِفِ
فيا أيها الموعِدوه سَفاهاً ... ولم يأت جَوْراً ولم يَعْنُفِ
ألستم تخافون أدنَى العذاب ... وما آمِنُ الله كالأَخْوفِ
وأن تُصْرَعوا تحت أسيافه ... كمصرع كعبٍ أبي الأَشْرَفِ
غداةَ رأي الله طغيانَه ... وأعرض كالجمل الأَخْنَفِ
فأنزل جبريلَ في قَتْله ... بوحيٍ إلى عبده مُلْطفِ
فدسَّ الرسولُ رسولاً له ... بأبيض ذي هَبّةٍ مُرْهَفِ
فباتت عيون له مُعْولات ... متى يُنْعَ كعبٌ لها تَذْرِفِ
وقلن لأحمد ذَرْنا قليلاً ... فإنا من النَّوحِ لم نَشْتَفِ
فخلاهم ثم قال اظْعَنوا ... دُحُوراً على رَغْم الآنُفِ
وأجْلَى النَّضِيرَ إلى غُرْبة ... وكانوا بدارٍ ذوي زُخْرفِ
إلى أذْرُعات رُدَافَي وهم ... على كل ذي دَبَرٍ أَعْجَفِ

[المتقارب]

ولم يُسْلم من بني النضير إلا رجلان: يامين بن عمير بن كعب، ابن عم عمرو بن جحَاش، وأبو سعد بن وهب، أسلما خوفاً على أموالهما فأحرزاها، وحدَّث بعضُ آل يامين أن رسول الله ﷺ قال ليامين: ألم تر ما لقيتُ من ابن عمك وما همَّ به من شأني؟ فجعل يامين لرجل جُعلاً على أن يقتل عمرو بن جِحَاش فقتله، فيما يزعمون.

* * *

غزوة ذات الرقاع[1]

ثم أقام رسول الله ﷺ بالمدينة بعد غزوة بني النَّضِير شهرَ ربيع وبعض جُمَادي، ثم غزا نجداً يريد بني محارِب وبني ثعلبة من غطفان حتى نزل نخلاً. وهي غزوة ذات الرِّقَاع وسميت بذلك لأنهم رقَعوا فيها راياتهم، وقيل: لأجل شجرة بذلك الموضع يقال لها: ذات الرِّقاع. وقيل: لَمّا كانوا يعصبون على أرجلهم من الخِرَق إذ نَقِبت أقدامهم.

فلقي رسول الله ﷺ هنالك جَمْعاً من غَطَفان، فتقارب الناسُ ولم يكن بينهم حَرْب وخاف الناسُ بعضهم بعضاً، حتى صلى رسول الله ﷺ يومئذ بالناس صلاة الخوف، ثم انصرف بهم.

وفي هذه الغزوة عرض له رجل من مُحَارِب يقال له: غَوْرث، وقد قال لقومه من غطفان ومحارِب: ألا أقتل لكم محمداً؟ قالوا: بلى، وكيف تقتله؟ قال: أفتك به. فأقبل إلى رسول الله ﷺ وهو جالس وسيفه في حِجره فقال: يا محمد، أنظر إلى سيفك هذا؟ قال: نعم. فأخذه فاستلّه ثم جعل يهزّه ويهمّ به فيكْبته الله، ثم قال: يا محمد، أمَا تخافني؟ قال: لا، والله ما أخاف منك. قال: أما تخافني وفي يدي السيف؟ قال: بلى يمنعني الله منك. ثم عمد إلى سيف رسول الله ﷺ فردّه عليه.

فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ الله عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُون**﴾ [المائدة: ١١].

وقيل: إنها إنّما نزلت في عمرو بن جِحَاش وما همَّ به من إلقاء الحجر على رسول

---

(١) المصدر السابق ج٢ ص ٢٠٣ - ٢٠٩.

الله ﷺ يوم وصل إلى بني النضير مستعيناً بهم في دِيَة العامريّين. فالله أعلم أيّ ذلك كان.

وحدَّث جابر بن عبد الله(١) قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزوة ذات الرقاع من نخل فأصاب [رجلٌ] امرأة رجلٍ من المشركين، فلما انصرف رسولُ الله ﷺ قافلاً أتى زوجُها وكان غائباً، فلما أخبر الخَبر حلف أن لا ينتهي حتى يُهْرِيق في أصحاب محمد دماً، فخرج يتبع أثر رسول الله ﷺ فنزل رسول الله ﷺ منزلاً، فقال: مَن رجلٌ يَكْلَؤُنا ليلَتنا؟ قال: فانتدب رجلٌ من المهاجرين، قيل: هو عمّار بن ياسر، ورجل من الأنصار، قيل: هو عبّاد بن بشْر، فلما خرج الرجلان إلى فم الشِّعب قال الأنصاريّ للمهاجريّ: أيّ الليل تحب أن أكفيكه أوّله أو آخره؟ قال: بل اكفني أوله فاضطجع المهاجريّ فنام، وقام الأنصاري يصلي، وأتي الرجلُ فلما رأى شخصَه عرف أنه رَبيئة القوم، فرماه بسهم فوضعه فيه، قال: فانتزعه عنه وثبت قائماً، ثم رماه بسهم آخر فوضعه فيه فنزعه فوضعه وثبت قائماً، ثم عاد له بالثالث، فوضعه فيه فنزعه ثم ركع وسجد، ثم أَهَبَّ صاحبه فقال: اجلس فقد أُثْبِتّ. قال: فوثب، فلما رآهما الرجلُ عرف أن قد
٦٩ ب نَذِرا به فهرب، /فلما رأى المهاجريُّ ما بالأنصاري من الدماء، قال: سبحان الله، أفلا أَهْبَبْتَني أولَ ما رماك؟ قال: كنت في سورة أقرؤها فلم أُحبّ أن أقطعها حتى أُنفذها فلما تابع على الرمْيَ ركعت فآذنتُك، وأيم الله لولا أن أُضيع ثغْراً أمرني رسول الله ﷺ بحفظه لقطع نفسي قبل أن أقطعها أو أُنفذها!

وقال جابر بن عبد الله(٢): خرجت إلى غزوة ذات الرقاع على جمل لي ضعيف، فلما قَفل رسول الله ﷺ جعلت الرفاقُ تمضي وجعلتُ أتخلّف، حتى أدركني رسول الله ﷺ فقال: ما لك يا جابر؟ قلت: يا رسول الله، أبطأ بي جملي. قال: أَنِخْهُ فأنختُه وأناخ رسول الله ﷺ ثم قال: أعطني هذه العصا من يدك أو اقطع

(١) المصدر السابق ج٢ ص ٢٠٨ ـ ٢٠٩.
(٢) نفسه ج٢ ص٢٠٦ ـ ٢٠٧.

لي عصا من شجرة، ففعلت، فأخذها رسولِ الله ﷺ فنخسه بها نَخسات ثم قال: اركب، فركبت فخرج ـ والذي بعثه بالحق ـ يواهق ناقته مواهقة، وتحدثت معه فقال لي: أتبيعني جملك هذا يا جابر؟ قلت: يا رسول الله، بل أَهَبُه لك. قال: لا ولكن بِعْنيه. قلت: فسُمْنيه. قال: قد أخذته بدرهم. قلت: لا إذن تَغْبَنَني يا رسول الله. قال: فبدرهمين. قلت: لا. فلم يزل يرفع لي حتى بلَغ الأوقية فقلت: أقد رضيتَ؟ قال: نعم. قلت: فهو لك. قال: قد أخذته.

ثم قال: يا جابر، هل تزوجت بعدُ؟ قلت: نعم يا رسول الله، قال: أثّيباً أم بكراً؟ قلت: بل ثيّباً. قال: أفلا جاريةً تُلاعبها وتلاعبك؟ قلت: يا رسول الله، إن أبي أُصيب يوم أُحد وترك بناتٍ له سَبْعاً فنكحتُ امرأةً جامعة تجمع رءوسهن وتقوم عليهن. قال: أصبتَ إن شاء الله، أمَا إنه لو قد جئنا صِرَاراً أمرْنا بجَزُور فنُحرت وأقمنا عليها يومَنا ذلك وسمعتْ بنا فنفضتْ نمارقها. قلت: والله يا رسول الله ما لها من نمارق. قال: إنها ستكون. فإذا أنت قدمْت فاعمل عملاً كيّسًا. قال: فلما جئنا صِراراً أمر رسول الله ﷺ بجزور فنُحرت وأقمنا عليها ذلك اليوم، فلما أمسَى دخل ودخلنا، فحدَّثتُ المرأة الحديث وما قال لي رسول الله ﷺ، قالت: فدونك فسَمْع وطاعة.

فلما أصبحتُ أخذتُ برأس الجمل فأقبلت به حتى أَنَخْتُه على باب رسول الله ﷺ ثم جلست في المسجد قريباً منه، وخرج رسول الله ﷺ فرأى الجمل، فقال: ما هذا؟ فقالوا: يا رسول الله، هذا جملٌ جاء به جابر. قال: فأين جابر؟ فدُعيت له. فقال: يابن أخي خُذْ برأس جملك فهو لك. ودعا بلالاً وقال: اذهب بجابر فأعطه أوقيةً. قال: فذهبت معه فأعطاني أوقية وزادني شيئاً يسيراً، فوالله ما زال يَنْمي عندي ويُرى مكانه من بيتنا حتى أصيب أمس فيما أصيب لنا! يعني يوم الحرَّة.

قال ابن إسحاق(١): ولما قدم رسول الله ﷺ من غزوة ذات الرِّقاع أقام بها بقية جمادي الأولى وجُمادي الآخرة ورجب.

---

(١) المصدر السابق ج٢ ص ٢٠٩ ـ ٢١٣.

ثم خرج في شعبان إلى بَدْر لميعاد أبي سفيان، حتى نزله فأقام عليه ثماني ليال ينتظره.

وخرج أبو سفيان، في أهل مكة، حتى نزل مَجَنّة من ناحية، الظَّهران ـ وبعضُ الناس يقول عُسْفان ـ ثم بَدا له في الرجوع، فقال: يا معشر قريش، إنه لا يُصْلحكم إلا عامٌ خَصِيب تَرْعَون فيه الشجر وتشربون فيه اللبن، فإنّ عامكم هذا عامٌ جَدْب، وإني راجع فارجعوا. فرجع الناس، فسماهم أهلُ مكة جيشَ السَّويق يقولون: إنما خرجتم تشربون السويق.

وأقام رسولُ الله ﷺ على بَدْر ينتظر أبا سفيان لميعاده، فأتاه مَخْشي بن عمرو الضَّمْري، وهو الذي كان وادعَه على بني ضمرة في غزوة وَدَّان فقال: يا محمد، أجئت للقاء قريش على هذا الماء؟ قال: نعم يا أخا بني ضمرة، وإن شئتَ مع ذلك ردَدْنا إليك ما كان بيننا وبينك ثم جالَدْناك حتى يحكم الله بيننا وبينك. قال: لا والله يا محمد، مالنا بذلك منك من حاجة.

ومرّ برسول الله ﷺ، وهو هناك ينتظر أبا سفيان مَعْبَدُ بن أبي مَعْبَد الْخُزاعي فقال وناقته تهوى به، وقد رأى مكانَ رسول الله ﷺ:

قد نَفَرتْ من رفقتَي محمدِ　　وعجوةٍ من يثرب كالعَنْجدِ
تَهْوى على دِين أبيها الأَتْلدِ　　قد جعلتْ ماءَ قُدَيْدٍ موعِدي
وماء ضَجْنان لها ضحى الغدِ

[الرجز]

وقال عبدالله بن رواحة في ذلك، ويقال: إنها لكعب بن مالك:

وعَدْنا أبا سفيان بَدْراً فلم نجدْ　　لميعاده صِدْقاً وما كان وافيَا
فأُقسمُ لو وافَيْتنا فلقيتنا　　لأبْتَ ذَميماً وافتقدت الْمَواليَا
تركنا بها أوصالَ عُتْبة وابنه　　وعَمْراً أبا جهلٍ تركناه ثاويَا
عصيتم رسولَ الله أفٍّ لدينكم　　وأمركم السَّيْء الذي كان غاويَا
فإنّي وإن عنَّفْتموني لَقائل　　فِداً لرسول الله أهلي وماليَا

أطعنــاه لم نَعْــدلــه فينــا بغيره ... شِهاباً لنـا في ظُلمـة الليـل هـاديَـا

[الطويل]

وقال حسان بن ثابت في ذلك :

دَعُوا فلَجات الشام قد حـال دونها ... جِلاَد كـأفـواه المخـاض الأوَارِكِ
بأيدي رجـالٍ هـاجـروا نحوَ ربهم ... وأنصـاره حقًّـا وأيـدي الملائِـكِ
إذا سلكتْ للغَوْر من بطـن عـالـج ... فقـولا لها ليس الطـريـق هنـالـكِ
أقمنــا على الرّسِّ النَـزُوع ثمانيــاً ... بـأرْعَـن جـرّارٍ عـريـض المبَـارِكِ
بكل كُمَيْت جَـوْزه نصـفُ خَلْقـه ... وقُـبٍّ طـوالٍ مُشْـرفـات الحوارِكِ
ترى العَرْفج العامِي تذري أصـولَـه ... منَـاسمُ أخفـافِ المطـيِّ الرواتــكِ
فـإن تَلْـقَ في تَطْـوافنــا والتماسنــا ... فُراتَ بن حيّان يكن رَهْن هـالـكِ
وإن تَلْق قيسَ بن امرىء القيس بعدَه ... يزدْ في سوادٍ لـونـه لـون حـالـكِ
فـأبلـغ أبـا سفيـان عنّـي رسـالـةً ... فإنك من غُـرّ الرجـال الصَّعـالـكِ

[الطويل]

ثم انصرف رسولُ الله ﷺ إلى المدينة فأقام بها حتى مضى ذو الحجة، وهي سنة أربع من مَقْدمه المدينة، ثم غزا دَوْمة الجندل(١)، ثم رجع قبل أن يصل إليها ولم يلق كيداً، ﷺ.

* * *

(١) المصدر السابق ج٢ ص ٢١٣.

غزوة الخندق[1]

وكانت في شوال من سنة خَمْس في قول ابن إسحاق.

وكان من الحديث عن الخندق أنه لما أجْلَى رسولُ الله ﷺ بني النضير خرج نفرٌ من اليهود - سَلاَّم بن أبي الْحُقَيْق وحُيَيّ بن أَخْطَب وكنانة بن الربيع النَّضَرِيّون، وهَوْذَة بن قيس وأبو عمار الوائليان - في نفر من بني النضير وبني وائل، وهم الذين حزَّبوا الأحزاب على رسول الله ﷺ، حين قدِموا مكة على قريش فاستفزوهم واستنفروهم على رسول الله ﷺ ودعوهم إلى حربه، وقالوا: إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله.

٧٠ أ فقالت لهم قريش: يا معشر يهود إنكم أهل/ الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أفدِيننا خيرٌ أم دينه؟ قالوا: بل دينكم خيرٌ من دينه وأنتم أولى بالحق منه، فهم الذين أنزل الله عز وجل فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إلى الّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بالجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ ويَقُولُونَ لِلّذِينَ كَفَرُوا: هؤلاءِ أَهْدَي مِنَ الّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً. أُولَئِكَ الّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَـهُ نَصِيراً﴾ [النساء: ٥١ - ٥٢].

فلما قالوا ذلك لقريش سرَّهم ونَشطوا لِمَا دعوهم إليه من حرب رسول الله ﷺ فاجتمعوا لذلك واتَّعدوا له.

ثم خرج أولئك النفر حتى جاءُوا غَطَفان من قَيْس عَيْلان فدعوهم إلى مثل ما دعوا إليه قريشاً، وأخبروهم أنهم سيكونون معهم وأن قريشاً قد تابَعوهم على ذلك.

---

(١) المصدر السابق ج٢ ص٢١٤ - ٢٣٣.

وجعلت يهود لغَطَفان تحريضاً على الخروجِ نصْف تمر خيبر كل عام.

فزعموا أن الحارث بن عوف أخا بني مُرّة قال لعُيَيْنة بن حِصْن بن حذيفة ابن بدر ولقومه من غطفان: يا قوم أطيعوني، دَعُوا قتالَ هذا الرجل وخلّوا بينه وبين عدوّه من العرب، فغلب عليهم الشيطان وقطع أعناقهم الطمع ونفذوا لأمر عُيَيْنة على قتال رسول الله ﷺ. وكتبوا إلى حلفائهم من بني أسد، فأقبل طُلَيْحة الأسدي، فيمن اتبعه من بني أسد، وهما الحليفان أسد وغطفان.

وكتبت قريش إلى رجال من بني سُلَيْم أشراف بينهم وبينهم أرحام استمداداً لهم، فأقبل أبو الأعور بمن اتبعه من سليم مدداً لقريش.

فخرجت قريش وقائدها أبو سفيان بن حرب، وخرجت غطفان وقائدها عُيَيْنة بن حصن في بني فَزارة والحارث بن عوف في بني مُرّة ومِسْعر بن رُخَيْلَة الأَشْجعي فيمن تابعه من قومه من أَشْجع، وتكامل لهم ولمن استمدوه فأمدَّهم جمعٌ عظيم، هم الذين سماهم الله «الأحزاب».

فلما سمع رسول الله ﷺ بخروجهم وبما أجمعوا له من الأمر أخذ في حفر الخندق وضربه على المدينة. فعمل فيه ﷺ ترغيباً للمسلمين في العمل والأجر وعمل معه المسلمون، فدأب فيه ودأبوا حتى أحْكموه.

وأبطأ عنهم في عملهم ذلك رجالٌ من المنافقين وجعلوا يُورّون بالضعيف من العمل ويتسللون إلى أهلهم بغير علم من رسول الله ﷺ ولا إذن، وجعل الرجل من المسلمين إذا نابَتْه النائبة من الحاجة التي لا بد له منها يذكر ذلك لرسول الله ﷺ ويستأذنه في اللحوق بحاجته فيأذن له فإذا قضى حاجته رجع إلى ما كان فيه من عمله رغبةً في الخير واحتساباً له، فأنزل الله في أُولئك من المؤمنين: ﴿ إنما **المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمرٍ جامعٍ لم يَذْهَبُوا حتى يَسْتَأْذِنُوه، إنَّ الذينَ يَسْتَأْذِنُونَك أُولئِكَ الذين يؤمنون بالله ورسوله، فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فَأْذَنْ لمن شِئْتَ منهم واستغفر لهم**

الله إن الله غفور رحيم﴾ [النور: ٦٢]. فنزلت هذه الآية فيمن كان من المسلمين من أهل الحِسْبة والرغبة في الحرب والطاعة لله ولرسوله.

ثم قال تبارك وتعالى، يعني المنافقين الذين كانوا يتسلّلون من العمل ويذهبون بغير إذن من النبي ﷺ: ﴿لا تجعلوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بينكم كدعاءِ بَعْضِكم بعضاً، قد يَعْلم اللَّهُ الذين يتسلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذاً فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [٦٣: النور].

وكانت في حفر الخندق أحاديث فيها من الله عبرة في تصديق رسوله وتحقيق نبوته، عاين ذلك المسلمون[1]. فمنها: أنه اشتد عليهم في بعض الخندق كُدْية فشكَوْها إلى رسول الله ﷺ، فدعا بإناء من ماء فتفل فيه ثم دعا بما شاء الله أن يدعو به، ثم نضح ذلك الماء على تلك الكدية فيقول من حضرها: فوالذي بعثه بالحق لانهالتْ حتى عادت كالكثيب ما تردّ فأساً ولا مسحاة.

ودعتْ عَمْرة بنت رَوَاحة أم النعمان بن بشير ابنةً لها من بَشْير فأعطتها حَفْنة من تمر في ثوبها ثم قالت: أيْ بنية، اذهبي إلى أبيك وخالك عبد الله بن رواحة بغدائهما.

قالت: فأخذتها فانطلقت فمررت برسول الله ﷺ وأنا ألتمس أبي وخالي، فقال: تعالَيْ يا بنية، ما هذا معك؟ قالت: قلت: يا رسول الله، هذا تمر بعثتني به أمي إلى أبي، بشير بن سعد وخالي عبد الله بن رواحة يتغديانه. قال: هاتيه. قالت: فصببته في كفيْ رسول الله ﷺ فما ملأتهما ثم أمر بثوب فبُسط له، ثم دحَا بالتمر عليه فتبدَّد فوق الثوب، ثم قال لإنسان عنده: اصرخ في أهل الخندق: أن هَلُمّ إلى الغداء. فاجتمع أهلُ الخندق عليه فجعلوا يأكلون منه وجعل يزيد حتى صدَر أهلُ الخندق وإنه لَيسقط من أطراف الثوب!

وقال جابر بن عبد الله: عملنا مع رسول الله ﷺ في الخندق وكنا نعمل فيه

---

(١) راجع: المصدر السابق ج٢ ص ٢١٨ ـ ٢١٩، ابن جماعة: المختصر الصغير ص ٥٩ ـ ٦٤.

نهاراً فإذا أمسينا رجعنا إلى أهالينا، فكانت معي شويهة غير جِدّ سمينة، فقلت: والله لو صنعناها لرسول الله ﷺ. فأمرتَ امرأتي فطحنت لنا شيئاً من شعير فصنعت لنا منه خبزا وذبحت تلك الشاة فشويناها لرسول الله ﷺ، فلما أمسينا وأراد رسول الله ﷺ الانصراف عن الخندق قلت: يا رسول الله، إني قد صنعتُ لك شُوَيْهة كانت عندنا وصنعنا معها شيئاً من خبز هذا الشعير، فأحب أن تنصرف معي إلى منزلي. وإنما أريد أن ينصرف رسول الله ﷺ معي وحدَه.

فلما قلت له ذلك قال: نعم. ثم أمر صارخاً فصرخ: أن انصرفوا مع رسول الله ﷺ إلى بيت جابر بن عبد الله. قال: قلت: إنا لله وإنا إليه راجعون! فأقبل رسول الله ﷺ والناسُ معه فجلس وأخرجناها إليه، فبَرَّكَ وسمَّى الله ثم أكل وتواردها الناسُ، كلما فرغ قومٌ قاموا وجاء ناس، حتى صدَر أهلُ الخندق عنها.

وحدَّث سَلْمان الفارسي(١) قال: ضربتُ في ناحية من الخندق فغلظَتْ عليّ ورسول الله ﷺ قريب مني، فلما رآني أضرب ورأى شدة المكان عليّ نزل فأخذ الْمِعْول من يدي فضرب به ضربة لمعت تحتَ الْمِعْول بَرْقة، ثم ضرب به ضربة أخرى فلمعت تحته برقة أخرى، ثم ضرب به الثالثة فلمعت برقة أخرى، قلت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله! ما هذا الذي رأيتُ لمع تحت الْمِعْول وأنت تضرب؟ قال: أوَقد رأيت ذلك يا سلمان: قلت: نعم. قال: أمّا الأولى فإن الله فتح عليّ بها اليمن، وأما الثانية فإن الله فتح عليّ بها الشام والمغرب، وأما الثالثة فإن الله فتح بها
٧٠ ب عليّ المشْرق. فكان أبو هريرة/ يقول حين فُتحت الأمصار في زمان عمر وزمان عثمان وما بعده: افتتحوا ما بدا لكم، فوالذي نفس أبي هريرة بيده ما افتتحتم من مدينة ولا تفتحونها إلى يوم القيامة إلا وقد أعطى الله محمداً ﷺ مفاتيحها قبل ذلك.

ولما فرغ رسول الله ﷺ من الخندق أقبلت قريش حتى نزلت بمجتمع الأسيال من رُومة بين الجرف وزُغابة في عشرة آلاف من أحابيشهم ومن تبعهم

---

(١) ابن هشام: السيرة ج٢ ص ٢١٩.

من بني كنانة وأهل تِهامة، وأقبلت غَطَفان ومن تبعهم من أهل نجد حتى نزلوا بذَنَب نَقْمَي إلى جانب أُحد.

وخرج رسول الله ﷺ والمسلمون حتى جعلوا ظهورهم إلى سَلْع - في ثلاثة آلاف من المسلمين - فضرب هنالك عسكره والخندقُ بينه وبين القوم، وأمر بالذَّراري والنساء فجُعلوا في الآطام.

وخرج(١) عدوّ الله حُيَيّ بن أَخْطب حتى أتي كعبَ بن أسد صاحب عَقْد بني قُرَيظة، وعهدهم، وكان قد وادعَ رسولَ الله ﷺ على قومه وعاقده على ذلك وعاهده، فلما سمع كعبٌ بحُيَيّ بن أخطب أغلق دونه بابَ حصنه، فاستأذن عليه فأبي أن يفتح له، فناداه حيي: ويحك يا كعب افتح لي. فقال: ويحك يا حيي إنك امرؤ مشؤوم، وإني قد عاهدتُ محمداً فلست بناقضٍ ما بيني وبينه، ولم أر منه إلا وفاءً وصِدْقاً، قال: ويحك افتح لي أكلّمك. قال: ما أنا بفاعل. قال والله: إنْ أغلقتَ دوني إلا على جَشِيشتك أن آكل معك منها. فأحْفَظَ الرجل ففتح له فقال: ويحك يا كعب! جئتك بعزّ الدهر وببحرٍ طامٍ! جئتك بقريش على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بمُجْتمع الأَسْيال من رُومة، وبغطفَان على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بذنب نَقْمَي إلى جنب أُحد، قد عاهدوني وعاقَدوني على أن لا يَبْرحوا حتى نستأصل محمداً ومن معه.

فقال له كعب: جئتني والله بذل الدهر، وبجهَام قد هَراق ماءَه فهو يَرْعد ويُبْرق وليس فيه شيء، ويحك يا حُيَيّ فدعني وما أنا عليه فإني لم أر من محمد إلا صدقاً ووفاءً.

فلم يزل حُيي بكعب يَفْتله في الذِّرْوة والغارب حتى سمح له، على أن أعطاه عهداً من الله وميثاقاً لئن رجعت قريشٌ وغَطفان ولم يصيبوا محمداً أن أدخل معك في حِصنك حتى يصيبني ما أصابك.

---

(١) المصدر السابق ج٢ ص٢٢٠ - ٢٢٢.

فنقض كعب بن أسد عهدَه، وبريء مما كان بينه وبين رسول الله ﷺ.

فلما انتهى الخبرُ إلى رسول الله ﷺ وإلى المسلمين بعث رسول الله ﷺ سعدَ ابن مُعاذ، وهو ـ يومئذ ـ سيد الأوس وسعدَ بن عبادة، وهو ـ يومئذ ـ سيد الخزرج ومعهما عبد الله بن روَاحة وخَوَّات بن جُبير فقال: انطلقوا حتى تنظروا أحقٌّ ما بلغنا عن هؤلاء القوم؟ فإن كان حقًّا فالحنوا إليّ لَحْناً أعرفه ولا تفتّوا في أعضاد الناس، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فأجهروا به للناس.

فخرجوا حتى أتوهم فوجدوهم على أخبث ما بلغهم عنهم، نالوا من رسول الله ﷺ وقالوا: من رسولُ الله؟! لا عهد بيننا وبين محمد ولا عَقْد؛ فشاتمهم سعدُ ابن معاذ وشاتموه، وكان رجلا فيه حِدّة، فقال له سعد بن عُبادة: دَعْ عنك مشاتمتهم فما بيننا أربي من المشاتمة.

ثم أقبلا ومن معهما إلى رسول الله ﷺ: فسلموا عليه، ثم قالوا: عَضل والقارة. أي كعذر[١] عضل والقارة بأصحاب الرَّجيع ـ خُبيب وأصحابه ـ فقال رسول الله ﷺ: الله أكبر، أبشروا يا معشر المسلمين.

وعظم[١] عند ذلك البلاء واشتد الخوف وأتاهم عدوُّهم من فوقهم ومن أسفل منهم، حتى ظن المؤمنون كلَّ ظن ونجَم النفاق من بعض المنافقين، وحتى قال قائل منهم: كان محمد يَعِدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط!.

وأقام عليه المشركون قريباً من شهر لم يكن بينهم حرب إلا الرِّمِّيَاء. بالنَّبل والحصار.

فلما[٢] اشتد على الناس البلاء بعث رسولُ الله ﷺ إلى عُيَيْنة بن حصْن وإلى الحارث بن عوف، وهما قائدا غَطَفان فأعطاهما ثلثَ ثمار المدينة على أن يرجعا بمن معهما عنه وعن أصحابه، فجرى بينه وبينهما المراوضة في الصلح حتى كتبوا

---

١) في الأصل: «لغدر».

---

(١) المصدر السابق ج٢ ص ٢٢٢.

(٢) نفسه ج ٢ ص ٢٢٣.

الكتاب ولم تقع الشهادةُ ولا عزيمة الصلح، ثم بعث رسول الله ﷺ إلى سعد بن مُعَاذ وسعد بن عبادة، فذكر لهما ذلك واستشارهما فيه، فقالا: يا رسول الله، أمراً تحبه فتصنعه؟ أم شيئاً أمرَكَ الله به لا بد لنا من العمل به؟ أم شيئاً تصنعه لنا؟ قال: بل شيء أصنعه لكم، والله ما أصنع ذلك إلا أني رأيت العربَ قد رمتكم عن قوس واحدة وكالَبوكم من كل جانب فأردت أن أكْسِر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما.

فقال له سعد بن معاذ: يا رسول الله، قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان، لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها تمرة إلا قِرىً أو بيعاً، فحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزّنا بك وبه نعطيهم أموالنا؟! ما لنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم.

قال رسول الله ﷺ: فأنت وذلك. فتناول سعد الصحيفة فمحا ما فيها من الكتب ثم قال: لِيَجْهدوا علينا.

فأقام[1] رسول الله ﷺ والمسلمون وعدوهم مُحَاصروهم، ولم يكن بينهم قتال، إلا أن فوارس من قريش منهم عمرو بن عبد وَد وعكرمة بن أبي جهل وهُبَيْرة بن أبي وهب وضِرَار بن الخطاب تلبَّسوا للقتال ثم خرجوا على خيلهم حتى مرّوا بمنازل بني كنانة فقالوا: تهيَّأوا يا بني كنانة للحرب فستعلمون مَن الفرسان اليوم. ثم أقبلوا تُعْنق بهم خيلهم حتى وقفوا على الخندق، فلما رأوه قالوا: والله إن هذه لَمكِيدة، ما كانت العرب تكيدها! ثم تيمّموا مكاناً من الخندق ضيّقاً فضربوا خيلهم فاقتحمت منه فجالت بهم في السَّبْخة بين الخندق وسَلْع، وخرج عليٌّ بن أبي طالب في نفر من المسلمين حتى أخذوا عليهم الثغرة التي أقْحموا[1] منها خيلَهم، وأقبلت الفرسان تُعْنق نحوهم، وكان عمرو بن عبد وَد قد

---

١) في الأصل: «اقتحموا».

---

(١) المصدر السابق ج٢ ص ٢٢٤.

قاتل يوم بدر حتى أثبتَتْه الجراحة فلم يشهد يوم أُحد فلما كان يوم الخندق خرج مُعلْماً ليُرى مكانه، فلما وقف هو وخيله قال: من يبارزِ؟ فبرز عليّ بن أبي طالب فقال له: يا عمرو إنك/ كنت عاهدتَ الله لا يدعوك رجل من قريش إلى ٧١ أ
إحدى خَلّتين إلا أخذتها منه، فقال له: أجَلْ؛ فقال له علي: فإني أدعوك إلى الله وإلى رسوله وإلى الإسلام. قال: لا حاجة لي بذلك. قال: فإني أدعوك إلي النِّزَال. قال له: ولم يابن أخي! فوالله ما أحب أن أقتلك. قال علي: لكني والله أحب أن أقتلك! فحَمِي عمرو عند ذلك فاقتحم عن فرسه فعقَره وضرب وجهَه، ثم أقبل على علي فتنازلا وتجاوَلا، فقتله عليٌّ.

وخرجت خيلُهم منهزمةً حتى اقتحمت من الخندق هاربة.

وذكر ابن إسحاق في غير رواية البَكّائي أن عَمْراً لما نادى يطلب من يبارزه قام علي ـ رضي الله عنه ـ وهو مقنَّع في الحديد فقال: أنا له يا نبي الله. فقال له: اجلس إنه عمرو! ثم ذكر عمرو النداء وجعل يؤنّبهم ويقول: أين جنتكم التي تزعمون أنه من قِتل منكم دخلها! أفلا تبرزون إليّ رجلاً؟! فقام علي فقال: أنا له يا رسول الله. قال: اجلس إنهُ عمرو. ثم نادى الثالثة وقال:

ولقد بُححْتُ من النداءِ بجمعكم هل من مُبارِزْ
ووقفتُ إذ جَبُنَ المشجع وقفة الرجل المناجِزْ
وكذاك أنيَ لم أزَلْ متسرّعاً نحو الهزاهِزْ
إنّ الشجاعة في الفتى والجودَ مِن خير الغرائز

[الكامل]

فقام عليّ ـ رضي الله عنه ـ فقال: أنا له يا رسول الله. فقال: إنه عمرو! فقال: وإن كان عمراً. فأذِن له رسول الله ﷺ فمشى إليه عليٌّ وهو يقول:

لا تَعْجلنَّ فقد أتاك مجيبُ صوتك غير عاجِزْ
ذو نيةٍ وبصيرة والصدق مُنْجِي كلِّ فائزْ
إني لأرجو أن أقيم عليك نائحة الجنائز

مــــن ضَـــرَبــــة نَجْلاء يَبْـ ـقى ذِكرها عند الهَزاهِـزْ

[الكامل]

فقال عمرو: من أنت؟ قال: أنا عليّ، قال: ابن عبد مناف؟ قال: أنا علي بن أبي طالب. فقال: غيرك يابن أخي مِن أعمامك من هو أسنّ منك، فإني أكره أن أهريق دمَك. فقال عليّ: لكني والله ما أكره أن أهريق دمك. فغضب ونزل فسلَّ سيفه كأنه شعلة نار، ثم أقبل نحو عليّ مُغضباً. ويقال: إنه كان على فرسه فقال له علي: كيف أقاتلك وأنت على فرسك؟ ولكن انزل معي. فنزل عن فرسه ثم أقبل نحوه فاستقبله عَليٌّ بدَرقته فضربه عمرو فيها فقدّها وأثبت فيها السيف وأصاب رأسه فشجّه، وضربه عليّ على حَبْل العاتق فسقط وثار العجاج، وسمع رسولُ الله ﷺ التكبير فعرف أن عليًّا قد قتله، فثم يقول علي رضي الله عنه:

أعَلّـى تقتحـم الفـوارسُ هكـذا ... عَنّي وعنـه أخبروا أصحـابي

فـاليـومَ يمنعني الفـرارَ حَفيظتي ... ومُصمّـم في الرأس ليس بنـابِـي

أدّى عُمَيْـر حين أَخلَـص صقلـه ... صـافي الحديـدة يَستفيـضُ ثـوابي

فغـدوت ألتمس القِـرَاع بمرهَـف ... عضْـب مـع النَّتراء في إقـرابِ

قـال ابـن عَبْـد حين شـدّ أَلِيّـةَ ... وحلفتُ فـاستمعـوا مـن الكـذّابِ

أن لا يفـرّ ولا يُهلّـل فـالتقـى ... أسَـدان يضطـربـان كـلَّ ضرابِ

نصَر الحجـارةَ مَـن سفـاهـة رأيـه ... ونصرتُ ديـن محمدٍ بصـوابِ

فصـدَدْت حين تـركتـه متجـدِّلاً ... كـالجذْع بين دَكَـادِك وروابي

وعفَفْـت عـن أثـوابـه ولـو انني ... كنـتُ المجـدَّل بَـزَّني أثـوابي

لا تحسَبُـن الله خـاذلَ دينـه ... ونبيّـه يـا معشرَ الأحـزابِ

[الكامل]

وكان شعار أصحاب رسول الله ﷺ يوم الخندق وبني قريظة: «حم لا يُنْصرون».

وكانت عائشة ـ رضي الله عنها ـ يوم الخندق في حصن بني حارثة، وكان من

أحرز حصون المدينة، وكانت أم سعد بن معاذ معها في الحصن، قالت عائشة: وذلك قبل أن يُضرب علينا الحجاب، فمرَّ سعد وعليه دِرْع له مُقلَصة وقد خرجت منها ذراعه كلها وفي يده حربته يَرْقُدُ بها - أي يسرع بها - في نشاط، وهو يقول:

لبِّث قليلاً يشهد الْهَيْجا حَمَلْ   لا بأس بالموت إذا حان الأجَلْ

[الرجز]

فقالت أمه: الحق أي بني فقد والله أخرّت. قالت عائشة: فقلت لها: يا أم سعد، والله لَوددتُ أن درع سعد كانت أَسْبغ مما هي. قالت: وخِفْت عليه حيث أصاب السهمُ منه، فرمِي سعدٌ بسهم فقطع منه الأَكْحَل، رماه حِبّان بن قيس بن العَرِقة أحد بني عامر بني لؤيّ، فلما أصابه قال: خذها وأنا ابن العَرقة. فقال له سعد: عرَّق الله وجهك في النار، اللهم إن كنت أبقيت من حَرْب قريش شيئاً فأبقني لها فإنه لا قومَ أحب إليّ أن أجاهد من قوم آذوْا رسولَك وكذّبوه وأخرَجوه، اللهم وإن كنت وضعت الحرب بيننا وبينهم فاجعلها لي شهادة ولا تُمْتني حتى تقرّعيني من بني قريظة.

وكان عبد الله بن كعب بن مالك يقول: ما أصاب سعداً - يومئذٍ - إلا أبو أسامة الجُشَميّ حليف بني مخزوم، وقال في ذلك شعراً يخاطب به عِكْرمة بن أبي جهل:

أعِكْرم هلا لُمْتني إذ يقول لي   فداك بآطام المدينة خالدُ
ألستُ الذي ألزمتُ سعداً مُرِشّةً   لها بين أثناء المرافق عائدُ
قضي نَحْبه منها سعيدٌ فأعولَتْ   عليه مع الشُّمْط العذاري النواهدُ

[الطويل]

في أبيات ذكرها ابن إسحاق(١).

ويقال: إن الذي رمى سعداً خفافة بن عاصم بن حبّان. فالله أعلم أيّ ذلك كان.

وكانت(٢) صفية بنت عبد المطلب في فارع، أطم حسان بن ثابت، قالت:

(١) المصدر السابق ج٢ ص ٢٢٧.
(٢) نفسه ج ٢ ص ص ٢٢٨.

وحسان معنا فيه مع النساء والصبيان. قالت صفية: فمرَّ بنا رجل من يهود فجعل يُطيف بالحصن وقد حاربتْ بنو قريظة وقطعتْ ما بينها وبين رسول الله ﷺ، وليس بيننا وبينهم أحدٌ يدفع عنا، ورسولُ الله ﷺ والمسلمون في نُحور عدوّهم لا يستطيعون أن ينصرفوا عنهم إلينا إن أتانا آت، قالت: قلت ياحسان، إنّ هذا اليهودي كما ترى يُطيف بالحصن، وإني والله ما آمنه أن يدل على عورتنا مَن وراءنا من يهود، وقد شُغل عنا رسول الله ﷺ وأصحابه، فانزلْ إليه فاقتله. قال: يغفر الله لك يا ابنة عبد المطلب! والله لقد علمت ما أنا بصاحب هذا. فلما قال لي ذلك ولم أر عنده شيئاً احتجزتُ ثم أخذت عموداً ثم نزلت من الحصن إليه فضربتُه بالعمود حتى قتلته، فلما فرغت منه رجعت إلى الحصن
٧١ ب فقلت لحسان: انزل فاسلبه فإني لم يمنعني من سَلْبه إلا أنه رجل. قال:/ مالي بسلبه من حاجة يا بنت عبد المطلب.

وأقام رسول الله ﷺ وأصحابه فيما وصف الله من الخوف والشدة لتظاهر عدوّهم عليهم وإتيانهم إياهم من فوقهم ومن أسفل منهم.

ثم إن نُعَيْم بن مسعود الأشجعي أتى رسولَ الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إني قد أسلمتُ وإنّ قومي لم يعلموا بإسلامي، فمُرْني بما شئتَ.

فقال رسول الله ﷺ: إنما أنت فينا رجل واحد فخذِّل عنا إن استطعت، فإن الحرب خُدْعة.

فخرج نُعَيْم حتى أتى بني قريظة، وكان لهم نديماً في الجاهلية فقال: يا بني قُرَيْظة، قد عرفتم ودّي إياكم وخاصةَ ما بيني وبينكم. قالوا: صدقتَ فلست عندنا بمتَّهم. فقال لهم: إن قريشاً وغطفان ليسوا كأنتم، البلدُ بلدكم به أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم لا تْقدرون على أن تتحوّلوا منه إلى غيره، وإن قريشاً وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه وقد ظاهرتموهم عليه، وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره فليسوا كأنتم فإن رأوا نُهْزة أصابوها، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلّوا بينكم وبين الرجل ببلدكم، فلا طاقة لكم به إن خلا بكم، فلا

تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهناً من أشرافهم يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن يقاتلوا معكم محمداً حتى تُنَاجزوه.

قالوا: لقد أشرت بالرأي.

ثم خرج حتى أتى قريشاً فقال لأبي سفيان ومن معه من رجالهم، قد عرفتم ودّي لكم وفراقي محمداً، وإنه قد بلغني أمرٌ رأيت عليَّ حقاً أن أبلغكموه نصحاً لكم فاكتموا عني. قالوا: نفعل. قال: تعلمون أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد، وقد أرسلوا إليه أنّا قد ندِمنا على ما فعلنا، فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين من قريش وغطفان رجالاً من أشرافهم فنعطيكهم فتضرب أعناقهم ثم نكون معك على من بقي منهم حتى نستأصلهم؟ فأرسل إليهم: نعم. فإن بعثتْ إليكم يهود يلتمسون رهنا من رجالكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلاً واحداً.

ثم خرج حتى أتى غطَفان فقال: يا معشر غطفان، إنكم أصلي وعشيرتي وأحبّ الناس إليّ، ولا أراكم تتهمونني. قالوا: صدقت، ما أنت عندنا بمتهم؛ قال: فاكتموا عني. قالوا: نفعل. ثم قال لهم مثل ما قال لقريش وحذّرهم ما حذرهم.

فلما كانت ليلة السبت، وكان ذلك من صُنْع الله لرسوله ﷺ أرسل أبو سفيان بن حرب ورءوس غطفان إلى بني قريظة عِكْرِمَة بن أبي جهل في نفر من قريش وغطفان فقالوا لهم: إنا لسنا بدار مُقام، قد هلك الخفّ والحافر فاغدوا للقتال حتى نناجز محمداً ونفرغ مما بيننا وبينه؛ فأرسلوا إليهم: إن اليوم يوم السبت، وهو يوم لا نعمل فيه شيئاً، وقد كان أَحْدَث فيه بَعضُنا حدَثاً فأصابه ما لم يَخْفَ عليكم، ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم محمداً حتى تعطونا رهناً من رجالكم يكونون بأيدينا ثقةً لنا حتى نناجز محمداً، فإنا نخشى إن ضرَّسْتكم الحرب، واشتد عليكم القتال أن تنشمروا إلى بلادكم وتتركونا والرجل في بلادنا ولا طاقة لنا بذلك.

فلما رجعت إليهم الرسل بما قالت بنو قريظة قالت قريش وغطفان: والله، إنّ

الذي حدّثكم نُعَيْم بن مسعود لحقّ. فأرسَلوا إلى بني قريظة: إنا والله لا ندفع إليكم رجلاً واحداً من رجالنا، فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا.

فقالت بنو قريظة حين انتهت إليهم الرسل بهذا: إن الذي ذكر لكم نعيمُ بن مسعود لَحقّ، ما يريد القومُ إلا أن يقاتلوا فإن رأوا فرصة انتهزوها وإن كان غير ذلك انشمروا إلى بلادهم وخلّوا بينكم وبين الرجل في بلدكم. فأرسَلوا إلى قريش وغطفان: إنا والله لا نقاتل معكم حتى تعطونا رهناً. فأبَوْا عليهم.

وخذل الله بينهم، وبعث عليهم الريحَ في ليال شاتية شديدة البرد، فجعلت تكفأ قدورهم وتطرح آنيتهم.

فلما انتهي إلى رسول الله ﷺ ما اختلف من أمرهم وما فرّق الله من جماعتهم دعا حذيفة بن اليمان فبعثه ليلاً لينظر ما فعل القومُ، فحدَّث حُذيفة ـ رحمه الله ـ وقد قال له رجل من أهل الكوفة: يا أبا عبد الله، أرأيتم رسول الله ﷺ وصحبتموه؟ قال نعم يا ابن أخي. قال: فكيف كنتم تصنعون؟ قال: والله لقد كنا نَجْهَد. قال الرجل: والله لو أدركناه ما تركناه يمشي على الأرض ولحملناه على أعناقنا. فقال حذيفة: يا بن أخي، والله لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ بالخندق وصلى هَوِيّا من الليل ثم التفت إلينا فقال: من رجلٌ يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ثم يرجع ـ يشرط له رسول الله ﷺ الرَّجْعة ـ أسأل الله أن يكون رفيقي في الجنة؟ فما قام رجل من القوم من شدة الخوف وشدة الجوع وشدة البرد، فلما لم يقم أحدٌ دعاني فلم يكن لي بُد من القيام حين دعاني فقال: يا حذيفة، اذهب فادخل في القوم فانظر ما يفعلون ولا تُحْدثنّ شيئاً حتى تأتينا.

فذهبت فدخلت في القوم والريحُ وجنود الله تفعل بهم ما تفعل لا تُقِرّ لهم قِدْراً ولا ناراً ولا بناءً، فقام أبو سفيان فقال: يا معشر قريش، لينظر امرؤ من جليسُه. قال حذيفة: فأخذت بيد الرجل الذي إلى جنبي فقلت: من أنت؟ قال: فلان بن فلان.

وذكر ابن عُقْبة أنه فعل ذلك بمن يلي جانبيه يميناً ويساراً، قال: وبدّرهم بالمسألة خشية أن يفطنوا له.

قال حذيفة: ثم قال أبو سفيان: يا معشر قريش، إنكم والله ما أصبحتم بدار مُقام، لقد هلك الكُرَاع والخُفّ وأخلفتنا بَنو قريظة وبلغنا عنهم الذي نكره، ولقينا من شدة الريح ما ترون ما تُطْمئنّ لنا قِدْر ولا تقوم لنا نار ولا يستمسك لنا بناء، فارتحلوا فإني مرتحل. ثم قام إلى جمله وهو معقول فجلس عليه ثم ضربه فوثب به على ثلاث فما أطلق عقاله إلا وهو قائم. ولولا عَهْد رسول الله ﷺ إليّ: «أن لا تُحْدث شيئاً حتى تأتيني» ثم شئت لقتلته بسهم.

فرجعت إلى رسول الله ﷺ وهو قائم يصلي في مرط لبعض نسائه، فلما رآني أدخلني إلى رجليه وطرَح عليّ طرف المِرْط ثم ركع وسجد وإني لفيه، فلما سلّم أخبرته الخبر.

وسمعت غطفان بما فعلت قريش فانشمروا راجعين إلى بلادهم.

ولما أصبح رسول الله ﷺ انصرف عن الخندق راجعاً إلى المدينة والمسلمون معه وقد عضَّهم الحصار، فرجعوا مجهودين فوضعوا السلاح.

فلما[1] كانت الظهر أتى جبريلُ رسولَ الله ﷺ معتجراً بعمامة من إستبرق على بغلة عليها رِحَالة عليها قطيفة من/ ديباج. ٧٢ أ

ويقولون فيما ذكر ابن عقبة: أن رسول الله ﷺ كان في المغتَسل عندما جاءه جبريل وهو يرجّل رأسه قد رجّل أحد شِقّيه. فجاءه جبريل على فرس عليه اللأْمة حتى وقف بباب المسجد عند موضع الجنائز، وإن على وجه جبريل لأثر الغبار، فخرج إليه رسول الله ﷺ فقال له جبريل: غفر الله لك! أقد وضعتم السلاح؟ قال: نعم. قال جبريل: ما وضعت الملائكةُ السلاحَ بعدُ وما رجعت الآن إلا من طلب القوم، إن الله يأمرك يا محمد بالمسير إلى بني قريظة فإني عامدٌ إليهم فمزلزل بهم.

فأمر رسول الله ﷺ مؤذّناً فأذّن في الناس: من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلّين العصر إلا في بني قريظة.

---

(١) المصدر السابق ج٢ ص ٢٣٣ ـ ٢٣٤.

وقدَّم رسولُ الله ﷺ عليَّ بن أبي طالب برايته إلى بني قريظة وابتدرها الناسُ، فسار عليّ ـ رضي الله عنه ـ حتى إذا دنا من الحصون سمع منها مقالةً قبيحة لرسول الله ﷺ، فرجع حتى لقي رسولَ الله ﷺ بالطريق فقال: يا رسول الله، لا عليك أن لا تدنو من هؤلاء الأخابيث. قال: لِمَ؟ أظنك سمعت منهم لي أذى! قال: نعم. قال: لو رأوني لم يقولوا من ذلك شيئاً. فلما دنا رسول الله ﷺ من حصونهم قال: يا إخوان القردة، هل أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته؟ قالوا: يا أبا القاسم، ما كنت جهولاً.

ومر[1] رسول الله ﷺ بنفر من أصحابه في طريقه قبل أن يصل إلى بني قريظة، فقال: هل مرَّ بكم أحد؟ قالوا: يا رسول الله، مرَّ بنا دِحْية بن خليفة الكلبي على بغلة بيضاء عليها رِحَالة عليها قطيفة ديباج. فقال رسول الله ﷺ: ذلك جبريل بُعث إلى بني قريظة يزلزل بهم حصونَهم ويقذف الرعب في قلوبهم.

وتلاحق الناسُ برسول الله ﷺ، فأتى رجالٌ من بعد العشاء الآخرة لم يصلوا العصر لقول رسول الله ﷺ: «لا يصلّين أحد العصر إلا ببني قريظة» فصلوا العصر بها من بعد العشاء الآخرة، فما عابهم الله بذلك في كتابه ولا عنفهم به رسوله.

وذكر ابن عُقْبة أن الناس لَمّا حانت العصر وهم في الطريق ذكروا الصلاة فقال بعضهم: ألم تعلموا أن رسول الله ﷺ أمركم أن تصلوا العصر في بني قريظة. وقال آخرون: هي الصلاة. فصلى منهم طائفة وأخرت الصلاة طائفة حتى صلوها في بني قريظة بعد أن غابت الشمس، فذكروا لرسول الله ﷺ من عجَّل الصلاة ومن أخَّرها، فذكر أن رسول الله ﷺ لم يعنِّف واحدة من الطائفتين.

وحاصر[2] رسولُ الله ﷺ بني قريظة خمساً وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار، وقذف الله في قلوبهم الرعب.

وكان حيي بن أخطب دخل مع بني قريظة في حصنهم حين رجعت عنهم

---

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ٢٣٤.

(٢) نفسه ج ٢ ص ٢٣٥ ـ ٢٣٧.

قريش وغطفان وفاءً لكعب بن أسد بما كانِ عاهده عليه، فلما أيقنوا أن رسول الله ﷺ غير منصرف عنهم حتى يناجزهم قال لهم كعب بن أسد: يا معشر يهود، قد نزل بكم من الأمر ما ترون، وإني عارض عليكم خلالاً ثلاثاً فخذوا أيها شئتم. فقالوا: وما هي؟ قال: نتابع هذا الرجل ونصدقه فوالله لقد تبين لكم أنه نبي مرسل وأنه للذي تجدونه في كتابكم، فتأمنون على دمائكم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم. قالوا: لا نفارق حكم التوراة أبداً ولا نستبدل به غيره. قال: فإذا أبيتم عليّ هذه فهلم فلنقتل أبناءنا ونساءنا ثم نخرج إلى محمد وأصحابه رجالاً مصلتين السيوف لم نترك وراءنا ثقلاً حتى يحكم الله بيننا وبين محمد، فإن نهلك نهلك ولم نترك وراءنا نسلا نخشى عليه وإن نظهر فلعمري لنجدن النساء والأبناء. قالوا: أنقتل هؤلاء المساكين؟ فما خير العيش بعدهم! قال: فإذا أبيتم على هذه فإن الليلة ليلة السبت وإنه عسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمِنوا فيها فانزلوا لعلنا نصيب من محمد وأصحابه غِرّة. قالوا: أنفسد سبتنا ونحدث فيه ما لم يُحْدث من كان قبلنا إلا من قد علمت فأصابه ما لم يخف عليك من المسخ! قال: ما بات رجلٌ منكم منذ ولدته أمه حازماً ليلة واحدة من الدهر!

ثم إنهم بعثوا إلى رسول الله ﷺ: أن ابعث إلينا أبا لُبابة بن عبد المنذر، أخا بني عمرو بن عوف، وكانوا حلفاء الأوس، نستشيره في أمرنا، فأرسله رسول الله ﷺ إليهم، فلما رأوه قام إليه الرجال وجهش إليه النساء والصبيان يبكون في وجهه، فرقَّ لهم وقالوا له: يا أبا لبابة، أترى أن ننزل على حكم محمد؟ قال: نعم. وأشار بيده إلى حَلْقه: إنه الذبح.

قال أبو لُبابة: فوالله مازالت قدماي من مكانها حتى عرفت أني قد خُنْت الله ورسوله. ثم انطلق أبو لبابة على وجهه ولم يأت رسولَ الله ﷺ حتى ارتبط في المسجد إلى عمود من عمده. وقال: لا أبرح مكاني هذا حتى يتوب الله عليّ مما صنعت، وعاهَد الله: أن لا أطأ بني قريظة أبداً ولا أُرى في بلد خنت الله ورسوله فيه أبداً.

فلما بلغ رسولَ الله ﷺ خبره وكان قد استبطأه قال: أمَا إنه لو كان جاءني لاستغفرت له، فأمّا إذ فعل ما فعل فما أنا بالذي أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه. فنزلت توبته على رسول الله ﷺ وهو في بيت أم سلمة، قالت: سمعت رسول الله ﷺ من السَّحَر وهو يضحك؛ قلت: مم تضحك أضحك الله سنك؟ قال: تِيب على أبي لبابة. قالت: قلت: أفلا أبشره يا رسول الله. قال: بلى إن شئت. قال: فقامت على باب حجرتها، وذلك قبل أن يضرب عليهن الحجاب فقالت: يا أبا لُبَابة، أبشر فقد تاب الله عليك. قالت: فثار الناس إليه ليُطْلقوه فقال: لا والله حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يطلقني بيده. فلما مرَّ عليه خارجاً إلى صلاة الصبح أَطْلقه(١).

وذكر ابن هشام(٢) أن أبا لبابة أقام مرتبطاً بالجذع ست ليال تأتيه امرأته في كل وقت صلاة فتحله للصلاة، ثم يعود فيرتبط بالجذع.

والآية التي نزلت في توبته: ﴿وآخَرون اعتَرفوا بذنوبهم خَلطوا عملًا صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم﴾ [التوبة: ١٠٢]، وأنزل الله في أبي لبابة، فيما روي عن عبد الله بن قتادة:

﴿يا أيها الذين آمنو لا تَخُونوا الله والرسولَ وتخونوا أماناتِكم وأنت تَعْلمون﴾ [الأنفال: ٢٧].

ثم(٣) إن ثعلبة بن سَعْيَه وأسيد بن سَعيه وأسد بن عمير وهم نفر من [بني]
٧٢ ب هُدَل ليسوا من بني قريظة ولا بني النضير، / نسَبهم فوق ذلك هم بنو عم القوم، أسلموا تلك الليلة التي نزلت فيها بنو قريظة على حكم رسول الله ﷺ فأحرزوا دماءهم وأموالهم، وكان إسلامهم فيما زعموا عمّا كان ألقاه إليهم من أمر رسول الله ﷺ ابن الهيِّبان القادم عليهم قبل الإسلام متوكِّفاً لخروج رسول الله ﷺ ومحقّقاً لنبوته، فنفع الله هؤلاء الثلاثة بذلك واستنقذهم به من النار.

---

(١) المصدر السابق ج٢ ص ٢٣٥ - ٢٣٧.
(٢) نفسه ج ٢ ص ٢٣٨.
(٣) نفسه.

وقد تقدم ذكر خبره فيما مضى من هذا الكتاب.

وخرج(١) في تلك الليلة عمرو بن سُعْدي القُرظي. فمرَ بحرس رسول الله ﷺ وعليه محمد بن مَسْلمة، فلما رآه قال: من هذا؟ قال: أنا عمرو بن سُعدي. وكان عمرو قد أبى أن يدخل مع بني قريظة في غَدْرهم برسول الله ﷺ وقال: لا أغدر بمحمد أبداً. فقال محمد بن مَسْلمة حين عرفه: اللهم لا تحرمني [إقالة] عثراتِ الكرام! ثم خلي سبيله، فخرج على وجهه حتى بات في مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة تلك الليلة ثم ذهب فلم يُدْرَ أين توجَّه من الأرض إلى يومه هذا. فذكِر شأنُه لرسول الله ﷺ فقال: ذلك رجلٌ نجّاه الله بوفائه. وبعض الناس يزعم أنه كان أوثق برُمّةٍ فيمن أُوثق من بني قريظة حين نـزلوا على حكم رسول الله ﷺ، فأصبحت رُمَّته ملقاةُ ولا يدري أين ذهب. فقال رسول الله ﷺ فيه تلك المقالة. فالله أعلم أيّ ذلك كان.

ولما(٢) نزل بنو قريظة على حكم رسول الله ﷺ تواثبت الأوسُ فقالوا: يا رسول الله، إنهم مَوَالينا دون الخزرج، وقد فعلتَ في موالي إخواننا بالأمس ما قد علمت - يريدون بني قَيْنقاع - وما كان من حصار رسول الله ﷺ لهم ونزولهم على حكمه، وكيف سأله إياهم عبدُ الله بن أبي بن سلول فوهبهم له. فلما كلمته الأوس قال رسول الله ﷺ: ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجلٌ منكم قالوا: بلى. قال: فذاك إلى سعد بن معاذ.

وكان رسول الله ﷺ قد جعل سعدَ بن معاذ في خيمة لامرأة من أَسْلَم يقال لها: رُفيدة في مسجده، كانت تداوي الجرحى وتحتسب بنفسها على خدمة من كانت به ضيعة من المسلمين، وكان رسول الله ﷺ قد قال لقومه حين أصابه السهم في الخندق: اجعلوه في خيمة رُفيدة حتى أعوده من قريب. فلما حَكَّمه رسول الله ﷺ في بني قريظة أتاه قومه فحملوه على حمار قد وطّأوا له بوسادة

---

(١) المصدر السابق ج٢ ص ٢٣٨.

(٢) نفسه ج ٢ ص ٢٣٩ - ٢٤٠.

من أدَم، وكان رجلاً جسيماً، ثم أقبلوا معه إلى رسول الله ﷺ وهم يقولون: يا أبا عمرو، أحسنْ في مَواليك، فإن رسول الله ﷺ إنما ولاّك ذلك لتُحسن فيهم. فلما أكثروا قال: لقد آن لسعدٍ أن لا تأخذه في الله لومةُ لائم!

فرجع بعضُ من كان معه من قومه إلى دار بني عبد الأشهل فنعي لهم رجالَ بني قُريظة قبل أن يصل إليهم سعد، عن كلمته التي سمع منه.

فلما انتهى سعدٌ إلى رسول الله ﷺ والمسلمين قال رسول الله ﷺ: «قوموا إلى سيدكم» فأما المهاجرون من قريش فيقولون: إنما أراد الأنصارَ. وأما الأنصار فيقولون: قد عمَّ بها رسولُ الله ﷺ المسلمين. فقاموا إليه فقالوا: يا أبا عمرو، إن رسول الله ﷺ قد ولاك أمرَ مَواليك لتحكم فيهم. فقال سعد بن معاذ: عليكم بذلك عهدُ الله وميثاقه: أنّ الحكمُ فيهم لما حكَمْتُ؟ قالوا: نعم. قال: وعلي من ها هنا ـ في الناحية التي فيها رسولُ الله ﷺ ـ وهو مُعْرِض عن رسول الله ﷺ إجلالا له. فقال: رسول الله ﷺ نعم. قال سعد: فإني أحكم فيهم أن تُقتل الرجال وتْقسَم الأموالُ وتُسْبي الذّراري والنساء. فقال رسول الله ﷺ: قد حكمتَ فيهم بحكم الله من فوق سبعة أَرْقعة.

ثم استُنزلوا فحبسهم رسول الله ﷺ في المدينة في دار امرأة من بني النجار، ثم خرج ﷺ إلى سوق المدينة فَخَنْدق بها خنادق، ثم بعث إليهم فضرب أعناقهم في تلك الخنادق، يُخْرج بهم إليها أرسالاً. وفيهم عدوّ الله حُيَيّ بن أَخْطب وكعب بن أسد رأس القوم، وهم ستمائة أو سبعمائة، والمكْثر يقول: كانوا بين الثمان المائة والتسع المائة. وقالوا لكعب بن أسد وهم يُذهب بهم إلى رسول الله ﷺ أرسالاً: يا كعب ما تراه يصنع بنا؟ قال: أفي كل موطن لا تَعْقلون! ألا ترون أن الداعي لا يَنْزع وأن من ذهب به منكم لا يرجع؟! هو والله القتل.

فلم يزل ذلك الدأب حتى فرغ منهم رسول الله ﷺ وأُتي بعدوّ الله حُيَيّ بن أخطب وعليه حلة فقَاحيّة قد شقها عليه من كل ناحية قَدْر أنملة لئلا يُسْلَبها، مجموعة يداه إلى عنقه بحبل، فلما نظر إلى رسول الله ﷺ قال: أمَا والله ما لُمت

نفسي في عداوتك. ولكن من يخذل الله يُخْذل! ثم أقبل على الناس فقال: يا أيها الناس، إنه لا بأس بأمر الله، كتاب وقَدر ومَلْحمة كُتبت على بني إسرائيل! ثم جلس فضُربت عنقه. فقال في ذلك جبل بن جوّال الثعلبي:

لعَمْرك ما لام ابنُ أخطبَ نفسَه ولكنه من يَخْذل الله يُخْذَلِ
لجاهدَ حتى أبْلَغ النفسَ عُذْرها وقَلْقل يبغي العِزّ كلّ مُقَلْقَلِ

[الطويل]

بل ابتغي عدوُّ الله ذلَّ الأبد فوجده، وجاهد اللهَ فجهدَه، فأصبح برأيه القائل وسعيه الخاسر من الذين لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذابُ النار.

وقُتل من نساء بني قريظة امرأة واحدة لم يقتل من نسائهم غيرها، قالت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها: والله إنها لعندي تحدَّث معي وتضحك ظهراً وبطناً، ورسول الله ﷺ يقتل رجالها في السوق إذ هتف هاتف باسمها: أين فلانة قالت: أنا والله، قلت لها: ويلك مالك؟ قالت: أُقتل. قلت: ولم؟ قالت: لحدثٍ أحْدثته. فانطلق بها فضربت عنقها. فكانت عائشة تقول: والله لا أنسى عجباً منها، طيب نفسها وكثرة ضحكها وقد علمت أنها تُقتل.

قال ابن هشام[1]: هي التي طرحت الرَّحا على خلاد بن سُوَيْد فقتلتْه.

وكان الزبير بن باطا القُرظي قد مَن على ثابت بن قيس بن شمّاس في الجاهلية، أخذه يوم بُعَاث فجزَّ ناصيته ثم خلّي سبيلَه. فجاءه ثابت لمّا قُتل بنو قريظة وهو شيخ كبير فقال: يا أبا عبد الرحمن، هل تعرفني؟ قال: وهل يجهل
٧٣ أ مثلي مثلك. / قال: فإني أردتُ أن أجزيك بيدك عندي. قال: إن الكريم يجزي الكريم. ثم أتى ثابت رسولَ الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إنه كان للزبير عليَّ مِنّة وقد أحببت أن أجزيه بها فهَبْ لي دمَه. فقال رسول الله ﷺ: هو لك. فأتاه فقال: إن رسول الله ﷺ قد وهب لي دَمَك فهولك، قال: شيخ كبير لا أهل له ولا ولد فما يصنع بالحياة؟ فأتى ثابتٌ رسول الله ﷺ فقال: بأبي أنت وأمي

(١) المصدر السابق ج٢ ص ٢٤٢.

يا رسول الله امرأته وولده. قال: هم لك. فأتاه فقال: قد وهب لي رسول الله ﷺ أهلك وولدك فهم لك. قال: أهل بيت بالحجاز لا مال لهم فما بقاؤهم على ذلك؟ فأتي ثابتٌ رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ماله. قال: هو لك. فأتاه ثابت فقال: قد أعطاني رسول الله ﷺ مالَك فهو لك، فقال: أيْ ثابت ما فعل الذي كان وجهه مرآةً صِينية يتراءى فيها عذاري الحي، كعب بن أسد؟ قال: قُتل. قال: فما فعلَ سيدُ الحاضر والبادي حُيَيّ بن أخطب؟ قال: قُتل. قال: فما فعل مُقدمتنا إذا شَددْنا وحاميتنا إذا فرَرْنا عَزّال بن شموال. قال: قُتل. قال: فما فعل المجلسان؟ ،يعني بني كعب بن قريظة وبني عمرو بن قريظة. قال: ذهبوا فقتلوا. قال: فإني أسألك يا ثابت بيدي عندك إلا ألْحقتني بالقوم، فوالله ما في العيش بعد هؤلاء من خير، فما أنا بصابر لله فَيْلة دلو ناضحٍ حتى ألقى الأحبة. فقدَّمه ثابت فضرب عنقه.

فلما بلغ أبا بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ قوله: «ألقي الأحبة» قال: يلقاهم والله في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً[١].

وكان رسول الله ﷺ قد أمر بقتل كل من أنبت منهم. قال عطية القرظي: وكنت غلاماً فوجدوني لم أنْبت فخَلّوا سبيلي[٢].

وكان رفاعة بن شموال القرظي رجلاً قد بلغ فلاذ بسَلْمي بنت قيس أم المنذر، أخت سليط بن قيس، وكانت إحدى خالات رسول الله ﷺ قد صلّت القبلتين معه وبايعْته بيعةَ النساء، فقالت: يا نبي الله، بأبي أنت وأمي هَبْ لي رفاعة، فإنه زعم أنه سيصليٌ ويأكل لحم الجمل. فوهبه لها فاستحيَتْه[٣].

ثم إن رسول الله ﷺ قسم أموالَ بني قريظة ونساءَهم وأبناءهم على المسلمين، وأعْلَم في ذلك اليوم سُهْمان الخيل وسهمان الرجال وأخرج منها الْخُمس، فكان للفارس ثلاثة أسهم، للفرس سهمان ولفارسه سهم، وللراجل من ليس له فرسٌ

(١) المصدر السابق ج٢ ص٢٤٢ ـ ٢٤٣.
(٢) نفسه ج ٢ ص ٢٤٤.
(٣) نفسه.

سهم. وكانت الخيل يوم بني قريظة ستة وثلاثين فرسا، وكان أول فَيْء وقعت فيه السهمان وأُخرج منه الخمس، فعلى سُنّتها وما مضى من رسول الله ﷺ فيها وقعت الْمقَاسم ومضت السُّنة في المغازي[1].

ثم بعث رسول الله ﷺ سعد بن زيد الأنصاري الأشهلي بسبَايا من سبايا بني قريظة إلى نَجْد فابتاع له بهم خيلاً وسلاحاً.

وكان رسول الله ﷺ قد اصطفى لنفسه من نسائهم ريحانة بنت عمرو بن خُنَافة من بني عمرو بن قريظة، فكانت عنده حتى توفي عنها وهي في ملكه، وكان عرض عليها أن يتزوجها ويضرب عليها الحجاب فقالت يا رسول الله، بل تتركني في ملكك فهو أخفّ عليّ وعليك فتركها. وكانت حين سبَاها قد تعصَّت بالإسلام وأبت إلا اليهودية، فعزَلها رسول الله ﷺ ووجد في نفسه لذلك من أمرها، فبينا هو مع أصحابه إذ سمع وَقْع نعلين خلْفه فقال: إن هذا لثعلبة بن سَعْيه يبشّرني بإسلام ريحانة. فجاءه فقال: يا رسول الله، قدأسلمتْ ريحانة. فسرّه ذلك من أمرها[2].

وأنزل الله ـ عز وجل ـ في أمر الخندق وبني قريظة القصة في سورة الأحزاب يذكر فيها ما نزل بهم من البلاء، ويذكر نعمته عليهم وكفايته إياهم حتى فرج عنهم ذلك:

﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمةَ الله عليكم إذ جاءتكم جنودٌ فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً، إذ جاءوكم من فوْقكم ومن أسفلَ منكم وإذ زاغت الأبصارُ وبلغت القلوبُ الحناجَر وتظنّون بالله الظنونا، هنالك ابتُلي المؤمنون وزُلْزلوا زلزالاً شديداً، وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرضٌ ما وعَدنا الله ورسوله إلا غروراً﴾ [الأحزاب: ٩ ـ ١٢] في آيات استوفى فيها تعالى ذكر ما شاء من قصتهم.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) نفسه ج٢ ص٢٤٥.

ثم قال سبحانه: ﴿وردَّ الله الذين كَفروا بغَيْظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويًّا عزيزاً. وأنزَل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صَياصيهم وقذَف في قلوبهم الرعب فريقاً تَقْتلون وتأسرون فريقاً. وأورثكم أرضَهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطؤوها وكان الله على كل شيء قديراً﴾ [الأحزاب: ٢٤ ـ ٢٧].

فلما[1] انقضى شأن بني قريظة انفجر بسعد بن معاذ جرحه فمات شهيداً، يرحمه الله.

فذكروا أن جبريل أتى رسول الله ﷺ حين قبض سعد من جوف الليل معتجراً بعمامة من استبرق فقال: يا محمد، من هذا الميت الذي فتحت له أبواب السماء واهتز له العرش؟! فقام رسول الله ﷺ سريعاً يجرّ ثوبه إلى سعد بن معاذ فوجده قد مات.

وقد كان سعد رجلاً بادِناً، فلما حمله الناس وجدوا له خِفّة، فقال رجال من المنافقين: والله إنْ كان لَبادنا، وما حملنا من جنازة أخفَّ منه. فبَلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «إن له حملةً غيركم، والذي نفس محمد بيده لقد استبشرت الملائكة بروح سعد واهتز له العرش».

وقالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ لأُسَيْد بن حُضَيْر، وهو قافل معها من مكة وبلغه موت امرأة له فحزن عليها بعض الحزن: يغفر الله لك أبا يحيى، اتحزن على امرأة وقد أُصبت بابن عمك وقد اهتز له العرش؟ تعني سعداً.

وقال جابر بن عبد الله: لما دفن سعد ونحن مع رسول الله ﷺ سبَّح رسول الله ﷺ فسبَّح الناس معه وكبَّر فكبر الناس معه فقالوا: يا رسول الله، مم سبحت؟ قال: لقد تضايق على هذا الرجل الصالح قبره حتى فرجه الله عنه.

ويروى أن رسول الله ﷺ قال: إن للقبر لضمةً لو كان أحدٌ منها ناجياً لكان سعد بن معاذ.

---

(١) المصدر السابق ج٢ ص٢٥٠ ـ ٢٥٢.

ولسعد يقول رجل من الأنصار:

[و]ما اهتزّ عرشُ الله من موتِ هالكٍ ... سمعنا به إلا لسعدٍ أبي عمرِو

وقالت أم سعد حين احتُمل نعشه وهي تبكيه:

/ويل امِّ سعد، سعداً ... صرامةً وَحدًا ٧٣ ب

وسُؤددا ومَجْدًا ... وفارساً مُعَدًا

سَدّ به مسَدّا

فقال رسول الله ﷺ: «كل نائحة تَكْذب إلا نائحة سعد بن معاذ»(١).

وقال حسان بن ثابت يبكي سعداً:

لقد سجَمتْ من فيض عيني عَبْرةٌ ... وحقّ لعيني أن تفيْض على سعدِ

قتيل ثوَي في مَعْرك فجعتُ به ... عيونٌ ذَواري الدمع دائمة الوجْدِ

على ملّة الرحمن وارث جَنّةٍ ... مع الشهداء وَفْدها أكرمُ الوفدِ

فإن تك قد ودَّعتنا وتركتنا ... وأمسيتَ في غبْراء مظلمة اللحدِ

فأنت الذي يا سعد أُبْتَ بمشهدٍ ... كريمٍ وأثواب المكارم والحمدِ

بحكمك في حيَّي قريظَة بالذي ... قضي الله فيهم ما قضيتَ على عمدِ

فوافق حكمَ الله حكمُك فيهمُ ... ولم تَعْفُ إذ ذكِّرت ما كان من عهدِ

فإن كان رَيْب الدهر أمضاك في الأُلَى ... شرَوا هذه الدنيا بجناتها الخلْدِ

فنعم مصير الصادقين إذا دُعوا ... إلى الله يوماً للوجاهة والقصدِ

[الطويل]

وقال حسان يبكي سعداً ورجالاً من الشهداء من أصحاب رسول الله ﷺ:

أَلا يا لقومي هل لما حُمّ دافعُ ... وهل ما مضى من صالح العيش راجعُ

تذكرتُ عصرا قد مضَى فتهافتتْ ... بنات الحشَا وانهلَّ منّي المدامعُ

صبابةُ وَجْد ذكَّرتنيَ إخوةً ... وقَتْلَى مضَي فيها طفيلٌ ورافعُ

وسعد فأَضْحَوْا في الجِنَان وأوحشت ... منازلهم فالأرض منهم بلاقعُ

---

(١) المصدر السابق ج٢ ص ٢٥٢.

وفَوْا يومَ بدرٍ للرسول وفوقهم ظلالُ المنايا والسيوف اللوامعُ
دعا فأجابوه بحقٍّ وكلهم مطيعٌ له في كل أمر وسامعُ
فما نكَّلوا حتى تولَّوا جماعة ولا يقطع الآجالَ إلا المصارعُ
لأنهم يَرْجونِ منه شفاعةً إذا لم يكن إلا النبيين شافعُ
فذلك يا خيرَ العباد ملاذُنا إجابتنا لله والموت نَاقِعُ
لنا القدَم الأولى إليك وخَلْفنا لأوّلنا في ملة الله تابعُ
ونعلم أن الملْك لله وحدَه وأن قضاء الله لا بد واقعُ

[الطويل]

ولم يستشهد من المسلمين يوم الخندق إلا ستة نفر كلهم من الأنصار: سعد ابن معاذ، وأنس بن أوس بن عَتِيك، وعبد الله بن سَهل الأَشْهليون، والطُّفيل ابن النعمان، وثعلبة بن غَنمة الْجُشَميّان. ومن بني دينار بن النجار كعب بن زيد، أصابه سهمٌ غَرْب فقتله، رحمة الله عليهم.

واستشهد يوم بني قريظة من المسلمين خَلاَّد بن سويد من بني الحارث بن الخزرج، طُرحت عليه رحي فشدخَتْه شَدْخاً شديداً، فزعموا أن رسول الله ﷺ قال: «إن له لأجر شهيدين».

ومات أبو سِنَان بن مِحْصَن أخو عُكَّاشة بن مِحْصَن، ورسول الله ﷺ محاصر بني قريظة(١).

ولما انصرف أهلُ الخندق عن الخندق قال رسول الله ﷺ: «لن تغزوكم قريشٌ بعد عامكم هذا، ولكنكم تغزونهم». فكان كذلك لم تغزهم قريش بعد ذلك وكان هو ﷺ يغزوهم حتى فتح الله عليه مكة.

وقال حسّان بن ثابت(٢) في يوم الخندق يجيب عبد الله بن الزِّبَعْري شاعر قريش عن كلمة قالها في ذلك:

---

(١) المصدر السابق ج٢ ص ٢٥٢ ـ ٢٥٣.
(٢) نفسه ج ٢ ص ٢٥٨ ـ ٢٥٩.

هل رَسْم دارِسة المقام بَبَاب ... متكلم لمحاور بجوابِ
قَفْر عفارِهَمُ السحاب رسومَه ... وهبوب كلّ مُطلة مِرْبابِ
ولقد رأيت بها الحلولَ يَزينهم ... بيضُ الوجوه ثواقبُ الأحسابِ
فدَعِ الديار وذِكْرَ كلِّ خريدةٍ ... بيضاءَ آنسة الحديث كَعابِ
واشكُ الهموم إلى الإلٰه وما ترى ... من مَعْشر ظلموا الرسولَ غضابِ
ساروا بجمعهُم إليه وألَّبُوا ... أهلَ القرى وبواديَ الأعرابِ
جيشٌ عُيَيْنة وابن حَرْب فيهم ... متخطّمين بِحلْية الأحزابِ
حتى إذا وردوا المدينةَ وارتجوا ... قتلَ الرسولِ ومَغْنم الأسلابِ
وغدوا علينا قادرين بأيْدهم ... رُدُّوا بغيظهم على الأعقابِ
بهبوب مَعْصفة تفرّق جَمْعهم ... وجنود ربك سيّد الأربابِ
وكفى الإلٰه المؤمنين قتالَهم ... وأثابهم في الأجر خيرَ ثوابِ
من بعد ما قَنطوا ففرّق جمعهم ... تنزيل نصر مليكنا الوهابِ
وأقرَّ عين محمدٍ وصحابه ... وأذلَّ كلَّ مكذِّب مرتابِ
عاتِي الفؤادِ موقّع ذي ريبةٍ ... في الكفر ليس بطاهرِ الأثوابِ
عِلق الشقاء بقلبه ففؤاده ... في الكفر آخر هذه الأحقابِ

[الكامل]

وقال كعب بن مالك[(١)] في ذلك ـ أيضاً ـ يجيب ابن الزبعري عن كلمته:

أبَقي لنا حدث الحروب بقيةً ... من خير نِحْلة ربنا الوهابِ
بيضاء مُشْرقة الذّرَي ومعاطناً ... حُمَّ الجذوع غزيرةَ الأحلابِ
كاللوب يبْذل جَمها وحَفِيلها ... للجار وابن العم والمنتابِ
ونزائعاً مثل السِّراج نَمى بها ... علفُ الشعير وجَزّة الْمِقْضَابِ
عرِّي الشّوَى منها وأردف نَحْضَها ... جُرْدُ المتون وسار في الآرابِ
قُوداً تُراح إلى الصِّياح إذا غدَتْ ... فعلَ الضِّراء تُراح للكُلّابِ
وتَحُوط سائمةَ الذِّمار وتارةً ... تُرْدِي العِدَى وتؤوب بالأسلابِ

(١) المصدر السابق ج٢ ص ٢٥٩ ـ ٢٦١.

يَغْدُون بالزَّغْف المضاعفِ شَكَّه | وبمُتْرصات في الثِّقاف صِيَابِ
وصوارم نزع الصياقلُ غَلْبَها | وبكلِّ أَرْوَع ماجد الأنسابِ
يصل اليمين بمارنٍ متقارب | وكِلت وقيعته إلى خَبَّابِ
وكتيبةٍ يَنْفي القرانَ قَتِيرُها | وترد حَدَّ قَواجِزِ النُّشَّابِ
أعيتْ أبا كَرِبٍ وأعيت تُبَّعاً | وأبتْ بسالتُها على الأعرابِ
ومواعظ من ربنا نُهْدَي بها | بلسان أَزْهر طيب الأثوابِ
عُرضت علينا فاشتهينا ذِكرها | من بعد ما عُرضت على الأحزابِ
حكَماً يراها المحرمون بزَعْمهم | حَرجاً ويفهمها ذوو الألبابِ
جاءت سَخينة كي تغالَب ربَّها | وليُغْلَبَنّ مُغالِب الغَلاَّبِ

[الكامل]

ولما قال كعب بن مالك هذا البيت: «جاءت سخينة» إلى آخره. قال له رسول الله ﷺ: لقد شكرك الله يا كعب على قولك هذا.

وقال كعب(١) أيضاً:

لقد عَلِمَ الأحزابُ حين تألَّبوا | علينا وراموا دِينَنا ما نوادِعُ
أَضَاميم من قيس بن عَيْلان أصفقَتْ | وخِنْدف لم يَدْروا بما هو واقع
يذودوننا عن ديننا ونَذُودهم | عن الكفر والرحمٰن راءٍ وسامعُ
إذا غايَظونا في مقامٍ أعاننا | على غيظهم نصرٌ من الله واسعُ
وذلك حفظ الله فينا وفضلُه | علينا ومن لم يحفظ الله ضائعُ
هدانا لدين الحق واختاره لنا | ولله فوق الصانعين صنائع

[الطويل]

وقال كعب(٢) أيضاً:

ألا أبلغ قريشاً أن سَلْعاً | وما بين العُرَيْض إلى الصمادِ
٧٤أ /نواضح في الحروب مُدرَّبات | وخوص بُقِّيتْ من عهد عادِ

---

(١) المصدر السابق ج٢ ص٢٦٣.
(٢) نفسه ج٢ ص٢٦٣ ـ ٢٦٦.

رَوَاكِد يـزجـر المرّانُ فيهـا　　فليسـت بـالجِمام ولا الثِّمادِ
بلاد لم تُثَـر إلا لكَيْما　　نجالـد إن نشطْتم للجِلاَدِ
أثَـرْنـا سِكّـة الأنبـاط فيهـا　　فلم نـر مثلهـا جَلَهـاتِ وادِي
قَصرْنـا كـل ذي حُضر وطـول　　على الغـايـات مقتـدر جـوادِ
أجيبـونـا إلى مـا نَجْتَـذيكـم　　مـن القـول المبيَّـن والسـدادِ
وإلا فـاصبروا لِجلاَد يـومٍ　　لكـم منـا إلى شَطْـر المذادِ
نصبحكـم بكـل أخـي حـروب　　وكـل مُطَهَّـم سَلِس القيـادِ
وكـل طمـرّة خَفـق حشَـاهـا　　تـدفّ دَفيـفَ صفـراء الجرادِ
وكـل مقلَّـص الآراب نَهْـد　　تَمِيم الخلق مـن أُخْـر وهـادِ
خيـولٌ لا تضـاع إذا أُضيعـت　　خيـول النـاس في السَّنـة الجمادِ
ينـازِعْـنَ الأعِنَـة مُصغْيـات　　إذا نـادى إلى الفَـزع المنـادِي
إذا قـالـت لنـا النّـذر استعِـدّوا　　تـوكّلْنـا على رَبِّ العبـادِ
وقلنـا لـن يُفـرّج مـا لقينـا　　سـوى ضَـرْب القـوانس والجهـادِ
ولم نـر عصبـة فيمـن لقينـا　　من الأقـوام مـن قـارٍّ وبـادِ
أشـدّ بسـالـة منّـا إذا مـا　　أردنـاه وأَلْين في الودادِ
إذا مـا نحن أشْـرجنـا عليهـا　　جيـادَ الْجُـدْل في الأَرَب الشـدادِ
قـذفنـا في السـوابغ كـل صَقْـر　　كـريم غير معتلـثِ الزنـادِ
ليظهـر دينُـك اللهـم إنـا　　بكفّـك فـاهـدنـا سبـلَ الرشـادِ

[الوافر]

وقال حسان بن ثابت[1] يذكر بني قريظة:

تفـاقـدَ معشرٌ نصروا قـريشـاً　　وليس لهم ببلـدتهمْ نصيرُ
هُـم أوتـوا الكتـاب فضيعـوه　　وهـم عُمْـي مـن التـوراة بُـورُ
كفـرتم بـالقُـران وقـد أُتيتم　　بتصـديـق الذي قـال النـذيـرُ

(١) المصدر السابق ج٢ ص٢٧٢.

فهان على سَراة بني لؤيٍّ حريقٌ بالبُوَيْرة مستطيرُ

[الوافر]

ولما سمع ذلك أبو سفيان بن الحارث[1] قال:

أدامَ الله ذلك من صنيع وحرّق في طوائفها السعيرُ

[الوافر]

في أبيات ذكرها ابن إسحاق لم يَأْل قائلها أن صَدّق حسان.

وقال في ذلك ـ أيضاً ـ جبل بن جَوَّال الثعلبي[2]، وبكى النضير وقريظة ونعى على سعد بن معاذ إسلامه مواليه منهم خلاف ما فعل عبدالله بن أُبَي في بني قينقاع:

ألا يا سعد سعد بني معاذ لِمَا لقيتْ قريظةُ والنضيرُ

لَعَمْرك إن سعد بني معاذٍ غداةَ تحمّلوا لهو الصبورُ

فأما الخزرجي أبو حُبَاب فقال لقينقاعٍ لا تسيروا[1]

[الوافر]

ويقول في آخرها:

تركتم قِدْركم لا شيء فيها وقِدْر القومِ حاميةٌ تَفُورُ

فقال سعد حين بلغه هذا الشعر: من لقيهم فليحدّثهم أنهم خانوا الله ورسوله فأخزاهم الله.

* * *

١) في الأصل: «لا تسير».

(١) المصدر السابق.

(٢) نفسه ج٢ ص٢٧٢.

مقتل سلام بن أبي الحقيق(١)

وكان سَلاّم بن أبي الحقيق أبو رافع فيمن حزّبَ الأحزابَ على رسول الله ﷺ. وكان مما صنع الله به لرسوله أن هذين الحّيين من الأنصار ـ الأوس والخزرج ـ كانا يتصاولان مع رسول الله ﷺ تصاول الفحلين، لا تصنع الأوس شيئاً فيه عن رسول الله ﷺ عناء إلا قالت الخزرج: والله لا يذهبون بهذه فضلاً علينا عند رسول الله ﷺ وفي الإسلام. فلا ينتهون حتى يوقعوا مثلها، وإذا فعلت الخزرجُ شيئاً قالت الأوس مثل ذلك.

وكانت الأوس قبل أُحد قد قتلت كعبَ بن الأشرف في عداوته لرسول الله ﷺ وتحريضه عليه، فقالت الخزرج: والله لا يذهبون بها فضلاً علينا أبداً. فتذاكروا بعد أن انقضى شأن الخندق وبني قُرَيظة: من رجلٌ لرسول الله ﷺ في العداوة كابن الأشرف؟ فذكروا ابن أبي الْحُقَيْق وهو بخيبر، فاستأذنوا رسولَ الله ﷺ في قتله [فأذن لهم]، فخرجَ إليه من الخزرج مِن بني سَلمة خمسة نفر: عبد الله بن عَتِيك، ومسعود بن سِنَان، وعبد الله بن أُنَيْس، وأبو قتادة الحارث بن رِبْعي، وخُزاعي بن أسود حليف لهم من أَسْلم.

فخرجوا، وأمَّر عليهم رسول الله ﷺ عبد الله بن عَتِيك ونهاهم أن يقتلوا وليداً أو امرأة.

فخرجوا حتى إذا قدموا خيبر أتوا دار ابن أبي الحقيق ليلاً، فلم يدَعوا لهم بيتاً في الدار إلا أغلقوه على أهله، وكان في عُلية له إليها عِجْلة فأسندوا فيها حتى قاموا على بابه، فاستأذنوا، فخرجت عليهم امرأة فقالت من أنتم؟ فقالوا: أناس من العرب نلتمس الميرة. قالت: ذاكم صاحبكم فادخلوا إليه. قال: فلما دخلنا

---

(١) المصدر السابق ج٢ ص٢٧٣ ـ ٢٧٦.

أغلقنا علينا وعليها الحجرة تخوّفاً أن يكون دونه مُجَادلة تحول بيننا وبينه. قال: وصاحت امرأته فنوَّهت بنا، وابتدرناه وهو على فراشه بأسيافنا، والله ما يدلّنا عليه في سواد الليل إلا بياضه كأنه قُبْطية ملقاة. قال: ولما صاحت بنا امرأته جعل الرجل منا يرفع عليها سيفه ثم يذكر نَهْي رسول الله ﷺ فيكفّ يده، ولولا ذلك لفرَغْنا منها بليل، فلما ضربناه بأسيافنا تحامل عليه عبد الله بن أُنَيْس بسيفه في بطنه حتى أنْفذه وهو يقول: قَطْني قَطْني، أي حَسْبي حسبي.

قال: وخرجنا وكان عبد الله بن عتيك رجلاً سيء البصَر، فوقع من الدرجة فوثئت يدهُ وثئاً شديداً، قال ابن هشام: ويقال: رجله، وحملناه حتى نأتي مَنْهراً من عيونهم فندخل فيه. قال: وأوقدوا النيران واشتدوا في كل وجه يطلبون، حتى إذا يئسوا رجعوا إلى صاحبهم فاكتنفوه وهو يَقْضي بينهم. فقلنا كيف لنا بأن نعلم أن عدو الله قد مات؟ فقال رجل منا: أنا أذهب فأنظر لكم. فانطلق حتى دخل في الناس، قال: فوجدتُها ورجال يهود حوله وفي يدها المصباح تنظر في وجهه وتحدثهم وتقول: أمَا والله لقد سمعت صوت ابن عَتِيك ثم أكْذبت وقلت أنَّي ابنُ عَتِيك بهذه البلاد. ثم أقبلت عليه تنظر في وجهه ثم قالت: فاظَ وإله يهود. فما سمعت من كلمة كانت ألذَّ إلى نفسي منها.

قال: ثم جاءنا فأخبرنا الخبر، فاحتملنا صاحبنا فقدِمْنا على رسول الله ﷺ
٧٤ ب فأخبرناه بقتل عدو الله / واختلفنا عنده في قتله، كلنا ندعيه، فقال رسول الله ﷺ.
هاتوا أسيافكم. فجئناه بها فنظر إليها فقال لسيف عبد الله بن أنيس: هذا قتله، أرى فيه أثر الطعام.

وقال حسان بن ثابت(١) يذكر قتل كعب بن الأشرف وقتل سلام بن أبي الحقيق:

لله دَرّ عصـــابـــة لاقيتَهـــم   يابن الحَقيق وأنت يـابـن الأشرفِ

---

(١) المصدر السابق ج٢ ص ٢٧٦.

يَسْرون بـالبيـض الخِفَـاف إليكـم   مرَحاً كـأسْـد في عـريـن مُغْـرف
حتى أتـــــــوكم في محلٍّ بلادكم   فسقَــوكم حَتْفــاً ببيــض ذُفَّــفِ
مُسْتنصريـــن لنصر ديـــن نبيهـــم   مستصغـريـن لكـل أمـرٍ مُجْحـفِ

[الكامل]

ذكر إسلام عمرو بن العاص وخالد بن الوليد
رضي الله عنهما

حدَّث عمرو بن العاص ـ رحمه الله ـ قال[1]: لمّا انصرفنا مع الأحزاب عن الخندق جمعتُ رجالاً من قريش كانوا يرون رأيي ويسمعون مني فقلت لهم: تعلّموا والله إني أرى أمر محمد يعلو الأمور علواً منكرًا، وإني قد رأيت أمراً فما ترون فيه؟ قالوا: وماذا رأيت؟ قال: رأيت أن نلحق بالنجاشي فنكون عنده، فإن ظهر محمد على قومنا كنا عند النجاشي، فإنا أن نكون تحت يديه أحب إلينا أن نكون تحت يدي محمد، وإن ظهر قومنا فنحن من قد عرفوا فلن يأتينا منهم إلا خير. قالوا: إن هذا لرأي. قلت: فاجمعوا ما نهدي له، وكان أحب ما يهدي إليه من أرضنا الأدَم، فجمعنا له أدماً كثيراً، ثم خرجنا حتى قدمنا عليه، فوالله إنا لعنده إذ جاءه عمرو بن أمية الضَّمْري، بعثه إليه رسول الله ﷺ في شأن جعفر وأصحابه، قال: فدخل عليه ثم خرج من عنده فقلت لأصحابي: هذا عمرو بن أمية لو قد دخلت على النجاشي سألته إياه فأعطانيه فضربت عنقه، فإذا فعلتُ ذلك رأت قريش أني قد أجزأت عنها حين قتلتُ رسولَ محمد: قال: فدخلتُ عليه فسجدت له كما كنت أصنع فقال لي: مرحبا بصديقي، أهديتَ لي من بلدك شيئاً؟ قلت: نعم أيّها الملك، قد أهديت لك أدْماً كثيراً. ثم قربتُه إليه فأعجبه واشتهاه، ثم قلت له: أيها الملك، إني قد رأيت رجلاً خرج من عندك وهو رسول رجل عدوّ لنا فأعطينيه لأقتله فإنه قد أصاب من أشرافنا وخِيَارنا. قال: فغضب ثم مد يده وضرب بها أنفه ضربةً ظننت أنه قد كسره، فلو انشقت لي الأرض لدخلت فيها فَرَقاً منه، ثم قلت له: أيها الملك، والله لو ظننت أنك تكره

---

(١) المصدر السابق ج٢ ص٢٧٦ ـ ٢٧٨.

هذا ما سألتكه، قال: أتسألني أن أعطيك رسول رجل يأتيه الناموسُ الأكبر الذي كان يأتي موسى لتقتله؟! قلت أيها الملك أكذلك هو؟ قال: ويحك يا عمرو، أطِعْني واتبعه فإنه والله لعلى الحق وليَظهرنَّ على من خالفه كما ظهر موسى على فرعون وجنوده. قلت: أفتبايعني له على الإسلام؟ قال: نعم. فبسط يده فبايعتُه على الإسلام.

ثم خرجت إلى أصحابي وقد حال رأيي عما كان عليه، وكتمت أصحابي إسلامي، ثم خرجت عامداً إلى رسول الله ﷺ لأسلم، فلقيتُ خالدَ بن الوليد وذلك قبيل الفتح، وهو مُقْبل من مكة، فقلت: أين يا أبا سليمان؟ قال: والله لقد استقام الْمَنْسِم وإنّ الرجل لَنبيّ، أذهب والله فأُسْلِم، حتى متى؟! قلت: والله ما جئتُ إلا لأسلم.

فقدِمنا المدينة على رسول الله ﷺ فتقدم خالدُ بن الوليد فأسلمَ وبايعَ ثم دنوت فقلت: يا رسول الله، إني أبايعك على أن يُغفر لي ما تقدم من ذنبي ولا أذكر ما تأخر. فقال رسول الله ﷺ: «يا عمرو بايع، فإن الإسلام يجُبّ ما كان قبله، وإن الهجرة تجب ما كان قبلها»، قال: فبايعتُه وانصرفت.

وذكر ابن إسحاق عمن لا يُتهم أن عثمان بن طلحة بن أبي طلحة أخا بني عبد الدار كان معهما أسلَم حين أسلما[1].

وذكر غيره أن رسول الله ﷺ قال حين رآهم: رمَتْكم مكة بأفلاذ كبدها.

وحدَّث الواقدي بإسناد له قال: قال عثمان بن طلحة: لقيني رسول الله ﷺ بمكة قبل الهجرة فدعاني إلى الإسلام فقلت: يا محمد، العجب لك حين تطمع أن أتبعك وقد خالفتَ قومك وجئت بدين مُحْدَث ففرَّقت جماعتهم وأَلْفتهم وأذهبت بهاءهم. فانصرف، وكنا نفتح الكعبة في الجاهلية يوم الاثنين والخميس، فأقبل يوماً يريد أن يدخل الكعبة مع الناس، فغلُظْت عليه ونلت منه وحَلُم عنّي ثم قال: يا عثمان، لعلك سترى هذا المفتاح يوماً بيدي أضعه حيث

---

(١) المصدر السابق ج٢ ص ٢٧٨.

شئت. فقلت: لقد هلكت قريش - يومئذ - وذلَّت. فقال رسول الله ﷺ: بل عمرت وعَزَّت يومئذ. ودخل الكعبة فوقعت كلمته مني موقعاً ظننت أن الأمر سيصير إلى ما قال: فأردتُ الإسلام، فإذا قومي يَزْبرونني زبراً شديداً ويُزْرون برأيي، فأمسكتُ عن ذكره. فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة جعلتْ قريش تُشْفق من رجوعه عليها، فهم على ما هم عليه حتى جاء النفير إلى بَدْر، فخرجت فيمن خرج من قومنا وشهدت المشاهد كلها معهم على رسول الله ﷺ، فلما دخل رسولُ الله ﷺ مكة عام القضية غيّر الله قلبي عمّا كان عليه ودخَلني الإسلام وجعلت أفكر فيما نحن عليه وما نعبد من حجر لا يسمع ولا يبصر ولا ينفع ولا يضر، وأنظر إلى رسول الله ﷺ وأصحابة وظَلَف أنفسهم عن الدنيا فيقع ذلك مني فأقول: ما عملَ القومُ إلا على الثواب لما يكون بعد الموت. وجعلت أحب النظر إلى رسول الله ﷺ، إلى أن رأيته خارجاً من باب بني شَيْبة يريد منزلة بالأبْطَح، فأردت أن آتيه وآخذ بيده وأسلّم عليه فلم يُعْزم لي على ذلك، وانصرف رسول الله ﷺ راجعاً إلى المدينة، ثم عزم لي على الخروج إليه، فأدْلجت إلى بطن يأجَج فألْقَى خالد بن الوليد، فاصطحبنا حتى نزلنا الهدّة فما شعرنا إلا بعمرو بن العاص فانقمْعنا عنه وانقمع منا، ثم قال: أين يريد الرجلان؟ فأخبرناه فقال: وأنا أريد الذي تريدان.

فاصطحبْنا جميعاً حتى قدِمْنا المدينةَ على رسول الله ﷺ فبايعته على الإسلام وأقمت حتى خرجت معه في غزوة الفتح ودخل مكة، فقال لي: يا عثمان، ايت
١٧٥ أ بالمفتاح، فأتيته به فأخذه مني ثم دفعه إليّ وقال: خذوها تالدةً خالدةً/ ولا يَنزعها منكم إلا ظالم، ياعثمان، إن الله استأمنكم على بيته فكلُوا مما يصل إليكم من هذا البيت بالمعروف.

قال عثمان: فلما ولّيت ناداني فرجعت إليه فقال: ألم يكن الذي قلت لك؟ فذكرت قوله لي قبل الهجرة بمكة: «لعلك سترى هذا المفتاحَ يوماً بيدي أضعه حيث شئتُ»، فقلت: بلى، أشهد أنك رسولُ الله!

قال الواقدي: فهذا أثْبت الوجوه في إسلام عثمان.

غزوة بني لَحْيَان[1]

وخرج رسول الله ﷺ على رأس ستة أشهر من فتح بني قريظة إلى لَحْيان يطلبهم بأصحاب الرَّجِيع ـ خُبَيْب وأصحابه ـ وأظهر أنه يريد الشام ليصيب من القوم غِرّة.

فلما انتهى إلى منازلهم بغُرَان وهو واد بين أمج وعُسفان وجدَهم قد حذِروا وتمنَّعوا في رءوس الجبال. فلما أخطأه من غرتهم ما أراد قال: لو أنا هبطنا عُسفان لرأي أهلُ مكة أنا قد جئنا مكة. فخرج في مائتي راكب من أصحابه حتى نزل عسفان ثم بعث فارسيْن من أصحابه حتى بلغا كُرَاع الغَمِيم ثم كرَّا وراح رسول الله ﷺ قافلا.

فكان جابر بن عبد الله يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول حين وجَّه راجعاً: «آيبون تائبون إن شاء الله، لربنا حامدون، أعوذ بالله من وَعْثاء السَّفَر وكآبة المنقلب وسوء المنظر في الأهل والمال».

* * *

(١) راجع: ابن هشام. السيرة ج ٢ ص ٢٧٩ ـ ٢٨١.

غارة عُيَيْنة بن حِصْن على سَرْح المدينة
وخروج النبي ﷺ في أثره، وهي غزوة ذي قَرَد

ولما قدِم رسولُ الله ﷺ المدينةَ من غزوة بني لحيان لم يُقم بالمدينة إلا ليال قلائل، حتى أغار عيينة بن حصن في جبل من غَطَفان على لقَاح رسول الله ﷺ بالغابة، وفيها رجل من بني غفار وامرأة له، فقتلوا الرجلَ واحتملوا المرأة في اللِّقاح.

وكان أول من نَذِر بهم سلمة [بن عمرو] بن الأكْوع الأسلمي، غَدا يريد الغَابة متوشحاً سيفه ونَبْله ومعه غلام لطلحة بن عبيد الله ،معه فرس يقوده، حتى إذا علا ثنيّة الوَداع نظر إلى بعض خيولهم فأشرف في ناحية سَلْع ثم صرخ: واصباحاه. ثم خرج يشد في آثار القوم وكان مثل السبع، حتى لحق القوم فجعل يردّهم بالنبل ويقول إذا رمي:

خُذها وانا ابن الأكْوع ... اليومَ يوم الرُّضّع

[الرجز]

فإذا وجهت الخيل نحوه انطلق هارباً ثم عارضهم فإذا أمكنه الرمي رمى ثم قال:

خذها وانا ابن الأكوع ... اليوم يوم الرضع

فيقول قائلهم: أَأُكيَعنا هو أولَ النهار.

وبلغ رسولَ الله ﷺ صياحُ ابن الأكوع فصرخ بالمدينة: الفَزع الفزع. فترامت الخيلُ إلى رسول الله ﷺ، فكان أول من انتهى إليه من الفرسان المِقْداد بن عمرو، وهو الذي يقال له: المقداد بن الأسود. ثم كان أول فارس وقف على رسول الله ﷺ بعد المقداد من الأنصار عبادُ بن بشر وسعد بن زيد الأشْهليان

وأُسَيْد بن ظُهَيْر الحارثيّ، يُشكّ فيه، وعُكّاشة بن مِحْصَن، ومُحْرز بن نَضْلة الأسديان وأبو قتادة السّلَميّ وأبو عياش، الزُّرَقي.

فلما اجتمعوا إلى رسول الله ﷺ أمَّر عليهم سعدَ بن زيد وقال: اخرج في طلب القوم حتى أَلْحقك في الناس. وقال لأبي عيّاش: يا أبا عياش لو أعطيتَ هذا الفرسَ رجلاً هو أفرْس منك فلحق بالناس. قال أبو عياش: فقلت: يا رسول الله، أنا أَفْرس الناس. ثم ضربت الفرس فوالله ما جرى بي خمسين ذراعاً حتى طرحني، فعجبت أن رسول الله ﷺ يقول: لو أعطيته أفرسَ منك وأقول: أنا أفرس الناس! فأعطى رسولُ الله ﷺ فرسَ أبي عياش هذا ـ فيما زعموا ـ معاذَ ابن ماعص أو عائذ بن ماعص، فكان ثامناً.

فخرج الفرسانُ في طلبَ القوم حتى تلاَحقوا، وكان أول فارس لحق بالقوم مُحْرز بن نَضْلة الأخْرم، ويقال له أيضاً: قمير، ولْمّا كان الفزَعُ جال فرسٌ لمحمود بن مَسْلمة في الحائط وهو مربوط بجذع نخل حين سمع صاهلة الخيل، وكان فرساً صنيعاً جامًّا، فقال بعض نساء بني عبد الأشهل: يا قمير، هل لك في أن تركب هذا الفرس فإنه كما ترى، ثم تلحق برسول الله ﷺ وبالمسلمين؟ قال: نعم فأعطينه إياه فخرج عليه فلم يلبث أن بزَّ الخيلَ بجمامه حتى أدرك القومَ، فَوقَف لهم بين أيديهم ثم قال: قفوا بني اللكيعة حتى يلحق بكم مَن وراءكم من المهاجرين والأنصار، وحمل عليه رجل منهم فقتله، وجال الفرسُ فلم يقدر عليه حتى وقف على أريَّة في بني عبد الأشهل. فقيل: إنه لم يُقتل من المسلمين ـ يومئذ ـ غيره، وقد قيل: إنه قُتل معه وَقَّاص بن مُحْرز المدْلجيّ.

ولما تلاحقت الخيل قتل أبو قتادة حبيبَ بن عُيَيْنة بن حِصْن وغَشاه بُرْده ثم لحق بالناس، وأقبل رسول الله ﷺ في المسلمين فإذا حبيب مُسَجّي ببرد أبي قتادة، فاسترجع الناس وقالوا: قُتل أبو قتادة، فقال رسول الله ﷺ: ليس بأبي قتادة، ولكنه قتيل لأبي قتادة وضع عليه برده ليعرفوا أنه صاحبه.

وأدرك عُكَّاشة بن محصن أَوْباراً وابنه عمرو بن أوبار وهما على بعير واحد

فانتظمهما بالرمح فقتلهما جميعاً، واستنقذوا بعضَ اللِّقاح.

وسار رسول الله ﷺ حتى نزل بالجبل من ذي قَرد وتلاحق به الناس، وأقام عليه يوماً وليلة، وقال له أبو سلَمة بن الأكوع: يا رسول الله، لو سرَّحتني في مائة رجل لاستنقذت بقية السَّرْح وأخذتُ بأعناق القوم، فقال له رسول الله ﷺ: إنهم الآن ليُغْبقون في غطفان.

فقسم رسول الله ﷺ: في أصحابه في كل مائة رجل جزوراً. وأقاموا عليها ثم رجع قافلاً إلى المدينة.

وأفلتت امرأة الغفَاري على ناقة من إبل رسول الله ﷺ حتى قدمت عليه فأخبرته الخبر، فلما فرغت قالت: يا رسول الله، إني قد نذرت لله أن أنحرها إن نجّاني الله عليها، فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: بئس ما جزيتها أن حمَلك الله. عليها ونجاك بها ثم تنحرينها، إنه لا نذر في معصية الله ولا فيما لا تملكين، إنما هي ناقة من إبلي، ارجعي إلى أهلك على بركة الله.

فهذا حديث ابن إسحاق عن غزوة ذي قرد(١).

وخرج مُسْلم بن الحجَّاج(٢) ـ رحمه الله ـ حديثاً في صحيحه بإسناده إلى
٧٥ب سلمة بن الأكوع فذكر حديثاً طويلاً خالف به حديث ابن إسحاق/ في مواضع منه، فمن ذلك: أن هذه الغزوة كانت بعد انصراف الرسول ﷺ من الحديبية، وجعلها ابن إسحاق قبل ذلك، وكذلك فعل ابنُ عُقبة.

وفيه أن سلمة بن الأكوع استنقذ سَرْحَ رسول الله ﷺ بجملته، قال سلمة: فوالله ما زلت أرميهم وأعقر بهم فإذا رجع إليّ فارس أتيتُ شجرةً فجلست في أصلها ثم رميته فعقرت به حتى إذا تضايق الجبلُ فدخلوا في تضايقه علوتُ الجبلَ فجعلت أُرَدِّيهم بالحجارة. قال: فما زلت كذلك أتبعهم حتى ما خلق الله مِن بعير من

---

(١) المصدر السابق ج٢ ص ٢٨١ ـ ٢٨٩.
(٢) مسلم. الجامع الصحيح ج٥ ص١٨٩ ـ ١٩٥ (كتاب الجهاد، باب غزوة ذي قرد).

ظَهْر رسول الله ﷺ إلا خلفته وراء ظهري وخلوا بيني وبينه، ثم اتبعتهم أرميهم حتى ألقوا أكثر من ثلاثين بُردة وثلاثين رمحاً يَستخفّون، ولا يطرحون شيئاً إلا جعلت عليه آراماً من الحجارة يعرفها رسول الله ﷺ وأصحابه حتى أتوا متضايقاً من ثنّية [فإذا هم قد] أتاهم فلان بن بدر الفزاري، فجلسوا يتّضحون ـ أي يتغدون ـ وجلست على رأس قَرْن. قال الفزاري: ما هذا الذي أرى؟ قالوا: لقينا من هذا البَرْح، والله ما فارقنا منذ غلَس يرمينا حتى انتزع كل شيء في أيدينا. قال فليقم إليه نفرٌ منكم أربعة، قال: فصعد إليّ منهم أربعة في الجبل، فلما أمْكنوني من الكلام قلت: هل تعرفونني؟ قالوا: لا، ومن أنت؟ قلت: أنا سلمة بن الأكوع والذي كرَّم وجه محمد ﷺ لا أطلب رجلاً منكم إلا أدركتهُ ولا يطلبني فيدركني. قال أحدهم: أنا أظن ذلك، فرجعوا.

فما برحتُ مكاني حتى رأيت فوارسَ رسول الله ﷺ يتخللون الشجر، فإذا أولهم الأخْرم الأسدي، على أثره أبو قتادة الأنصاريّ وعلى أثره المقداد بن الأسود الكنْدي فأخذت بعنان الأخرم فولوا مدبرين، قلت: يا أخرم احذرهم لا يقتطعونك حتى يلحق رسول الله ﷺ وأصحابه، قال: يا سلمة، إن كنت تؤمن بالله واليوم الآخر وتعلم أن الجنة حق والنار حق فلا تَحُلْ بيني وبين الشهادة. قال: فخلَّيته فالتقى هو وعبد الرحمن، قال: فعقر بعبد الرحمن فرسه وطعنه عبد الرحمن فقتله، وتحوّل على فرسه. ولحق أبو قتادة فارس رسول الله ﷺ بعبد الرحمن فطعنه فقتله، فوالذي كرَّم وجه محمد لتبعتهم أعدو على رجليّ حتى ما أرى من ورائي من أصحاب محمد ﷺ ولا غبارهم شيئاً، حتى يَعْدلوا قبل غروب الشمس إلى شعْب فيه ماء يقال له: ذو قَرَد ليشربوا منه وهم عِطَاش، فنظروا إليّ أعدو وراءهم فَحلاّتُهم عنه. فما ذاقوا منه قطرة، ويخرجون فيشتدون في ثنية فأعدو فألحق رجلاً منهم فأمسكه بسهم في نُغْض كتفه، قلت:

خذها وأنا ابن الأكوع واليوم يوم الرُّضَّعْ

قال: يا ثكِلتْه أمه أأكوَعه بكرة؟ قلت: نعم يا عدو نفسه أكْوَعه بكرة.

قال: وأرْدَوْا فرسين على ثنية فجئت بهما أسوقهما إلى رسول الله ﷺ، ولحقني عامر بسطيحة فيها مَذْقة من لبن وسطيحة فيها ماء فتوضأت وشربت ثم أتيت رسول الله ﷺ وهو على الماء الذي حَلأْتهم عنه قد أخذ تلك الإبل وكل شيء استنقذته من المشركين وكلَّ رمح وكل بُرْدة، وإذا بلالٌ نَحر ناقةً من الإبل التي استنقذت من القوم، وإذا هو يَشْتوي لرسول الله ﷺ من كبدها وسنَامها، قلت: يا رسول الله، خلِّني فأنتخب من القوم مائة رجل فأتبع القوم فلا يبقى منهم مُخْبر إلا قتلته. فضحك رسول الله ﷺ حتى بدتْ نواجذه في ضوء النار قال: يا سلمة، أتراك كنتَ فاعلاً؟ قلت: نعم، والذي أكرمك، قال: إنهم الآن ليُقرَون بأرض غطفان. قال: فجاء رجل من غطفان فقال: نحر لهم فلان جزوراً فلما كشطوا جلدها رأوا غباراً فقالوا: إياكم القوم فخرجوا هاربين.

فلما أصبحنا قال رسول الله ﷺ: كان خير فرساننا اليوم أبو قتادة، وخير رجالنا سلَمة. ثم أعطاني رسول الله ﷺ سهمين: سهم الفارس وسهم الراجل فجمعهما لي جميعاً.

وذكر الزبير بن أبي بكر أن رسول الله ﷺ مرَّ في غزوة ذي قرَد هذه على ماء يقال له: بيسان، فسأل عنه فقيل: اسمه يا رسول الله: بيسان وهو مالح. فقال رسول الله ﷺ؟: لا، بل اسمه نعمان وهو طيب. فغير رسول الله ﷺ الاسم وغير الله ـ تعالى ـ الماءَ. فاشتراه طلحة بن عبيد الله ثم تصدَّق به وجاء إلى رسول الله ﷺ فأخبره، فقال رسول الله ﷺ: ما أنت يا طلحة إلا فيَّاض. فسمي طلحة الفياض.

وكان مما قيل من الشعر في يوم ذي قرَد قول حسان بن ثابت[1]:

أَظَنَّ عُيَيْنَة إذ زارها ... بأنْ سوف يَهْدم منها قصورَا
فأَكْذبتَ ما كنت صدَّقته ... وقلتم ستَغْنم أمراً كبيرَا
فَعِفْتَ المدينة إذ زُرْتها ... وآنستَ للأُسْد فيها زئيرَا

(١) ابن هشام. السيرة ج ٢ ص ٢٨٧.

ووَلّــوْا سراعــاً كشَــدّ النعــام ... ولْـم يكشفـوا عـن مُلِـطٍّ حصيرَا
أمـيرٌ عـلـيـنـا رسـولُ المـليـ ... ـك أَحـبِـبْ بـذاك إلـيـنـا أميرَا
رســولٌ نصــدّق مــا جــاءَه ... ونتلــو كتــابــاً مضيئــاً منيرَا

[المتقارب]

وقال كعب بن مالك(١):

أيَحْسـب أولادُ اللقيطــة أننــا ... على الخيل لسنا مثلهم في الفـوارسِ
وإنّـا أنـاسٌ لا نـرى القتـل سُبَّـة ... ولا نَنْثني عنـد الرمـاح الْمَـدَاعسِ
وإنا لنَقْري الضيف من قَمـعِ الذّري ... ونضرب رأسَ الأبلـج المتشـاوسِ
نـردّ كُمَـاة الْمعْلَمين إذا انتحـوا ... بضرب يسلّــي نخوة المتقــاعِسِ
بكل فتى حـامـي الحقيقـة مـاجـدٍ ... كريم كسَرْحـان الغَضـاة مُخـالِسِ
يَذُودون عـن أحسـابهم وتِلاَدهـم ... ببيـضٍ تقـدُّ الهامَ تحت القَـوانسِ
فسـائـلْ بني بَـدْر إذا مـا ليقيتهـم ... بما فعـل الإخـوانُ يـومَ التمَـارسِ
إذا ما خرجتم فاصـدُقـوا مـن لقيتمُ ... ولا تكتمـوا أخبـاركم في المجـالسِ
وقولوا زَلَلْنا عـن مَخـالـب خَـادرٍ ... بـه وحَـرٌ في الصَّـدر مـا لم يمارسِ

[الطويل]

وقال شدَّاد بن عارض الجَشمي(٢) في يوم ذي قَرَد لعُيَيْنة بن حصن وكان عيينة يكنى أبا مالك:

فهلاَّ كـرَرْت أبـا مـالـكٍ ... وخيلـك مُـدْبـرة تُقْتَـلُ
ذكـرتَ الإيـابَ إلى عَسْجـد ... وهيهـات قـد بَعُـدَ المُقْفَـلُ
/وضمَّنْت نَفْسـك ذا مَيْعـة ... مِسَـحَّ الفضـاء إذا يـرسَـلُ ١٧٦أ
إذا قـبَّـضَتْـه إلـيـك الشـمَا ... ل جـاشَ كـما اضطرم الْمِرْجَلُ
فـلما عـرفـتـم عـبـادَ الإلـ ... ـه لم يـنـظر الآخـر الأولُ

---

(١) المصدر السابق ج٢ ص٢٨٧ ـ ٢٨٨.
(٢) نفسه ج٢ ص٢٨٨ ـ ٢٨٩.

عــرفتم فــوارس قــد عُــوّدوا طِــــرَاد الكماة إذا أسْهلــــوا
إذا طـــردوا الخيــل تشقـــي بهم فضـاحـاً وإن يُطـردوا ينــزلــوا
فيَعْتصمـــوا في ســـواءِ المقـــا م بـالبيــض أخْلصهــا الصيقــلُ

[المتقارب]

غزوة بني المصطلق
وهي غزوة المُرَيْسِيع (١)

وغزا رسولُ الله ﷺ بني المصطلق من خزاعة في شعبان سنة ست، وكان بلغه أنهم يجمعون له، وقائدهم الحارث بن أبي ضرار أبو جوَيْرية زوج النبي ﷺ.

فلما سمع بهم رسولُ الله ﷺ خرج إليهم حتى لقيهم على ماء من مياههم يقال له: المريْسيع، فتزاحف الناسُ واقتتلوا، فهزم الله بني المصطلق وقتل من قتل منهم ونفَّل رسولَه أبناءهم ونساءهم وأموالهم.

وكان شعار المسلمين في ذلك اليوم: يا منصور أمِتْ أمت.

وأصاب ـ يومئذٍ ـ رجلٌ من الأنصار من رهط عبادة بن الصامت رجلاً من المسلمين من بني كلب بن عوف بن عامر بن أمية بن ليث بن بكر يقال له: هشام ابن صُبَابة، وهو يرى أنه من العدو فقتله خطأ.

فبَيْنا الناسُ على ذلك الماء وردت واردةُ الناس ومع عمر بن الخطاب أجير له من غِفَار يقال له: جَهْجاه بن مسعود يقود فرسه، فازدحم جهجاه وسِنَان بن وبَر الجهني حليف بني عوف بن الخزرج على الماء فاقتتلا، فصرخ الجهني: يا معشر الأنصار. وصرخ جهجاه: يامعشر المهاجرين. فغضب عبدُ الله بن أُبَيّ بن سلُول فقال: أقد فعلوها؟ قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا، والله ما أُعدُّنا وجَلاَبيب قريش هؤلاء إلا كما قال الأول: سمِّن كلبك يأكلك، أمَا والله لئن رجعنا إلى المدينة لَيُخرِجن الأعزُّ منها الأذلَّ. ثم أقبل على من حضره من قومه ـ وفيهم زيد بن أرقم غلام حدَث ـ فقال: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أَحْلَلْتموهم بلادكم

(١) المصدر السابق ج٢ ص٢٨٩.

وقاسمتموهم أموالكم، أمَا والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولَّوا إلى غير داركم.

فمشي زيدُ بن أرقم إلى رسول الله ﷺ فأخبره الخبرَ، وذلك عند فراغه من عـدوّه، وعنده عمـر بن الخطاب، فقـال: مُرْ بـه عبَّـاد بن بِشْر فليقتله. فقـال رسول الله ﷺ: فكيف يا عمر إذا تحدَّث الناسُ أن محمداً يقتل أصحابه، لا ولكن أذِّن بالرحيل. وذلك في ساعة لم يكن رسول الله ﷺ يرتحل فيها.

فارتحل الناسُ وقد مشى عبدالله بن أبي إلى رسول الله ﷺ حين بلغه أن زيداً بلغه ما سمع منه، فحلف بالله ما قلتُ ما قال ولا تكلمت به. وكان في قومه شريفاً عظيماً، فقال من حضر من الأنصار من أصحابه: يا رسول الله عسى أن يكون الغلام أوهَم في حديثه ولم يحفظ ما قال الرجل. حدَباً على ابن أبي ودفعاً عنه.

فلما استقل رسول الله ﷺ وسار لقيه أُسَيْد بن حُضير فحيَّاه بتحية النبوة وسلم عليه ثم قال: يا نبي الله، والله لَرُحتَ في ساعة منكَرة ما كنت تروح في مثلها. فقال له رسول الله ﷺ: أوَ ما بلغك ما قال صاحبكم؟ قال: وأي صاحب يا رسول الله؟ قال : عبدُ الله بن أبيّ. قال: وما قال؟ قال: زعم أنه إن رجع إلى المدينة أخرج الأعز منها الأذلَّ.

قال: فأنت والله يا رسول الله تخرجه إن شئت، هو والله الذليل وأنت العزيـز. ثم قال: يا رسول الله صلى الله عليك ارفق به، فوالله لقد جاء الله بك وإنّ قومه لينْظِمون له الخرزَ ليتوجّوه، فإنه ليرى أنْ قد استلبتَه مُلْكاً!

ثم مشى رسولُ الله ﷺ بالناس يومَهم ذلك حتى أمسى وليلتهم حتى أصبح، وسار يومهم ذلك حتى آذتهم الشمسُ ثم نزل بالناس فلم يلبثوا أن وجدوا مسَّ الأرض فوقعوا نياماً، وإنما فعل ذلك ليشغل الناسَ عن الحديث الذي كان بالأمس ثم راح بالناس، فهبَّت عليهم ريحٌ شديدة آذتهم وتخوفوها، فقال رسول الله ﷺ: لا تخافوها فإنما هبَّت لموت عظيم من الكفار. فلما قدموا المدينة وجدوا

رفاعة بن زيد بن التابوت ـ أحد بني قينقاع ـ وكان من عظماء يهود وكهفاً للمنافقين مات ذلك اليوم.

ونزلت السورة التي ذكر الله فيها المنافقين في عبد الله بن أُبيّ ومن كان على مثل أمره. فلما نزلت أخذ رسول الله ﷺ بأذن زيد بن أرقم ثم قال: هذا الذي أوفى لله بأذنه.

وبلغ عبد الله بن عبد الله بن أبيّ الذي كان من أمر أبيه، فأتى رسولَ الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إنه بلغني أنك تريد قتلَ عبد الله بن أُبيّ فيما بلغك عنه، فإن كنت فاعلاً فمرني فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرجُ ما كان لها من رجل أبرَّ بوالده مني، إني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبيّ يمشي في الناس فأقتله فأقتل مؤمناً بكافر فأدخل النار.

فقال رسول الله ﷺ: بل نترفّق به ونحسن صُحبته ما بقي معنا(١).

وجعل بعد ذلك إذا أحدث الحدَث كان قومُه هم الذين يعاتبونه ويؤاخذونه ويعنّفونه، فقال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب حين بلغه ذلك من شأنهم: كيف ترى يا عمر؟ أمَا والله لو قتلتُه يومَ قلت لي اقتله لأرْعدت له آنُفٌ لو أمرتها اليومَ بقتله لقتلْته! فقال عمر: قد والله علمتُ لأمرُ رسول الله ﷺ أعظمُ بركةً من أمري.

وقدم(٢) مِقْيَس بن صُبَابة من مكة متظاهراً بالإسلام، فقال يا رسول الله، جئتك مسلماً، وجئتك أطلب دية أخي قتل خطأ، فأمر له رسول الله ﷺ بدية أخيه هشام بن صُبَابة، فأقام عند رسول الله ﷺ غير كثير ثم عدَا على قاتل أخيه فقتله. ثم خرج إلى مكة مرتدًّا وقال في شعر له:

شَفى النفسَ أن قد بات بالقاع مُسْندا ... تضرّج ثوبيه دماءُ الأخادعِ

---

(١) المصدر السابق ج٢ ص ٢٩٢ ـ ٢٩٣.

(٢) نفسه ج٢ ص٢٩٣ ـ ٢٩٤.

وكانت همومُ النفس من قبل قتلـه ... تلمّ فتحميني وِطـاءَ المضـاجـعِ
٧٦ب / حللتُ به وِتْـري وأدركـت ثُـؤْرتي ... وكنـت إلى الأوثـانِ أولَ راجـعِ
ثـأرْتُ بـه فِهْـرا وحمّلـت عَقْلَـه ... سراةَ بني النجـار أربـابَ فـارعِ

[الطويل]

وقال أيضاً:

جلّلتُـه ضربـةً بـاتـت لها وشَـلٌ ... مـن نـاقـع الجوف يعْلـوه وينصرمُ
فقلـت والموتُ يغشـاه أسِـرّتـه ... لا تـأمَنـنّ بني بكـر إذا ظلمـوا

[البسيط]

وأصاب رسـول الله ﷺ مـن بني المصطلـق سَبْيـاً كثيراً، فشـا قَسْمـه في المسلمين، وكان فيمن أصيب ـ يومئذٍ ـ من السبايا جُوَيْرية بنت الحارث بن أبي ضرار، فوقعت في السهم لثابت بن قيس بن الشمّاس أو لابن عم له، فكاتبته على نفسها.

قالت عائشة رضي الله عنها[1]: وكـانت ـ تعني جُوَيْـرية ـ امـرأة حلوة مُلّاحـة لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه، فأتت رسول الله ﷺ تستعينه في كتابتها، فوالله ما هو إلا أن رأيتها على باب حجرتي فكرهتها وعرفتُ أنه سيرى منها ما رأيت، فدخلت عليه فقالت: يا رسول الله، أنا جويرية بنت الحارث بن أبي ضِرار سيد قومه، وقد أصابني من البلاء ما لم يَخْفَ عليك فوقعتُ في السهم لثابت بن قيس بن الشمّاس أو لابن عم له، فكاتبتُه على نفسي، فجئتك أستعينك على كتابتي. قال: فهل لك في خير من ذلك؟ قالت: وما هو يا رسول الله؟ قال أقضي كتابتك وأتزوجك. قالت: نعم يا رسول الله. قال: قد فعلتُ. وخرج الخبرُ إلى الناس: أنّ رسول الله ﷺ قد تزوج جويرية. فقال الناس: أصهار رسول الله ﷺ. فأرسلوا ما بأيديهم، قالت: فلقد أعتق بتزوّجه إياها مائة أهل بيت من بني المصطلق، فما أعلم امرأةً كانت أعظم بركةً على قومها منها.

وبعث إليهم رسول الله ﷺ بعد إسلامهم الوليد بن عقبة بن أبي مُعَيْط، فلما

(١) المصدر السابق ج٢ ص٢٩٤ ـ ٢٩٦.

سمعوا به ركبوا إليه، فلما سمع بهم هابَهم فرجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره أن القوم همّوا بقتله ومنعوه ما قِبلَهم من صدقتهم، فأكثر المسلمون في ذكر غزوهم حتى همَّ رسول الله ﷺ بأن يغزوهم، فبينا هم في ذلك قدِم وفدُهم على رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، سمعنا برسولك حين بعثته إلينا، فخرجنا إليه لنكرمه ونؤدي إليه ما قِبَلنا من الصدقة، فانشمر راجعاً، فبلغنا أنه زعم لرسول الله ﷺ أنا خرجنا إليه لنقتله ووالله ما جئنا لذلك. فأنزل الله فيه وفيهم: ﴿**يا أيها الذين آمنوا إنْ جاءكم فاسق بنبأ فتبيَّنُوا أنْ تُصيبوا قوماً بجهالة فتُصْبحوا على ما فعلتم نادمين**﴾ [الحجرات: ٦].

هكذا ذكر ابن إسحاق أن رسول الله ﷺ بعث إلى بني المصطلق بعد إسلامهم الوليد بن عُقْبة ولم يعيّن مدة توجيهه إياه إليهم، وقد يُوهِم ظاهره أن ذلك كان بحدثان إسلامهم، ولا يصح ذلك، إذ الوليد من مُسْلمة الفتح، وإنما كان الفتح في سنة ثمان بعد غزوة بني المصطلق وإسلامهم بسنتين، فلا يكون هذا التوجيه إلا بعد ذلك ولا بد.

وقد قال أبو عمر بن عبد البر: لا خلاف بين أهل العلم بتأويل القرآن فيما علمت أن قوله عز وجل: ﴿**إن جاءكم فاسق بنبأ**﴾ نزلت في الوليد بن عقبة حين بعثه رسول الله ﷺ إلى بني المصطلق مصدِّقاً، والله سبحانه أعلم(١).

وأقبل رسول الله ﷺ من سفره ذلك حتى إذا كان قريباً من المدينة قال أهلُ الإفك في الصِّديقة المبرَّأة المطهرة عائشة بنت الصديق ـ رضي الله عنها ـ ما قالوا.

فحدثت ـ يرحمها الله ـ قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفراً أقْرع بين نسائه فأيتهن خرج سهمُها خرج بها معه. فلما كانت غزوة بني المصْطَلق أقْرَع بين نسائه كما كان يصنع فخرج سهمي عليهن معه فخرج بي ﷺ. قالت: وكان النساء إذ ذاك إنما يأكلن العُلَق لم يُهبِّجهن اللحم فيثقلن، وكنت إذا رُحّل لي بعيري

---

(١) المصدر السابق ج٢ ص ٢٩٦.

جلست في هودجي ثم يأتي القومُ الذين يرحلون لي ويحملونني فيأخذون بأسفل الهودج فيرفعونه فيضعونه على ظهر البعير فيشدّونه بحباله ثم يأخذون برأس البعير فينطلقون به.

فلما فرغ رسول الله ﷺ من سفره ذلك وجَّه قافلاً حتى إذا كان قريباً من المدينة نزل منزلاً فبات به بعض الليل ثم أذّن في الناس بالرحيل، فارتحل الناس وخرجت لحاجتي وفي عنقي عقد لي فيه جَزْع ظَفَار فلما فرغتُ انسلَّ من عنقي ولا أدري، فلما رجعت إلى الرَّحْل ذهبت ألتمسه في عنقي فلم أجده وقد أخذ الناس في الرحيل، فرجعت إلى مكاني الذي ذهبت إليه فالتمسته حتى وجدته، وجاء خلافي القومُ الذين كانوا يرحلون لي البعير وقد فرغوا من رحلته فأخذوا الْهَوْدج وهم يظنون أني فيه كما كنت أصنع، فاحتملوه فشدُّوه على البعير ولم يشكوا أني فيه، ثم أخذوا برأس البعير فانطلقوا به، ورجعت إلى العسكر وما فيه داع ولا مجيب قد انطلق الناسُ، قالت: فتلفَّفْت بجلبابي ثم اضطجعت في مكان وعرفت أنه لو قد افتُقدتُ لرجع إليّ.

فوالله إني لمضطجعة إذ مرَّ بي صفوان بن المعطّل السُّلَمي، وكان تخلف عن العسكر لبعض حاجته فلم يبتْ مع الناس، فرأى سوادي، فأقبل حتى وقف عليّ، وقد كان يراني قبل أن يضرب علينا الحجَاب، فلما رآني قال: إنا لله وإنا إليه راجعون! ظعينة رسول الله ﷺ! وأنا متلففة في ثيابي. قال: ما خلَّفك، رحمك الله؟ قالت: فما كلَّمْته، ثم قرَّب البعيرَ فقال: اركبي. واستأخر عني، فركبت وأخذ برأس البعير فانطلق سريعاً يطلب الناسَ، فوالله ما أدركنا الناسَ وما افتقُدت حتى أصبحت، ونزل الناس فلما اطمأنوا طلع الرجل يقودني، فقال أهلُ الإفك ما قالوا. فارتعج العسكر، ووالله ما أعلم بشيء من ذلك.

ثم قدمنا المدينة فلم ألبث أن اشتكيت شكواً شديداً لا يبلغني من ذلك شيء، وقد انتهى الحديث إلى رسول الله ﷺ وإلى أبويَّ لا يذكرون لي منه قليلاً ولا كثيراً، إلا أني قد أنكرتُ من رسول الله ﷺ بعض لُطْفه بي، كنت إذا اشتكيت رحمني ولطف بي فلم يفعل ذلك في شَكْوِي ذلك فأنكرتُ ذلك

منه، كان إذا دخل عليّ وعندي أمي تمرّضني قال: كيف تيكم، لا يزيد على ذلك حتى وجدتْ في نفسي حين رأيت ما رأيت من جفائه لي. فقلت: يا رسول الله لو أذنتْ لي فانتقلت إلى أمي فتمرضني؟ قال: لا عليك.

٧٧ أ فانتقلت إلى أمي ولا/علم لي بشيء مما كان، حتى نقهْت من وجعي بعد بضع وعشرين ليلة، وكنا قوماً عرباً لا نتخذ في بيوتنا هذه الكنف التي تتخذ الأعاجم نعافها ونكرهها، إنما كنا نذهب في فسح المدينة، وإنما كان النساء يخرجن كل ليلة في حوائجهن، فخرجت ليلة لبعض حاجتي ومعي أم مِسطح بنت أبي رُهم بن المطلب بن عبد مناف، وكانت أمها خالة أبي بكر الصديق، فوالله إنها لتمشي معي إذ عثرتْ في مِرْطها فقالت: تعِس مسطح. قلت: بئس لعمر الله ما قلتِ لرجل من المهاجرين قد شهد بَدْراً. قالت: أوَ ما بلغكِ الخبر يا بنت أبي بكر؟ قلت: وما الخبر؟ فأخبرتني بالذي كان من قول أهل الإفك. قلت: أوقد كان هذا؟ قالت: نعم والله لقد كان.

فوالله ما قدرْت على أن أقضي حاجتي ورجعت، فوالله مازلت أبكي حتى ظننت أن البكاء سيَصْدع كبدي. وقلت لأمي: يغفر الله لك! تحدّث الناسُ بما تحدثوا به ولا تذكرين لي من ذلك شيئاً؟ قالت: أيْ بنية خفِّضي عليك الشأن، فوالله لقلّ ما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبها لها ضرائر إلا كثّرن وكثر الناسُ عليها.

قالت: وقد قام رسولُ الله ﷺ في الناس فخطبهم ولا أعلم بذلك، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس، ما بال رجال يؤذونني في أهلي ويقولون عليهم غير الحق، والله ما علمت منهم إلا خيراً، ويقولون ذلك لرجل والله ما علمتُ منه إلا خيراً، وما يدخل بيتاً من بيوتي إلا وهو معي. قالت: وكان كبر ذلك عند عبد الله بن أبيّ في رجال من الخزرج مع الذي قال مِسْطح وَحمنة بنت جَحْش، وذلك أن أختها زينب كانت عند رسول الله ﷺ ولم يكن من نسائه امرأة تُناصيني في المنزلة عنده غيرها، فأما زينب فعصمها الله بدينها فلم تقل إلا خيراً، وأما حَمنة فأشاعت من ذلك ما أشاعت تضادّني لأختها، فشقيتْ بذلك.

فلما قال رسول الله ﷺ تلك المقالة قال أسيد بن حُضيْر: يارسول الله، إن يكونوا من الأوس نكفكهم [١] وإن يكونوا من إخواننا من الخزرج فمرنا بأمرك فوالله إنهم لأهلٌ أن تضرب أعناقهم. فقام سعد بن عُبادَة فقال: كذَبْتَ لعمر الله لا تضرب أعناقهم، أما والله ما قلتَ هذه المقالة إلا أنك قد عرفت أنهم من الخزرج، ولو كانوا من قومك ما قلت هذا. فقال أسيد: كذبت لعمر الله ولكنك منافق تجادل عن المنافقين. قالت: وتثاور [٢] الناس حتى كاد يكون بين هذين الحيّيْن من الأوس والخزرج شرّ.

ونزل رسول الله ﷺ فدعا عليّ بن أبي طالب وأسامة بن زيد فاستشارهما، فأما أسامة فأثني خيراً، ثم قال: يا رسول الله، أهلك ولا نعلم منهم إلا خيراً، وهذا الكذب والباطل. وأمّا عليّ فإنه قال: يا رسول الله، إن النساء لكثير وإنك لتَقْدر أن تستخلف، وسَلِ الجارية فإنها ستصْدقك. فدعا رسول الله ﷺ بَريرة ليسألها، فقام إليها عليّ فضربها ضرباً شديداً ويقول: اصدقي رسول الله ﷺ، فتقول: والله ما أعلم إلا خيراً، وما كنت أعيب على عائشة شيئاً إلا أني كنت أعجن عجيني فآمرها أن تحفظه فتنام عنه فتأتي الشاة فتأكله.

قالت: ثم دخل عليّ رسولُ الله ﷺ وعندي أبواي وعندي امرأة من الأنصار فأنا أبكي وهي تبكي معي، فجلس فحمد الله وأثني عليه ثم قال: يا عائشة إنه قد كان ما بلغَكِ من قول الناس، فاتقي الله وإن كنت قارفتِ سوءاً مما يقول الناس فتوبي إلى الله فإن الله يقبل التوبة عن عباده. قالت: فوالله إن هو إلا أن قال لي ذلك فقلَص دمعي حتى ما أحس منه شيئاً. وانتظرتُ أبويَّ أن يجيبا رسولَ الله ﷺ فلم يتكلما.

قالت: وأيم الله لأنا كنت أحقر في نفسي وأصغر شأناً من أن ينزل الله فيّ قرآناً يقرأ به في المسجد ويصلّى به، ولكني كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ

---

١) في الأصل: «نكفيكم».
٢) في الأصل: «وتشاور».

في منامه شيئاً يكذِّب الله به عنّي لما يعلم من براءتي أو يخبر خبراً، فأما قرآن ينزل فيّ فوالله لَنفسي كانت أحقر عندي من ذلك.

قـالت: فلما لم أر أبويَّ يتكلّمان قلت لهـما: ألا تجيبـان رسـولَ الله ﷺ؟ فقـالا: والله ما ندري بماذا نجيبه. قالت: ووالله ما أعلم أهلَ بيت دخل عليهم ما دخل على آل أبي بكر في تلك الأيام. قالت: فلما استعجَما عليّ استعبَرْتُ فبكيت ثم قلت: والله لا أتوب إلى الله مما ذكرتَ أبداً، والله إني لَأعلم لئن أقررت بما يقول الناس والله يعلم أني منه بريئة لأقولنّ ما لم يكن، ولئن أنا أنكرت ما يقولون لا تصدّقونني، ثم التمستُ اسمَ يعقوب فما أذكره فقلت: ولكني سأقول كما قال أبو يوسف: ﴿فصبرٌ جميل والله المستعان على ما تصفون﴾ [يوسف: ١٨].

قالت: فوالله ما بَرِح رسولُ الله ﷺ مجلسَه حتى تغشّاه من الله ما كان يتغشاه، فسجِّي بثوبه ووضعت له وسادة من أدَم تحت رأسه، فأمّا أنا حين رأيت من ذلك ما رأيت فوالله ما فزعت ولا باليتُ، قد عرفت أني بريئة وأن الله غير ظالمي، وأما أبواي فوالذي نفس عائشة بيده ما سرِّي عن رسول الله ﷺ حتى ظننت لتخرجن أنفسهما فَرقاً من أن يأتي من الله تحقيقُ ما قال الناسُ. ثم سرّي عن رسول الله ﷺ، فجلس وإنه ليتحدَّر منه مثل الْجُمَان وفي يوم شاتٍ، فجعل يمسح العَرق عن جبينه ويقول: «أبشري يا عائشة فقد أنزل الله براءتك» قلت: بحمد الله.

ثم خرج إلى الناس فخطبهم وتلا عليهم ما أنزل الله عليه من القرآن في ذلك ثم أمر بِمسْطح بن أُثَاثة وحَمْنة بنت جحش وحسّان بن ثابت، وكانوا ممن أفصح بالفاحشة فضُربوا حدَّهم.

قالت: فلما نزل القرآن ذكَر من قال من الفاحشة ما قال من أهل الإفك فقال: ﴿إنّ الذينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنكُمْ لاَ تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِيءٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١١] قيل: إنه حسان بن ثابت وأصحابه، ويقال: عبد الله بن أُبيّ وأصحابه.

ثم قال: ﴿لَوْلاَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ﴾ أي هلاّ قلتم إذ سمعتموه كما قال أبو أيوب الأنصاري وصاحبته أم أيوب، وذلك أنها قالت لزوجها: يا أبا أيوب، / ألا تسمع ٧٧ ب
ما يقول الناس في عائشة؟ قال: بلى وذلك الكذب، أكنتِ يا أم أيوب فاعلته؟ قالت: لا والله ما كنت لأفعله. قال: فعائشة والله خير منك.

ثم قال تعالى:﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِنْدَ اللهِ عَظِيمٌ﴾.

فلما نزل هذا في عائشة وفيمن قال لها ما قال قال أبو بكر ـ رحمه الله وكان ينفق على مِسْطح لقرابته وحاجته: والله لا أنفق على مسطح أبداً ولا أنفعه بنفع أبداً بعد الذي قال لعائشة وأدخل علينا. قالت: فأنزل الله في ذلك ﴿ولا يأتلِ أُولو الفضل منكم والسّعة أن يُؤْتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم﴾ [النور: ٢٢] قالت: فقال أبو بكر: بلى، والله إني لأحب أن يغفر الله لي. فرجع إلى مسطح نفقته التي كان ينفق عليه وقال: والله لا أنزعها منه أبداً[(١)].

وذكر ابن إسحاق[(٢)]: أن حسان بن ثابت مع ما كان منه في صفوان بن المعطّل من القول السيء قال مع ذلك شعراً يعرض فيه بصفوان ومن أسلم من مُضر يقول فيه:

أمْسَى الجلابيبُ قد عزُّوا وقد كثروا وابن الفُرَيْعة أمسَى بَيْضَة البلدِ
[البسيط]

فلما بلغ ذلك ابنَ المعطل اعترض حسانَ بن ثابت فضربه بالسيف ثم قال:

تلقّ ذُباب السيفِ عني فإنني غلامٌ إذا هُوجيتُ لستُ بشاعرِ
[الطويل]

فوثب عند ذلك ثابت بن قيس بن شمّاس على صفوان فجمع يديه إلى عنقه

(١) راجع: ابن هشام. السيرة ج ٢ ص ٢٩٧ ـ ٣٠٤.
(٢) نفسه ج ٢ ص ٣٠٤.

بحبل ثم انطلق به إلى دار بني الحارث بن الخزرج، فلقيه عبد الله بن رَوَاحة فقال: ما هذا؟ قال: أما أعجبك ضرب حسان بالسيف؟ والله ما أراه إلا قد قتله. فقال له ابن رواحة: هل علم رسول الله ﷺ بشيء مما صنعت؟ قال: لا والله. قال: لقد اجترأتَ، أطلقْ الرجلَ. فأطلقه.

ثم أتوا رسول الله ﷺ فذكروا ذلك له، فدعا حسان وصفوان، فقال صفوان: يا رسول الله، آذاني وهجاني فاحتملني الغضب فضربته. فقال رسول الله ﷺ لحسان: يا حسان، أتشوهت على قومي أن هداهم الله للإسلام؟ ثم قال: أحسنْ يا حسان في الذي أصابك. قال: هي لك. فأعطاه رسول الله ﷺ عوضاً منها بئر «حاء» ماء كان لأبي طلحة بالمدينة فتصدق به إلى رسول الله ﷺ ليضعه حيث شاء فأعطاه حسانَ في ضربته، وأعطاه «سيرين» أمَةً قبطية ولدت له ابنه عبد الرحمن.

وقد روي من وجوه أن إعطاء رسول الله ﷺ إياه سيرين إنما كان لذّبه بلسانه عن النبي ﷺ. والله تعالى أعلم.

وكانت عائشة ـ رحمها الله ـ تقول: لقد سئل عن ابن المعطّل فوجدوه حَصُوراً لا يأتي النساء ثم قتل بعد ذلك شهيداً.

وقال بعد ذلك حسان يمدح عائشة ـ رضي الله عنها ـ ويعتذر من الذي كان في شأنها:

حَصَانٌ رَزانٌ ما تـزُنُّ بـريبـةٍ ... وتصبح غرثَي من لُحوم الغـوافـلِ
عقيلة حيٍّ مـن لُـؤيّ بـن غـالـبٍ ... كرام المساعي مَجْدهـم غير زائـلِ
مهـذَّبـة قـد طيّـب الله جنبهـا ... وطهّرها مـن كـل سـوءٍ وبـاطـلِ
فإن كنت قد قلتُ الذي قـد زعمتمُ ... فلا رفعتْ سَـوْطـي إليّ أنـامِلي
وكيف ودّي مـا حييـتُ ونُصرَتي ... لآلِ رسـول الله زَيْـنِ المحـافـلِ
لـه رتـبٌ عـالٍ على النـاس كلهـم ... تقـاصَـرُ عنـه سَـورة المتطـاولِ
فـإنّ الذي قـد قيـل ليس بلائـطٍ ... ولكنـه قـول امـرىء بِيَ مـاحِـلِ

[الطويل]

وقال قائل من المسلمين في ضرب حسان وصاحبيه في فريتهم على عائشة رضي الله عنها:

لقد ذاق حسانُ الذي كان أهلَه ... وحَمْنة إذا قالوا هَجِيرا ومِسْطَحُ
تعاطَوْا برَجْم الغيب زوجَ نبيّهم ... وسَخْطة ذي العرش الكريم فأتْرحوا
وآذوا رسولَ الله فيها فجُلّلوا ... مخازيَ تبقى عُمِّموها وفضِّحوا
وصُبَّتْ عليهم مُحْصَدات كأنها ... شآبيب قَطْر من ذُرَى المزْن تَسْفَحُ(1)

[الطويل]

وقد ذكر أبو عمر بن عبد البَرّ الحافظ أن قوماً أنكروا أن يكون حسان خاض في الإفك أو جُلد فيه، ورووا عن عائشة ـ رحمها الله ـ أنها برَّأته من ذلك، ثم ذكر عن الزبير بن بَكّار وغيره أن عائشة كانت في الطواف مع أم حكيم بنت خالد بن العاص وابنة عبد الله بن أبي ربيعة، فتذاكرْن حسان فابتدرتاه بالسبّ فقالت لهما عائشة: ابنَ الفُرَيْعة تسبّان! إني لأرجو أن يدخله الله الجنة بذبّه عن النبي ﷺ بلسانه، أليس القائل:

هجوتَ محمداً فأجبتُ عنه ... وعند الله في ذاك الجزاءُ
فإنّ أبي ووالده وعرضي ... لِعِرْض محمدٍ منكم وِقاءُ

[الوافر]

فقالتا لها: أليس ممن لعنه الله في الدنيا والآخرة بما قال فيك؟ قلت: لم يقل شيئاً، ولكنه القائل:

حَصانٌ رزَانٌ ما تُزَنّ بريبة ... وتُصبح غَرْثي من لحوم الغوافلِ
فإن كان ما قد قيل عنيَ قلته ... فلا رفعتْ سوطي إليّ أناملِي

[الطويل]

* * *

(1) المصدر السابق ج2 ص 306 ـ 307.

غزوة الحديبية (١)

وخرج رسول الله ﷺ في ذي القعدة من سنة ست معتمراً لا يريد حرباً، واستنفر العربَ ومن حوله من أهل البوادي من الأعراب ليخرجوا معه، وهو يخشى من قريش الذي صنعوا، أن يَعْرضوا له بحرب أو يصدّوه عن البيت.

فأبطأ عليه كثير من الأعراب، وخرج بمن معه من المهاجرين والأنصار ومن لحق به من العرب، وساق معه الهَدْى وأحْرم بالعمرة ليأمن الناسُ من حربه، وليُعْلم أنه إنما خرج زائراً لهذا البيت ومعظماً له.

حتى إذا كان بعُسْفان لقيه بُسْر بن سفيان الكعبي فقال: يا رسول الله، هذه قريش قد سمعتْ بمسيرك فخرجوا معهم العُوذ المطافيل قد لبسوا جلود النمور وقد نزلوا بذي طُوًى يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبداً، وهذا خالد بن الوليد في خيلهم قد قَدَّموها إلى كُرَاع الغميم. فقال رسول الله ﷺ: «يا ويح قريش! لقد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلّوا بيني وبين سائر العرب فإن هم أصابوني كان الذي أرادوا، وإن أظهرني الله عليهم دَخلوا في الإسلام وافرين، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة؛ فما تظن قريش؟ فوالله / لا أزال أجاهد على الذي ٧٨ أ
بعثني الله به حتى يُظهره الله أو تنفرد هذه السالفة».

ثم قال: من رجل يخرج بنا على غير طريقهم؟ فقال رجل من أسْلم: أنا، فسلك بهم طريقاً وَعْراً أجْرَل بين شعاب، فلما خرجوا منه وقد شق عليهم وأفضوا إلى أرض سهلة عند منقطع الوادي قال رسول الله ﷺ قولوا: نستغفر الله ونتوب إليه. فقالوا ذلك، فقال: والله إنها لَلْحِطَة التي عُرضت على بني إسرائيل فلم يقولوها.

---

(١) المصدر السابق ج٢ ص٣٠٨ - ٣١٦.

فأمر رسول الله ﷺ الناس فقال: اسلكوا ذات اليمين بين ظهري الْحَمص في طريق تخرج على ثنية المرار، فهبط الْحُدَيْبية من أسفل مكة. فسلك الجيش ذلك الطريق، فلما رأت خيل قريش هدة الجيش قد خالفوا عن طريقهم وكفوا راجعين إلى قريش، وخرج رسول الله ـ ﷺ ـ حتى إذا سلك في ثنية المزار بركت ناقته، فقال الناس: خلأت. فقال: ما خلأت، وما هو لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة. لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسلون فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها، ثم قال للناس: انزلوا. قيل: يا رسول الله ما بالوادي ماء ننزل عليه. فأخرج ﷺ سهماً من كنانته فأعطاه رجلاً من أصحابه، فنزل في قليب من تلك القُلب، فغرزه في جوفه فجاش بالرواء حتى ضرب الناس عنه بعطن.

فلما اطمأن رسول الله ﷺ أتاه بَدِيل بن وَرْقاء في رجال من خُزاعة فكلموه وسألوه ما الذي جاء به، فأخبرهم أنه لم يأت يريد حرباً وإنما جاء زائراً للبيت ومعظماً لحرمته، ثم قال لهم نحوا مما قال لبُسْر بن سفيان، فرجعوا إلى قريش فقالوا: إنكم تَعْجلون على محمد، إن محمداً لم يأت لقتال إنما جاء زائراً لهذا البيت. فاتهموهم وجَبَّهوهم وقالوا: إن كان جاء ولا يريد قتالاً فوالله لا يدخلها علينا عَنْوة أبد ولا تحدّث بذلك عنا العرب. ثم بعثوا إليه مِكْرَز بن حفص بن الأخْيفَ أخا بني عامر بن لؤي، فلما رآه رسول الله ﷺ مقبلاً قال: هذا رجل غادر. فلما انتهى إليه وكلمه قال له رسول الله ﷺ نحوا مما قال لبديل وأصحابه. فرجع إلى قريش فأخبرهم. ثم بعثوا إليه الحُلَيْس بن علقمة أو ابن زَبّان، أحد بني الحارث بن عبد مناة بن كنانة ـ وكان يومئذ سيد الأحابيش ـ فلما رآه رسول الله ﷺ قال: إن هذا من قوم يتألّهون فابعثوا الهَدْي في وجهه حتى يراه. فلما رأى الهدى يسيل عليه من عرض الوادي في قلائده قد أكل أوباره من طول الحبس عن محله، رجع إلى قريش ولم يصل إلى رسول الله ﷺ إعظاماً لما رأى؛ فقال لهم ذلك، فقالوا له: اجلس. فإنما أنت أعرابي لا علم لك؛ فغضب الحليس عند ذلك وقال: يا معشر القوم، والله ما على هذا حالَفْناكم وما على هذا عاقَدْناكم، أيُصَدّ عن بيت الله من جاء معظماً له؟! والذي نفس الحليس بيده

لتُخلّن بين محمد وبين ما جاء له أو لأنفرنّ بالأحابيش نفرةَ رجل واحد. فقالوا له: كفّ عنا يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به.

ثم بعثوا إلى رسول الله ﷺ عروة بن مسعود الثقفي فقال: يا معشر قريش إني قد رأيتُ ما يلقي منكم من بعثتموه إلى محمد إذا جاءكم من التعنيف وسوء اللفظ، وقد عرفت أنكم والد وأني ولد - وكان لسُبَيْعة بنت عبد شمس - وقد سمعتُ بالذي نابَكم فجمعتُ من أطاعني من قومي ثم جئتكم حتى آسَيْتكم بنفسي. قالوا: صدقتَ ما أنت عندنا بمتهم. فخرج حتى أتى رسولَ الله ﷺ فجلس بين يديه ثم قال: يا محمد، أجمعتَ أوْشاب الناسِ ثم جئت إلى بيتك لتفضّها بهم؟! إنها قريش قد خرجت معها العُوذ المطافيل قد لبسوا جلودَ النمور يعاهدون الله لا تَدْخلها عليهم عَنْوة أبداً، وأيم الله لكأني بهؤلاء قد انكشفوا عنك. فردّ عليه أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - وقال: أنحن ننكشف عنه! ثم جعل عروة يتناول لحية رسول الله ﷺ وهو يكلمه والمغيرة بن شُعبة واقف على رأس رسول الله ﷺ في الحديد، فجعل يَقْرع يده إذا فعل ذلك ويقول: اكفف يدك عن وجه رسول الله ﷺ قبل أن لا تصل إليك. فيقول عروة: ويحك ما أفظَّك وأَغْلظك. فتبسم رسول الله ﷺ. فقال: من هذا يا محمد؟ قال: هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة. قال: أي غُدَر هل غسلتَ سَوءتَك إلا بالأمس! يريد أن المغيرة كان قتل قبل إسلامه ثلاثة عشر رجلاً من ثَقِيف فتهايَج الحيّان من ثقيف بنو مالك رهط المقتولين والأحلافُ رهط المغيرة، فودَى عروةُ المقتولين ثلاث(١) عشرة دية وأصلح ذلك الأمر.

وكلّم رسولُ الله ﷺ عروةَ بنحو مما كلم به أصحابَه، وأخبره أنه لم يأت يريد حرباً، فقام من عنده وقد رأى ما يصنع به أصحابه، لا يتوضأُ إلا ابتدروا وضوءه، ولا يبصق بصاقاً إلا ابتدروه ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه، فرجع إلى قريش فقال: يا معشر قريش، إني قد جئتُ كسرى في مُلْكة

---

١) في الأصل: «ثلاثة عشر».

وقيصر في مُلكه والنجاشي في ملكه، وإني والله ما رأيت ملكاً في قوم قط مثل محمد في أصحابه! ولقد رأيت قومًا لا يُسْلمونه لشيء أبداً فروْا رأيكم.

ودعا رسول الله ﷺ خِراش بن أمية الخزاعي فحمله على بعير له وبعثه إلى قريش ليبلّغ أشرافهم عنه ما جاء له، فعقروا به الجملَ وأرادوا قتله فمنعته الاحابيش، فخلّوا سبيله حتى أتى رسولَ الله ﷺ.

وبعثت قريش أربعين رجلاً أو خمسين وأمروهم أن يُطيفوا بعسكر رسول الله ﷺ ليصيبوا لهم من أصحابه أحداً، فأُخذوا أخذاً، فأتى بهم رسول الله ﷺ فخلّى سبيلهم.

ثم دعا عمرَ بن الخطاب ليبعثه إلى مكة فيبلغ عنه أشراف قريش ما جاء له فقال: يا رسول الله، إني أخاف قريشاً على نفسي، وليس بمكة من بني عديّ بن كعب أحد يمنعني، وقد عرفت قريشٌ عداوتي إياها وغِلظتي عليها، ولكني أدلك على رجل أعزّ بها مني: عثمان بن عفان.

٧٨ ب فدعا رسولُ الله صلى الله / عليه وسلم عثمانَ فبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب وأنه إنما جاء زائراً لهذا البيت ومعظِّماً لحرمته؛ فخرج عثمان إلى مكة فلقيه أبان بن سعيد بن العاص حين دخل مكة أو قبل أن يدخلها فحمله بين يديه ثم أجاره.

وقال له فيما ذكره غير ابن إسحاق: أقبلْ وأدبر ولا تخف أحداً بنو سعيد أعزّة الحَرِم.

فانطلق عثمانُ حتى أتى أبا سفيان وعظماءَ قريش فبلغهم عن رسول الله ﷺ ما أرسله به، فقالوا له حين فرغ: إن شئت أن تطوف بالبيت فطفْ. قال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ. فاحتبسته قريش عندها، فبلغ رسول الله ﷺ والمسلمين أن عثمان قد قُتل، فقال حين بلغه ذلك: لا نَبْرح حتى نناجز القوم.

ودعا رسول الله ﷺ الناسَ إلى البيعة، فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة،

فكان الناس يقولون: بايَعهم على الموت. وكان جابر يقول: بايعنا على ألاّ نفرّ.

فبايع رسول الله ﷺ الناس ولم يتخلف عنه أحد من المسلمين حضرها إلا الجدّ بن قيس لصق بإبط ناقته يستتر بها من الناس.

ثم أتى رسول الله ﷺ أن الذي كان من أمر عثمان باطل. وقد كان رسول الله ﷺ بايع لعثمان: ضرب بإحدى يديه على الأخرى وقال: هذه يد عثمان.

ثم[1] بعثت قريش سهيل بن عمرو وقالوا: إيت محمداً فصالحه ولا يكون في صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا، فوالله لا تحدِّث العرب أنه دخلها علينا عَنْوة أبداً.

فأتى سهيل، فلما رآه رسول الله ﷺ مقبلاً قال: قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل.

فلما انتهى إليه سهيل تكلم فأطال الكلام وتراجعا، ثم جرى بينهما الصلح.

فلما التأم الأمرُ ولم يبق إلا الكتاب وثب عمر بن الخطاب فأتى أبا بكر فقال: يا أبا بكر، أليس برسول الله؟ قال: بلى. قال: أولسنا بالمسلمين؟ قال: بلى. قال: أوليسوا بالمشركين؟ قال: بلى. قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا! قال أبو بكر: يا عمر، الزم غَرْزه فإني أشهد أنه رسول الله. قال عمر: وأنا أشهد أنه رسول الله.

ثم أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، ألست برسول الله؟ قال: بلى. قال: أولسنا بالمسلمين؟ قال: بلى. قال: أو ليسوا بالمشركين؟ قال: بلى. قال: فعلام نعطي الدنّية في ديننا؟! قال: «أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمرَه ولن يضيعني». فكان عمر يقول: مازلت أتصدق وأصوم وأصلي وأعتق من الذي صنعتُ ـ يومئذ ـ مخافة كلامي الذي تكلمت به حين رجوت أنه يكون خيراً. ثم دعا رسولُ الله ﷺ عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه فقال اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، فقال سهيل بن عمرو: لا أعرف هذا، ولكن اكتب: باسمك

(١) المصدر السابق ج٢ ص ٣١٦ ـ ٣١٩.

اللهم. فقال رسول الله ﷺ: اكتب باسمك اللهم. فكتبها ثم قال: اكتب: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيلَ بن عمرو. فقال سهيل: لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك، ولكن اكتب اسمك واسمَ أبيك. فقال رسول الله ﷺ اكتب: «هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيلَ بن عمرو. اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين، يأمن فيهن الناس ويكفُّ بعضهم عن بعض، على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردّوه عليه، وأن بيننا عَيْبة مكفوفة، وأنه لا إسْلال ولا إغلال، وأنه من أحب أن يدخل في عَقْد محمد وعهْده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه».

فتواثبت خزاعةُ فقالوا: نحن في عقد محمد وعهده. وتواثبت بنو بكر فقالوا: نحن في عقد قريش وعهدهم.

«وأنك ترجع عنا عامك هذا فلا تدخل علينا مكة، وأنه إذا كان عام قابل خرجنا عنها فدخلتها بأصحابك فأقمت بها ثلاثاً معك سلاحُ الراكب: السيوف في القُرب لا تدخلها بغيرها».

فبينا رسول الله ﷺ يكتب الكتاب هو وسهيل بن عمرو إذ جاء أبو جَنْدل ابن عمرو يَرْسُف في الحديد قد انفلت إلى رسول الله ﷺ.

وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ خرجوا وهم لا يشكّون في الفتح لرؤيا رآها رسول الله ﷺ، فلما رأوا ما رأوا من الصلح والرجوع وما يحمل عليه رسول الله ﷺ في نفسه دخل الناسَ من ذلك أمرٌ عظيم حتى كادوا يهلكون.

فلما رأى سهيلٌ أبا جندل قام إليه فضرب وجهه وأخذ بتَلْبيبه ثم قال: يا محمد، قد لجت القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا. قال: صدقت. فجعل ينْتره بتَلْبيبه ويجرّه ليردّه إلى قريش، وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته: يا معشر المسلمين، أُرَدّ إلى المشركين يفتنوني في ديني؟! فزاد الناسَ ذلك إلى ما بهم.

فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا جندل اصبر واحتسب، فإن الله جاعلٌ لك

ولمن معك من المسلمين فرجاً ومَخْرجاً، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صُلحا وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله، وإنا لا نغدرهم».

فوثب عمرُ بن الخطاب مع أبي جندل يمشي إلى جنبه ويقول: اصبر يا أبا جندل، فإنما هم المشركون وإنما دمُ أحدهم دمُ كلب! ـ ويُدْني قائم السيف منه ـ يقول عمر: رجوتُ أن يأخذ السيفَ فيضرب به أباه، فضنّ الرجل بأبيه ونفذت القضية.

فلما فرغ من الكتاب أشهد رجالاً من المسلمين ورجالاً من المشركين، أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن سُهيل بن عمرو، وسعد بن أبي وقاص ومحمود بن مَسْلمة، ومِكْرز بن حفص وهو مشرك وعلي بن أبي طالب وهو كان كاتب الصحيفة.

وكان رسول الله ﷺ مُضْطَرِباً في الحل وكان يصلي في الحرَم، فلما فرغ من الصلح قام إلى هَدْيه فنحره ثم جلس فحلق رأسه وأهدى عامئذ في هداياه جَملاً لأبي جهل في رأسه بُرَةَ من فضة ليغيظ بذلك المشركين. فلما رآه الناس قد نحر وحلق تواثبوا ينحرون ويحلقون، وكان فيهم ـ يومئذٍ ـ من قصَّر فقال رسول الله
٧٩ أ / ﷺ: يرحم الله المحلِّقين. قالوا: والمقصِّرين يا رسول الله؟ قال: يرحم الله المحلقين. قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ قال: يرحم الله المحلقين. قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ قال: والمقصرين. فقالوا: يا رسول الله، فلم ظاهرتَ الترحيم للمحلقين دون المقصّرين؟ قال: لم يشكُّوا(١).

ثم(٢) انصرف رسول الله ﷺ من وجهه ذلك قافلاً، حتى إذا كان بين مكة والمدينة نزلت سورة الفتح: **﴿إنا فتَحْنا لك فتحاً مُبيناً. ليغفر لك اللهُ ما تقدّم من ذَنْبك وما تأخرّ ويتمّ نعمته عليك ويَهديك صراطاً مُستقيماً﴾**.

ثم ذكر القصة فيه وفي أصحابه، حتى إذا انتهى إلى ذكر البيعة فقال: ﴿إنّ

---

(١) المصدر السابق ج٢ ص ٣١٩.
(٢) نفسه ج ٢ ص ٣٢٠ ـ ٣٢٢.

الذين يُبَايعونك إنما يُبَايعون الله يدُ الله فوق أيديهم، فمن نَكث فإنما يَنْكث على نفسه ومَنْ أَوْفى بما عاهَد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً﴾. ثم ذكر من تخلّف عنهم من الأعراب فاستوفى قصتهم. ثم قال: ﴿لقد رَضي الله عن المؤمنين إذْ يُبَايعونك تحت الشجرة فَعلِم ما في قُلوبهم فأنزَل السَّكِينَة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً ومَغَانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزاً حَكِيماً، وعدكم الله مغانم كثيرةً تأخذونها فعجل لكم هذه وكفَّ أيديَ الناسِ عنكم ولتكون آيةً للمؤمنين ويهديكم صراطاً مُسْتقيماً وأُخْرى لَمْ تَقْدروا عليها قد أَحاط الله بها وكان الله على كل شيء قديراً﴾. ثم قال: ﴿وهو الذي كفَّ أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أنْ أظفركم عليهم وكان الله بما تعملون بَصِيراً﴾، يعني النفر الذين وجهت قريش بهم ليصيبوا من أصحاب رسول الله ﷺ أحداً فلم ينالوا شيئاً وأخِذوا لرسول الله ﷺ بجملتهم وسيقوا إليه فخلَى سبيلهم.

ثم قال بعد: ﴿إذ جَعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية﴾ يعني سهيل بن عمرو حين حَمِي أن يكتب: بسم الله الرحمن الرحيم. وأن محمدا رسول الله: ﴿فأنزَل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأَلْزمهم كلمة التقوى وكانوا أحقَّ بها وأهلَها﴾، أي التوحيد: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله.

ثم قال: ﴿لقد صدَق الله رسولَه الرؤيا بالحق لتَدْخُلنَّ المسجدَ الحرامَ إن شاء الله آمنين محلِّقِين رءوسكم ومقصِّرين لا تخافون فعَلِم ما لم تَعْلموا﴾ أي لرؤيا رسول الله ﷺ التي رأى أنه سيدخل مكة آمناً لا يخاف. وقد قال لرسول الله ﷺ لما قدِم المدينة بعضُ من كان معه: ألم تقل يا رسول الله أنك تدخل مكة آمناً؟ قال: بلى، قال: أفقلت لكمُ مِن عامي هذا؟ قالوا: لا. قال: فهو كما قال لي جبريل فحقق له سبحانه من مَوْعده ما أنجزه له بعد وصدَّقه بقوله جل قوله: ﴿لتَدْخُلن المسجدَ الحرامَ إنْ شاء الله آمِنين محلِّقين رءوسكم ومقصِّرين﴾ معه ﴿فعَلِم ما لم تَعْلموا فجعل من دُونِ ذلك فتحاً قَرِيباً﴾ صلح الحديبية(١).

(١) راجع: البخاري. الصحيح ج٣ ص١٧٨ - ١٨٣، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط.

يقول الزُّهْري: فما فُتح في الإسلام فتحٌ قبله كان أعظمَ منه، إنما كان القتال حيث التقى الناس، فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب وأمِن الناسُ كلهم بعضهم بعضاً والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة، فلم يكَلّم أحد بالإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه، فلقد دخل في تَيْنك السنتين مثلُ من كان في الإسلام قبل ذلك وأكثر.

قال ابن هشام: والدليل على ما قال الزهري أن رسول الله ﷺ خرج إلى الحديبية في ألف وأربعمائة في قول جابر بن عبدالله ثم خرج عام فتح مكة بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف.

وذكر ابن عُقْبة أنه لما كان صلح الحديبية قال رجال من أصحاب رسول الله ﷺ: ما هذا بفتح، لقد صُدِدْنا عن البيت وصُدّ هَدْينا. فبلغ رسولَ الله ﷺ قول أولئك فقال: بئس الكلام هذا، بل هو أعظم الفتوح، قد رضي المشركون أن يدفعوكم بالراح عن بلادهم ويسألوكم القضية ويرغبوا إليكم في الأمان، وقد رأوا منكم ما كرهوا وأظفركم الله عليهم وردّكم سالمين مأجورين، فَهو أعظم الفتوح، أتَنْسون يومَ أُحد إذ تُصْعدون ولا تَلْوون على أحد وأنا أدعوكم في أخْراكم؟!

أنسيتم يومَ الأحزاب إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوبُ الحناجر وتظنون بالله الظنونا؟ فقال المسلمون: صدق الله ورسوله فهو أعظم الفتوح، والله ما فكرنا فيما فكرت فيه، ولأنت أعلم بالله وأمره منا.

وفي الصحيح من حديث سهل بن حُنَيْف أنه قال يوم صِفّين: يا أيها الناس اتهموا رأيكم على دينكم، فلقد رأيتني يوم أبي جندل ولو أستطيع أن أردّ أمرَ رسول الله ﷺ لردَدْته والله ورسوله أعلم.

وخرَّج البخاري من حديث البرَاء بن عازب قال: تعدّون أنتم الفتح فتح مكة وقد كان فتح مكة فتحاً، ونحن نعدّ الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية، كنا مع

رسول الله ﷺ أربع عشرة مائة والحديبية بئر، فنزحناها فلم نترك فيها قطرة، فبلغ ذلك النبيّ ﷺ فأتاها فجلس على شَفيرها ثم دعا بإناء من ماء فتوضأ ثم مضمض ودعا ثم صبه فيها فتركناها غير بعيد، ثم إنها أصْدَرتْنا ما شئنا نحن ورِكابنا(١).

وعن سالم بن أبي الجَعْد عن جابر بن عبد الله قال: عطش الناسُ يومَ الحديبية ورسول الله ﷺ بين يديه رَكْوة فتوضأ منها ثم أقبل الناسُ نحوه فقالوا: يا رسول الله، ليس عندنا ماء نتوضأ به ولا نشرب إلا ما في ركْوتك. قال: فوضع النبي ﷺ يده في الركوة فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون. قال: فشربنا وتوضأنا؛ فقلت لجابر كم كنتم يومئذ؟ قال: لو كنا مائة ألف لكفانا، كنا خمس عشرة مائة(٢).

وذكر ابن عُقْبة عن ابن عباس قال: لما رجع رسول الله ﷺ من الحديبية كلمه بعض أصحابه فقالوا: جهدْنا وفي الناس ظَهْر فانحره لنا فلنأكل من لحومه ولندّهن من شحومه ولنَحْتذِ من جلوده. فقال عمر: لا تفعل يا رسول الله، فإن الناس إن يكن فيهم بقية ظهر أمْثَل. فقال رسول الله ﷺ: ابسطوا أنطاعكم وعَباءكم ففعلوا، [ثم قال: من كان عنده بقية من زاد وطعام فلينثره ودعا لهم]، ثم قال لهم: قرّبوا أوعيتكم. فأخذوا ما شاءوا(٣).

---

(١) البخاري. الصحيح ج٥ ص ٦٢ كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية.

(٢) الحديث عن نبع الماء من بين أصابع النبي ﷺ وانبجاسه وتدفقه وفورانه متعدد المواضع لتكرر حدوثه، وهو محكي في البخاري. الصحيح ج١ ص ٨٩، ١٠٠، ١٠٢ (كتاب الوضوء)، ج٥ ص ٣٥ - ٣٦، ٣٨، (كتاب المناقب)، ج٥ ص ٢٦٠ - (باب غزوة الحديبية)، مسلم. الجامع الصحيح ج٢ ص ١٣٨ - ١٤١ (كتاب المساجد، باب قضاء الصلاة الفائتة واستحباب تعجيل قضائها)، ج٧ ص ٥٩ (كتاب الفضائل، باب معجزات النبي ﷺ)، ج٨ ص٢٣٥ - ٢٣٦ (كتاب الزهد والرقائق، حديث جابر الطويل وقصة أبي اليسر).
وراجع: ابن جماعة. المختصر الصغير ص ٦٠.

(٣) راجع: الذهبي. تاريخ الإسلام/ المغازي ص ٣٧٩، ابن كثير. الفصول في سيرة الرسول ص ٢٣٣ - ٢٣٤.

قال ابن إسحاق[1]: ولما قدِم رسول الله ﷺ المدينة ـ يعني من الحديبية ـ أتاه أبو بصير عتبة بن أسيد بن حارثة ـ وكان ممن حُبس بمكة ـ فكتب فيه أزْهر بن عبد عوف والأخنس بن شَرِيق إلى رسول الله ﷺ وبعثا رجلاً من بني عامر/ بن لؤيّ ومعه مولى لهم، فقدما على رسول الله ﷺ بالكتاب، فقال ﷺ: «يا أبا بَصير، إنّا قد أعطينا هؤلاء القومَ ما قد علمتَ ولا يصلحُ لنا في دِيننا الغدْر، وإن الله جاعلٌ لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومَخْرجاً». ٧٩ ب

فانطلق معهما حتى إذا كان بذي الْحُلَيْفة جلس إلى جدار وجلس معه صاحباه، فقال أبو بصير. أصارمٌ سيفك هذا يا أخا بني عامر؟ فقال: نعم. قال أنظر إليه [قال:] إن شئت، فاستلّه أبو بصير ثم علاه به حتى قتله.

وذكر ابن عقبة أن الرجل هو الذي سلّ سيفه ثم هَزّه فقال: لأضربنّ بسيفي هذا في الأوس والخزرج يوماً إلى الليل، فقال له أبو بصير: وصارمٌ سيفك هذا؟ فقال: نعم. فقال: ناولنيه أنظر إليه؛ فناوله إياه، فلما قبض عليه ضربه به حتى بَرد. قال: ويقال: بل تناول أبو بصير سيف الرجل بفيه وهو نائم فقطع إساره ثم ضربه به حتى برد، وطلب الآخر، فجمز مرعوباً مستخفياً حتى دخل المسجدَ ورسولُ الله ﷺ جالس فيه يُطنّ الحصباء من شدة سعيه، فقال رسول الله ﷺ حين رآه: لقد رأى هذا ذُعْراً. قال ابن إسحاق: فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ قال: ويحك مالك؟ قال: قتل صاحبُكم صاحبي.

فوالله ما برح حتى طلع أبو بصير متوشّحاً السيف فقال: يا رسول الله، وفَتْ ذِمتك وأدّى الله عنك، أسلَمْتَني بيد القوم وقد امتنعتُ بديني أن أُفتن فيه أو يُعبث بي. فقال رسول الله ﷺ: «وَيْلِمّه مِحَشّ حرب لو كان معه رجال»!.

ثم خرج أبو بصير حتى نزل العِيصَ من ناحية المرْوَة على ساحل البحر بطريق قريش التي كانوا يأخذون إلى الشام، وبلغ المسلمين الذين كانوا احتبسوا بمكة قولُ رسول الله ﷺ لأبي بصير: «وَيْلمه مِحَش حرب لو كان معه رجال» فخرجوا إلى أبي بصير بالعيص، فاجتمع إليه قريب من سبعين رجلاً منهم.

---

(١) ابن هشام. السيرة ج ٢ ص ٣٢٣ ـ ٣٢٥.

وذكر موسى بن عُقْبة أن أبا جَنُدل بن سُهَيْل بن عمرو الذي رُدّ على قريش مُكْرها يوم القضية هو الذي انفلت في سبعين راكباً أسلموا وهاجروا فلحقوا بأبي بصير وكرهوا الثواء بين أظهر قومهم، فنزلوا مع أبي بصير في منزل كريه إلى قريش فقطعوا مادّتهم من طريق الشام. قال: وكان أبو بصير ـ زعموا ـ وهو في مكانه ذلك يصلي لأصحابه، فلما قدم عليهم أبو جندل كان هو يؤمّهم.

واجتمع إلى أبي جندل ناسٌ من غِفار وأسْلَم وجُهَيْنه وطوائف من العرب حتى بلغوا ثلاثمائة مقاتل وهم مسلمون، فأقاموا مع أبي جندل وأبي بصير، لا يمرُّ بهم عِير لقريش إلا أخذوها وقتلوا أصحابها. وقال في ذلك أبو جندل فيما ذكره غير ابن عقبة:

أبلغْ قريشاً عن أبي جَنْدلِ ... أنّا بذي المرْوة بالساحلِ
في معشر تخْفق أيمانهم ... بالبيض فيها والقنا الذابلِ
يأبَوْن أن يبقى لهم رفقة ... من بعد إسلامهم الواصلِ
أو يجعل الله لهم مَخْرجا ... والحق لا يُغلب بالباطلِ
فيَسْلم المرء بإسلامه ... أو يُقتل المرء ولم يأتلِ

[السريع]

فأرسلت قريش إلى رسول الله ﷺ أبا سفيان بن حرب يسألونه ويتضرعون إليه أن يبعث إلى أبي بصير وإلى أبي جندل بن سُهَيْل ومن معهم فيقدموا عليه وقالوا: من خرج منا إليك فأمسكه في غير حَرج، فإنّ هؤلاء الركب قد فتحوا علينا بابا لا يصلح إقراره.

فلما كان ذلك من أمرهم علم الذين كانوا أشاروا على رسول الله ﷺ أن يمنع أبا جندل من أبيه بعد القضية أن طاعة رسول الله خير فيما أحبوا وفيما كرهوا، وأن رأيه أفضل من رأيهم ومِنْ رأي من ظن أن له قوة ورأياً، وعلم أن ما خصّ الله به نبيه من العون والكرامة أفضل.

وكتب رسول الله ﷺ إلى أبي جندل وأبي بصير يأمرهم أن يقدموا عليه ويأمر من

معهما من المسلمين أن يرجعوا إلى بلادهم وأهليهم ولا يَعْرضوا لأحد مرّ بهم من قريش وعيراتها، فقدم كتابُ رسول الله ﷺ - زعموا - على أبي جندل وأبي بَصير وأبو بصير يموت، فمات وكتاب رسول الله ﷺ في يده يقترئه. فدفنه أبو جندل مكانه وجعل عند قبره مسجداً.

وقدم أبو جندل على رسول الله ﷺ معه أناس من أصحابه ورجع سائرهم إلى أهليهم وأمنت عيرات قريش.

فلم يزل أبو جَنْدل مع رسول الله ﷺ وشهد ما أدرك من المشاهد بعد ذلك وشهد الفتح، ورجع مع رسول الله ﷺ فلم يزل معه بالمدينة حتى توفى صلوات الله عليه وسلامه وقدم أبوه سهيل بن عمرو المدينة أول إمارة عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - فمكث بها أشهراً ثم خرج مجاهداً إلى الشام وخرج معه ابنه أبو جندل، فلم يزالا مجاهدين حتى ماتا جميعاً هناك، يرحمهما الله.

وهاجرت[1] إلى رسول الله ﷺ في تلك المدة أم كلثوم بنت عقبة بن أبي مُعَيْط، فخرج أخواها عمارة والوليد ابنا عقبة حتى قدما على رسول الله ﷺ يسألانه أن يردّها عليهما بالعهد الذي بينه وبين قريش في الحديبية، فلم يفعل، أبى الله ذلك وأنزل فيه على رسوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمناتُ مهاجراتٍ فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن، فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفّار لاهن حِلٌّ لهم ولا هُمْ يَحِلُّون لهن، وآتوهم ما أنفقوا، ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتموهن أجورهن ولا تمسكوا بعصَم الكوافر واسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا، ذلكم حكم الله يحكم بينكم والله عليم حكيم﴾ [الممتحنة: ٩ - ١٠].

* * *

(١) ابن هشام. السيرة ج ٢ ص ٣٢٥ - ٣٢٧.

غزوة خيبر[1]

ولما قدم رسولُ الله ﷺ المدينة من الحديبية مكث بها ذا الحجة مُنْسلخ سنة ست، وبعض المحرم من سنة سبع.

ثم خرج في بقية منه إلى خيبر غازياً.

وكان الله وعده إياها وهو بالحديبية بقوله عز من قائل: ﴿وعدكم الله مَغانمَ كثيرة تأخذونها فعجّل لكم هذه﴾ [الفتح: ٢٠] يعني بالمعجل صلح الحديبية، والمغانم الموعود بها فتح خيبر.

فخرج إليها رسول الله ﷺ مستنجزاً ميعاد ربه وواثقاً بكفايته ونصره،
٨٠ أ ودفع الراية إلى علي بن / أبي طالب ـ وكانت بيضاء ـ فسلك على عِصْر فبني له فيها مسجداً، ثم على الصهباء. ثم أقبل بجيشه حتى نزل به بواد يقال له الرَّجيع فنزل بينهم وبين غطفان ليحول بينهم وبين أن يمدّوا أهل خيبر وكانوا لهم مظاهرين على رسول الله ﷺ، فذكر أن غطفان لما سمعت بمنزله من خيبر جمعوا ثم خرجوا ليظاهروا يهود عليه حتى إذا ساروا مَنْقلة سمعوا خلفهم في أموالهم وأهليهم حسًّا ظنوا أن القوم قد خالفوا إليهم، فرجعوا على أعقابهم فأقاموا في أهليهم وأموالهم وخلوا بين رسول الله ﷺ وخيبر.

قال أبو معتب بن عمرو[2]: لما أشرف رسول الله ﷺ على خيبر قال لأصحابه وأنا فيهم: قفوا. ثم قال: «اللهم ربّ السموات السبع وما أظللن، ورب الأرضين السبع وما أَقْلَلْن، ورب الشياطين وما أضْلَلْن، ورب الرياح وما أَذْرَيْن، فإنا نسألك

(١) المصدر السابق ج٢ ص٣٢٩ - ٢٣٠.
(٢) نفسه ج ٢ ص ٣٢٩.

خيرَ هذه القرية وخير أهلها وخير ما فيها، ونعوذ بك من شرّها وشر أهلها وشر ما فيها » ثم قال: « أقدموا بسم الله». قال: وكان يقولها لكل قرية دخلها.

وقال أنس بن مالك[1]: كان رسول الله ﷺ إذا غزا قوماً لم يُغرْ عليهم حتى يصبح، فإن سمع أذاناً أمسك وإن لم يسمع أذاناً أغار، فنزلنا خيبر ليلاً، فبات رسول الله ﷺ حتى إذا أصبح لم يسمع أذاناً فركب وركبنا معه، فركبت خلف أبي طلحة وإن قدمي لتمسّ قدَم رسول الله ﷺ واستقبلنا عمال خيبر غادِين قد خرجوا بمساحيهم ومكاتلهم، فلما رأوا رسول الله ﷺ والجيش قالوا: محمد والخميس معه. فأدبروا هراباً، فقال رسول الله ﷺ: «الله أكبر، خربت خيبر! إنا إذا نزلنا بساحة قوم ٍ فساء صباحُ المنذرين»[2].

قال ابن إسحاق[3]: وتدنّي رسول الله ﷺ الأموالَ يأخذها مالاً مالاً ويفتحها حصناً حصناً، فكان أول حصونهم افتتح حصن ناعم، وعنده قُتل محمود بن مَسْلمة، أُلقيت عليه رحىً منه فقتلته، ثم القموص حصن أبي الحقيق، وأصاب رسول الله ﷺ منهم سبايا منهن صفية بنت حُيَيّ بن أخطب، وكانت عند كنانة بن الربيع بن أبي الحُقَيْق وبنتي عم لها، فاصطفى صفية لنفسه بعد أن سأله إياها دِحْية بن خليفة الكلبي، فلما اصطفاها لنفسه أعطاه ابنتي عمها، وكان بلال هو الذي جاء بصفية وبأخرى معها فمرّ بهما على قتلى من قتلى يهود، فلما رأتهم التي مع صفية صاحت وصكّت وجهها وحثت التراب على رأسها، فلما رآها رسول الله ﷺ قال: أغربوا عني هذه الشيطانة، وأمر بصفية فحِيزتْ خلفه وألقى عليها رداؤه، فعرف المسلمون أنه قد اصطفاها لنفسه، فذكر أن رسول الله ﷺ قال لبلال حين رأى بتلك اليهودية ما رأى: «أنُزعت منك الرحمة يا بلال حين تمرّ بامرأتين على قتلى رجالهما؟!»

وكانت صفية قد رأت في المنام وهي عروس بكنانة بن الربيع بن أبي

---

(١) المصدر السابق ج٢ ص ٣٢٩ - ٣٣٠.

(٢) البخاري. الصحيح ج٤ ص٥ (كتاب الجهاد والسير، باب دعاء النبي ﷺ إلى الإسلام، ج٥ ص٧٣ (كتاب المغازي، باب غزوة خيبر).

(٣) المصدر السابق ج٢ ص٣٣٠ - ٣٣١.

الحقيق أن قمراً وقع في حجْرها، فعرضت رؤياها على زوجها فقال: ما هذا إلا أنك تمنين ملك الحجاز محمداً! فلطم وجهها لطمة خَضَّر عينها منها. فأتي بها رسول الله ﷺ وبها أثر منه فسألها ما هو فأخبرته الخبر[١].

ولما أعرس بها رسول الله ﷺ بخيبر أو ببعض الطريق وبات بها في قُبة له، بات أبو أيوب الأنصاري متوشحاً السيفَ يحرسه ويطيف بالقبة حتى أصبح رسول الله ﷺ، فلما رأى مكانه قال: ما لك يا أبا أيوب؟ قال: يا رسول الله خِفْت عليك من هذه المرأة، وكانت امرأة قد قتلَت أباها وزوجها وقومها وكانت حديثة عهد بكفر فخفتُها عليك. فزعموا أن رسول الله ﷺ قال: «اللهم احفظ أبا أيوب كما بات يحفظني»[٢].

وأُتي رسول الله ﷺ بكنانة بن الربيع ـ وكان عنده كنز بني النضير ـ فسأله عنه فجحد أن يكون يعلم مكانه، فأتى رسول الله ﷺ برجل من يهود فقال: إني رأيت كنانة يطيف بهذه الخربة كلّ غَداة. فقال رسول الله ﷺ لكنانة: أرأيت إن وجدناه عندك أقتلك؟ قال: نعم. فأمر رسول الله ﷺ بالخربة فحفرت فأخرج منها بعض كنزهم ثم سأله ما بقي فأبى أن يريه، فأمر به الزبير بن العوام فقال: عذِّبه حتى تستأصل ما عنده. فكان الزبير يقدح بزند في صدره حتى أشرف على نفسه ثم دفعه رسول الله ﷺ إلى محمد بن مَسْلمة فضرب عنقه بأخيه محمود بن مسلمة[٣].

وفشت السبايا من خيبر في المسلمين وأكل المسلمون لحومَ الْحُمر من حمرها.

قال ابن عقبة: كانت أرضاً وخيمة شديدة الجهد، فجهد المسلمون جهداً شديداً وأصابتهم مَسْغبة شديدة فوجدوا أحمرة إنسية ليهود لم يكونوا أدخلوها

---

(١) المصدر السابق ج٢ ص ٣٣٦.
(٢) نفسه ج ٢ ص ٣٤٠.
(٣) راجع: الذهبي تاريخ الإسلام/ المغازي ص ٤١٥ ـ ٤٢٠.

الحصن فانتحروها ، ثم وجدوا في أنفسهم من ذلك ، فذكروها لرسول الله ﷺ فنهاهم عن أكلها .

قال أبو سليط فيما ذكر ابن إسحاق: أتانا نَهْي رسول الله ﷺ عن أكل لحوم الحمر الإنسية والقدور تفور بها فكفأناها على وجوهها .

وذكر ـ أيضاً ـ أن رسول الله ﷺ قام ـ يومئذ ـ في الناس فنهاهم عن أمور سماها لهم ، قال مكحول : نهاهم ـ يومئذٍ ـ عن أربع : عن إتيان الحبالى من النساء ، وعن أكل الحمار الأهلي ، وعن أكل كل ذي ناب من السباع ، وعن بيع المغانم حتى تقسم .

وحدَّث جابر بن عبد الله ولم يشهد خيبر: أن رسول الله ﷺ حين نهى الناس عن أكل لحوم الحمر أذن لهم في لحوم الخيل .

وافتتح رُوَيْفِع بن ثابت قرية من قرى المغرب يقال لها: جِرَبة، فقام خطيباً فقال: يا أيها الناس، إني لا أقول لكم إلا ما سمعت من رسول الله ﷺ يقول فينا يوم خيبر، قام فينا فقال:

« لا يحلّ لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يصيب امرأة من السبي حتى يستبرئها، / ولا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يبيع مَغْنما حتى يُقْسم، ٨٠ ب
ولا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يركب دابة من فَيْء المسلمين حتى إذا أعجفها ردَّها فيه، ولا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يلبس ثوباً من فيء المسلمين حتى إذا أخْلَقه رده فيه » .

وقال عبادة بن الصامت : نهانا رسول الله ﷺ يوم خيبر أن نبيع أو نبتاع تِبْر الذهب بالذهب العَيْن ، وتبر الفضة بالورق العين ، وقال : « ابتاعوا تِبْر الذهب بالورق العين ، وتبر الفضة بالذهب العين»(١) .

ولما أصاب المسلمين بخيبر ما أصابهم من الجهد أتى بنو سَهْم من أَسْلم رسولَ الله ﷺ . فقالوا : يا رسول الله ، لقد جُهِدْنا وما بأيدينا من شيء . فلم يجدوا عند رسول الله ﷺ شيئاً يعطيهم إياه، فقال : اللهم إنك قد عرفت حالهم وأن

---

(١) المصدر السابق ج٢ ص ٣٣١ ـ ٣٣٢ .

ليست بهم قوة وأن ليس بيدي شيء أعطيهم إياه فافتح عليهم أعظم حصونها عنهم غناءً وأكثرها طعاماً وودَكا. فغدا الناسُ وفتح الله عليهم حصن الصَّعْب بن معاذ، وما بخيبر كان أكثر طعاماً وودكاً منه.

ولما افتتح رسول الله ﷺ من حصونهم ما افتتح وحاز من الأموال ما حاز انتهوا إلى حصنيهم «الوطيح» و«السّلاَلم» وكانا آخر حصون أهل خيبر افتتاحاً، فحاصرهم رسول الله ﷺ بضع عشرة ليلة، وخرج مَرْحب اليهودي من حصنهم قد جمع سلاحه وهو ينادي: من يبارز، ويرتجز:

قد علمت خيبر أني مَرْحَبُ شاكي السلاح بطل مجرّبُ
أطْعنُ أحياناً وحيناً أضرُب إذا الليوث أقبلت تحرّبُ
إنّ حِمَاي للحمى لا يُقْربُ

[الرجز]

فأجابه كعب بن مالك فقال:

قد علمتْ خيبرُ أني كعبُ مفرِّج الغمَّا جريء صُلْبُ
حيث تشبّ الحربُ ثم الحرب معي حُسامٌ كالعَقِيق عَضْبُ
نطؤكُمُ حتى يَذلّ الصعْبُ نعطي الجزاء أو يُفَاء النهبُ
بكفّ ماضٍ ليس فيه عَتْب

[الرجز]

فقال رسول الله ﷺ: من لهذا؟ قال محمد بن مسْلمة: أنا له يا رسول الله، أنا والله الموتور الثائر، قتل أخي بالأمس. قال: فقم إليه، اللهم أعِنْه عليه. فلما دنا أحدهما من صاحبه دخلت بينهما شجرة عُمْرية من شجر العُشر فجعل أحدهما يلوذ بها من صاحبه، كلما لاذ بها منه اقتطع صاحبه بسيفه ما دونه منها، حتى برز كل واحد منهما لصاحبه وصارت بينهما كالرجل القائِم ما فيها فَنَن، ثم حمل مرحب على محمد بن مسلمة فاتقاه بدَرَقته فوقع سيفه فيها فعضّت به فأمسكته، وضربه محمد بن مسلمة حتى قتله(١).

(١) المصدر السابق ج٢ ص ٣٣٣ ـ ٣٣٤.

ثم خرج بعد مَرْحب أخوه ياسر وهو يقول: من يبارز؟ فخرج إليه الزبير بن العوام، فيما ذكر هشام بن عروة - فقالت أمه صفية بنت عبد المطلب: يقتل ابني يا رسول الله؟ قال: بل ابنك يقتله إن شاء الله. فخرج الزبير فالتقيا فقتله الزبير[1].

وحدَّث سلمة بن عمرو بن الأكوع[2] قال: قال رسول الله ﷺ يومَ خيبر: «لأعطينّ الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله، يفتح الله على يديه، ليس بفرّار» فدعا عليّ بن أبي طالب - رضي الله عنه - وهو أرْمَد فتفل في عيْنيه ثم قال: خذ هذه الراية فامض بها حتى يفتح الله عليك. فخرج وهو يهرول بها هرولةً وإنا لخلْفه نتبع أثره، حتى ركز رايته في رَضْم من حجارة تحت الحصن، فاطلع إليه يهودي من رأس الحصن فقال: من أنت؟ قال: أنا علي بن أبي طالب. قال اليهودي: علوتم وما أُنزل علي موسى - أو كما قال - فما رجع حتى فتح الله على يديه.

وقال أبو رافع[3]، مولى رسول الله ﷺ: خرجنا مع علي - رضي الله عنه - حين بعثه رسول الله ﷺ برايته، فلما دنا من الحصن خرج إليه أهله فقاتلهم فضربه رجل من يهود فطرح ترسه من يده، فتناول عليّ باباً كان عند الحصن فترّس به عن نفسه، فلم يزل في يده وهو يقاتل حتى فتح الله عليه ثم ألقاه من يده حين فرغ، فلقد رأيتني في نفر معي سبعة أنا ثامنهم نجْهد على أنْ نقلب ذلك الباب فما نَقْلبه.

وحدث أبو اليسر كعب بن عمرو[4] قال: إنا لمع رسول الله ﷺ بخيبر ذات عشية إذ أقبلت غنم لرجل من يهود تريد حصنهم ونحن محاصروهم، فقال رسول الله ﷺ. من رجل يُطْعمنا من هذه الغنم؟ فقال أبو اليسر: أنا يا رسول

---

(١) المصدر السابق ج٢ ص٣٣٤.

(٢) نفسه.

(٣) نفسه ج٢ ص٣٣٥.

(٤) نفسه ج ٢ ص ٣٣٥ - ٣٣٦.

الله، قال: فافعل. قال: فخرجت أشتد مثل الظليم، فلما رآني رسول الله ﷺ مولّياً قال: اللهم أمتعْنا به! قال: فأدركتُ الغنم وقد دخلت أُولاها الحصن فأخذت شاتين من أخراها فاحتضنتهما تحت يدي ثم أقبلت بهما أشتد كأنه ليس معي شيء حتى ألقيتهما عند رسول الله ﷺ فذبحوهما فأكلوهما. فكان أبو اليسر من آخر أصحاب رسول الله ﷺ موتاً، فكان إذا حدّث هذا الحديث بكى ثم قال: أُمْتِعوا بي لعَمْري حتى كنت من آخرهم!

وحاصر(1) رسول الله ﷺ أهل خيبر في حصنيهم «الوَطيح» و «السلالم» حتى إذا أيقنوا بالهلكة سألوه أن يسيِّرهم وأن يحقن لهم دماءَهم ففعل. وكان رسول الله ﷺ قد حاز الأموال كلها: الشق ونَطَاة والكتيبة؛ وجميع حصونهم إلا ما كان من ذَيْنك الحصنين، فلما سمع بهم أهل فدَك قد صنعوا ما صنعوا بعثوا إلى رسول الله ﷺ سألوه أن يسيِّرهم وأن يحقن لهم دماءهم ويخلّوا له الأموال ففعل.

فلما نزل أهل خيبر على ذلك سألوا رسول الله ﷺ أن يعاملهم في الأموال على النصف، وقالوا: نحن أعلم بها منكم وأعْمر لها، فصالحهم رسول الله ﷺ على أنا إذا شئنا أن نخرجكم أخرجناكم، فصالحه أهل فَدك على مثل ذلك، فكانت خيبر فيئاً بين المسلمين.

وكانت فدك خالصة لرسول الله ﷺ لأنهم لم يُجلبوا عليها بخيل ولا ركاب.

فلما(2) اطمأن رسول الله ﷺ أهدت له زينب بنت الحارث امرأة سلاَّم بن مشكم شاة مَصْلية. وقد سألت أيّ عضو من الشاة أحبّ إليه؟ فقيل لها: الذراع. فأكثرت فيه من السم. ثم سمَّت سائر الشاة، ثم جاءت بها فلما وضعتها بين يديه
٨١ أ تناول الذراع فلاك منها مضغة فلم يُسغْها ومعه بشر بن البراء بن مَعْرور / قد أخذ منها كما أخذ رسول الله ﷺ، فأما بشر فأساغها وأما رسول الله ﷺ فلفظها

(1) المصدر السابق ج2 ص337.
(2) نفسه ج 2 ص 337 - 338.

ثم قال: إن هذا العظم ليخبرني أنه مسموم. ثم دعا بها فاعترفت. فقال: ما حملك على ذلك؟ قالت: بلغْتَ من قومي ما لم يخفَ عليك فقلت: إن كان مِلكاً استرحت منه؛ وإن كان نبياً فسيخبر. فتجاوز عنها رسول الله ﷺ.

ومات بشر بن البراء من أكلته التي أكل.

وذكر ابن عقبة أن رسول الله ﷺ تناول الكتف من تلك الشاة فانتهش منها وتناول بشر عظماً فانتهش منه؛ فلما اسْترط رسول الله ﷺ لقمته استرط بشر ما في فيه، فقال رسول الله ﷺ: ارفعو أيديكم فإن كتف هذه الشاة يخبرني أني بُغِيتُ فيها. فقال بشر بن البراء: والذي أكرمك لقد وجدت ذلك في أكلتي التي أَكلت فما منعني أن ألفظها إلا أني أعظمت أن أنغصك طعامك، فلما أسغْتَ ما في فيك لم أكن أرغب بنفسي عن نفسك، ورجوت أن لا تكون استرطتها وفيها بَغيٌ.

فلم يقم بشر من مكانه حتى عاد لونه مثل الطيلسان وماطله وجعه حتى كان لا يتحول إلا ما حوِّل.

قال جابر بن عبد الله: واحتجم رسول الله ﷺ - يومئذ - على الكاهل، حجمه أبو طَيْبة مولى بني بياضة. وبقي رسول الله ﷺ بعده ثلاث سنين حتى كان وجعه الذي توفي منه، فدخلت عليه أم بشر، بنت البراء بن معرور تعوده فيها ذكر ابن إسحاق فقال لها: يا أم بشر: إن هذا لأوان وجدتُ انقطاع أَبْهري من الأكلة التي أكلت مع أخيك بخيبر(١).

قال: فإن كان المسلمون ليرون أن رسول الله ﷺ مات شهيداً مع ما أكرمه الله من النبوة.

---

(١) راجع: البخاري. الصحيح ج٤ ص ٢١٢ (كتاب الجزية، باب إذا غدر المشركون هل يعفى عنهم)، ج٥ ص ٢٩٠ (كتاب المغازي، باب الشاة التي سمت للنبي ﷺ بخيبر)، ج٧ ص ٥٥ (كتاب الطب، باب ما يذكر في سم النبي ﷺ)، أبا داود. السنن ج٢ ص ٢٥٠ ح ٣٧٨١؛ (كتاب الأطعمة، باب أكل اللحم)، ابن حزم. جوامع السيرة ص ١٥، البيهقي. دلائل النبوة ج٤ ص ٢٥٦ - ٢٦٤، ابن العربي. اختصار سيرة الرسول ق٦٦، ابن سيد الناس. عيون الأثر ج٢ ص ٢٨٧، ابن كثير. البداية والنهاية ج٤ ص ٢٠٨ - ٢١١، السيوطي. تخريج أحاديث شرح المواقف ص ٤٣.

ولما فرغ رسول الله ﷺ من خيبر انصرف إلى وادي القُرَى فحاصر أهله ليالي ثم انصرف راجعاً إلى المدينة.

قال أبو هريرة: لما انصرفنا مع رسول الله ﷺ عن خيبر إلى وادي القرى نزلناها أُصُلاً مع مغرب الشمس، ومع رسول الله ﷺ غلام أهداه له رفاعة بن زيد الجُذَامي ثم الضُّبَيْبيَ، فوالله إنه ليضع رَحْلَ رسول الله ﷺ إذ أتاه سَهْمُ غَرْبٍ فأصابه فقتله، فقلنا: هنيئاً له الجنة. فقال رسول الله ﷺ: كلاّ والذي نفس محمد بيده، إن شَمْلته ـ الآن ـ لتُحْرق عليه في النار، كان غلَّها من فَيْءِ المسلمين يوم خيبر. فسمعها رجل من أصحاب رسول الله ﷺ فأتاه فقال له: يا رسول الله، أصَبتُ شراكين لنعلين لي. فقال: يُقَدّ لك مثلهما من النار.

وخرَّج مسلم(١) في صحيحه من حديث عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قال: لما كان يوم خيبر أقبل نفر من صحابة النبي ﷺ فقالوا: فلان شهيد وفلان شهيد حتى مرّوا على رجل فقالوا: فلان شهيد. فقال رسول الله ﷺ: كلا، إني رأيته في النار في بُرْدة غلَّها أو عباءة. ثم قال: يا بن الخطاب، اذهب فنادِ في الناس: إنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون. قال: فخرجت فناديت: ألا إنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون.

وشهد خيبر مع رسول الله ﷺ نساءٌ من نساء المسلمات، فرضَخ لهن عليه السلام من الفيء، ولم يضرب لهن بسهم. حدثت بنت [أبي] الصَّلْت عن امرأة غِفَاريّة سمَّتْها قالت: أتيت رسول الله ﷺ في نسوة من بني غفار وهو يسير إلى خيبر: فقلن يا رسول الله، قد أردنا الخروج معك إلى وجهك هذا فنداوي الجرحى ونعين المسلمين بما استطعنا. فقال: على بركة الله. قالت: فخرجنا معه، فلما افتتح خيبر رضَخ لنا من الفيء وأخذ هذه القلادة التي تزين في عنقي فأعطانيها وعلّقها بيده في عنقي، فوالله لا تفارقني أبداً. قالت: فكانت في عنقها حتى ماتت ثم أوصت أن تُدفن معها(٢).

---

(١) مسلم. الجامع الصحيح ج١ ص٧٥ (كتاب الإيمان، باب غلظ تحريم الغلول).
(٢) ابن هشام. السيرة ج ٢ ص ٣٤٢ ـ ٣٤٣.

واستشهد بخيبر من المسلمين نحو من عشرين رجلاً[1] منهم عامر بن الأكوع عم سَلمه بن عمرو بن الأكوع؛ وكان رسول الله ﷺ قد قال له في مسيره إلى خيبر: انزل يا ابن الأكوع فخذ لنا من هَناتك! فنزل يرتجز برسول الله ﷺ فقال:

والله لــولا الله مــا اهتــدَيْنــا ... ولا تصــدَّقْنــا ولا صلَّيْنــا
إنــا إذا قــومٌ بغَــوْا علينــا ... وإن أرادوا فتنــة أبَيْنَــا
فــأنــزلــنْ سكينــةً علينــا ... وثبِّــت الأقــدامَ إن لاقينَــا

[الرجز]

فقال رسول الله ﷺ: يرحمك الله. فقال عمر بن الخطاب: وجبتْ والله يا رسول الله لو أمتعتنا به! فقتل يوم خيبر شهيداً، وكان قَتْله أن سيفه رجع عليه وهو يقاتل فكلمه كلْما شديداً فمات منه، فكان المسلمون قد شكُّوا فيه وقالوا: إنما قتله سلاحه، حتى سأل ابنُ أخيه سلمة رسولَ الله ﷺ عن ذلك وأخبره بقول الناس، فقال رسول الله ﷺ: إنه لشهيد، وصلى عليه. فصلى عليه المسلمون.

ومنهم الأسود الراعي من أهل خيبر، وكان من حديثه[2] أنه أتي رسولَ الله ﷺ وهو محاصر لبعض حصون خيبر ومعه غنم كان فيها أجيراً لرجل من يهود، فقال: يا رسول الله، أعرض عليَّ الإسلام فعرضه عليه فأسلم. وكان رسول الله ﷺ لا يَحْقِر أحداً أن يدعوه إلى الإسلام ويعرضه عليه، فلما أسلم قال: يا رسول الله، إني كنت أجيراً لصاحب هذه الغنم وهي أمانة عندي فكيف أصنع بها؟ قال اضرب في وجوهها فإنها سترجع إلى ربِّها - أو كما قال - فقام الأسود فأخذ حفنة من الحصباء فرمى بها في وجهها وقال: ارجعي إلى صاحبك فوالله لا أصحبك. وخرجت مجتمعة كأن سائقاً يسوقها حتى دخلت الحصن، ثم تقدم الأسود إلى ذلك الحصن ليقاتل مع المسلمين فأصابه حجر فقتله، وما صلى لله

(١) تسميتهم في المصدر السابق ج ٢ ص ٣٤٣ - ٣٤٤.
(٢) المصدر السابق ج٢ ص٣٤٤ - ٣٤٥.

صلاةً قط، فأُتي به رسول الله ﷺ فوضع خلفه وسجّي بشملة كانت عليه
٨١ ب فالتفت إليه رسول الله ﷺ / ومعه نفر من أصحابه ثم أعرض عنه فقالوا: يا رسول الله، لم أعرضت عنه؟ قال: إن معه ـ الآن ـ زوجتيه من الحور العين!

وذكر ابن إسحاق عن عبيد الله بن أبي نَجِيح أن الشهيد إذا ما أصيب نزلت زوجتاه من الحور العين عليه ينفضان التراب عن وجهه ويقولان: ترَّب الله وجه من ترَّبك وقتل من قتلك.

قال(1): ولما افتتحت خيبر كلم رسول الله ﷺ الحجاج بن عِلاَط السُّلمي ثم البَهْزي فقال: يا رسول، إن لي بمكة مالاً عند صاحبتي أم شيبة بنت أبي طلحة ومالاً متفرقاً في تجار أهل مكة، فأْذن لي يا رسول الله فأذن له، قال: إنه لا بد لي يا رسول الله من أن أقول. قال: قل.

قال الحجاج: فخرجت حتى إذا قدمت مكة وجدت بثنيّة البيضاء رجالاً من قريش يتسَّمعون الأخبار ويسألون عن أمر رسول الله ﷺ، وقد بلغهم أنه سار إلى خيبر وعرفوا أنها قرية الحجاز ريفاً ومنعة ورجالاً، فهم يتحسّسون الأخبار ويسألون الركبان، فلما رأوني ولم يكونوا علموا بإسلامي قالوا: الحجاجُ بن علاط؟ عنده والله الخبر، أخبرنا يا أبا محمد فإنه بلغنا أن القاطع سار إلى خيبر وهي بلد يهود وريف الحجاز. قلت: قد بلغني ذلك وعندي من الخبر ما يسرّكم. قال: فالتبطوا بجنَبيْ ناقتي يقولون: إيه يا حجاج؟ قلت: هُزم هزيمة لم تسمعوا بمثلها قط وقُتل أصحابه قتلا لم تسمعوا بمثله قط وأسر محمدٌ أسراً، وقالوا: لا نقتله حتى نبعث به إلى مكة فيقتلونه بين أظهرهم بمن كان أصاب من رجالهم. قال: فقاموا وصاحوا بمكة وقالوا: قد جاءكم الخبر وهذا محمد إنما تنظرون أن يُقْدم به عليكم فيقتل بين أظهركم.

قال: فقلت أعينوني على جمع مالي بمكة على غرمائي فإني أريد أن أقدم خيبر فأصيب به من أهل محمد وأصحابه قبل أن يسبقني التجار إلى ما هنالك.

---

(1) المصدر السابق ج٢ ص ٣٤٥ ـ ٣٤٧.

فقاموا فجمعوا إليّ مالي كأحثّ جمعٍ سمعت به وجئت صاحبتي فقلت: مالي - وقد كان لي عندها مال موضوع - لعليّ ألحق بخيبر فأصيب من فُرَص البيع قبل أن يسبقني التجار.

قال: فلما سمع العباس بن عبد المطلب الخبر وجاءه عني أقبل حتى وقف إلى جنبي وأنا في خيمة من خيام التجار فقال: يا حجاج، ما هذا الذي جئتَ به؟ قلت: وهل عندك حِفْظ لما وضعتُ عندك؟ قال: نعم. قلت: فاستأخرْ عني حتى ألقاك على خلاء فإني في جمع مالي كما ترى فانصرف عني حتى أفرغ قال: حتى إذا فرغت من جمع كل شيء كان لي بمكة وأجمعت الخروج لقيتُ العباس فقلت: احفظ عليّ حديثي يا أبا الفضل - فإني أخشى الطلب - ثلاثاً ثم قل ما شئت. قال: أفعل. قلت[1]: فإني والله لقد تركت ابن أخيك عروساً على بنت ملكهم - يعني صفية بنت حيي - ولقد افتتح خيبر وانتثل ما فيها وصارت له ولأصحابه. قال: ما تقول يا حجاج؟ قلت: إي والله فاكتم عني، ولقد أسلمتُ وما جئت إلا لآخذ مالي فرقاً من أن أُغْلَب عليه، فإذا مضت ثلاث فأظهرْ أمرك فهو والله على ما تحب.

قال: حتى إذا كان اليوم الثالث لبس العباس حلة له وأخذ عصاه ثم خرج حتى أتى الكعبة فطاف بها، فلما رأوه قالوا: يا أبا الفضل هذا والله التجلّد لحرّ المصيبة! قال: كلاّ والله الذي حلفتم به، لقد افتتح محمد خيبرَ وتُرك عروساً على ابنة ملكهم وأحرز أموالهم وما فيها فأصبحتْ له ولأصحابه. قالوا: من جاءك بهذا الخبر، قال: الذي جاءكم بما جاءكم به، ولقد دخل عليكم مُسْلماً وأخذ ماله فانطلق ليلحق بمحمد وأصحابه فيكون معه. قالوا: يال عباد الله! انفلت عدو الله، أما والله لو علمنا لكان لنا وله شأن. ولم ينشبوا أن جاءهم الخبر بذلك.

وقال كعب بن مالك الأنصاري(١) في يوم خيبر:

ونحن ورَدْنا خيبرا وفُروضه … بكل فتىً عارى الأشاجع مِذْوَد

---

١) في الأصل: «قال».

(١) ابن هشام. السيرة ج ٢ ص ٣٤٩.

جوادٍ لدَى الغايات لا واهنِ القُوَى — جريء على الأعداء في كل مَشْهدِ
عظيم رَمَاد القِدر في كل شَتْوة — ضَرُوب بنَصْل المشرفيّ المهنَّدِ
يرى القتل مَدْحا إن أصاب شهادة — من الله يرجوها وفوزاً بأحمدِ
يذود ويحمي عن ذِمَار محمدٍ — ويَدْفع عنه باللسان وباليدِ
وينصره من كلِّ أمرٍ يريبه — يجود بنفسٍ دون نفس محمدِ

[الطويل]

وذكر ابن عُقْبة أن بني فَزَارة قدِموا على أهل خيبر في أول أمرهم ليعينوهم، فراسلهم رسول الله ﷺ أن لا يعينوهم وأن يخرجوا عنهم على أن يعطيهم من خيبر شيئاً سماه لهم، فأبوا عليه وقالوا: جيراننا وحلفاؤنا. فلما فتح الله خيبر أتاه من كان هناك من بني فزارة فقالوا: الذي وعدتنا؟ فقال: لكم ذو الرقيبة - لجبل من جبال خيبر - قالوا: إذن نقاتلك؛ قال: موعدكم جَنَفَاء فلما سمعوا ذلك من رسول الله خرجوا هاربين.

قال ابن إسحاق(1): وكانت المقاسم على أموال خيبر على الشّقّ ونَطاة والكَتِيبة، وكانت الشق ونطَاة في سُهْمان المسلمين، وكانت الكتيبة خمس الله وسَهْم النبي ﷺ وسهم ذوي القربي والمساكين وطُعْم أزواج النبي ﷺ وطعم رجال مشوا بين رسول الله ﷺ وبين أهل فدَك بالصلح.

وقُسمت خيبر على أهل الحديبية من شهد خيبر، ومن غاب عنها، ولم يغب عنها إلا جابر بن عبدالله بن عمرو بن حَرام، فقسم له رسول الله ﷺ كسهم من حضرها. وفي هذه الغزوة بين رسول الله ﷺ سهمان الخيل والرجال، فجعل للفرس سهمين ولفارسه سهماً وللراجل سهما، فجرت المقاسم على ذلك فيما بعد، ويومئذ عرّب العربي من الخيل وهجّن الهجين.

وذكر ابن عقبة أنه قدم على رسول الله ﷺ بخيبر نفر من الأشعريين فيهم أبو عامر الأشعري، قدموا المدينة مع مهاجرة الحبشة ورسول الله ﷺ

---

(1) المصدر السابق ج2 ص349 - 350.

بخيبر، فمضوا إليه وفيهم أبَان بن سعيد بن العِاص والطفيل - يعني ابن عمرو الدوسي ذا النور - وأبو هريرة ونفر من دوس، فرأى رسول الله ﷺ ورأيه الحق أن لا يخيب مَسِيرهم ولا يبطل سفرهم فشركهم في مقاسم خيبر وسأل أصحابه ذلك فطابوا به نفساً.

ولم يذكر ابن عقبة جعفر بن أبي طالب في هؤلاء القادمين على رسول الله ﷺ بخيبر من أرض الحبشة وهو أولهم وأفضلهم، وما مثل جعفر يتخطّى ذكره، ومن البعيد أن يغيب ذلك عن ابن عقبة، فالله أعلم بعذره.

٨٢ أ وقد ذكر ابن إسحاق[١]: أن رسول الله ﷺ كان بعث مرو/ بن أمية الضَّمْري إلى النجاشي فيمن كان أقام بأرض الحبشة من أصحابه فحملهم في سفينتين فقدم بهم عليه وهو بخيبر بعد الحديبية. فذكر جعفراً أولهم وذكر معه ستة عشر رجلاً قدموا في السفينتين صحبته. وذكر ابن هشام عن الشعبي أن جعفراً قدم على رسول الله ﷺ يوم فتح خيبر فقبل رسول الله ﷺ ما بين عينيه والتزمه وقال: ما أدري بأيّتهما أنا أسَرّ، أبفتح خيبر أم بقدوم جعفر؟

ولما جرت المقاسم في أموال خيبر اتسع فيها المسلمون ووجدوا بها مرفقاً لم يكونوا وجدوه قبل، حتى لقال عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - فيما خرج له البخاري في صحيحه[٢]: ما شبعنا حتى فتحنا خيبر.

وأقرَّ رسول الله ﷺ يهودَ خيبر في أموالهم يعملون فيها للمسلمين على النصف مما يخرج منها كما تقدم.

قال ابن إسحاق: فكان رسول الله ﷺ يبعث إلى أهل خيبر عبدالله بن روَاحة خارصاً بين المسلمين وبين يهود فيخرص عليهم، فإذا قالوا: تعديت علينا. قال: إن شئتم فلكم وإن شئتم فلنا. فتقول يهود: بهذا قامت السموات والأرض!

---

(١) المصدر السابق ج٢ ص ٣٥٩.
(٢) البخاري. الصحيح ج٥ ص٢٨٩، ح٢٥٨، (كتاب المغازي، باب غزوة خيبر).

قال: وإنما خَرص عليهم عبدُ الله عاماً واحداً ثم أصيب بمؤتة ـ يرحمه الله ـ فكان جبّار بن صخر أخو بني سلمة هو الذي يخرص عليهم بعده.

فأقامت يهود على ذلك لا يرى بهم المسلمون بأساً في معاملتهم حتى عدَوْا في عهد رسول الله ﷺ على عبد الله بن سهل أخي بني حارثة فقتلوه، فأتهمهم رسول الله ﷺ والمسلمون عليه وكتب إليهم أن يدوه أو يأذنوا بحرب. فكتبوا يحلفون بالله ما قتلوه ولا يعلمون له قاتلا، فوداه رسول الله ﷺ من عنده وأقرهم على ما سبق من معاملته إياهم.

فلما توفي رسول الله ﷺ أقرهم أبو بكر الصديق على مثل ذلك حتى توفي، ثم أقَرهم عمر صَدْراً من إمارته، ثم بلغ عمر أن رسول الله ﷺ قال في وجعه الذي قبضه الله فيه: «لا يجتمعن بجزيرة العرب دينان». ففحص عمر عن ذلك حتى بلغه الثبت، فأرسل إلى يهود فقال: إن الله قد أذن في جلائكم، قد بلغني أن رسول الله ﷺ قال: «لا يجتمعن بجزيرة العرب دينان» فمن كان عنده عهد من رسول الله فليأتني به أنفذه له، ومن لم يكن عنده عهد من رسول الله فليتجهز للجلاء. فأجلى عمر منهم من لم يكن عنده عهد من رسول الله ﷺ.

وقال عبدالله بن عمر: خرجت أنا والزبير والمقدادِ بن الأسود إلى أموالنا بخيبر نتعاهدها، فلما قدمنا تفرقنا في أموالنا فعُدِيّ عليّ تحت الليل فقرعتْ يداي من مرفقي، فلما أصبحت استصرخ عليّ صاحباي فأتياني فأصلحا من يدي؛ ثم قدما بي على عمر فقال: هذا عمل يهود، ثم قام في الناس خطيباً فقال: أيها الناس، إن رسول الله ﷺ كان عامَل يهود خيبر على أنا نخرجهم إذا شئنا، وقد عَدَوا على عبد الله بن عمر ففدعوا يديه كما بلغكم مع عَدْوتهم على الأنصاري قبله لا نشك أنهم أصحابه ليس لنا هناك عدوغيرهم، فمن كان له مال بخيبر فليلحق به فإني مُخْرِج يهود. فأخرجهم.

ولما أخرج عمر ـ رضي الله عنه ـ يهود خيبر ركب في المهاجرين والأنصار وخرج

معه بجبار بن صخر ـ وكان خارص أهل المدينة وحاسبهم ـ ويزيد بن ثابت، فهما قسما خيبر على أصحاب السهمان التي كانت عليها، وذلك أن الشق والنطاة اللتين هما سهم المسلمين قسمت في الأصل على عهد رسول الله ﷺ إلى ثمانية عشر سهماً: نطاة من ذلك خمسة أسهم والشق ثلاثة عشر سهماً، ثم قسم كل قسم من هذه الثمانية عشر سهماً إلى مائة سهم، لكل رجل سهم ولكل فرس سهمان؛ وكانت عدة الذين قسمت عليهم ألف رجل وأربعمائة رجل ومائتي فرس، فذلك ألف سهم وثمانمائة سهم.

* * *

عمرة القضاء

وهي غزوة الأمن

قال ابن إسحاق(1): ولما رجع رسول الله ﷺ من خيبر إلى المدينة أقام بها شهري ربيع وما بعده إلى شوال، يبعث فيما بين ذلك سراياه.

ثم خرج في ذي القعدة في الشهر الذي صدّه فيه المشركون معتمراً عُمْرة القضاء مكان عمرته التي صدّوه عنها، وخرج معه المسلمون ممن كان صُدَّ معه في عمرته تلك، وهي سنة سبع. فلما سمع به أهلُ مكة خرجوا عنه.

قال ابن عُقْبة: وتغيّب رجالٌ من أشرافهم خرجوا إلى بوادي مكة كراهية أن ينظروا إلى رسول الله ﷺ غيظاً وحنقاً ونفاسة وحسداً.

وتحدثت قريشٍ بينها فيما ذكر ابن إسحاق: أن محمداً وأصحابه في عُسْرة وجهْد وشدة فصفُّوا له عند دار الندوة لينظروا إليه وإلى أصحابه.

فلما(2) دخل رسول الله ﷺ المسجد اضطبع(3) بردائه وأخرج عضده اليمني ثم قال: «رحم الله امرءً أراهم اليومَ من نفسه قوة» ثم استلم الركن وخرج يُهَرْول ويهرول أصحابه معه، حتى إذا واراه البيتُ منهم واستلم الركن اليماني مشى حتى يستلم الركن الأسود، ثم هَرْول كذلك ثلاثة أطواف ومشي سائرها فكان ابن عباس يقول: كان الناس يظنون أنها ليست عليهم وذلك أن رسول الله ﷺ إنما صنعها لهذا الحي من قريش الذي بلغه عنهم حتى حج حجة الوداع فلزمها فمضت السُّنة بها.

---

(1) ابن هشام. السيرة ج ٢ ص ٣٧٠.

(2) نفسه ج ٢ ص ٣٧١.

(3) أدخل بعضه تحت عضده اليمنى، وجعل طرفه على منكبه الأيسر.

ولما دخل رسول الله ﷺ مكة في تلك العُمْرة وعبدالله بن روَاحة يرتجز بين يديه:

خلّـــوا بني الكفارِ عن سبيله خلّوا فكلّ الخير في رسوله
يـا ربِّ إنـي مـؤمـن بقِيلـه أعرفَ حـقّ الله فـي قَبُـولِه(١)

[السريع]

وكان رسول الله ﷺ قد بعث بين يديه جعفر بن أبي طالب إلى ميمونة بنت الحارث بن حَزْن الهِلاَلية، فخطبها عليه فجعلت أمرها إلى العباس بن عبد المطلب، وكانت تحته أختُها أم الفضل بنت الحارث، وقيل: جعلت أمرها إلى أم الفضل، فجعلت أم الفضل أمرها إلى العباس فزوّجها العباسُ رسول الله ﷺ وأصْدَقها عنه أربعمائة درهم.

وقضى رسول الله ﷺ نُسكه، وأقام بمكة ثلاث ليال، وكان ذلك أجَل القضية يوم الحديبية. فلما أصبح رسولُ الله ﷺ من اليوم الرابع أتاه سهيل بن
٨٢ ب عمرو وحُوَيْطب بن عبد العُزّي. [في نفر من قريش] ورسول الله صلى الله عليه / وسلم في مجلس الأنصار يتحدث مع سعد بن عُبادة فصاح حويطب: نناشدك الله والعَقْد إلا خرجتَ من أرضنا فقد مضت الثلاث. فقال سعد: كذبتَ لاأم لك إنها ليست بأرضك ولا أرض أبيك والله لا يخرج إلا راضياً، فقال رسول الله ﷺ وضحك: ياسعد، لا تؤذ قوماً زارونا في رحالنا. ثم قال رسول الله ﷺ: وما عليكم لو تركتموني فأعرَسْتُ بين أظهركم وصنعنا لكم طعاماً فحضرتموه؟ قالوا: لا حاجة لنا بطعامك فاخرج عنا(٢).

فأمر رسولُ الله ﷺ أبا رافع مولاه فأذّن بالرحيل، وخلّف أبا رافع على ميمونة حتى أتاه بها بسَرِف وقد لقيت ومن معها عناءً وأذى من سفهاء المشركين وصبيانهم، فبني بها رسول الله ﷺ بسَرِف ثم أدلج فسار حتى قدم

---

(١) ابن هشام. السيرة ج ٢ ص ٣٧١.
(٢) نفسه.

المدينة. ثم كان من قضاء الله سبحانه أن ماتت ميمونة بسرف بعد ذلك بحين، فتوفيت حيث بني بها.

قال موسى بن عقبة: وذكر أن الله ـ تعالى ـ أنزل في تلك العمرة: ﴿**الشهرُ الحرام بالشهر الحرام والحرماتُ قِصاص**﴾ [البقرة: ١٩٤].

وذكر ابن هشام[1] أنها يقال لها: «عمرة القصاص» لأنهم صدّوا رسول الله ﷺ عن العمرة في ذي القعدة في الشهر الحرام من سنة ست فاقتص منهم رسول الله ﷺ ودخل مكة في ذي القعدة في الشهر الحرام الذي صدّوه فيه من سنة سَبْع.

* * *

(١) المصدر السابق ج٢ ص ٣٧٠.

غزوة مؤتة من أرض الشام(١)

ولما صدَر رسول الله ﷺ من عمرة القضاء إلى المدينة أقام بها نحوا من ستة أشهر، ثم بعث إلى الشام في جمادي الأولى من سنة ثمان بَعْثه الذين أصيبوا بمؤتة، واستعمل عليهم زيد بن حارثة، وقال: إن أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب على الناس، فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة.

فتجهز الناس ثم تهيأوا للخروج، وهم ثلاثة آلاف، فلما حضر خروجهم ودّع الناسُ أمراءَ رسول الله ﷺ وسلموا عليهم، فلما ودِّع عبدُ الله بن رواحة بكى فقالو: ما يبكيك يا بن رواحة؟ فقال: والله ما بي حب الدنيا ولا صبابة بكم، ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقرأ آية من كتاب الله ويذكر فيها النار: ﴿**وإن منكم إلا واردها كان على ربّك حَتْماً مَقْضِياً**﴾ [مريم: ٧١] فلست أدري كيف لي بالصَّدَر بعد الورود! فقال المسلمون: صحبكم الله ودفع عنكم وردّكم إلينا صالحين. فقال عبد الله بن رواحة(٢):

لكنني أسأل الرحمنَ مغفرةً ... وضربةً ذات فَرْغ تَقْذف الزبدَا
أو طعنةً بيديْ حَرّان مجهزة ... بَحرْبة تُنْفذ الأحشاء والكِبدَا
حتى يقال إذا مرّوا على جدَثي ... ما أرشدَ اللهُ من غازٍ وقد رشدَا

[البسيط]

ثم إن القوم تهيأوا للخروج فأتى عبدُ الله بن رواحة رسولَ الله ﷺ فودّعه ثم قال:

أنت الرسولُ فمن يُحرَمْ نوافله ... والوجهَ منه فقد أُزْرَى به القدرُ
فثبّت الله ما آتاك من حسنٍ ... في المرسَلين ونصراً كالذي نُصروا

(١) المصدر السابق ج٢ ص٣٧٣ - ٣٨٩.
(٢) نفسه ج٢ ص ٣٧٦ - ٣٧٧.

إني تفرّسْت فيك الخيرَ نافلةً   فراسةً خالفتْ فيك الذي نظرُوا[1]

[البسيط]

يعني المشركين.

ثم خرج القومُ، وخرج رسول الله ﷺ يشيّعهم، حتى إذا ودعهم وانصرف عنهم قال عبد الله بن رواحة:

خَلَف السلام على امرىءٍ ودّعته   في النخل خَيْر مشيِّع وخليلِ[2]

[الكامل]

وحدَّث زيد بن أرقم قال: كنت يتيماً لعبد الله بن رواحة في حِجْره، فخرج بي في سفره ذلك مُرْدِفي على حقيبة رَحْلة، فوالله إنه ليسير ليلة إذ سمعته ينشد أبياته هذه:

إذا أدْنَيْتِني وحملت رَحْلي   مسيرةَ أربع بعدَ الحِساءِ
فشأنكِ فانْعَمى وخلاك ذمٌّ   ولا أرجعْ إليّ أهلي ورائي
وجاء المسلمون وغادروني   بأرض الشام مُشْتهىَ الثَّواءِ
وردّك كلّ ذِي رحم قَريب   إلى الرحمن منقطع الرجاءِ
هنالك لا أبالي طَلْع بَعْل   ولا نَخْل أسافلها رواءِ[3]

[الوافر]

فلما سمعتهن بكيتُ فخفقني بالدّرة وقال: وما عليك يا لُكَع أن يرزقني الله الشهادة وترجع بين شُعْبتي الرّحْل؟!

ثم مضى القومُ حتى نزلوا مُعَان من أرض الشام فبلغ الناسَ أن هرقل قد نزل مآب من أرض البَلْقاء في مائة ألف من الروم وانضم إليهم من لَخْم وجُذَام والقَين وَبهْرَاء وبَلِيّ مائة ألف منهم

فلما بلغ ذلك المسلمين أقاموا على معان ليلتين ينظرون في أمرهم وقالوا:

---

(١) المصدر السابق.
(٢) نفسه.
(٣) نفسه ج٢ ص ٣٧٤.

نكتب إلى رسول الله ﷺ فنخبره بعدد عدوّنا فإما أن يُمِدَّنا بالرجال وإما أن يأمرنا بأمره فنمضي له. فشجّع الناسَ عبدُ الله بن رواحة فقال: يا قوم، والله إنّ الذي تكرهون للذي خرجتم تطلبون، الشهادة، وما نقاتل الناس بعدَد ولا قوة ولا كثرة، وما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به فانطلقوا، فإنما هي إحدى الحسنيين، إما ظهور وإما شهادة. فقال الناس: صدق والله ابن رواحة. فمضى الناس وقال عبد الله في مجلسهم ذلك:

جلبنا الخيلَ من أجَأ وفرع ... تُغَرّ من الحشيش لها العُكومُ
حذَوْناها من الصَّوان سَبْتا ... أزلَّ كأن صفحته أديمُ
أقامت ليلتين على مُعَان ... فأعقب بعد فتْرتها جُمومُ
فرُحْنا والجيادُ مسوَّماتٌ ... تنفسُ في مناخرها السَّمُومُ
فلا وأبي مآب لنأتينْها ... وإن كانت بها عَرَبٌ ورومُ
فعَبَّأْنا أعنَّتَها فجاءت ... عوابسَ والغبار لها بَريمُ
بذي لجَبٍ كأن البيض فيه ... إذا برزت قَوَانِسُها النجومُ
فراضِيَة المعيشة طَلَّقْتها ... أسنْتنا فتنكح أو تَئِيمُ(1)

[الوافر]

ثم مضى الناس حتى إذا كانوا بتخوم البَلْقاء لقيتهم جموعُ هرقل من الروم والعرب بقرية من قرى البلقاء يقال لها: مَشَارِف. ثم دنا العدو وانحاز المسلمون إلى قرية يقال لها: مُؤْتة، فالتقي الناس عندها. فتعبَّي لهم المسلمون فجعلوا على ميمنتهم رجلاً من بني عُذْرة يقال له: قُطْبة بن قَتَادة وعلى ميسرتهم رجلاً من الأنصار يقال له: عَبَايَة بن مالك، ويقال: عُبَادة. ثم التقى الناسُ فاقتتلوا، فقاتل زيدُ بن حارثة براية رسول الله ﷺ حتى شاط في رماح القوم، ثم أخذها جعفر فقاتل بها حتى إذا ألحمه القتال اقتحم عن فرس له شقراء. قال أحدُ بني مرة بن عوف وكان في تلك الغزوة: والله لكأني أنظر إليه حين اقتحم عنها ثم عقرها ثم / قاتل القوم حتى قُتل وهو يقول: ٨٣ أ

(١) المصدر السابق ج٢ ص ٣٧٥ ـ ٣٧٦.

يا حبذا الجنةُ واقترابها طيّبة وباردٌ(١) شرابُها
والرُوم روم قد دنَا عذابُها عليَّ إذ لاقيتُها ضِرَابُها(١)
[الرجز]

وكان جعفر أول من عقَر في الإسلام فرسه.

ولما قُتل جعفر أخذ عبد الله بن رواحة الراية ثم تقدم بها وهو على فرسه فجعل يستنزل نفسه ويتردد بعض التردد ثم قال:

اقسمتُ يا نفس لتَنْزلِنّه لتَنْزلن أو لتُكْرَهِنّه.
إن أجْلَب الناسُ وشدُّوا الرنّة مالي أراكِ تكرهين الجنه
قد طال ما قد كنت مطمئنه هل أنت إلا نُطْفة في شَنْه(٢)
[الرجز]

وقال أيضاً:

يا نفسُ إلا تُقْتَلى تموتى هذا حِمَامُ الموتِ قد صَلِيتِ
وما تمنَّيْتِ فقد أُعطيت إن تفعلي فِعْلهما هُدِيتِ(٣)
[السريع]

يعني صاحبيه زيداً وجعفراً. ثم نزل فأتاه ابنُ عم له بِعرْق من لحم فقال: شُدَّ بهذا صُلْبك فإنك قد لقيت [في] أيامك هذه ما لقيت. فأخذه من يده فانتهس منه نهسةً ثم سمع الْحَطْمة في ناحية الناس فقال: وأنت في الدنيا! ثم ألقاه من يده ثم أخذ سيفه فتقدم فقاتل حتى قتل.

ثم أخذ الراية ثابت بن أرقم أخو بني العَجْلان فقال: يا معشر المسلمين، اصطلحوا على رجل منكم. قالوا: أنتَ. قال ما أنابفاعل، فاصطلح القوم على خالد بن الوليد. فلما أخذ الراية دافع القومَ وخاشى بهم ثم انحاز وانحِيز عنه، حتى انصرف بالناس.

١) في الأصل: «وبارداً».

(١) المصدر السابق ج٢ ص٣٧٨.
(٢) نفسه ج٢ ص٣٧٩.
(٣) نفسه.

ولما[1] أصيب القومُ قال رسول الله ﷺ: أخذ الراية زيد بن حارثة فقاتل بها حتى قُتل شهيداً، ثم أخذها جعفر فقاتل بها حتى قتل شهيداً، ثم صمت رسول الله ﷺ حتى تغيّرت وجوه الأنصار وظنوا أنه قد كان في عبد الله بن رواحة بعض ما يكرهون، ثم قال: أخذها عبد الله بن رواحة فقاتل بها حتى قتل شهيداً. ثم قال: لقد رفعوا إلى الجنة فيما يرى النائم على سرر من ذهب، فرأيت في سرير عبد الله بن رواحة ازورارا عن سريرَيْ صاحبيه فقلت: عمَّ هذا؟ فقيل لي: مضَيَا وتردّدّ عبد الله بعضَ التردد ثم مضى.

وذكر ابن هشام[2] أن جعفراً أخذ اللواء بيمينه فقُطعت، فأخذه بشماله فقطعت، فاحتضنه بعضديه حتى قُتل وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة فأثابه الله بذلك جناحين يطير بهما حيث شاء.

ويقال: إن رجلاً من الروم ضربه ـ يومئذٍ ـ فقطعه نصفين.

وذكر ابن عقبة أن رسول الله ﷺ قال بالمدينة لما أصيبوا، قبل أن يأتيه نعيهم: مرَّ عليَّ جعفر بن أبي طالب في الملائكة يطير كما يطيرون له جناحان. قال: وقدم يعلي بن منّبه على رسول الله ﷺ بخبر أهل مؤتة فقال له رسول الله ﷺ: إن شئتَ فأخبرني وإن شئتَ أخبرتك. قال: فأخبرنِي يا رسول الله فأخبره ﷺ خبرهم كله ووصفه له. فقال: والذي بعثك بالحق ما تركت من حديثهم حرفاً واحداً لم تذكره، وإنّ أمرهم لكما ذكرت. فقال رسول الله ﷺ: إن الله رفع لي الأرض حتى رأيتُ معتركهم.

---

(١) المصدر السابق ج٢ ص٣٨٠.

(٢) نفسه ج ٢ ص ٣٧٨.

وحدثتْ أسماء بنت عُمَيْس[1] امرأة جعفر قالت: لما أصيب جعفر وأصحابه دخل عليّ رسول الله ﷺ فقال: ايتيني ببني جعفر. وقد كانت غسلتهم ودهنتهم ونظفتهم. قالت: فأتيته بهم فشمهم وذرفت عيناه، فقلت: يا رسول الله بأبي أنت ما يبكيك؟ أبلغك عن جعفر وأصحابه شيء؟ قال: «نعم، أصيبوا هذا اليوم». قالت: فقمت أصيح واجتمع إليَّ النساء. وخرج رسول الله ﷺ إلى أهله فقال: لا تُغفلوا آل جعفر من أن تصنعوا لهم طعاماً، فإنهم قد شغلوا بأمر صاحبهم.

وقالت عائشة[2] رضي الله عنها: لما أتي نعيُ جعفر عرفنا في وجه رسول الله ﷺ الحزن.

ولما[3] انصرف خالد قافلاً بالناس ودنوا من المدينة تلقاهم رسول الله ﷺ والمسلمون، ولقيهم الصبيان يشتدون ورسول الله ﷺ مقبل مع القوم على دابة، فقال: خذوا الصبيان فاحملوهم وأعطوني ابن جعفر. فأُتي بعبد الله بن جعفر فأخذه فحمله بين يديه وجعل الناس يَحثْون على الجيش التراب ويقولون: يا فُرّار، فررتم في سبيل الله! فيقول رسول الله ﷺ: «ليسوا بالفُرّار ولكنهم الكرّار إن شاء الله».

وقالت أم سلمة[4] زوج النبي ﷺ لامرأة سلمة بن هشام بن العامر بن المغيرة: مالي لا أرى سلمة يحضر الصلاة مع رسول الله ﷺ؟ قالت: والله ما يستطيع أن يخرج، كلما خرج صاح به الناس: يافرّار، فررتم في سبيل الله! حتى قعد في بيته فما يخرج.

---

(١) المصدر السابق ج٢ ص ٣٨٠.
(٢) نفسه ج ٢ ص ٣٨١.
(٣) نفسه ج ٢ ص ٣٨٢.
(٤) نفسه ج ٢ ص ٣٨٣.

وقد[1] قال فيما كان من أمر الناس وأمر خالد ومخاشاته بالناس وانصرافه بهم - قيسُ بن المسحّر اليعمْري يعتذر مما صنع يومئذ وصنع الناس:

[و] والله لا تنفكّ نفسي تَلُومني ... على موقفي والخيلُ قابعة قتلُ
وقفت بها لا مستحيزاً فنافذاً ... ولا مانعاً من كان حُمّ له القتلُ
على أنني آسيتُ نفسي بخالد ... ألا خالد في القوم ليس له مثلُ
وجاشت إلى النّفس من نحو جعفر ... بمؤْتة إذ لا ينفع النابل النّبْلُ
وضمّ إلينا حُجْزتَيْهم كليهما ... مُهَاجرة لا مشركون ولا عُزْلُ

[الطويل]

فبيَّن قيس في شعره ما اختلف الناس فيه من ذلك: أن القوم حاجزوا وكرهوا الموت وحقق انحياز خالد بمن معه.

وكان مما بُكي به أصحابُ مؤتة قولُ حسان بن ثابت[2]:

تأوّبني ليلٌ بيثرب أعسَرُ ... وهمّ إذا ما هوّم الناسُ مُسْهِرُ
لِذكرى حبيبٍ هيّجت ليَ عَبْرةً ... سَفُوحاً وأسبابُ البكاء التذكرُ
بلى إنّ فقدان الحبيب بليّة ... وكم من كريم يُبْتلى ثم يَصْبرُ
رأيتُ خيار المؤمنين تواردوا ... شَعُوب وخَلفا بعدهم يتأخرُ
فلا يُبْعدنّ الله قَتْلى تباعدوا ... جميعاً وأسبابُ المنية تَخْطِرُ
غداةَ مضَوْا بالمؤمنين يقودهم ... إلى الموت ميمُون النقيبة أَزْهَرُ
أغرَّ كضوء البَدْر من آل هاشم ... أبيّ إذا سيم الظّلامة يَجْسِرُ
فطاعَن حتى مال غير موسَّدٍ ... بمُعْترك فيه قَنا متكسِّرُ
فصار مع المستشهدين ثوابُه ... جِنانٌ وملتف الحدائق أخضرُ
وكنا نرى في جعفر من محمد ... وفاءً وأمراً حازماً حين يأمرُ

(١) المصدر السابق.
(٢) نفسه ج٢ ص٣٨٣ - ٣٨٥.

وما زال في الإسلام من آل هـاشم ... دعـائم عـزّ لا يـزلْن ومَفْخَـرُ
٨٣ ب /هُم جبلُ الإسلام والنـاسُ حـولهم ... رِضَـام إلى طـودٍ يَــرُوق ويَقْهـر
بَهـاليلُ منهـم جعفـرٌ وابـن أمـه ... عليّ ومنهـــم أحمد المتخيَّـــرُ
وحمزة والعبـاس منهـم ومنهـــمُ ... عَقِيلٌ وماء العُود مـن حيثُ يعصرُ
بهم تُفْـرج اللّأواء في كـل مـأزِق ... عماسٍ إذا ما ضاق بالناس مَصْدرُ
هــم أوليــاءُ الله أنــزل حُكمــه ... عليهـم وفيهـم ذا الكتابُ المطَّهـرُ

وقال كعب بن مالك(١) في ذلك: [الطويل]

نـام العيـونُ ودَمْع عينـك يَهْمـلُ ... سَحّـاكما وكَـف الطِّبَـابُ المخضَـلُ
في ليلـة وردتْ عليَّ همـومُهــا ... طَـوراً أَحِـنّ وتـارة أَتمَلْمــلُ
واعتـادني حُـزْنٌ فبِـتّ كـأنني ... ببنـات نَعْش والسِّمَـاك مُـوَكَّـلُ
وكـأنما بين الْجَـوانـح والحشـا ... مما تـأَوَّبني شِهـابٌ مُـدْخَــلُ
وجْداً على النفَـر الذيـن تَتَـابعـوا ... يـومـاً بمُؤْتـة أُسْنِـدُوا لم يُنْقلُـوا
صلَّـى الإلـه عليهـمُ مِـن فتيـةٍ ... وسقـى عظـامَهـمُ الغَمامُ المسْبِـلُ
صَبَروا بمؤتـة للإلــه نفـوسَهـم ... حـذر الرَّدَي ومخافـةً أن يَنْكُلُـوا
فمضـوا أمـام المسلمين كـأنهم ... فُنُـقٌ عليهـن الحديـدُ المرْفَـلْ
إذ يهتـدون بجعفـرٍ ولـوائـه ... قـدّامُ أوّلهم فنعـــم الأولُ
حتى تفـرّجـتِ الصفـوفُ وجعفـرٌ ... حيثُ التقى وَعْـث الصفـوف مجدَّلُ
فتغيَّــر القمــرُ المنيرُ لفَقْــدِه ... والشمس قد كسفت وكادت تأْفِـلُ
قَـوْمٌ علاَ بنيـانُـه مـن هـاشم ... فَـرْعـاً أشمّ وسـؤدداً مـا يُنْقـلْ
قـومٌ بهم عصمَ الإلــه عِبَـادَه ... وعليهـمُ نـزَل الكتـابُ المنْـزَلُ
فَضلـوا المعـاشر عـزةً وتكـرُّمـاً ... وتَغَمَّـدَتْ أحلامُهم من يَجْهَـلُ
لا يُطْلِقـون إلى السفـاه حِبَـاهـمُ ... ويُـرَى خطيبهـم بحقٍّ يَفْصِـلُ

(١) المصدر السابق ج٢ ص٣٨٥ ـ ٣٨٦.

بيض الوجوه ترى بطونَ أكفهم ... تَنْدَى إذا اعتذر الزمانُ الممحِلُ
وبِهَدْيهم رضيَ الإلٰه لخَلْقه ... وبِجِدِّهم نُصِر النبيُّ المرسَلُ

[الكامل]

وقال حسان بن ثابت(۱) يبكي جعفراً:

ولقد بكيتُ وعَزّ مَهْلك جعفر ... حِبّ النبيّ على البريّة كلّها
ولقد جزِعْتُ وقلت حين نُعيتَ لي ... من للجِلاَد لدَى العُقَاب وظلّها
بالبيض حين تُسَلّ من أغمادها ... ضرباً وإنهال الرماح وعلّها
بعدَ ابن فاطمة المباركِ جعفر ... خير البريّة كلها وأجلّها
رُزْءًا وأكرمها جميعاً مَحْتِداً ... وأعزها متظلّما وأذلّها
للحق حين يَنُوب غير تنحّلٍ ... كذباً وأنداها يداً وأبلّها(۱)
بالعُرْف غير محمدٍ لا مثلُه ... حَيّ من أحياء البريّة كلّها

[الكامل]

وقال شاعر من المسلمين ممن رجع عن غزوة مؤتة:

كفى حزَنا أني رجعت وجعفرٌ ... وزيد وعبد الله في رَمْس أقْبُرِ
قضوا نَحْبهم لما مضوا لسبيلهم ... وخُلِّفْت للبلوى مع المتغيرِ

[الطويل]

واستشهد يوم مؤتة من المسلمين سوى الأمراء الثلاثة - رضي الله عنهم - من قريش ثم من بني عدي بن كعب: مسعود بن الأسود بن حارثة. ومن بني مالك بن حِسْل: وهب بن سعد بن أبي سَرْح. ومن الأنصار: عَبَّاد بن قيس من بني الحارث بن الخزرج، والحارث بن النعمان بن إسَاف من بني غَنْم بن مالك بن

۱) يأتي بعده في الأصل قوله:
«فحشاً وأكثرها إذا ما يجتذي ... فضلاً وأنداها يداً وأبلها»

(۱) المصدر السابق ج۲ ص ۳۸٦ - ۳۸۷.

النجار، وسُرَاقة بن عمر بن عطية بن خنساء من بني مازن بن النجار، وأبو كُلَيْب ويقال: أبو كلاب، وجابر ابنا عمرو بن زيد بن عوف بن مبذول وهما لأب وأم. وعمر وعامر ابنا سعد بن الحارث بن عباد من بني مالك بن أفصَى. وهؤلاء الأربعة عن ابن هشام(1).

(1) نفسه ج ٢ ص ٣٨٨ ـ ٣٨٩.

غزوة الفتح

وأقام(١) رسول الله ﷺ بعد بعثه إلى مؤتة جمادي الآخرة ورجباً.

ثم عدَتْ بنو بكر بن عبد مناة بن كنانة على خُزَاعة، ولم يزالوا قبل ذلك مُتَعادين، وكان الذي هاج ما بينهم أن حليفاً للأسود بن رَزْن الدِّيلي خرج تاجراً، فلما توسط أرض خزاعة عدَوْا عليه فقتلوه وأخذوا ماله، فعدت بنو بكر على رجل من خزاعة فقتلوه، فعدت خزاعةُ قبيل الإسلام على بني الأسود بن رَزْن سَلْمى وكلثوم وذُؤَيْب وهم مَنْحر بني كنانة وأشرافهم كانوا في الجاهلية يودَوْن ديتين ديتين لفضلهم في قومهم، فقتلتهم خزاعة بعرفة عند أنصاب الحرم ثم حجزَ بينهم الإسلام وتشاغل الناسُ به.

فلما(٢) كان صلح الحديبية دخلت خزاعةُ في عَقْد رسول الله ﷺ، ودخلت بنو بكر في عقد قريش. فلما كانت الهدنة اغتنمتها بنو الدِّيل فخرجوا حتى بيَّتوا خزاعة على الوَتير ـ ماء لهم ـ فأصابوا منهم رجلاً وتحاجزوا واقتتلوا ورفدتْ قريشٌ بني بكر بالسلاح وقاتل معهم من قريش من قاتل بالليل مستخفياً.

فلما تظاهرت بنو بكر وقريش على خزاعة ونقضوا ما كان بينهم وبين رسول الله ﷺ من العهد والميثاق بما استحلوا منهم وكانوا في عَقْده وعهده، خرج عمرو بن سالم الخزاعي الكعبي حتى قدِم على رسول الله ﷺ المدينة فوقف عليه وهو جالس في المسجد بين ظهري الناس فقال:

يا ربِّ إني ناشدٌ محمدًا ... حِلْف أبينا وأبيه الأَتْلَدا

قد كنتم ولداً وكنا والداً ... ثمتَ أَسْلمنا فلم ننزعْ يَدًا

---

(١) المصدر السابق ج٢ ص ٣٨٩.

(٢) نفسه ج ٢ ص ٣٩٠.

فـانْصر هــدَاكَ اللهُ نَصراً أعْتَــدَا وادعُ عبـادَ الله يـأتـوا مَــدَدَا
فـيـهـم رسـول الله قـد تجـرَّدَا أبيض مثل البدر يسمو صعَـدَا
إن سِيمَ خَسْفـاً وجهه تـربـدَا في فَيْلِق كـالبحـر يجري مُزْبِدَا
إنَّ قـريشـاً أخلفـوك الموعِـدَا ونَقضـوا ميثـاقـك المؤكـدَا
وجعلـوا لي في كـدَاءَ رصَـدَا وزعمـوا أن لستُ أدعـو أحَـدا
وهـم أذلّ وأقـلّ عـددَا هُمْ بيَّتونـا بـالـوَتيرِ هُجَّـدَا
وقتّلونـا رُكَّعـاً وسُجَّـدَا[1].

[الكامل]

يقول: قُتلنا وقد أسْلمنا.

فقال رسول الله ﷺ: «نُصِرْت ياعمرو بن سالم»، ثم عرضَ لرسول الله ﷺ عَنانٌ من السماء فقال: إن هذه السحابة لتَسْتهلّ بنصر بني كعب. ثم خرج بُدَيْل بن وَرْقاء في نفر من خُزاعة حتى قدموا على رسول الله ﷺ المدينة فأخبروه بما أصيب منهم ومظاهرة قريش بني بكر عليهم ثم انصرفوا راجعين إلى مكة.

وقد قال رسول الله ﷺ للناس: «كأنكم بأبي سفيان قد جاءكم ليشدّ العقد وليزيد في المدة».

ومضى بُديل بن وَرْقاء في أصحابه حتى لقوا أبا سفيان بعُسْفان قد بعثته
٨٤ أ قريش إلى رسول الله ﷺ ليشدّ العقد ويزيد/ في المدة وقد رَهِبوا الذي صنعوا، فلما لقي أبو سفيان بديلاً قال: من أين أقبلت يا بديل؟ وظن أنه قد أتى رسول الله ﷺ: قال: سيّرت في خزاعة في هذا الساحل وفي بطن هذا الوادي. قال: أوَما جئت محمداً؟ قال: لا. فلما راح بديل إلى مكة قال أبو سفيان: لئن كان بديل جاء المدينة لقد علَف بها النوَى. فأتى مَبْرك راحلته فأخذ من بعرها ففتّه فرأى فيه النوى فقال: أحلف بالله لقد جاء بديل محمداً.

ثم[2] خرج أبو سفيان حتى قدم المدينة فدخل على ابنته أم حبيبة، فلما ذهب

(١) المصدر السابق ج٢ ص٣٩٤ ـ ٣٩٥.
(٢) نفسه ج٢ ص٣٩٦ ـ ٣٩٧.

ليجلس على فراش رسول الله ﷺ طوته عنه فقال: يا بنية، ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش أم رغبت به عني؟ قالت: بل هو فراش رسول الله ﷺ وأنت رجل نجس مشرك، فلم أحب أن تجلس عليه. قال: والله يا بنية لقد أصابك بعدي شر!

ثم خرج حتى أتي رسولَ الله ﷺ فكلّمه فلم يردّ عليه شيئاً، ثم ذهب إلى أبي بكر فكلمه أن يكلم له رسول الله ﷺ فقال: ما أنا بفاعل. ثم أتى عمر بن الخطاب فكلمه فقال: أنا أشفع لكم إلى رسول الله ﷺ؟ فوالله لو لم أجد إلا الذرّ لجاهدتكم به. ثم خرج حتى دخل على عليّ بن أبي طالب وعنده فاطمة بنت رسول الله ﷺ وعندها حسن بن عليّ غلامٌ يدبّ بين يديها فقال: يا علي، إنك أمسّ القوم بي رَحِماً وإني قد جئت في حاجة فلا أرجعنّ كما جئت فاشفع لي، قال: ويحك يا أباسفيان، والله لقد عزم رسول الله ﷺ على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه. فالتفت إلى فاطمة فقال: يا بنت محمد، هل لك أن تأمري بُنيَّك هذا فيُجير بين الناس فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر. قالت: والله ما بلَغ بُنَيّ ذلك أن يجير بين الناس، وما يجير أحدٌ على رسول الله ﷺ. قال: يا أبا حسن، إني أرى الأمور قد اشتدت عليّ فانصحني. قال: والله ما أعلم شيئاً يُغْني عنك شيئاً ولكنك سيّد بني كنانة فقم فأجرْ بين الناس ثم الحق بأرضك، قال: أوَترى ذلك مُغْنياً عني شيئاً؟ قال: لا والله ما أظنه ولكنني لا أجد لك غير ذلك. فقام أبو سفيان فقال: أيها الناس، إني قد أجَرْتُ بين الناس. ثم ركب بعيره فانطلق. فلما قدِم على قريش قالوا: ما وراءك؟ قال: جئت محمداً فكلمته فوالله ماردّ عليّ شيئاً ثم جئت ابن أبي قحافة فلم أجدْ فيه خيراً. ثم جئت ابن الخطاب فوجدته أدْنى العدوّ. ويقال: أعْدَي العدو، ثم أتيت علياً فوجدته ألين القوم، وقد أشار عليّ بشيء صنعته فوالله ما أدري هل يغني شيئاً أم لا؟ قالوا: وبم أمرك؟ قال: أمرني أن أجير بين الناس ففعلت. قالوا: فهل أجاز ذلك محمد؟ قال: لا. قالوا: ويلك! والله ما زاد الرجل على أن لعب بك فما يغني عنك ما قلت. قال: لا والله ما وجدت غير ذلك.

وأمر(١) رسول الله ﷺ الناس بالجهاز وأمر أهله أن يجهزوه، فدخل أبو بكر على ابنته عائشة وهي تحرك بعض جهاز رسول الله ﷺ فقال: أيْ بنية أمَرَكم رسول الله ﷺ أن تجهزوه؟ قالت: نعم فتجهز. قال: فأين ترينه يريد؟ قالت: لا والله ما أدري.

ثم إن رسول الله ﷺ أعلم الناس أنه سائر إلى مكة وأمرهم بالجدّ والتهيؤ، وقال: «اللهم خذ العيونَ والأخبار عن قريش حتى نَبْغتها في بلادها»؛ فتجهز الناس.

وكتب(٢) حاطب بن أبي بَلْتعة عند ذلك كتاباً إلى قريش يخبرهم بالذي أجمع عليه رسول الله ﷺ من الأمر في السير إليهم ثم أعطاه امرأة وجعل لها جُعْلاً على أن تبلغه قريشاً. فجعلته في رأسها ثم فتلتْ عليه قرونها ثم خرجت به. وأتي رسول الله ﷺ الخبرُ من السماء بما صنع حاطب فبعث عليّ بن أبي طالب والزبير بن العوام فقال: أدركا امرأة كتب معها حاطبٌ إلى قريش يحذرهم ما أجمعنا له في أمرهم. فخرجا حتى أدركاها فاستنزلاها والتمسا في رَحْلها فلم يجدا شيئاً، فقال لها عليّ: أحلف بالله ما كذب رسولُ الله ولا كُذِبْنَا ولتُخْرِجن هذا الكتاب أو لنكشفنك. فلما رأت الجد منه استخرجت الكتاب من قرون رأسها فدفعته إليه. فأتى به رسولَ الله ﷺ. فدعا رسول الله ﷺ حاطباً فقال: يا حاطب، ما حَملك على هذا؟ قال: يا رسول الله، أما والله إني لمؤمن بالله وبرسوله ما غيَّرت ولا بدَّلت، ولكني كنت امرءً ليس لي في القوم من أصل ولا عشيرة، وكان لي بين أظهرهم ولد وأهل فصانعتهم عليه؛ فقال عمر: يا رسول الله دَعْني فلأضرب عنقه فإن الرجل نافَق. فقال رسول الله ﷺ: «وما يدريك يا عمر لعل الله قد اطّلع إلي أصحاب بدر يوم بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم.

فأنزل الله في حاطب: ﴿يا أيها الذين آمنُوا لا تتّخِذوا عدوِّي وعدوّكم أولياء تُلْقُون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق﴾ الآيات كلها إلى

(١) المصدر السابق ج٢ ص ٣٩٧.
(٢) نفسه ج٢ ص٣٩٨ - ٣٩٩.

قوله: ﴿قد كانت لكم أُسْوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنّا بُرَآء منكم ومما تَعْبدون من دون الله كفَرْنا بكم وبَدا بيننا وبينكم العداوةُ والبَغْضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده﴾ [الممتحنة: ١ ـ ٤] إلى آخر القصة.

ثم(١) مضى رسولُ الله ﷺ لسفره حتى نزل بمَرّ الظَّهْران في عشرة آلاف من المسلمين، وقيل في اثني عشر ألفاً، فسبّعت سُلَيمْ وقيل: ألّفت وألّفت مُزَيْنة، وفي كل القبائل عَدد وإسلام. وأوعب مع رسول الله ﷺ المهاجرون والأنصار فلم يتخلف عنه منهم أحد.

وقد(٢) كان ابن عمه أبوسفيان بن الحارث بن عبد المطلب وابن عمته عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة لقياه بنيق العُقَاب فيما بين مكة والمدينة، فالتمسا الدخول عليه وكلمته أم سلمة فيهما وهي أخت عبد الله منهما فقالت: يا رسول الله، ابن عمك وابن عمتك وصهرك. قال: لا حاجة لي بهما، أما ابن عمي فهتك عرضي وأما ابن عمتي وصهري فهو الذي قال لي بمكة ما قال. فلما خرج الخبر إليهما / بذلك قال أبوسفيان ـ ومعه بُنَي له ـ والله ليأذنَنَّ لي أو لآخذن بيد بني ٨٤ ب
هذا ثم لنذهبن في الأرض حتى نموت عطشاً وجوعاً. فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ رقّ لهما ثم أذن لهما، فدخلا عليه فأسلما، وأنشده أبو سفيان:

لَعَمـرك إني يـوم أحمل رايـةً ... لتغلب خيـلُ اللاتِ خيـلَ محمدِ
لكـالمدْلـج الحيران أظلم ليلُـه ... فهـذا أوَاني حين أُهْـدَي وأهتـدِي
هـدانِـيَ هـادٍ غير نفسي وقـادني ... مـع الله مـن طـرَّدْتُ كـلّ مُطَـرَّدِ

[الطويل]

فزعموا أنه لما أنشده هذا البيت ضرب رسول الله ﷺ في صدره وقال: أنت طردتني كلّ مطرد!

وعميت الأخبار عن رسول الله ﷺ على قريش، فلا يأتيهم خبر عنه ولا يدرون ما هو فاعل.

---

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ٤٠٠.
(٢) نفسه ج٢ ص ٤٠٠ ـ ٤٠١.

وخرج[1] في تلك الليالي أبو سفيان بن حرب وحَكيم بن حِزام وبُدَيْل بن ورقاء يتحسسون الأخبار. وكان العباس بن عبد المطلب قد لقى رسول الله ﷺ ببعض الطريق مهاجراً بعياله، وكان قبل ذلك مقيماً بمكة على سِقَايته ورسول الله ﷺ عنه راض.

قال العباس[2]: فلما نزل رسول الله ﷺ مرّ الظهران قلت: واصباح قريش والله لئن دخل رسول الله ﷺ مكة عَنْوة قبل أن يأتوه فيستأمنوه إنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر. فجلست على بغلة رسول الله ﷺ البيضاء فخرجت عليها حتى جئت الأراك فقلت: لعلّي أجد بعض الحطّابة أو صاحب لبن أو ذا حاجة يأتي مكة فيخبرهم بمكان رسول الله ﷺ ليخرجوا إليه فيستأمنوه. فوالله إني لأَسير عليها والتمس ما خرجت له إذ سمعت كلام أبي سفيان وبُديل بن ورقاء وهما يتراجعان وأبو سفيان يقول: ما رأيت كالليلة نيراناً قط ولا عسكراً. قال: يقول بديل: هذه والله خزاعة حَمَشتْها الحرب، فيقول أبو سفيان: خزاعة أقل وأذل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها. قال: فعرفت صوته فقلت: يا أبا حنظلة، فعرف صوتي فقال: أبو الفضل؟ قلت: نعم. قال: مالك فداك أبي وأمي؟! قلت: ويحك يا أباسفيان، هذا رسول الله ﷺ في الناس واصباح قريش والله. قال: فما الحيلة فداك أبي وأمي؟ قلت: والله لئن ظفر بك ليضربنّ عنقك فاركب في عجز هذه البغلة حتى آتي بك رسولَ الله ﷺ فأستأمنه لك. فركب خلفي ورجع صاحباه، فجئت به كلما مرّ بنارٍ من نيران المسلمين قالوا: من هذا؟ فإذا رأوا بغلة رسول الله ﷺ وأنا عليها قالوا: عمّ رسول الله على بغلته. حتى مررتُ بنار عمر بن الخطاب فقال: من هذا؟ وقام إليّ، فلما رأى أبا سفيان على عجز الدابة قال: أبو سفيان عدوّ الله! الحمد لله الذي أمْكن منك بغير عَقْدَ ولا عهد. ثم خرج يشتد نحو رسول الله ﷺ وركضت البغلة فسبقته بما تسبق الدابة البطيئة الرجل البطيء فاقتحمتُ عن البغلة فدخلت على رسول الله ﷺ

(١) المصدر السابق.

(٢) نفسه ج٢ ص ٤٠٢ - ٤٠٤.

ودخل عليه عمر فقال: يا رسول الله هذا أبو سفيان قد أمكن الله منه بغير عهد ولا عقد فدعْني فلأضربْ عنقه. قلت: يا رسوَل الله ،إني قد أجَرْته؛ ثم جلست إلى رسول الله ﷺ فأخذت برأسه فقلت: والله لا يناجيه الليلة رجل دوني. فلما أكثر عمر في شأنه قلت: مهلاً يا عمر، فوالله لو كان من رجال بني عديّ بن كعب ما قلت هذا، ولكنك قد عرفت أنه من رجال بني عبد مناف. فقال: مهلاً يا عباس، فوالله لَإسلامك يومَ أسلمت كان أحبّ إليَّ من إسلام الخطّاب لو أسلم، وما بي إلا أني عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب، فقال رسول الله ﷺ: اذهب به يا عباس إلى رَحْلك فإذا أصبحت فائتني به؛ فذهبت به إلى رَحلي فبات عندي، فلما أصبحتُ غدوت به إلى رسول الله ﷺ فلما رآه قال: ويحك يا أبا سفيان، ألم يَأن لك أن تعْلم أنه لا إله إلا الله؟ قال: بأبي أنت وأمي ما أحْلمك وأكرمك وأوصَلك والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى شيئاً بعدُ. قال: ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟ قال: بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوْصَلك، أمّا والله هذه فإن في نفسي منها شيئاً حتى الآن. قال له العباس: ويحك، أسْلم واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله قبل أن تُضرب عنقك. قال: فشهد شهادة الحق وأسلم.

قال العباس: قلت: يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل يحب الفخر، فاجعل له شيئاً. قال: «نعم، من دخل دارَ أبي سفيان فهو آمِن، ومن أغلق عليه بابَه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن».

فلما ذهب لينصرف قال رسول الله ﷺ: «يا عباس، احبسه بمضيق الوادي عند خَطمْ الجبل حتى تمرّ به جنودُ الله فيراها». قال: فخرجت فحبسته حيث أمرني رسول الله ﷺ أن أحبسه، فمرت القبائل على راياتها كلما مرت قبيلة قال: يا عباس من هذه؟ فأقول: سُلَيم. فيقول: مالي ولسليم. ثم تمر القبيلة فيقول: من هؤلاء؟ فأقول: مُزَيْنة. فيقول: مالي ولمزينة. حتى نفذت القبائل ما تمرّ قبيلة

إلا سألني عنها فإذا أخبرته بهم قال: مالي ولبني فلان. حتى مرّ رسول الله ﷺ في كتيبته الخضراء فيها المهاجرون والأنصار لا يُرَى منهم إلا الْحَدَق من الحديد قال: سبحان الله، يا عباس من هؤلاء؟ قلت: هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار. قال: ما لأحد بهؤلاء قِبَل ولا طاقة! والله يا أبا الفضل لقد أصبح مُلْك ابن أخيك الغداةَ عظيماً. قلت يا أبا سفيان إنها النبوة. قال: فنعم إذن. قلت: النَّجاءَ إلى قومك. حتى إذا جاءهم صرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش، هذا محمد قد جاءكم فيما لا قِبَل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن. فقامت إليه هند بنت عتبة فأخذت بشاربه فقالت: اقتلوا الحمِيت الدّسِم الأحْمَس قبّح من طلِيعة قوم. قال: ويحكم، لا تغرنكم هذه من أنفسكم، فإنه قد جاءكم مالا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن. قالوا: قاتلك الله، وما تُغْني عنّا دارُك؟ قال: ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن. فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد.

ولما(١) انتهى رسول الله ﷺ إلى ذي طوى وقف على راحلته مُعْتجراً بشقة بُرْد
٨٥ أ حِبرَة حمراء، وإنه ليضع رأسه تواضعاً/ لله حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح حتى إن عُثْنُونه ليكاد يمسُّ وسطَ الرّحْل.

ولما(٢) وقف هناك قال أبو قحافة ـ وقد كُفَّ بصره ـ لابنة له من أصغر ولده: أيْ بنية اظهري بي على أبي قُبَيْس. فأشرفت به عليه، فقال: أي بنية ماذا تَريْن؟ قالت: أرى سواداً مجتمعاً قال: تلك الخيل. قالت: وأرى رجلاً يسعى بين يدي السواد مُقْبلاً ومدبراً. قال: أي بنيّة ذلك الوازع الذي يأمر الخيل ويتقدم إليها. ثم قالت: قد والله انتشر السواد. فقال: قد والله إذن دَفعت الخيلُ فأسرعي بي إلى بيتي. فانحطت به، وتلقاه الخيل قبل أن يصل إلى بيته وفي عنق الجارية طوْق من وَرِق فيلقاها رجل فيقتطعه من عنقها.

---

(١) المصدر السابق ج٢ ص ٤٠٥.

(٢) نفسه ج ٢ ص ٤٠٥ ـ ٤٠٦.

قالت: فلما دخل رسول الله ﷺ مكة ودخل المسجد أتاه أبو بكر بأبيه يقوده، فلما رآه ﷺ قال: هلاّ تركتَ الشيخ في بيته حتى أكون أنا آتيه فيه! فقال أبو بكر: يا رسول الله،هو أحقّ أن يمشي إليك من أن تمشي إليه. قال: فأجلسه بين يديه ثم مسح صدره ثم قال له: أسْلم. فأسلم. ورآه رسول الله ﷺ وكأن رأسه ثغَامة فقال: غيِّروا هذا من شعره. ثم قام أبو بكر فأخذ بيد أخته فقال: أنشد الله والإسلام طَوْق أختي. فلم يجبه أحد، فقال: أي أخيّة احتسبي طوقك فوالله إن الأمانة اليوم في الناس لقليل!

وأمر[1] رسولُ الله ﷺ حين فرق جيشه من ذي طُوًى الزبيرَ بن العوام أن يدخل في بعض الناس من كُدًى، وكان على المجنِّبة اليسرى،وأمر سعدَ بن عبادة أن يدخل في بعض الناس من كَدَاء. فذكروا أن سعدا حين وجّه داخلا قال:

«اليومُ يومُ الملحمة، اليوم تُسْتحل الْحُرمة».

فسمعها رجل من المهاجرين، قيل: هو عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ فقال: يا رسول الله اسمعْ ما قال سعد، ما نأمن أن تكون له في قريش صَوْلة. فقال رسول الله ﷺ لعلي بن أبي طالب: أدركه فخذ الراية فكن أنت تدخل بها. ويقال: إنه أمر الزبير بذلك وجعله مكان سعد على الأنصار مع المهاجرين. فسار الزبير بالناس حتى وقف بالحَجُون وغرز بها راية رسول الله ﷺ.

وذكر غير ابن إسحاق أن ضِرَار بن الخطاب قال ـ يومئذ ـ شعراً استعطف فيه رسول الله ﷺ على قريش حين سمع قول سعد، وهو من أجود شعر قاله:

يا نبيّ الهُدَى إليك لَجَاحَيُّ قريشٍ ولاتَ حينَ لَجَاءِ
حين ضاقت عليهم سعة الأر ض وعاداهم إلهُ السماءِ
والتقت حَلْقَتا البطان على القو م ونودوا بالصَّيْلم الصَّلْعاء
إنّ سعداً يريد قاصمةَ الظهـ ـرِ بأهل الْحَجُون والبطحاءِ
خَزْرجيٌّ لو يستطيع من الغَيْـ ـظِ رمَانا بالنسر والعوّاءِ

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ٤٠٦.

فانهيْنَه فإنه الأسْـ ـودُ والليثُ والغّ في الدماء
فلئن أقحم اللواءَ ونادَى يا حُماة اللواء أهل اللواء
لتكونَنَّ بالبطاح قريش فقعة القاع في أكفّ الإماء
[الخفيف]

فحينئذ انتزع رسول الله ﷺ الراية من سعد بن عبادة فيما ذكروا. والله أعلم.

وأمر[١] رسولُ الله ﷺ خالد بن الوليد ـ وكان على المجنِّبة اليمنى ـ فدخل من اللِّيط أسفلَ مكة، فلقيته بنو بكر فقاتلوه فقتل منهم قريب من عشرين رجلاً ومن هذيل ثلاثة أو أربعة، وانهزموا وقتلوا بالحَزْورة حتى بلغ قتلهم باب المسجد، وهرب فَضَضهم حتى دخلوا الدور، وارتفعت طائفة منهم على الجبال واتبعهم المسلمون بالسيوف.

وأقبل أبو عبيدة بن الجراح بالصف من المسلمين ينصبُّ لمكة بين يدي رسول الله ﷺ.

ودخل رسول الله ﷺ من أذَاخر في المهاجرين الأولين حتى نزل بأعلى مكة وضُربت هناك قبته. ولما علا رسولُ الله ﷺ ثنية كَدَاء نظر إلى البارقة على الجبل مع فضَض المشركين فقال: ما هذا وقد نَهيْت عن القتال؟ فقال المهاجرون: نظن أن خالداً قوتل وبُديء بالقتال فلم يكن بدّ من أن يقاتل من قاتَله، وما كان يا رسول الله ليعصيك ولا ليخالف أمرك. فهبط رسول الله ﷺ من الثنية فأجاز على الحجُون.

واندفع الزبير بن العوام بمن معه حتى وقف بباب الكعبة.

وجرح رجلان من أصحاب رسول الله ﷺ.

وكان[٢] رسول الله ﷺ قد عهد إلى أمرائه من المسلمين حين أمرهم أن

(١) المصدر السابق ج٢ ص ٤٠٧.
(٢) نفسه ج ٢ ص ٤٠٩ ـ ٤١١.

يدخلوا مكة أن لا يقاتلوا إلا من قاتلهم، إلا أنه قد عَهِد في نفرٍ سمّاهم أمر بقتلهم وإن وجدوا تحت أستار الكعبة منهم: عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح، وكان قد أسلم وكتبَ الوحيَ لرسول الله ﷺ ثم ارتد مشركاً ففر يومئذ إلى عثمان بن عفان وكان أخاه من الرضاعة فغيّبه حتى أتى به رسول الله ﷺ بعد أن اطمأن الناس فاستأمن له. فزعموا أن رسول الله ﷺ صمت طويلاً ثم قال: نعم. فلما انصرف عنه عثمان قال رسول الله ﷺ لمن حوله من أصحابه: لقد صمت ليقوم إليه بعضكم فيضرب عنقه. فقال رجل من الأنصار: فهلّا أومأت إليّ يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «إن النبي لا يقتل بالإشارة». وفي رواية: «إن النبي لا ينبغي أن تكون له خائنة أعين».

ومنهم: عبد الله بن خَطَل - رجل من بني تيم بن غالب - كان مسلماً فبعثه رسول الله ﷺ مُصَدّقاً وكان معه رجل مسلم يخدمه فأمره أن يصنع له طعاماً ونام، فاستيقظ ولم يصنع له شيئاً فعدا عليه فقتله ثم ارتد مشركاً، وكانت له قَيْنتان تغنيان بهجاء رسول الله ﷺ، فأمر بقتلهما معه، فقتلت إحداهما وهربت الأخرى حتى استؤمن لها رسول الله ﷺ فأمّنها.

وقيل - يومئذ - لرسول الله ﷺ: إن ابن خَطل متعلق بأستار الكعبة؛ فقال: اقتلوه. فقتله سعيد بن حُرَيْث المخزومي وأبو بَرْزة الأسلمي اشتركا في دمه.

ومنهم: الْحُوَيْرث بن نُقَيْذ بن وهب بن عبد بن قصي وكان ممن يؤذي رسولَ الله ﷺ بمكة، ولما حمل العباسُ بن عبد المطلب فاطمةَ وأم كلثوم بنتي رسول الله ﷺ من مكة يريد بهما المدينة نخس بهما الحويرث هذا فرمى بهما إلى الأرض، فقتله يومَ الفتح عليٌّ بن أبي طالب.

ومنهم: مِقْيس بن صُبَابة/ الليثي، وكان أخوه هشام بن صُبابة قد قتله رجل ٨٥ب من الأنصار خطأ فقدم مِقْيس بعد ذلك على رسول الله ﷺ المدينة مُظْهراً الإسلام حتى إذا وجد غِرَّة من قاتل أخيه عدا عليه فقتله ثم لحق بقريش مشركاً. وقد تقدم ذكر ذلك فلأجله أمر رسول الله ﷺ بقتله، فقتله نُمَيْلة بن عبد الله - رجل من قومه - فقالت أخت مِقْيس في ذلك:

لعَمْري لقد أخزَي نُميلةُ رَهْطَه وفجّع أضياف الشتاء بمقْيس
فلله عَيْنَا من رأى مثل مِقْيس إذا النِّفساء أصبحتْ لم تُخرّس

[الطويل]

ومنهم سارّة مولاة لبني عبد المطلب ولعكرمة بن أبي جهل، وكانت تؤذي رسول الله ﷺ بمكة فاستؤمن لها فأمّنها وبقيت حتى أوْطأها رجلٌ من الناس فرسا في زمان عمر بن الخطاب بالأبطح فقتلها.

وكان صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل وسُهَيْل بن عمرو قد جمعوا أناساً بالْخَنْدَمة ليقاتلوا، فيهم حِمَاس بن قيس بن خالد أخو بني بكر، وكان قد أعدَّ سلاحاً وأصلح منها فقالت له امرأته: لماذا تعدّ ما أرى؟ قال: لمحمد وأصحابه. قالت: والله ما أراه يقوم لمحمد شيء! قال: والله إني لأرجو أن أُخْدِمك بعضهم! ثم قال:

إنْ يُقْبلوا اليوم فمالي عِلّه هذا سلاحٌ كامل وألّه
وذو غِرَارَيْن سريع السَّله

[السريع]

ثم شهد الخَنْدمة، فلما لقيهم المسلمون من أصحاب خالد بن الوليد ناوشوهم شيئاً من قتال، فقتُل كرز بن جابر وخُنَيْس بن خالد كانا في خيل خالد فشذّا عنه وسلكا طريقاً غير طريقه فقتلا جميعاً وأصيب سلمة بن المَيْلاء الْجَهني من خيل خالد، وأصيب من المشركين ناس ثم انهزموا فخرج حِمَاس منهزماً حتى دخل بيته وقال لامرأته: أغلقي عليَّ بابي.

قالت: فأين ما كنت تقول؟ فقال:

إنكِ لو شهدتِ يومَ الخَنْدَمه إذ فرَّ صفوانُ وفرَّ عِكْرمهْ
واستقبلتهم بالسيوفِ المسْلمه يَقْطعن كلَّ ساعد وجُمْجمه
ضرباً فلا تسمع إلا غَمْغمه لهم نَهيت خلفنا وهَمْهمه
لم تَنْطقي في اللوم أدنى كلمه

[الرجز]

وقال رسول الله ﷺ لخالد بن الوليد : لم قاتلت وقد نهيتك عن القتال ؟ قال : هم بدأونا ووضعوا فينا السلاح وأشعرونا النَّبْلَ ، وقد كففتُ يدي ما استطعت . فقال رسول الله ﷺ : قضاء الله خير .

وفرَّ ـ يومئذ ـ صفوان بن أمية عامداً للبحر وعكرمة بن أبي جهل عامداً لليمن ، فأقبل عُمَيْر بن وهب بن خلف إلى رسول الله ﷺ فقال : يا نبي الله ، إن صفوان بن أمية سيّد قومه وقد خرج هارباً منك ليقذف نفسه في البحر فأمِّنْه صلى الله عليك فإنك قد أمَّنت الأحمر والأسود . فقال رسول الله ﷺ : أدرك ابنَ عمك فهو آمِن . قال : يا رسول الله ، فأعطني آيةً يعرف بها أمانك . فأعطاه رسول الله ﷺ عمامته التي دخل فيها مكة . فخرج بها عمير حتى أدركه [بُجدّة] وهو يريد أن يركب البحر فقال : يا صفوان فداك أبي وأمي ! الله الله في نفسك أن تهلكها فهذا أمان من رسول الله ﷺ قد جئتك به قال : ويلك اغرب عني فلا تكلمني .

قال : أيْ صفوان فداك أبي وأمي ! أفضلُ الناس وأبَرّ الناس وأحْلَم الناس وخير الناس ابنُ عمك ، عزّه عزك وشرفه شرفك ومُلكه ملكك .

قال : إني أخافه على نفسي . قال : هو أحْلم من ذلك وأكرم . فرجع معه حتى وقف به على رسول الله ﷺ فقال صفوان : إنّ هذا يزعم أنك أمَّنْتني . قال : صدق . قال : فاجعلني فيه بالخيار شهرين . قال : أنت بالخيار أربعة أشهر .

وأقبلت أم حكيم بنت الحارث بن هشام .وكانت تحت عكرمة بن أبي جهل وهي مسْلمة ـ يومئذ ـ فقالت : يارسول الله ، آمِنْ زوجي وائذن لي في طلبه . فأذن لها وأمَّنه فأدركته ببعض تهامة وقيل : باليمن فأقبل معها وأسلم ، فلما رآه رسول الله ﷺ وثب إليه فرحاً وما عليه رداء .

وكانت فاخِتة بنت الوليد تحت صفوان بن أمية ، وكانت أسلمت أيضاً ، فلما أسلم عكرمة وصفوان أقرَّ رسول الله ﷺ كل واحدة منها عند زوجها على النكاح الأول .

وقالت أم هانىء بنت أبي طالب وكانت عند هبيرة بن أبي وهب المخزومي: لما نزل رسول الله ﷺ بأعلى مكة فرَّ إليّ رجلان من أحمائي من بني مخزوم فدخل عليّ أخي علي بن أبي طالب فقال: والله لأقتلنهما، فأغلقت عليهما بيتي ثم جئت رسول الله ﷺ وهو بأعلى مكة فوجدته يغتسل من جَفْنة إنّ فيها لأثر العجين وفاطمة ابنته تستره بثوبه، فلما اغتسل أخذ ثوبه فتوشّح به ثم صلى ثماني ركعات من الضحى ثم انصرف إليَّ فقال: مرحبا وأهلاً يا أم هانىء، ما جاء بك؟ فأخبرته خبر الرجلين وخبر علي فقال: قد أجَرْنا من أجرت يا أم هانىء وأمَّنا من أمَّنت فلا يقتلهما[1].

قال ابن هشام[2]: هما الحارث بن هشام وزهير بن أبي أمية بن المغيرة.

ولما[3] نزل رسول الله ﷺ مكة واطمأن الناس خرج حتى جاء البيت فطاف به سبعاً على راحلته ليستلم الركن بمحجن في يده، فلما قضى طوافه دعا عثمان بن طلحة فأخذ منه مفتاح الكعبة ففتحت له فدخلها فوجد فيها حمامة من عيدان فكسرها بيده، ثم طرحها، ثم وقف على باب الكعبة فقال:

« لا إله إلا الله، صدَق الله وَعْده، ونصَرَ عبده، وهزَم الأحزابَ وحده، ألاَ كل مَأثرة أو دم أو مال يُدَّعى فهو تحت قدميّ هاتين إلا سَدَانة البيت وسِقَاية الحاج، ألاَ وقتيلُ الخطأ شِبْه العَمْد السوط والعصا ففيه الدِّية مُغلَّظة مائة من الإبل أربعون منها في بطونها أولادها، يا معشر قريش، إنّ الله قد أذهب عنكم نَخْوة الجاهلية وتعظّمها بالآباء، الناسُ لآدم وآدم من تراب. ثم تلا هذه الآية:

﴿يا أيها الناسُ إنّا خلَقْناكم من ذكَرٍ وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائلَ لتَعارَفوا إنّ أكرمكم عندَ الله أتقاكم إن الله عليم خبير﴾ [الحجرات: ١٣].

---

(١) المصدر السابق ج٢ ص ٤١١.

(٢) نفسه.

(٣) نفسه ج ٢ ص ٤١١ - ٤١٢.

ثم قال: يا معشر قريش، ما ترون أني فاعل فيكم؟ قالوا: خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم. ثم قال: اذهبوا فأنتم الطُّلقاء.

ثم[1] جلس رسول الله ﷺ في المسجد فقام إليه عليّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ ومفتاح الكعبة في يديه، فقال: يا رسول الله، اجمعْ لنا الحِجَابة مع السِّقاية
٨٦أ صلى الله عليك./ فقال رسول الله ﷺ: «أين عثمان بن طلحة»؟ فدعى له فقال: «هاك مفتاحك يا عثمان، اليوم يوم بِرّ ووفاء». وقال لعلى فيما حكي ابن هشام: «إنما أعطيكم ما تُرْزَأون لا ما تَرْزأون».

وذكر ابن عُقْبة أن رسول الله ﷺ لما قضي طوافه نزل فأخرجت الراحلة فركع ركعتين ثم انصرف إلى زمزم فاطلع فيها وقال: «لولا أن يُغْلب بنو عبد المطلب على سقايتهم لنزعتُ منها بيدي». ثم انصرف إلى ناحية المسجد قريباً من مقام إبراهيم ـ وكان المقام لاصقاً بالكعبة ـ فأخذه رسول الله ﷺ ودعا رسول الله ﷺ بسَجْل من ماء فشرب وتوضأ والمسلمون يبتدرون وضوءه يصبونه على وجوههم والمشركون ينظرون إليهم ويعجبون ويقولون: ما رأينا مَلِكاً قط بلغ هذا ولا سمعنا به!

وذكر ابن هشام[2] ـ أيضاً ـ أن رسول الله ﷺ دخل البيت يوم الفتح فرأى فيه صور الملائكة وغيرهم، فرأى إبراهيم مصوّراً في يده الأزْلام يستقسم بها، فقال: «قاتلهم الله! جعلوا شيخنا يستقسم بالأزلام؟! ما شأن إبراهيم والأزلام» **﴿ما كان إبراهيمُ يهوديًّا ولا نَصْرانياً ولكن كان حَنيفاً مُسْلماً وما كان من المشركين﴾** [آل عمران: ٦٧] ثم أمر بتلك الصور كلها فطمست.

وعن ابن عباس[3] قال: دخل رسول الله ﷺ مكة يوم الفتح على راحلته فطاف عليها وحول البيت أصنام مشدَّة بالرصاص فجعل النبي يشير بقضيب

---

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ٤١٢.
(٢) نفسه ج٢ ص ٤١٣.
(٣) نفسه ج ٢ ص ٤١٧.

في يده إلى الأصنام وهو يقول: ﴿جاء الحقُّ وزهق الباطل إنّ الباطل كان زَهُوقاً﴾ [الإسراء٨١] فما أشار إلى صنم منها في وجهه إلا وقع لقفاه ولا أشار إلى قفاه إلا وقع لوجهه، حتى ما بقي صنم إلا وقع. فقال تميم بن أسد الخزاعي:

وفي الأصنـــــــام مُعْتبر وعلمٌ   لمن يرجو الثوابَ أو العقابَا

[الوافر]

وأراد(١) فَضَالة بن عُمَير بن الملوّح الليثي قتلَ النبي ﷺ وهو بالبيت عام الفتح، فلما دنا منه قال رسول الله ﷺ: أفضالة؟ قال: نعم فضالة يا رسول الله قال: ماذا كنت تحدّث نفسك؟ فقال: لا شيء، كنت أذكر الله. فضحك النبي ﷺ ثم قال: استغفر الله. ثم وضع يده على صدره فسكن قلبه. فكان فضالة يقول: والله ما رفع يدَه عن صدري حتى ما من خَلْق الله شيء أحبّ إليّ منه. قال فضَالة: فرجعت إلى أهلي فمررت بامرأة كنت أتحدث إليها فقالت: هلم إلى الحديث. فقلت لا. وانبعث فضالة يقول:

قالت هلمّ إلى الحديث فقلت لا   يأبى عليك اللهُ والإسلامُ
لَوْ ما رأيتِ محمداً وقبيله   بالفَتْح يومَ تُكسَّر الأصنامُ
لرأيتِ دِين الله أضحى بيننا   والشِّرك يَغْشى وجهه الإظلامُ

[الكامل]

وأمر(٢) رسول الله ﷺ لما دخل الكعبة عام الفتح بلالاً أن يؤذن، وكان دخل معه، وأبو سفيان بن حرب وعَتّاب بن أَسَيْد والحارث بن هشام جلوس بفناء الكعبة فقال عتّاب: لقد أكرم الله أسيداً أن لا يكون سمع هذا فيسمع منه ما يغيظه. فقال الحارث: أما والله لو أعلم أنه مُحقّ لاتبعته. وقال أبو سفيان: لا أقول شيئاً، لو تكلمت لأخبرته عني هذه الحصباء! فخرج عليهم النبي ﷺ فقال: قد علمتُ الذي قلتم ثم ذكر ذلك لهم، فقال الحارث وعتاب: نشهد أنك

(١) المصدر السابق.

(٢) نفسه ج ٢ ص ٤١٣.

رسول الله، والله ما اطلع على هذا أحدٌ كان معنا فنقول أخبرك.

وقام رسول الله ﷺ حين افتتح مكة على الصفا يدعو وقد أحدقت به الأنصار، فقالوا فيما بينهم: أترون رسول الله ﷺ إذ فتح الله عليه أرضه وبلده يقيم بها.

فلما فرغ من دعائه قال: ماذا قلتم؟ قالوا: لا شيء يا رسول الله. فلم يزل بهم حتى أخبروه فقال: معاذ الله! الْمحيَا مَحْيَاكم والممات مماتكم(١).

وعدت(٢) خزاعةُ الغدَ من يوم الفتح على رجل من هذيل يقال له: ابن الأثْوع فقتلوه وهو مشرك برجل من أسْلم يقال له: أحمرُ بأساً وكان رجلاً شجاعاً وكان إذا نام غطّ غطيطاً مُنْكراً لا يخفي مكانه فكان يبيت في حيّه مُعْتنزاً، فإذا بيّت الحيّ صرخوا: يا أحمر. فيثور مثل الأسد لا يقوم لسبيله شي. فأقبل غزيٌّ من هذيل يريدون حاضره، حتى إذا دنوا من الحاضر قال ابن الأثوع الهذلي: لا تَعْجلوا حتى أنظر فإذا كان في الحاضر أحمر فلا سبيل إليهم فإنّ له غطيطاً لا يخفي. فاستمع فلما سمع غطيطه مشى إليه حتى وضع السيف في صدره ثم تحامل عليه حتى قتله. ثم أغاروا على الحاضر فصرخوا: يا أحمر ولا أحمر لهم! فلما كان الغد من يوم الفتح أتى ابن الأثوع الهُذلي حتى دخل مكة ينظر ويسأل عن أمر الناس وهو على شركه فرأته خزاعة فعرفوه فأحاطوا به وهو إلى جنب جدار من جدر مكة يقولون: أنت قاتل أحمر؟ قال: نعم أنا قاتل أحمر فمه. إذ أقبل خِرَاش بن أمية مشتملاً على السيف فقال: هكذا عن الرجل. قال بعض من حضرهم: ووالله ما نظن إلا أنه يريد أن يفرّج الناسَ عنه، فلّما تفرّجوا حمل[١] عليه فطعنه بالسيف في بطنه، فوالله لكأني أنظر إليه وحِشْوته تسيل من بطنه وإنّ عينيه لترنقّان في رأسه وهو يقول: أقد فعلتموها يا معشر خزاعة! حتى انجعَف فوقع.

١) في الأصل: «حمله».

(١) المصدر السابق ج٢ ص ٤١٦.
(٢) نفسه ج ٢ ص ٤١٤ - ٤١٥.

فقال رسول الله ﷺ لمّا بلغه ما صنع خراش بن أمية: «إن خراشاً لقتّال».
يعيبه بذلك. وقام ﷺ في الناس خطيباً فقال: «يا أيها الناس، إن الله حرّم مكة يوم خلق السموات والأرض، فهي حرام من حرام [الله] إلى يوم القيامة، فلا يحلّ لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يَسْفك فيها دماً ولا يَعْضد فيها شجراً، لم تحلِل لأحد كان قبلي ولا تحلّ لأحد يكون بعدي، ولم تحلّ لي إلا هذه الساعة غضباً على أهلها؛ ألا ثم قد رجعت كحرمتها بالأمس فليبلّغ الشاهد منكم الغائب، فمن قال لكم: إن رسول الله قد قاتل. فقولوا: إن الله قد أحلّها لرسوله ولم يحلّها لكم. يا معشر خُزاعة ارفعوا أيديكم عن القتل فقد كثُر القتل
٨٦ب أن يقع لقد قتلتم قتيلا لأدِيّنه؛ فمن قُتل بعد مقامي هذا فهم بخير/ النظرين إن شاءوا فدمُ قاتله وإن شاءوا فعَقْله».

ثم ودَى رسول الله ﷺ ذلك الرجل الذي قتلت خزاعة.

وأقام رسول الله ﷺ بمكة بعد فتحها خمس عشرة ليلة يَقْصر الصلاة. وكان فتحها لعشر ليال بقين من رمضان سنة ثمان.

وكان مما قيل من الشعر في فتح مكة قول حسان بن ثابت، وذكر ابن هشام(1) أنه قالها قبل الفتح:

عفَتْ ذاتُ الأصابع فالجِواءُ ... إلى عَذْراء منزلها خَلاءُ
ديارٌ من بني الحَسْحاس قَفْرٌ ... تعفّيها الروامسُ والسماءُ
وكانت لا يزال بها أنيسٌ ... خِلاَلَ مُروجها نَعَمٌ وشاءُ
فدَعْ هذا ولكن مَنْ لَطْيف ... يؤرّقني إذا ذهب العِشاءُ
لشَعْثاء التي قد تَيَمّتْه ... فليس لقلبه منه شِفاءُ
كأن سَبيئةً من بيت رأس ... يكون مِزاجُها عسلٌ وماءُ
إذا ما الأشربات ذُكِرْن يوماً ... فهن لطيّب الراح الفِداءُ
نولّيها الملامة إن ألَمْنا ... إذا ما كان مَغْثٌ أو لِحاءُ
ونشربُها فتتركنا ملوكاً ... وأسْداً ما يُنَهْنِهُنا اللقاءُ

(1) المصدر السابق ج٢ ص ٤٢١ - ٤٢٤.

عدِمْنا خيلَنا إن لم تَروْها تثير النَّقْع موعدها كَداءُ
ينازعن الأعِنَّة مُصْغيات على أكتافها الأسدُ الظِّماءُ
تظلّ جيادنا متمطِّرات يلطمهن بالْخُمُر النساءُ
فإمّا تُعْرضوا عنا اعتمَرْنا وكان الفتحُ وانكشف الغطاءُ
وإلا فاصبروا لِجلاَد يَومٍ يعزّ الله فيه من يشاءُ
وجبريلٌ رسول الله فينا وروحُ القدس ليس له كِفاءُ
وقال الله قد أرسلتُ عبداً يقول الحقَّ إنْ نَفَع البلاءُ
شهدتُ به فقوموا صدِّقوه فقلتم: لا نقومُ ولا نشاءُ
وقال الله قد يسَّرتُ جَنْداً هم الأنصارُ عُرْضتها اللقاءُ
لنا في كل يومٍ مِن مَعدّ سِبَابٌ أو قتالٌ أو هِجَاءُ
فنحْكم بالقَوافي من هجانا ونَضْرب حين تختلط الدماءُ
ألاَ أبلغْ أبا سفيان عنِّي مُغَلْغَلة فقد بَرِحَ الخفاءُ
هجوتَ محمداً وأجبتُ عنه وعندَ الله في ذاك الجزاءُ
أتهْجوه ولستَ له بكفءٍ فشرُّكما لْخَيركما الفداءُ
هجوتَ مباركَاً بَرًّا حَنِيفاً أمين الله شيمته الوفاءُ
أمَنْ يهجو رسول الله منكم ويمدحه وينصره سواءُ
فإنّ أبي ووالده وعِرْضي لعرض محمد منكم وقاءُ
لساني صارمٌ لا عَيْب فيه وبَحْري لا تكدِّره الدِّلاءُ

[الوافر]

وقول ابن هشام: إن حسان قال هذا الشعر قبل الفتح ظاهر في غير ما شيء من مقتضياته، ومن ذلك: مقاولته لأبي سفيان وهو ابن الحارث بن عبد المطلب ابن عم رسول الله ﷺ. وقد أسلم قبل الفتح في طريق رسول الله ﷺ إلى مكة كما تقدم.

وكذلك ذكر ابن عُقْبة أن حسان قاله في مَخْرج رسول الله ﷺ إلى مكة،

وأن رسول الله ﷺ لما دخل مكة نظر إلى النساء يَلْطمن الخيل بالخمرُ فالتفت إلى أبي بكر فتبسم لقول حسان في ذلك: يلطّمهن بالخُمر النساء.

وقال أنس بن زنيم الدِّيلي[١] يعتذر إلى رسول الله ﷺ مما قال فيهم عمرو بن سالم الخزاعي:

[و] أنت الذي تُهْدَى مَعَدٌّ بأمره ... بل الله يَهديْهم وقال لك اشهدِ
وما حملتْ من ناقةٍ فوق رَحْلها ... أبرّ وأوْفى ذمةً من محمدِ
أحثّ على خير وأسبغ نائلاً ... إذا راح كالسيف الصّقيل المهندِ
وأكْسي لِبُرْد الخال قبل ابتذاله ... وأعْطَى لرأس السابق المتجرِّدِ
تعلّمْ رسولَ الله أنك مُدْركي ... وأن وعيداً منك كالأخذ باليدِ
تعلّم رسول الله أنك قادرٌ ... على كل صِرْمٍ مُتْهمين ومُنجدِ
تعلم بأن الرّكب رَكْب عُوَيْمر ... هم الكاذبون المخْلفوا كلّ مَوْعدِ
ونبّئوا رسولَ الله أني هجوْتُه ... فلا حملتْ سوْطي إليّ إذاً يدي
سوى أنني قدقلت وَيْلمّ فتية ... أُصيبوا بنَحْس لائِطوبأسْعَدِ
ذؤيبٌ وكلثوم وسَلْمى تتابعوا ... جميعاً فإن لا تَدْمع العينُ أكْمدِ
أصابهمُ من لم يكن لدمائهم ... كفاءً فعزّت عَبْرتي وتبلّدِي

[الطويل]

وقال بجير بن زُهَيْر بن أبي سُلْمى[٢] في يوم الفتح:

نفي أهل الحبلّق كلَّ فج ... مَزَيْنة غدوةً وبنو خُفافِ
ضربناهم بمكة يومَ فتح النـ ... ـبيَ الخير بالبيض الخفافِ
صَبَحْناهم بسلع من سُليم ... وألف من بني عثمان وافي
نطَا أكتافَهم ضرباً وطعنا ... ورَشْقا بالمريَّشة اللطافِ
ترى بَيْن الصفوفِ لها حَفِيفاً ... كما انصاع الفُواق من الرصافِ
فرُحْنا والجيادُ تجُول فيهم ... بأرماحٍ مقوّمة الثقافِ

(١) المصدر السابق ج٢ ص ٤٢٤ ـ ٤٢٥.
(٢) نفسه ج ٢ ص ٤٢٥ ـ ٤٢٦.

فـأبنْـــا غـــانمين بما اشتهينــــا وآبـــــوا نــــــادمين على الخلافِ
وأعطينــــا رســــول الله منّـــا مـــواثيقـاً على، حُسْـن التصـافي
وقـد سمعـوا مقـالتـنـا فهمُّـوا غـــداةَ الرّوْع منـا بـــانصرافِ
[الوافر]

وقال عباس بن مِرْداس السلْمى[1] في فتح مكة:
مِنّـا بمكـــة يــوم فَتْـــح محمدٍ ألـفٌ تسيـل بـه البِطَـاح مُسَـوّمُ
نَصروا الرسـول وشاهـدوا أيامـه وشعـارهـم يـوم اللقــاء مقـدّمُ
في منـزل ثبتـتْ بـه أقــدامُهــم ضَنْـك كـأن الهامَ فيـه الحنتمُ
جـرّت سنَابكهـا بنجـد قبلهـا حتى استعَـاد لها الحجازُ الأدْهـم
الله مكّنـــه لـــه وأذلّـــه حكم السيـوف لنـا وَجـدٌّ مِـزحـمُ
[الكامل]

وقال نُجيَد بن عمران الخزاعي:
وقـد أنشـأ الله السحـابَ بنصـرنـا رُكَـام سحـاب الهَيْـدب المتراكـبِ
وهِجـرتنـا في أرضنـا عنـدنـا بها كتاب أتى من خير مُملٍ وكـاتـبِ
ومـن أجلنـا حَلّـت بمكـة حُـرْمـة لندرك ثأراً بالسيـوف القـواضـبِ
[الطويل]

ولما فتح الله على رسولـه ﷺ مكة بعث السرايا فيما حولها يدعو إلى الله، ولم يأمرهم بقتال.

وكان[2] ممن بعث خالدُ بن الوليد، وأمره أن يسير بأسفل تهامة داعياً ولم يبعثه مقاتلاً، ومعه قبائل من العرب، فوطئوا بني جَذِيمة بن عامر بن عبد مناة بن كنانة. فلما رآه القوم أخذوا السلاح، فقال خالد: ضعوا السلاح فإن الناس قد أسلموا. فقال رجل منها يقال له جَحْدم: ويلكم يا بني جذيمة إنه خالد! والله ما

(١) المصدر السابق ج٢ ص ٤٢٦ ـ ٤٢٧.
(٢) نفسه ج ٢ ص ٤٢٨ ـ ٤٢٩.

بعد وَضْع السلاح إلا الإسار، وما بعد الإسار إلا ضَرْب الأعناق، والله لا أضع سلاحي أبداً. فأخذه رجال من قومه فقالوا: يا جَحْدم، أتريد أن تسفك
٨٧أ دماءَنا؟/ إن الناس قد أسلموا ووضعت الحرب وأمِنَ الناس، فلم يزالو به حتى نزعوا سلاحه ووضع القوم السلاح لقول خالد.

فلما وضعوه أمر بهم خالد عند ذلك فكتّفوا ثم عرضهم على السيف فقتل من قتل منهم. وقال لهم جحدم حين وضعوا سلاحه ورأى ما يُصنع بهم: يا بني جذيمة ضاع الضَّرْب! قد كنت حذرتكم ما وقعتم فيه.

فلما[1] انتهى الخبر إلى رسول الله ﷺ رفع يديه إلى السماء ثم قال: «اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد». وقال رسول الله ﷺ لرجل انفلت منهم فأتاه بالخبر: هل أنكر عليه أحد؟ فقال: نعم، قد أنكر عليه رجل أبيض رَبْعة فنهمَه خالد فسكت عنه، وأنكر عليه رجل أحمر مضطرب فراجعَه فاشتدَّت مراجعتهما. فقال عمر بن الخطاب: أما الأول يا رسول الله فابني عبدالله، وأما الآخر فسالم مولى أبي حُذيفة..

وذكروا[2] أن رسول الله ﷺ قال: «رأيتُ كأني لقمتُ لقمةً من حَيْس فالتذَذْتُ طعمها فاعترض في حَلْقي منها شيء حين ابتلعتها فأدخل عليٌّ يدَه فنزعه». فقال أبو بكر: هذه سَرية من سَراياك تبعثها فيأتيك منها بعضُ ما تحبّ ويكون في بعضها اعتراض فتبعث عليًّا فيسهّله.

ثم[3] لما كان من خالد في بني جَذِيمة ما كان دعا رسول الله ﷺ عليّ بن أبي طالب فقال: «يا علي اخرج إلى هؤلاء القوم فانظر في أمرهم واجعل أمرَ الجاهلية تحت قدميك». فخرج عليّ حتى جاءهم ومعه مال قد بعث به رسول الله ﷺ فودى لهم الدماء وما أصيب من الأموال حتى إنه ليَدي لهم ميلغة الكلب، حتى إذا لم يبق شيء من دم ولا مال إلا ودَاه بقيت معه بقية من المال فقال لهم

(١) المصدر السابق ج٢ ص ٤٢٩.
(٢) نفسه.
(٣) نفسه ج ٢ ص ٤٣٠.

على حين فرغ منه: هل بقي دمٌ أو مال لم يودَ لكم؟ قالوا: لا؛ قال: فإني أعطيكم هذه البقية من هذا المال احتياطاً لرسول الله ﷺ مما لا يعلم ولا تعلمون.

ففعل ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر، فقال: أصبْتَ وأحسنت.

ثم قام رسول الله ﷺ فاستقبل القبلة قائماً شاهراً يديه حتى إنه ليُرى ما تحت مَنْكبيه يقول: اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالدُ بن الوليد، ثلاث مرات.

وقد قال بعض من يعذر خالداً: إنه قال: ما قاتلت حتى أمرني بذلك عبدُ الله بن حُذافة السّهمي وقال: إن رسول الله ﷺ أمر أن تقاتلهم لامتناعهم من الإسلام (١).

وحدّث ابن أبي حَدردَ الأسلميّ قال(٢):

كنت يومئذ في خيل خالد بن الوليد فقال لي فتى من بني جَذِيمة وهو في سنّي وقد جمعت يداه إلى عنقه برُمة ونسوةٌ مجتمعات غير بعيد منه: يا فتى. قلت: ما تشاء؟ قال: هل أنت آخذٌ بهذه الرُّمّة فقائدي إلى هؤلاء النسوة حتى أَقْضى إليهن حاجة ثم تردّني بعدُ فتصنعوا بي بَعْدُ ما بدا لكم؟ قال قلت: والله ليسير ما طلبت. فأخذتُ برُمّته فقدته بها حتى أوقَفْته عليهن فقال: اسْلَمي حُبَيْش على نَفَد العيش.

أرَيْتُك إذ طالبْتكم فوجدتْكم ... بحَلْية أو ألفَيْتكم بالخوانق
ألم يكُ أهلاً أن يُنَوَّل عاشقٌ ... تكلّف إدلاجَ السُّرَي والودائِقِ
فلا ذَنْبَ لي قد قلتُ إذ أهلُنا معاً ... أثِيبي بودٍّ قبل إحدى الصّفائقِ
أثِيبي بودٍّ قَبْلَ أن تشْحَط النّوي ... ويَنأي الاميرُ بالحبيب المفارِقِ
[الطويل]

فقالت: وأنت فحييت سَبْعاً وعَشَرا وِتراً وثمانيا تَتْرى. قال: ثم انصرفتُ به فضُربت عنقه. فحدّث من حضرها أنها قامت إليه حين ضُربتْ عنقه فما زالت تقّبله حتى ماتت عنده.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) نفسه ج ٢ ص ٤٣٣ ـ ٤٣٤.

وخرّج النسائي هذه القصة في مصنّفة في باب «قتل الأساري» من حديث ابن عباس أن النبي ﷺ بعث سريةّ فغنموا وفيهم رجل قال: إني لست منهم، عشقت امرأة فلحقتها فدعُوني أنظر إليها نظرةَ ثم اصنعوا بي ما بدًا لكم. قال: فإذا امرأة طويلة أدْماء فقال: اسْلمي حُبيش قبل نَفد العيش وذكر بعض الشعر المتقدم وبعده: قالت: نعم فَدَيْتُك. قال: فقدّموه فضربوا عنقه فجاءت المرأة فوقفت عليه فشهقت شهقة أو شهقتين ثم ماتت، فلما قدِموا على رسول الله ﷺ أخبروه الخبر فقال ﷺ: «أما كان فيكم رجل رحيم»[1].

ثم[2] بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى العُزّي وكانت بنخْلة، وكان بيتاً تعظمه قريش وكِنانة ومُضر كلها، وكان سَدَنتها وحُجّابها بني شيبان من بني سليم حلفاء بن هاشم؛ فلما سمع صاحبها السُّلَمي بسَيْر خالد إليها علّق عليها سيفه وأسند في الجبل الذي هو فيه وهو يقول:

[أ]يا عُزّ شُدّي شدة لا شوى لها على خالد ألقى القِناع وشمّري

[أ]يا عُزَّ إن لم تَقْتلي المرءَ خالداً فبُوئي بإثم عاجلٍ أو تنصرّي

[الطويل]

فلما انتهى إليها خالد هَدمها. ثم رجع إلى رسول الله ﷺ.

* * *

(١) وراجع: الواقدي. المغازي ج٣ ص ٨٧٩، ابن سعد. الطبقات ج٢ ص ١٤٩، الطبري. التاريخ ج٣ ص ٦٩، النويري. نهاية الأرب ج١٧ ص ٣٢٢ - ٣٢٣.

(٢) ابن هشام. السيرة ج ٢ ص ٤٣٦ - ٤٣٧.

غزوة حنين

ولما[1] سمعت هَوازن برسول الله ﷺ وما فتح الله عليه من مكة جمعها مالك ابن عوف النَّضْرى فاجتمع إليه مع هَوازن ثقيف كلها واجتمعت نَصْر وجُشَم كلها وسعد بن بكر وناس من بني هلال وهم قليل، ولم يشهدها من قيس عَيْلان إلا هؤلاء. وفي بني جُشَم دُرَيْد بن الصِّمة شيخ كبير ليس فيه شيء إلا التيمن برأيه ومعرفته بالحرب، وجِمَاعُ أمرِ الناس إلى مالك بن عوف. فلما أجمع السير إلى رسول الله ﷺ حَطَّ مع الناس أموالهم ونساءَهم وأبناءَهم، فلما نزل بأوطاس اجتمع إليه الناس وفيهم دُرَيْد بن الصِّمة في شِجار له يُقاد به. فلما نزل قال: في أيّ وادٍ أنتم؟ قالوا: بأوْطاس. قال: نعم مجال الخيل لا حَزْن ضَرْس ولا سَهْل دَهْس، مالي أسمع رغاء البعير ونُهَاق الحمير وبكاءَ الصغيرِ ويُعار الشاء؟ قالوا: ساق مالك بن عوف مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم. قال: أين مالك؟ فدعي له فقال: يا مالك، إنك أصبحت رئيس قومك، وإن هذا يومٌ له ما بَعده، مالي أسمع رُغاء البعير ونُهاق الحمير وبكاءَ الصغير ويُعار الشاء؟ قال: سقتُ مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم أردتُ أن أجعل خلف كل رجل منهم أهلَه وماله ليقاتل/ عنهم قال: فانْقَض به وقال: راعى ضأنٍ والله! وهل يردّ ٨٧ب
المنهزمَ شيء؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجلٌ بسيفه ورمحه، وإن كانت عليك فُضحتَ في أهلك ومالك.

ثم قال: ما فعلتْ كعبٌ وكلاب؟ قالوا: لم يشهدها منهم أحد. قال: غاب الحدُّ والجدُّ لو كان يوم عَلاء ورفعة لم تغب عنه كعب وكِلَاب، ولَودِدْت أنكم فعلتم ما فعلتْ كعب وكلاب، فمن شهدها منكم؟ قالوا: عمرو بن عامر

---

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ٤٣٧ - ٤٣٩.

وعوف بن عامر. قال: ذانك الْجَذْعان لا ينفعان ولا يَضرّان! يا مالك، إنك لم تصنع بتقديم بَيْضة هَوازن إلى نحور الخيل شيئاً، ارفعهم إلى مُمتنع بلادهم وعَلْياء قومهم ثم الق الصُّبَّا على مُتون الخيل فإن كانت لك لحق بك من وراءك، وإن كانت عليك ألفاك ذلك وقد أحرزت أهلك ومالك.

قال: والله لا أفعل، إنك قد كبرتَ وكبر عقلك والله لَتُطيعنّني يا معشر هَوازن أو لأتكئَنّ على هذا السيف حتى يخرج من ظهري. وكره أن يكون لدُرَيْد فيها ذِكر أو رأي، قالوا: أطعْناك.

فقال دريد [ابن الصمة][1]: هذا يومٌ لم أشهده ولم يفتني.

يـــا ليتني فيهـــا جَـــذَعْ أَخُـــبُّ فيهـــا وأضَـــعْ

[الرجز]

ثم قال مالك للناس[2]: إذا رأيتموهم فاكسروا جفون سيوفكم ثم شُدُّوا شدة رجل واحد.

وبعث[3] مالكُ بن عوف عيوناً من رجاله فأتوه وقد تفرقت أوصالهم فقال: ويلكم ما شأنكم؟ قالوا: رأينا رجالاً بيضاً على خيل بُلْق والله ما تماسَكْنا أن أصابنا ما ترى.

فوالله ما ردّه ذلك عن وجهه أن مضى على ما يريد.

ولما[4] سمع بهم نبي الله ﷺ بعث إليهم عبدَ الله بن أبي حَدْرد الأسلْميّ وأمره أن يدخل في الناس ويقيم فيهم حتى يعلم عِلمهم ثم يأتيه بخبرهم، فانطلق ابنُ أبي حَدْرَد فدخل فيهم حتى سمع وعلِم ما قد أجمعوا عليه من حرب رسول الله ﷺ، وسمع من مالك وأمر هَوزان ما هم له ثم أقبل حتى أتى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر.

---

(١) المصدر السابق ج٢ ص ٤٣٩.
(٢) نفسه.
(٣) نفسه.
(٤) نفسه ج٢ ص٤٣٩ ـ ٤٤٠.

فلما[1] أجمع رسول الله ﷺ السير إلى هَوازن ذُكر له أن عند صفوان بن أمية أدراعاً وسلاحاً فأرسل إليه وهو ـ يومئذ ـ مُشرك فقال: يا أبا أمية، أعِرْنا سلاحك هذا نلقي فيها عدوّنا غداً، فقال صفوان: أغَصبا يا محمد؟ فقال: بل عارية مضمونة حتى نؤديها إليك، قال: ليس بهذا بأس. فأعطاه مائة دِرع بما يكفيها من السلاح، فزعموا أن رسول الله ﷺ سأله أن يكفيهم حملها ففعل.

ثم خرج رسول الله ﷺ عامداً لحنين معه ألفان من أهل مكة وعشرة آلاف من أصحابه الذين فتح الله بهم مكة، فكانوا اثني عشر ألفاً.

وذكر أن رسول الله ﷺ قال حين فصَل من مكة إلى حنين ورأى كثرةَ من معه من جنود الله: «لن نُغلَب اليومَ من قِلّة». وزعم بعض الناس أن رجلاً من بني بكرة قالها.

واستعمل رسول الله ﷺ عتّاب بن أسيد بن أبي العيص بن أمية بن عبد شمس على مكة أميراً على من تخلّف عنه من الناس.

ثم مضى رسول الله ﷺ على وجهه يريد لقاء هَوازن.

قال ابن عُقْبة: وكان أهل حُنَيْن يظنون حين دنا منهم رسول الله ﷺ ـ يعني في توجهه إلى مكة ـ أنه باديء بهم، وصنَع الله لرسوله ما هو أحسن من ذلك، فتح له مكة فأقرَّ بها عَيْنه وكبَت بها عدوَّه.

فلما خرج ﷺ إلي حُنَيْن خرج معه أهلُ مكة رُكْباناً ومشاةً، حتى خرج معه النساء يمشين على غير دِين نُظّاراً ينظرون ويرجون الغنائم، ولا يكرهون أن تكون الصدمةُ برسول الله ﷺ وأصحابه.

وحدَّث أبو واقد اللَّيْثي قال[2]: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين ونحن حديثوا عهد بالجاهلية، وكانت لكفار قريش ومن سوَاهم من العرب شجرة خضراء عظيمة يقال لها: ذات أنواط. يأتونها كل سنة فيعلّقون عليها أسلحتهم ويذبحون

---

(١) المصدر السابق ج٢ ص٤٤٠.

(٢) نفسه ج٢ ص٤٤٢.

عندها ويعكفون عليها يوماً، قال: فرأينا ونحن نسير معه سِدْرة خضراء عظيمة فتنادَيْنا من جَنبات الطريق: اجعل لنا ذاتَ أنْواط كما لهم ذات أنواط. فقال رسول الله ﷺ: «الله أكبر! قلتم والذي نفس محمد بيده كما قال قوم موسى: ﴿اجعلْ لنا إلهاً كما لهم آلهة، قال: إنكم قوم تجهَلون﴾ [الأعراف: ١٣٨] فإنها السُّنن لتركبنّ سنن من كان قبلكم».

وحدَّث جابر بن عبد الله قال[1]: لما استقبَلْنا وادي حنين انحدرنا في وادٍ من أودية تِهامة أَجْوف حَطُوط إنما ننحدر فيه انحداراً قال: وذلك في عَمَاية الصبح، وكان القوم قد سبقونا إلى الوادي فكَمنوا لنا في شِعَابه وأحنائه ومَضَايقه، قد أجمعوا وتهيأوا، فوالله ما راعنا ونحن منحطّون إلا الكتائب قد شَدُّوا علينا شَدةً رجل واحد، وانشمر الناسُ راجعين لا يَلْوي أحد على أحد.

وانحاز رسولُ الله ﷺ ذات اليمين ثم قال: «أيها الناس هلم إليّ أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله» قال: فلا شيء! حملت الإبل بعضها على بعض وانطلق الناس، إلا أنه قد بقي مع رسول الله ﷺ نفرٌ من المهاجرين والأنصار وأهل بيته، وفيمن ثبَت معه من المهاجرين: أبو بكر وعمر ومن أهل بيته عليّ بن أبي طالب والعباس وأبو سفيان بن الحارث وابنه والفضل بن عباس وربيعة بن الحارث وأسامة بن زيد وأيمن بن عُبَيْد وهو ابن أم أيمن قُتل يومئذ.

قال: ورجل من هَوازن على جمل له أحمر بيده راية سوداء في رأس رمح طويل أمام هوازن وهم خلفه، إذا أَدْرَك طَعن برمحه وإذا فاته الناس رفع رمحه لمن وراءه فاتبعوه، فبينا ذلك الرجل يصنع ما يصنع إذ أهوى له علي بن أبي طالب ورجل من الأنصار يريدانه قال: فيأتي عليّ من خلفه فضرب عُرْقوبَيْ الجمل فوقع على عَجُزه ووثب الأنصاري على الرجل فضربه ضربةً أطنّ قدمه بنصف ساقه فانجعَف عن رَحْله.

قال ابن إسحاق[2]: فلما انهزم الناسُ ورأى من كان مع رسول الله ﷺ من

(١) المصدر السابق ج٢ ص ٤٤٢ ـ ٤٤٣.
(٢) نفسه ج٢ ص ٤٤٣ ـ ٤٤٤.

جُفاة أهل مكة الهزيمةَ تكلم رجالٌ منهم بما في أنفسهم من الضِّغْن فقال أحدهم: لا/ تنتهي هزيمتهم دون البحر. وإنّ الأزلام لمعه في كِنَانته. وصرخ آخر منهم: ٨٨أ ألَا بطَل السِّحر اليوم! فقال له صفوان بن أمية وهو ـ يومئذ ـ مشرك في المدة التي جَعل له رسول الله ﷺ: اسكت فضَّ الله فاك! فوالله لأن يَرُبَني رجلٌ من قريش أحبُّ إلى من أن يربني رجلٌ من هَوَازن.

وقال شيبة بن عثمان بن أبي طلحة ـ أخوبني عبد الدار ـ وكان أبوه قُتل يوم أحد: قلت: اليوم أدْرك ثأري، اليوم أقتل محمداً. قال: فأدَرْت برسول الله لأقتله فأقبل شيء حتى تغشَّى فؤادي فلم أطق ذلك وعلمت أني ممنوع منه.

وذكر ابن أبي خَيْثمة حديث شيبة هذا، قال: لمّا رأيت النبي ﷺ يوم حنين أعْرِي ذَكرتُ أبي وعمي قتلَها حمزة، قلت: اليومَ أدرك ثأري في محمد. فجئته عن يمينه فإذا أنا بالعباس قائماً عليه دِرْع بيضاء، قلت: عمّه لن يخذله. فجئته عن يساره فإذا أنا بأبي سفيان بن الحارث، قلت: ابن عمه لن يخذله، فجئته من خلفه فدنوتُ ودنوت حتى لم يبق إلا أن أسوّر سَوْرة بالسيف فرفع إليّ شُواظ من نار كأنه البرق فنكصت على عقبي القهقري. فالتفت رسولُ الله ﷺ فقال: يا شيبة ادْنُه. فدنوتُ فوضع يده على صدري فاستخرج الله الشيطان من قلبي فرفعت إليه بصري فلهو أحبّ إليّ من سمعي وبصري، فقال لي: يا شيبة قاتل الكفار. فقاتلت معه ﷺ.

وحدَّث العباس بن عبد المطلب قال(١): إني لمع رسول الله ﷺ آخذٌ بحَكَمة بغلته البيضاء قد شَجَرْتها بها وكنت امرءً جَسيماً شديد الصوت ورسول الله ﷺ يقول حين رأى ما رأى من أمر الناس: أين أيها الناس؟ فلم أر الناس يَلْوون على شيء، فقال: يا عباس اصرخ: يا معشر الأنصار يا معشر أصحاب السَّمُرَة. قال: فأجابوا: لبَّيْك لبيك. قال: فيذهب الرجل ليَثْني بعيره فلا يقدر على ذلك فيأخذ درعه فيقذفها في عنقه ويأخذ سيفه وترسه ويقتحم عن بعيره ويخلّي سبيله فيؤمُّ الصوت حتى ينتهي إلى رسول الله ﷺ، حتى إذا اجتمع إليه منهم مائة

(١) المصدر السابق ج٢ ص ٤٤٤ ـ ٤٤٥.

استقبلوا الناس فاقتتلوا، فكانت الدعوى أول ما كانت للأنصار ثم خلصت آخراً للخزرج وكانوا صُبُراً عند الحرب، فأشرف رسول الله ﷺ في ركائبه فنظر إلى مُجْتَلد القوم فقال: الآن حَمِي الوَطِيس.

قال جابر بن عبد الله في حديثه[1]: واجتلدَ الناسُ، فوالله ما رجعتْ راجعة الناس من هزيمتهم حتى وجدوا الأساري مكتفين عند رسول الله ﷺ!.

قال: والتفت رسول الله ﷺ إلى أبي سفيان بن الحارث وكان حسَن الإسلام وممن صبَر ـ يومئذ ـ معه وهو آخذ بثَغر بغلته فقال: من هذا؟ قال: أنا ابن أمك يا رسول الله.

وذكر ابن عقبة أن رسول الله ﷺ لما غَشِيه القتال ـ يومئذ قام في الرِّكابَيْنْ وهو على البغلة. ويقولون: نزل. فرفع يديه إلى الله يدعوه يقول: اللهم إني أنْشُدك ما وعدتني، اللهم لا ينبغي لهم أن يظهروا علينا. ونادى أصحابه فذَمَرهم: يا أصحاب البَيْعة يومَ الحديبية، يا أصحاب سورة البقرة، يا أنصار الله وأنصار رسوله، يا بني الخزرج. وقبض قبضة من الحصباء فحصب بها وجوه المشركين ونواحيهم كلها. وقال: شاهت الوجوه.

فهزم الله أعداءه من كل ناحية حصَبهم فيها رسول الله ﷺ، واتبعهم المسلمون يقتلونهم وغنَّمهم الله نساءهم وذراريهم وشاءهم وإبلهم، وفر مالك بن عوف حتى دخل حصن الطائف في ناس من أشراف قومه.

وأسلم عند ذلك ناس كثير من أهل مكة وغيرهم حين رأوا نَصْر الله ورسوله وإعزازَ دينه.

وحدَّث جُبَيْر بن مُطعم قال[2]: لقد رأيت قبل هزيمة القوم والناس يقتتلون مثل البِجَاد الأسود أقبل من السماء حتى سقط بيننا وبين القوم، فنظرت فإذا نَمْل أسود مَبْثوث قد ملأ الوادي ولم أشكّ أنها الملائكة، فلم تكن إلا هزيمة القوم.

---

(١) المصدر السابق ج٢ ص ٤٤٥.

(٢) نفسه. ج٢ ص ٤٤٩.

والتفت[1] رسول الله ﷺ يومئذ فرأى أمَّ سُلَيْم بنت مِلْحان، وكانت مع زوجها أبي طلحة وهي حازمةٌ وسطها ببُرْد لها وإنها لحامل بعبدالله بن أبي طلحة، ومعها جمل أبي طلحة قد خشيت أن يَعُزّها فأدنت رأسه منها فأدخلت يدها في خِزَامته مع الخطَام فقال رسول الله ﷺ: أم سلَيم؟!

قالت: نعم، بأبي أنت وأمي يا رسول الله اقتلْ هؤلاء الذين ينهزمون عنك كما تقتل الذين يقاتلونك فإنهم لذلك أهلٌ. فقال رسول الله ﷺ: أو يكفي الله يا أم سُلَيم.

وقال لها أبو طلحة: ما هذا الخنجر يا أم سليم؟ لخنجر رآه عندها. قالت: خنجر اتخذته إن دنا مني أحد من المشركين بَعْجته به. فقال أبو طلحة: ألا تسمع يا رسول الله ما تقول أم سليم!

وحدَّث أنس أن أبا طلحة استلب وحده يوم حنين عشرين رجلاً.

وقال أبو قتادة[2]: رأيت يوم حنين رجلين يقتتلان: مسلماً ومشركاً، فإذا رجل من المشركين يريد أن يُعين صاحبَه المشرك على المسلم فأتيته فضربت يده فقطعتها واعتنقني بيده الأخرى، فوالله ما أرسلني حتى وجدتُ ريحَ الدم. ويروى: ريحَ الموت. فلولا أن الدم نزَفه لَقتلني، فسقط فضربته فقتلته وأجْهَضني عنه القتال. فلما وضعت الحرب أوزارها وفرغنا من القوم، قال رسول الله ﷺ: من قتَل قتيلاً فله سَلبه. فقلت: يا رسول الله والله لقد قتلت قتيلاً ذا سلب فأجهَضني عنه القتال فما أدري من استلبه. فقال رجل من أهل مكة: صدَق يا رسول الله فأرْضه عني من سلَبه. فقال أبو بكر: لا والله لا ترضيه منه تَعْمد إلى أسد من أسد الله يقاتل عن دين الله تُقَاسمه سلبه! اردُدْ عليه سلب قتيله. فقال رسول الله ﷺ: صدَق اردد عليه سلبه.

---

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ٤٤٨ ـ ٤٤٩.

(٢) نفسه ج ٢ ص ٤٤٦ ـ ٤٤٧.

٨٨ب قال أبو قتادة: فأخذته منه/ فبعته فاشتريت بثمنه مَخْرَفاً، فإنه لأول مال اعتقدتُه.

ولما[١] انهزمت هوازن استحرّ القتل من ثقيف في بني مالك، فقتل منهم سبعون رجلاً تحت رايتهم، فيهم عثمان بن عبد الله بن ربيعة ومعه كانت راية بني مالك.

وكانت قبله مع ذي الخِمَار، فلما قُتل أخذها عثمان فقاتل بها حتى قُتل، فلما بلغ رسول الله ﷺ قتله قال: أبعدَه الله، فإنه كان يُبغض قريشاً. وكانت راية الأحلاف مع قارب بن الأسود، فلما انهزم الناس هرب هو وقومه من الأحلاف فلم يُقتل منهم غير رجلين يقال لأحدهما وهب وللآخر الْجُلاَح، فقال رسول الله ﷺ حين بلغه قتل الجلاَح: قتل اليوم سيّد شباب ثقيف إلا ما كان من ابن هُنَيْدة. يعني الحارث بن أويس.

ولما[٢] انهزم المشركون أتوا الطائف ومعهم مالك بن عوف وعسكر بعضهم بأوطاس وتوجّه بعضهم نحو نخلة، وتبعت خيلُ رسول الله ﷺ من سلَكَ في نخلة من الناس ولم تتبع من سلَكَ الثنايا، فأدرك ربيعة بن رُفَيع ـ وكان يقال له: ابن الدُّغُنَّة، وهي أمه غلبت على اسمه ـ أدركَ دُريدَ بن الصِّمة فأخذ بخطام جمله وهو يظن أنه امرأة، وذلك أنه كان في شِجار له، فأناخ به فإذا شيخ كبير وإذا هو دُرَيد ولا يعرفه الغلام، فقال له دريد: ماذا تريد بي؟ قال: أقتلك. قال: ومن أنت؟ قال: أنا ربيعة بن رُفَيع السُّلمي. ثم ضربه بسيفه فلم يُغن شيئاً فقال: بئس ما سلَّحتك أمُّك! خذ سيفي هذا من مؤخَّر الرحل ثم اضرب به وارفع عن العِظَام واخفض عن الدماغ، فإني كذلك كنت أضرب الرجال، ثم إذا أتيتَ أمك فأخبرها أنك قتلت دُرَيد بن الصِّمة فرُبَّ والله يومٍ قد منعتُ فيه نساءك.

فزعم بنو سليم أن ربيعة قال: لما ضربتُه فوقع تكشَّفَ فإذا عِجَانه وبطون فخذيه مثل القرطاس من ركوب الخيل أعْراءً. فلما رجع ربيعة إلى أمه أخبرها بقتله إياه فقالت: أما والله لقد أعتق أمهاتٍ لك ثلاثاً.

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ٤٤٩ ـ ٤٥٠.
(٢) نفسه ج٢ ص ٤٥٣.

وقالت عُمَيْرة بنت دريد[1] ترثي أباها:

قالوا قتلنا دُرَيْداً قلت قد صَدَقوا فظل دمعي على السِّرْبال ينحدرُ
لولا الذي قهر الأقوامَ كلهمُ رأتْ سُلَيم وكعبٌ كيف يأتمرُ

[البسيط]

وبعث[2] رسول الله ﷺ في آثار من تَوجَّه قِبَل أوطاس أبا عامر الأشعري فأدرك بعضَ المنهزمة فناوشوه القتال فرُمي بسهم فقتِلَ فأخذ الراية أبو موسى الأشعري ففتح الله عليه وهزمهم الله.

ويزعمون أن سلمة بن دُرَيْد هو الذي رمى أبا عامر.

وذكر ابن هشام[3] عمن يثق به أنَ أبا عامر الأشعري لقي يوم أَوْطاس عشرة أخوة من المشركين، فحمل عليه أحدُهم فحمل عليه أبو عامر وهو يدعوه إلى الإسلام ويقول: اللهم اشهد عليه. فقتله أبو عامر ثم حمل عليه آخر فحمل عليه أبو عامر وهو يدعوه إلى الإسلام ويقول: اللهم اشهد عليه فقتله أبو عامر، ثم جعلوا يحملون عليه رجلاً بعد رجل ويحمل أبو عامر ويقول ذلك حتى قتل تسعة وبقي العاشر، فحمل على أبي عامر وحمل عليه أبو عامر وهو يدعوه إلى الإسلام ويقول: اللهم اشهد عليه. فقال الرجل: اللهم لا تَشْهَد عليَّ. فكفَّ عنه أبو عامر فأفلت ثم أَسْلَم بعدُ فحسُن إسلامه، فكان رسول الله ﷺ إذا رآه قال: هذا شَريد أبي عامر.

ورَمى أبا عامر يومئذ ـ فيما ذكر ابن هشام ـ أخوان من بني جُشم بن معاوية فأصاب أحدُهما قلبه والآخر ركبته فقتلاه، ووَلِي الناس أبو موسى الأشعري فحمل عليهما فقتلهما.

وذكر ابن إسحاق[4] أن القتل استحرَّ في بني نَصْر بن رئاب، فزعموا أن

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ٤٥٣.
(٢) نفسه ج٢ ص ٤٥٤ ـ ٤٥٥.
(٣) نفسه ج٢ ص ٤٥٧.
(٤) نفسه. ج٢ ص ٤٥٥.

عبد الله بن قيس ـ الذي يقال له: ابنُ العَوْراء، وهو أحد بني وهب بن رئاب ـ قال: يا رسول الله، هلكتْ بنو رئاب. فزعموا أن رسول الله ﷺ قال: اللهم اجْبُرْ مصيبتهم.

وخرج[1] مالك بن عوف عند الهزيمة فوقف في فوارس من قومه على ثَنيّة من الطريق وقال لأصحابه: قفوا حتى يمضي ضعفاؤكم وتَلْحق أخراكم. فوقف هنالك حتى مضى من كان لحق بهم من مُنْهزمة الناس.

قال ابن هشام[2]: وبلغني أن خيلاً طلعت ومالك وأصحابه على الثنيّة فقال لأصحابه: ماذا ترون؟ قالوا: نرى قوماً واضِعي رماحهم بين آذان خيلهم طويلةً بَوادّهم. فقال: هؤلاء بنو سُلَيْم ولا بأس عليكم منهم، فلما أقبلوا سلكوا بطن الوادي، ثم طلعت خيلٌ أخرى تتبعها فقال لأصحابه: ماذا ترون، قالوا: نرى أقواماً عارضي أرماحهم أغْفالاً على خيلهم. قال: هؤلاء الأوس والخزرج ولا بأس عليكم منهم، فلما انتهوا إلى أصل الثنية سلكوا طريق بني سلَيم ثم اطلع فارسٌ فقال لأصحابه: ماذا ترون؟ قالوا: نرى فارساً طويل البادّ واضعاً رمحه على عاتقه عاصباً رأسه بملاءة حمراء. فقال: هذا الزبير بن العوَّام وأحلف باللات ليخالطنكم فاثبتوا له. فلما انتهى الزبير إلى أصل الثنية أبصر القوم فصمد لهم فلم يزل يطاعنهم حتى أزاحهم عنها.

وقال[3] رسول الله ﷺ يومئذ: إن قدرْتم على بِجَاد ـ رجل من بني سعد بن بكر ـ فلا يُفْلتنكم، وكان قد أحدَث حدثاً. فلما ظفر به المسلمون ساقوه وأهلَه وساقوا معه الشَّيماء بنت الحارث بن عبد العُزَّى أخت رسول الله ﷺ من الرضاعة، فعَنُفوا عليها في السِّيَاق فقالت للمسلمين: تعلَّموا والله أني لأخت صاحبكم من الرضاعة. فلم يصدِّقوها حتى أتوا بها النبي ﷺ فلما انتهوا بها إليه قالت: يا رسول الله إني أختك. قال: وما علامة ذلك؟ قالت: عَضّة عضَضْتنيها

---

(١) المصدر السابق.

(٢) نفسه ج ٢ ص ٤٥٦.

(٣) نفسه. ج٢ ص ٤٥٨.

في ظهري وأنا مُتَورِّكتُك، فعرف رسول الله ﷺ العلامة فبسط لها رداءه، فأجلسها عليه وخيّرها، فقال: إذا أحببتِ فعندي مُحَبَّةً مكرَّمة وإن أحببت أن أمتعك وترجعي إلى قومك فعلتُ.

قالت: بل تمتعني وتردني إلى قومي. فمتعها رسول الله ﷺ/ وردها إلى قومها. فزعمت بنو سعد أنه أعطاها غلاماً له يقال له: مكحول، وجارية، فزوجت أحدهما الآخر فلم يزل فيهم من نسلهما بقية. ٨٩أ

وأنزل[1] الله - تبارك وتعالى - في يوم حنين: ﴿لقد نصركم الله في مَواطن كثيرة ويوم حُنَيْن إذ أعْجبتكم كثرتكم فلم تُغْنِ عنكم شيئاً وضاقتْ عليكم الأرضُ بما رَحُبت ثم ولَّيتم مُدْبرين. ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروْها وعذّب الذين كفروا وذلك جَزاءُ الكافرين﴾[٢٥ - ٢٦: التوبة].

واستشهد من المسلمين يوم حنين من قريش ثم من بني هاشم: أيمن بن عُبَيْد مولاهم. ومن بني أسد بن عبد العُزَّى يزيد بن زَمْعة بن الأسود بن المطلب، جمح به فرس يقال له: الجناح فقتل.

ومن الأنصار: سُرَاقة بن الحارث العَجْلاني. ومن الأشعريين أبو عامر الأشعري[2].

ثم جمعت إلى رسول الله ﷺ سبايا حُنين وأموالها فأمر بها إلى الجِعْرانة فحبست بها حتى أدركها هنالك مُنْصرَفَه عن الطائف على ما يذكر بعد إن شاء الله تعالى.

وقال عباس بن مِرْداس السُّلَمي[3] في يوم حنين:

عَفَا مِجْدلٌ من أهله فمتَالعُ   فمِطْلاَ أريكٍ قد خلاَ فالمصانعُ

(١) المصدر السابق ج٢ ص ٤٥٩.

(٢) نفسه.

(٣) نفسه ج ٢ ص ٤٦٢ - ٤٦٣.

دِيارٌ لنا يا جُمْلُ إذ جُلُّ عيشنا ... رَخِيٌّ وصَرْف الدهر للحيِّ جامعُ
حُبَيِّبةُ ألْوَتْ بها غُربةُ النَّوى ... لَبَيْنٍ فهل ماضٍ من العيش راجعُ
فإن تَبْتَغِي الكفار غير مَلُومةٍ ... فإني وزيرٌ للنبيِّ وتابعُ
دعانا إليه خيرُ وَفْد علمتم ... خُزَيْمة والْمَرّار منهم وواسعُ
فجئنا بألفٍ من سُلَيْم عليهم ... لَبُوس لهم من نَسْج داود رائعُ
نبايعه بالأخشَبَيْن وإنما ... يد الله بين الأخشبين نبايعُ
فجسْنا مع المهديِّ مكة عَنْوةً ... بأسيافنا والنَّقْع كابٍ وساطعُ
علانيةً والخيل يَغْشَى متونها ... حَمِيمٌ وآنٌ من دم الجوفِ ناقعُ
ويومَ حُنَيْن حين سارت هَوازنٌ ... إلينا وضاقت بالنفوس الأضالعُ
صبَرْنا مع الضَّحاكِ لا يستفزُّنا ... قراع الأعادي منهم والوقائع
أمام رسول الله يخفق فوقنا ... لواء كخذروف السحابة لامع
عشية ضحّاك بن سفيان مُعْتصٍ ... بسيف رسول الله والموتُ كانع
نَذُود أخانا عن أخينا ولو نرَى ... مِصَالا لكُنّا الأقربين نُتابعُ
ولكنّ دِينَ الله دينُ محمد ... رضينا به فيه الهُدَى والشرائعُ
أقام به بعدَ الضلالة أمْرنا ... وليس لأمرٍ حَمَّه الله دافعُ

وقال عباس(١): أيضاً: [الطويل]

تقطَّع باقي وَصْل أمِّ مؤمَّل ... بعاقِبَة واستبدلتْ نيَّة خَلْفا
وقد حلفَتْ بالله لا تقطع النَّوى ... فما صدَقتْ فيه ولا برَّت الْحَلْفَا
خُفَافِيَة بَطْن العَقِيق مَصِيفُها ... وتحتلُّ في البادِين وَجْرة فالعُرفا
فإن تَتْبع الكفارَ أمُّ مؤمّل ... فقد زَوَّدَتْ قلبي على نأيها شَغْفَا
وسوف يُنَبِّيها الخبيرُ بأننا ... أبَيْنا ولم نطلب سِوَى ربِّنا حلْفَا
وإنا مع الهادي النبيِّ محمد ... وفينا ولم نستوفها معشرٌ ألْفَا
بفتيان صِدْق من سُلَيْم أعزة ... أطاعوا فما يَعْصون من أمره حَرْفَا

(١) المصدر السابق ج٢ ص ٤٦٤ - ٤٦٦.

خفَاف وَذكْـوان وعَـوْف تخَالهم	مَصَاعب زافَتْ في طَرُوقتها كُلْفَا
كأن النَّسِيج الشَّهْب والبَيْض ملْبَس	أسوداً تلاقت في مَرَاصدها غُضْفا
بنا عَزَّ دين الله غير تَنحُّل	وزِدْنا على الحيِّ الذي معه ضِعْفا
بمكة إذ جئنا كأن لواءنا	عُقَاب أرادت بعد تحليقها خطَفا
على شخص الأبصار تحسب بَيْنها	إذا هي جالت في مواردها عزْفاً
غداة وطِئْنا المشركين ولم نجدْ	لأمر رسول الله عَدْلاً ولا صَرْفَا
بمعْتَرك لا يَسْمع القوم وَسْطه	لنا رحْمة إلا التذامر والنَّقْفَا
ببيضٍ تُطير الهام عن مُستقرِّها	وتقطف أعناق الكمَاة بها قَطْفا
فكايِّنَ تركنا من قتيل مُلَحَّب	وأرملة تدعو على بَعْلها لَهْفَا
رضا الله نَنْوي لا رضا الناس نبتغي	ولله ما يَبْدو جميعاً وما يَخفى

[الطويل]

وقال عباس[1] أيضاً:

ما بالُ عينك فيها عائر سَهِر	مثل الْحُمَاطة أغْضَى فوقها الشُّفُرُ
عينٌ تأوَّبها من شَجْوها أرَقٌ	فالماء يَغْمرها طوراً وينحدرُ
كأنه نَظْم دُرٍّ عند ناظمه	تقطَّع السِّلك منه فهو مُنْتثرُ
ما بعد منزل من ترجو مودته	ومن أتى دونه الصَّمَّان فالحفرُ
دَعْ ما تقدَّم من عهد الشباب فقد	ولَّى الشبابُ وزار الشيبُ والزَّعَرُ
واذكر بلاءَ سُلَيم في مواطنها	وفي سُلَيْم لأهل الفخر مفتخَرُ
قومٌ همُ نصروا الرحمن واتبعوا	دِينَ الرسول وأمرُ الناس مُشْتجرُ
الضاربون جنودَ الشِّرك ضاحية	ببطن مكة والأرواح تُبْتدرُ
حتى رفعنا وقتلاهم كأنهمُ	نخلٌ بظاهرة البطحاء مُنْقعرُ
ونحن يوم حنين كان مَشْهدنا	للدين عِزًّا وعند الله مُدَّخَرُ
إذ نَرْكب الموتَ مُخْضرا بطائنه	والخيل ينجاب عنها ساطع كدرُ
تحت اللوامع والضحاك يقدمنا	كما مشى الليثُ في غاباته الخدرُ

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ٤٦٦ - ٤٦٧.

في مَأزِق من مَجرِّ الحرْب كَلْكلها تكاد تأفل منه الشمسُ والقمرُ
وقد صبرنا بأَوْطاس أسنتنا لله ننصر من شئنا وننتصرُ
حتى تأوَّب أقوامٌ منازلهم لولا المليك ولولا نحن ما صدروا
فما ترى معشراً قلّوا ولا كثروا إلا قد اصبح منا فيهم أثَرُ

[البسيط]

وقال عباس بن مرداس[1] ـ أيضاً ـ رضي الله عنه:

يا أيها الرجل الذي تَهْوِي به وَجْناء مُجْمرة المناسم عِرمسُ
إمّا أتيت على النبيّ فقل له حقًّا عليك إذا اطمأن المجلسُ
يا خير من ركب المطيّ ومن مشى فوق التراب إذا تُعدّ الأنفسُ
إنا وفيْنا بالذي عاهَدْتنا والخيل تُقْدَع بالكماة وتُضرس
إذ سال من أفْناء بُهْثة كلها جَمْع تظل به المخارم تَرْجُسُ
حتى صبَحْنا أهلَ مكة فَيْلقاً شهباء يقدمها الهمام الأشْوسُ
من كل أغْلب من سُلَيم فوقه بيضاء مُحْكمة الدِّخَال وقَوْنسُ
وعلي حُنَيْن قد وفى من جَمعْنا ألفٌ أمِدَّ به الرسولُ عَرنْدسُ
كانوا أمام المؤمنين دَريئة والشمس يومئذ عليها أشْمسُ
نمضي ويَحْرسنا الإله بحِفْظه والله ليس بضائع من يَحْرُسُ
ولقد حُبسْنا بالمناقب مَحْبساً رضي الإلهُ بهم فنعم المحبسُ
وغداة أوْطاس شَدَدْنا شدّةً كفت العدوَّ وقيل منها يحبسُ
ندعو هوازنُ بالإخاءة بيننا ثديٌ تمدُّ به هوازن أيْبَسُ
حتى تركنا جمعهم وكأنه عَيْر تعاقبه السِّباعُ مُفَرَّسُ

[الكامل]

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ٤٦٧ ـ ٤٦٨.

وقال عباس بن مِرْداس[1] أيضاً:

//نَصَرْنا رسولَ الله من غضب له ... بألف كَميٍّ لا تُعدُّ حَواسرهْ 89 ب
حملنا له في عامل الرُّمح رايةً ... يَذُود بها في حَوْمة الموت ناصرُهْ
ونحن خضبْناها دماً فهو لونها ... غداة حُنَيْن يوم صَفوان شاجِرهْ
وكنّا على الإسلام مَيْمنةً له ... وكان لنا عَقْدُ اللواء وشاهرُهْ
وكنا له يوم الجنود بِطَانة ... يُشَاورنا في أمره ونُشَاوره
دعانا فسمَّانا الشِّعار مقدَّما ... وكنا له عَوْناً على من يُنَاكره
جزى الله خيراً من نبيٍّ محمداً ... وأيَّده بالنصر والله ناصره

[الطويل]

* * *

(1) المصدر السابق ج ٢ ص ٤٦٨ ـ ٤٦٩.

غزوة الطائف

ولما[1] قدم فَلُّ الطائف أغلقوا عليهم أبواب مدينتها وصنعوا الصنائع للقتال، ولم يشهد حُنَيْناً ولا الطائف عروةُ بن مسعود ولا غَيْلان بن سلَمة، كانا بجُرَش يتعلمان صنعة الدبابات والْمَجانيق والضُّبُور.

ثم سار رسول الله ﷺ إلى الطائف حين فرغ من حنين، فقال كعب بن مالك[2] حين أجمع رسولُ الله ﷺ السَّير إليها:

قضَيْنا من تِهَامة كلَّ رَيْب … وخيبر ثم أجْمَمْنا السيوفاَ
نخيِّرها ولو نطقت لقالت … قواطعهن: دَوْساً أو ثقيفَا
فلستُ لحاضن إن لم تَرَوْها … بساحة داركم منّا ألوفَا
وننتزع العروش ببطن وجّ … وتصبح دوركم منكم خلوفَا
ويأتيكم لنا سَرَعان خيل … يغادر خَلْفه جمعاً كثيفاً
إذا نزلوا بساحتكم سمعتم … لها مما أناخ بها رَجيفَا
بأيديهم قَوَاضب مُرْهَفات … يُزِرْن المصْطلين بها الحتوفَا
كأمثال العقائق أخْلصَتْها … قيونُ الهند لم تُضْرب كتيفَا
تخال جَديّة الأبطال فيها … غداة الرَّوْع جاديًّا مَدُوفَا
أجدَّهم أليس لهم نصيحٌ … من الأقوام كان بنا عَريفاً
يخبِّرهم بأنا قد جَمْعنا … عِتَاق الخيل والنُّجُبَ الطُّروفَا
وأنّا قد أتيناهم بزَحْفٍ … يحيط بسُور حصنهم صُفُوفاً
رئيسهم النبيّ وكان صلْباً … نقيّ القلبْ مُصْطبراً عَزُوفَا

---

(1) ابن هشام. السيرة ج ٢ ص ٤٧٨.
(2) نفسه ج ٢ ص ٤٧٩ - ٤٨٠.

رشيد الأمر ذا حُكْم وعِلْم | وحِلْم لم يكن نَزِقاً خفيفَا
نطيع نبينا ونطيع رَبًّا | هو الرحمن كان بنا رءوفاً
فإن تُلقوا إلينا السّلم نقبل | ونجعلكم لنا عَضداً وريفَا
وإن تأبوا نُجَاهدكم ونَصْبر | ولا يك أمْرنا رَعِشاً ضعيفَا
نُجَالد ما بقينا أو تنيبوا | إلى الإسلام إذعاناً مُضيفَا
نجاهد لا نُبالي ما لقينا | أأهْلكنا التِّلاد أم الطَّريفَا
وكم من مَعْشَر ألَبُوا علينا | صَميم الجِذْم منهم والحليفَا
أتونا لا يرون لهم كفَاء | فجدَّعْنا المسامعَ والأنوفا
بكل مهنَّد لَيْن صَقِيل | نَسُوقهمُ بها سَوْقا عنيفَا
لأمر الله والإسلام حتى | يقوم الدين معتدلاً حَنيفَا
وتُنسى اللاتُ والعُزّى ووَدّ | ونَسْلبها القلائد والشُّنوفا
فأمسَوْا قد أقرّوا واطمأنوا | ومن لا يمتنع يَقْبل خُسوفا

[الوافر]

وسلك(١) رسول الله ﷺ على نخلة اليمانية، وانتهى إلى بُحْرة الرُّغاء فابتني بها مسجداً فصلّى فيه وأقاد فيها ـ يومئذ ـ بدم رجل من هذيل قتله رجل من بني ليث فقتله به، وهو أول دم أُقيد به في الإسلام، وأمر في طريقه بحصن مالك بن عوف فهدِم. ثم سلك في طريق فسأل عن اسمها فقيل له: الضيِّقة. فقال: بل هي اليسرى. ثم خرج منها حتى نزل تحت سدْرة يقال لها: الصادرة ـ قريباً من مال رجل من ثقيف ـ فأرسل إليه رسول الله ﷺ: إما أن تخرج وإما أن نخرب عليك حائطك. فأبى أن يخرج فأمر بإخرابه.

ثم(٢) مضى حتى نزل قريباً من الطائف فضرب به عسكره، فقُتل ناسٌ من أصحابه بالنَّبْل، وذلك أن العسكر اقترب من حائط الطائف، فكانتَ النبل تنالهم، ولم يَقْدر المسلمون على أن يدخلوا حائطهم، أغلقوه دونهم.

---

(١) المصدر السابق ج٢ ص ٤٨٢.
(٢) نفسه.

فلما أصيب أولئكِ النفر من أصحابه بالنَّبْل وضع عسكره عند مسجده الذي بالطائف اليوم فحاصرهم بضعاً وعشرين ليلة. وقيل: بضع عشرة ليلة ومعه امرأتان من نسائه، إحداهما أم سَلَمة، فضرب لهما قبتين ثم صَلَّى بينهما، فلما أسلمت ثقيف بني عَمْرُو بن أمية بن وهب بن مُعتِّب بن مالك على مُصَلاَّه ذلك مسجداً. وكانت فيه سارية ـ فيما يزعمون ـ لا تَطلع الشمس عليها يوماً من الدهر إلا سُمع لها نقيض.

فحاصرهم رسول الله ﷺ وقاتلهم قتالاً شديداً، وتراموا بالنّبْل، ورماهم رسول الله ﷺ بالمنجنيق فيما ذكر ابن هشام. قال: وهو أول من رمى به في الإسلام إذ ذاك.

حتى[1] إذا كان يومُ الشَّدْخة عند جدار الطائف دخل نفر من أصحاب رسول الله ﷺ تحت دبّابة ثم رجعوا بها الى جدار الطائف ليحرقوه، فأرسلت عليهم ثقيف سكك الحديد مُحماة بالنار، فخرجوا من تحتها فرمتهم بالنّبْل فقتلوا منهم رجالاً، فأمر رسول الله ﷺ بقطع أعتاب ثقيف فوقع الناس فيها يقطعون، وتقدم أبو سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة إلى الطائف فناديَا ثقيفاً أن آمِنونا حتى نكلمكم فآمنُوهما. فدعَوْا نساءً من نساء قريش وبني كنانة منهن ابنة أبي سفيان ليخرجْن إليهما وهما يخافان عليهن السِّباء فأبَيْن، فلما أبَيْن قال لهما الأسود بن مسعود: يا أبا سفيان ويا مغيرة ألا أدلكما على خير مما جئتما له؟ إن مال بني الأسود حيث علمتما، وكان رسول الله ﷺ نازلاً بينه وبين الطائف بواد يقال له العَقِيق، إنه ليس بالطائف مال أبعدَ رِشَاءً ولا أشد مؤنة ولا أبعد عِمَارة من مال بني الأسود وإن محمدا إن قطعه لم يَعْمر أبداً، فكلماه فليأخذه لنفسه أو ليدَعْه لله وللرّحم، فإن بيننا وبينه من القرابة ما لا يجهل.

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ٤٨٣.

فزعموا[1] أن رسول الله ﷺ تركه لهم. وقال رسول الله ﷺ فيما ذكر لأبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ وهو مُحَاصر ثقيفاً: يا أبا بكر، إني رأيت أني أهديتْ إلى قَعْبة مملوءة زبداً فنقرها ديك فهراق ما فيها. فقال: ما أظن أن تدرك منهم يومك هذا ما تريد. فقال رسول الله صلى الله عليه/ وسلم: وأنا لا أرى ذلك. ١٩٠ أ

ثم[2] إن خُويلة بنت حكيم السلمية، امرأة عثمان بن مَظْعون قالت: يا رسول الله أعطني إن فتح الله عليك الطائف حُلِيّ بادية بنت غَيْلان أو حُلِيّ الفارعة ابنة عقيل. وكانتا من أحْلى نساء ثقيف. فذكر أن رسول الله ﷺ قال لها: وإن كان لم يُؤذَن في ثقيف يا خُوَيلة؟ فخرجت خويلة فذكرت ذلك لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، فدخل عمر على رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، ما حديثٌ حدّثتنيه خويلة، زعمت أنك قلته؟ قال: قد قلته. قال: أو ما أُذن فيهم يا رسول الله؟ قال: لا. قال: أفلا أؤذّن بالرحيل؟ قال: بلى، فأذّن عمر بالرحيل فلما استقلّ الناسُ نادى سعيد بن عبيد: ألا إن الحي مقيم. يقول عيينة بن حصن: أجل والله مَجَدةً كِراماً! فقال له رجل من المسلمين: قاتلك الله يا عيينة؟ أتمدح المشركين بالامتناع من رسول الله ﷺ وقد جئت تنصره؟ قال: إني والله ما جئت لأقاتل ثقيفاً معكم، ولكني أردت أن يفتح محمد الطائف فأصيب من ثقيف جارية أتّطئها لعلها تلد لي رجلاً فإن ثقيفاً قومٌ مناكير.

ونزل على رسول الله ﷺ في إقامته عليهم عبيدٌ لهم فأسلموا فأعتقهم رسول الله ﷺ، فلما أسلم أهل الطائف تكلم نفر منهم [في] أولئك العبيد، فقال رسول الله ﷺ: لا، أولئك عتقاء الله.

---

(١) المصدر السابق ج٢ ص ٤٨٤.

(٢) نفسه ج ٢ ص ٤٨٤.

واستشهد[1] بالطائف من أصحاب رسول الله ﷺ اثنا عشر رجلاً، سبعة من قريش وأربعة من الأنصار ورجل من بني ليث. ثم انصرف رسول الله ﷺ عن الطائف حتى نزل الجِعْرانة وإليها كان قدم سبي هوازن وأموالهم، وقال له رجل من أصحابه يوم ظَعن عن ثقيف: يا رسول الله، ادع عليهم فقال: اللهم اهد ثَقِيفاً وائت بهم.

ثم[2] أتاه وفد هَوازن بالجعرانة، وقد أسلموا، وكان معه من سَبْيهم ستة آلاف من الذَّراري والنساء ومن الإبل والشاء ما لا يُدْري ما عِدّته، فقالوا: يا رسول الله إنا أهلٌ وعشيرة وقد أصابنا من البلاء ما لم يخفَ عليك فامنن علينا منَّ الله عليك، وقام رجل منهم من سعد بن بكر يقال له: زهير، يكنى بأبي صُرَد: فقال: يا رسول الله، إنما في الحظائر عَمّاتك وخالاتك وحَوَاضنك اللائى كن يَكْفُلْنك، ولو أنا ملَحْنا للحارث بن أبي شِمْر أو للنعمان بن المنذر، ثم نزلا منا بمثل ما نزلت به رجَوْنا عطفه، وعائدته علينا، وأنت خير المكفولين. ثم أنشأ يقول:

امنن علينا رسولَ الله في كرم ... فإنك المرءُ نرجوه وننتَظرُ
امنن على بَيْضة قد عاقها قَدَر ... مفرّق شَمْلها في دَهْرها غِيَرُ
أبقت لنا الحربُ هُتَّافاً على حَزن ... على قلوبهم الغَمَّاءُ والغَمرُ
إن لم تَدَارَكهم نَعماء تَنْشرها ... يا أرجح الناسِ حِلْماً حين يختبرُ
امنن على نسوة قد كنت تَرْضعها ... إذ فوك تملأه من مَحْضها الدِّرَرُ
إذ أنت طفل صغير كنت ترضعها ... وإذ يزينك ما تأتي وما تَذَرُ
لا تَجْعلنا كمن شالت نَعَامته ... واستبق منا فإنا مَعْشر زُهرُ
إنّا لَنشكر للنُّعْمى وقد كُفرتْ ... وعندنا بعد هذا اليوم مُدَّخَرُ
فألبس العفوَ من قد كنت ترضعه ... من أمهاتك إن العفو يُشْتهرُ

(١) تسميتهم في المصدر السابق ج٢ ص ٤٨٦ - ٤٨٧.
(٢) نفسه ج ٢ ص ٤٨٨.

إنا نؤمّل عفواً منك تُلْبسه ... هذي البرية أن تعفو وتنتصر
فاعفُ عفا الله عما أنت راهبُه ... يوم القيامة إذ يُهْدَي لك الظَّفَرُ

[البسيط]

فقال رسولُ الله ﷺ : «أبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم»؟ فقالوا: يا رسول الله، خيَّرْتنا بين أموالنا وأحسابنا، بل تردّ إلينا نساءنا وأبناءنا فهو أحب إلينا. فقال لهم: «أمّا ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم وإذا أنا صليت الظهر بالناس فقوموا فقولوا: إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين وبالمسلمين إلى رسول الله في أبنائنا ونسائنا. فسأعطيكم عند ذلك وأسأل لكم».

فلما صلى رسول الله ﷺ الظهر قاموا فتكلموا بالذي أمَرهم به، فقال رسول الله ﷺ : أمّا ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم. فقال المهاجرون: وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ. وقالت الأنصار: ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ. فقال الأقرع بن حابِس: أمّا أنا وبنو تميم فلا. وقال عُيَيْنة بن حِصْن: أمّا أنا وبنو فَزارة فلا.

وقال عباس بن مِرْداس: أمّا أنا وبنو سُلَيْم فلا. فقالت بنو سليم: بلى ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ. فقال عباس: وهّنْتموني؟ فقال رسول الله ﷺ : «أمّا من تمسّك منكم بحقه من هذا السَّبْيْ فله بكل إنسان ست فرائض من أول شيء أصيبه، فردُّوا إلى الناس أبناءهم ونساءهم».

وكان عُيَيْنة بن حصن أخذ عجوزاً من عجائزهم وقال حين أخذها: أرى عجوزاً، إنّي لأحسب أن لها في الحيّ نسباً وعسى أن يَعْظم فِداؤها. فلما ردَّ رسولُ الله ﷺ السَّبَايا بست فرائض أبي أن يردّها، فقال له زهير أبو صُرَد: خذها عنك فوالله ما فُوها ببارد ولا ثَدْيها بناهد ولا بطنها بوالد ولا زوجُها بواجد ولا دَرّها بماكِد. فردَّها بست فرائض حين قال له زهير ما قال.

وسأل رسول الله ﷺ وفَد هَوازن: ما فعل مالك بن عوف؟ فقالوا: هو

بالطائف مع ثَقِيف. فقال لهم: أخبروا مالكاً أنه إن أتاني مُسلماً ردَدْتُ عليه أهلَه وماله وأعطيته مائةً من الإبل. فأُتي مالك بذلك فخاف ثقيفاً أن يعلموا بما قال له رسول الله ﷺ فيحبسوه، فأمر براحلته فهيئت له وأمر بفرس له فأتى به بالطائف، فخرج ليلاً على فرسه حتى أتى راحلته حيث أمر بها أن تُحْبس فركبها فلحق برسول الله ﷺ فأدركه بالجعْرانة أو بمكة، فردَّ عليه أهله وماله وأعطاه مائة من الإبل وأسلم فحسن إسلامه وقال:

ما إن رأيتُ ولا سمعت بمثله ... في الناس كلهم بمثْل محمدِ
أَوْفَى وأعْطَى للجَزِيل إذا اجتدى ... ومتى تشأ يُخْبرك عمّا في غَد
وأذا الكتيبة عرَّدتْ أنيابُها ... بالسَّمْهري وضَرْب كل مهند
فكأنه ليث على أشباله ... وسط الْهَباءة خادِرٌ في مَرْصَدِ

[الكامل]

٩٠ ب /فاستعمله رسول الله ﷺ على من أسلم من قومه فكان يقاتل بهم ثَقِيفاً لا يخرج لهم سَرْح إلا أغار عليه حتى ضيقَّ عليهم فقال أبو مِحْجَن بن حبيب الثقفي:

هابت الأعداء جانبنا ... ثم تَغْزونا بنو سلمَه
وأتانا مالكٌ بهمُ ... ناقضاً للعَهْدِ والحُرمه

[المديد]

ولما(١) فرغ رسول الله ﷺ من ردِّ سبَايا حنين إلى أهلها ركب واتبعه الناس يقولون: يا رسول الله، اقسم علينا فيئنا. للإبل والغنم، حتى ألجأوه إلى شجرة فاختطفت عنه رداءه فقال: «ردُّوا عليَّ ردائي أيها الناس، فوالله إن لو كان لكم بعدد شجر تهامة نعماً لقسَمْته عليكم، ثم ما ألفيتموني بخيلاً ولا جباناً ولا كَذُوباً» ثم قام إلى جنب بعير فأخذ وبَرَةً من سنَامه فرفعها ثم قال: «أيها الناس، والله مالي من

(١) المصدر السابق ج٢ ص ٤٩٢.

فيئكم ولا هذه الوبرة إلا الخُمْس والخُمْس مردود عليكم فـأدُّوا الخائط والمِخْيَط، فإن الغُلول يكون على أهله عاراً وشنَاراً وناراً يوم القيامة».

فجاء رجل من الأنصار بكُبَّة من خيوط شعر فقال: يا رسول الله، أخذت هذه الكبة أعمل بها بَرْذعة بعير لي دَبر. فقال: أمّا نصيبي منها فلك. قال: أما إذا بلغت ذلك فلا حاجة لي بها. ثم طرحها من يده.

ويروى[1] أن عقيل بن أبي طالب دخل يوم حنين على امرأته فاطمة بنت شيبة وسيفه متلطّخ دماً فقالت: إني قد عرفت أنك قد قاتلت فماذا أصبت من غنائم المشركين؟ قال: دونك هذه الإبرة تخيطين بها ثيابك. فدفعها إليها فسمع منادي رسول الله ﷺ يقول: من أخذ شيئاً فليردّه حتى الخائط والمِخْيط. فرجع عقيل فقال: ما أرى إبرتك إلا قد ذهبت! وأخذها فألقاها في الغنائم.

وأعطى[2] رسول الله ﷺ المؤلَّفة قلوبُهم، وكانوا أشرافاً من أشراف الناس يتألَّفهم ويتألف بهم قومهم، فأعطى أبا سفيان بن حَرْب وابنه معاوية وحكيم بن حزَام والحارث بن الحارث بن كَلَدة، والحارث بن هشام، وسُهَيْل بن عمرو، وحُوَيْطب بن عبد العُزَّي وصَفوان بن أمية، وكل هؤلاء من أشراف قريش، والأقرع بن حابس التميمي وعُيَيْنة بن حِصْن الفَزَاريّ ومالك بن عوف النَّصْري، أعطي كل واحد من هؤلاء المسلمين من قريش وغيرهم مائة بعير، وأعطى دون المائة رجالاً من قريش منهم مَخْرمة بن نوفل وعُمَيْر بن وهب، وأعطى سعيد بن يَرْبوع المخزومي وعَدِيّ بن قيس السَّهْمي خمسين خمسين، وأعطى عباس بن مِرْداس أبَاعِر فسَخِطها وقال يعاتب فيها النبيّ ﷺ:

(١) المصدر السابق. ٤٩٣ ـ ٤٩٤.

(٢) نفسه ج ٢ ص ٤٩٢ ـ ٤٩٣.

[و] كانت نِهاباً تلافَيْتُها بكرِّي على المُهر في الأجْرَعِ
وإيقاظيَ القومَ أن يرقدوا إذا هجَع الناسُ لم أهجَعِ
فأصبح نَهْبي ونهْب العبَيْـ ـد بين عُيَيْنة والأقرعِ
وقد كنت في الحرب ذا تدْرإٍ فلم أُعْطَ شيئاً ولم أمنعِ
إلا أفائِلَ أُعطِيتُها عَديدَ قوائِمه الأربعِ
وما كان حِصْن ولا حابِس يفوقان مِرْداس في مَجْمعِ
وما كنت دون امرىء منهما ومن تَضع اليومَ لا يُرفعِ[1]

[المتقارب]

فقال رسول الله ﷺ: اذهبوا فاقطعوا عني لسانه، فأعطوه حتى رضي، فكان ذلك قَطْع لسانه.

وذكر ابن هشام[2] أن عباساً أتى رسول الله ﷺ: فقال له رسول الله ﷺ: أنت القائل:

فأصبح نَهْبي ونهب العبيـ ـد بين الأقرع وعُيَيْنة

فقال أبو بكر: بين عيينة والأقرع. فقال رسول الله ﷺ: هما واحد. فقال أبو بكر: أشهد أنك كما قال الله: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ [٦٩ يس].

وذكر ابن عُقْبة أن عباساً لما أمر رسولُ الله ﷺ بقطع لسانه فزع لها وقال: من لا يعرف أمر عباس يمثِّل به. فأتى به إلى الغنائم فقيل له: خذ منها ما شئت. فقال عباس: إنما أراد رسول الله ﷺ أن يقطع لساني بالعطاء بعد أن تكلمت. فتكرَّم أن يأخذ منها شيئاً، فبعث إليه رسول الله ﷺ بحُلّة فقبِلها ولبسها.

وقال لرسول الله ﷺ قائل من أصحابه: يا رسول الله، أعطيت عيينة بن حصن والأقرع بن حابس مائةً مائةً وتركت جعيل بن سُرَاقة الضَّمْري؟ فقال رسول الله ﷺ: «أمَا والذي نفس محمد بيده لَجُعَيْل بن سراقة خير من طلاَع

(١) المصدر السابق ج٢ ص ٤٩٣ ـ ٤٩٤.
(٢) نفسه ج ٢ ص ٤٩٤.

الأرض كلهم مثل عيينة والأقرع ولكني تألفتهما ليُسْلما ووكَلْت جعيلَ ابن سراقة إلى إسلامه»[1].

وجاء[2] رجل من بني تميم يقال له: ذو الْخُوَيْصرة فوقف على رسول الله ﷺ وهو يعطي الناس فقال: يا محمد، قد رأيتُ ما صنعتَ في هذا اليوم. فقال رسول الله ﷺ: أجل، فكيف رأيت؟ قال: لم أرك عَدَلْتَ. فغضب رسول الله ﷺ ثم قال: ويحك! إذا لم يكن العدل عندي فعند من يكون؟! فقال عمر بن الخطاب ألاَ نقتله؟ فقال: لا، دعوه فإنه سيكون له شيعة يتعمقون في الدِّين حتى يخرجوا منه كما يخرج السهمُ من الرَّمِيّة، يُنْظَر في النَّصْل فلا يوجد شيء، ثم في القِدْح فلا يوجد شيء، ثم في الفَوق فلا يوجد شيء، سبقَ الفَرْث والدم.

ولما أعطى رسول الله ﷺ ما أعطى في قريش وفي قبائل العرب ولم يعط الأنصار شيئاً وجدوا في أنفسهم حتى كثرت منهم القالة وحتى قال قائلهم: لقي والله رسول الله ﷺ قومه.

وذكر ابن هشام[3] أن حسان بن ثابت قال يعاتبه في ذلك:

زاد الهمومَ فماءُ العينِ مُنْحدر ... سحًّا إذا حَفَلَتْه عَبْرَةٌ دَرِرُ
وَجْداً بشَمَّاءَ إذ شَمَّاءُ بَهْكنةٌ ... هَيْفَاء لا ذَنَن فيها ولا خَوَرُ
دَعْ عنك شمَّاءَ إذ كانت مودتها ... نَزْرًا وشَرُّ وصال الواصلِ النَّزِرُ
وائت الرسولَ فقل يا خيرَ مُؤْتمن ... للمؤمنين إذا ما عُدِّد البَشَرُ
علامَ تُدْعَى سُلَيْم وهي نازحة ... قُدَّام قومٍ همُ آوَوْا وهُمْ نَصَرُوا
سمَّاهُم الله أنصاراً بنَصْرهم ... دِينَ الهدى وعَوَانُ الحرب تستعرُ
/وسارَعوا في سبيل الله واعترفوا ... للنائبات وما خافوا وما ضَجِروا ٩١ أ
والناسُ إلْبٌ علينا فيك ليس لنا ... إلا السيوف وأطراف القَنا وزَرُ
نُجالد الناسَ لا نُبْقي على أحدٍ ... ولا نضيِّع ما تُوحِي به السُّوَرُ

---

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ٤٩٦.
(٢) نفسه ج ٢ ص ٤٩٦ - ٤٩٧.
(٣) نفسه ج ٢ ص ٤٩٧ - ٤٩٨.

ولا تهزّ جُنـاة الحربِ نـادينَـا ... ونحن حين تلظّى نـارُهـا سُعـرُ
كما ردَدْنـا ببـدرٍ دون مـا طلبـوا ... أهـلَ النفـاق وفينـا يَنْـزل الظّفـرُ
ونحن جُنْدك يوم النَّعْف مـن أُحـدٍ ... إذ حزّبَـتْ بَطَـراً أحـزابها مُضَـرُ
فما ونينـا ولا خِمْنـا ومـا خبروا ... منّا عِثارا وكلُّ النـاس قـد عَثـرُوا

[البسيط]

فدخل(١) سعد بن عبادة على رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك لمَا صنعتَ في هذا الفيء الذي أصبت، قسمت في قومك وأعطيت عطايا عظاماً في قبائل العرب ولم يك في هذا الحي من الأنصار منها شيء. قال: فأين أنت من ذلك يا سعد؟ قال: يا رسول الله، ما أنا إلا من قومي. قال: فاجمع لي قومَك في هذه الحظيرة. فخرج سعد فجمع الأنصار في تلك الحظيرة، فجاء رجال من المهاجرين فتركهم فدخلوا وجاء آخرون فردَّهم، فلما اجتمعوا له أعْلمه سعدٌ بهم فأتاهم رسول الله ﷺ فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: «يا معشر الأنصار، ما قالةٌ بلغَتْني عنكم وجِدَة وجدتموها عليَّ في أنفسكم؟ ألم آتكم ضُلّالاً فهداكم الله، وعالةً فأغناكم الله، وأعداءً فألّف الله بين قلوبكم؟» قالوا: بل الله ورسوله أمَنّ وأفضل. ثم قال: ألا تجيبونني يا معشر الأنصار؟ قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله، لله ولرسوله المنُّ والفضل. فقال صلوات الله عليه: «أمَا والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم ولصُدِّقتم: أتيتنا مكذَّباً فصدَّقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فآوَيْناك، وعائلا فآسَيْناك، أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لُعَاعة من الدنيا تألَّفْتُ بها قوماً ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم؟ ألا تَرْضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله ﷺ إلى رِحالكم، فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنتُ امرءً من الأنصار ولو سلَك الناسُ شِعباً وسلكت الأنصار شِعباً لسلكْتُ شعب الأنصار، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار».

(١) المصدر السابق ج٢ ص ٤٩٨ ـ ٥٠٠.

فبكي القومُ حتى أخْضَلوا لحاهم وقالوا: رِضينا برسول الله ﷺ قَسْماً وحظاً. ثم انصرف رسول الله ﷺ وتفرقوا.

ثم[1] خرج رسول الله ﷺ من الجعرانة مُعْتمراً، وأمر ببقايا الفيء فحبس بمجنة بناحية مَر الظَّهْران، فلما فرغ من عمرته انصرف راجعاً إلى المدينة واستخلف عتَّاب بن أسيد على مكة وخلّف معه معاذَ بن جبل يفقه الناس في الدين ويعلمهم القرآن، وأتبع رسول الله ﷺ ببقايا الفيء.

ولما استعمل رسول الله ﷺ عتَّاباً على مكة رزَقه في كل يوم درهماً، فقام عتاب خطيباً في الناس فقال: أيها الناس، أجاع الله كبد من جاع على درهم، فقد رزقني رسول الله ﷺ درهماً كل يوم فليست بي حاجة إلى أحد.

وكانت عُمْرة رسول الله ﷺ في ذي القعدة، وقدم المدينة في بقية أو في أول ذي الحجة.

وحج الناسُ تلك السَّنة على ما كانت العرب تحجُّ عليه وحجَّ عتَّاب بن أُسيد بالمسلمين فيها وهي سنة ثمان.

وأقام أهلُ الطائف على شِرْكهم وامتناعهم في طائفهم ما بين ذي القعدة إذ انصرف رسول الله ﷺ إلى رمضان سنة تسع.

ولما[2] قدم رسول الله ﷺ من سَفره هذا منصرفاً عن الطائف كتب بُجَيْر بن زُهَير بن أبي سُلْمى إلى أخيه كعب بن زُهَير يخبره أن رسول الله ﷺ قد قَتل رجالاً بمكة ممن كان يهجوه ويؤذيه، وأن من بقي من شعراء قريش ابن الزِّبَعْرى وهُبَيرة بن أبي وهب قد هربوا في كل وجه، فإن كانت لك في نفسك حاجة فطِرْ إلى رسول الله ﷺ فإنه لا يقتل أحداً جاء تائباً، وإن أنت لم تفعل فانجُ إلى نجائك من الأرض.

---

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ٥٠٠ - ٥٠١.

(٢) نفسه ج ٢ ص ٥٠١.

فلما(١) بلغ كعباً الكتابُ ضاقت به الأرض وأشفق على نفسه وأرجف به من كان في حاضره من عدوّه فقالوا: هو مقتول. فلما لم يجد من شيء بُدّاً قال قصيدته التي يمدح فيها رسولَ الله ﷺ ويذكر فيها خوفَه وإرجاف الوشاة به، ثم خرج حتى قدم المدينة فنزل على رجل من جُهَيْنة كانت بينه وبينه معرفة، فغدا به إلى رسول الله ﷺ حين صلى الصبح فصلى معه ثم أشار له إلى رسول الله ﷺ فقال: هذا رسول الله فقم إليه فاستأمنه. فذكر أنه قام إلى رسول الله ﷺ حين جلس إليه فوضع يده في يده، وكان رسول الله ﷺ لا يعرفه، فقال: يا رسول الله، إنّ كعب بن زُهَيْر قد جاء ليستأمن منك تائباً مُسْلِماً فهل أنت قابلٌ منه إن أنا جئتك به؟ قال رسول الله ﷺ: نعم. قال: أنا يا رسول الله كعب بن زهير، فوثب عليه رجل من الأنصار فقال: يا رسول الله، دَعْني وعدوَّ الله أضربْ عنقه. فقال رسول الله ﷺ: دَعْه عنك فإنه قد جاءنا تائباً نازعاً. فغضب كعبٌ على الأنصار لما صنع به صاحبهم ومدَح المهاجرين دونهم إذ لم يتكلم فيه رجل منهم إلا بخير.

والقصيدة التي قالها كعب في ذلك وذكر أنه أنشدها رسولَ الله ﷺ في المسجد(٢):

بانَتْ سُعادُ فَقَلْبي اليومَ مَبْتُول … متيم عندها لم يُجْزَ مكبولُ

وما سعادُ غَداة البَيْن إذ برزَتْ … إلاّ أغنُّ غَضيض الطرف مكحولُ

تجلو عوارضَ ذي ظَلْم إذا ابتسمت … كأنه مُنْهَل بالراح مَعْلول

شُجَّت بذي شَبَم من ماء مَحْنيةٍ … صافٍ بأبطح أضحَى وهو مشمولُ

تَنْفِي الرياحُ القذَى عنه وأفْرطه … من صَوْب غادية بيضٌ يَعاليلُ

وبلمها خُلّة لو أنها صَدَقَتْ … بوعدها أو لو ان النُّصح مَقبولُ

٩١ب /لكنها خُلّة قد سِيط من دمها … فَجْع ووَلْع وإخْلاف وتبديلُ

---

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ٥٠٢ ـ ٥٠٣.

(٢) نفسه ج ٢ ص ٥٠٣ ـ ٥١٣.

فما تدومُ على حالٍ تكون بها ... كما تلوَّن في أثوابها الغولُ
كانت مواعيد عُرْقوب لها مثلاً ... وما مواعيدها إلا الأبَاطيلُ
فلا يَغُرَّنْك ما منَّتْ وما وعدت ... إن الأمانيَّ والأحلامَ تَضْليلُ
أَمستْ سعادُ بأرض لا تبلِّغها ... إلا العِتاق النَّجيبات المرَاسيلُ
ولا يبلِّغها إلا عُذافرةٌ ... فيها على الأَيْن إرقالٌ وتَبْغيلُ
من كل نَضَّاخة الذِّفْرَى إذا عَرِقتْ ... عُرْضتها طامِس الأعلام مجهولُ
ضَخْم مُقلَّدها فَعْم مُقيَّدها ... في خَلْقها عن بنات الفحل تفضيلُ
حَرْف أخوها أبوها من مُهجَّنة ... وعمُّها خالها قَوْداء شِمْليلُ
كأنَّ أَوْب ذراعيها وقد عرقتْ ... وقد تلفَّع بالقُور العَسَاقيلُ
أَوْبُ يدَيْ فاقد شَمْطاء مُعْولة ... قامت فجاوبها نُكدٌ مَثَاكِيلُ
نوَّاحةٍ رَخْوة الضَّبعين ليس لها ... لمّا نعى بِكْرها الناعُون مَعْقول
تَفْرِي اللِّبان بكَفَّيها ومِدْرَعها ... مُشَقَّق عن تراقيها رَعَابيلُ
تمشي الغواة بجنبَيْها وقولهم ... إنك يا ابن أبي سُلْمى لَمقتولُ
وقال كلَّ صديق كنت آمله ... لا أُلْهينَّك إني عنك مَشْغولُ
فقلت خَلوا طريقي لا أبالكم ... فكل ما قدَّر الرحمن مفعولُ
كل ابن أنثى وإن طالت سلامتُه ... يوماً على آلة حَدْباء محمولُ
نُبئت أن رسولَ الله أوْعَدني ... والعفو عند رسولِ الله مأمولُ
مهلاً هداك الذي أعطاك نافلة الـ ... ـقرآن فيها مواعيظٌ وتفصيلُ
لا تأخذني بأقوال الوشاة ولم ... أُذنب ولو كثرت فيَّ الأقاويلُ
لقد أقوم مقاماً لو يقوم به ... يَرمي ويَسْمع ما قد أسمَعُ الفيلُ
لظل تُرْعَد من خوفٍ بَوادره ... إن لم يكن من رسول الله تنْويلُ
حتى وضعتُ يميني ما أُنازعها ... في كف ذي نَقِمات قوله القيلُ
فلَهْو أخْوَف عندي إذ أكلّمه ... وقيل إنك منسوب ومسؤولُ
من ضَيْغم بضرَاء الأرض مُخْدَره ... في بطن عَثَّر غيلٌ دونه غِيلُ
إنّ الرسول لنورٌ يستضاء به ... مُهند من سيوف الله مَسْلولُ

في عُصْبَةٍ من قريش قال قائلهم ببطن مكة لما أسلموا زُولوا
زالوا فما زال انكاسٌ ولا كشُفٌ عند اللقاء ولا ميلٌ مَعازيلُ
يَمْشون مَشْيَ الجمال الزُّهْر يَعْصمهم ضَرْبٌ إذا عرَّد السودُ التنابيلُ
شُمّ العَرانين أبطالٌ لَبُوسهمُ من نَسْجِ داود في الهيْجَا سَرابيلُ
بيضٌ سَوابغ قد شكَّتْ لها حَلَق كأنها حَلَق القَفْعاء مجدولُ
ليسوا مَفَارِيح إن نالت رماحهمُ قوماً وليسوا مجازيعاً إذا نِيلوا
لا يَقعُ الطَّعْن إلا في نحورهُم ليس لهم عن حياض الموت تهليلُ(١)

[البسيط]

ويروى أن كعباً لما أنشد رسولَ الله ﷺ:

إن الرسولَ لنورٌ يُسْتَضاء به مهنَّد من سُيوف الله مَسْلولُ

أشار رسول الله ﷺ بيده إلى الْخَلْق: أي اسمعوا. تعجباً بقوله.

ومن مُسْتجاد شعر كعب بن زهير قوله أيضاً يمدح النبي ﷺ:

تَخْدي به الناقة الأدْماء مُعْتجراً بالبُرْد كالبَدْر جَلّى ليلة الظُّلمِ
وفي عِطَافَيْه أو أثناء بُرْدته ما يعلم الله من دِين ومن كرمِ

[البسيط]

ولما قال كعب في لاميته المتقدمة: إذا عرَّد السود التنابيل. يريد الأنصار وخص المهاجرين بمدْحته دونهم غضبت عليه الأنصار فقال بعد أن أسلم يمدحهم ويذكر بلاءهم مع رسول الله ﷺ وموضعهم من اليمن، ويقال: إن رسول الله ﷺ حضَّه على ذلك وقال لما أنشده القصيدة المتقدمة: لولا ذكرت الأنصار بخير فإن الأنصار لذلك أهل؟ فقال كعب هذه الأبيات.

من سرَّه كرَم الحياة فلا يزَلْ في مِقْنب من صالح الأنصارِ
وَرِثوا المكارمَ كابراً عن كابر إنّ الخيار هُم بنو الأخيارِ

---

(١) راجع: البغدادي. حاشية علي شرح بانت سعاد. ت. نظيف خواجة. ڤيسبادن، ١٩٨٠ - ١٩٩٠.

المكـرهين السَّمْهـريَّ بـأذرع كسـوالف الهِنـديِّ غير قصـارِ
والنـاظـريـن بـأعين مُحْمـرَّة كـالْجَمْـر غير كليلـة الإبصـارِ
والبـائعين نفـوسَهـم لنبيهـم للمـوت يـوم تعـانـق وكِـرارِ
يتطهـرون يـرونـه نُسْكـا لهم بـدمـاء مـن عَلِقـوا مـن الكفـارِ
دَربـوا كما دَرِبْـت ببطـن خَفيـة غُلْب الرّقاب من الأُسـود ضَـوَاري
وإذا حَلْلـت ليمنعـوك إليهـم أصبحـتَ عنـد مَعَـاقـل الأغْفَـارِ
ضَـربـوا عليًّا يـومَ بَـدْر ضربـةً دانـت لـوقعتهـا جميـعُ نـزارِ
لـو يعلم الأقـوامُ عِلْمـي كلـه فيهـم لصـدَّقني الذيـن أُمَـارِي
قـومٌ إذا خـوت النجـومُ فـإنهم للطـارقين النـازلين مَقـارِي
في الغرّ مـن غسَّـان في جُـرْثـومـة أعْيـت مَحـافـرهـا على المحفار[1]

[الكامل]

وكان عبد الله بن الزبعري السَّهْمي شاعرقريش ولسانها في مناقضة حسان بن ثابت وغيره من شعراء رسول الله ﷺ، له في ذلك أشعار كثيرة ذكرها ابن إسحاق في مواضعها وأضربنا نحن عنها وعن سائر أشعار الجاهلية لما فيها من تنقص الإسلام والنيل من أهله، فلما كان عام الفتح فرَّ ابن الزبعري إلى نجران فرماه حسان بن ثابت ببيت واحد ما زاد عليه وهو:

لا تَعْدَمَـنْ رجلاً أحلَّـك بغُضْـه نَجْـرَان في عيشٍ أحَـذَّ لئيم

[الكامل]

فلما بلغ ذلك ابن الزِّبعري خرج إلى رسول الله ﷺ فأسلم وقال في ذلك أشعاراً منها في أبيات:

يـا رسـول المليـك إن لسـاني راتِـقٌ مـا فَتقْـتُ إذ أنـا بُـورُ
إذ أُبـاري الشيطـان في سَنَـن الـغـيّ ومـن مـال مَيْلـه مَثْبـورُ

[الخفيف]

(١) ابن هشام. السيرة ج ٢ ص ٥١٤ ـ ٥١٥.

وقال أيضاً حين أسْلم:

منــع الرقــادَ بَلابــلٌ وهمــومُ … والليــل مُعْتلــجُ الرّواق بهيمُ
مما أتــــاني أن أحمد لامَني … فيـه فبـتّ كـأنني مَحْمـومُ
يـا خير مـن حَملـتْ على أوصالها … عَيْرانـةٌ سُرُح اليـديـن عَشُومُ
إني لمعتـذر إليـك مـن الذي … أسْديـتُ إذ أنـا في الضلال أهيمُ
أيـام تـأمـرني بـأغـوى خطـةٍ … سَهْـمٌ وتـأمـرني بها مخزومُ
وأمـدُّ أسبـابَ الردَي ويقـودني … أمـر الغُـوَاة وأمْـرهـم مشئـومُ
فـاليـوم آمـن بـالنبيِّ محمد … قلبي ومخطـىء هـذه محرومُ
مضت العـداوةُ فـانقضـت أسبـابها … ودعَـتْ أواصرُ بيننـا وحُلُـومُ
فاغفـر فـدًى لـك والداي كِلاَهما … زَلَلي فـإنّـك راحـمٌ مَـرْحـومُ
١٩٢أ /وعليك مـن عِلْم المليك علامـة … نـورٌ أغَـرّ وخـاتم مختـومُ
أعطـاك بعـد محبـةٍ بـرهـانـه … شرفـاً وبـرهـانُ الإلـه عظيمُ
ولقد شهـدتُ بأن دِينـك صادقٌ … حـقٌّ وأنـك في العِبَـاد جَسِيمُ
والله يشهـد أن أحمد مصطفًـى … متقَّبـل في الصـالحين كـريم
فـرْمٌ علاَ بنيـانَـه مـن هـاشم … فَـرْع تمكـن في الذري وأُروم

[الكامل]

* * *

غزوة تبوك

وأقام[1] رسول الله ﷺ بالمدينة بعد منصرفه عن عمرة الجعرانة ما بين ذي الحجة إلى رجب ثم أمر أصحابه بالتهيؤ لغزو الروم، وذلك في زمان عُسْرة من الناس وشدة من الحر وجَدْب من البلاد، وحين طابت الثّمار والناس يحبّون المقام في ثمارهم وظلالهم ويكرهون الشّخوصَ على الحال من الزمان الذي هم عليه.

وكان رسول الله ﷺ قلَّ ما يخرج في غزوة إلا ورَّى عنها وأخبر أنه يريد غير الوجه الذي يَعْمد إليه، إلا ما كان من غزوة تبوك، فإنه بيَّنها للناس لبُعْد الشّقة وشدة الزمان وكثرة العدو الذي يصمد له، ليتأهب الناسُ لذلك أُهْبته.

فأمر الناسَ بالجهاز، وأخبرهم أنه يريد الروم.

فقال[2] ﷺ ذات يوم وهو في جهازه للجدّ بن قيس أحد بني سلمة: ياجَدّ هل لك العام في جِلاَد بني الأصفر؟ فقال: يا رسول الله أوْ تأذن لي ولا تفتني، فوالله لقد عرف قومي أنه ما من رجل أشدّ عُجْبًا بالنساء مني، وإني أخشى إن رأيت نساءَ بني الأصفر أن لا أصبْر. فأعرض عنه رسول الله ﷺ وقال: قد أذنتُ لك، ففيه نزلت: ﴿ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني، ألاَ في الفتنة سَقطوا وإن جهنم لمحيطةٌ بالكافرين﴾ [التوبة: ٤٩]. أي إن كان إنما خَشي الفتنة من نساء بني الأصفر وليس ذلك به فما سقط فيه من الفتنة أكبر لتخلفه عن رسول الله ﷺ والرغبة بنفسه عن نفسه، يقول: وإن جهنم لمن ورائه.

وقال قوم من المنافقين بعضهم لبعض: لا تنفروا في الحرّ: زهادةً في الجهاد

(١) ابن هشام. السيرة ج ٢ ص ٥١٥ - ٥١٦.

(٢) نفسه ج ٢ ص ٥١٦ - ٥١٧.

وشكا في الحق وإرجافاً بالرسول، فأنزل الله فيهم: ﴿وقالوا لا تَنْفروا في الْحَرّ قل نارُ جهنم أشد حَرًّا لو كانوا يفقهون فليضحكوا قليلاً وليَبْكوا كثيراً جزاءً بما كانوا يكْسِبون﴾ [التوبة: ٨١، ٨٢].

وبلغ[١] رسولَ الله ﷺ أن ناساً من المنافقين يجتمعون في بيت سُوَيْلم اليهودي يثبّطون الناس عنه في غزوة تبوك، فبعث إليهم طلحة بن عبيد الله في نفر من أصحابه وأمره أن يحرّق عليهم البيت وفعل طلحة، فاقتحم الضحاكُ بن خليفة من ظهر البيت فانكسرت رجله واقتحم أصحابه فأفلتوا فقال الضحاك في ذلك:

[و] كادت وبيت الله نارُ محمد ... يَشيط بها الضحاكُ وابن أُبَيْرق
وظَلْتُ وقد طَبقت كِبْس سُوَيلم ... أنوء على رِجْلي كسيراً ومِرْفقي
سلامٌ عليكم لا أعود لمثلها ... أخاف ومن تَشْمَل به النارُ يحرق

[الطويل]

ثم[٢] إن رسول الله ﷺ جَدّ في سفره وأمر الناسَ بالجهاز والانكماش، وحضّ أهلَ الغني على النفقة والْحُمْلان في سبيل الله، فحمل رجال من أهل الغنى واحتسبوا، وأنفق عثمان بن عفان في ذلك نفقة عظيمة لم ينفق أحدٌ مثلها، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم ارضَ عن عثمان فإني عنه راضٍ».

ثم[٣] إن رجالاً من المسلمين توا رسولَ الله ﷺ وهم البكاءون وهم سبعة نفر من الأنصار وغيرهم، سالم بن عُمَير، وعُلْبة بن زيد، وأبو ليلى بن كعب، وعمرو بن حمام، وهَرَمي بن عبد الله، وعبد الله بن مُغَفَّل المزني، ويقال: عبد الله بن عمرو المزني، وعِرْباض بن سارية الفَزَاري، فاستحملوا رسولَ الله ﷺ وهم أهلُ حاجة فقال: لا أجِدِ ما أَحْملكم عليه. فتولّوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً أن لا يجدوا ما ينفقون، فذكر أن ابن يامين بن عمير النضري لقي أبا ليلى بن كعب وابن مغفل وهما يبكيان فقال: ما يبكيكما؟ قالا: جئنا رسول الله ﷺ ليحملنا فلم نجد عنده ما

(١) المصدر السابق ج٢ ص ٥١٧.
(٢) نفسه ج ٢ ص ٥١٧ ـ ٥١٨.
(٣) نفسه ج٢ ص ٥١٨.

يحملنا عليه وليس عندنا ما نتقوّى به على الخروج معه فأعطاهما ناضحاً له فارتحلاه وزودهما شيئاً من تمر فخرجا مع رسول الله ﷺ.

وجاء المعذِّرون من الأعراب فاعتذروا إليه، فلم يعذرهم الله، وذكر أنهم نفر من بني غِفار.

ثم[1] استتب برسول الله ﷺ سفره، وأجمع السير وتخلَّف عنه نفر من المسلمين عن غير شك ولا ارتياب، منهم كعب بن مالك أخو بني سلمة ومرارة بن الربيع أخو بني عمرو بن عوف، وهلال بن أمية أخو بني واقف، وأبو خَيْثمة أخو بني سالم، وكانوا نفرَ صِدْق لا يُتَّهمون في إسلامهم.

فلما[2] خرج رسول الله ﷺ ضرب عسكره على ثنية الوداع وضرب عبد الله بن أُبيّ معه على حِدَة عسكره أسفل منه نحو ذُباب ـ وكان فيما يزعمون ليس بأقل العسكريْن ـ فلما سار رسول الله ﷺ تخلَّف عنه عبدُ الله بن أبي فيمن تخلف من المنافقين وأهل الرَّيْب.

وخلف[3] رسولُ الله ﷺ عليّ بن أبي طالب على أهله وأَمَره بالإقامة فيهم، فأرجف به المنافقون وقالوا: ما خلفه إلا استثقالاً له وتخففاً منه فلما قالوا ذلك أخذ عليّ سلاحه ثم خرج حتى أتى رسول الله ﷺ وهو نازل بالجرف فقال: يانبي الله، زعم المنافقون أنك إنما خلفتني أنك استثقلتني وتخففتَ مني، فقال: «كذبوا ولكني خلَّفتك لما تركتُ ورائي، فارجع فاخلفني في أهلي وأهلك، أفلا ترضى ياعلي أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي». فرجع علي إلى المدينة ـ رضي الله عنه ـ ومضى رسول الله ﷺ على سفره.

ثم[4] إن أباخيثمة بعد أن سار رسول الله ﷺ أياماً رجع إلى أهله في يوم حارّ، فوجد امرأتين له في عريشَيْن لهما في حائطه قد رشَّت كلٌّ واحدة منها

---

(١) المصدر السابق ج٢ ص ٥١٩.
(٢) نفسه ج ٢ ص ٥١٩.
(٣) نفسه ج ٢ ص ٥١٩ ـ ٥٢٠.
(٤) نفسه ج٢ ص ٥٢٠ ـ ٥٢١.

عريشها وبرّدت له فيه ماءً وهيأت له طعاماً، فلما دخل قام على باب العريش فنظر إلى امرأتيه وما صنعتا له، فقال: رسولُ الله ﷺ في الضِّح والريح والحر، وأبو خيثمة في ظل بارد وطعام مهيأ وامرأة حسناء في ماله مقيم! ما هذا بالنَّصَف

٩٢ب ثم قال: والله لا أدخل على عريش واحدة/ منكما حتى ألحق برسول الله ﷺ فهيئا لي زاداً ففعلتا ثم قدَّم ناضحه فارتحله ثم خرج في طلب رسول الله ﷺ حتى أدركه حين نزل بتبوك.

وقد كان أدرك أبا خيثمة في الطريق عُميرُ بن وهب الْجُمَحي يطلب رسول الله ﷺ فترافقا، حتى إذا دنوا من تبوك قال أبو خيثمة لعمير: إنّ لي ذنباً فلا عليك أن تخلّف عنّي حتى آتي رسول الله ﷺ ففعل حتى إذا دنا من رسول الله ﷺ وهو نازلٌ بتبوك قال الناس: هذا راكبٌ على الطريق مقبل. فقال رسول الله ﷺ: كن أبا خيثمة. قالوا: هو والله أبو خيثمة يا رسول الله. فلما أناخ أقبل فسلّم على رسول الله ﷺ. فقال له رسول الله ﷺ: أوْلي لك يا أبا خيثمة! ثم أخبره خبره فقال له: رسول الله ﷺ خيراً ودعا له بخير. ويروى أن أبا خيثمة! قال في ذلك:

ولّما رأيتُ الناسَ في الدين نافقوا	أتيتُ التي كانت أعف وأكرما
وبايعت باليمنى يَدِي لمحمدٍ	فلم أكتسبْ إثماً ولم أغْشَ مَحْرمَا
تركتُ خَضِيباً في العريش وصِرْمَةً	صفايا كراما بُسْرها قد تحمَّما
وكنت إذا شك المنافق أسْمحتْ	إلى الدِّين نفسي شَطْره حيث يَمَّما

[الطويل]

وكان(١) رسول الله ﷺ حين مرَّ بالحِجْر نزلها واستقى الناسُ من بئرها فلما راحوا قال رسول الله ﷺ: «لا تشربوا من مائها ولا يتوضأ منه للصلاة وما كان من عجين عجنتموه فاعلفوه الإبلَ، ولا تأكلوا منه شيئاً، ولا يخرجنّ أحدٌ منكم الليلة إلا ومعه صاحبٌ له».

---

(١) المصدر السابق ج٢ ص ٥٢١.

ففعل الناس ما أمرهم رسول الله ﷺ، إلا أن رجلين من بني ساعدة خرج أحدهما لحاجته وخرج الآخر في طلب بعير له، فأما الذي ذهب لحاجته فإنه خُنق على مذهبه، وأما الذي ذهب في طلب بعيره فاحتملته الريحُ حتى طرحته بجبليْ طيء، فأُخبر بذلك رسول الله ﷺ فقال: ألم أنهكم أن يخرج أحدٌ منكم إلا ومعه صاحبه؟ ثم دعا للذي أصيب على مذهبه فشُفي، وأما الذي وقع بجبلي طيء فإن طيئاً أهدته لرسول الله ﷺ حين قدِم المدينة.

ولما(١) مرّ رسول الله ﷺ بالحِجْر سجَّي ثوبه على وجهه، واستحث راحلته ثم قال: «لا تدخلوا بيوتَ الذين ظلموا إلا وأنتم باكون خوفاً أن يصيبكم ما أصابهم».

فلما(٢) أصبح الناسُ ولا ماء معهم شكوْا إلى رسول الله ﷺ، فدعا فأرسل الله سبحانه سحابةً فأمطرت حتى ارتوى الناس واحتملوا حاجتهم من الماء. قال محمود بن لبيد: لقد أخبرني رجالٌ من قومي عن رجل من المنافقين معروف نفاقه كان يسير مع رسول الله ﷺ حيث سار، فلما كان من أمر الماء بالحِجْر ما كان ودعا رسولُ الله ﷺ حين دعا فأرسل الله السحابة فأمطرت حتى ارتوى الناس قالوا: أقبلنا عليه نقول: ويحك! هل بعد هذا شيء؟ قال: سحابةٌ مارّة. قيل لمحمود: هل كان الناس يعرفون النفاق فيهم؟ قال: نعم، والله إنْ كان الرجل ليعرفه من أخيه ومن أبيه ومن عَمه وفي عشيرته ثم يلبس بعضهم بعضاً على ذلك.

ثم(٣) إن رسول الله ﷺ سار حتى إذا كان ببعض الطريق ضلت ناقته فخرج أصحابه في طلبها وعند رسول الله ﷺ رجل من أصحابه يقال له: عمارة بن حزم وكان عقبيَّاً بَدْرياً وهو عم بني عمرو بن حزم وكان في رحله زيد بن لُصَيت القينقاعي وكان منافقاً فقال زيد وهو في رحل عُمَارة وعمارة عند رسول الله

---

(١) المصدر السابق ج٢ ص ٥٢٢.

(٢) نفسه.

(٣) نفسه ج٢ ص ٥٢٢ - ٥٢٣.

ﷺ: أليس محمد يزعم أنه نبي ويخبركم عن خبر السماء وهو لا يدري أين ناقته! فقال رسول الله ﷺ وعمارة عنده: «إن رجلاً قال: هذا محمد يخبركم أنه نبي ويزعم أنه يخبركم بأمر السماء وهو لا يدري أين ناقته! وإني والله لا أعلم إلا ما علَّمني الله وقد دلني الله عليها وهي في الوادي من شِعْب كذا وكذا وقد حبستها شجرة بزمامها فانطلقوا حتى تأتوني بها»؛ فذهبوا فجاءوا بها فرجع عمارة بن حزم إلى رَحْله فقال: والله لَعجبٌ من شيء حدثناه رسول الله ﷺ آنفاً عن مقالة قائل أخبره الله عنه. للذي قال زيد بن اللَّصَيْت. فقال رجل ممن كان في رَحْل عمارة ولم يحضر رسولَ الله ﷺ: زيدٌ والله قال هذه المقالة قبل أن تأتي، فأقبل عمارة على زيد يجأ في عنقه ويقول: يالعباد الله! إن في رحلي لَداهية وما أشعر! اخرج أيْ عدو الله من رَحْلي فلا تصحبني. فزعم بعض الناس أن زيداً تاب بعد ذلك وقال بعض: لم يزل متهماً بشرٍّ حتى مات.

ثم(١) مضى رسول الله ﷺ سائراً فجعل يتخلف عنه الرجل فيقولون: يا رسول الله تخلف فلان. فيقول: «دعوه فإن يك فيه خير فسيُلْحقه الله بكم، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه» حتى قيل: يا رسول الله تخلف أبو ذَرّ وأبطأ به بعيره. فقال: دعوه فإن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه. وتلوَّم أبو ذر على بعيره فلما أبطأ عليه أخذ متاعه فحمله على ظهره ثم خرج يتبع أَثَر رسول الله ﷺ ماشياً، ونزل رسول الله ﷺ في بعض منازله فنظر ناظرٌ من المسلمين فقال: يا رسول الله، إن هذا الرجل يمشي على الطريق وحده. فقال رسول الله ﷺ: كن أبا ذَرّ. فلما تأمله القومُ قالوا: يا رسول الله، هو والله أبو ذر. فقال رسول الله ﷺ: «رحم الله أبا ذر يمشي وحده ويموت وحده، ويُبعث وحده».

فقضى الله سبحانه أن أبا ذر لما أخرجه عثمان ـ رضي الله عنه ـ إلى الرَّبَذة وأدركته بها منيته لم يكن معه أحد إلا امرأته وغلامه، فأوصاهما أن غسلاني

---

(١) المصدر السابق ج٢ ص٥٢٣ ـ ٥٢٤.

وكفناني ثم ضعاني على قارعة الطريق فأول رِكب يمرّ بكم فقولوا: هذا أبو ذر صاحب رسول الله ﷺ فأعينونا على دفنه، فلما مات فعلا ذلك وأقبل عبد الله بن مسعود في رهط من العراق عُمَّارٍ، فلم يرعهم إلا بالجنازة على ظهر الطريق قد كادت الإبلُ تطؤها وقام إليهم الغلام فقال: هذا أبو ذر صاحب رسول الله ﷺ فأعينونا على دفنه. فاستهل عبدُ الله يبكي ويقول: صدق رسولُ
الله: / تمشي وحدك وتموت وحدك وتُبعث وحدك! ثم نزل هو وأصحابه فواروه. ١٩٣أ
ثم حدّثهم عبد الله بن مسعود حديثه وما قال له رسول الله ﷺ في مسيره إلى تبوك(١).

وقد(٢) كان رهط من المنافقين منهم وديعة بن ثابت أخو بني عمرو بن عوف وحليف لبني سلمة من أشجع يقال له: مُخشِّن بن حُميِّر، ويقال: مَخْشِيّ، يشيرون إلى رسول الله ﷺ وهو منطلق إلى تبوك فقال بعضهم لبعض: أتحسبون جِلاَد بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضاً؟ والله لكأننا بكم [غداً] مقرَّنين في الحبال ـ إرجافاً وترهيباً للمؤمنين ـ فقال مخشَّن بن حُمير، والله لَوددت أني أُقاضي على أن يُضرب كلّ رجل منا مائة جلدة وأنا نتفلت أن ينزل فينا قرآن لمقالتكم هذه. وقال رسول الله ﷺ فيما بلغنا لعمَّار بن ياسر: أدرك القوم فإنهم قد احترقوا فَسْلهم عما قالوا، فإن أنكروا فقل: بلى قلتم كذا وكذا، فانطلق إليهم عمار فقال ذلك لهم فأتوا رسول الله ﷺ يعتذرون، فقال وديعة بن ثابت ورسول الله ﷺ واقف على ناقته فجعل يقول وهو آخذ بحقها: يا رسول الله، إنما كنا نخوض ونلعب. فأنزل الله عز وجل فيهم: ﴿**ولئن سألْتهم ليقولُنّ إنما كنا نخوض ونلعب!!**﴾ [التوبة: ٦٥]، وقال مخشن بن حمير: يا رسول الله قعد بي اسمي واسم أبي. فكان الذي عفى عنه في هذه الآية مخشن بن حمير فتسمى عبد الرحمن، وسأل الله أن يُقتله شهيداً لا يُعْلم مكانه، فقتل يوم اليمامة فلم يوجد له أثر.

---

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ٥٢٤.

(٢) نفسه ج ٢ ص ٥٢٤ ـ ٥٢٥.

ولما[1] انتهى رسول الله ﷺ إلى تبوك أتاه يُحنة بن رُؤْبة صاحب أيلة فصالح رسول الله ﷺ وأعطى الجزية. وأتاه أهل جَرْباء وأَذْرَح فأعطوا الجزية، وكتب لهم رسول الله ﷺ كتاباً فهو عندهم:

«بسم الله الرحمن الرحيم. هذه أَمَنةٌ من الله ومحمد النبي رسول الله ليُحَنَّة بن رؤبة وأهل أيْلة سفنهم وسيارتهم في البر والبحر، لهم ذمة الله ومحمد النبي ومن كان منهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر فمن أحْدَث منهم حَدثاً فإنه لا يَحُول مالُه دونَ نفسه وأنه طيِّبة لمن أخذه من الناس، وإنه لا يحلّ أن يُمْنعوا ماءً يردونه ولا طريقاً يردونه من برّ أو بحر».

ثم[2] دعا رسول الله ﷺ خالد بن الوليد فبعثه إلى أُكَيْدر دَوْمة ـ وهو أكيدر ابن عبد الملك رجل من كندة كان ملكاً عليها وكان نصرانياً ـ فقال رسول الله ﷺ لخالد: إنك ستجده يصيد البقر. فخرج خالد حتى إذا كان من حصنه بمنظر العَيْن وفي ليلة مُقْمرة صائفة وهو على سطح له ومعه امرأته فباتت البقر تحكّ بقرونها باب القصر، فقالت له امرأته: هل رأيت مثل هذا قط؟ قال: لا والله. قالت: فمن يترك هذه؟ قال: لا أحد. فنزل فأمر بفرسه فأُسْرج له وركب معه نفر من أهل بيته فيهم أخ له يقال له: حسان، فركب وخرجوا معه بمطَاردهم، فلما خرجوا تلقتهم خيلُ رسول الله ﷺ فأخذته وقتلوا أخاه، وكان عليه قباء ديباج مخوَّصٌ بالذهب، فاستلبه خالد فبعث به إلى رسول الله ﷺ قبل قدومه عليه، فجعل المسلمون يلمسونه بأيديهم ويتعجبون منه، فقال رسول الله ﷺ: أتعجبون من هذا؟ فوالذي نفسي بيده لمَنَاديل سعد بن معاذ في الجنة أحسن من هذا!

ثم قدِم خالد بأُكَيْدر على رسول الله ﷺ فحقَن له دمه وصالحه على الجزية ثم خلي سبيله[3].

فرجع إلى قريته، فقال رجل من طيء يقال له: بُجَيْر بن بُجَرة يذكر قول

---

(١) المصدر السابق ج٢ ص٥٢٥.
(٢) نفسه ج٢ ص٥٢٦ ـ ٥٢٧.
(٣) نفسه ج٢ ص٥٢٧.

رسول الله ﷺ لخالد: إنك ستجده يصيد البقر. وما صنعت البقر تلك الليلة حتى استخرجته لتصديق قول رسول الله ﷺ:

تبارك سائقُ البقرات إني رأيتُ اللهَ يَهْدي كلَّ هادِي
فمن يَكُ حائداً عن ذي تبوك فإنا قد أُمرنا بالجهادِ
[الوافر]

فأقام[1] رسول الله ﷺ بتبوك بضع عشرة ليلة ولم يجاوزها، ثم انصرف قافلاً إلى المدينة.

وكان في الطريق ماء يخرج من وَشَل يَرْوي الراكب والراكبين والثلاثة بواد يقال له: وادي المشقّق، فقال رسول الله ﷺ: من سبقنا إلى الماء فلا يستقينّ منه شيئاً، حتى نأتيه. فسبقه إليه نفر من المنافقين فاستقوا ما فيه، فلما أتاه رسول الله ﷺ وقف عليه فلم ير فيه شيئاً فقال: من سبقنا إلى هذا؟ فقيل: يا رسول الله فلان وفلان. فقال: أولم أنهكم أن تستقوا منه شيئاً حتى آتيه؟ ثم لعنهم رسول الله ﷺ ودعا عليهم، ثم نزل فوضع يده تحت الوشل فجعل يصبّ في يده ما شاء الله أن يصب ثم نضحه به ومسَحه بيده ودعا بما شاء الله أن يدعو به، فانخرق من الماء كما يقول من سمعه ما إن له حِسًّا كحس الصواعق، فشرب الناس واستقوا حاجتهم منه. فقال رسول الله ﷺ: «لئن بَقِيتم أو من بقي منكم لتَسمعُن بهذا الوادي وهو أخْصَب ما بين يديه وما خلفه».

ومات في هذه الغزوة من أصحاب رسول الله ﷺ: عبد الله ذو البِجادين المزني، وإنما سمي ذا البجادين لأنه كان ينازع إلى الإسلام فيمنعه قومه من ذلك ويضيقون عليه حتى تركوه في بِجَاد ليس عليه غيره، والبجاد: الكِسَاء الغليظ الجافي، فهرب منهم إلى رسول الله ﷺ فلما كان قريباً منه شقّ بجَاده باثنين فاتزر بواحد واشتمل بالآخر، ثم أتى رسول الله ﷺ فقيل له ذو البِجادين لذلك. فكان عبد الله بن مسعود يحدّث قال: قمت من جوف الليل وأنا مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فرأيت شُعْلة من نار في ناحية العسكر فاتبعتها أنظر إليها، فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر وإذا عبد الله ذو البِجَادين قد مات، وإذا هم قد

(١) المصدر السابق ج٢ ص ٥٢٧.

حفروا له ورسول الله ﷺ في حفرته وأبو بكر وعمر يدلّيانه إليه وهو يقول: أدْليا إليّ
٩٣ب أخاكما فدلّياه، فلما هيَّأه لشقه قال: «اللهم إني قد أمسيتُ راضيـاً / عنه فارض عنه»
يقول عبد الله بن مسعود: يا ليتني كنت صاحب الحفرة!(١)

وقال أبو رهم الغِفَاري(٢)، وكان ممن بايع تحت الشجرة: غزوت مع رسول الله ﷺ غزوة تبوك، فسرت ذات ليلة معه قريباً منه وأُلقى علينا النعاس، فطفقت أستيقظ وقد دنَتْ راحلتي من راحلته - عليه السلام - فيفزعني دنوها منه مخافة أن أصيب رجله في الغَرْز فما استيقظت إلا لقوله: حَسِّ فقلت، يا رسول الله استغفر لي: قال: سِرْ. فجعل يسألني عمن تخلَّف من بني غَفَار فأخبره به، فقال وهو يسألني: ما فعل النفر الحُمر الطِّوال الثِّطاط فحدثته بتخلفهم، قال: فما فعل النفر السـود الجعاد القصار؟ قلت: والله ما أعرف هؤلاء منا. قال: بلى، الذين هم نعم بشبكة شَدَخ فتذكرتهم في بني غِفَار فلم أذكرهم حتى ذكرت أنهم رهط من أسْلم كانوا حلفاء فينا، فقلت: يا رسول الله، أولئك رهط من أسلم حلفاء فينا، فقال رسول الله ﷺ: «ما منع أحد أولئك حين تخلَّف أن يحمل على بعير من إبله امرءً نشيطاً في سبيل الله؟! إن أعزَّ أهل عليّ أن يتخلف عني المهاجرون من قريش والأنصار وغِفار وأَسْلم».

قال ابن إسحاق(٣): ثم أقبل رسول الله ﷺ حتى نزل بذي أَوَان بلد بينه وبين المدينة ساعةٌ من نهار وكان أصحاب مسجد الضِّرَار قد أتوه وهو يتجهز إلى تبوك فقالوا: يا رسول الله، إنا قد بنيْنا مسجداً لذي العِلّة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية وإنا نحب أن تأتينا فتصلي لنا فيه فقال: إني على جناح سَفر وحال شغل. أو كما قال ﷺ. ولو قد قدِمْنا إن شاء الله لأتيناكم فصلينا لكم فيه. فلما نزل بذي أوان أتاه خبر المسجد فدعا رسول الله ﷺ مالك بن الدُّخْشُم أخا بني سالم بن عوف ومَعْن بن عَدِيّ أو أخاه عاصم بن عدي أخا بني العَجْلاني فقال: انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدماه وحرِّقاه، فخرجا سريعين حتى أتيا بني

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ٥٢٧ - ٥٢٨.
(٢) نفسه ج ٢ ص ٥٢٨ - ٥٢٩.
(٣) نفسه ج٢ ص ٥٢٩ - ٥٣٠.

سالم بن عوف رهط مالك فقال مالك لمعن: انْظرني حتى أخرج إليك بنارٍ من أهلي. فدخل إلى أهله فأخذ سَعفاً من النخل فأشعل فيه ناراً ثم خرجا يشتدّان حتى دخلاه وفيه أهله فحرّقاه وهدَماه وتفرقوا عنه ونزل فيهم من القرآن ما نزل: ﴿والذين اتخذوا مَسْجداً ضِرَاراً وكُفْراً وتفريقاً بين المؤمنين﴾ [التوبة: ١٠٧] إلى آخر القصة.

وقدِم(١) رسول الله ﷺ المدينة وقد كان تخلف عنه من تخلف من المنافقين، وأولئك الرهطُ الثلاثة من المسلمين من غير شك ولا نفاق: كعب بن مالك ومُرارة بن الربيع وهلال بن أمية، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: لا تُكلِّمنّ أحداً من هؤلاء الثلاثة. وأتاه من تخلّف عنه من المنافقين فجعلوا يحلفون له ويعتذرون فصفَح عنهم رسول الله ﷺ ولم يَعْذرهم الله ولا رسوله، فاعتزل المسلمون كلامَ أولئك النفر الثلاثة.

فحدَّث كعب بن مالك قال(٢): ما تخلفتُ عن رسول الله في غزوة غزاها قط، غير أني تخلفتُ عنه في غزوة بدر، وكانت غزوةً لم يعاتب الله فيها ولا رسولُه أحداً تخلّف عنها، وذلك أن رسول الله ﷺ إنما خرج يريد عِير قريش فجمع الله بينه وبين عدوّه على غير ميعاد، ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ العقبة حين تواثَقْنا على الإسلام وما أحب أن لي بها مَشْهد بدر، وإن كانت غزوة بدر هي أَذْكَر في الناس منها.

وكان من خَبَري حين تخلفتُ عنه في غزوة تبوك أني لم أكن قط أَقْوَى ولا أَيْسَر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزوة، والله ما اجتمعت لي راحلتان قط حتى اجتمعتا لي في تلك الغزوة، وكان رسول الله ﷺ قلَّ ما يريد غزوةً يغزوها إلا ورّى بغيرها حتى كانت تلك الغزوة فغزاها رسول الله ﷺ في حَرّ شديد واستقبل سفراً بعيداً واستقبل غَزْو عدوٍّ كثير، فجلّى للناس أمرهم ليتأهبوا

---

(١) المصدر السابق ج٢ ص ٥٣١.

(٢) نفسه ج٢ ص ٥٣١ - ٥٣٧.

لذلك أُهْبته وأخبرهم خبره بوجهه الذي يريد، والمسلمون من تبع رسول الله ﷺ كثير لا يجمعهم كتاب حافظ، يعني بذلك الدِّيوان، فقلَّ رجلٌ يريد أن يتغيب إلا ظن أنه سيَخْفى له ذلك ما لم ينزل فيه وحيٌ من الله تعالى.

وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار وأُحبت الظلال فالناس إليها صُعْر، فتجهز رسول الله ﷺ وتجهز المسلمون معه، وجعلت أغدو لأتجهز معهم فأرجع ولم أقض حاجةً فأقول في نفسي: أنا قادر على ذلك إذا أردتُ. فلم يزل ذلك يتمادَى بي حتى شمَّر بالناس الجدُّ وأصبح رسول الله ﷺ غاديًا والمسلمون معه ولم أقض من جهازي شيئاً فقلت: أتجهز بعده بيوم أو يومين ثم ألحق بهم، فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهز فرجعت ولم أقضِ شيئاً، ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئاً، فلم يزل ذلك يتمادي بي حتى أسرعوا وتفرَّط الغزو فهمَمْت أن أرتحل فأدركهم، وليتني فعلتُ، فلم أفعل، وجعلت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ فطُفْت فيهم يُحْزنني أني لا أرى إلا رجلاً مَغْموصاً عليه في النفاق أو رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء، ولم يذكرني رسولُ الله ﷺ حتى بلغ تبوك فقال وهو جالس في القوم بتبوك: ما فعل كعب بن مالك؟ فقال رجل من بني سلمة: يا رسول الله، حبَسه بُرداه والنظر في عِطْفَيْه. فقال له معاذ: بئس ما قلت، والله يا رسول الله ما علمنا منه إلا خيراً. فسكت رسول الله ﷺ.

فلما بلغني أن رسول الله ﷺ توجَّه قافلاً حضر لي بثي فجعلت أتذكر الكذب وأقول: بماذا أخرج من سخط رسول الله ﷺ غداً؟ وأستعين على ذلك كلَّ ذي رأي من أهلي، فلما قيل لي: إن رسول الله ﷺ قد أظل قادماً زاح عني الباطل وعرفت أن لا أنجو منه إلا بالصدق، فأجمعت أن أَصْدُق.

٩٤أ وصبَّح رسول الله ﷺ المدينة، / وكان إذا قدِم من سَفر بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاء المخلَّفون من الأعراب فجعلوا يحلفون له ويعتذرون، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً، فيَقْبل منهم رسول الله ﷺ

علانيتهم وأيمانهم ويستغفر لهم ويكل سرائرهم إلى الله، حتى جئتُ فسلمت عليه فتبسم تبسم المغْضَب ثم قال لي: تعاله. فجئت أمشي حتى جلست بين يديه فقال لي: ما خلَّفك ألم تكن ابتعت ظهرك؟ قلت: يا رسول الله، والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أني سأخرج من سخطه بعُذْر لقد أُعطيتُ جدَلا، ولكن والله لقد علمتُ لئن حدّثتك اليوم حديثاً كذِباً لترضين عني وليوشكن الله أن يسخط عليّ، ولئن حدَّثْتك اليوم حديثاً صادقاً تجد عليّ فيه إني لأرجو عقباي من الله فيه، ولا والله ما كان لي عذر، والله ما كنت قط أَقْوَى ولا أيسر مني حين تخلفتُ عنك. فقال رسول الله ﷺ: أمّا هذا فقد صدقت فيه، فقم حتى يقضي الله فيك. فقمت.

وثار معي رجالٌ من بني سلمة فاتبعوني فقالوا: والله ما عَلِمْناك كنت أَذْنبت ذنباً قبل هذا، ولقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر إليه المخلَّفون فقد كان كافيك ذنبك استغفارُ رسول الله ﷺ لك، فوالله مازالوا حتى أردت أن أرجع إلى رسول الله ﷺ فأكذّب نفسي، ثم قلت لهم: هل لقي هذا أحدٌ غيري؟ قالوا: نعم، رجلان قالا مثل ذلك وقيل لهما مثل ما قيل لك. قلت: من هما؟ قالوا: مَرَارة بن الربيع العَمْري وهلال بن أمية الواقفي. فذكروا لي رجلين صالحين فيهما أسْوة حسنة، فقمت حين ذكروهما لي. ونهي رسول الله ﷺ عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلّف عنه، فاجتنبنا الناسُ وتغيَّروا لنا حتى تنكرتْ لي نفسي والأرضُ فما هي بالأرض التي كنت أعرف.

فلبثنا على ذلك خمسين ليلة، فأما صاحباي فاستكانا فقعدا في بيوتهما، وأما أنا فكنت أشبَّ القوم وأجْلَدهم فكنت أخرج وأشهد الصلوات مع المسلمين وأطوف بالأسواق لا يكلمني أحد، وآتي رسولَ الله ﷺ فأسلّم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة فأقول في نفسي: هل حرّك شفتيه بردّ السلام عليّ أم لا! ثم أصلّي قريباً منه فأسارقه النظر، فإذا أقبلتُ على صلاتي نظر إليَّ، وإذا التفتُّ نحوه أعْرَض عني.

حتى إذا طال ذلك عَلَيَّ من جَفْوة المسلمين مشيت حتى تسوَّرْتُ جدار حائط أبي قتادة وهو ابن عمي وأحبّ الناس إليّ فسلمت عليه فوالله ما ردّ عَلَيَّ السلام، فقلت: يا أبا قتادة، أُنْشدك الله هل تعلم أني أُحبّ الله ورسوله؟ فسكت فعُدْت فناشدته، فسكت، فعدت فناشدته، فقال: الله ورسوله أعلم. ففاضت عيناي ووثبتُ فتسوَّرْت الحائط. ثم غدوت إلى السوق فبينا أنا أمشي بالسوق إذا نبطي يسأل عنّي من نَبَط الشام ممن قدِم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدلّ على كعب بن مالك؟ فجعل الناس يشيرون له إليَّ، حتى جاءني فدفع إلي كتاباً من ملك غسَّان في سَرَقة من حرير فإذا فيه: أمّا بعد، فإنه قد بلغنا أن صاحبك جفاك ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مَضْيعة فالحق بنا نُوَسك. قلت حين قرأتها: وهذا من البلاء أيضاً قد بلَغ بي ما وقعت فيه أن طمع فيّ رجلٌ من أهل الشرك فعمدت بها إلي تَنُّور فسجَرْته بها.

فأقمنا على ذلك حتى مضت أربعون ليلة من الخمسين، إذا رسولُ رسول الله ﷺ يأتيني فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك. فقلت: أطلقها أم ماذا؟ قال: لا، بل اعتزلها ولا تَقْربها. وأرسل إلى صاحبي بمثل ذلك، فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك وكوني فيهم حتى يقضي الله في هذا الأمر ما هو قاض.

وجاءت امرأة هلال بن أمية رسولَ الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، إنّ هلال ابن أمية شيخ كبير ضائع إلا خادم، أفتكره أن أخدمه؟ قال: لا ولكن لا يَقْربنّك. قالت: يا رسول الله، والله ما به من حركة، والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا ولقد تخوَّفتُ على بصره. فقال لي بعض أهلي: لو استأذنتَ رسولَ الله ﷺ لامرأتك فقد أذِن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه، فقلت: والله لا أستأذنه فيها، ما أدري ما يقول لي في ذلك إذا استأذنته وأنا رجلٌ شابّ.

قال: فلبثنا بعد ذلك عشرَ ليال، فكَمُل لنا خمسون من حين نهى رسولُ الله ﷺ المسلمين عن كلامنا، ثم صليت الصبح صبح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا على الحال التي ذكر الله منا، قد ضاقت علينا الأرض بما رَحُبت وضاقت

عليَّ نفسي، وقد كنت ابتنيت خيمة في ظهر سَلْع، فكنت أكون فيها إذ سمعت صوتَ صارخ أوْفَى على سَلْع يقول بأعلى صوته: يا كعبَ بن مالك أبشر. فخرَرْت ساجداً وعرفت أن قد جاءني الفرج.

قال: وآذن رسولُ الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى الفجر، فذهب الناسُ يبشروننا وذهب نحو صاحبيَّ مبشرون، وركض رجلٌ إليّ فرساً وسعى ساع من أسْلم، حتى أوفى على الجبل فكان الصوت أسرع من الفرس، فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني نزعتُ ثوبيّ فكسوتهما إياه بشارةً، ووالله ما أملك يومئذ غيرهما، واستعرت ثوبين فلبستهما، ثم انطلقت أتيَّمم رسولَ الله ﷺ، وتلقاني الناس يبشرونني بالتوبة يقولون: ليَهْنك توبة الله عليك. حتى دخلت المسجد ورسول الله ﷺ جالس حوله الناس فقام إليّ طلحة بن عبيد الله فحيَّاني وهنَّأني، ووالله ما قام إليّ رجل من المهاجرين غيره. فكان كعب لا ينساها لطلحة.

قال كعب: فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال ووجهه يَبْرق من السرور: أبشر بخير يوم مرَّ عليك منذ يوم ولدتك أمك. قلت: أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله؟ قال: بل من / عند الله. قال: وكان رسول الله ﷺ إذا استبشر ٩٤ب
كأن وجهه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه.

قال: فلما جلست بين يديه، قلت: يا رسول الله، إن من توبتي إلى الله أن أنخلع من مالي صدقةً إلى الله وإلى رسوله. قال: أمسك عليك بعضَ مالك فهو خيرٌ لك. قلت: إني مُمْسك سهمي الذي بخيبر. وقلت: يا رسول الله إن الله قد نجّاني بالصدق، فإن من توبتي إلى الله أن لا أُحدِّث إلا صِدْقاً ما بقيت. والله ما أعلم أحداً من الناس أبلاه الله في صِدْق الحديث منذ ذكرت لرسول الله ﷺ ذلك أفضل مما أبلاني، والله ما تعمدت من كذبة مذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقي.

وأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿**لقد تابَ الله على النبيِّ والمهاجرين والأنصار**

الذين اتّبعوه في ساعة العُسْرَة من بعد ما كاد يزيغ قلوبُ فريقٍ منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رءوف رحيم وعلى الثلاثة الذين خُلِّفُوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رَحُبَت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم يا أيُّهَا الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾ [التوبة: ١١٧ ـ ١١٩].

قال كعب: فوالله ما أنعم الله عليّ نعمةً قط بعد أن هداني للإسلام كانت أعظم في نفسي من صِدْقي رسولَ الله ﷺ يومئذ، أن لا أكون كذَبْته فأهلك كما هلك الذين كذَبوه، فإن الله ـ تبارك وتعالى ـ قال في الذين كَذبوه شرَّ ما قال لأحد: ﴿سيَحْلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لِتُعرِضوا عنهم فأعرضوا عنهم إنهم رِجْسٌ ومأواهم جهنم جزاءً بما كانوا يَكْسِبُونَ يحلفون لكم لِتَرْضَوْا عنهم فإن تَرْضَوْا عنهم فإن الله لا يَرْضَى عن القوم الفاسقين﴾ [التوبة: ٩٥ ـ ٩٦].

قال: وكنا خُلِّفْنَا أيها الثلاثة عن أمر هؤلاء الذين قَبِل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا له فعذَرهم واستغفر لهم، وأرْجأ رسولُ الله ﷺ أمرَنا حتى قضى الله فيه ما قضي، فلذلك قال الله تبارك وتعالى: ﴿وعلى الثلاثة الذين خُلِّفوا﴾ وليس الذي ذكر من تخليفنا لتخلّفنا عن الغزوة، ولكن لتخليفه إيانا وإرجائه أمرنا عن من حلَف له واعتذر إليه فقبل منه.

* * *

ذكر إسلام ثقيف

وقدم(1) رسول الله ﷺ المدينة من تبوك في رمضان وقدم عليه في ذلك الشهر وفدُ ثقيف.

وكان(2) من حديثهم أن رسول الله ﷺ لما انصرف عنهم اتبع أثره عروة بن مسعود حتى أدركه قبل أن يصل إلى المدينة، فأسلم وسأله أن يرجع إلى قومه بالإسلام، فقال له رسول الله ﷺ كما يتحدث قومه: إنهم قاتلوك. وعرف رسول الله ﷺ أن فيهم نَخْوة الامتناع الذي كان منهم. فقال عروة: يا رسول الله، أنا أَحَبّ إليهم من أبكارهم. ويقال: من أبصارهم. وكان فيهم كذلك محبّباً مطاعاً.

فخرج(3) يدعو قومه إلى الإسلام رجاءَ أن لا يخالفوه لمنزلته فيهم، فلما أشرف لهم على عُلّية له وقد دعاهم إلى الإسلام وأظهر لهم دينه رمَوه بالنّبْل من كل وجه فأصابه سهم فقتله، فقيل له: ما ترى في دمك؟ قال: كرامة أكرمني الله بها وشهادة ساقها إليّ فليس فيّ إلا ما في الشهداء الذين قُتِلوا مع رسول الله ﷺ قبل أن يرتحل عنكم فادفنوني معهم. فزعموا أن رسول الله ﷺ قال: «إن مثله في قومه لَكمثل صاحب ياسين في قومه».

ثم(4) أقامت ثقيف بعد قتل عروة أشهراً، ثم إنهم ائتمروا بينهم ورأوا أنهم لا طاقة لهم بحرب من حولهم من العرب، وقد بايعوا وأسلموا، فمشى عمرو بن

---

(1) ابن هشام. السيرة ج ٢ ص ٥٣٧.
(2) نفسه.
(3) نفسه ج ٢ ص ٥٣٨.
(4) نفسه.

أُمية أخو بني عِلاَج وكان من أَدْهى العرب إلى عبد ياليل بن عمرو حتى دخل داره وكان قبلُ مهاجراً له الذي بينهما سيّء ثم أرسل إليه، أن عمرو بن أمية يقول لك: اخرجِ إليّ فقال عبد ياليل للرسول: ويلك أعمرو أرسلك إليّ؟ قال: نعم وها هو ذا واقفاً في دارك. قال: إن هذا لشيء ما كنت أظنه، لعَمرو كان أمْنَع في نفسه من ذلك. فخرج إليه فلما رآه رحَّب به فقال له عمرو: إنه قد نزل بنا ما ليست معه هجرة، إنه قد كان من أمر هذا الرجل ما قد رأيت، وقد أسلمت العرب كلها، وليست لكم بحربهم طاقة فانظروا في أمركم.

فعند[1] ذلك ائتمرت ثَقِيف بينها وقال بعضهم لبعض: ألا ترون أنه لا يَأمن لكم سِرب ولا يخرجِ منكم أحد إلا اقتطع؟ فائتمروا بينهم وأجمعوا أن يرسلوا إلى رسول الله ﷺ رجلاً كما أرسلوا عروة. فكلموا عبد ياليل وكان سِنَّ عروة، وعرضوا عليه ذلك فأبى أن يفعل وخشي أن يُصْنَع به إذا رجع كما صُنع بعروة فقال: لست فاعلاً حتى ترسلوا معي رجالاً. فأجمعوا أن يبعثوا معه رجلين من الأحلاف وثلاثة من بني مالك فيكونوا ستة، فبعثوا مع عبد ياليل الحكَمَ بن عمرو بن وهب بن مُعتّب، وشَرْحبيل بن غَيْلان بن سَلمة بن مُعتب. ومن بني مالك: عثمان بن أبي العاص وأوس بن عوف ونُمَيْر بن خَرَشة.

فخرج بهم عبدُ ياليل وهو نابُ القوم وصاحب أمرهم، ولم يخرج بهم إلا خشيةَ من مثل ما صُنع بعروة بن مسعود لكي يشغل كل رجل منهم إذا رجعوا إلى الطائف رهطه، فلما دَنوْا من المدينة ونزلوا قناة أَلْفوا بها المغيرةَ بن شُعْبة يرعى في نَوْبته رِكَابَ أصحاب رسول الله ﷺ وكانت رِعْيتها نُوَباً عليهم، فلما رآهم ترك الركاب عند الثَّقفيين وضَبر يشتدّ يبشِّر رسولَ الله ﷺ بقدومهم، فلقيه أبو بكر الصديق قبل أن يدخل على رسول الله ﷺ، فأخبره بقدومهم يريدونَ البيعة والإسلام وأن يشترطوا شروطاً ويكتتبوا من رسول الله ﷺ

(١) المصدر السابق ج٢ ص ٥٣٨ - ٥٣٩.

كتاباً. فقال أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ للمغيرة: أقسمت عليك بالله لا تسبقني إلى رسول الله ﷺ حتى أكون أنا أحدِّثه. ففعلَ المغيرة. فدخل أبو بكر على رسول الله ﷺ فأخبره بذلك ثم خرج المغيرة إلى أصحابه فروَّح الظَّهْر معهم وعلَّمهم كيف يحيون رسولَ الله ﷺ، فلم يفعلوا إلا بتحية الجاهلية.

ولما قدِموا على رسول الله ﷺ ضرب عليهم قبةً في ناحية مسجده ـ كما
١٩٥أ يزعمون ـ فكان خالد بن سعيد هو الذي يمشي بينهم/ وبين رسول الله ﷺ حتى اكتتبوا كتابهم، كتبه خالد بيده وكانوا لا يطعمون طعاماً يأتيهم من رسول الله ﷺ حتى يأكل منه خالد حتى أسلموا وفرغوا من كتابهم(١).

وقد(٢) كان فيما سألوا رسولَ الله ﷺ أن يدع لهم الطاغيَة وهي اللات لا يهدمها ثلاثَ سنين فأبى ذلك عليهم، فما برحوا يسألونه سنةً سنة ويأبى حتى سألوه شهراً واحداً بعد مَقْدمهم فأبى عليهم أن يدعها شيئاً مسمًّى، وإنما يريدون بذلك فيما يظهرون أن يَسْلموا بتركها من سفهائهم ونسائهم وذراريهم ويكرهون أن يروِّعوا قومهم بهدمها حتى يدخلهم الإسلام، فأبى عليهم رسولُ الله ﷺ إلا أن يبعث أبا سفيان بن حَرْب والمغيرة بن شعبة فيهدماها. وقد كانوا سألوه مع ترك الطاغية أن يُعفيهم من الصلاة وأن لا يكسروا أوثانهم بأيديهم فقال رسول الله ﷺ: «أمّا كسْر أوثانكم فسنعفيكم منه، وأما الصلاة فلا خير في دين لا صلاة فيه».

فلما(٣) أسلموا وكتب لهم رسولُ الله ﷺ كتاباً أمَّر عليهم عثمان بن أبي العاص وكان من أَحْدثهم سِناً فقال أبو بكر لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، إني قد رأيت هذا الغلام من أحرصهم على التفقّه في الإسلام وتعلّم القرآن. فحدّث

---

(١) المصدر السابق ج٢ ص ٥٣٩ ـ ٥٤٠.
(٢) نفسه ج ٢ ص ٥٤٠.
(٣) نفسه.

عثمان بن أبي العاص قال: كان من آخر ما عهد إليّ رسول الله ﷺ حين بعثني على ثقيف أن قال: «يا عثمان تَجاوزْ في صلاتك واقْدر الناسَ بأضعفهم فإن فيهم الكبير والصغير والضعيف وذا الحاجة».

فلما(١) فرغوا من أمرهم وتوجهوا راجعين إلى بلادهم بعث رسول الله ﷺ معهم أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شُعبة في هدم الطاغية فخرجا مع القوم حتى إذا قدموا الطائف أراد المغيرة أن يقدّم أبا سفيان، فأبى ذلك عليه أبو سفيان وقال: ادخل أنت على قومك. وأقام أبو سفيان بماله بذي الهَدْم(١)، فلما دخل علاَها يضربها بالمعوْل وقام دونه قومه بنو مُعتِّب خشية أن يُرْمَى أو يصاب كما أصيب عروة، وخرج نساء ثقيف حُسَّرا يبكين عليها ويقلن:

لِتُبْكَيَــــن دُفّــــاع أسلمهــــا الرُّضّــــاع
لم يُحْسنوا المِصَاعْ

[الرجز]

فلما هدمها المغيرة وأخذ مالها وحليَّها أرسل إلى أبي سفيان وحليُّها مجمــوع ومالهـا من الذهب والجَزْع.

وقد كان أبو مُلَيْح بن عروة وقارِب بن الأسود قدِما على رسول الله ﷺ قبل وفد ثقيف حين قُتل عروة يريدان فراق ثقيف وأن لا يُجامعاهم على شيء أبداً. فأسلما فقال لهما رسول الله ﷺ: تولَّيَا من شئتما. فقالا: نتولّى الله ورسولَه فقال رسول الله ﷺ: وخالكما أبا سفيان بن حرب. فقالا: وخالَنا أبا سفيان. فلما أسلم أهلُ الطائف ووجَّه رسول الله ﷺ أبا سفيان والمغيرة إلى هَدْم الطاغية سأل أبو مليح رسولَ الله ﷺ أن يقضي عن أبيه عروة ديناً كان عليه من مال الطاغية. فقال رسول الله ﷺ: نعم. فقال له قارب بن الأسود: وعن الأسود

١) في الأصل: «بذي الهزم».

(١) المصدر السابق ج٢ ص ٥٤١.

يارسول الله فاقضه. وعروة والأسود أخوان لأب وأم. فقال رسول الله ﷺ: «إن الأسود مات مشركاً». فقال قارب: يارسول الله، لكن تَصِل مُسْلماً ذا قرابة ـ يعني نفسه ـ إنما الدَّين عليّ وإنما أنا الذي أُطلب به. فأمر رسولُ الله ﷺ أبا سفيان أن يقضي دَين عروة والأسود من مال الطاغية فلما جمع المغيرة مالها ذكّر أبا سفيان بذلك فقضى منه عنهما(١).

هكذا ذكر ابن إسحاق إسلام أهل الطائف بعقب غزوة تبوك في رمضان من سنة تسع قبل حج أبي بكر بالناس آخر تلك السنة. وجعل ابنُ عُقْبَة قدومَ عروة على رسول الله ﷺ ومَقْتله في قومه وإسلام ثقيف كل ذلك بعد صدر أبي بكر عن حجّه. وبين حديثه وحديث ابن إسحاق بعضُ اختلاف، رأيت ذِكر حديث ابن عقبة وإن كان أكثره مُعاداً لأجل ذلك الاختلاف، ثم أذكر بعده حجة أبي بكر في الموضع الذي ذكرها فيه ابن إسحاق.

قال موسى بن عقبة: فلما صدَر أبو بكر من حَجّه بالناس قدم عروة بن مسعود الثقفي على رسول الله ﷺ فأسلم ثم استأذن رسول الله ﷺ في الرجْوع إلى قومه فقال له: إني أخاف أن يقتلوك، قال: لو وجدوني نائماً ما أيقظوني. فأذن له فرجع إلى الطائف وقدمها عشاءً فجاءته ثقيف يسلّمون عليه فدعاهم إلى الإسلام ونصَح لهم فاتهموه وأعَضّوه وأسمعوه من الأذى ما لم يكن يخشاه منهم فخرجوا من عنده حتى إذا أسْحـر وسطع الفجرُ قام على غرفة في داره فأذَّن بالصلاة وتشهَّد، فرماه رجلٌ من ثقيف بسهم فقتله فقال رسول الله ﷺ لما بلغه قَتْله: «مثل عُرْوة مثل صاحب ياسين، دعا قومه إلى الله، فقتلوه».

وأقبل بعد قتله وفْدٌ من ثقيف بضعة عشر رجلاً هم أشراف ثقيف، فيهم كنانة بن عبد ياليل وهو رأسهم يومئذ، وفيهم عثمان بن أبي العاص وهو أصغر القوم حتى قدموا على رسول الله ﷺ المدينة يريدون الصُّلح حين رأوا أن قد فُتحت مكة وأسلم عامّة العرب، فقال المغيرة بن شُعْبة: يا رسول الله، أنزل على

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ٥٤٢.

قومي أكرمهم بذلك فإني حديث الجرم فيهم. قال: لا أمنعك أن تكرم قومَكَ ولكن تُنْزلهم حيث يسمعون القرآن. فأنزلهم رسول الله ﷺ في المسجد وبني لهم خياماً لكي يسمعوا القرآن ويروا الناس إذا صلَّوا. وكان رسول الله ﷺ إذا خطب لم يَذْكر نفسه، فلما سمعه وفدُ ثقيف قالوا: يأمرنا أن نشهد أنه رسول الله ولا يشهد به في خطبته! فلما بلغه قولهم قال: فإني أول من يشهد أني رسول الله.

وكانوا يَغدون على رسول الله كلَّ يوم ويخلفون عثمان بن أبي العاص على رِحَالهم لأنه أصغرهم، فكان عثمان كلما رجع الوفد إليه وقالوا بالهاجرة عَمد إلى
٩٥ب رسول الله ﷺ فسأله عن الدِّين واستقرأه القرآن، فاختلف إليه/ عثمانُ مراراً حتى فَقُه في الدِّين وعلم. وكان إذا وجد رسولَ الله ﷺ نائماً عمد إلى أبي بكر، وكان يكتم ذلك من أصحابه، فأعجب ذلك رسولَ الله ﷺ وأحبَّه.

فمكث الوفدُ يختلفون إلى رسول الله ﷺ وهو يدعوهم إلى الإسلام، فقال له كنانة بن عبد ياليل: هل أنت مُقَاضينا حتى نرجع إلى قومنا ثم نرجع إليك؟ فقال: «نعم، إن أنتم أقررتم بالإسلام قاضيتكم وإلا فلا قضية ولا صلح بيني وبينكم». قالوا: أرأيت الزنا؟ فإنا قومٌ نَغْترب ولا بدّ لنا منه. قال: هو عليكم حرام إن الله يقول: ﴿**ولا تَقْربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلاً**﴾ [الإسراء: ٣٢].

قالوا: فالربا؟ قال: والربا. قالوا: إنه أموالنا كلها. قال: فلكم رءوس أموالكم، قـ الله: ﴿**يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذَرُوا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين**﴾ [البقرة: ٢٧٨]. قالوا فالخمر؟ فإنها عصير أرضنا ولا بد لنا منها. قال إن الله قد حرمها قال الله: ﴿**يا أيها الذين آمنوا إنما الخمرُ والمَيْسر والأنصابُ والأَزْلام رِجْسٌ من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون**﴾ [المائدة: ٩٠].

فارتفع القوم فخلا بعضهم إلى بعض وقالوا: ويحكم إنا نخاف إن

خالفناه يوماً كيوم مكة، انطلقوا فأعطوه ما سأل وأجيبوه. فأتوا رسولَ الله ﷺ فقالوا: لك ما سألت. أرأيت الرَّبة ماذا نصنع فيها؟ قال: اهدموها. قالوا: هيهات! لو تعلم الرَّبة أنا نريد هَدْمها لقتلت أهلنا. فقال عمر: ويحك يا بن عبد ياليل ما أحمقك إنما الرَّبة حجَر! قال: إنا لم نأتك يا بن الخطاب. ثم قال: يا رسول الله، تولَّ أنت هَدْمها فأما نحن فلن نهدمها أبداً. قال رسول الله ﷺ: فسأبعث إليكم من يكفيكم هدْمَها. قال كنانة: ائذن لنا قَبْل رسولك ثم ابعث في آثارنا، فإني أعلم بقومي. فأذن لهم رسول الله ﷺ وأكرمهم وحملهم. قالوا: يا رسول الله، أمِّر علينا رجلاً يؤمّنا. فأمَّر عليهم عثمان بن أبي العاص لِمَا رأى من حرصه على الإسلام وقد كان عُلِم سوراً من القرآن قبل أن يخرج.

وقال كنانة لأصحابه: أنا أعْلمكم بثقيف فاكتموهم إسلامكم وخوِّفوهم الحرب والقتال وأخبروهم أن محمداً سألنا أموراً أبيناها عليه، سألنا أن نهدم اللات ونبطل أموالنا في الربا ونحرِّم الخمر.

حتى إذا دنَوْا من الطائف خرجت إليهم ثقيف يتلقَّوْنهم، فلما رأوهم قد ساروا العَنَق وقطروا الإبل وتغشَّوْا ثيابهم كهيئة قومٍ قد حزنوا أو كذِّبوا قالت ثقيف بعضهم لبعض: ما جاءوكم بخير. فلما دخلوا حصنهم عمدوا للاّت فجلسوا عندها، واللات بيتٌ كانوا يعبدونه ويسترونه ويُهْدون له الْهَدْي يُضَاهون به بيت الله. ثم رجع كل واحد منهم إلى أهله فجاء كلَّ رجل حامية من ثقيف فسألوه: ماذا جئتم به؟ قالوا: أتينا رجلاً فظّاً غليظاً يأخذ من أمره ما شاء قد ظهر بالسيف وأداخ العربَ ودان له الناس، فعرض علينا أموراً شِداداً: هَدْم اللات وترك الأموال في الربا إلا رءوس أموالكم وحرَّم الخمر والزنا. قالت ثقيف: والله لا نقبل هذا أبداً. قال الوفدُ: أصلحوا السلاح وتهيئوا للقتال ورُمُّوا حصنكم.

فمكثت ثقيف بذلك يومين أو ثلاثة تريد القتال ثم ألقى الله الرعبَ في قلوبهم وقالوا: والله ما لنا به طاقة أداخ العرب كلها فارجعوا إليه فأعطوه ما

سأل وصالحوه عليه. فلما رأى الوفد أنهم قد رُعِبوا واختاروا الأمنَ على الخوف وعلى الحرب، قالوا لهم: إنا قد فرغنا من ذلك، قد قاضيناه وأسلمنا وأعطانا ما أحببنا واشترطنا ما أردنا وجدناه أتْقَى الناس وأوفاهم وأرحمهم وأصْدقهم وقد بورك لنا ولكم في مسيرنا إليه وفيما قاضيناه عليه. فقالت ثقيف: فلم كتمتمونا هذا الحديث وغممتمونا بذلك أشدَّ الغم؟ قالوا: أردنا أن ينزع الله من قلوبكم نخوة الشيطان، فأسلموا مكانهم واستسلموا.

فمكثوا أياماً ثم قدم عليهم رُسل رسول الله ﷺ قد أمَّر عليهم خالد بن الوليد وفيهم المغيرة بن شعبة، فلما قدموا عليهم عمدوا للات ليهدموها وانكفأت ثقيف كلها الرجال والنساء والصبيان حتى خرج العواتق من الحِجَال وهم لا يرون أنها تُهْدم ويظنون أنها ستمتنع. فقام المغيرة بن شعبة وقال لأصحابه: لأضحكنكم من ثقيف فأخذ الكرزن فضرب به ثم أخذ يرتكض فارتجَّ أهلُ الطائف بصيحة واحدة وقالوا: أبعد الله المغيرة قد قتلته الرَّبة! وفرحوا حين رأوه ساقطاً وقالوا: من شاء منكم فليقترب ويجهد على هَدْمها فوالله لا تستطاع أبداً. فوثب المغيرة فقال: قبحكم الله يا معشر ثقيف! إنما هي لكاع حجارة ومدَر! ثم ضرب الباب فكسره ثم علا على سورها وعلا الرجال معه، فمازالوا يهدمونها حجراً حجراً حتى سوَّوها بالأرض وجعل صاحب المفاتيح يقول: ليغضبن الأساسُ فليخسفن بهم. فلما سمع ذلك المغيرة قال لخالد: دعني أحفر أساسها. فحفروها حتى أخرجوا ترابها وأخذوا حليها وثيابها. فبهتت ثقيف.

وانصرف الوفد إلى رسول الله ﷺ بحليتها وكسوتها فقسمه رسول الله ﷺ من يومه وحمد الله على نصر نبيه وإعزاز دينه.

ذكر حج أبي بكر الصديق[1]

ـ رضي الله عنه ـ بالناس سنة تسع وتوجيه رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب بعده بسورة براءة

وبعث رسول الله ﷺ أبا بكر أميراً على الحج من سنة تسع ليقيم للمسلمين حجهم، ونزلت بعد بعثه إياه «براءة» في نقض ما بين رسول الله ﷺ وبين المشركين من العهد الذي كانوا عليه فيما بينه وبينهم: أن لا يُصَدَّ عن البيت أحدٌ جاءه ولا يخاف على أحد في الشهر الحرام، وكان ذلك عهداً عامًّا بينه وبين أهل الشرك، وكان بين ذلك عهودٌ خصائص بينه وبين قبائل العرب إلى آجال مُسمَّاة فنزلت فيه وفيمن تخلَّف من المنافقين عن تبوك وفي قول من قال منهم فكشف الله سرائر قوم كانوا يَسْتخفون بغير ما يُظْهرون.

فقيل/ لرسول الله ﷺ: لو بعثت بها إلى أبي بكر؟ فقال: لا يؤدّي عني إلا ١٩٦أ
رجل من أهل بيتي. ثم دعا عليّ بن أبي طالب فقال: «اخرج بهذه القصة من صَدْر براءة وأذِّن في الناس يوم النَّحْر إذا اجتمعوا بمني: أنه لا يدخل الجنة كافر ولا يحجّ بعد العام مُشْرك ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له عند رسول الله ﷺ عهدٌ فهو إلى مدته».

فخرج عليٌّ على ناقة رسول الله ﷺ العَضْباء حتى أدرك أبا بكر الصِّديق بالطريق، فلما رآه أبو بكر قال: أميرٌ أم مأمور؟ قال: بل مأور. ومضيا.

فأقام أبو بكر للناس الحجَّ، والعربُ في تلك السنة على منازلهم من الحج التي كانوا عليها في الجاهلية، حتى إذا كان يوم النحر قام عليٌّ بن أبي طالب فأذَّن في

---

(١) ابن هشام. السيرة ج ٢ ص ٥٤٣ ـ ٥٥٤.

الناس بالذي أمره به رسولُ الله ﷺ وأجّل الناس أربعة أشهر من يوم أذّن فيهم ليرجع كلُّ قوم إلى مَأمنهم وبلادهم، ثم لا عهد لمشرك ولا ذمة إلا أحدُ كان له عند رسول الله ﷺ عهد إلى مُدة فهو له إلى مدته.

فلم يحجج بعد ذلك العام مُشْرك ولم يطُفْ بالبيت عريان، وكانت براءة تسمّى في زمان رسول الله ﷺ: «الْمُبَعْثِرة» لما كشفت من سرائر الناس.

وكانت تبوك آخر غزوة غزاها رسول الله ﷺ.

وكان جميع ما غزا رسولُ الله ﷺ بنفسه سبعاً وعشرين غزاة: غزوة ودّان - وهي غزوة الأبْواء - ثم غزوة بُوَاط من ناحية رَضْوَي، ثم غزوة العُشَيْرة من بطن يَنْبع ثم غزوة بَدْر [الأولى] يطلب كُرْز بن جابر، ثم غزوة بدر التي قتل الله فيها صناديدَ قريش، ثم غزوة بني سُلَيم حين بلغ الكُدْر، ثم غزوة السَّويق يطلب أبا سفيان بن حرب، ثم غزوة غَطَفان [إلى نجد] وهي غزوة ذي أمر، ثم غزوة بَحْران مَعْدن بالحجاز، ثم غزوة أحد، ثم غزوة حَمْراء الأسد، ثم غزوة بني النَّضير، ثم غزوة ذات الرِّقاع من نخل، ثم غزوة بدر الآخرة، ثم غزوة دُومة الجنْدل، ثم غزوة الخندق، ثم غزوة بني قُرَيْظة، ثم غزوة بني لِحيْان من هُذَيل، ثم غزوة ذي قَرد، ثم غزوة بني المُصْطَلق من خُزاعة، ثم غزوة الحديبية لا يريد قتالاً فصدَّه المشركون، ثم غزوة خيبر، ثم عُمْرة القضاء، ثم غزوة الفتح، ثم غزوة حُنين، ثم غزوة الطائف، ثم غزوة تبُوك.

قاتل ﷺ في تسع غزوات منها: بَدْر، وأُحد، والخندق، وقُريظة، وبني الْمُصْطَلِق وخيبر، والفتح، وحنين، والطائف.

وهذا الترتيب عن ابن إسحاق[١]، وخالفه ابن عُقْبة في بعضه[٢].

---

(١) المصدر السابق ج٢ ص ٦٠٨ - ٦٠٩.

(٢) في ابن جماعة. المختصر الصغير ص ٥٣:

«... وكانت غزواته في هذه المدة سبعاً وعشرين، وقيل: خمساً وعشرين، وقيل: تسع عشرة، وقيل غير ذلك. قاتل فيها في تسع».

[السرايا]

وكانت بعوث رسول الله ﷺ وسَرَاياه ثمانية وثلاثين من بين بَعْث وسَرِيّة: غزوة عُبيدة بن الحارث أسفل ثنية الْمُرّة، وغزوة حمزة بن عبد المطلب ساحل البحر من ناحية العِيص، وبعض الناس يقدم غزوة حمزة قبل غزوة عبيدة. وغزوة سعد بن أبي وقّاص الخَرّار، وغزوة عبد الله بن جحش نخلة، وغزوة زيد بن حارثة القَرْدة، وغزوة محمد بن مَسْلمة كعبَ بن الأشرف، وغزوة مَرْثَد بن أبي مرثد الغَنَويّ الرَّجِيع، وغزوة المنذر بن عمرو بئر مَعُونة، وغزوة أبي عبيدة بن الجرَّاح ذا القَصّة، من طريق العراق، وغزوة عمر بن الخطاب تُربة من أرض بني عامر، وغزوة علي بن أبي طالب اليمن، وغزوة غالب بن عبد الله الكلبي كلب ليث، الكدِيد. فأصاب بني الملوَّح[1].

وكان[2] من حديثها أن رسول الله ﷺ بعثه في سرية وأمره أن يشن الغارة على بني الملوَّح وهم بالكَدِيد. قال جُنْدَب بن مَكيث الجُهني، وكان مع غالب في سريته هذه: فخرجنا حتى إذا كنا بقُدَيْد لقينا الحارث بن مالك وهو ابن البرْصاء اللَّيْثي فأخذناه فقال: إني جئت أريد الإسلامَ وما خرجت إلا إلى رسول الله ﷺ. فقلنا له: إن تك مسلماً فلن يَضرك رباطُ ليلة، وإن تك على غير ذلك كنا قد استوثقنا منك فشدَدْناه رباطاً ثم خَلَّفنا عليه رجلاً من أصحابنا وقلنا له: إن عازَّك فاحتزَّ رأسه.

قال: ثم سرنا حتى أتينا الكَدِيد عند غروب الشمس فكمنّا في ناحية الوادي وبعثني أصحابي رَبيئةً لهم، فخرجتُ حتى آتي تَلاًّ مُشرفاً على الحاضر فأسْندتُ فيه فعلوت في رأسه فنظرت إلى الحاضر فوالله إني لمنبطح على التل إذ خرج

(١) ابن هشام. السيرة ج ٢ ص ٦٠٩.

(٢) نفسه ج ٢ ص ٦٠٩ ـ ٦١١.

رجل منهم من خبائه فقال لامرأته: إني لأرى على التل سواداً ما رأيته في أول يومي فانظري إلى أوعيتك هل تفقدين شيئاً لا تكون الكلاب جرَّت بعضها. فنظرتْ فقالت: لا والله ما أفقد شيئاً. قال: فناوليني قوسي وسهمين. فناولتْه فأرسل سهماً فوالله ما أخطأ جنبي فأنزعه وأضعه وثبت مكاني. ثم أرسل الآخر فوضعه في منكبي فأنزعه وأضعه وثبّت مكاني. فقال لامرأته: لو كان ربيئة تحرَّك لقد خالطه سَهْماي، لا أبالك، إذا أصبحت فابتغيهما فخذيهما لا يمضغهما الكلاب عليَّ. ثم دخل.

وأمهلناهم حتى إذا اطمأنوا وناموا وكان في وجه السَّحر شَنَنَّا عليهم الغارة فقتلنا واستَقْنا النَّعم وخرج صريخُ القوم، فجاءنا دَهْم لا قبلَ لنا به ومضينا بالنعم، ومررنا بابن البَرْصاء وصاحبه فاحتملناهما معنا. وأدركنا القومُ حتى قربوا منا فما بَيْننا وبينهم إلا وادي قُدَيْد فأرسل الله الوادي بالسَّيل من حيث شاء الله ـ تبارك وتعالى ـ من غير سحابة نراها ولا مطر فجاء بشيء ليس لأحد به قوة ولا يقدر على أن يجاوزه، فوقفوا ينظرون إلينا وإنا لنسوق نعمهم وما يستطيع منهم رجل أن يُجيز إلينا حتى فُتْناهم. فقدمنا بها على رسول الله ﷺ.

وغزوة[1] علي بن أبي طالب بني عبد الله بن سعد من أهل فَدَك، وغزوة أبي العَوْجاء السُّلمي أرضَ بني سُلَيْم فأصيب بها هو وأصحابه جميعاً. وغزوة عُكَّاشة بن مِحْصَن الغمْرَة، وغزوة أبي سلمة بن عبد الأسد قطناً ـ ماء من مياه بني أسد من ناحية نجد ـ قُتل فيها مسعود بن عروة، وغزوة محمد بن مَسْلمة القُرَطاء من هوازن، وغزوة بشير بن سعد بني مُرّة بفدك، وغزوته ـ أيضاً ـ بناحية خيبر، وغزوة زيد بن حارثة الجموح من أرض بني سُلَيْم، وغزوته ـ أيضاً ـ جذام من أرض خُشَين ويقال: من أرض حِسْمَى.

٩٦ب وكان/ من حديثها كما حدث رجال من جُذَام كانوا علماء بها أن رفاعة بن زيد الجذامي لما قدِم على قومه من عند رسول الله ﷺ بكتابه يدعوهم إلى الإسلام فاستجابوا له لم يلبث أن قدِم دِحْية بن خليفة الكَلْبي من عند قيصر

(١) المصدر السابق ج٢ ص ٦١١ ـ ٦١٢.

صاحب الروم حين بعثه رسول الله ﷺ ومعه تجارة له، حتى إذا كان بوادٍ من أوديتهم أغار عليه الهُنَيْد بن عُوص الضَّلَيْعي بطن منهم وابنه عُوص، فأصابا كل شيء كان معه، فبلغ ذلك قوماً من بني الضُّبَيْب رهط رفاعة ممن كان أَسْلم وأجاب، فنفروا إلى الْهُنَيْد وابنه فاستنقذوا ما كان في أيديهما فردّوه على دِحْية، فخرج دِحْية حتى قدِم على رسول الله ﷺ فأخبره خبره واستسقاه دمَ الْهُنَيْد وابنه، فبعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة وبعث معه جيشاً فأغاروا فجمعوا ما وجدوا من مال أو ناس وقتلوا الهنيد وابنه ورجلين معهما، فلما سمعت بذلك بنو الضُّبَيْب ركب نفر منهم فيهم حسان بن مَلَّة فلما وقفوا على زيد بن حارثة قال حسّان: إنا قومٌ مسلمون. فقال له زيد: فاقرأ أمَّ الكتاب. فقرأها حسان. فقال زيد بن حارثة: نادوا في الجيش: إن الله قد حرم علينا ثُغْرة القوم التي جاءوا منها إلا من خَتَر. وإذا أخت حسان في الأساري فقال له زيد: خذها. فقالت أم الفزر الضُّلعية: أتنطلقون ببناتكم وتذرون أمهاتكم؟! فقال أحد بني الْخَصِيب: إنها بنو الضُّبَيْب وسحر ألسنتهم سائر اليوم فسمعها بعض الجيش فأخبر بها زيداً فأمر بأخت حسان وقد كانت أخذت بحَقْوَيْ أخيها ففُكَّت يداها من حقويه وقال لها: اجلسي مع بنات عمك حتى يحكم الله فيكن حكمه.

فرجعوا ونهى الجيش أن يهبطوا إلى واديهم الذي جاءوا منه فأمسوا في أهليهم، فلما شربوا عتمتهم ركبوا إلى رفاعة بن زيد فصبَّحوه فقال له حسان بن مَلة: إنك لجالس تحلب المعزى ونساء جُذام أسارى قد غرّها كتابك الذي جئت به! فدعا رفاعةُ بجمل له فشدّ عليه رحله وهو يقول:

هل أنت حَـيّ أو تنـادي حَيّا

[الرجز]

ثم غدا وهم معه مبكرين فساروا إلى جوف المدينة ثلاث ليال، فلما دخلوا على رسول الله ﷺ ورآهم ألاح إليهم بيده أن تعالوا. من وراء الناس، فلما

استفتح رفاعة بن زيد المْنطق قال رجل من الناس: يا رسول الله، إن هؤلاء قومٌ سَحَرة. فردَّدها مرتين. فقال رفاعة: رحم الله من لم يَحْذنا في يومنا هذا إلا خيراً.

ثم دفع رفاعة إلى رسول الله ﷺ كتابه الذي كان كتب له، فقال: دونك يا رسول الله قديماً كِتابُه حديثاً غَدْره. فقال رسول الله ﷺ: اقرأه يا غلام وأعْلن. فلما قرأ كتابه استخبرهم فأخبره فقال رسول الله ﷺ: كيف أصنع بالقتلى؟ ـ ثلاث مرات ـ فقال رفاعة: أنت أعلم يا رسول الله لا نحرّم عليك حلالاً ولا نحلّ لك حراماً. فقال أبو زيد بن عمرو أحد من قدِم مع رفاعة: أطلق لنا يا رسول الله من كان حَيًّا ومن قُتل فهو تحت قدميّ هذه. فقال رسول الله ﷺ: صدق أبو زيد اركب معهم يا عليّ. فقال له عليّ: يا رسول الله، إن زيداً لن يطيعني. قال: فخذ سيفي هذا. فأعطاه سيفه.

فخرجوا فإذا رسولٌ لزيد بن حارثة على ناقة من إبلهم فأنزلوه عنها فقال: يا علي ما شأني؟ فقال: مالُهم عرفوه فأخذوه. ثم ساروا فلقوا الجيش فأخذوا ما بأيديهم حتى كانوا ينتزعون لُبَيْد المرأة من تحت الرَّحل.

وغزوة زيد بن حارثة ـ أيضاً ـ الطرف من ناحية نخل من طريق العراق، وغزوته ـ أيضاً ـ وادي القُرى لقي فيه بني فَزَارة فأصيب بها ناس من أصحابه وارتُثّ زيد من بين القتلى فلما قدم زيد آلى أن لا يمسَّ رأسَه غُسْل من جنابة حتى يغزو بني فَزارة، فلما استبلَّ من جراحه بعثه رسول الله ﷺ إلى بني فزارة في جيش فقتلهم بوادي القرَى وأصاب فيهم(١).

وغزوة عبد الله بن رواحة خيبر مرتين، إحداهما التي أصاب فيها اليُسَيْر بن رِزَام ويقال: ابن رازم، وكان من حديثه أنه كان بخيبر يجمع غطفان لغزو رسول الله ﷺ فبعث إليه رسولُ الله ﷺ عبدَ الله بن رَواحة في نفر من أصحابه منهم عبد الله بن أُنَيْس حليف بني سلمة، فلما قدموا عليه كلّموه وقرّبوا له وقالوا

---

(١) المصدر السابق ج٢ ص ٦١٢ ـ ٦١٨.

له: إنك إن قدمْتَ على رسول الله ﷺ استعملك وأكرمك. فلم يزالوا به حتى خرج معهم في نفر من يهود، فحمَله عبدُ الله بن أُنَيْس على بعيره، حتى إذا كان بالقَرْقرة من خيبر على ستة أميال ندِم اليسير على مَسِيره إلى رسول الله ﷺ، ففطن له عبد الله بن أُنيس وهو يريد السيف فاقتحم به ثم ضربه بالسيف فقطع رجله وضربه اليسير بمخْرَشٍ في يده من شَوْحط فأمَّه ومال كل رجل من أصحاب رسول الله ﷺ على صاحبه من يهود فقتله إلا رجلاً واحداً أفلت على رجليه. فلما قدم عبد الله بن أنيس على رسول الله ﷺ تفل على شجته فلم تَقِحْ ولم تؤذه(١).

وغزوة عبد الله بن عَتيك خيبر فأصاب بها أبا رافع بن أبي الْحُقيْق.

وغزوة عبد الله بن أُنَيْس خالدَ بن سفيان بن نُبَيح بعثه رسول الله ﷺ إليه وهو بنخلة أو بعُرنة يجمع لرسول الله ﷺ ليغزوه، فقتله. قال عبد الله بن أنيس: دعاني رسول الله ﷺ فقال لي: إنه بلغني أن ابن سُفْيان بن نبيح الهُذْلي يجمع لي الناس ليغزوني وهو بنخلة أو بعُرنَة فأته فاقتله. فقلت: يا رسول الله، انعَتْه لي حتى أعرفه. قال: إنك إذا رأيته أذْكرك الشيطانَ وآيةُ ما بينك وبينه أنك أذا رأيته وجدتَ له قُشَعْريرة. قال: فخرجت متوشّحاً سيفي حتى دفعت إليه وهو في ظُعُن يرتاد لهن منزلاً وكان وقت العصر، فلما رأيته وجدتُ ما قال لي رسول الله ﷺ من القشعريرة فأقبلت نحوه وخشيت أن تكون بيني وبينه مُجَاولة تَشْغلني عن الصلاة فصليت وأنا أمشي نحوه وأومىء برأسي. فلما انتهيت إليه قال: من الرجل؟ قلت: رجل من العرب/ سمع بك وبجَمْعك لهذا الرجل فجاءك لذلك. قال: أجَلْ أنا في ذلك. ١٩٧أ
قال: فمشيت معه شيئاً حتى إذا أمكنني حملتُ عليه بالسيف فقتلته، ثم خرجت وتركت ظعائنه مُنْكبات عليه. فلما قدِمْت على رسول الله ﷺ فرآني قال: أفلح الوَجْه! قلت: قد قتلته يا رسول الله. قال: صدَقْت. ثم قام بي فأدخلني بيته فأعطاني عصا فقال: أمسك هذه العصا عندك يا عبد الله بن أنيس. قال: فخرجت بها على الناس فقالوا: ما هذه لعصا؟ قلت: أعطانيها رسول الله ﷺ

(١) المصدر السابق ج٢ ص ٦١٨ ـ ٦١٩.

وأمرني أن أمسكها عندي. قالوا: أفلا ترجع إليه فتسأله لم ذلك؟ فرجعت فقلت: يا رسول الله، لم أعطيتني هذه العصا؟ قال: آية بيني وبينك يوم القيامة إنّ أقلّ الناس المتخصّرون يومئذ. فقرنها عبدُ الله بن أنيس بسيفه فلم تزل معه حتى مات ثم أمر بها فضُمَّت في كفنه ثم دفنا جميعاً.

وقال عبد الله في ذلك:

تركتُ ابن ثَوْر كالْحُوَار وحولَه ... نوائح تَفْرى كلَّ جيبٍ مُقدَّدِ
تناوَلْته والظَّعْن خَلْفي وخلفَه ... بأبيض من ماء الحديد مهنَّدِ
عَجُوم لهامِ الدارعين كأنه ... شهابُ غضاً من مُلْهب متوقِّدِ
أقول له والسيف يعْجم رأسَه ... أنا ابن أُنيْس فارساً غير قُعْدُدِ
وقلت له خذها بضَرْبة ماجدٍ ... حنيفٍ على دِين النبيِّ محمدِ
وكنت إذا همَّ النبيُّ بكافر ... سبقت إليه باللسان وباليدِ[1]

[الطويل]

ومن البعوث أيضاً: بَعْث مؤتة[2] حيث أصيب جعفر بن أبي طالب وأصحابُه، وغزوة كعب بن عُمَيْر الغِفَاري ذات أطلاح من أرض الشام أصيب بها هو وأصحابه جميعاً، وغزوة عُيَيْنة بن حِصْن بني العَنْبر من تميم.

وكان من حديثهم أن رسول الله ﷺ بعثه إليهم فأغار عليهم وأصاب منهم أناساً وسبَى منهم أناساً. وقالت عائشة لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، إن عليّ رقبة من ولد إسماعيل. قال: هذا سَبْي بني العنبر يَقْدم ـ الآن ـ فنعطيك منهم إنساناً فتعتقينه. فلمّا قدِم بسَبْيهم ركب فيهم وفدٌ من بني تميم منهم ربيعة بن رُفَيْع، وسَبْرة بن عمرو والقَعْقاع بن مَعْبَد ووَرْدان بن مُحْرِز وقيس بن عاصم ومالك بن عمرو والأقرع بن حابس وفِرَاس بن حابس، فكلّموا رسولَ الله ﷺ فيهم فأعتق بعضاً وأَفْدَى بعضاً وذلك هو الذي عنى الفرزدق بقوله:

---

(١) المصدر السابق ج٢ ص ٦١٩ ـ ٦٢١.
(٢) نفسه ج ٢ ص ٦٢١.

وعند رسول الله قـام ابـنُ حـابس بِخُطَّـة سَـوَّار إلى المجـد حـازِمِ
له أَطْلَـق الأسْـرى التي في حبالـه مُغلّلـةً أعنـاقهـا والشكـائِـم
كفـى أمهـات الخالفين عليهـمُ غِلاَءَ المفـادِي أو سهـامَ المقَـاسمِ

[الطويل]

وغزوة غالب بن عبد الله الكليبي أرض بني مُرَّة وفيها قتل أسامةُ بن زيد حليفاً لهم يقال له مِرْداس بن نُهَيْك بن الْحُرْقة من جهينة. قال: أدركته أنا ورجل من الأنصار، فلما شهرنا عليه السلاح قال: أشهد أن لا إله إلا الله. فلم نَنْزِع عنه حتى قتلناه.

هكذا ذكر ابن إسحاق في حديثه[1]. وخرَّج مسلم في صحيحه[2] عن أسامة بن زيد قال: فكفَّ عنه الأنصاري وطعنتُه برمحي حتى قتلته، فلما قدمنا بلغ ذلك النبيَّ ﷺ فقال: يا أسامة، أقتلته بعدما قال لا إله إلا الله؟ قلت: يا رسول الله إنما كان متعوِّذاً. فقال: أقتلته بعدما قال لا إله إلا الله؟! فما زال يكررها عليّ حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم، وفي بعض طرق مسلم أن رسول الله ﷺ قال لأسامة: لم قتلته؟ قال: يا رسول الله، أوْجع في المسلمين وقتل فلاناً وفلاناً وفلاناً وسمَّى له نفراً وإني حملت عليه فلما رأى السيفَ قال: لا إله إلا الله. قال رسول الله ﷺ أقتلته؟ قال: نعم. قال: فكيف تَصْنَع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة؟ قال: يا رسول الله استغفر لي. قال: وكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة! فجعل لا يزيده على أن يقول: كيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة.

وفي حديث ابن إسحاق أن أسامة قال: أنظرني يا رسول الله، إني أعاهد الله أن لا أقتل رجلاً يقول لا إله إلا الله أبداً.

وغزوة عمرو بن العاص ذات السلاسل من أرض بني عُذْرة[3]، وكان من

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ٦٢٢.

(٢) مسلم. الجامع الصحيح ج ١ ص ٦٧ - ٦٨ «كتاب الإيمان، باب تحريم قتل الكافر بعد أن قال: لا إله إلا الله».

(٣) ابن هشام. السيرة ج ٢ ص ٦٢٣ - ٦٢٦.

حديثه أن رسول الله ﷺ بعثه يستنفر العربَ إلى الشام، وذلك أن أم أبيه العاص بن وائل كانت امرأة من بَلِيّ فبعثه رسولُ الله ﷺ إليهم يستألفهم لذلك، حتى إذا كان على ماء بأرض جُذَام يقال له: السَّلْسل وبذلك سميت تلك الغزوة غزوة ذات السلاسل، خاف فبعث إلى رسول الله ﷺ يستمدّه فبعث إليه أبا عبيدة بن الجراح في المهاجرين الأولين فيهم أبو بكر وعمر وقال لأبي عبيدة حين وجّهه: لا تختلفا. فخرج أبو عبيدة حتى إذا قدم عليه قال له عمرو: إنما جئتَ مدداً لي. قال أبو عبيدة: لا، ولكني علي ما أنا عليه وأنت على ما أنت عليه. فقال له عمرو: بل أنت مَدَد لي. فقال له أبو عبيدة وكان رجلاً ليّناً هيناً سهلاً عليه أمر الدينا: يا عمرو، إن رسول الله ﷺ قال لي لا تختلفا وإنك إن عصيتني أطعتك. قال: فإني الأمير عليك وأنت مدد لي. قال: فدونك. فصلى عمرو بالناس.

وحدَّث رافع بن أبي رافع الطائي ـ وهو رافع بن عميرة ـ قال: كنت امرءا نصرانياً فلما أسلمت خرجت في تلك الغزاة ـ يعني غزوة ذات السلاسل ـ فقلت: والله لأختارن لنفسي صاحباً فصحبت أبا بكر فكنت معه في رحله فكانت عليه عباءة له فَدَكيّة فكان إذا نزلنا بسطها وإذا ركبنا لبسها ثم شكَّها عليه بخلال له وذلك الذي يقول أهل نجد حين ارتدوا كفاراً بعد موتِ النبي ﷺ ومبايعة الناس بعده لأبي بكر: أنحن نبايع ذا العباءة! جهلوا ـ يومئذٍ ـ أن فضل الكمال ليس في ظاهر البهاء وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء.

قال رافع: فلما دنونا من المدينة قافلين قلت: يا أبا بكر إنما صحبتك لينفعني الله بك فانصحني وعلِّمني. قال: لو لم تسَلْني ذلك لفعلت، آمرك أن توحّد الله لا تشرك به شيئاً، وأن تقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج هذا البيت وتغتسل من الجنابة ولا تتأمَّرن على رجلين من المسلمين أبداً.

قال قلت: يا أبا بكر، أما أنا والله فإني أرجو أن لا أشرك بالله أبداً، وأما الصلاة فلن أتركها أبداً إن شاء الله، وأما الزكاة فإن يكن لي مال أؤديها إن شاء الله، وأما الحج فإن أستطع أحج إن شاء الله، وأما الجنابة فسأغتسل منها إن شاء

الله، /وأما الإمارة فإني رأيت الناس يا أبا بكر لا يَشْرفون عند رسول الله ﷺ ٩٧ب
وعند الناس إلا بها فلم تنهى عنها؟ قال: إنما استجهدتني لأجهد لك، وسأخبرك عن ذلك: إن الله ـ تبارك وتعالى ـ بعث محمداً ﷺ بهذا الدين فجاهد فيه حتى دخل الناس فيه طوْعاً وكرهاً فلما دخلوا فيه كانوا عُوَّاذ الله وجيرانه وفي ذمته، فإياك أن تخْفر الله في جيرانه فيتبعك الله في خفْرته، فإن أحدكم يُخْفر في جاره فيظل ناتئاً عَضله غضباً لجاره إن أصيب له شاة أو بعير، فالله أشدّ غضباً لجاره. قال: ففارقته على ذلك فلما قبض رسول الله ﷺ وأمر أبو بكر على الناس قدمت عليه فقلت: يا أبا بكر، ألم تكن نهيتني عن أن أتأمّر على رجلين من المسلمين؟ قال: بلى، وأنا الآن أنهاك عن ذلك. فقلت له: فما حملك على أن تَلي أمرّ الناس؟ قال: لا أجد من ذلك بُدّاً خشيت على أمة محمد الفُرْقة.

وفي هذه الغزاة ـ أيضاً ـ صحب عوف بن مالك الأشجعي أبا بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: فمررت بقوم على جَزُور لهم قد نحروها وهم لا يقدرون على أن يُعضُّوها فقلت: أتعطونني منها عُشَيْراً على أن أقسمها بينكم؟ قالوا: نعم. فأخذت الشَّفْرتين فجزَّأتها وأخذت منها جزءً فحملته إلى أصحابي فاطَّبخناه فأكلناه، فقال أبو بكر وعمر: أنَّى لك هذا اللحم يا عوف؟ فأخبرتهما خبره فقالا: والله ما أَحسنت حين أطعمتنا هذا، ثم قاما يتقيآن ما في بطونهما من ذلك. فلما قفل الناس كنت أول قادم على رسول الله ﷺ فجئته وهو يصلّي في بيته فقلت: السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته. قال: أعوف بن مالك؟ قلت: نعم بأبي أنت وأمي يا رسول الله. قال: أصاحب الجَزُور؟ ولم يزدني رسول الله ﷺ على ذلك.

وغزوة ابن أبي حَدْرد وأصحابه بطن إضمَ[١]، وكانت قبل الفتح قال عبد الله بن أبي حَدْرَد: بعثنا رسول الله ﷺ إلى إضم في نفر من المسلمين فيهم أبو قتادة ومحلِّم بن جَثّامة، فخرجنا حتى إذا كنا ببطن إضم مرَّ بنا عامر بن

---

(١) المصدر السابق ج٢ ص ٦٢٦ ـ ٦٢٩.

الأضبط الأشجعي على قعود له معه مُتيِّع له ووَطْب من لبن فسلَّم علينا بتحية الإسلام فأمسكنا عنه وحمل عليه محلم بن جثامة فقتله لشيء كان بينهما وأخذ بعيره ومتيعه. فلما قدمنا على رسول الله وأخبرناه الخبر نزل فينا: ﴿**يا أيها الذين آمنوا إذا ضَربْتم في سبيل الله فتبيَّنوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عَرض الحياة الدنيا**﴾[٩٤: النساء] إلى آخر الآية.

وعن ضُمَيْرة بن سعد السُّلَمي عن أبيه، وكان شهد حُنَيْناً قال: صلى بنا رسول الله ﷺ الظهر ثم عمد إلى ظل شجرة فجلس تحتها وهو بحنين فقام إليه الأقرع بن حابس وعُيَيْنة بن حصن يختصمان في عامر بن الأضبط، عيينة يطلب بدمه. وهو - يومئذٍ - رئيس غطفان، والأقرع يدفع عن مُحَلِّم بن جَثَّامة لمكانه من خِنْدف، فتداوَلا الخصومة عند رسول الله ﷺ ونحن نسمع، فسمعنا عيينة يقول: والله يا رسول الله لا أدَعه حتى أذيق نساءه من الْحَرّ مثل ما أذاق نسائي، ورسول الله ﷺ يقول: بل تأخذون الدية خمسين في سفرنا هذا وخمسين إذا رجعنا. وهو يأبى عليه ثم ذكر تكرار رسول الله ﷺ قوله هذا، فقبلوا الدية ثم قالوا: أين صاحبكم هذا يستغفر له رسول الله ﷺ. فقام رجلٌ آدم ضَرْب طويل عليه حُلّة له قد كان تهيأ فيها للقتل حتى جلس بين يَديْ رسول الله ﷺ فقال له: ما اسمك؟ فقال: أنا مُحلِّم بن جَثَّامة، فرفع رسول الله ﷺ يديه ثم قال: اللهم لا تغفر لمحلّم بن جثامة. ثلاثاً، فقام يتلقى دمعه بفضل ردائه قال: فأما نحن فنقول فيما بيننا إنا لنرجو أن يكون رسول الله ﷺ قد استغفر له وأما ما ظهر من رسول الله فهذا.

وذكر سالم أبو النَّضْر أنه حدّث أن عيينة بن حصن وقيساً لم يقبلوا الدية حتى خلا بهم الأقرع بن حابس وقال: يا معشر قيس، منعتم رسولَ الله قتيلاً يستصلح به الناس، أفأمنتم أن يلعنكم رسول الله فيلعنكم الله بلعنته أو أن يغضب عليكم فيغضب الله عليكم بغضبه؟ والله الذي نفس الأقرع بيده لتُسْلمنه إلى رسول الله ﷺ فليصنعن فيه ما أراد أو لآتين بخمسين رجلاً من بني تميم يشهدون بالله لقُتل صاحبكم كافراً ما صلى قط فلأطُلَنَّ دمه. فقبلوا الدية.

وفي حديث عن الحسن البصري قال: والله ما مكث محلِّم بن جثَّامة إلا سبعاً حتى مات فلفظته الأرض والذي نفس الحسن بيده، ثم عادوا له فلفظته، ثم عادوا له فلفظته. فلما غُلب قومه عمدوا إلى صَدَّين فسطحوه بينهما ثم رضموا عليه الحجارة حتى واروه فبلغ رسولَ الله ﷺ شأنُه فقال: والله إن الأرض لتطابق على من هو شرٌّ منه ولكن الله أراد أن يعظكم في حُرم ما بينكم بما أراكم منه.

وغزوة ابن أبي حَدْرَد الأسلمي ـ أيضاً ـ الغابة(1). قال: تزوجت امرأة من قومي فجئت رسولَ الله ﷺ أستعينه على نكاحي فقال: وكم أَصْدقت؟ قلت: مائتي درهم. قال: سبحان الله! لو كنتم تأخذون الدراهم من بطن وادٍ ما زدتم، والله ما عندي ما أعينك به. قال: فلبثت أياماً وأقبل رجل من بني جُشَم بن معاوية يقال له: رفاعة بن قيس أو قيس بن رفاعة في بطنٍ عظيمٍ من بني جُشَم حتى ينزل بقومه ومن معه بالغابة يريد أن يجمع قيساً على حرب رسول الله ﷺ وكان ذا اسم في جُشَم وشرف، فدعاني رسول الله ﷺ ورجلين معي من المسلمين فقال: اخرجوا إلى هذا الرجل حتى تأتوا منه بخبرٍ وعِلْم؛ قال: وقدَّم لنا شارفاً عجفاء فحمل عليها أحدنا، فوالله ما قامت به ضعفاً حتى دعمها الرجال من خلفها بأيديهم حتى استقلت وما كادت ثم قال: تبلَّغوا عليها واعتَقِبوها.

قال: فخرجنا ومعنا سلاحنا من النَّبْل والسيوف حتى إذا جئنا قريباً من الحاضر عُشَيْشية مع غروب الشمس كمنْت في ناحية. وأمرت صاحبَيَّ فكمَنا في ناحية أخرى من حاضر القوم وقلت لهما: إذا سمعتماني قد كبَّرت وشددت في ناحية العسكر فكبِّرا وشُدَّا معي. فوالله، إنا لكذلك ننتظر غِرّة القوم أو أن
١٩٨أ نصيب منهم/شيئاً وقد غشينا الليلُ حتى ذهبت فحمة العشاء وكان لهم راع سرَّح في ذلك البلد فأبطأ عليهم حتى تخوَّفوا عليه، فقام صاحبهم ذلك فأخذ سيفه فجعله في عنقه ثم قال: والله لأتبعنَّ أثر راعينا هذا ولقد أصابه شر. فقال نفر

(1) المصدر السابق ج٢ ص ٦٢٩ ـ ٦٣١.

ممن معه: والله لا تذهب أنت نحن نكفيك. قال: والله لا يذهب إلا أنا. قالوا: فنحن معك. قال: والله لا يتبعني أحد منكم. وخرج حتى مرّ بي فلما أمكنني نفَحْته بسهم فوضعته في فؤاده فوالله ما تكلم. ووثبت إليه فاحتزَزْت رأسه وشددت في ناحية العسكر وكبَّرت وشد صاحباي وكبَّرا فوالله ما كان إلا النجاء ممن فيه، عندكَ، عندكَ، بكل ما قدروا عليه من نسائهم وأبنائهم وما خَفَّ معهم من أموالهم واستقْنا إبلاً عظيمة وغنما كثيرة فجئنا بها إلى رسول الله ﷺ وجئت برأسه أحمله معي فأعانني رسول الله ﷺ من تلك الإبل بثلاثة عشر بعيراً في صَداقي فجمعت إليّ أهلي.

وغزوة توجه فيها عبد الرحمن بن عوف. قال عطاء بن أبي رباح: سمعت رجلاً من أهل البصرة يسأل عبد الله بن عمر بن الخطاب عن إرسال العمامة من خلف الرجل إذا اعتّم، فقال عبد الله: سأخبرك ـ إن شاء الله ـ عن ذلك بعلم. ثم ذكر مجلساً شاهده من رسول الله ﷺ أمر فيه عبدَ الرحمن بن عوف أن يتجهز لسريةَ بعثه عليها. قال: فأصبح وقد اعتم بعمامة من كَرابيس سوداء فأدناه رسولُ الله ﷺ منه ثم نقضها ثم عمَّه بها وأرسل من خلفه أربع أصابع أو نحواً من ذلك. ثم قال: هكذا يابن عوف فاعتمّ فإنه أَحْسَن وأَعْرف. ثم أمر بلالاً أن يدفع إليه اللواء، فدفعه إليه، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نفسه ثم قال: «خذه يابن عوف، اغزوا جميعاً في سبيل الله فقاتلوا من كفر بالله لا تَغُلُّوا ولا تَغْدُروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً، فهذا عهد الله وسيرة نبيّه فيكم»، فأخذ عبد الرحمن بن عوف اللواء. قال ابن هشام: فخرج إلى دُومة الجندل (١).

وبعث رسول الله ﷺ سرية إلى سيف البحر(٢) عليهم أبو عبيدة بن الجراح وزوّدهم جراباً من تمر فجعل يَقُوتهم إياه حتى صار إلى أن يعدّه لهم عدداً حتى كان يعطي كلَّ رجل منهم كل يوم تمرة فقسمها يوماً فنقصت تمرة عن رجل فوجد فَقْدها ذلك اليوم!

(١) المصدر السابق ج٢ ص ٦٣١ ـ ٦٣٢.

(٢) نفسه ج ٢ ص ٦٣٢ ـ ٦٣٣.

قال بعضهم: فلما جهدَنا الجوعُ أخرج الله لنا دابة من البحر فأصبنا من لحمها وودَكها وأقمنا عليها عشرين ليلة حتى سَمِنّا وأخذ أميرنا ضِلَعاً من أضلاعها فوضعها على طريقه ثم أمر بأجْسَم بعير معنا فحمَل عليه أَجْسم رجلٍ منا فجلس عليه فخرج من تحتها وما مسَّت رأسَه فلما قدمنا على رسول الله ﷺ أخبرناه خبرها وسألناه عن أكلنا إياها فقال: رزقٌ رزَقكموه الله.

وبعث رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضَّمْري بعد مقتل خُبَيْب وأصحابه إلى مكة وأمره أن يقتل أبا سفيان بن حرب وبعث معه جبَّار بن صَخْر الأنصاري، فخرجا حتى قدِما مكة وحبسَا جمليهما بشِعْب من شعاب يَأْجج ثم دخلا مكة ليلاً فقال جبّار لعمرو: لو أنا طُفْنا بالبيت وصلَّينا ركعتين؟ فقال عمرو: إن القوم إذا تعشَّوْا جلسوا بأفنيتهم، فقال: كلاَّ إن شاء الله. قال عمرو: فطُفْنا بالبيت وصلينا ثم خرجنا نريد أبا سفيان، فوالله إنا لنمشي بمكة إذ نظر إليّ رجل من أهلٍ مكة فعرفني فقال: عمرو بن أمية! والله إن قدِمها إلا لشرّ. فقلت لصاحبي: النَّجاء. فخرجنا نشتدّ حتى أُصْعَدْنا في جبل وخرجوا في طلبنا حتى إذا علَوْنا الجبل يئسوا منا فرجعنا فدخلنا كهفاً في الجبل فبتنا وقد أخذنا حجارةً فرضَمْناها دوننا. فلما أصبحنا غدا رجل من قريش يقود فرساً له ويختلِي عليها فغشِينا ونحن في الغار فقلت: إن رآنا صاح بنا فأخذنا فقتلنا. قال: ومعي خنجر قد أعددته لأبي سفيان، فأخرج إليه فأضربه على ثديه وصاح صيحةً أسمع أهلَ مكة، وأرجعُ فأدخل مكاني. وجاءه الناس يشتدّون وهو بآخر رمق فقالوا: من ضربك؟ فقال: عمرو بن أمية. وغلبه الموت فمات مكانه ولم يَدْلل على مكاننا، فاحتملوه فقلت لصاحبي لما أمسينا: النَّجاء(١).

فخرجنا ليلاً من مكة نريد المدينة فمررنا بالحرس وهم يحرسون جيفة خُبَيْب ابن عدّي فقال أحدهم: والله ما رأيت كالليلة أشبه بمشية عمرو بن أمية، لولا أنه بالمدينة لقلت هو عمرو بن أمية. فلما حاذى عمرو الخشبة شدَّ عليها فاحتملها

---

(١) المصدر السابق ج٢ ص ٦٣٣ - ٦٣٥.

وخرج هـو وصاحبه شدًّا وخرجوا وراءه حتى أتى جُرْفا بمبسط يأجج فرمي بالخشبة في الجرف فغيبه الله عنهم فلم يقدروا عليه.

قال عمرو بن أمية: وقلت لصاحبي: النجاء حتى تأتي بعيرك فتقعد عليه فإني شاغل عنك القوم وكان الأنصاري لا رُجْلة له. قال: ومضيت حتى أخرج على ضَجْنان ثم آويت إلى جبل فأدخل كهفاً، فَبْينا أنا فيه دخل عليّ شيخ من بني الدِّيل أعور في غُنَيْمة فقال: من الرجل؟ فقلت: من بني بكر فمن أنت؟ قال: من بني بكر. قلت: مرحباً فاضطجع. ثم رفع عقيرته فقال:

[و] لست بمسْلم ما دمتُ حيًّا ولا دانٍ لدين المسْلمينَا

فقلت في نفسي: ستعلم. فأمهلته حتى إذا نام أخذت قوسي فجعلت سِيَتها في عينه الصحيحة ثم تحاملتُ عليه حتى بلَغْت العظم. ثم خرجت النَّجاء حتى جئت العَرْج ثم سلكت رَكُوبه حتى إذا هبطت النّقيع إذا رجلان من قريش من المشركين كانت قريش بعثتها عيناً إلى المدينة ينظران ويتحسّسان فقلت: استأسرا. فأبيا فأرمي أحدهما بسهم فأقتله واستأسر الآخر فأوثقته رباطاً وقدمت به المدينة.

وسرية زيد بن حارثة إلى مدين(1) فأصاب سبْيا من أهل ميناء وهي السواحل وفيها جُمّاعُ من الناس فبيعوا ففرّق بينهم - يعني بين الأمهات والأولاد - فخرج رسول الله ﷺ وهم يبكون فقال: ما لهم؟ فقيل: يا رسول الله، فرق بينهم. فقال: لا تبيعوهم إلا جميعاً.

وغزوة سالم؛ بن عُمَيْر أبا عفك أحد بني عمرو بن عوف(2) وكان نجمَ نِفَاقه حين قتل رسولُ الله ﷺ الحارث بن سُوَيْد بن صامت فقال:

٩٨ب /لقد عِشْت دهراً وما إنْ أرى من الناس داراً ولا مَجْمعَا
أبرَّ عهوداً وأوْفَى لمن يعاقِدَ فيهم إذا ما دعَا

(1) المصدر السابق ج٢ ص ٦٣٥.
(2) نفسه ج ٢ ص ٦٣٥ - ٦٣٦.

مــن اولاد قَيْلــة في جمعهــم تهدُّ الجبـــالَ ولم تَخْضعــــا
فصــدَّعهــم راكــبٌ جــاءهــم حلالٌ حــرام لشتّــى معَــا
فلو أن بـــالعـــز صَـــدَّقتمُ أو المُلْـــك تـــابعتمُ تبَّعَـــا

[الطويل]

فقال رسول الله ﷺ: من لي بهذا الخبيث؟ فخرج سالم بن عُمَيْر أخو بني عمرو بن عوف، وهو أحد البكّائين فقتله فقالت أمَامة المريدية في ذلك:

تكـــذِّب دِيـــن الله والمرء أحمدَا لعَمْري الذي أمْناك بئس الذي يُمْنِي
حبَـاك حنيـفٌ آخـرَ الليـل طعنـةً أبا عَفَـك خُـذهـا على كِبرَ السـنِّ

[الطويل]

وغزوة عمير بن عدي الخَطْميّ ـ وهو الذي يدْعي القارىء ـ عصماء بنت مروان من بني أمية بن زيد[1]، وكانت تحت رجل من بني خَطْمة يقال له: يزيد بن زيد، فلما قُتل أبو عفَك نافقت فقالت تعيب الإسلامَ وأهله وتؤنِّب الأنصار في اتباعهم رسولَ الله ﷺ:

أطعتم أتـــاوِيّ مـــــن غيركم فلا مـــن مُـرَاد ولا مَـــذْحـــجِ
تُـرجُّـونـــه بعـــد قتـــل الرءوس كما يُـــرْتجي مـــرَقُ الْمنضَـــجِ
ألا آنِـــف يبتغـــي غِـــــرَّة فيقطـــع مــــن أمـــل المرتجِي

[المتقارب]

فلما بلغ ذلك رسولَ الله ﷺ قال: ألا أحدٌ ليَ من ابنة مروان؟ فسمع ذلك من قوله عمير بن عَديّ فلما أمسي من تلك الليلة سما عليها في بيتها فقتلها ثم أصبح مع رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إني قد قتلتها: فقال: نَصَرتَ الله ورسوله يا عمير. فقال: هلَ عليّ شيء من شأنها يا رسول الله؟ فقال: لا ينتطح فيها عنزان.

فرجع عمير إلى قومه وبنو خَطْمة يومئذ كثير فوجَّههم في شأن بنت مروان

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ٦٣٠ ـ ٦٣٨.

ولها بنون خمسة رجال. فقال: يا بني خطمة،أنا قتلت بنت مروان فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون. فذلك اليوم أول ما عزَّ الإسلام في دار بني خطمة، وكان يستخفي بإسلامه فيهم من أسلم. ويومئذ أسلم رجالٌ منهم لما رأوا من عز الإسلام.

والسرية التي أسرت ثمامة بن أثال الحنفي سيد أهل اليمامة، وذلك أن خيلاً لرسول الله ﷺ خرجت فأخذت رجلاً من بني حنيفة لا يشعرون من هو حتى أتوا به رسول الله ﷺ فقال: أتدرون من أخذتم؟ هذا ثمامة بن أثال الحنفي أحسنوا إساره. ورجع رسول الله ﷺ إلى أهله. فقال: اجمعوا ما كان عندكم من طعام فابعثوا به إليه وأمر بِلْقحَته أن يُغْدي عليه بها ويراح. فجعل لا يقع من ثمامة مَوْقعاً، ويأتيه رسول الله ﷺ فيقول: أسلم يا ثمامة، وفي رواية: ما تقول يا ثمامة؟ فيقول: يا محمد، إن تَقْتل تقتل ذا دم وإن تُنْعم تُنْعـمُ على شاكر، وإن تُرد الفِداءَ فَسَلْ تُعْط منه ما شئت.

فمكث ما شاء الله أن يمكث ثم قال النبي ﷺ يوماً: أطلقوا ثُمَامة. فلما أطلقوه خرج حتى أتى البقيعَ فتطَّهر فأحسن طَهُوره ثم أقبل فبايعَ النبيَّ ﷺ على الإسلام. فلما أمسي جاءوه بما كانوا يأتونه به من الطعام فلم ينلْ منه إلا قليلاً، وباللّقحَة فلم يصب من حِلاَبها إلا يسيراً، فعجب المسلمون من ذلك، فقال رسول الله ﷺ: «ممَّ تعجبون، من رجل أكل في أول النهار في مِعَي كافر وأكل آخر النهار في مِعَي مُسْلم، إن الكافر يأكل في سبعة أمعاء وإن المسلم يأكل في معىً واحد»[1].

وقال ثمامة حين أسلم لرسول الله ﷺ: لقد كان وجهك أبغضَ الوجوه إليّ فأصبح وهو أحبّ الوجوه إليّ، ولقد كان دينك أبغضَ الدِّين إليّ فأصبح وهو أحب الأديان إليّ، ولقد كان بلدك أبغض البلاد إليّ فأصبح وهو أحب البلاد إليّ. ثم قال: يا رسول الله، إنّ خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة فأذن لي يا رسول

(١) المصدر السابق ج٢ ص ٦٣٨ ـ ٦٣٩.

الله. فأذن له فخرج معتمراً فلما قدِم مكة قالوا: صبأت[١] يا ثمامة. قال: لا ولكني اتبعت خير الدِّين دين محمد، ولا والله لا تصل إليكم حَبّة من اليمامة حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ. ثم خرج إلى اليمامة فمنعهم أن يحملوا إلى مكة شيئاً، فكتبوا إلى رسول الله ﷺ: إنك تأمر بصلة الرحم وإنك قد قطعتَ أرحامنا. فكتب إليه رسول الله ﷺ أن خلِّ بين قومي وبين مِيرتهم. ففعل.

ويقال: إنه لمّا كان ببطن مكة في عمرته لبَّي فكان أول من دخل مكة يلبِّي، فأخذته قريش فقالوا: لقد اجترأت علينا. وهمُّوا بقتله ثم خلوه لمكان حاجتهم إليه وإلى بلده فقال بعض بني حنيفة:

ومنـــا الذي لبَّـــى بمكـــة مُعلْنـــا   برغم أبي سفيـان في الأشهـر الحرُمْ

[الطويل]

وبعث علقمة بن مُجَزِّز المدْلجي[١] لما قتل وقَّاصُ بن مجزّر أخوه يوم ذي قَرد وسأل رسولَ الله ﷺ أن يبعثه في آثار القوم ليدرك ثأره فيهم: فبعثه في نفر من المسلمين. قال أبو سعيد الخدري: وأنا فيهم، حتى إذا بلغنا رأسَ غزاتنـا أو كنا ببعض الطريق أذن لطائفة من الجيش واستعمل عليهم عبد الله بن حذافة السَّهْمي وكانت فيه دُعَابة، فلما كان ببعض الطريق أوقد ناراً ثم قال للقوم: أليس لي عليكم السمع والطاعة؟ قالوا: بلى. قال: فما آمركم بشيء إلا فعلتموه؟ قالوا: نعم. قال: فإني أعزم عليكم بحقي وطاعتي إلا تواثبتم في هذه النار. فقام بعض القوم يحتجز حتى ظن أنهم واثبون فيها. فقال لهم: اجلسوا فإنما كنت أضحك معكم. فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: من أمركم منهم بمعصية فلا تطيعوه.

ويقال: إن علقمة بن مجزّر رجع هو وأصحابه ولم يلْق كيداً.

وبْعث كُرْزَ بن جابر[٢]. وذلك أن نفراً من قيس كُبّة من بَجِيلة قدموا على

---

١) في الأصل: «صبوت».

---

(١) المصدر السابق ج٢ ص ٦٣٩ ـ ٦٤٠.

(٢) نفسه ج ٢ ص ٦٤٠ ـ ٦٤١.

رسول الله ﷺ فاستَوبأوا المدينة وطَلحوا وكانت لرسول الله ﷺ لِقَاح ترعى ناحية الجمّاء يرعاها عبد له يقال له: يَسار، كان رسول الله ﷺ أصابه في غزوة بني محارب وبني ثعلبة، فقال لهم رسول الله ﷺ: لو خرجتم إلى اللّقاح فشربتم
١٩٩أ من ألبانها وأبوالها فخرجوا إليها فلما صحُّوا وانطوت/ بطونهم عُكناً عَدوا على راعي رسول الله ﷺ فذبحوه وغرزوا الشوكَ في عينيه واستاقوا اللِّقاح فبعث رسول الله ﷺ في آثارهم كرزاً فلحقهم، فأُتي بهم رسول الله ﷺ مَرْجعه من غزوة ذي قَرد فقطع أيديهم وسَمَل أعينهم وألقوا في الحرة يستسقون فلا يُسْقون حتى ماتوا.

وغزوة عليّ بن أبي طالب اليمن(١)، غزاها مرتين. وقال أبو عمر المدينيّ: بعث رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب إلى اليمن وبعث خالد بن الوليد في جند آخر وقال: إن التقيتما فالأمير عليُّ بن أبي طالب.

ثم بعث رسول الله ﷺ أسامة بن زيد بن حارثة إلى الشام(٢) وأمره أن يوطىء الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين، وهو آخر بَعْثٍ أمر به رسول الله ﷺ. فتجهز الناسُ وأوعب مع أسامة المهاجرون الأولون، فبينا الناس على ذلك ابتدىء رسول الله ﷺ بشكوه الذي قبضه الله فيه إلى ما أراد من رحمته وكرامته، فلم ينفذ بَعْث أسامة إلا بعد وفاته صلوات الله عليه ورحمته وبركاته.

وسيأتي ذكر ذلك مستوفي إن شاء الله.

فهذه مغازي رسول الله ﷺ وبعوثه وسرَايَاه التي أعز الله بها الدِّين ودوَّخ بها الكافرين، وشدَّ أَزْره فيها بمن اختاره لصحبته ونصْرته من الأنصار والمهاجرين ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ وتلك أيامُ الله التي يجب بها التذكّر والتذكير، ويتأكد شكر الله سبحانه على ما يسرته منها المقادير.

---

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ٦٤١.

(٢) نفسه ج ٢ ص ٦٤١ ـ ٦٤٢.

وقال حسان بن ثابت[1] يعدّد أيامَ الأنصار مع رسول الله ﷺ ويذكر مواطنهم معه في أيام غزوه وتروي لابنه عبد الرحمن:

ألستم[١] خَيْـر مَعـد كلها نفـراً ... ومعشرا إن هُم عُمُّوا وإن حُصِلوا
قومٌ هُـم شهـدوا بَـدْرا بـأجمعهـم ... مع الرسـول فما آلـوا ومـا خَـذلـوا
وبـايَعـوه فلم ينكـث بـه أحـدٌ ... منهـم ولم يـك في أيمانهم دَخـلُ
ويوم صَبَّحهم في الشّعْب من أحـد ... ضربٌ رَصِين كحرّ النـار مُشْتعـلُ
ويـوم ذي قَـردٍ يـوم استثـار بهم ... على الجياد فما خـامُـوا ومـا نَكلـوا
وذا العشَيْـرة جـاسُـوهـا بخيلهـمُ ... مع الرسول عليهـا البيـض والأسَـلُ
ويـوم وَدَّان أجْلَـوْا أهلـه رقصـاً ... بالخيـل حتى نهانـا الْحَـزْن والجبـلُ
وليلـةً طلبـوا فيهـا عـدوَّهـم ... لله واللهُ يجزيهمْ بما عملـوا
وغـزوةً يـوم نَجْـد ثم كـان لهم ... مـع الرسـول بها الأسلاب والنَّفَـلُ
وليلـةً بحنين جالدوا معـه ... فيهـا يَعُلّهـم بـالحرب إذ نَهِلُـوا
وغـزوة القـاع فـرّقنـا العـدوَّ بـه ... كما تفـرّق دون المشْـرب الرَّسَـلُ
ويـومَ بُـويـع كـانـوا أهـلَ بيعتـه ... على الجلاد فـآسَـوْه ومـا عَـدلُـوا
وغـزوة الفتـح كـانـوا في سريتـه ... مُرَابطين فما طـاشُـوا ومـا عَجِلـوا
ويـوم خيبر كـانـوا في كتيبتـه ... يَمْشـون كلهـم مُسْتبسـلٌ بطـلُ
بالبِيض تَـرْعش في الأيمان عـاريـة ... تعوج في الضرب أحيـانـاً وتعتـدلُ
ويـوم سـار رسـولُ الله مُحْتسبـاً ... إلى تبـوك وهـم رايـاتـه الأوَلُ
وساسةُ الحرب إن حربٌ بـدتْ لهم ... حتى بَـدا لهم الإقبـالُ فـالقَفَـلُ
أولئـك القـومُ أنصـار النبي وهـم ... قـومـي أصير إليهـم حين أتصـلُ
ماتوا كرامـاً ولم تُنْكـث عهـودهـم ... وقتلهـم في سبيـل الله إذ قتلـوا

[البسيط]

---

١) في الأصل: «الست».

---

(١) المصدر السابق ج٢ ص ٥٤٤ ـ ٥٥٦.

وقال حسان(١) أيضاً:

[و]كنا ملوكَ الناس قبل محمدٍ ... فلما أتى الإسلامُ كان لنا الفضلُ
وأكرمنا الله الذي ليس غيره ... إلهٌ بأيامٍ مضَتْ مالها شَكْلُ
بنصر الإلهِ والرسولِ ودينه ... وألبسناه اسماً مضى ماله مِثْلُ
أولئك قومي خيرُ قومٍ بأَسْرهم ... فما كان من خير فقَوْمي له أهلُ
يُرَبُّون بالمعروف معروف من مضى ... وليس عليهم دون معروفهم قفلُ
إذا اختبطوا لم يُفْحشوا في نَديِّهم ... وليس على سُؤَّالهم عندهم بخلُ
وإن حاربوا أو سالموا لم يشبَّهوا ... فحربهم حَتف وسلمهم سَهْلُ
وجارهُم موفٍ بعلياء بيته ... له ما ثَوى فينا الكرامة والبذلُ
وحاملهم مُوفٍ بكل حمالةٍ ... تحمَّل لا غرم عليه ولا خذلُ
وقائلهم بالحق إن قال قائلٌ ... وحلْمُهم عَوْد وحكمهم عَدْلُ
ومنا أمير المسلمين حياتَه ... ومن غسَّلته من جنابته الرسْلُ

[الطويل]

وقال حسان(٢) ـ أيضاً ـ من قصيدة له أولها:

[و] قومي أولئك إن تسألي ... كرامٌ إذا الضيفُ يوماً ألَمّ
عِظَام القدور لأيْسارهم ... يكبُّون فيها المسِنَّ السَّنِمْ
يواسون جارهم في الغنى ... ويَحْمون مَوْلاهُم إن ظُلِمْ
فكانوا ملوكا بأرضيهم ... يُبَادون غُضْباً بأمر غشُمْ
ملوكا على الناسِ لم يُمْلكوا ... من الدهر يوماً كحِلِّ القسَمْ
ملوكا إذا غَشموا في البلا ... د لا يَنْكلون ولكنْ قُدمْ
فأبنا بساداتهم والنساء ... وأولادهم فيهمُ تُقْتَسمْ
ورِثْنا مساكنَهم بعدَهم ... وكنا ملوكا بها لم نَرِمْ

(١) المصدر السابق ج٢ ص ٥٥٦.
(٢) نفسه ج٢ ص ٥٥٧ ـ ٥٥٩.

فلما اتـــانـــا الرســـولُ الرشيـ ـدُ بـالحق والنـــور بعـد الظُّلَـمْ
فقلنا صدقت رسـول المليـك هـلم إليـنـا وفـيـنـا أقـم
فنشهـد أنـك عبـدُ الإلـ ـه أُرسلت نـوراً بـديـنٍ قيَـمْ
فـإنـا وأولادنـا جُنَّـة نَقِيـك وفي مـالنـا فـاحتكـمْ
فنحـن أولئـك إن كـذَّبـوك فنـادِ نـداءً ولا تحتشمْ
ونـاد بما [كنت] أخفيتـه نـداءً جهـاراً ولا تكْتتِمْ
فسـار الغُـواة بـأسيـافهـم إليـه يظنـون أن يُخْترمْ
فقمنـا إليهـم بـأسيـافنـا نجالـد عنـه بُغـاةَ الأمـمْ
بكـل صَقِيـل لـه مَيْعـة رقيـق الذُّبَـاب عَضُـوض خَـذِمْ
إذا مـا يصـادف صُـمَّ العظـا م لم يَنـبُ عنهـا ولم يَنْثلمْ
فـذلـك مـا ورَّثتنـا القُـرو م مجداً تَليـداً وعـزّاً أشمّ
إذا مـرَّ نسـلٌ كفـى نسلَـه وغـادر نسلاً إذا مـا انقصمْ
فما إنْ مـن النـاس إلاّ لنـا عليـه وإن خـاس فضـلُ النِّعَـمْ

[المتقارب]

* * *

ذكر الوفود على رسول الله - ﷺ -
ملخصاً من كتاب ابن إسحاق والواقدي
وغيرهما

وما زال آحاد الوافدين وأفذاذ الوفود من العرب يغدون على رسول الله - ﷺ - منذ أظهر الله دينه، وقهر أعداءه. ولكن انبعاث جماهيرهم إلى ذلك إنما كان بعد فتح مكة، ومعظمه في سنة تسع، ولذلك كانت تسمى سنة الوفود.

٩٩ ب /وذلك(١) أن العرب كانت تَرَبَّص بالإسلام ما يكون من قُريش فيه، إذ هم الذين كانوا نصبوا لحرب رسول الله - ﷺ - وخلافه، وكانوا إمام الناس وهاديهم، وأهل البيت والحرم، وصريح ولد إسماعيل، وقادة العرب، لا يُنكر لهم ذلك، ولا ينازعون فيه. فلما افتتح رسول الله - ﷺ - مكة، ودانت له قُريش، ودَوَّخها الإسلام، عرفت العرب أنهم لا طاقةَ لهم بحربه ولا عداوته، فدخلوا في دين الله أفواجاً، يضربون إليه من كلّ وجه، يقول الله - عز وجل - لنبيه ﷺ: ﴿إذا جاءَ نَصْرُ اللهِ والفَتْحُ﴾ [سورة النصر] - أي فتح مكة - ﴿ورأيْتَ النَّاس يَدْخُلُونَ فِي دينِ اللهِ أَفْواجاً﴾ - جماعات جماعات - ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ - أي فاحمد الله على ما ظهر من دينك - ﴿واسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كان تَوَّاباً﴾ - إشارة إلى انقضاء أجله، واقتراب لحاقه برحمة ربه، ﴿مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقا﴾ [النساء: ٦٩].

كذلك يقول عبد الله بن عباس، وقد سأله عمر بن الخطاب عن هذه

---

(١) ابن هشام. السيرة ج ٢ ص ٥٦٠.

السورة، فلما أجابه بنحو هذا المعنى، قال له عمر - رضي الله عنه: « ما أعلم منها إلا ما تعلم ».

فقدمت على رسول الله - ﷺ - وُفود العرب، فمن ذلك:

* * *

[وفد بني تميم[(1)]]

قدم عليه عُطارد بن حاجب بن زُرارة (بن عُدُس التميميّ)، في أشراف من قومه، منهم: الأقرع بن حابس، والزّبرقان بن بدر، وعمرو بن الأهتم، والحتات بن يزيد، ونعيم بن يزيد، وقيس بن الحارث، وقيس بن عاصم، في وفد عظيم من بني تميم.

فلما دخلوا المسجد نادوا رسول الله ﷺ من وراء حُجراته: أن أخرج إلينا يا محمد، فآذى ذلك رسول الله ﷺ من صِياحهم، وإياهم عنى الله سبحانه بقوله: ﴿**إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون**﴾ [الحجرات: ٤]، فخرج إليهم رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد، جئناك نُفاخرك، فأْذن لشاعرنا وخَطيبنا؛ قال: «قد أذنت لخطيبكم [فليقل]»، فقام عُطارد بن حاجِب، فقال:

الحمد لله الذي له علينا الفضل، وهو أهلُه، الذي جعلنا ملوكاً، ووهب لنا أموالاً عِظاماً، نفعل[١] فيها المعروف، وجعلنا أعزة أهل المشرق وأكثره عدداً، وأيسره عُدَّة، فمن مِثلنا في الناس؟ ألسنا برءوس الناس، وأولي فضلهم؟ فمن فاخرنا فلْيعدّد مِثْل ما عدّدناه، وإنا لو نشاء لأكثرنا الكلام، ولكنا نحيا من الإكثار فيما أعطانا، وإنا نُعرف [بذلك][(2)].

أقول هذا لأن تأتونا[٢] بمثل قولنا، وأمرٍ أفضلَ من أمرِنا. ثم جلس.

---

١) في الأصل: «نما نفعل».
٢) في الأصل: «تأتوا».

---

(١) المصدر السابق ج٢ ص ٥٦٠ ـ ٥٦٧.

(٢) نفسه ج ٢ ص ٥٦٢.

فقال رسولُ الله ﷺ لثابت بن قَيْس بن شمّاس - أخي بني الحارث بن الخزرج: «قم، فأجب الرجل في خطبته». فقامَ ثابت، فقال:

الحمد للهِ الذي السمواتُ والأرضُ خلقه، قضَى فيهنّ أمرَه، ووسع كرسيه علمه، ولم يكُ شيء - قطّ - إلا من فضله، ثم كان من قُدرته أن جعلنا ملوكاً، واصطفى من خير خلقه رسولاً، أكرمه نسباً، وأصدقه حديثاً، وأفضله حسباً، فأنزل عليه كتابه، وأئمنَه على خلقه، فكان خيرة الله من العالمين، ثم دعا الناس إلى الإيمان به، فآمن برسول الله ﷺ المهاجرون من قومه وذوي رحمه، أكرمُ الناس أحساباً، وأحسن الناس وجوهاً، وخير الناسِ فِعالاً، ثم كان أوّل الخلق إجابة، واستجابة لله حين دعاهُ رسول الله ﷺ نحن، فنحنُ أنصار الله ووزراء رسول الله، نقاتل الناس حتى يؤمنوا، فمن آمن بالله ورسوله منعَ [منّا] ماله ودمه، ومن كفر جاهدناه في الله أبداً، وكان قتله علينا يسيراً. أقول [قولي] هذا وأستغفر الله لي وللمؤمنين والمؤمنات، والسلام عليكم(١).

فقام الزبرقان بن بدر، فقال:

نحْنُ الكِرَامُ فَلا حَيّ يُعادِلُنا ... مِنَّا الْمُلُوكُ وفينا تُنْصَبُ البيعُ
وكم قَسَرْنا من الأحياء كُلِّهم ... عند النِّهاب وفضْلُ العز يُتَّبَع
ونحنُ يُطعِمُ عند القَحْط مُطْعِمنا ... من الشِّواء إذا لم يُؤْنَس القَزَعُ
بما تَرَى النَّاسَ تأتينا سُراتُهمُ ... من كلّ أرضٍ هوانا ثم متبعُ
فَنَنْحر الكُوم عُبْطاً في أرُومَتنا ... للنازلين إذا ما أنْزلوا شبِع
فلا ترانا إلى حَيّ نُفاخِرُهُم ... إلا اسْتَفادوا وكانوا الرأسَ يُقْتطعُ
فمن يُفاخرنا في ذاكَ نَعْرِفه ... فَيرْجعُ القَوْمُ والأخْبارُ تُسْتمعُ
إنَّا أبَيْنا وما يأبى لنَا أحَدٌ ... إنا كذلكَ عند الفَخْر نرْتَفعُ(٢)

[البسيط]

(١) المصدر السابق.
(٢) نفسه ج ٢ ص ٥٦٣.

وكان رسول الله ﷺ قد استدعى حسان بن ثابت ليجيب شاعر بني تميم، قال حسان: فخرجت إلى رسول الله ﷺ، وأنا أقول:

مَنَعْنا رسول الله إذ حلّ وسْطَنا ... على أنف راضٍ من مَعَدٍ وراغمِ
مَنَعْناهُ لما حلّ بين بُيُوتنا ... بأسْيافِنا مِنْ كلِّ باغٍ وظالمِ
ببَيْتٍ حَريدٍ عِزَّة وثَراؤه ... بجابية الجَوْلان وَسْطَ الأعاجِمِ
هل المجد إلا السّؤدَدُ العَوْدُ والنَّدَى ... وجاهُ الْمُلوكِ واحتمالُ العَظائِمِ (١)

[الطويل]

فلما فرغ الزبرقان، قال رسول الله ﷺ: «قم يا حسان، فأجب الرجل».

فقال حسان:

إن الذّوائبَ مِنْ فِهْرٍ وإخوتهم ... قد بَيَّنُوا سُنَّةً للنَّاسِ تُتَّبَعُ
يَرْضَى بهم كلُّ من كانت سَريرتُه ... تَقْوَى الإله وكلَّ الخير يَصْطنِعُ
قَوْمٌ إذا حاربوا ضرّوا عدوَّهُمُ ... أو حاولوا النَّفْع في أشْياعهم نَفعوا
سَجيَّة تلك مِنْهم غيرُ مُحْدثَة ... إن الخلائق فاعلم شرُّها البِدَعُ
إنْ كان في النَّاس سبَّاقون بعدَهم ... فكلّ سَبْق لأدنى سبقهم تبعُ
لا يَرْقع النَّاس ما أوْهَت أكفُّهُم ... عند الدّفاع ولا يوهون ما رَقعوا
إن سابقوا النَّاس يوْماً فاز سَبْقُهُمُ ... أو وَازنوا أهل مجدٍ بالندى مَتَعوا
أعِفَّة ذُكِرَتْ في الوَحْي عفَّتهم ... لا يطمعون ولا يُرْدِيهمُ طَمَعُ
لا يَبْخَلُونَ على جارٍ بفَضْلهم ... ولا يَمَسُّهُمُ مِنْ مَطْمَعٍ طَبَعُ
إذا نَصَبْنا لِحَيٍّ لم نَدِبَّ لَهُمْ ... كما يُدبُّ إلى الوَحْشِيَّة الذَّرعُ
نَسْمُو إذا الحَرْبُ نالتنا مَخالِبُها ... إذا الزَّعانُفُ مِنْ أظْفارها خَشَعوا
لا يَفْخَرُونَ إذا نالُوا عَدُوَّهم ... وإن أُصِيبُوا فلا خُورٌ ولا هُلُعُ
كأنهم في الوَغَى والْمَوْتُ مُكْتَنِعٌ ... أُسْدٌ بحَلْبَةَ في أرْساغها فَدَعُ
خُذْ منهُمُ ما أتي عَفْواً إذا غَضِبُوا ... ولا يكن هَمُّكَ الأمرَ الذي مَنَعُوا

(١) المصدر السابق ج٢ ص ٥٦٣ - ٥٦٤.

// فإنّ في حَرْبهم فاترُكْ عداوَتهم ... شَرّاً يُخاضُ عليه السَّمُّ والسَّلَعُ ١٠٠ أ
أكْرِمْ بِقَوْمٍ رسولُ الله شيعَتُهم ... إذا تفاوَتَتِ الأهواءُ والشِّيَعُ
أهدَى لَهُم مِدْحتي[١] قلبٌ يُوازِرُه ... في ما أُحِبّ لسانٌ حائِكٌ صَنَعُ
فإنهُم أفضَلُ الأحْياء كلِّهِم ... إن جدَّ بالنَّاسِ جِدُّ القوْل أو شَمع[(١)]

[البسيط]

وذكر ابن هشام عن بعض أهل العلم بالشعر من بني تميم، أنّ الزبرقان بن بدر لَمّا قدم عَلى رسول الله ﷺ في وفد بني تميم، قام فقال[(٢)]:

أتَيْناك كيما يعْلَمَ النَّاسُ فضْلَنا ... إذا اختلفوا عند احتضَارِ المواسِمِ
بأنَّا فُرُوعُ النَّاسِ في كلّ موْطِنٍ ... وأنْ ليس في أرض الحِجازِ كدارم
وأنا نَذُودُ المُعْلِمِين[٢] إذا انْتَخَوْا ... ونضرب رأس الأصْيَدِ المُتفاقِمِ
وأن لنَا المِرْباعَ في كلّ غارةٍ ... نُغيرُ بنَجْدٍ أو بأرضِ الأعاجِمِ

[الطويل]

فقام حسان بن ثابت فأجابه، فقال:

هلِ المجْد إلا السؤدَدُ العَوْدُ والنَّدى ... وجاهُ المُلوكِ واحتمال العَظائمِ
نَصَرْنا وآوَيْنا النَّبيَّ محمداً ... على أنْف راضٍ من مَعَدٍّ وراغِمِ
بِحَيّ حَريدٍ أصْلُهُ وثَراؤه ... بجابية الجَوْلان وَسْط الأعاجِمِ
نَصَرْناهُ لما حَلَّ وسْط ديارنا[٣] ... بأسْيافنا منْ كلّ باغٍ وظالمِ
جَعَلْنا بَنينا دُونَهُ وبَناتنا ... وطِبْنا لَهُ نَفْساً بفَيءِ المغانمِ
ونحن ضرَبْنا النَّاسَ حتى تَتابَعوا ... على دينه بالمُرْهَفاتِ الصَّوارِمِ
ونحن وَلَدْنا مِن قُرَيْش عَظيمَها ... ولدنا نبيّ الْخَيْرِ مِن آلِ هاشِمِ

---

١) في الأصل: «مدصى».
٢) في الأصل: «العالمين»، والصيغة المثبتة من الحاشية.
٣) في الأصل: «بيوتنا».

---

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ٥٦٤ - ٥٦٥.
(٢) نفسه ج ٢ ص ٥٦٥ - ٥٦٦.

بني دارمٍ لا تفْخَرُوا إنّ فَخْـرَكُـمْ يَعُودُ وبَـالاً عنـدَ ذِكْـرِ الْمَكَـارِمِ
هَبِلْتُـمْ عَلَيْنـا تَفْخَـرُونَ وأنتُـمُ لَنا خَـوَلٌ مـا بينَ ظِئْـرٍ وخـادمٍ ؟
فإنْ كُنْتُـم جِئْتم لِحَقْـنِ دِمـائِكُـمْ وأموالكم أن تُقْسَمُوا في الْمَقَـاسِـمِ
فَلا تَجْعَلُـوا للهِ نِـداً وأسْلِمُـوا ولا تلْبَسـوا زِيًّا كـزِيِ الأعـاجِمِ[1]

[الطويل]

قال ابن إسحاق[2]: فلما فرغ حسَّان من قوله، قال الأقرع بن حابس: «وأبي، إن هذا الرجل لَمُؤَتّىً له، لخَطيبُه أخطب من خطيبنا، ولشاعره أشعر من شاعرنا، ولأصواتهم أعلى من أصواتنا».

فلما فرغ القوم أسلموا، وَجَوَّزَهُمْ رسول الله ﷺ فأحسن جوائزهم.

وكان عمرو بن الأهتم قد خَلَّفه القوم في ظهرهم، وكان أصغَرَهم سِنّاً، فأعطاه رسول الله ﷺ مثل ما أعطى القوم.

وقيس بن عاصم هو الذي ذكره له ذكراً أزْرى به فيه، فكان بينهما ما هو معلوم.

* * *

(١) المصدر السابق ج٢ ص ٥٦٦.
(٢) نفسه ج ٢ ص ٥٦٧.

[وفد بني عامر]

وقدم(1) على رسول الله ﷺ وفدُ بني عامر، فيهم عامر بن الطُّفَيل وأربد بن قَيْس وجبار بن سلمي، وكان هؤلاء الثلاثة رؤساء القوم وشياطينَهم.

فقدم عامر بن الطُّفَيْل ـ عدو الله ـ على رسول الله ﷺ، وهو يريد الغدر به، وقد قال له قومه: يا عامر، إن النَّاس قد أسلموا فأسلم. قال: والله لقد كنت آليت أن لا أنتهي حتى تتبع العرب عقبي، أفأنا أتبع عقب هذا الفتى من قريش! ثم قال لأربد: إذا قَدِمنا على الرجل، فإني سأشغل عنك وجهه، فإذا فعلت ذلك فاعله بالسيف. فلما قدموا على رسول الله ﷺ قال له عامر بن الطفيل: يا محمد، خالِني، قال: «لا والله، حتى تؤمن بالله وحده». قال: يا محمد، خالني، وجعل يكلّمه وينتظر من أرْبد ما كان أمره به، فجعل أربد لا يُحير شيئاً؛ فلما أبى عليه رسول الله ﷺ قال: أما والله لأمْلأنّها عليك خيلاً ورجالاً؛ فلما ولى، قال رسول الله ﷺ: «اللهمّ اكفني عامر بن الطفيل». فلما خرجوا، قال عامر لأربد: ويلك يا أربد، أين ما كنت أمرتك به؟ والله ما كان على وجه الأرض رجل أخوف عندي على نفسي منك، وأيم الله لا أخافك بعد اليوم أبداً. قال: لا أبا لك! لا تَعْجَلْ عليّ، والله ما هَمَمت بالذي أمرتني به إلا دَخَلْتَ بيني وبين الرجل، حتى ما أرى غيرك، أفأضربك بالسيف؟

وخرجوا(2) راجعين إلى بلادهم، حتى إذا كانوا ببعض الطريق، بعث الله على عامر بن الطفيل الطاعون في عُنُقه، فقتله الله في بيت امرأة من بني سَلُول، فجعل

---

(1) المصدر السابق ج ٢ ص ٥٦٧ ـ ٥٦٨.

(2) نفسه ج ٢ ص ٥٦٨ ـ ٥٦٩.

يقول: يا بني عامرٍ، أغُدّة كغدة البكر في بيت امرأةٍ من بني سلول!، ويقال: إنه قال: أغدة كغدة الإبل، وموتاً في بيت سلولية!

ثم[1] خرج أصحابه حين وَارَوه حتى قَدِموا أرض بني عامر، فأتاهم قومهم، فقالوا: ما وراءك يا أرْبد؟ قال: لا شيء والله، لقد دعاني إلى عبادة شيء لوَدِدْت أنه عندي الآن، فأرميه بالنبل حتى أقتله. فخرج بعد مقالته بيوم أو يومين معه جمل له يتبعه، فأرسل الله عليه وعلى جمله صاعقة، فأحْرَقتهما. وأنزل الله جل قوله في وقاية الله تعالى لنبيه ـ عليه السلام ـ مما أراده به عامر، وفيما قتل به أربد: ﴿سَوَاءٌ مِنكُم من أَسَرَ القَولَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ، وَمَنْ هُوَ مُستخفٍ بالليلِ وساربِ بالنَّهَارِ، له مُعقّباتٌ من بين يديه ومن خلفه يَحْفَظُونَهُ من أمر الله﴾ ـ أي أن المعقبات التي يحفظ الله بها نبيه هي من أمر الله ـ ﴿إن الله لا يُغَيِّرُ ما بقومٍ حتى يُغَيِّرُوا ما بأنفُسِهِم، وإذا أَرَادَ اللهُ بقومٍ سُوءاً فلا مرد له، وما لهم من دونِهِ من والٍ، هو الذي يريكُمُ البَرْقَ خوفاً وطمعاً، ويُنشِيءُ السحابَ الثِّقَالَ، ويسبحُ الرعدُ بحمدِهِ والملائكَةُ مِنْ خيفته، ويُرْسِلُ الصَّوَاعِق فَيُصِيبُ بِها مَنْ يَشاءُ وهم يجادلون في الله، وهو شَدِيدُ المِحالِ﴾ [الرعد: ١٠ - ١٣].

* * *

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ٥٦٩.

[وفد تجيب]

وقَدِمَ على رسول الله ﷺ وفد تُجِيب، وهم من السكون، ثلاثة عشر رجلاً، قد ساقوا معهم صدقات أموالهم التي فَرَض الله عليهم، فَسُرّ رسول الله ﷺ بهم وأكرم منزلهم، وقالوا: يا رسول الله، سُقْنَا إليك حق الله تعالى في أموالنا. فقال رسول الله ﷺ: «رُدُّوها، فاقسموها على فقرائكم». فقالوا: يا رسول الله، ما قدمنا عليك إلا بما فَضَل عن فقرائنا. فقال أبو بكر: يا رسول الله، ما وفد علينا وفد من العرب بمثل ما وفد به هؤلاء الحي من تجيب. فقال رسول الله ﷺ: «إن الْهُدَى بيَدِ الله -عز وجل- فمن أراد به خيراً شرح صدره للإيمان».

وسألوا رسول الله ﷺ أشياء، فكتب لهم بها، وجعلوا يسألونه عن القرآن والسنن، فازداد رسول الله ﷺ رغبة فيهم، وأمر بلالاً أن يُحسن ضيافتهم.

فأقاموا أياماً، ولم يطيلوا اللبث، فقيل لهم: ما يُعْجِلُكُمْ؟ فقالوا: نرجع إلى مَنّ وراءنا فنخبرهم برؤيتنا رسول الله ﷺ وكلامنا إيَّاه، وما رد علينا.

ثم جاءوا إلى رسول الله ﷺ يودِّعونه، فأرسل إليهم بلالاً، فأجازهم بأرفع ما كان يُجيز به/ الوفود. قال: «هل بقي منكم أحد»؟ قالوا: غلام خلَّفناه على ١٠٠ ب
رحالنا هو أحدثنا سناً. قال: «أرسلوه إلينا». فلما رجعوا إلى رحالهم قالوا للغلام: انطلق إلى رسول الله ﷺ فاقض حاجتك منه، فإنا قد قضينا حوائجنا منه. وودعناه. فأقبل الغلام حتى أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إني امرؤ من بني أبذي ـ قال الواقدي: هو أبذي بن عـدي، وأم عدي تجيب بنت ثوبان بن سليم من مذحج، وإليها ينسبون ـ يقول الغلام: من الرهط الذين أتوك آنفاً، فقضيت حوائجهم، فاقض حاجتي يا رسول الله. قال: «وما حاجتك؟»

قال: إن حاجتي ليست بحاجة أصحابي، وإن كانوا قدموا راغبين في الإسلام، وساقوا ما ساقوا من صدقاتهم، وإني والله ما أعملني من بلادي إلا أن تسأل الله عز وجل أن يغفر لي، وأن يرحمني، وأن يجعل غناي في قلبي. فقال رسول الله ﷺ وأقبل إلى الغلام: «اللهم اغفر له وارحمه واجعل غناه في قلبه». ثم أمر له بمثل ما أمر به لرجل من أصحابه.

فانطلقوا راجعين إلى أهاليهم، ثم وافوا رسول الله ﷺ في الموسم بمنى سنة عشر، فقالوا: نحن بنو أَبْذي. قال رسول الله ﷺ: «ما فعل الغلام الذي أتاني معكم؟» قالوا: يا رسول الله، والله ما رأينا مثله قط، ولا حُدِّثنا بأقنع منه بما رزقه الله عز وجل لو أن الناس اقتسموا الدنيا ما نظر نحوها ولا التفت إليها. فقال رسول الله ﷺ: «الحمد لله، إني لأرجو أن يموت جميعاً». فقال رجل منهم: أوليس يموت الرجل جميعاً يا رسول الله؟! قال رسول الله ﷺ: «تَشَعَّبُ أهواؤه وهمومه في أودية الدنيا، فلعل أجله أن يدركه في بعض تلك الأودية، فلا يبالي الله عز وجل في أيها هلك».

قالوا: فعاش ذلك الرجل فينا على أفضل حال وأزهده في الدنيا وأقنعه بما رزق، فلما توفي رسول الله ﷺ ورجع من رجع من أهل اليمن عن الإسلام، قام في قومه يذكرهم الله والإسلام، فلم يرجع منهم أحد. وجعل أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ يذكره ويسأل عنه، حتى بلغه حاله وما قام به، فكتب إلى زياد بن لبيد يوصيه به خيراً.

* * *

[فروة بن مُسَيك المرادي[1]]

وقدم فُروة بن مُسَيك الْمُرادي على رسول الله ﷺ مفارقاً لملوك كِندة، متابعاً للنبي ﷺ وقال في ذلك:

لما رأيتُ مُلُوكَ كِندة أعرَضَتْ ... كالرِّجْلِ خَانَ الرِّجْلَ عِرْقُ نَسَائِهَا
قَربْتُ راحلتي أؤُمُ محمّداً ... أرْجُو فواضلَها وحُسْنَ ثَرائها

[الكامل]

ثم خرج حتى أتى المدينة، وكان رجلاً له شرف، فأنزله سعد بن عبادة عليه، ثم غدَا على رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد، فسلَّم عليه، ثم قال: يا رسول الله، أنا لمن ورائي من قومي، قال: «أين نزلت يا فروة؟» قال: على سعد بن عبادة، قال: «بارك الله على سعد بن عبادة». وكان يحضر مجلس رسول الله ﷺ كلما جلس، ويتعلم القرآن وفرائض الإسلام وشرائعه.

وكان بين مراد وهَمْدَان قبيل الإسلام وقعة، أصابت فيها همدان من مرادٍ ما أرادوا، حتى أثخنوهم في يوم يقال له: «يوم الرَّدْم»، وكان الذي قاد همدان إلى مراد «الأَجْدَع بن مالك»، ففضحهم يومئذ، فقال رسول الله ﷺ لما وفد إليه: «يا فروة، هل ساءك ما أصاب قومك يوم الردْم؟» قال: يا رسول الله، من ذا يصيب قومه مثل ما أصاب قومي يوم الردْم لا يسوءه ذلك؟ فقال رسول الله ﷺ: «أما إنَّ ذلك اليوم لم يُزِدْ قومك في الإسلام إلا خيراً».

وفي ذلك اليوم يقول فروة بن مسيك:

مررنا [1] باللُفاة وهنَّ خُوصٌ ... ينازعن الأعنة ينتحينا

[1] في الأصل: «على لفاة».

(1) المصدر السابق ج2 ص 581 - 583.

فإن نَغْلِبْ فغلابون قدماً وإن نُغلب فغير مغلبينا
وما إن طِبُّنا جبن ولكن منايانا وطعمة آخرينا
كذاك الدهر دولته سجال تكر صروفه حينا فحينا
فبينا ما نسربه ونرضى ولو لبست غضارته سنينا
إذا انقلبت به كرات دهر فألفى للأولى غبطوا طحينا
فمن يغبط بريب الدهر منهم تجد ريب الزمان له خؤونا
فلو خلد الملوك إذن خلدنا ولو بقي الكرام إذاً بقينا
فأفنى ذلكم سروات قومي كما أفني القرون الأولينا

[الوافر]

واستعمل رسول الله ﷺ فروة بن مسيك على مرادٍ وزُبَيْد ومَذْحِج كلها، وبعث معه خالد بن سعيد بن العاص على الصدقة، وكتب له فيها كتاباً لا يعدوه إلى غيره، فكان خالد مع فروة في بلاده حتى توفي رسول الله ﷺ.

ولما كانت السنة التي توفي فيها صلوات الله وبركاته عليه، وصدر عن مكة، ورأت أبناء زبيد قبائل اليمن تقدم على رسول الله ﷺ مقرين بالإسلام، مصدقين برسول الله ﷺ ثم يرجع راجعهم إلى بلاده وهم على ما هم عليه، قالوا لخالد بن سعيد: والله، لقد دخلنا فيما دخل فيه الناس، وصدقنا بمحمد ﷺ وخلينا بينك وبين صدقات أموالنا، وكنا لك عونا على من خالفك من قومنا. قال خالد: قد فعلتم، قالوا: فأوفد منا نفراً يقدمون على رسول الله ﷺ ويخبرونه بإسلامنا، ويقبسونا منه خيراً. قال خالد: ما أحسن ما دعوتم إليه، وأنا أجيبكم، ولم يمنعني أن أقول لكم هذا إلا أني رأيت الوفود تمر بكم فلا يهيجكم ذلك على الخروج، فساءني ذلك منكم حتى ساء ظني بكم، وكنتم على ما كنتم عليه من حداثة عهدكم بالشرك، فخشيت أن يكون الإسلام لم يرسخ في قلوبكم، فأما إذا طلبتم ما طلبتم، فأنا أرجو أن يكون الإسلام راسخاً في قلوبكم. قالوا: وما أنكرت منا؟ والله لقد كنا في حيزك واخترناك على غيرك من عمال رسول الله ﷺ وما رأيت منا شيئاً تكرهه ولا تنكره إلى يومنا هذا.

قال: اللهم غفرا، لولا أني أنكرت منكم بعض ما يُنكر ما قلت هذا، أما تعلمون أني أخذت من شابٍ منكم فريضة بنت مخاضٍ، فعقلتها ووسمتها بميسم الصدقة، فجئتم بأجمعكم فأخذتموها، ثم قلتم: إن شاء خالد فليأخذها من مرعاها، فأمسكت عنكم وخفت أن يأتي منكم ما هو شر من هذا؟! قالوا: فقد كان، ونزعنا وتبنا إلى الله، فلا نحول // بينك وبين شيء تريده، فبعث معهم ١٠١ ب
وفداً إلى رسول الله ﷺ.

* * *

[وفد زبيد ـ عمرو بن معدي كرب]

وقَدِم عمرو بن معدي كرب على رسول الله ﷺ في أناس من قومه بني زُبَيْد، فأسلم؛ وكان عمرو قد قال لقيس بن مكشوح الْمُراديّ، حين انتهى إليهم أمر رسول الله ﷺ: يا قيس، إنك سيد قومك، وقد ذُكر لنا أن رجلاً من قريش يقال له: محمد خرج بالحجاز، يقال: إنه نبيّ، فانطلق بنا إليه حتى نعلم علمه، فإن كان نبيّاً كما يقول، فإنه لن يخفي علينا، إذا لقيناه اتبعناه، وإن كان غير ذلك علمنا عِلمه، فإنه إن سبق إليه رجل من قومك سادنا وترأس علينا، وكنا له أذناباً. فأبى عليه قيس وسفَّه رأيه، فركب عمرو بن مَعْدِي كربَ حتى قَدِم على رسول الله ﷺ وأقام أياماً، فأجازه رسول الله ﷺ كما كان يجيز الوفود، وأنصرف راجعاً إلى بلاده، فأقام في قومه بني زبيد وعليهم فروة بن مسيك سامعاً له مطيعاً، فلما توفي رسول الله ﷺ ارتدّ عمرو، ثم راجع الإسلام بعد ذلك.

وقد كان قيس بن مكشوح لما بلغه خروج عمرو أوعده وتحطم عليه، وقال: خالفني وترك رأيي. فقال عمرو في ذلك من أبيات:

أَمَرْتُكَ يَوْمَ ذي صَنْعاء أَمْراً بادياً رشدُهْ
أَمَرْتُكَ باتِّقاءِ اللّـ ـهِ والمعروف تَتَّعِدُهْ
فكنت كذي الحُمَيِّرِ غَرَّهُ مِمَّا بِهِ وَتِدُهْ
تُمَنّاني على فَرَسٍ عَلَيْهِ جالِسٍ أسْدُهْ
فلو لاقيتني لِلَقيـ ـتُ لَيْثاً فوقَه لِبَدُهْ

[الوافر]

وطلب فروة بن مسيك ـ قيس بن مكشوحٍ كل الطلب، حتى هرب من

بلاده، وكان مصمماً في طلب من خالفه، فكان عمرو يقول لقيس: قد خبرتك يا قيس أنك تكون ذنباً تابعاً لفروة بن مسيك[1].

* * *

(١) المصدر السابق ج٢ ص ٥٨٣ ـ ٥٨٥.

[وفد بني ثعلبة[(1)]]

وقدم على رسول الله ﷺ وفد بني ثعلبة سنة ثمان مرجعه من الجعرانة.

ذكر الواقدي عن رجل منهم قال: لما قدِم رسول الله ﷺ من الجِعْرَانَة قدمنا عليه وافدين مُقِرِّين بالإسلام، ونحن أربعة نَفَر، فنزلنا دار رَمْلَة بنت الحارث، فجاءنا بلال، فنظر إلينا، فقال: أَمَعَكُم غيركم؟ قلنا: لا، فانصرف عنا، فلم يلبث إلا يسيراً حتى أتى بجفنة من ثريد بلبن وسمن، فأكلنا حتى نَهِلْنَا، ثم رحنا إلى الظهر، فإذا رسول الله ﷺ قد خرج من بيته[1] ورأسه يقطر ماءً، فرمى ببصره إلينا، فأسرعنا إليه، وبلال يقيم الصلاة.

فسلمنا عليه، وقلنا: يا رسول الله، إنا رُسُل مَنْ خَلْفنا من قومنا، مقرين بالإسلام، وهم في مواشيهم، وما لا يصلحه إلا هم، وقد قيل لنا يا رسول الله: لا إسلام لمن لا هجرة له. فقال رسول الله ﷺ: «حيثما كنتم، واتقيتم الله فلا يضركم حيث كنتم». وفرغ بلال من الآذان، ورسول الله ﷺ يكلمنا، ثم تقدم فصلى بنا الظهر، لم تُصَل وراء أحد قط أتمَّ صلاة ولا أوجز منه، ثم انصرف إلى بيته، فدخل، فلم يلبث أن خرج إلينا، فقيل لنا: صَلَّى في بيته ركعتين، فَدَعَا بنا، فقال: «أين أهلكم؟» فقلنا: قريباً يا رسول الله، هم بهذه السرية فقال: «كيف بلادكم؟» فقلنا: مُخْصِبُون، فقال: «الحمد لله».

فأقمنا أياماً، وتعلمنا من القرآن والسنن، وضيافته تجري علينا، ثم جئنا نودعه منصرفين، فقال لبلال: «أجزهم كما تجيز الوفد»، فجاء بلال بنُقَر من فضةٍ، فأعطى كل واحدٍ منا خمس أواقٍ[2]، وقال: ليس عندنا دراهم مضروبة، فانصرفنا إلى بلادنا.

---

١) في الأصل: «بيب».

٢) في الأصل: «أواقي».

---

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ٥٨٥ - ٥٨٦.

[وفد بني سعد هذيم]

وقدم على رسول الله ﷺ بنو سعد هذيم، من قضاعة في سنة تسع.

ذكر الواقدي عن ابن النعمان منهم عن أبيه قال: قدمت على رسول الله ﷺ وافداً في نفر من قومي، وقد أوطأ رسول الله ﷺ البلاد غلبةً، وأدَاخَ العرب، والناس صنفان. إما داخل في الإسلام راغب فيه، وإما خائف من السيف، فنزلنا ناحية من المدينة، ثم خرجنا نؤم المسجد حتى انتهينا الى بابه، فنجد رسول الله ﷺ يصلي على جنازة في المسجد، فقمنا خلفه ناحية، ولم ندخل مع الناس في صلاتهم، وقلنا: حتى نلقي رسول الله ﷺ ونبايعه، ثم انصرف رسول الله ﷺ فنظر إلينا، فدعا بنا، فقال: «من أنتم؟» فقلنا: من بني سعد هذيم، فقال: «أمسلمون أنتم؟» قلنا: نعم، قال: فهلا صليتم على أخيكم؟» قلنا: يا رسول الله، ظننا أن ذلك لا يجوز لنا حتى نبايعك، فقال رسول الله ﷺ: «أينما أسلمتم فأنتم مسلمون».

قال: فأسلمنا وبايعنا رسول الله ﷺ بأيدينا على الإسلام، ثم انصرفنا إلى رحالنا، وقد كنا خلفنا عليها أصغرنا، فبعث رسول الله ﷺ في طلبنا، فأتى بنا إليه، فتقدم صاحبنا فبايعه على الإسلام، فقلنا: يا رسول الله، إنه أصغرنا، وإنه خادمنا، فقال: «أصغر القوم خادمهم، بارك الله عليه».

قال: فكان والله خيرنا، وأقرأنا للقرآن، لدعاء رسول الله ﷺ له.

ثم أمَّره رسول الله ﷺ علينا، فكان يؤمنا.

ولما أردنا الانصراف، أمر بلالاً فأجازنا بأواقي من فضة، لكل رجل منا، فرجعنا إلى قومنا، فرزقهم الله الإسلام.

* * *

[وفد بني فزارة]

ولما رجع رسول الله ﷺ من تبوك قدم عليه وفد بني فزارة، بضعة عشر رجلاً، فيهم خارجة بن حصن، والحر بن قيس بن حصن ابن أخي عيينة بن حصن، وهو أصغرهم، فنزلوا في دار [زينب] بنت الحارث، وجاءوا رسول الله ﷺ مقرين بالإسلام، وهم مسنتون على وكافٍ عجافٍ، فسألهم رسول الله ﷺ عن بلادهم، فقال أحدهم: يا رسول الله، أسنتت بلادنا، وهلكت مواشينا، وأجدب جنابنا، وغرث عيالنا، فادع لنا ربك يغثنا، واشفع لنا إلى ربك، وليشفع لنا ربك إليك. فقال رسول الله ﷺ: « سبحان الله ويلك، هذا أنا شفعت إلى ربي عز وجل، فمن ذا الذي يشفع ربنا إليه؟ لا إله إلا هو [العلي] العظيم، وسع كرسيه السموات والأرض، فهي تئط من عظمته وجلاله كما يئط الرجل الجديد ».

وقال رسول الله ﷺ: « إن الله ـ جل وعز ـ ليضحك من شفعكم، وأزلكم، وقرب غياثكم ».

١٠١ ب فقال الأعرابي: يا رسول الله، ويضحك // ربنا عز وجل؟ قال: « نعم »، قال الأعرابي: لن نعدمك من رب يضحك خير، فضحك النبي ﷺ من قوله، وصعد المنبر، فتكلم بكلمات، وكان لا يرفع يديه في شيء من الدعاء إلا في الاستسقاء، فرفع يديه حتى رؤي بياض إبطيه، وكان مما حفظ من دعائه: « اللهم اسق بلادك وبهائمك، وانشر رحمتك، وأحي بلدك الميت، اللهم اسقنا غيثاً مغيثاً مربعاً طبياً، واسعاً عاجلاً غير آجل، نافعاً غير ضارٍ، اللهم اسقنا رحمة ولا تسقنا عذاباً ولا هدماً ولا غرقاً ولا محقاً، اللهم اسقنا الغيث وانصرنا على الأعداء ».

فقام أبو لبابة بن عبد المنذر الأنصاري، فقال: يا رسول الله، التمر في المربد. فقال رسول الله ﷺ: «اللهم اسقنا»، فعاد أبو لبابة لقوله، وعاد رسول الله ﷺ لدعائه، فعاد أيضاً أبو لبابة لقوله، وعاد رسول الله ﷺ لدعائه، فعاد ـ أيضاً ـ أبو لبابة، فقال: التمر في المربد يا رسول الله. فقال رسول الله ﷺ: «اللهم اسقنا حتى يقوم أبو لبابة عرياناً يسد ثعلب مربده بإزاره».

قالوا: ولا والله ما في السماء سحاب ولا قزعة، وما بين المسجد وبين سلع من شجر ولا دار؛ فطلعت من وراء سلع سحابة مثل الترس، فلما توسطت السماء انتشرت، ثم أمطرت، فوالله ما رأوا الشمس سبعاً، وقام أبو لبابة عريانا يسد ثعلب مربده بإزاره، لئلا يخرج التمر منه، فجاء ذلك الرجل أو غيره فقال: يا رسول الله، هلكت الأموال، وانقطعت السبل، فصعد رسول الله ﷺ المنبر، فدعا ورفع يديه مداً، حتى رؤي بياض إبطيه، ثم قال: «اللهم حوالينا ولا علينا، اللهم على الآكام والظراب وبطون الأودية ومنابت الشجر.

قال: فانجابت السحاب عن المدينة انجياب الثوب.

* * *

[وفد بني أسد]

وقدم على رسول الله ﷺ وفد بني أسد، عشرة رهط، فيهم وابصة بن معبد وطليحة بن خويلد، ورسول الله ﷺ جالس في المسجد مع أصحابه، فسلموا وتكلموا، (و)قال متكلمهم: يا رسول الله، إنا شهدنا أن [لا إله إلا] الله وحده لا شريك له، وأنك عبده ورسوله، وجئناك يا رسول الله، ولم تبعث إلينا بعثا، ونحن لمن وراءنا.

قال محمد بن كعب القرظي: فأنزل الله عز وجل على رسوله: ﴿**يمنون عليك أن أسلموا، قل: لا تمنوا عليّ إسلامكم، بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين**﴾ [١٧ : الحجرات].

وكان مما سألوا رسول الله ﷺ عنه يومئذ: العيافة والكهانة وضرب الحصى، فنهاهم عن ذلك كله. فقالوا: يا رسول الله، إن هذه أمور كنا نفعلها في الجاهلية، أرأيت خصلة بقيت؟ قال: «وما هي»؟ قال: الخط، قال: «علمه نبي من الأنبياء(١)، فمن صادف مثل علمه علم».

* * *

(١) المقصود بذلك «إدريس» عليه السلام؛ راجع: عبد الباسط الحنفي. تاريخ الأنبياء الأكابر وبيان أولى العزم منهم ص٣٧.

[وفد بهراء]

وذكر الواقدي عن كريمة بنت المقداد، قالت: سمعت أمي ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب تقول: قدم وفد بهراء من اليمن، وهم ثلاثة عشر رجلاً، فأقبلوا يقودون رواحلهم، حتى انتهوا إلى باب المقداد، ونحن في منزلنا نبني جديلة، فخرج إليهم المقداد، فرحب بهم، وأنزلهم، وجاءهم بجفنة من حيس قد كنا هيأناها قبل أن يحلوا لنجلس عليها، فحملها أبو معبد المقداد، وكان كريماً على الطعام، فأكلوا منها حتى نهلوا، وردت إلينا القصعة وفيها أكل، فجمعنا تلك الأكل في قصعة صغيرة، ثم بعثنا بها إلى رسول الله ﷺ مع سدرة مولاتي، فوجدته في بيت أم سلمة، فقال رسول الله ﷺ: «ضباعة أرسلت بهذا»؟، قالت سدرة: نعم يا رسول الله، قال: «ضعي»، ثم قال: «ما فعل ضيف أبي معبد؟» قلت: عندنا، فأصاب منها رسول الله ﷺ أكلا هو ومن معه في البيت حتى نهلوا، وأكلت معهم سدرة، ثم قال: «اذهبي بما بقي إلى ضيفكم»، قالت سدرة: فرجعت بما بقي في القصعة إلى مولاتي، قالت: فأكل منها الضيف ما أقاموا، نرددها عليهم وما تغيض، حتى جعل الضيف يقولون: يا أبا معبد، إنك لتنهلنا من أحب الطعام إلينا، وما كنا نقدر على مثل هذا إلا في الحين، وقد ذُكر لنا أن بلادكم قليلة الطعام، إنما هو العلق أو نحوه، ونحن عندك في الشبع، فأخبرهم أبو معبد بخبر رسول الله ﷺ أنه أكل منها أكلاً وردها، فهذه بركة أثر أصابع رسول الله ﷺ فجعل القوم يقولون: نشهد أنه رسول الله، وازدادوا يقينا، وذلك الذي أراد رسول الله ﷺ.

وتعلموا الفرائض، وأقاموا أياماً، ثم جاءوا رسول الله ﷺ فودعوه، وأمر لهم بجوائزهم، وانصرفوا إلى أهلهم.

[وفد بني غدرة]

وقدم على رسول الله ﷺ وفد بني غدرة في صفر سنة تسع، اثنا عشر رجلاً، فيهم حمزة بن النعمان وسليم وسعد ابنا مالك ومالك بن أبي رباح، فنزلوا في دار رملة بنت الحارث النجارية، ثم جاءوا رسول الله ﷺ وهو في المسجد، فسلموا بسلام أهل الجاهلية، فقال رسول الله ﷺ: «من القوم»؟ فقال متكلمهم: «من لا تنكر، نحن بنو غدرة، أخوة قصي لأمه، نحن الذين عضوا قصيا، وأزاحوا من بطن مكة خزاعة وبني بكر، ولنا قرابات وأرحام. قال رسول الله ﷺ: «مرحباً بكم وأهلا، ما أعرفني بكم، فما منعكم من تحية الإسلام»؟ قالوا: يا محمد، كنا على ما كان عليه آباؤنا، فقدمنا مرتادين لأنفسنا ولمن خلفنا، فإلام تدعو؟ فقال رسول الله ﷺ: «إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وأن تشهدوا أني رسول الله إلى الناس كافة»، فقال المتكلم: فما وراء ذلك من الفرائض؟ فقال رسول الله ﷺ: «الصلوات الخمس، تحسن طهورهن وتصليهن لمواقيتهن، فإنه أفضل العمل»، ثم ذكر لهم سائر الفرائض من الصيام والزكاة والحج، فقال المتكلم: الله أكبر، نشهد أنه لا إله إلا الله وأنك رسول الله، قد أجبناك إلى ما دعوت إليه، ونحن أعوانك وأنصارك ثم قال: يا رسول الله: إنا متاخمو الشام، وأخبارهم ترد علينا، وبالشام من قد علمت، هرقل، فهل أوحي إليك في أمره بشيء؟ فقال رسول الله ﷺ: «أبشر، فإن الشام ستفتح
١٠٢ أ عليكم، ويهرب هرقل إلى ممتنع بلاده»، قال: الله أكبر،// يا رسول الله، إن فينا امرأةً كاهنةً، كانت قريش والعرب يتحاكمون إليها، ولو قد رجعنا أقرت هي وغيرها من قومنا بالإسلام إن شاء الله، أفنسألها عن كهانتها؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا تسألوها عن شيء»، قال: الله أكبر، ثم سأله عن الذبائح التي كانوا يذبحون في الجاهلية لأصنامهم، فنهاهم رسول الله ﷺ عنها، وقال: «لا

ذبيحة لغير الله عز وجـل ولا ذبيحة عليكِم في سنتكم إلا واحدة». قال: وما هي؟ فداك أبي وأمي، قال: «الأضحية»، قال: وأي وقت تكون؟ قال: «صبيحة العاشر من ذي الحجة، تذبح شاة عنك وعن أهلك»، قال: يا رسول الله، أهي على أهل كل بيت وجدوها؟ قال: «نعم».

فأقاموا أياماً، ثم أجازهم كما يجيز الوفود، وانصرفوا.

* * *

[وفد بلي]

وقدم على رسول الله ﷺ وفد بلي في ربيع الأول من سنة تسع. قال رويفع ابن ثابت البلوي: فبلغني قدومهم، فخرجت حتى جئتهم برأس الثنية في أيديهم خطم رواحلهم، فرحبت بهم وقلت: المنزل عليّ، فعدلت بهم إلى منزلي، فنزلوا، ولبسوا من صالح ثيابهم، ثم خرجت بهم حتى انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو جالس في أصحابه في بقية فيء الغداة، فسلمت. فقال: « رويفع »، فقلت: لبيك، قال: « من هؤلاء القوم »؟ قلت: قومي، قال: « مرحباً بك وبقومك »، قلت: يا رسول الله، قدموا وافدين عليك مقرين بالإسلام، وهم على من وراءهم من قومهم. فقال رسول الله ﷺ: « من يرد الله به خيراً يهده للإسلام ».

قال: وتقدم شيخ الوفد أبو الضُبَيب فجلس بين يديه، فقال: يا رسول الله، إنا قدمنا عليك لنصدقك ونشهد أن ما جئت به حق، ونخلع ما كنا نعبد ويعبد آباؤنا قبلنا. فقال رسول الله ﷺ: «الحمد لله الذي هداكم للإسلام، فكل من مات على غير الإسلام فهو في النار»، قال: يا رسول الله، إني رجل لي رغبة في الضيافة، فهل لي في ذلك من أجرٍ؟ قال رسول الله ﷺ: « نعم، وكل معروف صنعته إلى غنيٍ أو فقيرٍ فهو صدقة »، قال: يا رسول الله، ما وقت الضيافة؟ قال: « ثلاثة أيام، فما كان بعد ذلك فصدقة، ولا يحل للضيف أن يقيم عندك فيحرجك»، قال: يا رسول الله، أرأيت الضالة من الغنم أجدها في الفلاة من الأرض؟ قال: « لك أو لأخيك أو للذئب »، قال: فالبعير، قال: « مالك وله، دعه حتى يجده صاحبه ».

وسأله عن أشياء غير هذه، فأجابه عنها.

قال رويفع: ثم قاموا، فرجعوا إلى منزلي، فإذا رسول الله ﷺ يأتي منزلي يحمل تمراً، فقال: «استعن بهذا التمر»، فكانوا يأكلون منه ومن غيره، فأقاموا ثلاثا، ثم ودعوا رسول الله ﷺ وأجازهم، ورجعوا إلى بلادهم.

* * *

[ضمام بن ثعلبة]

وبعث بنو سعد بن بكر ضمـام بن ثعلبة وافداً إلى رسول الله ﷺ فقدم عليه، وأناخ بعيره على باب المسجد، ثم عقله، ثم دخل المسجد ورسول الله ﷺ جالس في أصحابه؛ وكان ضمام رجلاً جَلْداً، أشعر، ذا غَديرتَين، فأقبل حتى وقف على رسول الله ﷺ في أصحابه، فقال: أيكم ابن عبد المطلب؟ فقال رسول الله ﷺ: « أنا ابن عبد المطلب ». قال: أمحمد؟ قال: « نعم »؛ قال: يا ابن عبد المطلب، إني سائلك ومُغلّظ عليك في المسألة، فلا تَجِدَنَّ في نفسك، قال: « لا أجد في نفسي، فسل عما بدا لك ». قال: أنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك، وإله من هو كائن بعدك، الله بعثك إلينا رسولاً؟ قال: « اللهمّ نعم »، قال: فأنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك، وإله من هو كائن بعدك: الله أمرك أن تأمرنا أن نعبد الله وحده لا نُشرك به شيئاً، وأن نخلع هذه الأنداد التي كان آباؤنا يعبدون معه؟ قال: « اللهمّ نعم »، قال: فأنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك، وإله من هو كائن بعدك: الله أمرك أن نصلّيَ هذه الصلوات الخمس؟ قال: « [اللهم] نعم ».

ثم جعل يذكر فرائض الإسلام فريضة فريضة: الزكاة والصيام والحجّ، وشرائع الإسلام كلها، يَنْشُدُه عند كلّ فريضة كما ينشده في التي قبلها، حتى إذا فرغ قال: فإني أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله، وسأؤدّي هذه الفرائض، وأجتنب ما نهيتني عنه، ثم لا أزيد ولا أنقص. ثم انصرف إلى بعيره راجعاً. فقال رسول الله ﷺ: « إن صدق ذو العَقِيصتين دخل الجنة ».

قال: فأتى بعيره فأطلق عقاله، ثم خرج حتى قَدِمَ على قومه، فاجتمعوا عليه، فكان أول ما تكلم به أن سب اللات والعزى، قالوا: مه يا ضمام! اتق البَرَص،

اتق الجذام، اتق الجنون! قال: ويلكم! إنهما والله ما تضرّان ولا تنفعان إن الله قد بعث رسولا، وأنزل عليه كتاباً فاستنقذكم به مما كنتم فيه، فإني أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وقد جئتكم من عنده بما أمركم به وما نهاكم عنه.

قال: فوالله، ما أمسي من ذلك اليوم وفي حاضره رجل ولا امرأة إلا مسلماً.

فبنوا المساجد، وأذّنوا بالصلاة، وكلما اختلفوا في شيء قالوا: عليكم بوافدنا.

قال ابن عباس: فما سمعنا بوافد قوم كان أفضل من ضمام بن ثعلبة.

واختلف في الوقت الذي وفد فيه ضمام هذا على النبي ﷺ فقيل: سنة خمس. ذكره الواقدي وغيره، وقيل: سنة سبع، وقيل: سنة تسع، فالله أعلم.

* * *

[وفد عبد القيس]

وقَدِم على رسول الله ﷺ وفد عبد القيس في جماعة رأسهم عبد الله بن عوف الأشج، فلما أتوه قال: «من الوفد؟» أو «من القوم؟» قالوا: ربيعة، قال: «مرحبا بالقوم أو بالوفد غير خزايا ولا الندامى»، قالوا: يا رسولَ الله، إنَّا نأتيك من شُقَّةٍ بعيدة، وإن بيننا وبينك هذا الحي من كفار مُضَر، وإنا لا نستطيع أن نأتيك إلا في الشهر الحرام، فَمُرْنا بأمر فَصْلٍ نخبِر به من وَراءنا، نَدْخُلُ به الجنَّة. فأمرهم بأربع، ونهاهم عن أربع.

أمرهم بالإيمان بالله وحده، وقال: «هل تدرون ما الإيمان بالله» قالوا: الله ورسوله أعلم.// قال: «شهادة أَنْ لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام ١٠٢ ب
الصلاة، وإيتاء الزَّكاة، وصوم رمضان، وأَنْ تؤدوا خمساً من المغنم».

ونهاهم عن الدُّبَاءِ والحَنْتَم والْمُزَفَّت والنَّقِير. قالوا: يا نبي الله، ما علمك بالنقير؟ قال: «بلى، جذع يُنْقرونه فيقذفون فيه من القُطَيعاءِ، أو قال: من التَّمْر ثم يصبون فيه من الماء حتى إذا سكن غليانه شربتموه، حتى أن أحدكم أو أن أحدهم ليضرب ابن عمه بالسيف»، وفي القوم رجل أصابته جراحه كذلك، قال: وكنت أَخْبأُها حياءً من رسول الله ﷺ وقد كان رسول الله ﷺ لما سلم عليه القوم سألهم: «أيكم عبد الله الأشج»؟ فقالوا: أتاك يا رسول الله. وكان عبد الله وضع ثياب سفره، وأخرج ثياباً حساناً فلبسها، وكان رجلاً دمياً، فلما جاء ونظر رسول الله ﷺ إلى دمامته قال: يا رسول الله، إنه لا يستقي في مسوك الرجال، إنما يحتاج من الرجل إلى أصغريه، لسانه وقلبه. فقال (له) رسول الله ﷺ: «إن فيك لخصلتين يحبهما الله (ورسوله): الحلم، والأَنَاةُ». فقال عبد الله: يا رسول الله، أشيء حدث فيّ، أم شيء جبلت عليه؟ فقال: «بل شيء جبلت عليه».

وكان الأشج يسائل رسول الله ﷺ عن الفقه والقرآن، فكان رسول الله يدنيه منه إذا جلس، وكان يأتي أبي بن كَعب فيقرأ عليه.

وأمر لهم رسول الله ﷺ بجوائز، وفضَّل الأشج عليهم، فأعطاه اثنتي عشرة أوقية، ونشا، وذلك أكثر مما كان يجيز به الوفود.

وقدم في هذا الوفد الجارود بن عمرو، وكان نصرانياً، فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ كلَّمه، فعرض عليه الإسلام، ودعاه إليه، ورغَّبه فيه، فقال: يا محمد، إني كنتٍ على دين، وإني تارك ديني لدينك، أفتضمن لي ديني؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم، أنا ضامن أن (قد) هداك الله إلى ما هو خير منه». فأسلم وحسن إسلامه.

وأراد الرجوع إلى بلاده، فسأل النبي ﷺ حُمْلاناً، فقال: «والله ما عندي ما أحملكم عليه»، قال: يا رسول الله، فإن بيننا وبين بلادنا ضوال من ضوال الناس، أفنتبلَّغ عليها إلى بلادنا؟ قال: «لا، إياك وإياها، فإنما تلك حرق النار».

فخرج من عنده الجارود راجعاً إلى قومه، وكان حسن الإسلام، صليبا في دينه، حتى هلك وقد أدرك الردَّة، فلما رجع من كان أسلم من قومه إلى دينهم الأول مع الغَرور بن المنذر بن النعمان، قام الجارود فتشهد بشهادة الحق، ودعا إلى الإسلام، فقال: يا أيها الناس، إني أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، وأُكفِّر من لم يتشهد. ويُروي: وأكفىء من لم يشهد.

* * *

[وفد بني مرة]

وقدم على رسول الله ﷺ وفـد بني مرة، ثلاثة عشر رجلاً رأسهم الحارث ابن عوف، وذلك منصرف رسول الله ﷺ من تبوك، جاءوه وهو في المسجد، فقال الحارث بن عوف: يا رسول الله، إنا قومك وعشيرتك، نحن قوم من بني لؤي بن غالب، فتبسم رسول الله ﷺ وقال للحارث: «أين تركت أهلك»؟ قال: بسلاح وما والاها قال: «فكيف البلاد؟ قال: والله، إنا لمسنتون وما في المال مخ، فادع الله لنا. قال رسول الله ﷺ: «اللهم اسقهم الغيث»، فأقاموا أياماً، ثم أرادوا الإنصراف إلى بلادهم، فجاءوا رسول الله ﷺ مودعين له، فأمر بلالاً أن يجيزهم، فأجازهم بعشر أواق، عشر أواق فضة، وفضل الحارث بن عوف، أعطاه اثنتي عشرة أوقية، ورجعوا إلى بلادهم، فوجدوا البلاد مطيرة، فسألوا: متى مطرتم؟ فإذا هو ذلك اليوم الذي دعا رسول الله ﷺ فيه.

فقدم عليه قادم بعد وهو يتجهز لحجة الوداع، فقال: يا رسول الله، رجعنا إلى بلادنا فوجدناها مضبوطة مطراً، لذلك اليوم الذي دعوت لنا فيه، ثم قلدتنا أقلاد الزرع في كل خمس عشرة (ليلة) مطرةً جوداً، ولقد رأيت الإبل تأكل وهي بروك، وإن غنمنا ما توارى من أبياتنا، فترجع فتقيل في أهلنا. فقال رسول الله: «الحمد الله الذي هو صنع ذلك».

* * *

[وفد خولان]

وقدم على رسول الله ﷺ في شعبان من سنة عشر وفد خولان، وهم عشرة، فقالوا: يا رسول الله، نحن على من وراءنا من قومنا، ونحن مؤمنون بالله عز وجل مصدقون برسوله، قد ضربنا إليك آباط الإبل، وركبنا حزون الأرض وسهولها، والمنة لله ولرسوله علينا، وقدمنا زائرين لك. فقال رسول الله ﷺ: «أما ما ذكرتم من مسيركم إليّ فإن لكم بكل خطوة خطاها بعير أحدكم حسنة، وأما قولكم زائرين لك، فإنه من زارني بالمدينة كان في جواري يوم القيامة». قالوا: يا رسول الله، هذا السفر الذي لا تَوَى عليه. ثم قال رسول الله ﷺ: «ما فعل عم أنس؟» - وهو صنم خولان الذي كانوا يعبدونه - قالوا: بشر وعرّ، بدّلنا الله به ما جئت به، وقد بقيت منا بعد بقايا من شيخ كبير وعجوز كبيرة متمسكون به، ولو قد قدمنا عليه هدمناه إن شاء الله فقد كنا في غرور وفتنة يا رسول الله، إن فتنته كانت أعظم مما عسينا أن نذكره لك، فالحمد لله الذي من علينا بك، وتنقذنا من الهلكة، وما مضى عليه الآباء من عبادته.

قال رسول الله ﷺ: «وما أعظم ما رأيتم من فتنته؟» قالوا: يا رسول الله، لقد رأيتنا وأسنتنا حتى أكلنا الرمة، ومات الولدان غرماً، وهلكت ناغيتنا وراعيتنا وحافرنا أو ما ذهب منها. فقلنا، أو من قال منا: قربوا لعم أنسٍ قرباناً يشفع لكم، فتغاثوا فتعاونوا، فجمعنا ما قدرنا عليه من عين مالنا، ثم ذهب ذاهبنا فابتاع مائة ثور، ثم حشرها علينا، فنحرناها في غداة واحدة، وتركناها تردها السباع، ونحن أحوج إليها من السباع، فجاءنا الغيث من ساعتنا، فأي فتنة أعظم من هذه، فلقد رأينا العشب يواري الرجال، ويقول قائلنا: أنعم علينا عم أنس.

١٠٣ أ وذكروا // لرسول الله ﷺ ما كانوا يقسمون لصنمهم هذا من أنعامهم وحروثهم، وأنهم كانوا يجعلون من ذلك جزءاً له وجزءاً لله بزعمهم.

قالوا: كنا نزرع الزرع، فنجعل له وسطه، فنسميه له، ونسمي زرعاً آخر حجرة لله جل وعز فإذا مالت الريح بالذي سميناه لله جعلناه لعم أنس، وإذا مالت الريح بالذي جعلناه لعم أنس لم نجعله لله.

فذكر لهم رسول الله ﷺ أن الله عز وجل أنزل عليه في ذلك:

﴿وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً، فقالوا: هذا لله ـ بزعمهم ـ وهذا لشركائنا، فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله، وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم، ساء ما يحكمون﴾ [الأنعام: ١٣٦].

قالوا: وكنا نتحاكم إليه فنُكلم. فقال رسول الله ﷺ: «تلك الشياطين تكلمكم».

قالوا: فأصبحنا يا رسول الله، وقلوبنا تعرف أنه كان لا يضر ولا ينفع، ولا يدري من عبده ممن لم يعبده. فقال رسول الله ﷺ: «الحمد لله الذي هداكم وأكرمكم بمحمد ﷺ».

وسألوه عن فرائض الدين، فأخبرهم وأمرهم بالوفاء بالعهد، وأداء الأمانة، وحسن الجوار لمن جاوروا، وأن لا يظلموا أحداً.

قال: «فإن الظلم ظلمات يوم القيامة».

ثم أمر بهم فأُنزلوا (دار رملة) وأمر لهم بضيافة تُجرى عليهم، وأمر من يعلمهم القرآن والسنن، ثم ودعوه بعد أيام، فأجازهم، ورجعوا إلى قومهم فلم يحلوا عقدةً حتى هدموا عَمَّ أنسٍ.

* * *

[وفد محارب]

وقدم على رسول الله ﷺ عام حجة الوداع وفد محارب، وهم كانوا أغلظ العرب، وأفظه على رسول الله ﷺ في تلك المواسم، أيام عرضه نفسه على القبائل يدعوهم إلى الله، فجاء رسول الله ﷺ منهم عشرة نائبين عن من وراءهم من قومهم، فأسلموا.

وكان بلال يأتيهم بغذاءٍ وعشاءٍ إلى أن جلسوا مع رسول الله ﷺ يوماً من الظهر إلى العصر، فعرف رجلاً منهم، فأبده النظر، فلما رآه المحاربي يديم النظر إليه، قال: كأنك يا رسول الله تُوهمني. قال: «لقد رأيتك». فقال المحاربي: أي والله، لقد رأيتني وكلمتني، وكلمتك بأقبح الكلام ورددتك بأقبح الرد بعُكاظ وأنت تطوف على الناس. فقال رسول الله ﷺ: «نعم». ثم قال المحاربي: يا رسول الله، ما كان في أصحابي أشد عليك ـ يومئذ ـ ولا أبعد من الإسلام مني، فأحمد الله الذي أبقاني حتى صدقت بك، ولقد مات أولئك النفر الذين كانوا معي على دينهم. فقال رسول الله ﷺ: «إن هذه القلوب بيد الله عز وجل». فقال المحاربي: يا رسول الله، استغفر لي من مراجعتي إيّاك. فقال رسول الله ﷺ: «إن الإسلام يجب ما كان قبله من الكفر».

ثم انصرفوا إلى أهليهم.

***

[وفد طيء]

وقدم على رسول الله ﷺ وفد طيء، فيهم زيد الخيل، وهو سيدهم؛ فلما انتهوا إليه كلّموه، وعرض عليهم الإسلام، فأسلموا، فحسن إسلامهم؛ وقال رسول الله ﷺ: «ما ذُكِرَ لي رجلٌ من العرب بفضل ثم جاءني، إلا رأيته دون ما يُقال فيه، إلا زيد الخيل، فإنه لم يبلغ كلّ ما فيه»، ثم سمّاه زيد الخير، وقطع له فَيْداً وأرضين معه؛ وكتب له بذلك كتاباً، فخرج من عنده راجعاً إلى قومه؛ فقال رسول الله ﷺ: «إن ينج زيدٌ من حُمَّى المدينة» ـ يسميها رسول الله ﷺ يومئذ باسم غير الحمى، وغير أم مَلْدم.

وقال زيد حين انصرف:

أُنيخت بآجام المدينة أربعاً ... وعشراً يغني فوقها الليل طائر
فلما قضى أصحابها كل بغيةٍ ... وخط كتاباً في الصحيفة ساطر
شددت عليها رحلها وسليلها ... من الدرس والشعراء والبطن ضامر

[الطويل]

فلما انتهى زيد من بلد نجد إلى ماء من مياهه، يقال له: فَردة أصابته الحمى، فمات.

وقال لما أحس بالموت:

أمرتحل قومي المشارق غُدْوَةً ... وأُتْركُ في بيت بفَردة منجد
ألا رُبّ يوم لو مَرضتُ لعادَني ... عوائدُ من لم يُشْفَ منهنّ يَجْهَد
فليت اللواتي عدنني لم يعدنني ... وليت اللواتي غبن عني شهد

[الطويل]

فلما مات عمدت امرأته إلى ما كان من كُتبه التي قطع له رسول الله ﷺ فحرّقتها بالنار.

وأما عديّ بن حاتم، فكان يقول فيما ذكر عنه: ما (من) رجل من العرب كان أشد كراهية لرسول الله ﷺ حين سمع به مني، أما أنا فكنت امرأ شريفاً، وكنت نَصْرانياً، وكنت أسير في قومي بالمِرْباع، فكنت في نفسي على دين. وكنت ملكاً في قومي، لما كان يصنع بي قومي، وما كان يصنع في أهل ديني، فلما سمعت برسول الله ﷺ كرهته، فقلت لغلام كان لي عربيّ - وكان راعياً لإبل لي: لا أبا لك، أعدد لي من إبلي أجمالاً ذللاً سماناً، فاحتبسها قريباً مني، فإذا سمعت بجيش لمحمدٍ قد وطىء هذه البلاد فآذني؛ ففعل، ثم إنه أتاني ذات غداةٍ، فقال: يا عديّ، ما كنت صانعاً إذا غشيك خيل محمدٍ فاصنعه الآن، فإني قد رأيت رايات، فسألت عنها، فقالوا: هذه جيوش محمد. قلت: فقرّب إليّ أجمالي، فقربها، فاحتملت بأهلي وولدي، ثم قلت: ألْحَق بأهل ديني من النَّصارى بالشام، وخلفت بنتا لحاتم في الحاضر، فلما قدمت الشام أقمت بها.

وتخالفني خيل رسول الله ﷺ فتُصيب بنت حاتم فيمن أصابت، فقدم بها على رسولَ الله ﷺ في سبايا من طيء، فجُعِلَتْ بنت حاتم في حظيرة بباب المسجد، كانت السَّبايا تحبس فيها، فمر بها رسول الله ﷺ وقد كان بلغه هربي إلى الشام، فقامت إليه، وكانت امرأة جزلة، فقالت: يا رسول الله، هَلَكَ الوالد، وغاب الوافد، فامنن عليّ مَنّ الله عليك. قال: «ومن وافدك؟» قالت: عَدِيّ بن حاتم. قال: «الفارّ من الله ورسوله؟» قالت: ثم مضى وتركني، حتى إذا كان من الغد مرّ بي، فقلت له مثل ذلك، وقال لي مثل ما قال بالأمس.
قالت: حتى إذا كان بعد الغد مرّ بي وقد يئست، فأشار/إليّ رجل من خلفه أنْ ١٠٣ ب
قومي فكلميه؛ فقمت إليه، فقلت: يا رسول الله، هلك الوالد، وغاب الوافد، فامنن عليّ منّ الله عليك؛ قال رسول الله ﷺ: «قد فعلت، فلا تعجَلي بخروج حتى تجِدي من قومك من يكون لك ثِقة، حتى يبلغك إلى أهلك، ثم آذنيني». فسألت عن الرجل الذي أشار إليّ أن كلميه، فقيل: علي بن أبي طالب، وأقمت حتى قدم ركب من بلي أو قضاعة، وإنما أريد أن آتي أخي بالشام، فجئت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، قَدْ قَدِمَ رَهْط من قومي، لي فيهم ثِقة

وبلاغ. فكساني رسول الله ﷺ وحَمَلني، وأعطاني نفقة، فخرجت معهم حتى قدمت الشام.

قال عديّ: فوالله إني لقاعد في أهلي، إذ نظرت إلى ظعينة تَصُوب إليَّ تؤمنا، قلت: ابنة حاتم؟ فإذا هي هي، فلما وقفت عليّ انسحلت تقول: القاطع الظالم، احتملت بأهلك وولدك، وتركت بقيَّة والدك عورتَك. قلت: أي أُخَيَّة، لا تقولي إلا خيراً، فوالله ما لي من عذر، لقد صنعت ما ذكرت.

ثم نزلت فأقامت عندي. فقلت لها، وكانت امرأة حازمة: ماذا تَرَين في أمر هذا الرجل؟ قالت: أرى والله أن تَلْحق به سريعاً، فإن يكن الرجل نبياً فللسابق إليه فضله، وإن يك ملكاً فلن تَذِل في عزّ اليمن، وأنت أنت. قلت: والله، إن هذا للرأي.

فخرجت حتى أَقْدِمَ على رسول الله ﷺ المدينة، فدخلت عليه، وهو في مسجده، فسلَّمت عليه، فقال: «مَنِ الرجل؟» فقلت: عدي بن حاتم؛ فقام رسول الله ﷺ فانطلق بي إلى بيته، فوالله إنه لعامدٌ بي إليه، إذ لَقيته امرأةٌ ضعيفة كبيرة، فاستوقفته، فوقف لها طويلاً تُكلِّمه في حاجتها؛ قال: قلت في نفسي: والله ما هذا بملك، قال: ثم مضى بي رسول الله ﷺ حتى إذا دخل [بي] بيته، تناول وسادة من أدَم مَحْشوَّةً ليفاً، فقذفها إليّ؛ فقال: «اجلس على هذه»، قال: قلت: بل أنت فاجلس عليها، قال: «بل أنت»، فجلست عليها، وجلس رسول الله ﷺ بالأرض؛ فقلت في نفسي: والله ما هذا بأمر ملك، ثم قال: «إيهٍ يا عدي بن حاتم! ألم تك رَكوسياً؟» قلت: بلى، قال: «أوَلم تكن تسير في قومك بالمِرْباع؟» قلت: بلى، قال: «فإن ذلك لم يكن يَحِل لك في دينك»؛ قلت: أجل والله، وعرفت أنه نبي مرسل يعلم ما يُجْهَل، ثم قال:

«لعلك يا عديّ إنما يمنعك من الدخول في هذا الدين ما ترى من حاجتهم، فوالله لَيُوشِكَنَّ المالُ أن يَفيض فيهم حتى لا يُوجَد من يأخذه؛ ولعلك إنما يمنعك من دخولٍ فيه ما ترى من كثرة عدوّهم وقلة عددهم، فوالله ليُوشِكَنَّ أن

تسمع بالمرأة تخرج من القادسيَّة على بعيرها حتى تزور هذا البيت، (لا تخاف)؛ ولعلك إنما يمنعك من دخولٍ فيه أنك ترى أنَ الْمُلك والسلطان في غيرهم. وأيْمُ الله ليوشكنّ أن تسمع بالقُصور البيض من أرض بابل قد فُتحت عليهم».

قال: فأسلمت.

وكان عديّ يقول: مضت اثنتان وبقيت الثالثة، والله لتكونَنَّ. قد رأيت القصور البيض من أرض بابل قد فُتحت، وقد رأيت المرأة تخرج من القادسيَّة على بعيرها لا تخاف حتى تحجّ هذا البيت، وأَيْمُ الله لتكوننّ الثالثة، ليَفِيضَ المال حتى لا يُوجد من يأخذه.

***

[وفد كِندة]

وقَدِم على رسول الله ﷺ الأشعثُ بن قيس في ثمانين راكباً من كِندة، فدخلوا على رسول الله ﷺ مسجده، قد رَجَّلوا جُمَمَهُم وتكَحَّلوا، عليهم جُبَابُ الحِبَرة، قد كفَّفوها بالحَرير، فلما دخلوا على رسول الله ﷺ قال: «ألم تُسْلِموا؟» قالوا: بَلى، قال: «فما بال هذا الحرير في أعناقكم؟»، قال: فشقُّوه منها، فألقَوْه.

ثم قال له الأشعث بن قيس: يا رسول الله، نحن بنو آكل الْمُرار، وأنت ابن آكل الْمُرار. فتبسّم رسول الله ﷺ وقال: «ناسبوا بهذا (النسب) العباس بن عبد المطلب، وربيعة بن الحارث، وكانا إذا خرجا تاجرين فضربا في بعض العرب فسُئلا ممن هما؟ قالا: نحن بنو آكل الْمُرار، يتعزّزان بذلك، وذلك أن كِندة كانوا ملوكاً». ثم قال لهم: «لا، (بل) نحن بنو النَّضْر بن كنانة، لا نَقْفو أمَّنا، ولا ننتفي من أبينا».

وقال جندب بن مكيث: لقد رأيت رسول الله ﷺ يوم قدم وفد كندة عليه حُلَّة يمانية يقال: إنها حلة ابن ذي يزن، وعلى أبي بكر وعمر مثل ذلك. وكان رسول الله ﷺ إذا قدم عليه الوفد لبس أحسن ثيابه، وأمَرَ عِلْيَة أصحابه بذلك.

***

[وفد صداء]

وقدم على رسول الله ﷺ وفد صداء في سنة ثمان، وذلك أن رسول الله ﷺ لما انصرف من الجعرانة بعث بعوثاً إلى اليمن، وهيأ بعثاً استعمل عليهم قيس بن سعد بن عبادة، وعقد له لواءً أبيض، ورفع له راية سوداء، وعسكر بناحية قناة في أربعمائة من المسلمين، وأمره أن يطأ ناحية من اليمن كان فيها صداء، فقدم على رسول الله ﷺ رجل منهم وعلم بالجيش، فأتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، جئتك وافداً على من ورائي، فاردد الجيش وأنا لك بقومي. فردّ رسول الله ﷺ قيس بن سعد من صدور قناة، وخرج الصدائي إلى قومه، فقدم على رسول الله ﷺ خمسة عشر رجلاً منهم، فقال سعد بن عبادة: يا رسول الله، دعهم ينزلوا عليَّ، فنزلوا عليه، فحياهم وأكرمهم وكساهم، ثم راح بهم إلى النبي ﷺ فبايعوه على الإسلام، وقالوا: نحن، لكن على من وراءنا من قومنا، فرجعوا إلى قومهم ففشا فيهم الإسلام، فوافى رسول الله ﷺ منهم مائة رجل في حجة الوداع.

ذكر هذا الواقدي عن بعض بني المصطلق. وذكر من حديث زياد بن الحارث الصدائي أنه الذي قدم على رسول الله ﷺ، فقال له: أردُدِ الجيش، وأنا لك بقومي. فردهم.

قال: وقدم وفد قومي عليه، فقال لي: «يا أخا صداء، إنك لمطاع في قومك»، قال: قلت: بلى من الله عز وجل // ومن رسوله. ١٠٤ أ

وكان زياد هذا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره. قال: فاعتشى رسول الله ﷺ - أي سار ليلاً - واعتشينا معه، وكنت رجلاً قوياً، قال: فجعل أصحابه يتفرقون عنه، ولزمت غرزه، فلما كان في السحر قال: «أذن يا أخا صداء»، فأذنت على راحلتي، ثم سِرنا حتى نزلنا، فذهب لحاجته، ثم رجع فقال: «يا أخا

صداء، هل معك ماء؟» قلت: معي شيء في إداوتي. فقال: «هاته»، فجئت به، فقال: «صب»، فصببت ما في الإداوة في القعب، وجعل أصحابه يتلاحقون، ثم وضع كفه على الإناء، فرأيت بين كل أصبعين من أصابعه عيناً تفور، ثم قال: «يا أخا صداءٍ، لولا أني أستحي من ربي لسقينا واستسقينا»، ثم توضأ، وقال: «أذن في صِحابي. من كانت له حاجة بالوضوء فليرد». قال: فوردوا من آخرهم، ثم جاء بلال يقيم، فقال رسول الله ﷺ: «إن أخا صداء قد أذَّن، ومن أذّن فهو يقيم»، فأقمت، ثم تقدم رسول الله ﷺ فصلى بنا، وكنت سألته قبل أن يؤمرني على قومي ويكتب لي بذلك كتاباً، ففعل، فلما سلم - يريد من صلاته - قام رجل يتشكى من عامله، فقال: يا رسول الله، إنه أخذنا بدخولٍ كانت بيننا وبينه في الجاهلية، فقال رسول الله ﷺ: «لا خير في الإمارة لرجلٍ مسلم، ثم قام رجل فقال: يا رسول الله، أعطني من الصدقة، فقال رسول الله ﷺ: «إن الله لم يكل قسمها إلى ملك مقربٍ، ولا نبيٍ مرسلٍ، حتى جَزّأها على ثمانية أجزاءٍ، فإن كنت جزءاً منها أعطيتك، وإن كنت عنها غنياً فإنما هو صداع في الرأسِ وداء في البطن». فقلت في نفسي: هاتان خصلتان حين سألت الإمارة وأنا رجل مسلم وسألته من الصدقة وأنا غني عنها، فقلت: يا رسول الله، هذان كتاباك فاقبلهما، فقال رسول الله ﷺ: «ولم؟» قلت: إني سمعتك تقول: «لا خير في الإمارة لرجل مسلم وأنا مسلم»، وسمعتك تقول: «من سأل من الصدقة وهو عنها غني فإنما هي صداع في الرأس وداء في البطن»، وأنا غني. فقال رسول الله ﷺ: «أما إن الذي قلت كما قلت لك»، فقبلهما رسول الله ﷺ، ثم قال: «دُلني على رجلٍ من قومك أستعمله»، فدللته على رجلٍ فاستعمله، قلت: يا رسول الله، إن لنا بئراً إذا كان الشتاء كفانا ماؤها، وإذا كان الصيف قل علينا فتفرقنا على المياه، والإسلام اليوم فينا قليل، ونحن نخاف، فادع الله - عز وجل - لنا في بئرنا. فقال رسول الله ﷺ: «ناولني سبع حُصيات»، فناولته فعركهن بيده، ثم دفعهن إليَّ، وقال: «إذا انتهيت إليها فألق فيها حصاةً حصاةً وسم الله». قال: ففعلت، فما أدركنا لها قعراً حتى الساعة.

[وفد غسان]

وقدم على رسول الله ﷺ وفد غسان.

قالوا ـ أو من قاله منهم فيما ذكر الواقدي عنهم: قدمنا على رسول الله ﷺ في رمضان سنة عشر، ونحن ثلاثة نفرٍ، فلما كنا برأس الثنية لقينا رجل على فرس متنكب قوساً، فحيانا بتحية الإسلام، فرددنا عليه تحيتنا، فقال: من أنتم؟ قلنا: رهط من غسان، قد قدمنا على محمد نسمع من كلامه ونرتاد لقومنا. قال: فانزلوا حيث ينزل الوفد، قلنا: وأين ينزل الوفد؟ قال: دار رملة بنت الحارث. ويقال: الحارث، ثم ائتوا رسول الله ﷺ فكلموه. قلنا: ونقدر عليه كلما أردنا؟ قال: فتبسم، فقال: أي لعمري، إنه ليطوف بالأسواق ويمشي وحده، وكنا قوماً نسمع كلام النصارى وصفتهم رسول الله ﷺ، وأنه يمشي وحده لا شرطة معه ويرعب من يراه منهم. فقلنا للرجل: من أنت؟ لك الجنة. قال: أنا أبو بكر بن أبي قحافة. فقلنا: أنت فيما يزعم النصارى تقوم بهذا الأمر بعده. قال أبو بكر: الأمر إلى الله عز وجل، ثم قال: كيف تخدعون عن الإسلام وقد خبركم أهل الكتاب بصفته، وأنه آخر الأنبياء؟ قلنا: هو ذاك، فمضى ومضينا نسأل عن دار رملة حتى انتهينا إليها فنصادف وفوداً من العرب كلهم مصدق بمحمدٍ ﷺ فقلنا فيما بيننا: أترانا شر من نزى من العرب؟ ثم خرجنا حتى نلقي رسول الله ﷺ عند باب المسجد واقفاً، فأمدنا ببصره[1]، وقال: «أنتم الغسانيون؟» قلنا: نعم، قال: «قدمتم مرتادين لقومكم فما انتفعتم بعلم من كان معكم من أهل الكتاب». قلنا: يا محمد، لم نر أحداً منهم اتبعك، فوقفنا عنك لذلك. ونحن الآن على غير ما كنا عليه، فالإم تدعو؟ قال: «أدعو إلى الله

---

١) في الأصل: «بصره».

وحده لا شريك له، وخلع ما دُعِيَ من دونه، وأني رسول الله». قال قائلهم: فمن معك من أتباعك؟ قال: «الله جل وعز معي والملائكة: جبريل وميكائيل، والأنبياء، وصالح المؤمنين»، ثم التفت ونظر إلى عمر، ولم ير أبا بكر، فقال: «هذا وصاحبه»، قلنا: ابن أبي قحافة؟ قال: «نعم»، قلنا: إنك لتأوي إلى ركن شديدٍ، وقد صدقناك، وشهدنا أن ما جئت به حق، ولا ندري أيتبعنا قومنا أم لا، وهم يحبون بقاء ملكهم وقرب قيصر.

ثم أسلموا، وأجازهم رسول الله ﷺ بجوائز، وانصرفوا راجعين، فقدموا على قومهم، فلم يستجيبوا لهم، وكتموا إسلامهم حتى مات منهم رجلان على الإسلام، وأدرك الثالث منهم عمر بن الخطاب عام اليرموك، فلقي أبا عبيدة فخبره بإسلامه، فكان يُكرِّمه.

* * *

[وفـد سلامـان]

وذكر الواقدي - أيضاً - بإسنادٍ له: أن خبيب بن عمرو السلاماني كان يحدث قال: قدمنا وفد سلامان على رسول الله ﷺ، ونحن سبعة نفر، فانتهينا إلى باب المسجد، فصادفنا رسول الله ﷺ خارجاً منه إلى جنازة دعي إليها، فلما رأيناه قلنا: يا رسول الله، السلام عليك. فقال رسول الله ﷺ: «وعليكم السلام، من أنتم؟» قلنا: نحن قوم من سلامان، قدمنا عليك لنبايعك على
الإسلام، ونحن على من وراءنا من قومنا. // فالتفت إلى ثوبان غلامه، فقال: ١٠٤ ب
«أنزل هؤلاء حيث ينزل الوفد»، فخرج بنا ثوبان حتى انتهى بنا إلى دار واسعة فيها نخل وفيها وفود من العرب، وإذا هي دار رملة بنت الحارث النجارية، فلما سمعنا أذان الظهر خرجنا إلى الصلاة، فقمنا على باب رسول الله ﷺ حتى خرج إلى المسجد، فصلى بالناس وهو يتصفحنا، ودخل بيته فلم يلبث أن خرج، فجلس في المسجد بين المنبر وبين بيته، وجلست عليه أصحابه، عن يمينه وعن شماله، فرأيت رجلاً هو أقرب القوم منه، يكثر ما يلتفت إليه، ويحدثه. فسألت عنه، فقيل: أبو بكر بن أبي قحافة، وجئنا فجلسنا تجاه وجهه، وجعل الوفد يسألونه عن شرائع الإسلام، فلم يكد سائلهم يقطع حتى خشيت أن يقوم رسول الله ﷺ فقلت: إنا نريد ما تريد، فتبسم رسول الله ﷺ وأسكت السائل، فقلت: أي رسول الله، ما أفضل الأعمال؟ قال: «الصلاة في وقتها»، ثم ذكر حديثاً طويلاً.

قال: ثم جاء بلال، فأقام الصلاة، فقام رسول الله ﷺ، فصلى بالناس العصر، فكانت صلاة العصر أخف في القيام من الظهر، ثم دخل بيته، فلم ينشب أن خرج فجلس في مجلسه الأول، وجلس معه أصحابه، وجئنا فجلسنا، فلما

رآني قال: «يا أخا سلامان»، قلت: لبيك، قال: «كيف البلاد عندكم؟» قلت: أي رسول الله، مجدبة، وما لنا خير من البلاد، فادع الله أن يسقينا في بلادنا، فنقر في أوطاننا ولا نسير إلى بلاد غيرنا، فإن النجع تفرق الجميع وتشتت الديار. فقال رسول الله ﷺ بيده: «اللهم اسقهم الغيث في ديارهم»، فقلت: يا رسول الله، ارفع يديك، فإنه أكثر وأطيب، فتبسم رسول الله ﷺ، ورفع يديه حتى رأيت بياض إبطيه، ثم قام وقمنا عنه، فأقمنا ثلاثاً وضيافته تجري علينا، ثم ودعناه، وأمر لنا بجوائز، فأعطينا خمس أواقي، لكل رجل منا، واعتذر إلينا بلال، وقال: ليس عندنا مال اليوم. فقلنا: ما أكثر هذا وأطيبه، ثم رحلنا إلى بلادنا، فوجدناها قد مطرت في اليوم الذي دعا فيه رسول الله ﷺ في تلك الساعة.

قال الواقدي: وكان مقدمهم على رسول الله ﷺ في شوال سنة عشر.

* * *

[وفد بني عبس]

قال: وقدم على رسول الله ﷺ وفد بني عبس، فقالوا: يا رسول الله، قدم علينا قراؤنا، فأخبرونا أنه لا إسلام لمن لا هجرة له، ولنا أموال ومواشٍ، وهي معايشنا، فإن كان لا إسلام لمن لا هجرة له فلا خير في أموالنا، بعناها وهاجرنا من آخرنا، فقال رسول الله ﷺ: «اتقوا الله حيث كنتم، فلن يلتكم الله من أعمالكم شيئاً»، وسألهم رسول الله ﷺ عن خالد بن سنان، هل له عقب؟ فأخبروه أنه لا عقب له، كانت له ابنة فانقرضت، وأنشأ رسول الله ﷺ يحدث أصحابه عن خالد بن سنانٍ، فقال: «نبي ضيعه قومه».

* * *

[وفد الأزد ـ وفد جرش]

قال ابن إسحاق(١): وقَدِم على رسول الله ﷺ صُردُ بن عبد الله الأزديّ، فأسلم، وحُسن إسلامه، في وفدٍ من الأزد، فأمّره رسول الله ﷺ على من أسلم من قومه. وأمره أن يجاهد بمن أسلم من كان يليه من أهل الشرك من قبائل اليمن.

فخرج صُرد بن عبد الله يسير بأمر رسول الله ﷺ حتى نزل بجُرَش، وهي يومئذ مدينةٌ مغلقة، وبها قبائل من قبائل اليمن، وقد ضَوت إليها خَثْعَم، فدخلوها معهم حين سَمِعوا بمُسَيَّرِ رسول الله ﷺ إليهم، فحاصروهم فيها قريباً من شهر، وامتنعوا فيها منه، ثم إنه رجع عنهم قافلاً، حتى إذا كان إلى جبل يقال له: شَكر، ظن أهل جُرَش أنه إنما وليّ عنهم منهزماً، فخرجوا في طلبه، حتى إذا أدركوه عَطَف عليهم، فقتلهم قتلاً شديداً.

وقد كان أهل جُرَش بعثوا رجلين منهم إلى رسول الله ﷺ بالمدينة يرتادان وينظران؛ فبينما هما عند رسول الله ﷺ عشيَّةً بعد العصر، إذ قال رسول الله ﷺ: «بأيّ بلاد الله شَكرْ؟» فقال الجُرشيان: ببلادنا جبل يقال له: كَشْر ـ وكذلك يسميه أهلُ جَرْش ـ فقال: «إنه ليس بكَشْر، ولكنه شَكْر»، قالا: فما شأنه يا رسول الله؟ قال: «إن بُدْنَ الله لتُنْحر عنده الآن»، فجلس الرجلان إلى أبي بكر أو إلى عثمان، فقال لهما: ويحكما! إن رسول الله ﷺ الآن لينْعَى لكما قومكما، فقوموا فاسألاه أن يدعوَ الله أن يرفع عن قومكما؛ فقاما إليه، فسألاه عن ذلك، فقال: «اللهم ارفع عنهم»، فخرجا من عند رسول الله ﷺ راجعَيْن

(١) ابن هشام. السيرة ج ٢ ص ٥٨٧ ـ ٥٨٨.

إلى قومهما، فوجدوا قومهما أصابهم صُرَد بن عبد الله في اليوم الذي قال فيه رسول الله ﷺ ما قال: وفي الساعة التي ذكر فيها ما ذكر.

فخرج وفد جُرَش حتى قَدِموا على رسول الله ﷺ فأسلموا، وحَمَى لهم حِمىً حول قريتهم، على أعلامٍ معلومةٍ، للفرس والراحلة وللميرة، بقرة الحَرْث، فمن رعاه من الناس فماله سُحْتٌ.

فقال في تلك الغزوة رجل من الأزد، وكانت خثعم تصيب من الأزد في الجاهلية، وكانوا يَعْدُون في الشهر الحرام:

يا غَزْوَةً ما غَزَوْنا غيرَ خائِبَةٍ ... فيها البِغالُ وفيها الخَيْلُ والحُمُرُ
حتى أتيْنا حُمَيْراً في مَصانعها ... وجَمْعُ خَثْعَمَ قد شاعَتْ لها النُّذُرُ
إذا وضعْتُ غَليلا كنتُ أحمِلُهُ ... فما أُبالي أدانوا بَعدُ أم كَفَروا

[البسيط]

* * *

[وفد غامد]

قال الواقدي: وقدم على رسول الله ﷺ وفد غامد سنة عشر، وهم عشرة، فنزلوا في بقيع الغرقد، وهو يومئذ أثل وطرفاء، ثم انطلقوا إلى رسول الله ﷺ وخلفوا في رحلهم أحدثهم سناً، فنام عنه، وأتى سارق فسرق عيبة لأحدهم
١٠٥ أ فيها أثواب له، وانتهى// القوم إلى رسول الله ﷺ فسلموا عليه وأقروا له بالإسلام، وكتب لهم كتاباً فيه شرائع من شرائع الإسلام، وقال لهم: «من خلفتم في رحالكم؟» قالوا: أحدثنا يا رسول الله، قال: «فإنه قد نام عن متاعكم حتى أتى آت فأخذ عيبة أحدكم»، فقال أحد القوم: يا رسول الله، ما لأحدٍ من القوم عيبة غيري. فقال رسول الله ﷺ: «قد أُخِذَتْ، ورُدَّت إلى موضعها». فخرج القوم سراعاً حتى أتوا رحلهم، فوجدوا صاحبهم، فسألوه عما خبرهم رسول الله ﷺ فقال: فزعت من نومي ففقدت العيبة، فقمت في طلبها، فإذا رجل قد كان قاعداً، فلما رآني ثار يعدو مني، فانتهيت إلى حيث انتهى، فإذا أثر حفر، وإذا هو قد غيب العيبة، فاستخرجتها. فقالوا: نشهد أنه رسول الله، فإنه قد أخبرنا بأخذها، وأنها قد ردت. فرجعوا إلى النبي ﷺ فأخبروه، وجاء الغلام الذي خلفوه فأسلم.

وأمر النبي ﷺ أبي بن كعب، فعلمهم قرآناً، وأجازهم ﷺ كما كان يجيز الوفود، وانصرفوا.

* * *

[وفد بني الحارث بن كعب]

قال ابن إسحاق[1]: وبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد في شهر ربيع الآخر أو جمادي الأولى (سنة عشر) إلى بني الحارث بن كعب بنجران، وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام قبل أن يقاتلهم ثلاثاً، فإن استجابوا فاقبل منهم، وإن لم يفعلوا فقاتلهم. فخرج خالدُ بن الوليدِ حتى قَدِم عليهم، فبعث الرُّكبان يَضْربون في كلّ وَجْه، ويدعون إلى الإسلام، ويقولون: أيها الناس، أسلموا تسلموا، فأسلم الناس، ودخلوا فيما دُعوا إليه، فأقام فيهم خالد يعلمهم الإسلام وكتاب الله وسنَّة نبيه، وبذلك كان أمره رسول الله ﷺ إن هم أسلموا ولم يقاتلوا.

ثم كتب خالد إلى رسول الله ﷺ:

« بسم الله الرحمن الرحيم، لمحمد النبي رسول الله من خالد بن الوليد.

السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته، فإني أحمد إليك الله (الذي) لا إله إلا هو.

أما بعد يا رسول الله - صلى الله عليك - فإنك بعثتني إلى بني الحارث بن كعب، وأمرتني إذا أتيتهم أن لا أقاتلهم ثلاثة أيام، وأن أدعوهم إلى الإسلام، فإن أسلموا قبلت منهم، وعلمتهم معالم الإسلام وكتاب الله وسنَّة نبيه، وإن لم يسلموا قاتلتهم، وإني قَدِمت عليهم، فدعَوتُهم إلى الإسلام ثلاثةَ أيام، كما أمَرني رسولُ الله ﷺ وبعثت فيهم رُكبانا، (فقالوا:) يا بني الحارث، أسلِموا تسلموا، فأسلموا ولم يقاتلوا، وأنا مُقيم بن أظهرُهم، آمُرهم بما أمرهم الله به، وأنهاهم عن ما نهاهم الله عنه، وأعلّمهم معالم الإسلام وسنة النبي ﷺ حتى يكتب إليّ رسول الله ﷺ.

---

(١) المصدر السابق ج٢ ص ٥٩٢ - ٥٩٦.

والسلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته».

فكتب إليه رسول الله ﷺ:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد النبيّ، رسول الله. إلى خالد بن الوليد. سلام عليك.

فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد، فإن كتابك جاءني مع رسولك يُخبر أن بني الحارث بن كعب قد أسلموا قبل أن تقاتلهم، وأجابوا إلى ما دعوتهم إليه من الإسلام، وشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن قد هداهم الله بُهداه فبشِّرهم وأنذرهم وأقْبلْ وليُقْبلْ معك وفدهم، والسلام عليك ورحمة الله (وبركاته)».

فأقبل خالد إلى رسول الله ﷺ وأقبل معه وفد بني الحارث بن كعب، منهم قيس بن الحُصَين ذو الغُصة، ويزيد بن عبد المَدان، ويزيد بن المحجَّل، وعبد الله بن قُراد الزّيادي، وشدّاد بن عبد الله القَناني، وعمرو بن عبد الله الضبّابي.

فلما قَدِموا على رسول الله ﷺ فرآهم قال: «من هؤلاء القوم الذين كأنهم رجال الهند؟» ـ يعني في الطول والسمرة ـ قيل: يا رسول الله، هؤلاء بنو الحارث بن كعب، فلما وقفوا عليه سلّموا، وقالوا: نشهد أنك لرسول الله، وأنه لا إله إلا الله؛ قال: «وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله»، ثم قال: «أنتم الذين إذا زُجروا استقدموا»، فسكتوا، فلم يراجِعْه منهم أحد، ثم أعادها الثانية، فلم يراجعه (منهم) أحد، ثم أعادها الثالثة، فلم يراجعه منهم أحد، ثم أعادها الرابعة، فقال يزيد بن عبد المدان: نعم، يا رسول الله، نحن الذين إذا زُجروا استقدموا، قالها أربَع مَرات[1]، فقال رسول الله ﷺ: «لو أن خالداً لم يكتب إليّ بأنكم أسلمتم ولم تُقاتلوا لألقيت رءوسكم تحت أقدامكم». فقال يزيد بن عبد

١) في الأصل: «مرار».

المدان: أما والله ما حَمِدناك ولا حمدنا خالداً، قال: «فمن حَمِدتم؟» قالوا: حَمِدنا الله الذي هدانا بك يا رسول الله، قال: «صدقتم».

ثم قال رسول الله ﷺ: «بم كنتم تغلبون من قاتلكم في الجاهلية»؟ قالوا: لم نكُ نغلب أحداً؛ قال: «بلى، قد كنتم تغلبون مَنْ قاتلكم». قالوا: كنا نغلب مَنْ قاتلنا يا رسول الله، إنا كنا نجتمع ولا نفترق ولا نبدأ أحداً بظلم؛ قال: «صدقتم».

وأمّر رسول الله ﷺ على بني الحارث بن كعب قيس بن الحصين.

فرجع وفد بني الحارث إلى قومهم في بقيّة شوال أو في صدر ذي القعدة، فلم يمكثوا بعد أن رجعوا إلى قومهم إلا أربعة أشهر، حتى توفي رسول الله ﷺ.

وقد كان رسول الله ﷺ بعث إليهم بعد أن ولى وفدهم عمرو بن حزم، ليفقههم في الدين، ويعلمهم السنة ومعالم الإسلام، ويأخذ منهم صدقاتهم، وكتب لهم كتاباً عهد إليه فيه عهده، وأمره فيه أمره:

«بسم الله الرحمن الرحيم، هذا بيان من الله ورسوله، يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود، عهد من محمد النبي رسول الله، ﷺ لعمرو بن حزم، حين بعثه إلى اليمن، أمره بتقوى الله في أمره كله، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، وأمره أن يأخذ بالحق كما أمره الله، وأن يبشر الناس بالخير، ويأمرهم به، ويعلم الناس القرآن ويفقههم فيه، وينهي الناس، فلا يمس القرآن إنسان إلا وهو طاهر، ويخبر الناس بالذي لهم، والذي عليهم، ويلين للناس في الحق، ويشتد عليهم في الظلم، فإن الله كره الظلم ونهى عنه، فقال: ﴿ألا لعنة الله على الظالمين﴾، ويبشر الناس بالجنة وبعملها، وينذر الناس النار وعملها، ويتألف[1] الناس حتى يفقهوا في الدين، ويعلم الناس معالم الحج وسننه وفرائضه، وما أمر الله به، والحج الأكبر[2]، والحج الأصغر - هو العمرة -

---

١) في الأصل: «ويستألف».

٢) «الحج الأكبر»، مكرر في الأصل.

وينهي الناس أن يصلي أحد في ثوب واحد صغير، إلا أن يكون ثوباً يثني طرفيه على
١٠٥ب عاتقيه، وينهي أن// يحتبي أحد في ثوب واحد يفضي بفرجه إلى السماء، وينهي أن لا يعقص أحد شعر رأسه في قفاه، وينهي إذا كان بين الناس هيج عن الدعاء إلى القبائل والعشائر، ولتكن دعواهم إلى الله وحده لا شريك له. فمن لم يدع إلى الله، ودعا إلى القبائل والعشائر فليقطفوا بالسيف، حتى تكون دعواهم إلى الله وحده لا شريك له، ويأمر الناس بإسباغ الوضوء وجوههم وأيديهم إلى المرافق وأرجلهم إلى الكعبين، ويمسحوا برءوسهم كما أمرهم الله، وأمر بالصلاة لوقتها وإتمام الركوع والسجود يغلس بالصبح، ويهجر بالهاجرة حين تميل الشمس، وصلاة العصر والشمس في الأرض مدبرة، والمغرب حين يقبل الليل، لا تؤخر حتى تبدو النجوم في السماء، والعشاء أول الليل، وأمره بالسعي إلى الجمعة إذا نودي لها، والغسل عند الرواح إليها، وأمره أن يأخذ من المغانم خمس الله، وما كتب على المؤمنين في الصدقة من العقار عشر ما سقت السماء وسقت العين، وعلى ما سقى الغرب نصف العشر، وفي كل عشرٍ من الإبل شاتان، وفي كل عشرين أربع شياةٍ، وفي كل أربعين من البقر بقرة، وفي كل ثلاثين من البقر تبيع جذع أو جذعة، وفي كل أربعين من الغنم سائمة وحدها، شاة، فإنها فريضة الله التي افترض على المؤمنين في الصدقة، فمن زاد خيراً فهو خير له، وإنه من أسلم من يهودي أو نصراني إسلاماً خالصاً من نفسه، ودان بدين الإسلام، فإنه من المؤمنين، له مثل ما لهم، وعليه مثل ما عليهم، ومن كان على نصرانيته أو يهوديته فإنه لا يرد عنها أي لا يفتن وعلى كل حالمٍ: ذكر أو أنثى، حرٍ أو عبدٍ، دينار وافٍ أو عوضه ثياباً. فمن أدى ذلك، فإن له ذمة الله وذمة رسوله ومن منع ذلك، فإنه عدو لله ولرسوله وللمؤمنين جميعاً، صلوات الله على محمد، والسلام عليه ورحمة الله وبركاته».

***

[وفد بني حنيفة]

وقَدِم على رسول الله ﷺ وفد بني حنيفة، فيهم مُسيلمة بن حبيب الحنفّي الكذاب.

قال ابن إسحاق(١): فحدثني بعض علمائنا من أهل المدينة: أن (بني) حنيفة أتت به رسول الله ﷺ تستره بالثّياب، ورسول الله جالس في أصحابه، معه عَسِيب من سَعَف النخل، في رأسه خُوصات؛ فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ وهم يسترونه بالثّياب، كلّمه وسأله، فقال رسول الله ﷺ: «لو سألتني هذا العسيب ما أعطيتكه».

قال: وقد حدثني شيخٌ من بني حنيفة من أهل اليمامة أن حديثه كان على غير هذا. زعم أن وفد بني حنيفة أتوا رسول الله ﷺ وخلّفوا مُسَيلِمة في رحالهم، فلما أسلموا ذكروا مكانه، فقالوا: يا رسول الله، إنا قد خَلَّفنا صاحباً لنا في رحالنا أو في ركابنا يحفظها لنا، قال: فأمر له رسول الله ﷺ بمثل ما أمر به للقوم، وقال: «أمَا إنه ليس بشركم مكاناً» أي لحفظه ضيْعة أصحابه ذلك الذي يريد رسول الله ﷺ.

قال: ثم انصرفوا عن رسول الله ﷺ وجاءوه بما أعطاه، فلما انتهوا إلى اليمامة ارتدّ عدوّ الله وتنبأ وتكَذّب لهم. وقال: إني قد أُشْرِكْتُ في الأمر معه، وقال لوفده الذين كانوا معه: ألم يقل لكم حين ذكرتموني له: «أما إنه ليس بشرّكم مكاناً»؟ ما ذاك إلا لما كان يعلم أني قد أُشرِكت في الأمر معه؛ ثم جعل يَسْجع لهم، ويقول فيما يقول مضاهاة للقرآن:

---

(١) المصدر السابق ج٢ ص ٥٧٦ ـ ٥٧٧.

« لقد أنعم الله على الحُبلى، أخرج منها نسمةً تسعى، من بين صفاق وحَشى».

وأحلّ لهم الخمر والزنا، ووضع عنهم الصلاة، وهو مع ذلك يشهد لرسول الله ﷺ بأنه نبي، فأصْفَقَتْ معه حنيفة على ذلك.

فالله أعلم أي ذلك كان.

وذكر الواقدي أنه قدم في وفد بني حنيفة الرّحال بن عنفوة، وأنه كان أيام مقام الوفد يختلف إلى أُبي بن كعب، يتعلم القرآن وشرائع الإسلام، حتى كان الرحال عندهم أفضل من كان وفد عليهم لما يرون من حرصه، فلما تنبأ مسيلمة بعد وفاة رسول الله ﷺ شهد له الرحال بن عنفوة أن رسول الله ﷺ أشركه في الأمر، فافتتن الناس.

* * *

[وفد همدان]

قال ابن هشام(1): وقدم وفد همدان على رسول الله ﷺ فيهم مالك بن نمط، وأبو ثور، وهو ذو المشعار، ومالك بن أيفع، وضمام بن مالك السلماني، وعُميرة ابن مالك الخارقي، فلقوا رسول الله ﷺ مرجعه من تبوك، وعليهم مقطعات الحبرات، والعمائم العدنية، برحال الميس على المهرية والأرحبية، ومالك بن نمط ورجل آخر يرتجزان بالقوم، يقول أحدهما:

همـــدان خير ســـوقـــة وأقيـــال   ليس لها في العـــالمين أمثـــال
محلهـا الهضـــب ومنهـــا الأبطـــال   لها إطـــابـــات وآكـــال
[الرجز]

ويقول الآخر:

إليـــك جـــاوزن ســـواد الريـــف   في هبـــوات الصيـــف والخريـــف
مخطمات بحبال الليف

[الرجز]

فقام مالك بن نمط بين يديه، ثم قال:

« يا رسول الله، نصية من همدان، من كل حاضر وباد، أتوك على قلص نواج، متصلة بحبائل الإسلام، لا تأخذهم في الله لومة لائم، من مخلاف خارف، ويامٍ وشاكرٍ، أهل السواد والقود، أجابوا دعوة الرسول وفارقوا آلهات الأنصاب، عهدهم لا ينقض ما أقامت لعلع، وما جرى اليعفور بصُلع ».

---

(1) المصدر السابق ج٢ ص ٥٩٦ - ٥٩٩.

فكتب لهم رسول الله ﷺ كتاباً فيه:

« بسم الله الرحمن الرحيم، كتاب من رسول الله لمخلاف خارف، وأهل جناب الهضب، وخقاف الرمل، مع وافدها ذي المشعار مالك بن نمط، ومن أسلم من قومه، على أن لهم فراعها ووهاطها، ما أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة، يأكلون علافها، ويرعون عافيها، لهم بذلك عهد الله وذمام رسوله، وشاهدهم المهاجرون والأنصار ».

فقال في ذلك مالك بن نمط:

ذكرت رسول الله في فحمة الدجى ... ونحن بأعلى رحرحان وصلدد
وهن بنا خوض طلائع تغتلي ... بركبانها في لا حب متمدد
على كل فتلاء الذراعين جسرة ... تمر بنا مرًّا لهَجف الخفيدد
حلفت برب الراقصات إلى منى ... صوادي بالركبان من ظهر قَردد
بأن رسول الله فينا مصدق ... رسول أتى من عند ذي العرش مهتد
فما حملت من ناقة فوق رحلها ... أشد على أعدائه من محمد
١٠٦ أ / وأعطى إذا ما طالب العرف جاءه ... وأمضى بحد المشرفي المهند

* * *

[وفد النخع]

قال الواقدي: وقدم على رسول الله ﷺ وفد النخع، وهم آخر وفدٍ، قدموا للنصف من المحرم سنة إحدى عشرة من الهجرة، في مائتي رجلٍ، فنزلوا دار الأضياف، ثم جاءوا رسول الله ﷺ مقرين بالإسلام، وقد كانوا بايعوا معاذ ابن جبل (باليمن). فقال رجل منهم، يقال له زرارة بن عمرو: يا رسول الله إني رأيت في سفري هذا عجباً. قال: «وما رأيت»؟ قال: رأيت أتاناً تركتها في الحي كأنها ولدت جدياً أسفع أحوى. فقال له رسول الله ﷺ: «هل تركت أمة لك مصرة على حمل»؟ قال: نعم، قال: «فإنها قد ولدت غلاماً وهو أبنك». قال: يا رسول الله، فما باله أسفع أحوى؟ قال: «ادن مني». فدنا منه، فقال: «هل بك من برص تكتمه؟» قال: والذي بعثك بالحق، ما علم به أحد، ولا اطلع عليه غيرك. قالَ: «فهو ذلك». قال: يا رسول الله، ورأيت النعمان بن المنذر عليه قرطان ودملجان ومسكتان. قال: «ذلك مُلك العرب رجع إلى أحسن زيه وبهجته». قال: يا رسول الله، ورأيت عجوزاً شمطاء خرجت من الأرض. قال: «تلك بقية الدنيا». قال: ورأيت ناراً خرجت من الأرض فحالت بيني وبين ابن لي يقال له: عمرو، وهي تقول: لظي لظي، بصير وأعمى، أطعموني آكلكم (آكلكم): أهلكم ومالكم. قال رسول الله ﷺ: «تلك فتنة تكون في آخر الزمان». قال: يا رسول الله، وما الفتنة؟ قال: «يقتل الناس إمامهم، ويشتجرون اشتجار أطباق الرأس وخالف رسول الله ﷺ بين أصابعه يحسب المسيء فيها أنه محسن، ويكون دم المؤمن عند المؤمن أحل من شرب الماء، إن مات ابنك أدركت الفتنة، وإن مت أنت أدركها ابنك».

قال: يا رسول الله، ادع الله أن لا أدركها. فقال رسول الله ﷺ: «اللهم لا

يدركها ». فمات وبقي ابنه ،وكان ممن خلع عثمان .

وهذا الذي تيسر لنا ذكره من شأن الوفود، وهم أكثر من هذا، ومعظم من ذكرنا إنما هو من كتاب الواقدي مع من ذكره ابن إسحاق منهم .

* * *

ذكر بعث رسول الله ﷺ
إلى الملوك، وكتابه إليهم
يدعوهم إلى الله وإلى الإسلام

قال ابن هشام(١): وقد كان رسول الله ﷺ بعث إلى الملوك رسلاً من أصحابه، وكتب معهم إليهم يدعوهم إلى الإسلام.

حدثني من أثق به عن أبي بكر الهُذَليّ قال: بلغني أن رسول الله ﷺ خرج على أصحابه ذات يوم بعد عُمرته التي صُدّ عنها يوم الحديبية، فقال: «أيها الناس، إن الله [قد] بعثني رحمةً وكافةً، فلا تختلفوا عليّ كما اختلف الحواريون على عيسى ابن مريم عليه السلام».

وفي حديث ابن إسحاق: «إن الله بعثني رحمةً وكافَّةً، فأدّوا عني يرحمكم الله، ولا تختلفوا عليّ كما اختلف الحواريون على عيسى»، فقال أصحابه: «وكيف اختلف الحواريون يا رسول الله؟»، فقال: «دعاهم إلى الذي دعوتكم إليه، فأما من بعثه مبعثاً قريباً فرضي وسلم، وأما من بعثه مبعثاً بعيداً فكره وجهه وتثاقل، فشكا ذلك عيسى إلى الله تعالى فأصبح المتثاقلون وكل واحد منهم يتكلم بلغةِ الأمة التي بعث إليها».

فبعث رسول الله ﷺ دِحْية بن خليفة الكلبي إلى قيصر ملك الروم، وبعث عبدالله بن حُذافة السهمي إلى كسرى ملك فارس، وبعث عمرو بن أميَّة الضمري إلى النَّجاشي ملك الحبشة، وبعث حاطب بن أبي بَلْتَعة إلى المُقَوْقِس

---

(١) المصدر السابق ج٢ ص ٦٠٦ ـ ٦٠٧.

صاحب الإسكندرية، وبعث عمرو بن العاص إلى جَيفر وعبدٍ ابني الجُلُندي ملك عُمان، وبعثَ سليط بن عمرو أحد بني عـامر بن لؤيّ إلى ثُمامة بن أُثال، وهَوْذة بن عليّ الحنفيين ملكي اليمامة؛ وبعث العلاء بن الحَضْرميّ إلى المُنْذر بن ساوَي العَبْدي ملك البحرين؛ وبعث شجاع بن وهب الأسدي إلى الحارث بن أبي شِمْر الغساني ملك تخوم الشام.

ويقال: بعثه إلى جبلة بن أيهم الغساني، وبعث المهاجر بن أبي أُميَّة المخزوميّ إلى الحارث بن عبد كُلالٍ الحِميري ملك اليمن.

* * *

ذكر كتاب النبي ﷺ إلى قيصر، وما كان من خبر دحية معه[1]

ذكر الواقدي من حديث ابن عباس، ومن حديثه خرج في الصحيحين: أن رسول الله ﷺ كتب إلى قيصر يدعوه إلى الإسلام، وبعث بكتابه مع دحية الكلبي، وأمره أن يدفعه إلى عظيم بصري، ليدفعه إلى قيصر، فدفعه عظيم بصرى إلى قيصر، وكان قيصر لما كشف الله عنه جنود فارس مشى من حمص إلى إيلياء شكراً لله جل وعز فيما أبلاه من ذلك، فلما جاء قيصر كتاب رسول الله ﷺ قال: التمسوا لنا ها هنا أحداً من قومه نسألهم عنه.

قال ابن عباس: فأخبرني أبو سفيان بن حرب أنه كان بالشام في رجال من قريش، قدموا تجاراً، وذلك في الهدنة التي كانت بين رسول الله ﷺ وبين كفار قريش، قال: فأتانا رسول قيصر، فانطلق بنا حتى قدمنا إيلياء، فأدخلنا عليه، فإذا هو جالس في مجلس ملكه عليه التاج، وحوله عظماء الروم، فقال لترجمانه: «سلهم، أيهم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي»، قال أبو سفيان: فقلت: «أنا أقربهم نسباً، وليس في الركب يومئذٍ رجل من بني عبد مناف غيري»، قال قيصر: «أدنوه مني»، ثم أمر بأصحابي فجعلوا خلف ظهري، ثم قال لترجمانه:

(١) راجع: ابن سعد. الطبقات ج ١ ص ٢٥٩، البخاري. الصحيح ج ٤ ص ١١٩ - ١٢٢ ج ١ ص ١٠١، اليعقوبي. التاريخ ج ٢ ص ٧٧ - ٧٨، الطبري. التاريخ ج ٣ ص ٦٤٤، ٦٤٦ - ٦٥١، أبا نعيم. دلائل النبوة ص ٣٤٣ - ٣٤٨، البيهقي. دلائل النبوة ج ٤ ص ٣٧٧ - ٣٨٦، ابن الأثير. أسد الغابة ج ٢ ص ٢١١ - ٢١٣، ابن جديدة. المصباح المضيء ج ٢ ص ٧٦ - ١٢٤، ابن طولون. إعلام السائلين ص ٦٤ - ٧٦.

« قل لأصحابه، إنما قدمت هذا أمامكم لأسأله عن هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي، وإنما جعلتم خلف كتفيه لتردوا عليه كذباً إن قاله »، قال أبو سفيان: «فوالله لولا الحياء يومئذ من أن يأثروا علي كذباً لكذبت عنه، ولكني استحييت فصدقته وأنا كاره»، ثم قال لترجمانه: «قل له: كيف نسب هذا الرجل فيكم؟» فقلت: « هو فينا ذو نسب »، قال: « قل له: هل قال هذا القول منكم أحد قبله »؟، قلت: « لا »، قال: « فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟» قال: «قلت: «لا»، قال: «هل كان من آبائه ملك؟» قلت: «لا»، قال:
١٠٦ ب «فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ » // قلت: « بل ضعفاؤهم» قال: « فهل يزيدون أو ينقصون؟ » قلت: « بل يزيدون »، قال: « فهل يرتد أحد سخطة لدينه بعد أن دخل فيه؟ » قلت: « لا »، قال: « فهل يغدر؟ » قلت: «لا، ونحن الآن منه في مدة، ونحن لا نخاف غدره ».

وفي رواية: ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها.

قال أبو سفيان: « ولم تمكني كلمة أغمزه بها لا أخاف عليّ فيها شيئاً غيرها ».

قال: « فهل قاتلتموه؟ »، قلت: « نعم »، قال: « فكيف حربكم وحربه؟ »، قلت: « دول سجال، نذال عليه مرة ويدال علينا أخرى »، قال: « فمايأمركم به؟ »، قلت: « يأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً، وينهانا عما كان يعبد أباؤنا، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة ». فقال لترجمانه: « قل له: إني سألتك عن نسبه فزعمت أنه فيكم ذو نسب، وكذلك الرسل تبعث في نسب قومها، وسألتك: هل قال هذا القول منكم أحد قبله، فزعمت أن لا، فلو كان أحد منكم قال هذا القول قبله لقلت: رجل يأتم بقول قيل قبله، وسألتك: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال، فزعمت أن لا، فقد عرفت أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ويكذب على الله، وسألتك هل كان من آبائه ملك، فقلت: لا، فقلت: لو كان من آبائه

ملك، قلت: رجل يطلب ملك أبيه، وسألتك: أأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم، فقلت: ضعفاؤهم، وهم أتباع الرسل، وسألتك هل يزيدون أو ينقصون، فزعمت أنهم يزيدون، وكذلك الإيمان حتى يتم. وسألتك: هل يرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه، فزعمت أن لا، وكذلك الإيمان حتى تخالط بشاشته القلوب لا يسخطه أحد، وسألتك: هل قاتلتموه، فقلت: نعم، وأن حربكم وحربه دول وسجال، ويدال عليكم مرة، وتدالون عليه أخرى، وكذلك الرسل تبتلى ثم تكون لهم العاقبة، وسألتك: ماذا يأمركم به، فزعمت أنه يأمركم بالصلاة والصدق والعفاف والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة، وهو نبي، وقد كنت أعلم أنه خارج ولكن لم أظن أنه فيكم، وإن كان ما أتاني عنه حقاً، فيوشك أن يملك موضع قدمي هاتين، ولو أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقيه، ولو كنت عنده لغسلت قدميه.

قال أبو سفيان: «ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ فقرىء، فإذا فيه»:

«بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد بن عبدالله، إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى.

أما بعد، فإني أدعوك بداعية الإسلام، أسلم لتسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين.

ويا أهل الكتاب تعالوا، إلى كلمةٍ سواءٍ بيننا وبينكم، أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله، فإن تولوا فقولوا: اشهدوا بأنا مسلمون».

قال أبو سفيان: فلما قضى مقالته وفرغ الكتاب علت أصوات الذين حوله وكثر لغطهم، فلا أدرى ما قالوا، وأمر بنا فأخرجنا، فلما خرجت أنا وأصحابي وخلصنا، قلت لهم: لقد أمر أمر ابن أبي كبشة، هذا ملك بني الأصفر يخافه، قال: فوالله ما زلت ذليلاً مستيقناً أن أمره سيظهر حتى أدخل الله عليّ الإسلام.

وفي حديث غير هذا، ذكره أيضاً الواقدي عن محمد بن كعب القرظي أن

دحية الكلبي لقي قيصر بحمص لما بعثه إليه رسول الله ﷺ وقيصر ماشٍ من قسطنطينة إلى إيلياء في نذر كان عليه إن ظهرت الروم على فارس أن يمشي حافياً من قسطنطينة، فقال لدحية قومه لما بلغ قيصر: إذا رأيته فاسجد له، ثم لا ترفع رأسك أبداً حتى يأذن لك. قال دحية: لا أفعل هذا أبداً، ولا أسجد لغير الله عز وجل، قالوا: إذاً لا يؤخذ كتابك، ولا يكتب جوابك، قال: وإن لم يأخذه، فقال له رجل منهم: أدلك على أمر يأخذ فيه كتابك، ولا يكلفك فيه السجود. قال دحية: وما هو؟ قال: إن له على كل عقبةٍ منبراً يجلس عليه، فضع صحيفتك تجاه المنبر، فإن أحداً لا يحركها حتى يأخذها هو، ثم يدعو صاحبها فيأتيه. قال: أما هذا فسأفعل، فعمد إلى منبرٍ من تلك المنابر التي يستريح عليها قيصر، فألقي الصحيفة، فدعا بها فإذا عنوانها كتاب العرب، فدعا الترجمان الذي يقرأ بالعربية، فإذا فيه:

«من محمد رسول الله إلى قيصر صاحب الروم».

فغضب أخ لقيصر يقال له: نياق، فضرب في صدر الترجمان ضربة شديدة، ونزع الصحيفة منه، فقال له قيصر: ما شأنك، أخذت الصحيفة؟ فقال: تنظر في كتاب رجل بدأ بنفسه قبلك؟ وسماك قيصر صاحب الروم، وما ذكر لك ملكاً. فقال له قيصر: إنك والله ما علمت أحمق صغيراً، مجنون كبيراً، أتريد أن تخرق كتاب رجلٍ قبل أن أنظر فيه، فلعمري لئن كان رسول الله كما يقول، لنفسه أحق أن يبدأ بها مني، وإن كان سماني صاحب الروم لقد صدق، ما أنا إلا صاحبهم وما أملكهم، ولكن الله عز وجل سخرهم لي، ولو شاء لسلطهم عليّ كما سلط فارس على كسرى فقتلوه. ثم فتح الصحيفة، فإذا فيها:

«بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله، إلى قيصر صاحب الروم، سلام على من اتبع الهدى.

أما بعد، ﴿يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمةٍ سواءٍ بيننا وبينكم ألا[1] نعبد إلا

---

١) في الأصل: «ان لا».

الله﴾ . الآية إلى قوله: ﴿اشهدوا بأنا مسلمون﴾ [آل عمران: ٦٤] في آيات من كتاب الله يدعوه إلى الله ويزهده في ملكه ويرغبه فيما رغبه الله فيه من الآخرة، ويحذره بطش الله وبأسه».

وفي حديث غير الواقدي أن دحية لما لقي قيصر قال له:

« يا قيصر، أرسلني إليك من هو خير منك، والذي أرسله خير منه ومنك، فاسمع بذلٍ، ثم أجب بنصح، فإنك إن لم تذلل لم تفهم، وإن لم تنصح لم تنصف ».

قال: هات.

قال: « هل تعلم أن المسيح كان يُصلي؟ »

قال: نعم.

قال: « فإني أدعوك إلى من كان المسيح يصلي له، وأدعوك إلى من دبر خلق السموات والأرض والمسيح في بطن أمه، وأدعوك إلى هذا النبي الأمي، الذي بشر به موسى وبشرب به عيسى ابن مريم بعده، وعندك من ذلك أثاره من علم تكفي عن العيان وتشفي عن الخبر، فإن أجبت كانت لك الدنيا والآخرة، وإلا ذهبت عنك الآخرة وشوركت في الدنيا.

وأعلم (أن) لك رباً يقصم الجبابرة ويغير النعم ».

فأخذ قيصر الكتاب فوضعه على عينيه ورأسه، وقبله، ثم قال:

١٠٧ أ « أما والله، ما تركت كتاباً إلا قرأته، ولا // عالماً إلا سألته، فما رأيت إلا خيراً، فأمهلني حتى أنظر من كان المسيح يصلي له، فإني أكره أن أجيبك اليوم بأمر أرى غداً ما هو أحسن منه، فأرجع عنه، فيضرني ذلك ولا ينفعني، أقم حتى أنظر ».

ويروى أن قيصر لما سأل أبا سفيان بن حرب عما سأله عنه من أمر رسول الله ﷺ حسبما تقدم، وأخبره به قال: « والذي نفسي بيده ليوشكن أن يغلب على ما تحت قدمي، يا معشر الروم، هلم إلى أن نجيب هذا الرجل إلى ما دعا إليه،

ونسأله الشام أن لا توطأ علينا أبداً، فإنه لم يكتب نبي من الأنبياء قط إلى ملك من الملوك يدعوه إلى الله فيجيبه إلى ما دعاه إليه، ثم يسأله عندها مسألة إلا أعطاه مسألته ما كانت، فأطيعوني، فلنجبه ونسأله أن لا توطأ الشام».

قالوا: «لا نطاوعك في هذا أبداً، تكتب إليه تسأله ملكك الذي تحت رجليك، وهو هنالك لا يملك من ذلك شيئاً، فمن أضعف منك».

وفي هذا الحديث عن أبي سفيان أنه قال لقيصر لما سأله عن النبي ﷺ في جملة ما أجابه:

«أيها الملك، ألا أخبرك خبراً تعرف به أنه قد كذب؟».

قال: وما هو؟

قلت: «إنه زعم لنا أنه خرج من أرضنا أرض الحرم في ليلة فجاء مسجدكم هذا مسجد إيلياء ورجع إلينا في تلك الليلة قبل الصباح». قال: وبطريق إيلياء عند رأس قيصر، فقال: قد علمت تلك الليلة، قال: فنظر إليه قيصر، (و) قال: «وما علمك بهذا؟» قال: إني كنت لا أنام ليلة أبداً حتى أغلق أبواب المسجد، فلما كانت تلك الليلة أغلقت الأبواب كلها غير باب واحدٍ غلبني، فاستعنت عليه عمالي ومن يحضرني فلم نستطع أن نحركه، كأنما نزاول جبلاً، فدعوت النجارين فنظروا إليه فقالوا: هذا باب سقط عليه النجاف والبنيان، فلا نستطيع أن نحركه حتى نصبح، فننظر من أين أتى، فرجعت وتركت البابين مفتوحين، فلما أصبحت غدوت عليهما فإذا الحجر الذي في زاوية المسجد مثقوب، وإذا فيه أثر مربط الدابة، فقلت لأصحابي: ما حبس هذا الباب الليلة إلا على نبيٍ، وقد صلى الليلة في مسجدنا هذا، فقال قيصر لقومه: يا معشر الروم، ألستم تعلمون أن بين عيسى وبين الساعة نبي بشركم به عيسى ابن مريم، ترجون أن يجعله الله فيكم؟ قالوا: بلى، قال: فإن الله قد جعله في غيركم، في أقل منكم عدداً، وأضيق منكم بلداً، وهي رحمة الله عز وجل يضعها حيث يشاء.

وفي الصحيح من الحديث أن هرقل لما تحقق أمر رسول الله ﷺ بما كان يجده فيما عندهم من العلم أذن لعظماء الروم في دسكرة له بحمص، وأمر بالأبواب فغلقت، ثم طلع عليهم، فقال: يا معشر الروم، هل لكم في الفلاح والرشد، وأن يثبت لكم ملككم، وأن تتبعوا ما قال عيسى ابن مريم؟ قالوا: وماذاك أيها الملك؟ قال: تتبعون هذا النبي العربي. قال: فحاصوا حيصة حمر الوحش واستجالوا في الكنيسة وتناخروا، ورفعوا الصلب، وابتدروا الأبواب، فوجدوها مغلقةً، فلما رأى هرقل ما رأى يئس من إسلامهم وخافهم على ملكه، فقال: ردوهم عليّ، فردوهم، فقال: إنما قلت لكم ما قلت لأخبر كيف صلابتكم في دينكم، فقد رأيت منكم الذي أحب، فسجدوا له ورضوا عنه، فكان ذلك آخر شأنهم.

ويروى أن قيصر لما انتهى مع قومه إلى ما ذكر، ويئس من إجابتهم كتب مع دحية جواب كتابه الذي جاءه به، يقول فيه للنبي ﷺ:

«إني مسلم، ولكني مغلوب على أمري».

وأرسل إليه بهدية، فلما قرأ رسول الله ﷺ كتابه قال: «كذب عدو الله، ليس بمسلم، بل هو على نصرانيته»، وقبل هديته، وقسمها بين المسلمين.

وقال دحية في قدومه:

ألا هل أتاها على نأيها	بأني قدمت على قيصر
فقررته بصلاة المسيح	وكانت من الجوهر الأحمر
وتدبير ربك أمر السما	ء والأرض، فأغضى ولم ينكر
وقلت: تفز ببشرى المسيح	فقال: سأنظر، قلت: انظر
فكاد يقر بأمر الرسول	فمال إلى البدل الأعور
فشك وجاشت له نفسه	وجاشت نفوس بني الأصفر
على وضعه بيديه الكتاب	على الرأس والعين والمنخر
فأصبح قيصر في أمره	بمنزلة الفرس الأشقر

[المتقارب]

ذكر توجه عبدالله بن حذافة إلى كسرى بكتاب النبي ﷺ وما كان من خبره معه(١)

وكسرى هذا هو أبرويز بن هرمز، أنو شروان، ومعنى أبرويز: المظفر، فيما ذكره المسعودي، وهو الذي كان غلب الروم، فأنزل الله في قصتهم: ﴿ألم، غلبت الروم في أدنى الأرض﴾ [١ - ٣: الروم]، وأدنى الأرض فيما ذكر الطبري هي بصرى وفلسطين، وأذرعات من أرض الشام.

وذكر الواقدي من حديث السفاء بنت عبدالله، أن رسول الله ﷺ بعث عبدالله بن حذافة السهمي منصرفه من الحديبية إلى كسرى، وبعث معه كتاباً مختوماً فيه:

« بسم الله الرحمن الرحيم. من محمدٍ رسول الله إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، أدعوك بداعية الله، فإني أنا رسول الله إلى الناس كافةً، لأنذر من كان حياً، ويحق القول على الكافرين، أسلم تسلم، فإن أبيت، فعليك إثم المجوس».

قال عبدالله بن حذافة، فانتهيت إلى بابه، فطلبت الإذن عليه حتى وصلت إليه، فدفعت إليه كتاب رسول الله ﷺ فقرىء عليه، فأخذه ومزقه، فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ قال: «مزق ملكه».

---

(١) راجع: ابن سعد. الطبقات ج١ ص ٢٥٩ - ٢٦٠، البخاري. الصحيح ج٤ ص ١١٩ ج١٥٠، الطبري. التاريخ ج ٣ ص ٦٤٤، ٦٥٤ - ٦٥٧، الماوردي. أعلام النبوة ص ٩٧ - ٩٨، أبا نعيم. دلائل النبوة ص ٣٤٨ - ٣٥١، البيهقي. دلائل النبوة ج ٤ ص ٣٨٧ - ٣٩٢، ابن حديدة. المصباح المضيء ج ٢ ص ١٨٠ - ٢٢٧، ابن طولون. إعلام السائلين ص ٦٠ - ٦٣.

وذكر أبو رفاعة، وثيمة بن موسى بن الفرات، قال: لما قدم عبد الله بن حذافة على كسرى قال:

« يا معشر الفرس، إنكم عشتم بأحلامكم لعدة أيامكم بغير نبي ولا كتاب، ولا تملك من الأرض إلا ما في يديك، وما لا تملك منها أكثر، وقد ملك الأرض // قبلك ملوك أهل الدنيا وأهل الآخرة، فأخذ أهل الآخرة بحظهم ١٠٧ ب من الدنيا، وضيع أهل الدنيا حظهم من الآخرة، فاختلفوا في سعي الدنيا واستووا في عدل الآخرة، وقد صغر هذا الأمر عندك، أنا أتيناك به، وقد والله جاءك من حيث خفت، وما تصغيرك إياه بالذي يدفعه عنك، ولا تكذيبك به بالذي يخرجك منه، وفي وقعة ذي قار على ذلك دليل ».

فأخذ الكتاب فمزقه، ثم قال: « لي ملك هني، لا أخشى أن أغلب عليه، ولا أشارك فيه، وقد ملك فرعون بني إسرائيل، ولستم بخير منهم، فما يمنعني أن أملككم وأنا خير منه، فأما هذا الملك فقد علمنا أنه يصير إلى الكلاب، وأنتم أولئك تشبع بطونكم وتأبى عيونكم، فأما وقعة ذي قارٍ فهي بوقعة الشام ».

فانصرف عنه عبدالله، وقال في ذلك:

أبى الله إلا أن كسرى فريسة	لأول داع بالعراق محمداً
تقاذف في فحش الجواب مصغراً	لأمر العريب الخائفين له الردا
فقلت له: أرود فإنك داخل	من اليوم في بلوى، ومنتهب غداً
فأقبل وأدبر حيث شئت فإننا	لنا الملك فابسط للمسالمة اليدا
وإلا فأمسك قارعاً سن نادم	أقر بذل الخرج أومت موحداً
(سفهت بتخريق الكتاب وهذه	بتمزيق ملك الفرس يكفي مبدداً)

[الطويل]

ويروى أن كسرى رأى في النوم بعد أن أخبر بخروج النبي ﷺ ونزوله يثرب أن سلماً وضع في الأرض إلى السماء، وحشر الناس حوله، إذ أقبل رجل عليه عمامة، وإزار أو رداء، فصعد السلم حتى إذا كان بمكان منه نودي: أين

فارس ورجالها ونساؤها ولامتها وكنوزها؟ فأقبلوا، فجعلوا في جوالق، ثم رفع الجوالق إلى ذلك الرجل، فأصبح كسرى تعس النفس، محزوناً لتلك الرؤيا، وذكرها لأساورته، فجعلوا يهونون عليه الأمر، فيقول كسرى: «هذا أمر تراد به فارس»، فلم يزل مهموماً حتى قدم عليه عبدالله بن حذافة بكتاب رسول الله ﷺ يدعوه إلى الإسلام.

وذكر الواقدي من حديث أبي هريرة وغيره أن كسرى بينا هو في بيت كان يخلو فيه إذا رجل قد خرج إليه في يده عصا، فقال: يا كسرى، إن الله قد بعث رسولاً، وأنزل عليه كتاباً، فأسلم تسلم، واتبعه يبق لك ملكك. قال كسرى: أخر هذا عني أثراً ما، فدعا حجابه وبوابيه، فتواعدهم، وقال: من هذا الذي دخل عليّ؟ قالوا: والله، ما دخل عليك أحد، وما ضيعنا لك باباً، ومكث حتى إذا كان العام المقبل أتاه فقال له مثل ذلك، وقال: إن لا تسلم أكسر العصا. قال: لا تفعل، أخر ذلك أثراً ما، ثم جاء العام المقبل، ففعل مثل ذلك، وضرب بالعصا على رأسه فكسرها، وخرج من عنده.

ويقال: إن ابنه قتله في تلك الليلة، وأعلم الله بذلك رسوله عليه السلام بحدثان كونه، فأخبر ﷺ بذلك رسل باذان إليه.

وكان باذان عامل كسرى على اليمن، فلما بلغه ظهور النبي ﷺ ودعاؤه إلى الله، كتب إلى باذان: أن ابعث إلى هذا الرجل الذي خالف دين قومه، فمره فليرجع إلى دين قومه، فإن أبى فابعث إليّ برأسه، وإلا فليواعدك يوماً تقتتلون فيه. فلما ورد كتابه إلى باذان، بعث بكتابه مع رجلين من عنده، فلما قدما على رسول الله ﷺ أنزلهما وأمرهما بالمقام فأقاما أياماً، ثم أرسل إليهما رسول الله ﷺ ذات غداة، فقال: انطلقا إلى باذان فأعلماه أن ربي عز وجل قد قتل كسرى في هذه الليلة، فانطلقا حتى قدما على باذان، فأخبراه بذلك، فقال: إن يكن الأمر كما قال: فوالله إن الرجل لنبي، وسيأتي الخبر بذلك إلى يوم كذا، فأتاه الخبر كذلك، فبعث باذان بإسلامه وإسلام من معه إلى رسول الله ﷺ.

ويقال: إن الخبر أتاه بمقتل كسرى وهو مريض، فاجتمعت إليه أساورته،

فقالوا : من تؤمر علينا ؟ فقال لهم: ملك مقبل وملك مدبر ، فاتبعوا هذا الرجل ، وادخلوا في دينه وأسلموا. ومات باذان، فَبعث رءوسهم إلى رسول الله ﷺ وفدهم يعرفونه بإسلامهم.

* * *

ذكر إسلام النجاشي(١)، وكتاب رسول الله ﷺ إليه مع عمرو بن أمية الضمري

قال ابن إسحاق: لما وجه رسول الله ﷺ رسله إلى ملوك الأرض يدعوهم إلى الإسلام، وجه إلى النجاشي عمرو بن أمية، فقال له: «يا أصحمة، إن عليَّ القول، وعليك الاستماع، إنك كأنك في الرقة علينا منا، وكأنا في الثقة بك منك، لأنا لم نظن بك خيراً قط إلا نلناه، ولم نخفك على شيء قط إلا أمناه، وقد أخذنا الحجة عليك من فيك، الإنجيل بيننا وبينك شاهد لا يرد، وقاض لا يجور، وفي ذلك وقع الحز وإصابة المفصل، وإلا فأنت في هذا النبي الأمي كاليهود في عيسى ابن مريم، وقد فرق النبي ﷺ رسله إلى الناس، فرجاك لما لم يرجهم له، وأمنك على ما خافهم عليه، لخير سالف وأجر ينتظر».

فقال النجاشي: «أشهد بالله أنه للنبي الأمي الذي ينتظره أهل الكتاب، وأن

---

(١) تشير المصادر إلى أنه عليه السلام كتب إليه كتابين، يدعوه في أحدهما إلى الإسلام، ويتلو عليه القرآن، وفي الكتاب الآخر يأمره أن يزوجه أم حبيبة، وأن يرسل إليه من قبله من الصحابة.
ويبدو أنه ـ مع التشكك في كونه النجاشي المهاجر إليه لدى إحدى روايات مسلم ـ أسلم، وفعل ما أمر به.
أما إسلام النجاشي ـ إن كان هو المهاجر إليه ـ فغير مشكوك فيه، لإرساله بعض أقاربه إلى النبي ﷺ وقد غرقوا في أثناء الطريق، ولصلاة النبي ﷺ وصحبه عليه صلاة الغائب، وقد صرح عليه السلام بإسلامه ضمناً، في قوله: «إن أخاكم أصحمة توفي، فصلوا عليه».
راجع: ابن سعد. الطبقات ج ١ ص ٢٥٨ ـ ٢٥٩، البخاري. الصحيح ج ٢ ص ١٨٤ ـ ١٨٥، مسلم. الجامع الصحيح ج ٣ ص ٥٤، ج ٥ ص ١٦٦، الطبري. التاريخ ج ٣ ص ٦٤٤، ٦٥٢ ـ ٦٥٤، الماوردي. أعلام النبوة ص ٩٨، البيهقي. دلائل النبوة ج ٤ ص ٤١٠ ـ ٤١٢، الخطيب البغدادي. الأسماء المبهمة ص ٢١ ـ ٢٢، ابن حديدة. المصباح المضيء ج ٢ ص ١٧ ـ ٧٥، ابن طولون. إعلام السائلين ص ٤٧ ـ ٥٤.

بشارة موسى براكب الحمار كبشارة عيسى براكب الجمل، وأن العيان ليس بأشفى من الخبر».

وذكر الواقدي أن الكتاب الذي كتبه رسول الله ﷺ إلى النجاشي مع عمرو ابن أمية الضمري هو هذا:

«بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى النجاشي ملك الحبشة. سلم أنت، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته، ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة، فحملت بعيسى، فخلقه من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده.

وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، والموالاة على طاعته، وأن تتبعني وتؤمن بالذي جاءني، فإني رسول الله، وإني أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل، فقد بلغت ونصحت، فأقبلوا نصيحتي، والسلام على من اتبع// الهدى». ١٠٨ أ

فكتب إليه النجاشي:

«بسم الله الرحمن الرحيم. إلى محمد رسول الله، من النجاشي أصحمة. سلام عليك يا رسول الله من الله ورحمة الله وبركات الله الذي لا إله إلا هو.

أما بعد، فقد بلغني كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى، فورب السماء والأرض إن عيسى لا يزيد على ما ذكرت ثفروقا، إنه كما ذكرت، وقد عرفنا ما بعثت به إلينا، وقد قربنا ابن عمك وأصحابه، فأشهد أنك رسول الله صادقاً مصدقاً، وقد بايعتك وبايعت ابن عمك، وأسلمت على يديه لله رب العالمين».

وذكر الواقدي عن سلمة بن الأكوع أن النجاشي توفي في رجب سنة تسع، منصرف رسول الله ﷺ عن تبوك، قال سلمة: صلى بنا رسول الله ﷺ الصبح، ثم قال: إن أصحمة النجاشي قد توفي هذه الساعة، فاخرجوا بنا إلى

المصلى حتى نصلي عليه، قال سلمة: فحشد الناس وخرجنا مع رسول الله ﷺ إلى المصلى، فرأيت رسول الله ﷺ يقدمنا وإنا لصفوف خلفه، وأنا في الصف الرابع، فكبر بنا أربعاً.

* * *

كتاب رسول الله ﷺ
إلى المقوقس صاحب الإسكندرية
مع حاطب بن أبي بلتعة(١)

ولما وجه رسول الله ﷺ رسله إلى الملوك، بعث حاطباً إلى المقوقس صاحب الإسكندرية بكتاب فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد بن عبد الله رسول الله، إلى المقوقس عظيم القبط.

سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوك بداعية الإسلام، أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم القبط.

يا أهل الكتاب، تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله، فإن تولوا فقولوا: اشهدوا بأنا مسلمون». وختم الكتاب.

فخرج به حاطب حتى قدم عليه الإسكندرية، فانتهى إلى حاجبه، فلم يلبثه أن أوصل إليه كتاب رسول الله ﷺ.

وقال حاطب للمقوقس لما لقيه:

«إنه قد كان قبلك رجل يزعم أنه الرب الأعلى، فأخذه الله نكال الآخرة والأولى، فانتقم به، ثم انتقم منه، فاعتبر بغيرك، ولا يعتبر بك».

---

(١) راجع: ابن سعد. الطبقات ج ١ ص ٢٦٠ ـ ٢٦١، ابن عبد الحكم. فتوح مصر وأخبارها ص ٤٥ ـ ٥٣، الطبري. التاريخ ج ٣ ص ٦٤٤ ـ ٦٤٥، المسعودي. مروج الذهب ج ٢ ص ٢٨٩، البيهقي. دلائل النبوة ج ٤ ص ٣٩٥ ـ ٣٩٦، ابن حديدة. المصباح المضيء ج ٢ ص ١٢٥ ـ ١٧٩، ابن طولون. إعلام السائلين ص ٧٧ ـ ٨١.

قال: هات.

قال: «إن لك دينا لن تدعه إلا لما هو خير منه، وهو الإسلام الكافي به الله، فقد ما سواه، إن هذا النبي ﷺ دعا الناس، فكان أشدهم عليه قريش، وأعداهم له يهود، وأقربهم منه النصارى، ولعمري ما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد ﷺ وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل، وكل نبي أدرك قوماً، فهم من أمته، فالحق عليهم أن يطيعوه، فأنت ممن أدركه هذا النبي، ولسنا ننهاك عن دين المسيح، ولكنا نأمرك به».

فقال المقوقس: «إني قد نظرت في أمر هذا النبي، فوجدته لا يأمر بمزهود فيه، ولا ينهي إلا عن مرغوب عنه، ولم أجده بالساحر الضال، ولا الكاهن الكاذب، ووجدت معه آلة النبوة بإخراج الخبء والإخبار بالنجوى، وسأنظر.

وأخذ كتاب النبي ﷺ فجعله في حقٍ من عاج وختم عليه، ودفعه إلى جارية له، ثم دعا كاتباً له يكتب بالعربية، فكتب إلى النبي ﷺ:

«بسم الله الرحمن الرحيم. لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط، سلام عليك.

أما بعد، فقد قرأت كتابك، وفهمت ما ذكرت فيه، وما تدعو إليه. وقد علمت أن نبياً (قد) بقي، وكنت أظن أنه يخرج بالشام، وقد أكرمت رسولك، وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان في القبط عظيم، وبكسوة، وأهديت لك بغلة لتركبها. والسلام عليك».

ولم يزد على هذا، ولم يسلم.

وهاتان الجاريتان اللتان ذكرهما، إحداهما مارية أم إبراهيم ابن النبي ﷺ وأختها سيرين، وهي التي وهبها النبي ﷺ لحسان بن ثابت فولدت له ابنه عبد الرحمن، والبغلة هي دلدل، وكانت بيضاء.

وقيل: إنه لم يكن في العرب يومئذٍ غيرها، وإنها بقيت إلى زمان معاوية.

وذكر الواقدي بإسناد له: أن المقوقس أرسل إلى حاطب ليلة وليس عنده أحد إلا ترجمان له يترجم بالعربية، فقال له: ألا تخبرني عن أمور أسألك عنها وتصدقني؟ فإني أعلم أن صاحبك قد تخيرك من بين أصحابه حيث بعثك، فقال له حاطب: لا تسألني عن شيء إلا صدقتك، فسأله عن: ماذا يدعو إليه النبي ﷺ ومن أتباعه، وهل يقاتل قومه؟ فأجابه حاطب عن ذلك كله، ثم سأله عن صفته، فوصفه حاطب ولم يستوف، فقال له: بقيت أشياء لم أرك تذكرها، في عينيه حمرة، قل ما تفارقه، وبين كتفيه خاتم النبوة، ويركب الحمار، ويلبس الشملة، ويجتزي بالتمرات والكسرة، ولا يبالي من لاقى من عم وابن عم.

قال حاطب: فهذه صفته. قال: كنت أعلم أنه بقي نبي، وكنت أظن أن مخرجه ومنبته بالشام، وهناك تخرج الأنبياء من قبله، فأراه قد خرج في العرب في أرض جهد وبؤس، والقبط لا يطاوعوني في اتباعه، ولا أحب أن تعلم بمحاورتي إياك، وأنا أضن بملكي أن أفارقه، وسيظهر على البلاد، وينزل بساحتنا هذه أصحابه من بعده حتى يظهر على ما هاهنا، فارجع إلى صاحبك، فقد أمرت له بهدايا وجاريتين أختين فارهتين، وبغلة من مراكبي، وألف مثقال ذهباً، وعشرين ثوباً من لين، وغير ذلك، وأمرت لك بمائة دينار وخمسة أثواب. فارحل من عندي ولا تسمع منك القبط حرفاً واحداً.

فرجعت من عنده وقد كان لي مكرماً في الضيافة، وقلة اللبث ببابه، ما أقمت عنده إلا خمسة أيام، وإن الوفود، وفود العجم ببابه منذ شهر وأكثر.

قال حاطب: فذكرت قوله لرسول الله ﷺ فقال: «ضن الخبيث بملكه، ولا بقاء لملكه».

***

ذكر كتاب رسول الله ﷺ إلى المنذر // بن ساوي العبدي مع العلاء بن الحضرمي بعد انصرافه من الحديبية(١).

١٠٨ ب

ذكر الواقدي بإسناد له عن عكرمة قال: وجدت هذا الكتاب في كتب ابن عباس بعد موته، فنسخته، فإذا فيه:

بعث رسول الله ﷺ العلاء بن الحضرمي، إلى المنذر بن ساوي، وكتب إليه رسول الله ﷺ كتاباً يدعوه فيه إلى الإسلام، فكتب -يعني المنذر- إلى رسول الله ﷺ:

«أما بعد، يا رسول الله، فإني قرأت كتابك على أهل هجر، فمنهم من أحب الإسلام، وأعجبه، ودخل فيه، ومنهم من كرهه، وبأرضي مجوس ويهود، فأحدث إليّ في ذلك أمرك».

فكتب إليه رسول الله ﷺ:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله، إلى المنذر بن ساوي، سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله.

أما بعد، فإني أذكرك الله عز وجل فإنه من ينصح فإنما ينصح لنفسه، وإنه من يطع رسلي ويتبع أمرهم فقد أطاعني، ومن نصح لهم فقد نصح لي، وإن

---

(١) راجع: ابن سعد. الطبقات ج ١ ص ٢٦٣، اليعقوبي. التاريخ ج ٢ ص ٧٨، الطبري. التاريخ ج ٣ ص ٦٤٥، السهيلي. الروض الأنف ج ٤ ص ٢٥٠، ابن حديدة. المصباح المضيء ج ٢ ص ٣٣٥ - ٣٣٨، ابن طولون. إعلام السائلين ص ٥٥ - ٥٩.

رسلي قد أثنوا عليك خيراً، وإني قد شفعتك في قومك، فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه، وعفوت عن أهل الذنوب فاقبل منهم، وإنك مهما تصلح فلن نعزلك عن عملك، ومن أقام على يهودية أو مجوسية فعليه الجزية».

وذكر غير الواقدي أن العلاء بن الحضرمي لما قدم على المنذر بن ساوي قال له:

«يا منذر، إنك عظيم العقل في الدنيا، فلا تصغرن من الآخرة، إن هذه المجوسية شردين، ليس فيها تكرم العرب، ولا علم أهل الكتاب، ينكحون ما يستحي من نكاحه، ويأكلون ما يتكرم عن أكله، ويعبدون في الدنيا ناراً تأكلهم يوم القيامة، ولست بعديم عقل ولا رأى، فانظر: هل ينبغي لمن لا يُكذب أن تصدقه، ولمن لا يخون أن تأتمنه، ولمن لا يخلف أن تثق به، فإن كان هذا هكذا فهو هذا النبي الأمي الذي والله لا يستطيع ذو عقل أن يقول: ليت ما أمر به نهي عنه، أو ما نهي عنه أمر به أوليته زاد في عفوه أو نقص من عقابه، إن كل ذلك منه على أمنية أهل العقل وفكر أهل البصر».

فقال المنذر: «قد نظرت في هذا الذي في يدي فوجدته للدنيا دون الآخرة، ونظرتْ في دينكم فوجدته للآخرة والدنيا، فما يمنعني من قبول دين فيه أمنية الحياة وراحة الموت، ولقد عجبت أمس ممن يقبله، وعجبت اليوم ممن يرده، وإن من إعظام ما جاء به أن يعظم رسوله، وسأنظر».

وذكر ابن إسحاق والواقدي وسيف والطبري وغيرهم أن المنذر لما وصله العلاء برسالة رسول الله ﷺ وكتابه أسلم فحسن إسلامه.

وزاد الواقدي: أن النبي ﷺ استقدم العلاء بن الحضرمي، فاستخلفه العلاء مكانه على عمله.

وذكر ابن إسحاق وغيره أن المنذر توفي قبل ردة أهل البحرين والعلاء عنده أميراً لرسول الله ﷺ على البحرين.

وذكر ابن قانع أن المنذر وفد على النبي ﷺ ولا يصح ذلك إن شاء الله.

ذكر كتاب النبي ﷺ إلى جيفر وعبد ابني الجلندي الأزديين، ملكي عمان، مع عمرو بن العاص(١)

ذكر الواقدي بإسناد له إلى عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ بعث نفراً سماهم إلى جهات مختلفة برسم الدعاء إلى الإسلام.

قال عمرو: فكنت أنا المبعوث إلى جيفر وعبد ابني الجلندي، وكتب رسول الله ﷺ معي كتاباً.

قال: وأخرج عمرو الكتاب، فإذا صحيفة أقل من الشبر، فيها:

«بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد بن عبدالله، إلى جيفر وعبد ابني الجلندي، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوكما بداعية الإسلام، أسلما تسلما، فإني رسول الله إلى الناس كافة، لأنذر من كان حياً، ويحق القول على الكافرين، وإنكما إن أقررتما بالإسلام وليتكما، وإن أبيتما أن تقرا بالإسلام فإن ملككما زائل عنكما، وخيلي تحل بساحتكما، وتظهر نبوتي على ملككما».

وكتب أبي بن كعب، وختم رسول الله ﷺ الكتاب.

ثم خرجت حتى انتهيت إلى عمان، فلما قدمتها عمدت إلى عبدٍ، وكان أحلم الرجلين وأسهلهما خلقاً، فقلت: إني رسول رسول الله ﷺ إليك وإلى أخيك، فقال: أخي المقدم علي بالسن والملك، وأنا أوصلك إليه حتى يقرأ كتابك، ثم

---

(١) راجع: ابن سعد. الطبقات ج ١ ص ٢٦٢ ـ ٢٦٣، اليعقوبي. التاريخ ج ٢ ص ٧٨، الطبري. التاريخ ج ٣ ص ٦٤٥، السهيلي. الروض الأنف ج ٤ ص ٢٥٠، ابن حديدة. المصباح المضيء ج٢ ص٣٠٦ ـ ٣١٢، ابن طولون. إعلام السائلين ص٩٢ ـ ٩٦.

قال لي: وما تدعو إليه؟ قلت: أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، وتخلع ما عُبد من دونه، وتشهد أن محمداً عبده ورسوله. قال: يا عمرو، إنك ابن سيد قومك، فكيف صنع أبوك؟ فإن لنا فيه قدوةً. قلت: مات، ولم يؤمن بمحمدٍ ﷺ ووددت أنه كان أسلم وصدق به، وقد كنت أنا على مثل رأيه حتى هداني الله للإسلام. قال: فمتى تبعته؟ قلت: قريباً، فسألني أين كان إسلامي؟ قلت: عند النجاشي، وأخبرته أن النجاشي قد أسلم، قال: فكيف صنع قومه بملكه؟ قلت: أقروه واتبعوه، قال: والأساقفة والرهبان تبعوه، قلت: نعم. قال: أنظر يا عمرو ما تقول، إنه ليس من خصلةٍ في رجل أفضح له من كذب. قلت: ما كذبت، وما نستحله في ديننا. ثم قال: ما أرى هرقل علم بإسلام النجاشي. قلت: بلى. قال: بأي شيء علمت ذلك؟ قلت: كان النجاشي يخرج له خرجاً، فلما أسلم وصدق بمحمد ﷺ قال: لا، والله لو سألني درهماً واحداً ما أعطيته، فبلغ هرقل قوله، فقال له نياق أخوه: أتدع عبدك لا يخرج لك خرجاً، ويدين ديناً محدثاً؟ قال هرقل: رجل رغب في دين واختاره لنفسه، ما أصنع به، والله لولا الضن بملكي لصنعت كما صنع. قال: انظر ما تقول يا عمرو، قلت: قد
١٠٩ أ والله صدقتك. قال عبد: فاخبرني ما الذي يأمر به // وينهي عنه. قلت: يأمر بطاعة الله عز وجل وينهي عن معصيته، ويأمر بالبر وصلة الرحم، وينهي عن الظلم والعدوان، وعن الزنا وشرب الخمر، وينهي عن عبادة الحجر والوثن والصليب. فقال: ما أحسن هذا الذي يدعو إليه، لو كان أخي يتابعني لركبنا حتى نؤمن بمحمد ونصدق به، ولكن أخي أضن بملكه من أن يدعه ويصير ذنباً. قلت: إنه إن أسلم ملكه رسول الله ﷺ على قومه، فأخذ الصدقة من غنيهم فردها على فقيرهم. فقال: إن هذا لخلق حسن، وما الصدقة؟ فأخبرته بما فرض رسول الله ﷺ من الصدقات في الأموال حتى انتهيت إلى الإبل. فقال: يا عمرو، تؤخذ من سوائم مواشينا التي ترعى الشجر وترد المياه. فقلت: نعم. فقال: والله، ما أرى قومي في بعد دارهم وكثرة عددهم يطيعون بهذا. قال: فمكثت ببابه أياماً وهو يصل إلى أخيه فيخبره كل خبرى، ثم أنه دعاني يوماً

فدخلت عليه، فأخذ أعوانه بضبعي، فقال: دعوه، فأُرسلت، فذهبت لأجلس، فأبوا أن يدعوني أجلس، فنظرت إليه، فقال: تكلم بحاجتك، فدفعت إليه الكتاب مختوماً، ففض خاتمه، فقرأه حتى انتهى إلى آخره، ثم دفعه إلى أخيه فقرأه مثل قراءته، إلا أني رأيت أخاه أرق منه، ثم قال: ألا تخبرني عن قريش، كيف صنعت؟ فقلت: تبعوه، إما راغب في الدين، وإما مقهور بالسيف. قال: ومن معه؟ قلت: الناس، قد رغبوا في الإسلام، واختاروه على غيره، وعرفوا بعقولهم مع هدى الله إياهم أنهم كانوا في ضلال، فما أعلم أحداً بقي غيرك في هذه الحرجة، وأنت إن لم تسلم اليوم وتتبعه يوطئك الخيل، ويبيد خضراءك، فأسلم تسلم ويستعملك على قومك، ولا تدخل عليك الخيل والرجال. قال: دعني يومي هذا وارجع إليّ غداً.

فرجعت إلى أخيه، فقال: يا عمرو، إني لأرجوا أن يسلم إن لم يضن بملكه. حتى إذا كان الغد أتيت إليه، فأبى أن يأذن لي، فانصرفت إلى أخيه، فأخبرته أني لم أصل إليه، فأوصلني إليه. فقال: إني فكرت فيما دعوتني إليه، فإذا أنا أضعف العرب إن ملكت رجلاً ما في يدي وهو لا تبلغ خيله ههنا، وإن بلغت خيله ألفت قتالا ليس كقتال من لاقى. قلت: فأنا خارج غدا، فلما أيقن بمخرجي خلا به أخوه، فقال: ما نحن فيما قد ظهر عليه، وكل من أرسل إليه قد أجابه، فأصبح، فأرسل إليّ، فأجاب إلى الإسلام هو وأخوه جميعاً، وصدقا النبي ﷺ وخليا بيني وبين الصدقة، وبين الحكم فيما بينهم، وكانا لي عوناً على من خالفني.

وفي حديث غير الواقدي أن عمراً قال له فيما دار بينهما من الكلام: إنك وإن كنت منا بعيداً فإنك من الله غير بعيد، إن الذي تفرد بخلقك أهل أن تفرده بعبادتك، وأن لا تشرك به من لم يشركه فيك، وأعلم أنه يميتك الذي أحياك، ويعيدك الذي أبدأك، فأنظر في هذا النبي الأمي الذي جاءنا بالدنيا والآخرة، فإن كان يريد به أجراً فامنعه، أو يميل به هوى فدعه، ثم انظر فيما

يجيء به، هل يشبه ما يجيء به الناس؟ فإنِ كان يشبهه فسله العيان وتخير عليه في الخبر، وإن كان لا يشبهه فاقبل ما قال، وخف ما وعد.

قال ابن الجلندي: إنه والله لقد دلني على هذا النبي الأمي أنه لا يأمر بخير إلا كان أول من أخذ به، ولا ينهي عن شر إلا كان أول تارك له، وأنه يغلب فلا يبطر، ويغلب فلا يضجر، وأنه يفي بالعهد، وينجز الموعود، وأنه لا يزال سر قد اطلع عليه يساوي فيه أهله، وأشهد أنه نبي.

***

كتاب رسول الله - ﷺ - إلى هوذة بن علي مع سليط بن عمرو العامري، وما كان من خبره معه(1)

ولما بعث رسول الله ﷺ رسله إلى الملوك يدعوهم إلى الله، بعث سليط بن عمرو إلى هوذة بن علي الحنفي صاحب اليمامة والمتوج بها وهو الذي يقول فيه الأعشي، ميمون بن قيس من كلمة:

إلى هوذة الوهاب أعلمت ناقتي أرجي عطاء فاضلاً من عطائكا
فلما أتت آطام جو وأهلها أنيخت وألقت رحلها بقبائكا
[الطويل]

وذكر الواقدي أن رسول الله ﷺ كتب إلى هوذة مع سليط حين بعثه إليه:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله، إلى هوذة بن علي، سلام على من اتبع الهدى، واعلم أن ديني سيظهر إلى منتهي الخف والحافر، فأسلم تسلم، وأجعل لك ما تحت يديك».

فلما قدم عليه سليط بكتاب النبي ﷺ مختوماً أنزله وحياه، واقترأ عليه الكتاب، فرد رداً دون رد، وكتب إليّ النبي ﷺ:

«ما أحسن ما تدعوا إليه وأجمله، وأنا شاعر قومي وخطيبهم، والعرب تهاب مكاني، فاجعل إليّ بعض الأمر أتبعك».

وأجاز سليطاً بجائزة، وكساه أثواباً من نسج هجر، فقدم بذلك كله على

(1) راجع: ابن سعد. الطبقات ج ١ ص ٢٦٢، اليعقوبي. التاريخ ج ٢ ص ٧٨، الطبري. التاريخ ج ٣ ص ٦٤٤، ٦٤٥، ابن حديدة. المصباح المضيء ج ٢ ص ٣٥٤ - ٣٥٩، ابن طولون. إعلام السائلين ص ١٠٥ - ١٠٧.

النبي ﷺ فأخبره، وقرأ النبي ﷺ كتابه، وقال: «لو سألني سبابة من الأرض ما فعلت، باد وباد ما في يده»، فلما انصرف النبي ﷺ من الفتح جاءه جبريل عليه السلام بأن هوذة مات، فقال رسول الله ﷺ: «أما إن اليمامة سيخرج بها كذاب يتنبأ، يقتل بعدي»، فقال قائل: يا رسول الله، فمن يقتله؟ فقال له رسول الله ﷺ: «أنت وأصحابك»، فكان من أمر مسيلمة وتكذبه ما كان، وظهر المسلمون عليه فقتلوه، وكان ذلك القائل من قتلته وفق ما قاله الصادق المصدوق صلوات الله وبركاته عليه.

وذكر وثيمة بن موسى أن سليط بن عمرو لما قدم على هوذة بكتاب رسول الله ﷺ// وكان كسرى قد توجه، وقال له: يا هوذة، إنه قد سودتك أعظم ١٠٩ ب
حائلة وأرواح في النار، وإنما السيد من متع الإيمان ثم زود التقوى، إن قوماً سعدوا برأيك، فلا تشقين به، وإني آمرك بخير مأمور به، وأنهاك عن شر منهي عنه، آمرك بعبادة الله، وأنهاك عن عبادة الشيطان، فإن في عبادة الله الجنة، وفي عبادة الشيطان النار، فإن قبلت نلت ما رجوت وأمنت ما خفت، وإن أبيت فبيننا وبينك كشف الغطاء وهو المطلع.

فقال هوذة: يا سليط، سودني من لو سودك شرفت به، وقد كان لي رأي اختبر به الأمور فقدته، فموضعه من قلبي هواء، فاجعل لي فسحة يرجع إليّ رأيي فأجيبك به إن شاء الله.

وقال هوذة في ذلك:

أتاني سليط بالحوادث جمة ... فقلت له: ماذا يقول سليط؟
فقال: التي فيها على غضاضة ... وفيها رجاء مطمع وقنوط
فقلت له: غاب الذي كنت أجتلي ... به الأمر عني، فالصعود هبوط
وقد كان لي[1] والله بالغ أمره ... أبا النصر جاش في الأمور ربيط
فأذهبه خوف النبيّ محمد ... فهوذة فيه في الرجال سقيط

---

١) في الأصل: «وقلت له».

فـأجمـع أمـري من يمـين وشمـأل كـأني ردود للنبـال لقيـط
وأذهب ذاك الرأي إذ قـال قـائـل أتـاك رسـول للنبي خبيـط
رسول رسـول الله راكـب نـاصح عليـه مـن اوبار الحجاز غبيـط
سكـرت ودبـت في المفـارق وسنـة لها نفس على الفـؤاد غطيـط
أحـاذر منـه سـورة هـائميـة فـوارسها وسـط الرجـال عبيـط
فلا تعجلني يـا سليـط فـإننـا نبـادر أمـراً والقضـاء محيـط

[الطويل]

وذكر الواقدي بإسناد له عن عبد الله بن مالك أنه قال: قدمت اليمامة في خلافة عثمان بن عفان، فجلست في مجلس لحجر، فقال رجل في المجلس: إني لعند ذي التاج الحنفي - يعني هوذة - يوم الفصح إذ جاء حاجبه، فاستأذن لأركون دمشق وهو عظيم من عظماء النصارى فقال: ائذن له، فدخل فرحب به وتحدثا، فقال الأركون: ما أطيب بلاد الملك|وأبرأها من الأوجاع. قال ذو التاج: هي أصح بلاد العرب، وهي زين بلادهم، قال الأركون: وما قرب محمد منكم؟ قال ذو التاج: هو بيثرب، وقد جاءني كتابه يدعوني إلى الإسلام فلم أجبه. قال الأركون: لم لا تجيبه؟ قال: ضننت بديني، وأنا ملك قومي، وإن تبعته لم أملك. قال: بلى، والله لئن اتبعته ليملكنك وإن الخيرة لك في اتباعه، وإنه للنبي العربي الذي بشر به عيسى ابن مريم، وإنه لمكتوب عندنا في الإنجيل: محمد رسول الله. قال ذو التاج: قد قرأت في الإنجيل ما تذكر. ثم قال الأركون: فما لك لا تتبعه؟ قال: الحسد له، والضن بالخمر وشربها. قال: فما فعل هرقل؟ قال: هو على دينه ويظهر لرسله أنه معه، وقد سبر أهل مملكته، فأبوا أشد الإباء، فضن بملكه أن يفارقه، قال ذو التاج: فما أراني إلا متبعه وداخلاً في دينه، فأنا في بيت العرب، وهو مقري على ما تحت يدي. قال البطريق: هو فاعل فاتبعه، فدعا رسولاً وكتب معه كتاباً، وسمي هدايا، فجاءه قومه فقالوا: تتبع محمداً وتترك دينك، لا تملكن علينا أبداً، فرفض الكتاب.

قال: فأقام الأركون عنده في حباء وكرامة، ثم وصله ووجه راجعاً إلى الشام.

قال الرجل: وتبعته حين خرج، فقلت:أحق ما اخبرت ذا التاج؟ قال: نعم والله، فاتبعه، قال: فرجعت إلى أهلي فتكلفت الشخوص إلى النبي ﷺ فقدمت عليه مسلماً، فأخبرته بكل ما كان، فحمد الله الذي هداني.

ولم يسم في حديث الواقدي هذا الرجل، إلا أن فيه أنه كان من طيء، ثم من بني نبهان.

وقد تقدم صدر هذا الكتاب أن عامر بن سلمة من بني حنيفة رأى رسول الله ﷺ ثلاثـة أعوام ولاء في الموسم بعكاظ وبمجنة وبذي المجاز يعرض نفسه على قبائل العرب، يدعوهم إلى الله وإلى أن ينصروه، حتى يبلغ عن الله فلا يستجيب له أحد، وإن هوذة بن علي سأل عامراً بعد انصرافه عن الموسم إلى اليمامة في أول عام عن ما كان في موسمهم من خبر، فأخبره خبر رسول الله ﷺ وأنه رجل من قريش، فسأله هوذة: من أي قريش هو؟ فقال له عامر: من أوسطهم نسبا، من بني عبد المطلب، قال هوذة: أهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب؟ فقال: هو هو، فقال هوذة: أما إن أمره سيظهر على ما هاهنا وغير ما هاهنا. ثم ذكر تكرر سؤال هوذة له عنه حتى ذكر له في السنة الثالثة أنه رآه وأمره قد أمر، فقال له هوذة: هو الذي قلت لك، ولو أنا اتبعناه لكان خيراً لنا، ولكنا نضن بملكنا.

وأخبر عامر بذلك كله سليط بن عمرو، وقد مر به منصرفاً عن هوذة إذ بعثه إليه رسول الله ﷺ فلم يسلم وأسلم عامر آخر حياة النبي ﷺ ومات هوذة كافراً على نصرانيته.

***

ذكر كتاب النبي - ﷺ - إلى الحارث بن أبي شمر الغساني مع شجاع بن وهب(١)

ذكر الواقدي أن رسول الله ﷺ بعث شجاعاً إلى الحارث بن أبي شمر، وهو بغوطة دمشق، فكتب إليه رسول الله ﷺ مرجعه من الحديبية.

«بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله، إلى الحارث بن أبي شمر، سلام على من اتبع الهدى وآمن به وصدق، وإني (أدعوك) إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له، يبق[١] لك ملكك».

فختم الكتاب، وخرج به شجاع بن وهب.

قال: فانتهيت إلى صاحبه، فأخذه يومئذ وهو مشغول بتهيئة الإنزال والألطاف لقيصر، وهو جاء من حمص إلى إيلياء، حيث كشف الله عنه جنود
فارس شكراً لله تعالى// قال: فأقمت على بابه يومين أو ثلاثة، فقلت لحاجبه: ١١٠ أ
إني رسول رسول الله ﷺ فقال حاجبه: لا تصل إليه حتى يخرج يوم كذا وكذا، وجعل حاجبه وكان رومياً اسمه مري يسألني عن رسول الله ﷺ وما يدعو إليه، فكنت أحدثه، فيرق حتى يغلبه البكاء، ويقول: إني قرأت في الإنجيل، وأجد صفة هذا النبي بعينه فكنت أراه يخرج بالشام، فأراه قد خرج بأرض القرظ، فأنا أؤمن به وأصدقه، وأنا أخاف من الحارث بن أبي شمر أن يقتلني.

---

١) في الأصل: «يبقى».

---

(١) راجع: ابن سعد. الطبقات ج ١ ص ٢٦١، اليعقوبي. التاريخ ج ٢ ص ٧٨، الطبري. التاريخ ج ٣ ص ٦٤٤ - ٦٥٢، السهيلي. الروض الأنف ج ٤ ص ٢٥٠ - ٢٥١، ابن حديدة. المصباح المضيء ج ٢ ص ٣١٤ - ٣١٦، ابن طولون. إعلام السائلين ص ١٠٢ - ١٠٤.

قال شجاع: فكان - يعني هذا الحاجب - يكرمني ويحسن ضيافتي ويخبرني عن الحارث باليأس منه، ويقول: هو يخاف قيصر.

قال: فخرج الحارث يوماً فجلس، فوضع التاج على رأسه، فأذن لي عليه، فدفعت إليه كتاب رسول الله ﷺ فقرأه، ثم رمى به، وقال: من ينتزع مني ملكي؟ أنا سائر إليه، ولو كان باليمن جئته، عليّ بالناس، فلم يزل جالساً بعرض حتى الليل، وأمر بالخيل أن تنعل، ثم قال: أخبر صاحبك بما ترى. وكتب إلى قيصر يخبره خبري، فصادف قيصر بإيلياء وعنده دحية الكلبي قد بعثه إليه رسول الله ﷺ فلما قرأ قيصر كتاب الحارث كتب إليه: أن لا تسر إليه واله عنه ووافني بإيلياء، قال: ورجع الكتاب وأنا مقيم، فدعاني وقال: متى تريد أن تخرج إلى صاحبك؟ قلت: غدا، فأمر بمائه مثقال، ووصلني مرى بنفقة وكسوة، وقال: إقرأ على رسول الله مني السلام، وأخبره أني متبع دينه.

قال شجاع: فقدمت على النبي ﷺ فأخبرته، فقال: باد ملكه، وأقرأته من مري السلام، وأخبرته بما قال، فقال رسول الله ﷺ: «صدق».

قال الواقدي: ومات الحارث بن أبي شمر عام الفتح، وكان نازلاً بجلق، ووليهم جبلة بن الأيهم، وكان ينزل الجابية، وكان آخر ملوك غسان، أدركه عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - بالجابية فأسلم، ثم أنه لاحى رجلاً من مزينة، فلطم عينه، فجاء به المزني إلى عمر - رضي الله عنه - وقال: خذ لي بحقي، فقال له عمر: الطم عينه، فأنف جبلة وقال: عيني وعينه سواء؟ قال عمر: نعم، فقال جبلة: لا أقيم بهذه الدار أبداً، ولحق بعمورية مرتداً، فمات هناك على ردته.

هكذا ذكر الواقدي أن توجه شجاع بن وهب بكتاب رسول الله ﷺ كان إلى الحارث بن أبي شمر، وكذلك قال ابن إسحاق.

وأما ابن هشام فقال: إنما توجه إلى جبلة بن الأيهم(١)، وقد قال ذلك غيره، فالله أعلم.

---

(١) ابن هشام. السيرة ج ٢ ص ٦٠٧، وراجع: ابن جماعة. المختصر الصغير ص ١٢٧.

وذكر بعض من وافق ابن هشام على أن الرسالة كانت إلى جبلة: أن شجاع بن وهب لما قدم عليه قال له:

«يا جبلة، إن قومك نقلوا هذا النبي الأمي من داره إلى دارهم - يعني الأنصار - فآووه ومنعوه، وإن هذا الدين الذي أنت عليه ليس بدين آبائك، ولكنك ملكت الشام وجاورت بها الروم، ولو جاورت كسرى دنت بدين الفرس لملك العراق، وقد أقر بهذا النبي الأمي من أهل دينك من إن فضلناه عليك لم يغضبك، وإن فضلناك عليه لم يرضك، فإن أسلمت أطاعتك الشام وهابتك الروم، وإن لم يفعلوا كانت لهم الدنيا ولك الآخرة، وكنت قد استبدلت المساجد بالبيع، والأذان بالناقوس، والجمع بالشعانين، والقبلة بالصليب، وكان ما عند الله خير وأبقى».

فقال له جبلة:

«إني والله لوددت أن الناس اجتمعوا على هذا النبي الأمي اجتماعهم على خلق السموات والأرض، ولقد سرني اجتماع قومي له، وأعجبني قتله أهل الأوثان واليهود واستبقاءه النصارى، ولقد دعاني قيصر إلى قتال أصحابه يوم مؤتة فأبيت عليه، فانتدب له مالك بن نافلة من سعد العشيرة، فقتله الله، ولكني لست أرى حقاً ينفعه ولا باطلاً يضره، والذي يمدني إليه أقوى من الذي يختلجني عنه، وسأنظر».

وأما توجه المهاجر بن أبي أمية بن المغيرة المخزومي، وهو شقيق أم سلمة زوج النبي ﷺ إلى الحارث بن عبد كلال، فلم أجد عند ابن إسحاق، ولا فيما وقع إليّ عن الواقدي شيئاً أنقله عنها سوى ما ذكر ابن إسحاق من توجيه رسول الله ﷺ إياه إلى الحارث بن عبد كلال ذكراً مقتصراً فيه على هذا القدر مختصراً من الإمتاع بما تحسن إضافته إلى ذلك من الوصف.

وتقدم لابن إسحاق في كتابه، وذكره - أيضاً - الواقدي أن رسول الله ﷺ

قدم عليه كتاب ملوك حمير مقدمه من تبوك، ورسولهم إليه بإسلامهم الحارث ابن عبد كلال ونعيم بن عبد كلال والنعمان قيل: ذي رعين ومعافر وهمدان، وبعث إليه زرعة ذي يزن مالك بن مرة الرهاوي بإسلامهم ومفارقتهم الشرك وأهله.

وقد كان رسول الله ﷺ في مسيره إلى تبوك يقول: إني بشرت بالكنزين: فارس والروم، وأمددت بالملوك: ملوك حمير، يأكلون فيء الله ويجاهدون في سبيل الله. فلما قدم عليه مالك بن مرة بإسلامهم، كتب إليهم:

«بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله النبي، إلى الحارث بن عبد كلال وإلى نعيم ابن عبد كلال وإلى النعمان قيل: ذي رعين ومعافر وهمدان.

أما بعد ذلكم، فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد، فإنه قد وقع بنا رسولكم منقلبنا من أرض الروم فلقينا بالمدينة، فبلغ ما أرسلتم به، وخبر ما قبلكم، وأنبأنا بإسلامكم وقتلكم المشركين، وأن الله قد هداكم بهداه. أن أصلحتم وأطعتم الله ورسوله وأقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وأعطيتم من المغانم خمس الله وسهم النبي وصفيه، وما كتب على المؤمنين من الصدقة وبين لهم صدقة الزرع والإبل والبقر والغنم، ثم قال:

فمن زاد خيراً فهو خير له، ومن أدى ذلك وأشهد على إسلامه وظاهر المؤمنين// على المشركين فإنه من المؤمنين، له ما لهم، وعليه ما عليهم، وله ذمة ١١٠ ب
الله وذمة رسوله، وأنه من أسلم من يهودي أو نصراني فإنه من المؤمنين، له مالهم، وعليه ما عليهم، ومن كان على يهوديته أو نصرانيته فإنه لا يرد عنها، وعليه الجزية على كل حالم ذكر أو أنثى حر أو عبد دينار واف من قيمة المعافر أو عوضه ثياباً، فمن أدى ذلك إلى رسول الله ﷺ فإن له ذمة الله وذمة رسوله، ومن منعه فإنه عدو لله ولرسوله.

أما بعد، فإن محمداً النبي أرسل إلى زرعة ذي يزن أن إذا أتاكم رسلي فأوصيكم بهم خيراً: معاذ بن جبل وعبد الله بن زيد ومالك بن عبادة وعقبة بن

نمر ومالك بن مرة وأصحابهم، وأن اجمعوا ما عندكم من الصدقة والجزية من مخالفيكم وأبلغوها رسلي، فإن أميرهم ابن جبل، فلا ينقلبن إلا راضياً.

أما بعد، فإن محمداً يشهد أن لا إله إلا الله وأنه عبده ورسوله.

ثم إن مالك بن مرة الرهاوي قد حدثني أنك قد أسلمت من أول حمير، وقتلت المشركين، فأبشر بخير، وآمرك بحمير خيراً، ولا تخاونوا ولا تخاذلوا فإن رسول الله هو مولى غنيكم وفقيركم، وإن الصدقة لا تحل لمحمد ولا لأهل بيته، وإنما هي زكاة يزكى بها على فقراء المسلمين وابن السبيل.

وإن مالكاً قد بلغ الخبر وحفظ الغيب، وآمركم به خيراً، وإني قد أرسلت إليكم من صالحي أهلي وأولي دينهم وأولي علمهم وآمركم بهم خيراً، فإنه منظور إليهم.

والسلام عليكم ورحمة الله».

فهذا ما ذكر ابن إسحاق من شأن ملوك حمير، وما كتبوا به، وكتب إليهم، وذكر الواقدي ـ أيضاً ـ نحوه.

ولا ذكر للمهاجر بن أبي أمية في شيء من ذلك إلا أن ابن إسحاق والواقدي ذكرا أن قدوم رسول ملوك حمير على رسول الله ﷺ كان مقدمه من تبوك، وذلك في سنة تسع، وتوجيه رسول الله ﷺ رسله إلى الملوك إنما كان بعد انصرافه عن الحديبية آخر سنة ست، فلعل المهاجر والله أعلم كان توجهه حينئذ إلى الحارث بن عبد كلال فصادف منه عامئذ تردداً واستنظاراً، ثم جلا الله عنه العمى فيما بعد، وأمر بهدايته فاستبان له القصد، فعند ذلك أرسل هو وأصحابه بإسلامهم إلى رسول الله ﷺ وبذلك يجتمع الأمران، ويصح الخبران، إذ لا خلاف بين أهل العلم بالأخبار والعناية بالسير أن ملوك حمير أسلموا وكتبوا بإسلامهم إلى رسول الله ﷺ كما أنه لا خلاف بينهم أيضاً في توجيه المهاجر بن أبي أمية إلى الحارث بن عبد كلال.

ويقول بعض من ذكر ذلك أن المهاجر لما قدم عليه قال له:

«يا حارث إنك كنت أول من عرض عليه النبي ﷺ نفسه فخطيت عنه، وأنت أعظم الملوك قدراً، فإذا نظرت في غلبة المَلوك فانظر في غالب الملوك، وإذا أسرك يومك فخف غدك، وقد كان قبلك ملوك ذهبت آثارها وبقيت أخبارها، عاشوا طويلاً وأملوا بعيداً وتزودوا قليلاً، منهم من أدركه الموت، ومنهم من أكلته النقم، وإني أدعوك إلى الرب الذي إن أردت الهدى لم يمنعك، وإن أرادك لم يمنعك منه أحد، وأدعوك إلى النبي الأمي الذي ليس شيء أحسن مما يأمر به ولا أقبح مما ينهي عنه، واعلم أن لك ربا يميت الحي ويحيي الميت، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور».

فقال الحارث:

«قد كان هذا النبي عرض نفسه عليّ، فخطيت عنه، وكان ذخراً لمن صار إليه، وكان أمره أمراً بسق، فحضره اليأس وغاب عنه الطمع، ولم تكن لي قرابة أحتمله عليها، ولا لي فيه هوى أتبعه له، غير أني أرى أمراً لم يؤسسه الكذب، ولم يسنده الباطل، له بدو سار وعافية نافعة، وسأنظر».

* * *

ذكر كتاب النبي - ﷺ - إلى فروة بن عمرو الجذامي ثم النفاثي، وما كان من تبرعه بالإسلام هداية من الله - عز وجل - له(١)

ذكر الواقدي بإسناد له أن فروة بن عمرو، هذا كان عاملاً لقيصر على عمان من أرض البلقاء وفي كتاب ابن إسحاق: معان وما حولها من أرض الشام وكان رسول الله ﷺ قد كتب إلى هرقل وإلى الحارث بن أبي شمر، ولم يكتب إليه، فأسلم فروة، وكتب إلى رسول الله ﷺ بإسلامه، وبعث من عنده رسولاً يقال له: مسعود بن سعد من قومه بكتاب مختوم فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم. لمحمد رسول الله النبي، إني مقر بالإسلام مصدق به، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وإنه الذي بشر به عيسى ابن مريم. والسلام عليك».

ثم بعث مع الرسول بغلة بيضاء يقال لها: فضة، وحماره يعفور، وفرساً يقال له: الظرب، وبعث بأثواب من لين، وقباء من سندس مخوص بالذهب، فقدم الرسول فدفع الكتاب إلى رسول الله ﷺ فاقترأه، وأمر بلالا أن ينزله ويكرمه، فلما أراد الخروج كتب إليه رسول الله ﷺ جواب كتابه:

«من محمد رسول الله، إلى فروة بن عمرو، سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد. فإنه قدم علينا رسولك بكتابك فبلغ ما أرسلت به، وخبر عن ما قبلكم، وأنبأنا بإسلامك، وإن الله عز وجل قد هداك بهداه أن

---

(١) راجع: ابن سعد. الطبقات ج ١ ص ١٦٢، ٢٨١، السهيلي. الروض الأنف ج ٤ ص ٢١٩ - ٢٢٠، ابن حديدة. المصباح المضيء ج ٢ ص ٣٣٣ - ٣٣٥.

أصلحت وأطعت الله ورسوله وأقمت على الصلاة وآتيت الزكاة، والسلام عليك».

ولما بلغ قيصر إسلام فروة بن عمرو بعث إليه فحبسه، ولما طال حبسه أرسلوا إليه أن ارجع إلي دينك ويعيد إليك ملكك، فقال: لا أفارق دين محمد أبداً، أما أنك تعرف أنه رسول الله، بشرك به عيسى ابن مريم، ولكنك ضننت بملكك وأحببت بقاءه. فقال قيصر: صدق والإنجيل.

وذكر الواقدي أنه مات في ذلك الحبس، فلما مات صلبوه.

وقال ابن إسحاق: إنهم صلبوه على ماء لهم يقال له عفراء بفلسطين.

قال: فلما اجتمعت الروم لصلبه قال:

// ألا هل أتى سلمى بأن حليلها   على ماء عفرا فوق إحدى الرواحل ١١١ أ
على ناقة لم يضرب الفحل أمها   مشذبة أطرافها بالمناجل

[الطويل]

وذكر ابن شهاب الزهري أنهم لما قدموه ليقتلوه قال:

أبلغ سراة المسلمين بأنني   سلم لربي أعظمي ومقامي

[الكامل]

ثم ضربوا عنقه وصلبوه على ذلك الماء، يرحمه الله.

قال ابن إسحاق: وقد كان تكلم على عهد رسول الله ﷺ الكذابان: مسيلمة ابن حبيب الحنفي باليمامة في بني حنيفة، والأسود بن كعب العنسي بصنعاء.

وذكر بإسناد له عن أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله ﷺ وهو يخطب الناس على منبره وهو يقول:

«يا أيها الناس، إني قد رأيت ليلة القدر، ثم أنسيتها، ورأيت في ذراعي سوارين من ذهب، فكرهتهما، فنفختهما فطارا، فأولتهما هذين الكذابين: صاحب اليمن، وصاحب اليمامة».

وعن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تقوم الساعة حتى يخرج ثلاثون دجالاً، كلهم يدعى النبوة».

قال ابن إسحاق: وكان رسول الله ﷺ قد بعث أمراءه وعماله على الصدقات إلى كل ما أوطأ الإسلام من البلدان، فبعث المهاجر بن أبي أمية بن المغيرة إلى صنعاء، فخرج عليه العنسي وهو بها، وبعث زياد بن لبيد أخا بني بياضة الأنصاري إلى حضرموت وعلى صدقاتها، وبعث عدي بن حاتم على طيء وصدقاتها، وعلى بني أسد، وبعث مالك بن نويرة اليربوعي على صدقات بني حنظلة، وفرق صدقة بني سعد على رجلين منهم، فبعث الزبرقان بن بدر على ناحية منها، وقيس بن عاصم على ناحية، وكان قد بعث العلاء بن الحضرمي على البحرين، وبعث علي بن أبي طالب إلى نجران ليجمع صدقاتهم ويقدم عليهم بجزيتهم.

وقد كان مسيلمة بن حبيب كتب إلى رسول الله ﷺ: «من مسيلمة رسول الله، إلى محمد رسول الله، سلام عليك، أما بعد. فإني قد أشركت في الأمر معك، وإن لنا نصف الأرض، ولقريش نصفها، ولكن قريشاً قوم يعتدون».

فقدم على رسول الله ﷺ بهذا الكتاب رسولان لمسيلمة، فقال لهما رسول الله ﷺ حين قرأ كتابه: «فما تقولان أنتما؟» قالا: «نقول كما قال»، فقال: «أما والله لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما». ثم كتب إلى مسيلمة:

«بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب، السلام على من اتبع الهدى، أما بعد:

فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين».

قال ابن إسحاق: وكان ذلك في آخر سنة عشر.

وقال أبو جعفر محمد بن جرير الطبري: وقد قيل: إن دعوى مسيلمة ومن أدعى من الكذابين النبوة في عهد رسول الله ﷺ إنما كانت بعد انصرافه من حجة التمام، ووقوعه في المرض الذي توفاه الله فيه، فالله تعالى أعلم[1].

* * *

(١) الطبري. التاريخ ج٣ ص١٣٧ ـ ١٣٨.

ذكر حجة الوداع[1]
وتسمى ـ أيضاً ـ حجة التمام، وحجة البلاغ

ولما دخل[2] على رسول الله ﷺ ذو القعدة من سنة عشر تجهز للحجّ، وأمر الناس بالجهاز له، وخرج لخمس ليال بقين من ذي القعدة، وقد كان أذن في الناس أنه خارج، فقدم المدينة بشر كثير، كلهم يلتمس أن يأتم برسول الله ﷺ ويعمل مثل عمله.

قال جابر بن عبد الله: فخرجنا معه حتى أتينا ذا الحليفة، فصلى رسول الله ﷺ في المسجد، ثم ركب القصواء حتى إذا استوت به ناقته على البيداء نظرت إلى مد بصري بين يديه من راكب وماش وعن يمينه مثل ذلك وعن يساره مثل ذلك ومن خلفه مثل ذلك، ورسول الله ﷺ بين أظهرنا، وعليه ينزل القرآن، وهو يعرف تأويله، وما عمل من شيء عملناه، فأهل بالتوحيد: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك». وأهل الناس بهذا الذي يهلون به، فلم يرد عليهم شيئاً منه، ولزم ﷺ تلبيته.

---

(١) عرفت بذلك لأنه عليه السلام لم يحج بعدها، إذ بدأ به مرضه الذي توفاه الله فيه، وقيل لها كذلك: حجة البلاغ، لأنه عليه السلام أرى الناس مناسكهم وعلمهم حجهم، وقيل: حجة الإسلام، لأنه عليه السلام لم يحج بعد أن فرض الحج في الإسلام غيرها. راجع: الواقدي. المغازي ج ٣ ص ١٠٨٨ ـ ١١١٥، ابن سعد. الطبقات ج ٢ ص ١٧٢ ـ ١٨٩، البخاري. الصحيح ج ٢ ص ٢٦٥ ـ ٢٨٠، مسلم الجامع الصحيح ج ٤ ص ٣٩٤ ـ ٤٣٠، اليعقوبي. التاريخ ج ٢ ص ١٠٩ ـ ١١٢، الطبري. التاريخ ج ٣ ص ١٤٨ ـ ١٥٢، ابن حبان. الثقات ج ٢ ص ١٢٤ ـ ١٢٩، ابن حزم. جوامع السيرة ص ٢٠٦ ـ ٢٠٧، حجة الوداع.

(٢) ابن هشام. السيرة ج ٢ ص ٦٠١.

وفي حديث عائشة أن رسول الله ﷺ لما خرج في حجة الوداع لم يكن يذكر ولا يذكر الناس إلا الحجّ، حتى إذا كان بسَرِف و[قد] ساق رسول الله ﷺ معه الهَدْي وأشراف من أشراف الناس، أمر الناس أن يُحلوا بعمرة، إلا من ساق الهَدْي.

وقال جابر في حديثه: لسنا ننوي إلا الحج، لسنا نعرف العمرة، حتى إذا أتينا البيت معه استلم الركن فَرَمل ثلاثا ومشى أربعا، ثم تقدم إلى مقام إبراهيم فقرأ: ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾ [البقرة: ١٢٥] فجعل المقام بينه وبين البيت، ثم رجع إلى الركن فاستلمه، ثم خرج من الباب إلى الصفا، فلما دنا من الصفا قرأ: ﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله﴾ [البقرة: ١٥٨] أبدأ بما بدأ الله به، فبدأ بالصفا، فرقى عليه حتى رأى البيت، فاستقبل القبلة، فوحد الله وكبره، وقال: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيءٍ قدير، لا إله إلا الله وحده، أنجز وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده». ثم دعا بين ذلك، قال مثل هذا ثلاث مرات، ثم نزل إلى الْمَرْوَة حتى انصبّت قدماه في بطن الوادي، حتى إذا صعدنا مشى حتى أتى المروة ففعل على المروة كما فعل على الصفا حتى إذا كان آخر طواف على المروة قال: لو أني استقبلت من أمري ما استدبرت، لم أسق الهدى ولجعلتها عمرة، فمن كان منكم ليس معه هدى فليحل وليجعلها عمرة. فقام سراقة [بن مالك] بن جعشم فقال: يا رسول الله، ألعامنا هذا أم لأبد؟ فشبك رسول الله ﷺ أصابعه واحدة في الأخرى، وقال: «دخلت العمرة في الحج ـ مرتين ـ بل لأبد الأبد».

وقدم علي من اليمن ببدن رسول الله ﷺ فوجد فاطمة ممّن حلّ ولبست ثياباً صبيغاً واكتحلت، فأنكر ذلك عليها، فقالت: إن أبي أمرني بهذا، قال: فكان عليٌ يقول بالعراق: فذهبت إلى رسول الله ﷺ مُحَرِّشاً على فاطمة للذي صنعت، مستفتياً له فيما ذَكَرَتْ عنه، فأخبرته أنّي أنكرت ذلك عليها، فقال: صدقت صدقت، ماذا قلت حين فرضت الحج؟ قال، قلت: اللهمّ إني أُهِلّ بما

أهَلّ به رسول الله ﷺ. قال: فإنَّ معي الهَدْي فلا تَحِلّ، فكان جماعة الهدي الذي قدم به علي من اليمن والذي أتى به النَبي ﷺ مائة.

قال: فحل الناس كلهم وقصروا إلا النبي ﷺ ومن كان معه هدي.

فلما كان يوم التروية توجهوا إلى منى فأهلوا بالحج، فركب رسول الله ﷺ فصلى بها الظهر والعصر// والمغرب والعشاء والفجر، ثم مكث قليلاً حتى طلعت ١١١ ب
الشمس، فأمر بقبة من شعر تضرب له بنمرة، فسار رسول الله ﷺ ولا تشك قريش إلا أنه واقف عند المشعر الحرام كما كانت قريش تصنع في الجاهلية، فأجاز رسول الله ﷺ حتى إذا أتى عرفة فوجد القبة قد ضربت له بنمرة، فنزل بها حتى إذا زاغت الشمس أمر بالقصواء فرحلت له، فأتى بطن الوادي، فخطب الناس.

قال ابن إسحاق(١): ومضى رسول الله ﷺ على حجِّه، فأرى الناس مناسكهم، وأعلمهم سُنَن حجِّهم، وخطب للناس خطبته التي بيَّن فيها ما بيَّن، فحمد الله وأثني عليه، ثم قال:

«أيها الناس، اسمعوا قولي، فإني لا أدري لعلّي لا ألْقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً، أيها الناس، إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام؛ إلى أن تلقوا ربكم، كحُرمة يومكم هذا، وكحرمة شهركم هذا، وإنكم ستلقون ربكم، فيسألكم عن أعمالكم، وقد بلغت، فمن كانت عنده أمانة فليؤدّها إلى مَنْ ائتمنه عليها، وإن كان رباً موضوع، ولكن لكم رءوس أموالكم، لا تَظلمون ولا تُظلمون. قضي الله أنه لا رباً وإن ربا عباس بن عبد المطلب موضوع كله، وأن كلّ دم كان في الجاهلية موضوع، وإنّ أول دمائكم أضع دمُ ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، وكان مُسترضعاً في بني ليث، فقتلته هُذَيْل، فهو أول ما أبدأ به من دماء الجاهلية.

---

(١) ابن هشام. السيرة ج ٢ ص ٦٠٣ - ٦٠٥.

أما بعد، أيها الناس، فإن الشيطان قد يَئِسَ من أن يُعْبد بأرضكم هذه أبداً، ولكنَّه إن يطع فيما سوى ذلك، فقد رضي به مما تَحْقِرون من أعمالكم، فاحذروه على دينكم.

أيها الناس: ﴿إنما النَّسيءُ زيادة في الكفر يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا، يُحِلُّونَهُ عاماً ويُحَرِّمُونَه عاماً، ليواطئوا عِدَّةَ ما حرم الله، فَيُحِلُّوا ما حرم الله﴾ [التوبة: ٣٧]، ويحرموا ما أحل الله، وإن الزَّمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، ﴿وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً [في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض[1]]، منها أربعة حرم﴾، [التوبة: ٣٦]. ثلاثة متوالية، ورجبُ مَضر الذي هو بين جُمادي وشعبان.

أما بعد، أيها الناس، فإن لكم علي نسائكم حقاً ولهن عليكم حقاً، لكم عليهن أن لا يُوطِئن فُرُشَكُمْ أحداً تكرهونه، وعليهنّ أن لا يأتين بفاحشة مبينة، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهّن في المضاجعُ وتضربوهنّ ضرباً غيرُ مُبَرِّح، فإن انتهينَ فلهنّ رزقهنّ وكسوتهن بالمعروف، واستوصوا بالنساء خيراً، فإنهنّ عندكم عَوَان لا يملكن لأنفسهن شيئاً، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمات الله، فاعقلوا أيها الناس قولي، فإني قد بلغتُ وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلُّوا أبداً، أمراً بيِّناً، كتاب الله وسنَّة نبيه.

أيها الناس، اسمعوا قولي واعقلوه، تعلَّمُنَ أن كلّ مسلم أخ للمسلم[2]، وأن المُسلمين إخوة، فلا يحلّ لامرىء من أخيه إلاّ ما أعطاه عن طِيب نفس منه؛ فلا تظلمن أنفسكم. اللهم هل بلغت؟ فذكر أن الناس قالوا: اللهم نعم، فقال رسول الله ﷺ: اللهم اشهد.

وفي حديث جابر، أن رسول الله ﷺ قال للناس في خطبته: «وأنتم تسألون عني، فما أنتم قائلون»؟ قالوا: «نشهد أنك قد بلَّغت وأدّيتَ ونَصحت». فقال

---

١) ما بين القوسين ساقط من الأصل.

٢) في الأصل: «أخ لمسلم».

بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكبها إلى الناس: «اللّهمَّ اشهد»، «اللّهمَّ اشهد» ثلاث مرات، ثم أذن، ثم أقام فصلى الظهر ثم أقام فصلى العصر، ولم يصل بينهما شيئاً، ثم ركب حتى أتى الموقف، فجعل بطن ناقته القصواء إلى الصخرات، وجعل جبل المشاة بين يديه. واستقبل القبلة، فلم يزل واقفا حتى غربت الشمس وذهبت الصفرة قليلاً حتى غاب القرص، وأردف أسامة بن زيد خلفه، ودفع وقد شنق القصواء الزمام حتى أن رأسها ليصيب مورك رحله، ويقول بيده اليمنى: أيها الناس، السكينة السكينة، كلما أتى جبلاً من الجبال أرخى لها قليلاً حتى تصعد، ثم أتى المزدلفة فصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين، ولم يسبح بينهما شيئاً، ثم اضطجع رسول الله ﷺ حتى طلع الفجر، فصلى الفجر حين تبين له الصبح بأذان وإقامة، ثم ركب القصواء حتى أتى المشعر الحرام، فاستقبل القبلة، فدعا الله وكبره وهلله ووحده، فلم يزل واقفاً حتى اصفر جداً، فدفع قبل أن تطلع الشمس وأردف الفضل بن عباس حتى أتى بطن محر، فحرك قليلاً، ثم سلك الطريق الوسطى التي تخرج على الجمرة الكبرى، حتى أتى الجمرة التي عند الشجرة فرماها بسبع حصات، يكبر مع كل حصاة منها، رمى من بطن الوادي، ثم انصرف إلى المنحر، فنحر ثلاثاً وستين بدنة بيده، ثم أعطى علياً فنحر ما غبروا شركة في هديه، ثم أمر من كل بدنة ببضعة، فجعلت في قدر فطبخت، فأكلا من لحمها وشربا من مرقها، ثم ركب رسول الله ﷺ إلى البيت فأفاض وصلى بمكة الظهر، فأتى بني عبد المطلب وهم يسقون على زمزم، فقال: «انزعوا يا بني عبد المطلب، فلولا أن يغلبكم الناس على سقايتكم لنزعت معكم»، فناولوه دلواً، فشرب منه.

ويروى أن ربيعة بن أمية بن خلف هو الذي كان يصرخ في الناس بقول رسول الله ﷺ وهو بعرفة، يقول له رسول الله ﷺ: قل: أيها الناس، إن رسول الله يقول: هل تدرون أي شهر هذا؟ فيقوله لهم، فيقولون: الشهر الحرام، فيقول لهم: إن الله قد حرم عليكم دماءكم وأموالكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة شهركم هذا، ثم يقول: قل: أيها الناس، إن رسول الله يقول: هل تدرون أي بلد هذا؟ قال: فيصرخ به، فيقولون: البلد الحرام، فيقول: قل لهم: إن الله قد حرم عليكم دماءكم وأموالكم إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة بلدكم هذا،

ثم يقول: قل: يا أيها الناس، إن رسول الله يقول: هل تدرون أي يوم هذا؟ فيقول لهم، فيقولون: يوم الحج الأكبر، فيقول: قل لهم: إن الله قد حرم عليكم دماءكم وأموالكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا.

وقال عمرو بن خارجة: وقفت تحت ناقة النبي ﷺ وإن لعابها ليقع على رأسي، ورسول الله ﷺ واقف بعرفة، فسمعته وهو يقول: أيها الناس، إن الله قد أدى إلى كل ذي حق حقه، فلا وصية لوارث، والولد للفراش، وللعاهر الحجر، ومن ادعى إلى غير أبيه أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة
والناس أجمعين، لا يقبل الله له// صرفاً ولا عدلا. ١١٢ أ

ولما وقف رسول الله ﷺ بعرفة قال: هذا الموقف للجبل الذي هو عليه، وكل عرفة موقف.

وقال حين وقف على قزح صبيحة المزدلفة: هذا الموقف، وكل المزدلفة موقف.

ثم لما نحر بالمنحر بمنى قال: هذا المنحر، وكل مني منحر.

فقضي رسول الله ﷺ الحج، وقد أراهم مناسكهم، وأعلمهم ما فرض عليهم من حجهم: من الموقف، ورمى الجمار، وطواف البيت، وما أحل لهم في حجهم، وما حرم عليهم، فكانت حجة البلاغ، وحجة الوداع، وذلك أن رسول الله ﷺ لم يحج بعدها.

* * *

ذكر مصيبة الأولين والآخرين من المسلمين بوفاة رسول الله ﷺ وعلى آله أجمعين

ولما قفل رسول الله ﷺ من حجة الوداع أقام بالمدينة بقية ذي الحجة والمحرم وصفراً، وضرب على الناس بعثاً إلى الشام، وهو البعث الذي أمرَّ عليه أسامة بن زيد، وأمره أن يوطيء الخيل تُخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين، فتجهز الناس، وأوعَب مع أُسامة المهاجرون الأولون، وكان آخر بعث بعثه رسول الله ﷺ فبينا الناس على ذلك ابتُديء صلوات الله عليه بشكوه الذي قبضه الله فيه إلى ما أراد به من رحمته وكرامته في ليال بقين من صفر أو في أول شهر ربيع الأول، فكان أول ما ابتُدِيء به رسول الله ﷺ فيما ذُكر أنه خرج إلى بقيع الغَرْقد من جوف الليل، فاستغفر لهم، ثم رجع إلى أهله، فلما أصبح ابتُدِيء بوجعه من يومه ذلك(1).

حدث أبو مُوَيْهبة مولى رسول الله ﷺ قال(2): بعثني رسول الله ﷺ من جوف الليل فقال: يا أبا مُوَيْهبة، إني قد أمرت أن أستغفر لأهل هذا البقيع فانطلق معي، فانطلقت معه، فلما وقف بين أظهرهم قال: السلام عليكم يا أهل المقابر، ليهنأ لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه، أقبلت الفتن كقِطَع اللَّيل المظلم، يتبع آخرُها أوّلها، الآخرة شر من الأولى؛ ثم أقبل عليّ فقال: يا أبا مُوَيْهبة، إني

(1) راجع: الزهري. المغازي النبوية ص ١٣٠ ـ ١٣١، ابن هشام. السيرة ج ٢ ص ٦٤٢ ـ ٦٤٩، البخاري. الصحيح ج ٦ ص ٣٢، ٣٥، ج ٧ ص ٢١٠، البلاذري. أنساب الأشراف ج ١، ص ٥٤٣ ـ ٥٤٥، الطبري. التاريخ ج ٣ ص ١٨٤، البيهقي. دلائل النبوة ج ٧ ص ١٧٣ ـ ١٧٤، ابن عبد البر. الاستيعاب ج ١ ص ٤٦ ـ ٤٧.

(2) ابن هشام. السيرة ج ٢ ص ٦٤٢، حماد بن إسحاق. تركة النبي ص ٥١ ـ ٥٢.

قد أُوتيت مفاتح خزائن الدنيا والخلد فيها، ثم الجنة، فخُيرت بين ذلك وبين لقاء ربي والجنة، فقلت: بأبي أنت وأمي فخذ مفاتح خزائن الدنيا والخلد فيها، ثم الجنة؛ قال: لا والله يا أبا مويهبة، لقد اخترت لقاء ربي والجنة. ثم استغفر لأهل البقيع، ثم انصرف، فبدأ به وَجَعُه الذي قبضه الله فيه.

وقالت عائشة[1] رضي الله عنها: رجع رسول الله ﷺ من البقيع، فوجدني وأنا أجد صُداعاً في رأسي، وأنا أقول: وارأساه، فقال بل أنا والله يا عائشة، وارأساه. قالت: ثم قال: وما ضَرّكِ لو مُتِّ قبلي، فقمتُ عليك وكفّنتك وصلّيت عليك ودفنتك؟ فقلت: والله لكأني بك لو قد فعلت ذلك لرجعت إلى بيتي فأعرست فيه ببعض نسائك، فتبسّم رسول الله ﷺ وتتام به وجعُه وهو يدور على نسائه، حتى استعز به وهو في بيت ميمونة، فدعا نساءه فاستأذنهن في أن يُمَرّض في بيتي، فأذِنَّ له.

وفي غير حديث عائشة أن نساءه ﷺ كنّ يومئذ تسعاً: عائشة بنت أبي بكر الصديق، وحفصة بنت عمر بن الخطاب، وأم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب، وأم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة، وزينب بنت جَحْش، وسودة بنت زَمعة القرشيات، وميمونة بنت الحارث بن حزن الهلالية، وجويرية بنت الحارث بن أبي ضرار المصطلقية، وصفيّة بنت حيي بن أخطب من بني النضير[2].

فهؤلاء التسع هن اللاتي توفي عنهن ﷺ وتوفى منهن قبله ـ عليه السلام ـ خديجة بنت خُوَيْلد، وزيرته على الإسلام وأم بنيه وبناته كلهم ما خلا إبراهيم فإنه لسُريته مارية القبطية، ولم يتزوج عليها رسول الله ﷺ حتى ماتت، وزينب بنت خزيمة من بني هلال بن عامر بن صعصعة: وكانت تسمى أم المساكين لرحمتها إياهم ورقتها عليهم، فزينب هذه وخديجة توفيتا قبله، وبهما كمل عدد من بني عليه رسول الله ﷺ من أزواجه ممن اتفق العلماء عليه إحدى عشرة امرأة، توفي منهن عن تسع كما ذكرنا.

---

(١) ابن هشام. السيرة ج ٢ ص ٦٤٣، الحاكم. المستدرك ج٣ ص٥٥ ـ ٥٦.

(٢) راجع: ابن جماعة. المختصر الصغير ص ٧٨ ـ ٩١.

وقد عقد ـ عليه السلام ـ على نساء غيرهن، فلم يبن في المشهور من أقاويل العلماء بواحدة منهن، فاستغنينا لذلك عن ذكرهن[1].

ونرجع الآن إلى حديث عائشة زوج النبي ﷺ لما استأذن أزواجه أن يمرض في بيتها فأذن له، قالت: فخرج رسول الله ﷺ يمشي بين رجلين من أهله، أحدهما الفضل بن عباس، ورجل آخر عاصباً رأسه تخطّ قدماه، حتى دخل بيتي.

وعن ابن عباس: أن الرجل الآخر هو عليّ بن أبي طالب[2].

ثم غمر رسول الله ﷺ واشتدّ به وجعه، فقال: هريقوا عليّ من سبع قِرَب من آبار شتى، حتى أخرج إلى الناس فأعهد إليهم. فأقعدناه في مِخْضب لحفصة بنت عمر، ثم صَبَبْنَا عليه الماء حتى طَفِق يقول: حسبكم حسبكم[3].

قال الزهري: [4]حدثني أبو أيوب بن بشير أن رسول الله ﷺ خرج عاصباً رأسه حتى جلس على المنبر، ثم كان أول ما تكلّم به أنه صلى على أصحاب أحُد واستغفر لهم فأكثر الصلاة عليهم، ثم قال: إن عبداً من عباد الله خَيّره الله بين الدنيا والآخرة، وبين ما عنده، فاختار ما عند الله، ففهمها أبو بكر وعرف أن نفسه يريد، فبكى وقال: بل نَفْديك بأنفسنا وأبنائنا، فقال: على رِسْلك يا أبا

---

(١) يبدو أن إحصاء أزواج النبي ﷺ مما لم تتفق المصادر عليه، للاضطراب في صحة زواجه ـ عليه السلام ـ ممن لم يدخل بهن.
فبينما يشير ابن أبي زيد القيرواني (الجامع ص ١٣٠) إلى أنه ﷺ تزوج بأربع عشرة أمرأة كلهن من العرب إلا صفية، يشير الطبري (التاريخ ج ٣ ص ١٦٠ ـ ١٦١) إلى أنه ـ عليه السلام ـ تزوج بخمس عشرة، وتوفي عن تسع.
على حين يذكر التقي الفاسي (العقد الثمين ج ١ ص ٢٧٣) أن أزواجه ـ عليه السلام ـ اللاتي عقد عليهن أو خطبهن أو عرضن عليه ولم يدخل بهن خمس وثلاثون.

(٢) ابن هشام. السيرة ج ٢ ص ٦٤٩.

(٣) نفسه.

(٤) نفسه ج٢ ص ٦٤٩، الدارمي. السنن ج١ ص ٣٦، حماد بن إسحاق. تركة النبي ص ٥٠ ـ ٥١، الطبري. التاريخ ج ٣ ص ١٩٠ ـ ١٩١، ابن حبان. الثقات ج ٢ ص ١٣٢، البيهقي. دلائل النبوة ج ٧ ص ١٧٤، ٢٣١، ٢٣٢، ابن كثير. البداية والنهاية ج ٥ ص ٢٢٩.

بكر، ثم قال: انظروا هذه الأبواب اللافظة في المسجد فسدُّوها إلا باب أبي بكر، فإني لا أعلم أحداً كان أفضل في الصحبة عندي يدا منه.

وفي رواية: فإني لو كنت متخذاً من العباد خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن صحبة وإخاء إيمان حتى يجمع الله بيننا عنده.

وعن عروة بن الزبير وغيره من العلماء(١) أن رسول الله ﷺ استبطأ الناس في بعث أسامة بن زيد وهو في وجعه، فخرج عاصباً رأسه حتى جلس على المنبر، وقد كان الناس قالوا في إمرة أسامة أمر غلاماً حَدَثاً على جِلَّة المهاجرين والأنصار. فحمد الله وأثنى عليه بما هو له أهل، ثم قال: أيها الناس، أنفذوا بعث أسامة،
١١٢ ب فلعَمري لئن قلتم في إمارته لقد قلتم في //إمارة أبيه من قبله، وإنه لخليق للإمارة وإن كان أبوه لخليق بها، ثم نزل رسول الله ﷺ وانكمش الناس في جهازهم، واستعز برسول الله ﷺ وجعه، فخرج أُسامة وخرج جيشه معه حتى نزلوا الجُرْف من المدينة على فَرسخ، فضرب به عسكره وتتامّ إليه الناس، وثقل رسول الله ﷺ فأقام أُسامة والناس لينظُروا ما الله قاضٍ في رسوله عليه السلام.

ومن حديث عبد الله بن كعب بن مالك(٢) أن رسول الله ﷺ أوصى بالأنصار يوم صلَّى واستغفر لأصحاب أحد، وذكر من أمرهم ما ذكر، فقال يومئذ: يا معشر المهاجرين، استوصُوا بالأنصار خيراً، فإن الناس يزيدون وإن الأنصار على هيئتها لا تزيد، وإنهم كانوا عَيبتي التي أويـت إليها، فأحسنوا إلى محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم، ثم نزل رسول الله ﷺ ودخل بيته وتتام به وجعُه حتى غُمِرَ.

وفي الصحيحين من حديث عبيد الله بن عبدالله أنه قال لعائشة رضي الله عنها: ألا تحديثني عن مرض رسول الله ﷺ؟ قالت: بلى، ثقل النبي ﷺ فقال: أصلي الناس؟ قلنا: لا، هم ينتظرونك يا رسول الله، قال: ضعوا لي ماءً في المخضب،

---

(١) ابن هشام. السيرة ج ٢ ص ٥٥٠.

(٢) نفسه ج ٢ ص ٦٥٠.

قالت: ففعلنا، فاغتسل ثم ذهب لينوي فأغمي عليه، ثم أفاق، فقال: أصلي الناس؟ قلنا: لا، هم ينتظرونك يا رسول الله، قال: ضعوا لي ماء في المخضب، قالت: فاغتسل ثم ذهب لينوي فأغمي عليه، ثم أفاق، فقال: أصلي الناس؟ قلنا: لا، هم ينتظرونك يا رسول الله، قال: ضعوا لي ماء في المخضب، فقعد فاغتسل ثم ذهب لينوي فأغمي عليه، ثم أفاق فقال: أصلي الناس؟ قلنا: لا، هم ينتظرونك يا رسول الله والناس عكوف في المسجد ينتظرون النبي ﷺ لصلاة العشاء الآخرة فأرسل النبي ﷺ إلى أبي بكر بأن يصلي بالناس، فأتاه الرسول فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تصلي بالناس، فقال أبو بكر وكان رجلاً رقيقاً: يا عمر صل بالناس، فقال له عمر: أنت أحق بذلك، فصلى أبو بكر تلك الأيام.

ومن حديث الأسود عن عائشة قالت: لما ثقل رسول الله ﷺ جاء بلال يؤذنه بالصلاة، فقال: مُرُوا أبا بكر فليصل بالناس. قالت: فقلت يا رسول الله، إن أبا بكر رجل أسيف وإنه متى يقم مقامك لا يسمع الناس، فلو أمرت عمر، فقال: مروا أبا بكر فليصلّ بالناس، قالت: فقلت لحفصة: قولي له: إن أبا بكر رجل أسيف وإنه متى يقم مقامك لا يسمع الناس، فلو أمرت عمر، فقالت له، فقال رسول الله ﷺ: إنكنّ لانتن صواحب يوسف، مروا أبا بكر فليصلّ بالناس، قالت: فأمروا أبا بكر، فلما دخل في الصلاة وجد رسول الله ﷺ من نفسه خفة، فقام يهادي بين رجلين ورجلاه تخطان في الأرض، فلما دخل المسجد وسمع أبو بكر حسه ذهب يتأخر، فأومأ إليه رسول الله ﷺ: أقم مكانك، فجاء رسول الله ﷺ حتى جلس عن يسار أبي بكر، فكان رسول الله ﷺ يصلي بالناس جالساً، وأبو بكر قائماً، يقتدي أبو بكر بصلاة رسول الله ﷺ ويقتدي الناس بصلاة أبي بكر.

وعن عبد الله بن زمعة بن الأسود(١) أنه كان عند رسول الله ﷺ في نفر من

---

(١) المصدر السابق ج٢ ص ٦٥٢.

المسلمين لما استُعِزّ به ودعاه بلال إلى الصلاة، فقال: مروا مَنْ يصلي بالناس، قال: فخرجت فإذا عمر في الناس، وكان أبو بكر غائباً، فقلت: قم يا عمر فصلّ بالناس، فقام، فلما كبر سمع رسول الله ﷺ صوته وكان عمر رجلا مِجْهَرا فقال رسول الله ﷺ: فأين أبو بكر؟ يأبى الله ذلك والمسلمون، يأبى الله ذلك والمسلمون، فبُعث إلى أبي بكر، فجاء بعد أن صلى عمر تلك الصلاة، فصلى أبو بكر بالناس يريد ما بعد من الصلوات، فقال لي عمر: ويحك، ماذا صنعت فيّ يا ابن زمعة والله ما ظننت حين أمرتني إلا أن رسول الله ﷺ أمرك بذلك، ولولا ذلك ما صليت بالناس. قلت: والله ما أمرني رسول الله ﷺ بذلك، ولكني حين لم أر أبا بكر رأيتك أحق من حضر بالصلاة للناس.

وعن أنس بن مالك قال: آخر نظرة نظرتها إلى رسول الله ﷺ كشف الستارة يوم الاثنين والناس صفوف في الصلاة، فنظر إلينا وهو قائم كأن وجهه ورقة مصحف، ثم تبسم رسول الله ﷺ ضاحكاً، فبهتنا ونحن في الصلاة من فرح بخروج النبي ﷺ ونكص أبو بكر على عقبه ليصل الصف، وظن أن رسول الله ﷺ خارج للصلاة، فأشار إليهم رسول الله ﷺ بيده أن أتموا صلاتكم، ثم دخل فأرخى الستر، فتوفي من يومه ذلك.

وفي (١) رواية عن أنس أن خروج رسول الله ﷺ إلى الناس كان وهم يصلون الصبح، وأنه لما رفع الستر وقام على باب عائشة، فكاد المسلمون يفتتنون في صلاتهم فرحا به حين رأوه، قال: وتبسّم رسول الله ﷺ سروراً لما رأى من هيئتهم في صلاتهم، وما رأيتُ رسول الله ﷺ أحسنَ هيئة منه تلك الساعة.

قال: ثم رجع، وانصرف الناس وهم يرون أن رسول الله ﷺ قد أفرق من وجعه.

وعن سعيد بن جبير قال: قال ابن عباس: يوم الخميس وما يوم الخميس، ثم بكى، حتى بل دمعه الحصا، قلت: يا ابن عباس، وما يوم الخميس؟ قال: اشتد

---

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ٦٥٣.

برسول الله ﷺ وجعه، فقال: ائتوني أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعدي، فتنازعوا وما ينبغي عند نبي تنازع وقالوا: ما شأنه، أهجر، استفهموه، قال: دعوني، فالذي أنا فيه خير، أوصيكم بثلاث، أخرجوا المشركين من جزيرة العرب، وأجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم. قال: وسكت عن الثالثة أو قالها فانسيتها.

وفي حديث عبيدالله بن عبدالله عن ابن عباس أن النبي ﷺ لما حضر وفي البيت رجال فيهم عمر بن الخطاب، قال النبي ﷺ: هلم أكتب لكم كتاباً لا
١١٣ أ تضلوا بعده، فقال عمر: إن رسول الله صلى الله// عليه وسلم قد غلب عليه الوجع، وعندكم القرآن، حسبنا كتاب الله. فاختلف أهل البيت، منهم من يقول: قوموا يكتب لكم رسول الله كتاباً لن تضلوا بعده، ومنهم من يقول ما قال عمر، فقال رسول الله ﷺ: قوموا، لما أكثروا اللغو والاختلاف عنده. قال: فكان ابن عباس يقول: إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله ﷺ وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب من اختلافهم ولغطهم.

وعن عبدالله بن مسعود قال: نعى إلينا نبينا وحبيبنا نفسه قبل موته بشهر، بأبي هو ونفسي له الفداء، فلما دنا الفراق جمعنا في بيت أمنا عائشة فنظر إلينا وتشدد ودمعت عيناه، وقال: مرحبا بكم، حياكم الله، رحمكم الله، آواكم الله، حفظكم الله، رفعكم الله، نفعكم الله، وفقكم الله، رزقكم الله، هداكم الله، نصركم الله، سلمكم الله، قبلكم الله، أوصيكم بتقوى الله، وأوصى الله عز وجل بكم واستخلفه عليكم، وأذكركم الله وأشهدكم أني لكم منه نذير وبشير أن لا تعلوا على الله في عباده وبلاده فإنه عز وجل قال لي ولكم: **﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين﴾** [الزمر: ٣٢]، وقال: **﴿أليس في جهنم مثوى للمتكبرين﴾** [٦٠: الزمر]، قلنا: متى أجلك يا رسول الله؟ قال: دنا الأجل والمنقلب إلى الله عز وجل وإلى سدرة المنتهى وإلى جنة المأوى والفردوس الأعلى والكأس الأوفى والعيش والحظ المهني. قلنا: فمن يغسلك يا رسول الله؟ قال: رجال أهل بيتي الأدنى فالأدنى، قلنا: ففيم

نكفنك يا رسول الله؟ قال: في ثيابي هذه إن شئتم أو في بياض مصر أو حلة يمانية، قلنا: فمن يصلي عليك يا رسول الله؟ قال: فبكى وبكينا، فقال: مهلاً غفر الله لكم وجزاكم عن نبيكم خيراً إذا أنتم غسلتموني وكفنتموني فضعوني على شفير قبري ثم اخرجوا عني ساعة، فإن أول من يصلي على خليلي وجليسي جبريل، ثم ميكائيل، ثم إسرافيل، ثم ملك الموت مع جنوده بأجمعهم مع الملائكة عليهم السلام، ثم ادخلوا على أفواجاً فصلوا علي وسلموا تسليماً، ولا يؤمكم أحد ولا تؤذوني بتزكية ولا نصيحة ولا برنة، واقرءوا أنفسكم مني السلام، ومن كان غائباً من أصحابي فأبلغوه عني السلام،وأشهدكم أني قد سلمت على من دخل في الإسلام وعلى من تابعني على ديني من اليوم إلى يوم القيامة. قلنا: فمن يدخلك قبرك يا رسول الله؟ قال: رجال أهل بيتي الأدنى فالأدنى مع ملائكة كثير يرونكم من حيث لا ترونهم.

وعن الفضل بن عباس أن رسول الله ﷺ قال له وهو موعوك قد عصب رأسه: خذ بيدي. قال: فأخذت بيده حتى جلس على المنبر، ثم قال: ناد في الناس. فصحت في الناس، فاجتمعوا إليه، فقال: أما بعد، أيها الناس، فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو، وإنه قد دنا مني خفوف من بين أظهركم، فمن كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهري فليستقد منه، ومن كنت شتمت له عرضاً فهذا عرضي فليستقد منه، ومن كنت أخذت له مالاً فهذا مالي فليأخذ منه، ولا يقل رجل: إني أخشى الشحناء من قبل رسول الله ﷺ ألا وإن الشحناء ليست من طبيعتي، ولا من شأني، ألا وإن أحبكم إليّ من أخذ مني حقاً إن كان له أو حللني، فلقيت الله عز وجل وأنا طيب النفس، وقد أرى أن هذا غير مغن عني حتى أقوم فيكم مراراً. قال الفضل: ثم نزل فصلى الظهر، ثم رجع فجلس على المنبر فعاد لمقالته الأولى في الشحناء وغيرها، فقام رجل فقال: يا رسول الله، إن لي عندك ثلاثة دراهم، فقال: أما إنا لا نكذب قائلاً، ولا نستحلفه على يمين، فيم كانت لك عندي؟ فقال: يا رسول الله، أتذكر يوم مر بك المسكين فأمرتني فأعطيته ثلاثة دراهم؟ فقال: أعطه يا فضل، ثم قال:

أيها الناس، من كان عنده شيء فليرده ولا يقل رجل: فضوح الدنيا، ألا وإن فضوح الدنيا أيسر من فضوح الآخرة. فقام رجل فقال: يا رسول الله، عندي ثلاثة دراهم غللتها في سبيل الله، قال: ولم غللتها؟ قال: كنت إليها محتاجاً، قال: خذها منه يا فضل، ثم قال: من خشي من نفسه شيئاً فليقم أدع له، فقام رجل فقال: يا رسول الله، إني لكذوب، وإني لفاحش، وإني لنؤم. فقال: اللهم ارزقه الصدق وأذهب عنه النوم إذا أراد. ثم قام رجل فقال: والله يا رسول الله إني لكذاب وإني لمنافق وما شيء أو إن شيء إلا قد جئته. فقام عمر بن الخطاب فقال: فضحت نفسك أيها الرجل، فقال النبي ﷺ: يا ابن الخطاب، فضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة، اللهم ارزقه صدقاً وإيماناً وصير أمره إلى خير. فقال عمر كلمة، فضحك رسول الله ﷺ ثم قال: عمر معي وأنا مع عمر والحق بعدي مع عمر حيث كان.

وعن عائشة أن رسول الله ﷺ كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذات وينفث، قالت: فلما اشتد وجعه كنت أنا أقرأ عليه وأمسح عنه بيمينه رجاء بركتها.

وعنها قالت: ما رأيت الوجع على أحد أشد منه على رسول الله ﷺ ولا أغبط أحداً بهون موت بعد الذي رأيت من شدة موت رسول الله ﷺ.

وقالت رضي الله عنها: رأيت رسول الله ﷺ وهو بالموت وعنده قدح فيه ماء وهو يدخل يده في القدح ثم يمسح وجهه ﷺ بالماء، ثم يقول: اللهم أعني على منكرات الموت أو سكرات الموت.

وعنها، وعن عبد الله بن عباس ـ أيضاً ـ قالا: لما نزل برسول الله ﷺ طَفِقَ يلقي خَمِيصَةً على وجهه، فإذا اغتم كشفها عن وجهه، فقال وهو كذلك: لعنة الله على اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد. يحذرهم مثل ما صنعوا(١).

(١) المصدر السابق ج٢ ص ٦٦٥.

وعن أسامة بن زيد قال(١): لما ثَقُل النبي ﷺ هبطتُ وهبط الناس معي إلى المدينة ـ يعني الجيش الذي كان تهيأ للخروج معه في بعثه ـ قال: فدخلت على رسول الله ﷺ وقد أُصْمِتَ فلا يتكلَّم، وجعل يَرْفع يديه إلى السماء ثم يَضعهما عليّ. أعرف أنه يدعو لي.

١١٣ ب وذكر ابن إسحاق(٢): من حديث أبي بكر بن عبد الله بن أبي مليكة أن/ مما تكلم به رسول الله ﷺ للناس يوم صلى قاعداً عن يمين أبي بكر أن قال لهم لما فرغ من الصلاة وأقبل عليهم فكلَّمهم رافعاً صوته حتى خرج صوته من باب المسجد، يقول: يا أيها الناس، سُعِّرت النار، وأقبلت الفتن كقطع الليل المظلم، إني والله ما تَمَسَّكون عليّ بشيء، إني لم أُحِلَ إلا ما أحل القرآن، ولم أُحَرّم إلا ما حرَّم القرآن.

قال: فلما فرغ رسول الله ﷺ من كلامه قال له أبو بكر: يا رسول الله، إني أراك قد أصبحت بنعمة من الله وفضل كما نُحبّ، واليوم يوم بنت خارجة، أفآتيها؟ قال: نعم، ثم دخل رسول الله ﷺ وخرج أبو بكر إلى أهله بالسُّنْح.

وعن عبد الله بن عباس قال(٣): خرج ـ يومئذ ـ عليّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ على الناس من عند رسول الله ﷺ فقال له الناس: يا أبا حسن، كيف أصبح رسول الله ﷺ؟ قال: أصبح بحمد الله بارئاً. قال: فأخذ العبَّاس بيده، ثم قال: يا عليّ، أنت والله عبدُ العصا، بعد ثلاث مرات، أحلف بالله لقد رأيت الموت في وجه رسول الله ﷺ كما كنت أعرفه في وجوه بني عبد المطلب، فانطلق بنا إلى رسول الله ﷺ فإن كان هذا الأمر فينا عرفناه، وإن كان في غيرنا أمرناه فأوصى بنا الناس. فقال علي: إني والله لا أفعل، والله لئِن منعناه لا يؤتيناه أحد بعده، فتوفى رسول الله ﷺ حين اشتدّ الضَّحى من ذلك اليوم.

---

(١) المصدر السابق ج٢ ص ٦٥١.

(٢) نفسه ج ٢ ص ٦٥٣ ـ ٦٥٤.

(٣) نفسه ج ٢ ص ٦٥٤.

وقالت عائشة(١) رضي الله عنها: رجع رسول الله ﷺ في ذلك اليوم حين دخل المسجد فاضطجع في حجري، فدخل عليَّ رجل من آل أبي بكر وفي يده سواك أخضر، فنظر إليه رسول الله ﷺ في يده نظراً عرفت أنه يريده، فقلت: يا رسول الله، أتحبّ أن أعطيك هذا السِّواك؟ قال: نعم، قالت: فأخذته فمضغته له حتى ليَّنته، ثم أعطيته إياه؛ قالت: فاستن به كأشّد ما رأيته استنَّ بسواك قط، ثم وضعه؛ ووجدت رسول الله ﷺ يثقل في حجري، فذهبت أنظر في وجهه، فإذا بصره قد شَخَص وهو يقول: بل الرفيق الأعلى من الجنة؛ قالت: فقلت: خُيِّرت فاخترت والذي بعثك بالحق.

وقالت: كان ـ عليه السلام ـ كثيراً ما أسمعه يقول: إن الله لم يقبض نبياً حتى يُخيِّره، فلما حُضر كان آخر كلمة سمعتها منه وهو يقول: بل الرّفيق الأعلى من الجنة. فقلت: إذاً والله لا يختارنا، وعرفت أنه الذي كان يقول لنا: إن نبياً لم يُقبض حتى يُخيَّر(٢).

قالت: وقبض رسول الله ﷺ.

وعن أنس بن مالك قال: لما وجد رسول الله ﷺ من كرب الموت ما وجد قالت فاطمة، واكرباه لكربك يا أبة، فقال النبي ﷺ: لا كرب على أبيك بعد اليوم، إنه قد حضر من أبيك ما ليس بتارك منه أحداً لموافاة يوم القيامة.

وقالت عائشة رضي الله عنها : كان آخر ما عهد رسول الله ﷺ أن قال: [لا] يترك بجزيرة العرب دينان.

وقالت أم سلمة: كان عامة وصية رسول الله ﷺ عند موته: الصلاة وما ملكت أيمانكم، حتى جعل يلجلجها في صدره، وما يقبض بها لسانه.

وقال أنس بن مالك: شهدته يوم توفي ﷺ فلم أر يوماً كان أقبح منه.

---

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ٦٥٤ ـ ٦٥٥.

(٢) البخاري. الصحيح ج ٦ ص ٣٠ ـ ٣١، ٣٥، ٣٨، ٣٩، البلاذري. أنساب الأشراف ج ١ ص ٥٤٧ ـ ٥٤٩.

وقالت عائشة(١): توفي ﷺ بين سَحْري ونحري، وفي دَوْلتي، لم أظلم فيه أحداً، فمِنْ سَفهي وحَدَاثة سِّني أن رسول الله ﷺ قبض وهو في حِجري، ثم وضعت رأسَه على وسادة، وقمت الْتَدم مع النساء، وأضرب وجهي.

واختلف أهل العلم بهذا الشأن في اليوم الذي توفي فيه رسول الله ﷺ من الشهر بعد اتفاقهم على أنه توفي يوم الاثنين في شهر ربيع الأول.

فذكر الواقدي وجمهور الناس أنه توفي يوم الاثنين لاثنتي عشرة خلت من ربيع الأول لتمام عشر سنين من مقدمه المدينة، وهذا لا يصح، وقد جرى فيه على العلماء من الغلط ما علينا بيانه، وذلك أن المسلمين قد أجمعوا على أن وقفة النبي ﷺ بعرفة في حجة الوداع كانت يوم الجمعة تاسع ذي الحجة من سنة عشر، فاستهل هلال ذي الحجة على هذا ليلة الخميس، ثم لا يخلو شهر ذي الحجة والمحرم بعده من سنة إحدى عشرة ثم صفر بعده أن تكون هذه الأشهر الثلاثة كاملة كلها أو ناقصة كلها، أو اثنان منها كاملين وواحد ناقصاً، أو اثنان منها ناقصين وواحد كاملاً، وأيا ما قدرت من ذلك واعتبرته لم تجد الثاني عشر من ربيع الأول يكون يوم الاثنين أصلاً.

وذكر أبو جعفر الطبري(٢) بإسناد يرفعه إلى فقهاء أهل الحجاز، قالوا: قبض رسول الله ﷺ نصف النهار يوم الاثنين لليلتين مضتا من شهر ربيع الأول. وهذا القول وإن خالف ما ذكره جمهور العلماء فإنه أولى بالصواب، وأمكن أن يكون حقاً، فإنه إن كانت الأشهر الثلاثة كل شهر منها من تسعة وعشرين يوماً كان استهلال شهر ربيع الأول على ذلك بالأحد فكان يوم الاثنين ثانية.

وقد حكي الخوارزمي أنه ﷺ توفي أول يوم من شهر ربيع الأول، وهذا ـ أيضاً ـ أمكن وأكثر، إذ اتصال النقص في ثلاثة أشهر لا يكون إلا قليلاً، والله تعالى أعلم.

---

(١) ابن هشام. السيرة ج ٢ ص ٦٥٥.

(٢) الطبري. التاريخ ج٣ ص ٢٠٠.

ولما تُوفي رسول الله ﷺ وارتفعت الرنة عليه وسجته الملائكة دهش الناس ـ كما روي عن غير واحد من الصحابة ـ وطاشت عقولهم، وافحموا، واختلطوا، فمنهم من خبل، ومنهم من أصمت، ومنهم من أقعد إلى الأرض، فكان عمر ـ رضي الله عنه ـ ممن خبل، فجعل يصيح ويقول: إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله ﷺ تُوفي وإنه والله ما مات، ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع إليهم بعد أن قيل: قد مات، والله ليرجعَنّ رسولُ الله ﷺ كما رجَع موسى، فلَيقطعن أيدي رجال وأرجلهم زعموا أن رسول الله ﷺ مات.

وأما عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ فأخرس حتى جعل يذهب به ويجاء ولا يتكلم.

واقعد علي ـ رضي الله عنه ـ فلم يستطع حراكاً.

وأضني عبد الله بن أنيس.

وبلغ الخبر أبا بكر ـ رضي الله عنه ـ وهو بالسُّنْح فجاء وعيناه تهملان وزفراته تتردد في صدره وغصصه ترتفع كقطع الحرة وهو في ذلك ـ رضوان الله عليه ـ جلد العقل والمقالة، حتى دخل على رسول الله ﷺ فأكب عليه وكشف عن
وجهه ومسحه وقبل // جبينه وجعل يبكي ويقول: بأبي أنت وأمي طبت حياً ١١٤ أ
وميتاً، ولنقطع لموتك ما لم ينقطع لموت أحد من الأنبياء من النبوة، فعظمت عن الصفة، وجللت عن البكاء، وخصصت حتى صرت مسلاة، وعممت حتى صرنا فيك سواء، ولولا أن موتك كان اختياراً لجدنا لموتك بالنفوس، ولولا أنك نهيت عن البكاء لانفذنا عليك ماء الشون، فأما ما لا نستطيع نفيه عنا فكمد وأدناف يتخالفان لا يبرحان، اللهم فأبلغه عنا، اذكرنا يا محمد عند ربك ولنكن من بالك، فلولا ما خلفت من السكينة لم نقم لما خلفت من الوحشة، اللهم أبلغ نبيك عنا واحفظه فينا. ثم خرج إلى الناس وهم في عظيم غمراتهم وشديد سكراتهم فقام فيهم بخطبة جلها الصلاة على النبي ﷺ وقال فيها:

أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وخاتم أنبيائه، وأشهد أن الكتاب كما نزل وأن الدين كما شرع، وأن الحديث كما حدث، وأن القول كما قال، وأن الله هو الحق المبين... في كلام طويل، ثم قال:

أيها الناس، من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، وإن الله قد تقدم إليكم في أمره فلا تدعوه جزعاً، قال الله تبارك وتعالى: ﴿**وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل، افائِنْ مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين**﴾ [آل عمران: ١٤٤]. وإن الله سبحانه قد اختار لنبيه ﷺ ما عنده على ما عندكم، وقبضه إلى ثوابه، وخلف فيكم كتابه وسنة نبيه، فمن أخذ بهما عرف ومن فرق بينهما أنكر، ﴿**يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط**﴾ [النساء: ١٣٥] ولا يشغلنكم الشيطان بموت نبيكم، ولا يلفتنكم عن دينكم، فعاجلوا الشيطان بالخزي تعجزوه ولا تستنظروه فليلحق بكم.

فلما فرغ من خطبته التفت إلى عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ فقال: يا عمر، أنت الذي بلغني عنك أنك تقول على باب النبي ﷺ: والذي نفس عمر بيده ما مات نبي الله أما علمت أن رسول الله ﷺ قال يوم كذا: كذا وكذا، وقال يوم كذا: كذا وكذا، وقال الله تعالى في كتابه: ﴿**إنك ميت وإنهم ميتون**﴾. [٣٠: الزمر]. فقال عمر: والله لكأني لم أسمع بها في كتاب الله تعالى قبل ذلك لما نزل بنا، أشهد أن الكتاب كما نزل وأن الحديث كما حدث وأن الله تبارك وتعالى حي لا يموت، صلوات الله على رسوله، وعند الله نحتسب رسوله.

وفي بعض سياق هذا الخبر أن أبا بكر ـ رضي الله عنه ـ لما دخل على رسول الله ﷺ في بيت عائشة ورسول الله ﷺ مسجي في ناحية البيت عليه برد حبرة، أقبل حتى كشف عن وجه رسول الله ﷺ ثم أقبل عليه فقبّله، ثم قال: بأبي أنت وأمي، أما الموتة التي كتبها الله عليك فقد ذقتها، ثم لن تصيبك بعدها موتة أبداً، ثم ردّ البُرْد على وجه رسول الله ﷺ ثم خرج وعمر يكلّم الناس، فقال:

يا عمر، أنصِت. فأبى إلا أن يتكلّم، فلما رآه أبو بكر لا يُنصت أقبل يكلم الناس، فلما سمع الناس كلام أبي بكر أقبلوا عليه وتركوا عمر؛ فحمد الله أبو بكر وأثنى عليه، ثم قال:

يا أيها الناس، إنه من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حيّ لا يموت، ثم تلا هذه الآية: ﴿وما مُحمّدٌ إلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِه الرُّسل افائن ماتَ أوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُم على أعقابِكُمْ...﴾ [آل عمران: ١٤٤] إلى آخر الآية.

قال: فوالله لكأن الناس لم يعلموا أن هذه الآية نزلت حتى تلاها أبو بكر يومئذ؛ وأخذها الناس عن أبي بكر، فإنما هي في أفواههم.

وقال عمر رضي الله عنه: والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها، فعقرت حتى وقعت إلى الأرض، ما تحمِلُني رجلاي، وعرفت أن رسول الله ﷺ قد مات[1].

وقال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ فيما كان منه يومئذ:

لعمري لقد أيقنت أنك ميت ... ولكنما أبدي الذي قلته الجزع
وقلت يغيب الوحي عنا لفقده ... كما غاب موسى ثم يرجع كما رجع
وكان هواي أن تطول حياته ... وليس لحي في بقا ميت طمع
فلما كشفنا البرد عن حر وجهه ... إذا الأمر بالجدع الموعب قد وقع
فلم تك لي عند المصيبة حيلة ... أرد بها أهل الشماتة والقذع
سوى إذن الله الذي في كتابه ... وما أذن الله العباد به يقع
وقد قلت من بعد المقالة قولة ... لها في حلوق الشامتين به بشع
ألا إنما كان النبي محمد ... إلى أجل وافي به الموت فانقطع
ندين على العلات منا بدينه ... ونعطي الذي أعطى ونمنع ما منع
ووليت محزوناً بعين سخينة ... أكفكف دمعي والفؤاد قد أنصدع

(١) ابن هشام. السيرة ج ٢ ص ٦٥٥ ـ ٦٥٦.

وقلت لعيني كل دمع ذخرته   فجودي به إن الشجي له دفع

[الطويل]

وذكر ابن إسحاق بإسناد يرفعه إلى عبد الله بن عباس قال: إني لأمشي مع عمر في خلافته وهو عامد إلى حاجة له، وفي يده الدرّة ما معه غيري، وهو يحدّث نفسه ويضرب وخشي قدمه بدرته إذ التفت إليّ فقال: يا ابن عباس، هل تدري ما حملني على مقالتي التي قلتُ حين توفي الله رسوله ﷺ؟ قال: قلت: لا أدري يا أمير المؤمنين؛ أنت أعلم. قال: فإنه والله، إن حملني على ذلك إلا أني كنت أقرأ هذه الآية: ﴿وكذَلِكَ جَعَلْناكُمْ أُمَّةً وسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ على النَّاسِ ويَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهيداً﴾ (١٤٣: البقرة)، فوالله إن كنت لأظن أن رسول الله ﷺ سيبقى في أُمّتِه حتى يشهد عليها بآخر أعمالها، فإنه للذي حملني على أن قلت ما قلت.

وذكر موسى بن عقبة أن المقام الذي قام به أبو بكر -رضي الله عنه- بعد وفاة رسول الله ﷺ وبعد الذي كان من عمر من القول هو أنه خرج سريعا إلى المسجد من بيت رسول الله ﷺ يتوطأ رقاب الناس حتى جاء المنبر وعمر يكلم الناس ويوعد من زعم أن رسول الله ﷺ مات، فجلس عمر حين رأي أبا بكر مقبلاً، فقام أبو بكر على المنبر فنادى الناس أن اجلسوا وأنصتوا، فتشهد بشهادة الحق، ثم قال: إن الله قد نعى نبيكم لنفسه وهو حي بين أظهركم، ونعى لكم أنفسكم، فهو الموت حتى لا يبقى أحد إلا الله، يقول الله عز وجل: ﴿وما محمد
١١٤ ب إلا رسول قد خلت من قبله الرسل // افائن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين﴾ [١٤٤: آل عمران].

وقال: ﴿إنك ميت وإنهم ميتون﴾ [٣٠: الزمر].

وقال: ٧٧ ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾ [١٨٥: آل عمران، ٣٥: الأنبياء، ٥٧: العنكبوت].

وقال: ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾ [٨٨: القصص].

وقال: ﴿كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام﴾ [٢٦ : الرحمن].

ثم قال: إن الله عمر محمداً وأبقاه حتى أقام دين الله وأظهر أمر الله وبلغ رسالة الله وجاهد أعداء الله حتى توفاه الله ـ صلوات الله عليه ـ وهو على ذلك وتركتم على الطريقة، فلا يهلك هالك إلا من بعد البينة، فمن كان الله ربه فإن الله حي لا يموت فليعبده، ومن كان يعبد محمداً أو يراه إلهاً فقد هلك إلهه، فأفيقوا أيها الناس واعتصموا بدينكم وتوكلوا على ربكم، فإن دين الله قائم، وإن كلمته باقية، وإن الله ناصر من نصره ومعز دينه، وإن كتاب الله بين أظهرنا هو النور والشفاء وبه هدى الله محمداً، وفيه حلال الله وحرامه، لا والله ما نبالي من أجلب علينا من خلق الله، إن سيوف الله لمسلولة ما وضعناها بعد، ولنجاهدن من خالفنا كما جاهدنا مع رسول الله ﷺ فلا يبقين أحد إلا على نفسه.

ثم انصرف وانصرف المهاجرون معه.

* * *

بيعة أبي بكر -رضي الله عنه -وما كان من تحيز الأنصار إلى سعد بن عبادة في سقيفة بني ساعدة، ومنتهى أمر المهاجرين معهم

قال ابن إسحاق(١): ولما قُبِض رسول الله ﷺ انحاز هذا الحيُّ من الأنصار إلى سعد بن عُبادة في سقيفة بني ساعدة، واعتزل عليّ بن أبي طالب والزُّبير بن العوّام وطلحة بن عُبيد الله في بيت فاطمة، وانحاز بقيَّة المهاجرين إلى أبي بكر، وانحاز معهم أُسَيد بن حُضَير في بني عبد الأشهل، فأتى آت إلى أبي بكر فقال: إن هذا الحيّ من الأنصار مع سعد بن عُبادة في سقيفة بني ساعدة قد انحازوا إليه، فإن كان لكم بأمر الناس حاجة فأدركوا الناس من قبل أن يتفاقم أمرُهم ورسولُ الله ﷺ في بيته لم يُفرغ من أمره قد أغلق دونه البابَ أهلُه. قال عمر: فقلت لأبي بكر: انطلق بنا إلى إخواننا هؤلاء من الأنصار حتى ننظر ما هم عليه. قال: وكان من حديث السقيفة حين اجتمعت بها الأنصار أن عبد الله بن عباس قال: أخبرني عبد الرحمن بن عوف ـ وكنت في منزله بمنى أنتظره، وهو عند عمر في آخر حِجة حجها عمر ـ قال: فرجع عبد الرحمن بن عوف من عند عمر فوجدني في منزله أنتظره، وكنت أُقرئه القرآن، فقال لي: لو رأيت رجلاً أتى أمير المؤمنين فقال: يا أمير المؤمنين، هل لك في فلان يقول: والله لو قد مات عمر بن الخطاب لقد بايعت فلاناً، والله ما كانت بَيعة أبي بكر إلا فَلْتة فتمَّت. قال: فغضب عمر فقال: إني إن شاء الله لقائم العشيَّة في الناس، فمحذّرهم هؤلاء الذين يريدون أن يَغْصبوهم أمرهم. ثم قال عبد الرحمن:

(١) المصدر السابق ج٢ ص ٦٥٦ ـ ٦٥٧.

فقلت: يا أمير المؤمنين لا تفعل، إن الموسم يجمع رِعاع الناس وغَوغاءهم وإنهم هم الذين يغلبون على قُربك حين تقوم في الناس، وإني أخشى أن تقوم فتقول مقالة يَطِير بها أولئك عنك كلّ مطير ولا يَعوها ولا يَضعوها على موضعها، فامهل حتى تقدَم المدينة - فإنها دار السنة - وتخلص بأهل الفقه وأشراف الناس فتقول ما قلت بالمدينة متمكّناً، فيعي أهل الفقه مقالتك، ويضعونها موضعها. فقال عمر: أما والله - إن شاء الله - لأقومنّ بذلك أول مقام أقومه بالمدينة.

قال ابن عباس(1): فقدمنا المدينة في عقب ذي الحجة، فلما كان يوم الجمعة عجلت الرَّواح حين زاغت الشمس فأجد سعيد بن زيد بن عمرو بن نُفيل جالساً إلى رُكن المِنبر، فجلست حذوه تمسُ ركبتي ركبته، فلم أنشَب أن خرج عمر، فلما رأيتهُ مقبلاً قلت لسعيد بن زيد: لَيقولنَّ العشيَّة على هذا المنبر مقالة لم يقلها منذ استخلف؛ قال: فأنكر عليّ سعيد بن زيد ذلك. قال: وما عسى أن يقول مما لم يقل قبله، فجلس عمر على المنبر، فلما سكت المؤذن قام فأثنى على الله بما هو له أهل، ثم قال: أما بعد، فإني قائل لكم مقالة قد قُدر لي أن أقولها ولا أدري لعلها بين يدي أجلي، فمن عقلها ووعاها فليأخذنها حيث انتهت به راحلته، ومن خشي أن لا يعيَها فلا يحلُّ لأحد أن يكذب عليّ؛ إن الله بعث محمداً ﷺ وأنزل عليه الكتاب، فكان مما أنزَل عليه آية الرجم، فقرأناها وعُلّمناها ووعيناها، ورجم رسول الله ﷺ ورَجْمنا بعده، فأخشى إن طال بالناس زمان أن يقول قائل: والله ما نجد الرجم في كتاب الله، فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله، وإن الرجم في كتاب الله حق علي من زنى إذا أحصن من الرجال والنساء،، إذا قامت البينة، أو كان الحَبل أو الاعتراف؛ ثم إنا قد كنا نقرأ - فيما نقرأ - من الكتاب: ﴿لا تَرْغَبُوا عن آبائِكُمْ فإنَّهُ كُفْرٌ بكم﴾ أو ﴿كفر بكم أن تَرْغَبُوا عن آبائِكُمْ﴾، ألا إن رسول الله ﷺ قال: «لا تُطروني كما أُطرِي عيسى ابن

(1) المصدر السابق ج2 ص 657 - 660.

مريم، وقولوا: عبد الله ورسوله »، ثم إنه قد بلغني أن فلاناً قال: لو والله قد مات عمر بايعت فلاناً، فلا يغرّن امرأً أن يقول: إن بيعة أبي بكر كانت فَلْتة فتمَّت، وإنها قد كانت كذلك إلا أن الله قد وَقى شرّها، وليس فيكم من تنقطع الأعناق إليه مثل أبي بكر، فمن بايع رجلاً من غير مشورة من المسلمين فإنه لا بَيْعة له هو ولا الذي بايعه، تَغِرَّةً أن يقتلا، إنه كان من خبرنا حين توفي الله نبيه ﷺ أن الأنصار خالفوا فاجتمعوا بأشرافهم في سَقيفة بني ساعدة، وتخلّف عنا عليّ بن أبي طالب والزبير بن العوّام ومن معهما، واجتمع المهاجرون إلى أبي بكر، فقلت لأبي بكر: انطلق بنا إلى إخواننا هؤلاء من الأنصار، فانطلقنا نؤمهم حتى لقينا منهم رجلان صالحان، فذكرا لنا ما تمالأ عليه القوم، وقالا: أين تريدون يا معشر المهاجرين؟ قلنا: نريد إخواننا هؤلاء من الأنصار، فقالا: فلا عليكم أن لا تقربوهم يا معشر المهاجرين، اقضوا أمركم. قال: قلت: والله لنأتينهم. فانطلقنا حتى أتيناهم في سقيفة بني ساعدة، فإذا بين ظهرانيهم رجلٌ مُزَمَّل، فقلت: من هذا؟ قالوا: سعد بن عُبادة، فقلت: ماله؟ فقالوا: وجع. فلما جلسنا تشهّد خطيبهم فأثنى على الله بما هو له أهل، ثم قال:

١١٥ أ أما بعد، فنحن أنصار الله وكتيبة الإسلام،// وأنتم يا معشر المهاجرين رهط منا، وقد دفَّت دافَّة من قومكم.

قال: وإذا هم يريدون أن يحتازونا من أصلنا ويغصبونا الأمر، فلما سكت أردت أن أتكلم وقد زَوّرت في نفسي مقالة قد أعجبتني، أريد أن أقدمها بين يدي أبي بكر، وكنت أداري منه بعض الحَدّ، فقال أبو بكر: على رِسْلك يا عمر. فكرهت أن أعصيه، فتكلم، وهو كان أعلم مني وأوقر، فوالله ما ترك من كلمة أعجبتني من تَزْويري إلا قالها في بَديهته أو مثلها أو أفضل منها حتى سكت.

قال: أما ما ذكرتم فيكم من خير فأنتم له أهل، ولن تعرف العرب هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش، هم أوسط العرب نسباً وداراً، وقد رضيتُ لكم أحد

هذين الرجلين فبايِعوا أيهما شئتم، وأخذ بيدي وبيد أبي عُبيدة بن الجرّاح وهو جالس بيننا، ولم أكره شيئاً مما قال غيرها، كان والله أن أقدّم فتُضرب عنقي لا يُقَرِّبني ذلك إلى إثْم أحب إليّ من أن أتأمَّر على قوم فيهم أبو بكر.

قال: فقال قائل من الأنصار: أنا جُذيلها المحك وعُذَيْقُها الْمُرَجَّب، منا أمير ومنكم أمير يا معشر قريش. قال: فكثر اللغط وارتفعت الأصوات، حتى تخوّفت الاختلاف، فقلت: ابسط يدك يا أبا بكر، فبسط يده فبايعته وبايعه المهاجرون ثم بايعه الأنصار، ونزونا على سعد بن عُبادة فقال قائل منهم: قتلتم سعد بن عُبادة. فقلت: قتل الله سعد بن عبادة.

وذكر ابن إسحاق عن الزهري عن عروة أن أحد الرجلين اللذين لقوا من الأنصار حين ذهبوا إلى السقيفة هو عويم بن ساعدة، وهو الذي قال فيه رسول الله ﷺ لما سئل: من الذين قال الله لهم: ﴿**رجال يحبون أن يتطهروا، والله يحب المطهرين**﴾ [التوبة: ١٠٨]، فقال عليه السلام: نعم المرء منهم عويم بن ساعدة، وأما الرجل الآخر فهو: معن بن عدي، ويقال: إنه لما بكى الناس على رسول الله ﷺ حين توفاه الله وقالوا: والله لوددنا أنا متنا قبله، إنا نخشى أن نفتتن بعده، قال معن بن عدي: لكني والله ما أحب أني مت قبله حتى أصدقه ميتاً كما صدقته حياً، وقتل ـ رحمه الله ـ شهيداً يوم اليمامة.

وذكر ابن عقبة أنهم لما توجهوا إلى سقيفة بني ساعدة وأراد عمر أن يتكلم ويسبق بالقول ويمهد لأبي بكر ويتهدد من هناك من الأنصار، وقال عمر: خشيت أن يقصر أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ عن بعض الكلام وعن ما أجد في نفسي من الشدة على من خالفنا زجره أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ فقال: على رسلك فستكفي الكلام إن شاء الله تعالى، ثم سوف تقول بعدي ما بدا لك، فتشهد أبو بكر، وأنصت القوم، ثم قال:

بعث الله محمداً بالهدى ودين الحق، فدعا رسول الله ﷺ إلى الإسلام فأخذ الله بقلوبنا ونواصينا إلى ما دعانا إليه، فكنا معشر المهاجرين أول الناس

إسلاماً، ونحن عشيرته وأقاربه وذوو رحمه، فنحن أهل النبوة وأهل الخلافة وأوسط الناس أنساباً في العرب، ولدتنا العرب كلها، فليست منها قبيلة إلا لقريش فيها ولادة، ولن تعترف العرب ولا تصلح إلا على رجل من قريش، هم أصبح الناس وجوهاً، وأبسطه ألسناً، وأفضله قولاً، فالناس لقريش تبع، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء، وهذا الأمر بيننا وبينكم قسمة إلا بلمه، وأنتم يا معشر الأنصار إخواننا في كتاب الله وشركاؤنا في الدين وأحب الناس إلينا، وأنتم الذين آووا ونصروا، وأنتم أحق الناس بالرضى بقضاء الله والتسليم لفضيلة ما أعطى الله إخوانكم من المهاجرين، وأحق الناس أن لا تحسدوهم على خير أتاهم الله إياه، فأنا أدعوكم إلى أحد هذين الرجلين: عمر بن الخطاب وأبي عبيدة بن الجراح - ووضع يديه عليهما، وكان قائماً بينهما - فكلاهما قد رضيته للقيام بهذا الأمر، ورأيته أهلاً لذلك.

فقال عمر وأبو عبيدة: ما ينبغي لأحد بعد رسول الله ﷺ أن يكون فوقك يا أبا بكر، أنت صاحب الغار مع رسول الله، وثاني اثنين، وأمرك رسول الله ﷺ حين اشتكى فصليت بالناس، فأنت أحق بهذا الأمر.

قالت الأنصار: والله ما نحسدكم على خير ساقه الله إليكم، وما خلق الله قوماً أحب إلينا ولا أعز علينا منكم، ولا أرضى عندنا هديا، ولكنا نشفق بعد اليوم، فلو جعلتم اليوم رجلاً منكم فإذا مات أخذنا رجلاً من الأنصار فجعلناه، فإذا مات أخذنا رجلاً من المهاجرين فجعلناه، فكنا كذلك أبداً ما بقيت هذه الأمة - بايعناكم ورضينا بذلك من أمركم، وكان ذلك أجدر إن يشفق القرشي إن زاغ أن ينقض عليه الأنصاري، وأن يشفق الأنصاري إن زاغ أن ينقض عليه القرشي.

فقال عمر: لا ينبغي هذا الأمر ولا يصلح إلا لرجل من قريش، ولن ترضى العرب إلا به، ولن تعرف العرب الإمارة إلا له، ولن تصلح إلا عليه، والله لا يخالفنا أحد إلا قتلناه.

فقام الحباب بن المنذر من بني سلِمة فقال: منا أمير ومنكم أمير يا معشر قريش، أنا جذيلها المحك وعذيقها المرجب، دفت علينا منكم دافة أرادوا أن يخرجونا من أصلنا ويختصونا من هذا الأمر، وإن شئتم كررناها جزعة.

فكثر القول حتى كادت الحرب تقع بينهم، وأوعد بعضهم بعضاً، ثم تراد المسلمون وعصم الله لهم دينهم، فرجعوا بقول حسن، وسلموا الأمر لله وعصوا الشيطان، ووثب عمر فأخذ بيد أبي بكر وقام أسيد بن حضير الأشهلي وبشير بن سعد أبو النعمان بن بشير يستبقان ليبايعا أبا بكر فسبقهما عمر فبايع ثم بايعا معاً، ووثب أهل السقيفة يبتدرون البيعة، وسعد بن عبادة مضطجع يوعك، فازدحم الناس على أبي بكر، فقال رجل من الأنصار: اتقوا سعداً، لا تطؤه فتقتلوه. فقال عمر وهو مغضب: قتل الله سعداً، فإنه صاحب فتنة. فلما فرغ أبو بكر من البيعة رجع إلى المسجد فقعد على المنبر فبايعه الناس حتى أمسى، وشغلوا عن دفن رسول الله حتى كان آخر الليل من ليلة الثلاثاء مع الصبح.

وقال ابن أبي عزة القرشي الجمحي في ذلك:

شكرا لمن هو بالثناء خليق ... ذهب اللجاج وبويع الصديق
من بعد ما دحضت بسعد نعله ... ورجا رجاء دونه العيوق
// جاءت به الأنصار عاصب رأسه ... فأتاهم الصديق والفاروق ١١٥ ب
وأبو عبيدة والذين إليهم ... نفس المؤمل للبقاء تتوق
كنا نقول لها علي والرضى ... عمر وأوْلاهم بتلك عتيق
فدعت قريش باسمه فأجابها ... إن المنوه باسمه الموثوق

[الكامل]

وذكر وثيمة بن موسى بن الفرات أنه كان لأشراف قريش فيما كان من شأن الأنصار مقامات محمودة، فمن ذلك أن خالد بن الوليد قام على أثر أبي بكر بعد وفاة رسول الله ﷺ وكان خطيب قريش، فقال:

أيها الناس، إنا رمينا في بدء هذا الدين بأمر ثقل علينا محمله وصعب علينا

مرتقاه، وكنا كأنا منه على أوفاز، ثم والله ما لبثنا أن خف علينا ثقله، وذل لنا صعبه، وعجبنا ممن شك فيه بعد عجبنا ممن آمن به، حتى والله أمرنا بما كنا ننهي عنه، ونهينا عن ما كنا نأمر به، ولا والله ما سبقنا إليه بالعقول، ولكنه التوفيق. ألا وإن الوحي لم ينقطع حتى أكمل، ولم يذهب النبي ﷺ حتى أعذر، فلسنا ننتظر بعد النبي نبياً ولا بعد الوحي وحياً، ونحن اليوم أكثر منا بالأمس، ونحن بالأمس خير منا اليوم، من دخل في هذا الدين كان من ثوابه على حسب عمله، ومن تركه رددناه إليه، إنه والله ما صاحب هذا الأمر - يعني أبا بكر - بالمسؤول عنه ولا المختلف فيه، ولا بالخفي الشخص، ولا المغمور القناة.

ثم سكت، فعجب الناس من كلامه.

وقام حزن بن أبي وهب - وهو الذي سماه رسول الله ﷺ سهلاً - فقال:

وقامت رجال من قريش كثيرة ... فلم يك في القوم القيام كخالد
ترقى فلم تزلق به صدر نعله ... وكف فلم يعرض لتلك الأوابد
فجاء بها غراء كالبدر سهلة ... تشبهها في الحسن أم القلائد
أخالد لا تعدم لؤي بن غالب ... قيامك فيها عند قذف الجلامد
كساك الوليد بن المغيرة مجده ... وعلمك الشيخان ضرب العماحد
تقارع في الإسلام عن صلب دينه ... وفي الشرك عن أجلال جد ووالد
وكنت لمخزوم بن يقظة جنة ... كلا اسميك فيها ماجد وابن ماجد
إذا ما غنا في هيجها ألف فارس ... عدلت بألف عند تلك الشدائد
ومن يك في الحرب المصرة واحداً ... فما أنت في الحرب العوان بواحد
إذا ناب أمر في قريش محلج ... تشيب له روس العذارى النواهد
توليت منه ما يخاف وإن تغب ... يقولوا جميعاً: خطنا غير شاهد
[الطويل]

قال ابن إسحاق: ولما توفي رسول الله ﷺ عظمت به مصيبة المسلمين، فكانت عائشة - فيما بلغني - تقول: لما توفي رسول الله ﷺ ارتدت العرب

واشرأبت اليهودية والنصرانية ونجم النفاق، وصار المسلمون كالغنم المطيرة في الليلة الشاتية لفقد نبيهم حتى جمعهم الله على أبي بكر.

وذكر ابن هشام(١) عن أبي عبيدة وغيره من أهل العلم أن أكثر أهل مكة لما توفي رسول الله ﷺ هموا بالرجوع عن الإسلام وأرادوا ذلك حتى خافهم عتاب بن أسيد فتواري فقام سهيل بن عمرو فحمد الله وأثنى عليه، ثم ذكر وفاة رسول الله ﷺ وقال: إن ذلك لم يزد الإسلام إلا قوة، فمن رابنا ضربنا عنقه، فتراجع الناس وكفوا عن ما هموا به، فظهر عتاب بن أسيد، وقد تقدم لنا أن رسول الله ﷺ قال في سهيل بن عمرو لعمر بن الخطاب وقد قال له: انزع ثنيتي سهيل بن عمرو يدلع لسانه فلا يقوم عليك خطيباً أبداً، فقال له رسول الله ﷺ: إنه عسى أن يقوم مقاماً لا تذمه، فكان هذا المقام المتقدم هو الذي أراد رسول الله ﷺ.

وعن أنس بن مالك(٢) قال: لما بويع أبو بكر في السقيفة وكان الغد جلس أبو بكر على المنبر، فقام عمر فتكلم قبل أبي بكر، فحمد الله وأثنى عليه بما هو له أهل، ثم قال:

أيها الناس، إني قد كنت قلت لكم بالأمس مقالة ما كانت وما وجدتها في كتاب الله، ولا كانت عهداً عهدَه إليّ رسول الله ﷺ ولكني كنت أرى أن رسول الله ﷺ سيد برنا؛ يقول: يكون آخرنا، وإن الله قد أبقى فيكم كتابه الذي به هدى رسوله، فإن اعتصمتم به هداكم الله لما كان هداه، وإن الله قد جمع أمركم على خيركم، صاحِب رسول الله ﷺ ثاني اثنين إذ هما في الغار، فقوموا فبايعوه.

فبايع الناس أبا بكر بيعة العامة بعد بيعة السقيفة.

ثم تكلم أبو بكر فحَمِد الله وأثنى عليه بالذي هو أهله، ثم قال:

---

(١) المصدر السابق ج٢ ص ٦٦٥ ـ ٦٦٦.

(٢) نفسه ج ٢ ص ٦٦٠ ـ ٦٦١.

أما بعد أيها الناس، فإني قد وُلِّيت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني؛ الصدق أمانة والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أُريح عليه حقه إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاءالله، لا يَدَعُ قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذُّل، ولا تشيع الفاحشة في قوم إلا عَمَّهُمُ الله بالبلاء؛ أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيتُ الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم. قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله.

وذكر موسى بن عقبة أن رجالاً من المهاجرين غضبوا في بيعة أبي بكر، منهم علي والزبير، فدخلا بيت فاطمة ابنة رسول الله ﷺ ومعهما السلاح، فجاءهما عمر بن الخطاب في عصابة من المهاجرين والأنصار فيهم أسيد بن حضير وسلمة بن سلامة بن وقش الأشهليان وثابت بن قيس بن شماس الخزرجي فكلموهما حتى أخذ أحد القوم سيف الزبير فضرب به الحجر حتى كسره ثم قام أبو بكر فخطب الناس واعتذر إليهم وقال:

والله ما كنت حريصاً على الإمارة يوماً قط، ولا ليلة، ولا سألتها الله قط سراً ولا علانية، ولكني أشفقت من الفتنة، ومالي في الإمارة من راحة، ولقد قلدت أمراً عظيماً مالي به طاقة ولا يدان إلا بتقوية الله، ولوددت أن أقوي الناس عليها مكاني اليوم.

فقبل المهاجرون منه ما قاله واعتذر به، وقال علي والزبير: ما غضبنا إلا أنا أخرنا عن المشورة، وإنا لنرى أن أبا بكر أحق الناس بها بعد رسول الله ﷺ وأنه لصاحب الغار وثاني اثنين، وإنا لنعرف له شرفه وسنه، ولقد أمره رسول الله صلى الله // عليه وسلم بالصلاة بالناس وهو حي. ١١٦ أ

وذكر غير ابن عقبة أن أبا بكر ـ رضي الله عنه ـ قام في الناس بعد مبايعتهم إياه يقيلهم في بيعتهم ويستقيلهم فيما تحمله من أمرهم ويعيد ذلك عليهم، كل ذلك يقولون له: والله لا نقيلك ولا نستقيلك، قدمك رسول الله ﷺ فمن ذا يؤخرك.

ولم يبدأ أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ بعد أن فرغ أمر البيعة واطمأن الناس بشيء من النظر قبل إنفاذ بعث أسامة، فقال له: امض لوجهك الذي بعثك له رسول الله ﷺ، فكلمه رجال من المهاجرين والأنصار وقالوا: أمسك أسامة وبعثه، فإنا نخشى أن تميل علينا العرب إذا سمعوا بوفاة رسول الله ﷺ، فقال أبو بكر وكان أفضلهم رأياً: أنا أحتبس بعثا بعثه رسول الله ﷺ لقد اجترأت إذاً على أمر عظيم، والذي نفسي بيده لأن تميل العرب على أحب إليّ من أن أحتبس جيشاً أمرهم رسول الله ﷺ. امض يا أسامة في جيشك للوجه الذي أمرت به، ثم اغز حيث أمرك رسول الله ﷺ من ناحية فلسطين، وعلى أهل مؤتة فإن الله سيكفى ما تركت، ولكن إن رأيت أن تأذن لعمر بن الخطاب بالتخلف لأستشيره وأستعين برأيه فإنه ذو رأي ونصيحة للإسلام وأهله ـ فعلت. ففعل أسامة وأذن لعمر، فأقام بالمدينة مع أبي بكر رضي الله عنهم أجمعين.

***

ذكر غسل رسول الله ﷺ ودفنه، وما يتصل بذلك من أمره صلوات الله عليه وسلامه ورحمته وبركاته

ولما فرغ الناس من بيعة أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ وجمعهم الله عليه وصرف عنهم كيد الشيطان أقبلوا على تجهيز نبيهم ﷺ والاشتغال به.

قالت عائشة[1] رضي الله عنها: لما أرادوا غسل رسول الله ﷺ اختلفوا فيه، فقالوا: والله ما ندري، أنجرّد رسول الله ﷺ من ثيابه كما نجرد موتانا، أو نغسله وعليه ثيابه؟ قالت: فلما اختلفوا ألقى الله عليهم النوم حتى ما منهم رجل إلا ذقنه في صدره، وكلمهم مكلم من ناحية البيت لا يدرون من هو: أن اغسلوا النبي وعليه ثيابه. قالت: فقاموا إلى رسول الله ﷺ فغسلوه وعليه قميصه، يصبون الماء فوق القميص، ويدلكونه والقميص دون أيديهم.

ويروى عن غير واحد أن الذين ولوا غسله ﷺ ابن عمه علي بن أبي طالب، وعمه العباس بن عبد المطلب، وابناه الفضل وقثم، وحِبّه أسامة بن زيد، ومولاه شقران[2].

وقال أوس بن خولي ـ أحد بني عوف بن الخزرج ـ وكان ممن شهد بدراً لعلي بن أبي طالب يومئذ: أنشدك الله يا علي وحظنا من رسول الله ﷺ. فقال له: ادخل، فدخل وجلس، فحضر غسل رسول الله ﷺ معهم، فأسند على رسول الله ﷺ إلى صدره، وكان العباس والفضل وقثم يقلبونه معه، وكان أسامة وشقران هما اللذان يصبان الماء عليه، وعلي يغسله، قد أسنده إلى صدره، وعليه

---

(١) ابن هشام. السيرة ج ٢ ص ٦٦٢.

(٢) نفسه.

قميصه يدلكه به من ورائه، لا يفضي بيده إلى رسول الله ﷺ وعلي يقول: بأبي أنت وأمي، ما أطيبك حياً وميتاً. ولم ير من رسول الله ﷺ شيء مما يرى من الميت.

وكانت عائشة - رضي الله عنها - تقول: لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما غسل رسول الله ﷺ إلا نساؤه(١).

ولما فرغ من غسل رسول الله ﷺ كفن في ثلاثة أثواب.

قال ابن إسحاق(٢) في حديث يرفعه إلى علي بن حسين: ثوبين صحاريين، وبرد حبرة أدرج فيه إدراجاً.

وخرج مسلم (٣) في صحيحه من حديث عائشة، قالت: كفن رسول الله ﷺ في ثلاثة أثواب بيض سحولية من كرسف ليس فيها قميص ولا عمامة.

زاد الترمذي قال: فذكروا لعائشة قولهم: في ثوبين وبرد حبرة. فقالت: قد أتي بالبرد ولكنهم ردوه ولم يكفنوه فيه.

واختلف (٤) المسلمون في موضع دفنه، فقال قائل: ندفنه في مسجده، وقال آخر: بل ندفنه مع أصحابه، وقال أبو بكر رضي الله عنه: ادفنوه في الموضع الذي قبض فيه، فإن الله لم يقبض روحه إلا في مكان طيب، فعلموا أن قد صدق.

---

(١) أبو داود الطيالسي. المسند ص ٢١٥ ج ١٥٣٠.
(٢) ابن هشام. السيرة ج ٢ ص ٦٦٣.
(٣) مسلم. الجامع الصحيح ج ٣ ص ٣٩؛ وراجع: البخاري. الصحيح ج ٢ ص ٢١١، أبا داود. السنن ج ٣ ص ١٩٨ ح ٣١٥١، النسائي. السنن ٤٩٠ ص ٣٥ - ٣٦، ابن سعد. الطبقات ج ٢ ص ٢٨٢ - ٢٨٤، البلاذري: أنساب الأشراف ج ١ ص ٥٧١، البيهقي. دلائل النبوة ج ٧ ص ٢٤٦ - ٢٤٩، السنن الكبرى ج ٣ ص ٣٩٩.
(٤) ابن هشام. السيرة ج ٢ ص ٦٦٣ - ٦٦٤، ابن سعد. الطبقات ج ٢ ص ٢٧٥، ٢٩٢، ٢٩٩، البلاذري. أنساب الأشراف ج ١ ص ٥٧٣، البيهقي. دلائل النبوة ج ٧ ص ٢٥٩ - ٢٦١.

وفي رواية أنه قال لهم: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ما قبض نبي إلا دفن حيث يقبض.

فرفع فراش رسول الله ﷺ الذي توفي عليه، فحفر له تحته.

ولما أرادوا أن يحفروا له، وكان أبو عبيدة بن الجراح يضرح كحفر أهل مكة، وكان أبو طلحة زيد بن سهل هو الذي يحفر لأهل المدينة، وكان يُلحد، دعا العباس برجلين، فقال لأحدهما: اذهب إلى أبي عبيدة بن الجراح، وللآخر: اذهب إلى أبي طلحة. اللهم خر لرسول الله، فوجد الذي توجه إلى أبي طلحة أبا طلحة، فجاء به، فلحد لرسول الله ﷺ (١).

فلما فرغ من جهاز رسول الله ﷺ يوم الثلاثاء، وضع على سريره في بيته، ثم دخل الناس على رسول الله ﷺ يصلون عليه أرسالا الرجال، حتى إذا فرغوا أدخل النساء حتى إذا فرغ النساء أدخل الصبيان، ولم يؤم الناس على رسول الله ﷺ أحد (٢).

ويروي في حديث أن علياً ـ رضي الله عنه ـ قال: لقد سمعنا همهمة ولم نر شخصاً، فسمعنا هاتفاً يقول: ادخلوا رحمكم الله فصلوا على نبيكم.

ثم دفن رسول الله ﷺ من وسط الليل، ليلة الأربعاء (٣).

---

(١) ابن هشام. السيرة ج ٢ ص ٦٦٣.

(٢) نفسه ج ٢ ص ٦٦٣.

وعلل السهيلي (الروض الأنف ج ٤ ص ٢٧٣ ـ ٢٧٤) لذلك قائلاً:

«. . . . ن المسلمين صلوا عليه أفذاذاً، لا يؤمهم أحد كلما جاءت طائفة صلت عليه، وهذا خصوص به ـ ﷺ ـ ولا يكون هذا الفعل إلا عن توفيق. وكذلك روي أنه أوصى بذلك، ذكره الطبري مسنداً.

ووجه الفقه فيه أن الله تبارك وتعالى ـ افترض الصلاة عليه بقوله: ﴿صلوا عليه وسلموا تسليما﴾. وحكم هذه الصلاة التي تضمنتها الآية ألا تكون بإمام، والصلاة عليه عند موته داخلة في لفظ الآية، وهي متناولة لها، وللصلاة عليه على كل حال، وأيضاً فإن الرب ـ تبارك وتعالى ـ قد أخبر أنه يصلي عليه وملائكته، فإذا كان الرب ـ تعالى ـ هو المصلي والملائكة، قبل المؤمنين، وجب أن تكون صلاة المؤمنين تبعاً لصلاة الملائكة، وأن تكون الملائكة هم الإمام».

(٣) ابن هشام. السيرة ٢٩٠ ص ٦٦٤.

قالت عائشة رضي الله عنها: ما علمنا بدفن رسول الله ﷺ حتى سمعنا صوت المساحي من جوف الليل من ليلة الأربعاء.

وكان الذين نزلوا في قبر رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب، والفضل وقثم ابنا عمه العباس، وشقران مولى رسول الله ﷺ (١).

وقال أوس بن خولي من الأنصار لعلي بن أبي طالب: يا علي، أنشدك الله وحظنا من رسول الله ﷺ. فقال له: انزل، فنزل // مع القوم. ١١٦ ب

وكانت لرسول الله ﷺ قطيفة يلبسها ويفترشها، فأخذها شقران مولاه، فدفنها في القبر وقال: والله لا يلبسها أحد بعدك أبداً، فدفنت مع رسول الله ﷺ (٢).

ولما انصرف الناس قالت فاطمة - رضي الله عنها - لعلي رضي الله عنه: يا أبا الحسن، دفنتم رسول الله ﷺ؟ قال: نعم. قالت فاطمة: كيف طابت أنفسكم أن تحثوا التراب على رسول الله ﷺ؟ أما كان في صدوركم لرسول الله رحمة؟ أما كان معلم الخير؟ قال: بلى يا فاطمة، ولكن أمر الله الذي لا مرد له، فجعلت تبكي وتندب: واأبتاه، أجاب ربا دعاه، واأبتاه من جنة الفردوس مأواه، واأبتاه، إلى جبريل ينعاه.

وقد كان رسول الله ﷺ أسر إليها في مرضه أنه مقبوض منه ولاحق بربه، فبكت مشفقة من فراقه، فأسر إليها ثانية أنها أول أهله لحاقاً به، فضحكت راضية بالموت مسرورة بوقوعه في جنب ما تتعجل من لقائه في حضرة القدس ومحلة الرضوان والكرامة.

ولما دفن رسول الله ﷺ وانصرف المهاجرون والأنصار عن دفنه، ورجعت فاطمة - رضي الله عنها - إلى بيتها، اجتمع إليها نساؤها فقالت:

---

(١) نفسه.

(٢) علل لذلك البلاذري (أنساب الأشراف ج ١ ص ٥٧٥ - ٥٧٦)، وابن منظور (مختصر تاريخ دمشق ج ٢ ص ٤٠٠ - ٤٠١) بقولهما: «لتقيه سبخة المدينة».

اغبر أفـــاق السماء وكـــــورت شمس النهــــــار وأظلم العصران
فـالأرض من بُعـــد النبي كئيبـــة أسفـــاً عليـــه كثيرة الرجفـــان
فليبكـــــه شرق البلاد وغـــــربها ولتبكــــــه مضر وكــــــل يمان
وليبكــــه الطـــود المعظـــم جـــوه والبيــت ذو الأستـــار والأركـــان
يـا خـاتم الرســـل المبـارك ضنـــه صلى عليــك منـزل الفـرقـــان

[الكامل]

ويروي ـ أيضاً ـ أن فاطمة ـ رضي الله عنها ـ أنشدت بعد موت رسول الله ﷺ متمثلة بشعر سميتها فاطمة بنت الأجهم:

قـد كنـت لي جبلاً ألـوذ بظلـه فتركتني أمشي بـأجـرد ضـاح
قد كنت ذات حميـة مـا عشـت لي أمشي البراز وكنت أنت جناحـي
فـاليـوم أخضـع للـذليـل وأتقـي منـه وأدفـع ظـالمي بـالـراح
وإذا دعـــت قمـريـــة شجنـــا لها ليلاً على فنـن دعـوت صبـاحـي

[الكامل]

ومما ينسب إلى علي أو فاطمة ـ رضي الله عنهما:

مـــاذا على مـــن شم تـــربـــة أحمد أن لا يشم مـدا الزمـان غـــواليـا
صبـــت على مصـــائـــب لـــو أنها صبـت على الأيـام عـدن ليـاليـا

[الكامل]

وجلست أم أيمن تبكي على رسول الله ﷺ بعد موته، وهي حاضنته التي كان يأوي اليها بعد موت أمه، ورسول الله ﷺ في بيته لم يدفن بعد، فقيل لها: ما يبكيك يا أم أيمن قد أكرم الله نبيه وأدخله جنته وأراحه من نصب الدنيا، فقالت: إنما أبكي على خبر السماء كان يأتينا غضاً جديداً كل يوم وليلة، فقد انقطع عنا ورفع، فعليه أبكي. فعجب الناس من قولها وبكوا لبكائها.

وقال أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ: لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء منها كل شيء، فلما كان اليوم الذي مات فيه أظلم منها كل شيء وما نفضنا أيدينا من التراب، وإنا لفي دفنه حتى أنكرنا قلوبنا.

وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: ولد النبي ﷺ يوم الاثنين، ونبي يوم الأثنين، وخرج مهاجراً من مكة إلى المدينة يوم الاثنين، وقدم المدينة يوم الاثنين، وقبض يوم الاثنين، فياهذا اليوم كم خير تسبب فيه إلى أهل الأرض، وأي مصيبة نزلت فيه بمنية ضاق عنها منفسح الطول والعرض.

وقد حدثنا ابن عباس ـ أيضاً ـ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: من كان له فرطان من أمتي أدخله الله بهما الجنة. فقالت عائشة: فمن كان له فرط من أمتك؟ قال: ومن كان له فرط يا موفقه: قالت فمن لم يكن له فرط من أمتك؟ قال: فأنا فرط لأمتي، لن يصابوا بمثلي.

ولله در شاعره حسان بن ثابت إذ يقول:

وهل عدلت يوماً رزية هالك رزية يوم مات فيه محمد

[الطويل]

وهذا البيت من قصيدة له يرثي بها رسول الله ﷺ سنذكرها بعد في مراثيه.

وروي ـ أيضاً ـ عن رسول الله ﷺ أنه قال: ليعز المسلمين في مصائبهم المصيبة بي.

فيالها والله مصيبة أحرقت الأكباد، وغمرت بالأسف والحزن الآماد والآباد، ورزءاً ثقيلاً آد كاهل الإيمان منه ما آد، وخطبا جليلا أودي بكل صبر جميل أو كاد.

والصبر يحمد في المواطن كلها إلا عليك فإنه مذموم

[الكامل]

ولولا أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ ربط على القلوب من بعده بأمر من عنده لأودت مكانها كمداً، ولما وجدت إلى البقاء متسلفاً، ولا عن وحي القنا ملتحداً، ولو رجفت الأرض لفقدان أحد لأصبحت لفقدانه راجفة، ولو نسفت الجبال لمهلك هالك لغدت رواسيها على حكم الأسف متناسفة، ولو كسفت النيرات لمصرع حي لأمست دررها منثورة لمصرعه، ولو تغيرت المشارع المورودة لموت إنسان لأمر لموته على كل وارد عذب مشرعه. هيهات هيهات، ذلك والله الرزأ الكبار، والنازلة التي يعيي بها الاحتمال

والاصطبار، والخطر الذي تقاصر دونه الأخطار، والخطب الذي تشقي بمضاضة مشاهدته المهاجرون والأنصار، والمفقود الذي لا عوض منه أبداً وإن تراخت الأيام وتطاولت الأعصار، ولو غير الأقدار أصابته لبدلت دونه أعلاق المهج، أو غير المنايا نابته لتعذر على قاصده وجه السبيل المنتهج، ولكنها السبيل التي لا يتخطاها سالك، وما سبقت به مشيئة الدائم الباقي الذي كل شيء إلا وجهه هالك، فلا مجال للدفاع، ولا حيلة في الامتناع، ولا غناء للأعوان والأتباع، ولا شيء يضمه حكم الممكن المستطاع غير الانقياد لأمر الله والإهطاع، ولهفا ثم لهفا عليه، ويا برح شوق القلوب المشربة نور الإيمان به، وشدة نزاعها إليه، وبالدموع أجريت عليه، صلوات الله وبركاته عليه، لقد
١١٧ أ وجدت مجرا، وأوجبت أجرا // وحرمت لهيا عن أسبابها وزجرا، ولقد كان من يقدم المدينة بعد أن استأثر به مولاه الذي شرح له صدراً، ورفع له ذكراً وقدراً، إذا أشرفوا عليها سمعوا لأهلها ضجيجاً يصم السميع، وللبكاء في جنباتها عجيجاً أصحل الحلوق ونزف الدموع.

حدث أبو ذؤيب الهذلي فقال: بلغنا أن رسول الله ﷺ عليل، فاستشعرت حزناً، وبت بأطول ليلة لا ينجاب ديجورها، ولا يطلع نورها، فظللت أقاسي طولها حتى إذا كان قرب السحر أغفيت فهتف بي هاتف وهو يقول:

خطب أجل أناخ بالإسلام   بين النخيل ومعقد الأطام
قبض النبي محمد فعيوننا   تذري الدموع عليه بالتسجام
[الكامل]

قال أبو ذؤيب: فوثبت من نومي فزعا، فنظرت إلى السماء، فلم أر إلا سعد الذابح، فتفاءلت به، ذبح يقع في العرب، وعلمت أن النبي ﷺ قد قبض، أو هو ميت من علته، فركبت ناقتي وسرت، فلما أصبحت طلبت شيئاً أزجر به، فعن لي شيهم يعني القنفذ قد قبض على صل يعني الحية فهي تلتوي عليه، والشيهم يقضها حتى أكلها، فزجرت ذلك وقلت: شيهم شيء مهم، والتواء الصل التواء الناس عن الحق على القائم بعد رسول الله ﷺ ثم أكل الشيهم إياها غلبة القائم بعده على الأمر، فحثثت ناقتي حتى إذا كنت بالغابة زجرت الطائر فأخبرني بوفاته،

ونعب غراب سانح، فنطق بمثل ذلك، فتعوذت بالله من شر ما عن لي في طريقي، وقدمت المدينة ولها ضجيج بالبكاء كضَجيج الحجيج إذا أهلوا بالإحرام، فقلت: مه؟ فقالوا: قبض رسول الله ﷺ فجئت المسجد، فوجدته خالياً، فأتيت رسول الله ﷺ فوجدت بابه مرتجاً، وقيل هو مسجي، قد خلا به أهله، فقلت: أين الناس؟ فقيل: في سقيفة بني ساعدة، ساروا إلى الأنصار، فجئت إلى السقيفة، فأصبت أبا بكر وعمر وأبا عبيدة بن الجراح وسالماً مولى أبي حذيفة وجماعة من قريش، ورأيت الأنصار فيهم سعد بن عبادة، وفيهم شعراؤهم: حسان بن ثابت وكعب بن مالك وملأ منهم، فآويت إلى قريش وتكلمت الأنصار، فأطالوا الخطاب، وأكثروا الصواب، وتكلم أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ فلله دره من رجل لا يطيل الكلام ويعلم مواضع فصل الخطاب، والله لقد تكلم لكلام لا يسمعه سامع إلا انقاد له ومال إليه، ثم تكلم عمر ـ رضي الله عنه ـ بعده دون كلامه، ومد يده وبايعوه، ورجع أبو بكر ورجعت معه.

قال أبو ذؤيب: فشهدت الصلاة على محمد ﷺ وشهدت دفنه.

ثم أنشد أبو ذؤيب يبكي النبي ﷺ:

لما رأيت الناس في غسلاتهم ... ما بين ملحود له ومضرح
متبادلين لشرجع[1] بأكفهم ... نص الرقاب لفقد أبيض أروح
فهناك صرت إلى الهموم ومن يبت ... جار الهموم يبيت غير مروح
كسفت لمصرعه النجوم وبدرها ... وتزعزعت آطام بطن الأبطح
وتزعزعت أجيال يثرب كلها ... ونخيلها لحلول خطب مفدح
ولقد زجرت الطير قبل وفاته ... بمصابه وزجرت سعد الأذبح

[الكامل]

وذكر الزبير بن أبي بكر بإسناد له إلى هشام بن عروة: أن صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ قالت ترثي رسول الله ﷺ لما توفي:

ألا يا رسول الله كنت رجاءنا ... وكنت بنا براً ولم تك جافيا
وكنت رحيماً هادياً ومعلما ... ليبك عليك اليوم من كان باكيا

---

١) الشرجع: الجنازة.

لعمرك ما أبكي النبيّ لفقده ... ولكن لما أخشى من الهرج آتيا
كأن على قلبي لذكر محمد ... وما خفت من بعد النبي المكاويا
أفاطم صلى الله رب محمد ... على جدث أمسى بيثرب ثاويا
فدا لرسول الله أمي وخالتي ... وعمي وآباي ونفسي وماليا
صدقت وبلغت الرسالة صادقا ... ومت صليب العود أبلج صافيا
فلو أن رب الناس أبقي نبينا ... سعدنا ولكن أمره كان ماضيا
عليك من الله السلام تحية ... وأدخلت جنات من العدن راضيا
أرى حسناً أيتمته وتركته ... يبكي ويدعو جده اليوم نائيا

[الطويل]

وقال أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب بن هاشم يبكي رسول الله ﷺ :

أرقت فبات ليلي لا يزول ... وليل أخي المصيبة فيه طول
وأسعدني البكاء وذاك فيما ... أصيب المسلمون به قليل
لقد عظمت مصيبتنا وجلت ... عشية قيل: قد قبض الرسول
وأضحت أرضنا مما عراها ... تكاد بنا جوانبها تميل
فقدنا الوحي والتنزيل فينا ... يروح به ويغدو جبرئيل
وذاك أحق ما سالت عليه ... نفوس الناس أو كربت تسيل
نبي كان يجلو الشك عنا ... بما يوحي إليه وما يقول
ويهدينا فلا نخشى ضلالا ... علينا والرسول لنا دليل
أفاطم إن جزعت فذاك عذر ... وإن لم تجزعي ذاك السبيل
فقبر أبيك سيد كل قبر ... وفيه سيد الناس الرسول

[الوافر]

ولما بلغت عمرو بن العاص السهمي وفاة رسول الله ﷺ وهو يومئذ بعمان، قال يرثيه:

أتاني ورحلي في عمان مصيبة ... فبت بعين طرفها طرف أرمد
غداة نعي الناس النبي محمداً ... فأعزز علينا بالنبي محمد
فقدنا به وحي السماء ونعمة ... تروح علينا بالمراد وتغتدي

وأوحش منـــه منبر كـــان زينـــة ومسجـده وحش فيـا خير مسجـد
فلو كنت يومـاً شـاهـداً لـوفـاتـه لمست تـرابـاً مـن ضريحتـه يـدي
بـإذن يـراه أهلـه ومكيـده أسود بها ما عشت يـومـي وفي غـد
كما نـالها منـه المغيرة خـدعـة ومـا أنـا دون الطـائفـي الجفيـدد
[الطويل]

يريد: المغيرة بن شعبة الثقفي، وكان يدعى أنه أحدث الناس عهداً برسول الله ﷺ ويقول: أخذت خاتمي فألقيته في القبر، وقلت: إن خاتمي سقط مني، وإنما طرحته عمداً لأمس رسول الله ﷺ فأكون أحدث الناس// عهداً به ﷺ. ١١٧ ب

وكان علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ ينكر ذلك من قول المغيرة ويأباه، ويقول: أحدث الناس عهداً برسول الله ﷺ قثم بن عباس.

وذكر وثيمة بن موسى أن عبد الله بن أنيس الجهني كان غائباً ببعض ضواحي المدينة، فلما انتهى إليه الخبر بوفاة رسول الله ﷺ أظلمت عليه الأرض، ثم قال: والله، لو أن ميتاً رده قتل حي نفسه لقتلت نفسي، ولكن أفرغ إلى أمر الله، إنا لله وإنا إليه راجعون. ثم سأل الذي أخبره: هل استخلف رسول الله ﷺ رجلاً بعينه؟ قال: لا والله. قال: الله أكبر، لو استخلفه هلكنا بمعصيته. فهل اجتمع الناس على رجل؟ قال: أمر نبي الله ﷺ أبا بكر أن يصلي بالناس. قال: هي إعلام الإمامة، وليس كل من صلى بإمام. ما فعل علي؟ قال: هو في بيته. قال: لا يريدها يا ابن أخي، لها ثلاثة من قريش: علي وأبو بكر وعمر، من ادعى منازلهم قصر دونهم. ما صنعت الأنصار؟ قال: اعتزلت، قال: كلا، طائف من الشيطان، لم يكن الله ليخذلهم مع ما سبق لهم، بت عندي الليلة فإني عليل ولا أراني إلا لما بي من هذه الصدمة، ولكن أبلغ عني قريشاً، فقال:

نفا النـوم مـا لا تبتغيـه الأصـابـع وخطـب جليـل للبليـة جـامـع
غـداة نعـي النـاعـي إلينـا محمداً وتلـك التي تستـك منهـا المسـامـع
فلـو رد نفسـاً قتـل نفس قتلتهـا ولكنـه لا يـدفـع المـوت دافـع

فآليت لا أبكي على هلك هالك ... من الناس ما أرسي ثبير وفارغ
ولكنني باك عليك ومتبع ... مصيبته، إني إلى الله راجع
وقد قبض الله النبيين قبله ... وعادا أصيب بالورى والتتابع
فإن مات فالإسلام حي وربنا ... لذا الدين مما كاده اليوم مانع
فياليت شعري من يقوم بأمرنا ... وهل لقريش يا إمام منازع
ثلاثة رهط من قريش هم هم ... أزمة هذا الأمر والله صانع
علي أو الصديق أو عمر لها ... وليس لها بعد الثلاثة رابع
أولئك خير الحي فهر بن مالك ... وأول من تجنى عليه الأصابع
أولئك إن قاموا به سلكوا بنا ... محجتنا العظمى وقل التنازع
وكل قريش والذي أنا عبده ... على كل حال للثلاثة تابع
فإن قال منا قائل غير هذه ... أبينا، وقلنا: الله راء وسامع
فيا لقريش قلدوا الأمر بعضكم ... فإن ضجيع العجز للسن قارع
ولا تبطؤو عنها فواقا فإنها ... إذا قطعت لم تسر فيها المطامع

[الطويل]

قال: فانتهى الرجل إلى قريش وقد انطلق المهاجرون إلى الأنصار، وكان من أمرهم الذي كان، فرجع إلى عبد الله بن أنيس، فأخبره الخبر، ففرح بذلك.

ولأبي الهيثم بن التيهان الأنصاري في نحو هذا المعنى شعر قاله وقد مر به أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ قبل مبايعة الناس إياه، فشكى إليه وفاة رسول الله ﷺ فقال أبو الهيثم: قد والله شمتت اليهودية والنصرانية، وبلغني عن الناس أمر ساءني، فرجع أبو الهيثم إلى منزله، فقال:

ألا قد أرى أن المنى لم تخلد ... لأن المنايا للنفوس بمرصد
لقد جدعت آذاننا وأنوفنا ... غداة فجعنا بالنبي محمد
تكلم أهل الشرك من بعد غلظة ... لغيبة هاد كان فينا ومهتدي
ثلاثة أصناف من الناس كلهم ... يروح علينا بالشنان ويغتدي
نصارى يقولون الفرى، ومنافق ... شبيه بذاك الشامت المتهود

وأوعد كذاب اليمامة جهده فأجلب عوداً باللسان وباليد
فإن تك هذا اليوم منهم شماتة فلا يأمنوا ما يحدث الله في غد
وما نحن إن لم يجمع الله أمرنا بخير قريش كلها بعد أحمد
بأمنع من شاء بقفر مطيرة بقيعة قاع أو ضباب بفدفد
وإني لأرجو أن يقوم بأمرنا علي أو الصديق والمرء من عدي
أولئك خيار الحي فهر بن مالك وأنصار هذا الدين من كل معتدي
[الطويل]

ولما انتهت إلى همدان وفاة رسول الله ﷺ تكلمت سفهاؤهم بما كرهت ظماؤهم، فقال عبد الله بن مالك الأرض، وكان من أصحاب رسول الله ﷺ له هجرة وفضل في دينه، فاجتمعت إليه همدان، فقال:

يا معشر همدان، إنكم لم تعبدوا محمداً، إنما عبدتم رب محمد، وهو الحي الذي لا يموت، غير أنكم أطعتم رسولكم بطاعة الله فدعاكم فأجبتموه، وهداكم فاتبعتموه، واعلموا أنه ولى نعمتكم في دينكم ودنياكم، فأما دينكم فاستنقذكم الله به من النار، وأما دنياكم فاستنقذكم الله به من الرق، ولم يكن الله ليجمع صحابة رسوله على ضلال، وقد وعدهم أن يهديهم عندما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، فأطيعوا من اختاروا، وقدموا من قدموا، في كلام غير هذا تكلم به على هذا المثال، ونسجه على هذا المنوال.

وقال في ذلك:

لعمري لئن مات النبي محمد لما مات يا ابن القيل رب محمد
وما كان إلا مرسلاً برسالة ليبلغها والحادثات بمرصد
ولما قضى من ذاك ما كان قاضياً ولم يبق شيء فيه إلحاد ملحد
دعاه إليه ربه فأجابه فيا خير غوري ويا خير منجد
وما نحن إلا مثل من كان قبلنا فريقين شتى: كافر وموحد
ونحن على ما كان بالأمس بيننا من الدين نهدي من أراد فيهتدي
[الطويل]

ثم قام ابن ذي مران، وكان من سادات همدان وملوكهم، فتكلم فيهم،

فأطال نفس الكلام، وحرض على التمسك بالدين، وحمل على الطاعة للقائم بالأمر بعد رسول الله ﷺ ثم قال يرثيه ويتفجع للمصيبة فيه:

إن حزني على الرسول طويل ... ذاك مني على الرسول قليل
قلت: والموت يا إمام كريه ... ليتني مت يوم مات الرسول
ليتني لم أكن بقيت فواقا ... بعده والفواق مني طويل
بكت الأرض والسماء عليه ... وبكاه خليله جبريل
يا لها رحمة أصيب بها النا ... س تولت وحان منها الرحيل
جدعت منهم الأنوف فللقلـ ... ـب خفوق وللجفون همول
ليس للناس إمام من الأمـ ... ـر فتيل، وأين منك الفتيل؟
إنما الأمر للذي خلق الخلـ ... ـق وفي خلقه عليه دليل

[الخفيف]

في أبيات غير هذه يؤنس فيها المهاجر بن أبي أمية بن المغيرة، وكان أميراً عليهم من قبل رسول الله ﷺ بما عند قومه من حسن الطاعة له والقيام في الحق معه.

١١٨ أ ثم قام ابن// ذي المشغار، وكان ملك أهل ناحيته، وكان متألهاً، فتكلم أيضاً في هذا النحو بكلام حسن، نظماً ونثراً، فلما فرغ من مقالته أتاه مسروق ابن الحارث القوال الأرحبي، فقال له:

أيها الملك، إنه لا يعرف عندك في قريش إلا رجل مثلي من قومك، أنا القوال ابن القوال، الفارس ابن الفارس، ابعثني إلى خليفة رسول الله ﷺ، فأقوم مقاماً شريفاً أباهي به فيك الناس.

فسرحه، فلما قدم مسروق على أبي بكر - رضي الله عنه - تهيأت له قريش، وقالوا: خطيب همدان وفتاها، فتكلم عندهم بكلام تركنا ذكره وذكر ما أنشد معه من الشعر، إذ ليس مناسباً لما نحن الآن بسبيله من ذكر مراثي رسول الله ﷺ فلما سمعت قريش شعره وخطبته، عجبت منه، وكان معه عبد الله بن سلمة الهمداني، فقام فقال: يا معشر قريش، إنكم لم تصابوا بنبي الله ﷺ دون سائر العرب، لأنه لم يكن لأحد دون أحد، وأيم الله، لا أدري أي الرجلين أشد

حزناً عليه، وأعظم مصاباً به، من عاينه فغاب عنه عيانه، أو من أشرف على رؤيته فلم يره؟ غير أنا معترفون للمهاجرين بفضل هجرتهم، وللأنصار بفضل نصرتهم، والتابع ناصر، والمؤمن مهاجر.. في كلام غير هذا صدر عن قلب مؤمن، وجأش به خاطر شديد، فأثنى عليه أبو بكر خيراً، وحمدته قريش، وكان سيداً، فقال:

إن فقد النبي جدعنا اليو ... م فدته الأسماع والأبصار
وفدته النفوس ليس من المو ... ت فرار، وأين أين الفرار؟
ما أصيبت به الغداة قريش ... لا ولا أفردت به الأنصار
دون من وجه الصلاة إلى اللـ ... ـه وقد هنئت به الكفار
ورجال منافقون شمات ... يوم واروه كفرهم إسرار
من بكته السماء تسعدها الأر ... ض وبكت بعد القفار البحار
وسرافيل قد بكاه وجبريـ ... ـل وميكال والملأ الطهار
يا لها كلمة يضيق بها الخلـ ... ـق أتانا بنقلها السفار
قيل: مات النبي، فانصدع القلـ ... ـب وشابت من هولها الأشعار
فعليه السلام ما هبت الريـ ... ـح ومدت جنح الدجى أنوار

[الخفيف]

وقال سواد بن قارب الدوسي، وهو الذي كان كاهناً فأسلم فحسن إسلامه بإرشاد ربه إياه إلى ذلك حسب ما تقدم صدر كتابنا هذا من خبره يبكي النبي ﷺ لما بلغت أسد السراة وفاته، بعد أن قام فيهم مقاماً محموداً، يثبتهم في الدين، ويحذرهم سوء عاقبة الارتداد، وكان قد سادهم وشرف فيهم، فأجابوه إلى ما أراد، وقبلوا رأيه، وقال:

جلت مصيبتك الغداة سواد ... وأرى المصيبة بعدها تزداد
أبقى لنا فقد النبي محمد ... صلى الإله عليه ما يعتاد
حزناً لعمرك في الفؤاد مخامرا ... أو هل لمن فقد النبي فؤاد؟
كنا نحل به جنابا ممرعا ... خف الجناب فأجدب الرواد
فبكت عليه أرضنا وسماؤنا ... وتصدعت وجدا به الأكباد
قل المتاع به وكان عيانه ... حلما تضمن سكرتيه رقاد

كان العيان هو الطريف وحزنه باق لعمرك في النفوس تلاد
إن النبي وفاته كحياته والحق حق والجهاد جهاد
لو قيل: تفدون النبي محمداً بذلت له الأموال والأولاد
وتسارعت فيها النفوس لبذلها هذا له الأغياب والأشهاد
هذا وهذا لا يرد نبينا لو كان يفديه فداء سواد

[الكامل]

وقال عبد الحارث بن أسد بن الريان من أهل نجران يبكي النبي ﷺ لما بلغتهم وفاته، بعد قيامه فيهم أحمد مقام، يحرضهم على التمسك بالدين والثبوت على الإسلام، ويذكرهم نعمة الله عليهم، بالدخول فيه واللحاق بمن هاجر إليه، ويقول لهم فيما قال: إنما كان نبي الله ﷺ بين أظهركم عارية، فأتى عليه أجله، وبقي الكتاب الذي كان يحكم به، ويحكم عليه، فأمره أمر ونهيه نهي إلى يوم القيامة، وقد سهل لكم الطريق فاسلكوه، ولا بد من جولة، فكونوا فيها ذوي أناة، وقد اختار القوم لأنفسهم رجلاً لا يألوهم خيراً، فأطيعوا قريشاً ما أطاعوا الله، فإذا عصوه فاعصوهم، فإنه لا ينبغي لآخرنا أن يملك إلا بما ملك به أولنا، وهي النبوة، فميراثها منها.. في كلام غير هذا حسن أبلي بهٔ عذراً، وبالغ لقومه نصحا.

وقال:

لعمري لئن كان النبي محمد عليه سلام الله أودي به القدر
لقد كسفت شمس النهار لفقده وبكت عليه الأرض وانكسف القمر
وبكته آفاق السماء وما لها وللأرض شجو غير ذاك ولا عبر
ولو قيل: تفدون النبي محمداً لقلنا: نعم، بالنفس والسمع والبصر
وقل له: منا الفداء وهذه وإن بذلت لا يسترد بها بشر
فإن يك وافاه الحمام فدينهُ على كل دين خالف الحق قد ظهر
ونحن بحمد الله هامة مذحج بنو الحارث الخير الذين هم الغرر
بنجران نعطي من سعى صدقاتنا موفرة ما في الخدود لها صعر
ونحن على دين النبي نرى الذي نهانا حراماً منه والأمر ما أمر
أحاذر إن لم يدفع الله جولة مجدعة يبيض من هولها الشعر

يحين فيها الله من خف حلمه ويسعد فيها ذو الأناة بما صبر
نطيع قريشاً ما أطاعوا فإن عصوا أبينا ولم نشر السلامة بالغرر
وكان لهذا الأمر منهم ثلاثة علي أو الصديق أو ثالث عمر
فلم يخطئوا إذا سددوها لبعضهم هم ما هم كل لإرعاده مطر
[الطويل]

وأمثال هذه المقالات نثراً ونظماً لرجال من سادات العرب وأشراف القبائل بعد وفاة رسول الله ﷺ كثير، قاموا بها في قومهم يحذرونهم من الفتنة، ويحرضونهم على التمسك بالطاعة لمن قام بالأمر.

وقد ذكر المؤلفون في الردة كثيراً منها، وهي بذلك الباب أخص، وإنما تخيرت هنا منها ما يتعلق نظمه بباب الرثاء، ويبعث في حق المصطفى على التفجع والبكاء، حشدا على الداهية الدهياء، واستعانة على الحادثة النكراء، وعظيم المصيبة بوفاة من حق في حقه بكاء الأرض والسماء، وقل لفقده أن تسح المدامع عوض الدموع بالدماء:

هو الرزء الذي ابتدأ الرزايا وقال لأعين الثقلين: جودي
[الوافر]

وقال حسان بن ثابت(١) الأنصاري يبكي رسول الله ﷺ:

//بطيبة رسم للرسول ومعهد منير وقد تعفو الرسوم وتهمد ١١٨ ب
ولا تمتحي الآيات من دار حرمة بها منبر الهادي الذي كان يصعد
وواضح آثار وباقي معالم وربع له فيه مصلى ومسجد
بها حجرات كان ينزل وسطها من الله نور يستضاء ويوقد
معارف لم تطمس على العهد أيها أتاها البلى فالآي منها تجدد
عرفت بها رسم الرسول وعهده وقبرا بها واراه في الترب ملحد
ظللت بها أبكي الرسول فأسعدت عيون ومثلاها من الجفن(١) تسعد
يذكون ألاء الرسول وما أرى لها محصيا نفسي فنفسي تبلد

---

١) في الأصل: «الجن».

---

(١) ابن هشام. السيرة ج ٢ ص ٦٦٦ - ٦٦٩.

مفجعة قد شفها فقد أحمد ... فظلت لآلاء الرسول تعدد
وما بلغت من كل أمر عشيره ... ولكن لنفسي بعد ما قد توجد
أطالت وقوفا تذرف العين جهدها ... على طلل القبر الذي فيه أحمد
فبوركت يا قبر الرسول وبوركت ... بلاد ثوي فيها الرشيد المسدد
وبورك لحد منك ضمن طيبا ... عليه بناء من صفيح منضد
تهيل عليه الترب أيد وأعين ... عليه وقد غارت بذلك أسعد
لقد غيبوا حلماً وعلماً ورحمة ... عشية علوه الثري لا يوسد
وراحوا بحزن ليس فيهم نبيهم ... وقد وهنت منهم ظهور وأعضد
يبكون من تبكي السموات يومه ... ومن قد بكته الأرض فالناس أكمد
وهل عدلت يوما رزية هالك ... رزية يوم مات فيه محمد؟
تقطع فيه منزل الوحي عنهم ... وقد كان ذا نور يغور وينجد
يدل على الرحمن من يقتدي به ... وينقذ من هول الخزايا ويرشد
إمام لهم يهديهم الحق جاهداً ... معلم صدق أن يطيعو ويسعدوا
عفو عن الزلات يقبل عذرهم ... وإن يحسنوا فالله بالخير أجود
وإن ناب أمر لم يقوموا بحمله ... فمن عنده تيسير ما يتشدد
فبينا هم في نعمة الله وسطهم ... دليل به نهج الطريق يقصد
عزيز عليه أن يجوروا عن الهدى ... حريص على أن يستقيموا ويهتدوا
عطوف عليهم لا يثني جناحه ... إلى كنف يحنو عليهم ويمهد
فبينا هم في ذلك النور إذ غدا ... إلى نورهم سهم من الموت مقصد
فأصبح محموداً إلى الله راجعاً ... يبكيه جن المرسلات ويحمد
وأمست بلاد الحرم وحشا بقاعها ... لغيبة ما كانت من الوحي تعهد
قفاراً سوى معمورة اللحد ضافها ... فقيد نبكيه بلاط وغرقد
ومسجده فالموحشات لفقده ... خلاء له فيها مقام ومقعد
وبالجمرة الكبرى له ثم أوحشت ... ديار وعرصات وربع ومولد
فبكي رسول الله يا عين عبرة ... ولا أعرفنك الدهر دمعك يجمد

ومالك لا تبكين ذا النعمة التي على الناس منها سابغ يتغمد
فجودي عليه بالدموع وأعولي لفقد الذي لا مثله الدهر يوجد
وما فقد الماضون مثل محمد ولا مثله حتى القيامة يفقد
أعف وأوفى ذمة بعد ذمة وأقرب منه نائلاً لا ينكد
وأبذل منه للطريف وتالداً إذا ضَنَّ معطاء بما كان يتلد
وأكرم صيتاً في البيوت إذا انتهى وأكرم جداً أبطحياً يسود
وأمنع ذروات وأثبت في العلا دعائم عز شاهقات تشيد
وأثبت فرعاً في الفروع ومنبتاً وعودا غذاه المزن فالعود أغيد
رباه وليداً فاستتم تمامه على أكرم الخيرات رب ممجد
تناهت وصاة المسلمين بكفه فلا العلم محبوس ولا الرأي يفند
أقول ولا يلقي لما قلت عائب من الناس إلا عازب العقل مبعد
وليس هواي نازعاً عن ثنائه لعلي به في جنة الخلد أخلد
مع المصطفى أرجو بذاك جواره وفي نيل ذاك اليوم أسعى وأجهد

وقال حسان بن ثابت[1] يبكي رسول الله ﷺ. [الطويل]

ما بال عينك لا تنام كأنما كحلت مآقيها بكحل الأرمد
جزعاً على المهدي أصبح ثاوياً يا خير من وطىء الحصى لا تبعد
وجهي يقيك الترب، لهفاً ليتني غيبت قبلك في بقيع الفرقد
بأبي وأمي من شهدت وفاته في يوم الاثنين النبي المهتدي
فظللت بعد وفاته متبلداً متلدداً يا ليتني لم أولد
أأقيم بعدك في المدينة بينهم يا ليتني صبحت سم الأسود
أو حل أمر الله فينا عاجلاً في روحة من يومنا أو من غد
فتقوم ساعتنا فنلقي طيبا محضاً ضرائبه كريم المحتد
يا بكر آمنة المبارك ذكرها ولدته محصنة بسعد الأسعد

---

(١) ابن هشام. السيرة ج ٢ ص ٦٦٩ - ٦٧٠.

نورا أضاء على البرية كلها ... من يهد للنور المبارك يهتدي

يا رب فاجمعنا معاً ونبينا ... في جنة تبني عيون الحسد

في جنة الفردوس فاكتبها لنا ... يا ذا الجلال وذا العلا والسؤدد

والله أسمع ما بقيت بهالك ... إلا بكيت على النبي محمد

يا ويح أنصار النبي ورهطه ... بعد المغيب في سواء الملحد

ضاقت بالانصار البلاد فأصبحوا ... سودا وجوههم كلون الأثمد

ولقد ولدناه وفينا قبره ... وفضول نعمته بنا لم تجحد

والله أكرمنا به وهدى به ... أنصاره في كل ساعة مشهد

صلى الإله ومن يحف بعرشه ... والطيبون على المبارك أحمد

[الكامل]

وقال حسان بن ثابت[1] ـ أيضاً ـ يبكي رسول الله ﷺ :

نب المساكين أن الخير فارقهم ... مع النبي تولى عنهم سحراً

من ذا الذي عنده رحلي وراحلتي ... ورزق أهلي إذا لم يؤنسوا المطرا

أم من نعاتب لا نخشى جنادعه ... إذا اللسان عتا في القول أو عثرا

كان الضياء وكان النور نتبعه ... بعد الإله وكان السمع والبصرا

يا ليتنا يوم واروه بملحده ... وغيبوه وألقوا فوقه المدرا

لم يترك الله منا بعده أحداً ... ولم يعش بعده أنثى ولا ذكرا

ذلت رقاب بني النجار كلهم ... وكان أمراً من امر الله قد قدرا

واقتسم الفيء دون الناس كلهم ... وبددوه جهارا بينهم هدرا

[البسيط]

وقال حسان بن ثابت ـ أيضاً ـ يبكي رسول الله ﷺ :

آليت ما في جميع الناس مجتهداً ... مني ألية بر غير إفناد

تالله ما حملت أنثى ولا وضعت ... مثل الرسول نبي الأمة الهادي

ولا برا الله خلقاً من بريته ... أوفى بذمة جار أو بميعاد

من ذا الذي كان فينا يستضاء به ... مبارك الأمر ذا عدل وإرشاد

---

(1) المصدر السابق ج٢ ص ٦٧٠ ـ ٦٧١.

أمسى نساؤك عطلن البيوت فما ... يضربن فوق قفا ستر بأوتاد
مثل الرواهب يلبسن المباذل قد ... أيقن بالبؤس بعد النعمة الباد
/ يا أفضل الناس إني كنت في نهر ... أصبحت منه كمثل المفرد الصادي ١١٩ أ
[البسيط]

وقال كعب بن مالك الأنصاري من كلمة يبكي رسول الله ﷺ :

وباكية حرى تحرق بالبكا ... وتلطم منها خدها والمقلدا
على هالك بعد النبي محمد ... ولو عدلت لم تبك إلا محمداً
فلست بباك بعد فقد محمد ... فقيداً وإن كان القريب المسودا
فجعنا بخير الناس حياً وميتاً ... وأدناه من أهل السموات مقعدا
وأعظمه فقدا على كل مسلم ... وأكرمه في الناس كلهم يدا
متى تنزل الأملاك بالوحي بعده ... علينا إذا ما اللبس فينا ترددا ؟
إذا كان منه القول كان موفقاً ... وإن كان وحياً كان نوراً مجدداً
جزي الله عنا ربنا خير ما جزى ... نبي الهدي الداعي إلى الحق أحمدا
[الطويل]

وقال عمرو بن سالم الخزاعي يبكي رسول الله ﷺ :

لعمري لئن جادت لك العين بالبكا ... لمحقوقة أن تستهل وتدمعا
فيا حفص، إن الأمر جل عن البكا ... غداة نعي الناعي النبي فأسمعا
فلم أر يوماً كان أعظم حادثاً ... ولم أر يوماً كان أكثر موجعا
ولم أر من يوم أعم مصيبة ... ولا ليلة كانت أمر وأفظعا
تعزى بصبر واذكري الله واعلمي ... بأن سوف يجزي كل ساع بما سعى
ولا تزرئي محض الحياء فتفجعي ... بدينك والدنيا فتزريها معا
فإن يك قد مات النبي فبعدما ... نعي نفسه بدءاً وعوداً فأسمعا
إذا ذكرت نفسي فراق محمد ... تهيج حزني والفؤاد تقطعا
فيالك نفساً لا يزال يزيدها ... على الدهر طول الدهر إلا تصدعا
جزي منك رب الناس أفضل ما جزي ... نبياً هدانا ثم ولي مودعا
فوالله لا أنساك ما دمت ذاكرا ... لشيء وما قلبت كفاً وأصبعا
[الطويل]

وقد أكثر الشعراء في تأبينه ـ صلوات الله عليه ـ قديماً وحديثاً، وقضوا من التفجيع عليه حقاً، لا ينبغي أن يكون عهده نكيثاً، ولم يمنعهم تقادم الأيام وتطاول الأعوام من تجديد البكاء عليه، ومزيد الحنين إليه، وبحق ما يكون ذلك، فهو الرزء الذي حقه أن ينسى جميع الأرزاء، والحادث الجلل الذي يقبح معه حسن العزاء، وطواعية الأسف عليه دائماً من أعدل الشهادات بالإخلاص لمن قام بها واستقام بالنية والقول على سواء مذهبها، جعلنا الله ممن أحبه حقاً، وكتبنا فيمن غدا لشفاعته المشفعة مستحقاً.

فمن ذلك ما وقفت عليه لأبي إسحاق إسماعيل بن القاسم الغزي الكوفي، المعروف بأبي العتاهية من كلمة:

على رسـول الله مني السلام ... مـا كـان إلا رحمة للأنـام
أحيي بـه الله قلـوبـاً كما ... أحيي مـوات الأرض صوب الغمام
أكـرم بـه للخلـق مـن مبلـغ ... هـاد وللنـاس بـه مـن إمـام
وأصبـح الحق بـه قـائماً ... وأصبح البـاطـل دحـض المقـام

[السريع]

وقال إسماعيل بن القاسم ـ أيضاً ـ من كلمة أخرى:

ليبك رسول الله مـن كـان بـاكيـا ... ولا تنس قبرا بـالمدينـة سـاويـا
جـزي الله عنـا كـل خير محمداً ... فقـد كـان مهـديـاً دليلاً هـاديـا
لمن تبتغـي الذكرى لما هـو أهلـه ... إذا كنـت للبر المطهـر نـاسيـا
أتنسى رسول الله أفضـل مـن مشى ... وآثـاره بـالمسجـديـن كما هيـا
وكان أبـر النـاس بـالنـاس كلهـم ... وأكـرمهم بيتـاً وشعبـاً وواديـا
تكـدر مـن بعـد النبي محمد ... عليـه سلام الله مـا كـان صـافيـا
فكم من منـار كـان أوضحـه لنـا ... ومـن علم أمسى وأصبـح عـافيـا
ركنـا إلى الدنيـا الدنيـة بعـده ... وكشفـت الأطماع منـا المسـاويـا
وإنـا لنرمـي كـل يـوم بعبرة ... نـراهـا فما نـزداد إلا تعـاميـا
كـأنـا خلقنـا للبقـاء وأينـا ... وإن مـدت الدنيـا لـه ليس فـانيـا
أبـى الموت إلا أن يكـون لمن تـرى ... من الخلق طرا حيث ما كـان لاقيـا

حسمت المني يا موت حسماً مبرحاً | وعلّمت يا موت البكاء البواكيا
ومزقتنا يا موت كل ممزق | وعرفتنا يا موت منك الدواهيا

[الطويل]

ولأبي عبد الله محمد بن أبي الخصال الغافقي الأندلسي، ومكانه من متانة العلم والدين وصدق المقالة وصحة اليقين المكان الذي يلحقه بأقرانه من العلماء المتقنين، قصائد يرثي بها النبي ﷺ وعلى آله أجمعين يساجل بها شاعره حسان بن ثابت في قصائده المتقدمة صوتاً بصوت، وكلمة بكلمة، أخبرنا بها وبسائر كلامه نثره ونظمه(١) غير واحد من أشياخنا ـ رحمهم الله عنه ـ فمن ذلك قوله يعارض حسان في قصيدته الأولى ويمشي في التفجع والتوجع على طريقته المثلى:

بطيبة آثار تحج وتقصد | ودار بها لله نور مخلد
ومهبط جبريل بوحي وحكمة | يبينها للعالمين محمد
ومظهر آيات كأن رسومها | على ما محى منها البلى يتجدد
وفي مسجد التقوى تأرخ روضة | عليها من الفردوس كل ممدد
يفاوحها طيب الجنان وتربة | تبوءها من جنة الخلد أحمد
ومنبره الأعلى على ذروة التقى | وجذع له فيه حنين مردد
ومولد إبراهيم حيث تمخضت | به أمه مثوى كريم ومولد
وموقعه من نفسه واختياره | له اسم خليل الله فخر مشيد
وإعلانه بالحزن تدمع عينه | له رحمة والنفس ترقى وتصعد
ومبني علي والهدى يألف الهدى | بفاطمة نور بنور يقيد
ومولد سبطيه وريحان قلبه | مكانهما من عاتقيه ممهد
وحيث ارتقت منه إمامة مرتقى | يقوم بها جبالها ثم يسجد
وحيث بني بالطيبات نسائه | بعصمته الوثقى وجبريل يشهد
ومتلي كتاب الله في حجراتها | يقمن به في الليل والناس هجد
وتمت لأصحاب الكساء طهارة | من الله يحييها الكتاب المؤيد

---

١) في الأصل: نظامه.

معاهد إيمان تألق نورها ففي كل أفق جذوة تتوقد
وكانت أمانا ثم عادت مخافة فزائرها فوق الردي يتوسد
فيا أيها الدار التي حق أهلها على الناس طراً دائم ليس ينفد
لقد درست منك المغاني وأوحشت وكان إليها الدين يأوي ويصمد
ذكرتك ذكرى من يهيم فؤاده بقربك لكني عن القرب مبعد
ومثلت لي في بهجة الدين والتقى وأمر رسول الله يعلو ويمهد
١١٩ب // وإذ برقت نوراً أسارير وجهه فزحزح قطع الليل والليل أسود
وألقت إليه الأرض أفلاذها التي تحل بها عقم الأمور وتعقد
وغزو تبوك ثم حج وداعه ولم يبق تبيين ولم يبق مشهد
ومثلت لي والمسلمون بشكوه فرائصهم من روعة البين ترعد
وقد جلل الدنيا ظلام مطبق يخال به ليل على الناس سرمد
فما راعهم إلا وفاة رسولهم وكل يرى أن الرسول يخلد
وقد ذهلوا أن التي يقرونها إذا جاء نصر الله للموت مرصد
وودع جبريل وداع مفارق ولا عود يستثني ولا وحي يعهد
وأم أبيها مسبلات دموعها كما انحل من سلك فريد مبدد
فأودعها سراً بكت من نجيه وثني بسر فانثنت تتجلد
وقد أعلنت عند الرسول بكربها لكرب أبيها وهو بالموت يجهد
فقال لها: كفي دموعك واصبري فما بعد هذا اليوم كرب يعدد
وبشرها من قرب ملحقها به ببشري حديث صادق لا يفند
فيا من رأى حيا يعزي بموته فيرضي كأن الموت خلد مؤيد
فراراً عن الدنيا إلى قرب ربها وشجا عليها من حياة تنكد
ولطفاً من الله العظيم بصونها وباب الرزايا المستكنات مرصد
ولو أنها امتدت طويلا حياتها لشرد عنها النوم ليل مسهد
وغصت على قرب بثكل ابن عمها وفقد شهيد حزنه ليس يفقد
أقام كتاب الله في كل مارق يقر به في زعمه وهو يجحد

فقيض أشقى الناس يدني سعادة ... لمن هو بالإيمان أولى وأسعد
وكيف بها والله يأبى هوانها ... لمصرع سبط أول وهو مقصد
وقد جرعته حتفه كف جعدة ... بمكرع سم مجه فيه أسود
ولو حدثت عن كربلاء لأبصرت ... حسينا فتاها وهو شلو مقدد
وثاني سبطي أحمد جعجعت به ... عتاة جفاة وهو في الأرض أوحد
ولم يرقبوا إلا لآل محمد ... ولم يذكروا أن القيامة موعد
وأن عليهم في الكتاب مودة ... لقرباه لا ينحاش عنها موحد
فيا سرع ما ارتدوا وصدوا عن الهدي ... ومالوا عن البيت الذي بهم هدوا
فحُلّ عن برد الفرات عطاشهم ... ورَوِي منهم ذابل ومهند
فيا أوجها شاهت وناهت عن الهدي ... أهذا التحفي منكم والتردد
وترتم رسول الله في ذبح سبطه ... وبؤتم بنار حرها ليس يبرد
فما لكم عند الشفيع شفاعة ... ولا لكم في كوثر الحوض مورد
لعمري لقد غادرتم كل مؤمن ... على مضض برح يقوم ويقعد
ونغصتم المحيي وأرضيتم العدي ... فأنتم لغير الله جند وأعبد
فيا كبدي إن أنت لم تتصدعي ... فأنت من الصفوان أقسى وأجلد
ويا عبرتي إن لم تفيضي عليهم ... فنفسي أسخى بالحياة وأجود
أتنتهب الأيام أفلاذ أحمد ... وأفلاذ من عاداهم تتودد
ويضحي ويظمي أحمد وبناته ... وبنت زياد وردها لا يصرد
أفي دينه في أمنه في بلاده ... تضيق عليهم فسحة تتورد
وما الدين إلا دين جدهم الذي ... به أصدروا في العالمين وأوردوا
ينام النصارى واليهود بأمنهم ... ونومهم بالخوف نوم مشرد
وما هي إلا ردة جاهلية ... وحقد قديم بالحديث يؤكد
ألهفي على سبطي هدي ونبوة ... جري لهما يوم من الشر أنكد
شهيدين متبوعين من كل مؤمن ... بكل صلاة برة تتعهد
فهذا أذابت سورة السم كبده ... وهذا أبادته قسى تكبد

فما عذر أهل الأرض والقسط قائم وكلهم في موقف الفصل شهد
أيفعل هذا بابن بنت نبيكم وليس لكم في النصر يوم ولا غد
أبى الله إلا أن في النفس حسرة بغصتها أضحي وأمسي وأرقد
إلى أن يقيد الله من كل واتر على أن كفؤاً مقنعاً ليس يوجد
وأي دم يوفي دم ابن محمد حسين وأمسي وهو سبط موحد
فيا خاتم الأسباط إن تحيتي تؤمك من أرض بعيد وتقصد
مثقلة بالدمع شوقاً ولوعة على زفرة من حرها أتأود
[و]يا أسوة للمؤمنين كريمة يلين عليها الحادث المتشدد
فمن ينكر البلوى وأنت بكربلا لذي البث والشكوى إمام مقلد
فإن تجهل الدنيا عليك وأهلها فإنك في أهل السماء ممجد
أبوك شفيع الناس وهو الذي له مقام كريم في البرية يحمد
ومشرعة الحوض الروي بكفه تزاد رجال عندها وتطرد
وممن يذود الله عنه عصابة بقتلك في طغيانها تتحمد
وذنبهم في قتلك الذنب كله فما لهم إلا الجحيم تغمد
وهل كنت إلا مثل عمك جعفر قتيلاً لكفار بذي العرش ألحدوا
وإلا كليث الله جدك حمزة وحربة وحشي إليه تسدد
وما منهم إلا غريق شهادة حياتهم موصولة حين تنفد
ومثل أبي حفص وعثمان بعده ومثل علي وهو للحق سيد
دماؤهم مسك ذكي وأجرهم على الله لا يحصى ولا يتحدد
أقول ببث مستكن وظاهر مضاضته عن حبكم تتولد
وما سرني أني خلي من الهوى هوى هو في «حم» يتلى ويسند
سريرة حب يوم تتلى سرائري يقوم بها عني الصفيح المنضد
سلام على تلك المعاهد إنها لآل رسول الله طهر ومسجد
فيا رب وفدني إليها مسلما ويا طيب مسري من إليها يوفد
أفض بها دمعي وأنقع غلتي وأتهم في ربع الرسول وأنجد

وأدعو إلى الرحمن دعوة تائب　　إلى عفوه من طيبه يتزود
وأسمو إلى البيت العتيق بفرضه　　فكل به من ذنبه يتجرد
ولست على قبر الرسول بمؤثر　　ليحشر من ذاك البقيع محمد
فيا رب حقق نيتي ومنيتي　　هنالك والأرواح جند مجند

[الطويل]

وقال ـ أيضاً ـ يعارض حسان في كلمته الثانية التي أولها :

ما بال عينك لا تنام كأنما　　... ... ...

بهذه الكلمة المرسومة بعد :

هل يجمعن صباح يوم أو غد　　بيني وبين القبر قبر محمد
حتى أروي ناظري من عبرتي　　ويقر عيني طيب ذاك المشهد
وأقبل الأرض التي حملت به　　نوراً يجلى كل جنح أسود
وأعظم البلد الذي أرسي به　　طود النبوة ثابتاً بالأسعد
أشكو إلى جبل تضمن حبه　　حباً أضاق تصبري وتجلدي
وأبلغ القلب المروع أمانه　　وأقول للنفس التي ظمئت : ردي
// وأهش للأفق المبارك جوّه　　متجدداً من نوره المتجدد ١٢٠ أ
وأسح في أبيات آل محمد　　دمعاً كنظم اللؤلؤ المتبدد
والله يعلم أن آل رسوله　　آل تمكن حبهم في محتدي
وبكربتي منهم أبوح وأنطوي　　وبحسرتي فيهم أروح وأغتدي
قف بالمنازل سائلاً عن أهلها　　أين الرسالة والرسول المهتدي
أين الصواحب والصحابة حوله　　إذ بايعوه بالقلوب وباليد
أين الذين بسبقهم عز الهدي　　وعلت على الأديان ملة أحمد
أين الذين لعتبة ولشيبة　　وإلى الوليد سموا بكل مهند
أين الذين بيوم أحد صرعوا　　ما بين مثنى في الإله وموحد
أين الذين بمؤتة وجلادها　　ماتوا كراما كالليوث الحرد
أين الثمانية الذين بصبرهم　　ثابت بأوطاس بصائر من هدى

يا مسجد التقوى غدوت بفضلهم ومكانهم في الدين أفضل مسجد
وبقيت بعدهم مثابة رحمة في غربة المستوحش المتفرد
تبكي على خير البرية كلها بدموع كل مصدق وموحد
فقد السماء كما فقدت نديهم ونحيبهم في مهبط أو مصعد
وتفرد الرحمن بالغيث الذي كان الرسول بوحيه عبق الند
ولقد أقام الدين من خلفائه أصهاره كل بأحمد يقتدي
وأتتك بعدهم الملوك فمصلح يضع الأمانة عند آخر مفسد
يا بيت عائشة المجن ثلاثة تطموا به نظم الطراز الأوحد
مثوي النبي وصاحبيه وفسحة عيسى ابن مريم حازها بالموعد
بوركت من بيت يضم رسالة ونبوة وخلافة في ملحد
مني إليك تحية يهفو بها قلب بذكرهم وحبهم ند
صلى الإله وأرضه وسماؤه والعالمون على النبي المقتدي
بالأنبياء المهتدي بهداهم رشدا تبين في الكتاب المرشد

[الكامل]

وقال أبو عبد الله ـ أيضاً ـ يعارض حسان في كلمته الثالثة التي أولها:

نب المساكين إن الخير فارقهم ... ...

بهذه الكلمة المرسومة:

هون عليك من الأرزاء ما خطرا بعد الرسول ولا تعدل به خطرا
واذكره في كل محذور تغص به تلقي المصاب به قد هون الحذرا
أبعد أحمد يستقري مضاجعه فودع البيت والأركان والحجرا
مستقبلاً طيبة والله ينقله إلى رضاه فلما يعد أن صدرا
ثم استعز به شكو يعالجه يغشى بسورته الأبيات والحجرا
حتى انتهى دوره في بيت عائشة في نومها يتبع الأنفاس والأثرا
فمال في حجرها طلقا أسرته غض البشاشة إلا اللمح والنظرا
فأذهل الناس طرا عن حياتهم موت الرسول ومنهم من نفى الخبرا

فيالـه مـن نظـام بــات في قلــق ... لـولا أبـو بكـر الصديـق لانتشرا
إن كنـت معتبراً فـانظـر تقللـهَ ... والأرض تبر وديـن الله قـد ظهـرا
لم يـرض منهـا سـوى قبر تضمنـه ... كان الفـراش لـه في نـومـه مـدرا
يـا قبر أحمد هـل مـن زورة أمـم ... قبـل الحمام تسر السمــع والبصرا
وهــل إلى طيبـة ممشى يقـربها ... يـا طيبـة إن تـأتي يـومـه سفـرا
فتنشق النفس في أرجـائهـا أرجـا ... يشفي السقام وينفي الذنـب والضررا
وأستجير ببطن الأرض مـن كـرب ... في ظهرها لم تـدع شمساً ولا قمـرا
أستجمـل الله مـن أسرار قـدرتـه ... عزمـا يخوض إليـه البـدو والحضرا
وقـوة بـالضعيـف الهم نـاهضـة ... وحجـة تنظـم الآصـال والبكـرا
يـا حـب أحمد كـن لي في زيـارتـه ... أقـوى ظهير إلى أن أقضي الوطـرا
صلى الإلـه صلاة غير نـافـدة ... تكـاثـر الريـح والأشجـار والمطـرا
على البشير النذير المصطفـى كـرمـا ... من كل بطن وصلـب طيـب ظهـرا
على ابـن آمنـة الماحـي بملتـه ... من كان بـالله والإسلام قـد كفـرا
وأهلــه الطيبين الأكـرمين ومــن ... آوى وساهم في البلـوى ومـن نصرا
وأمهـات جميـع المؤمنين ومــن ... هدى هـداه ومـن صلى ومـن نحرا
ونضر الله حسـانـاً وأعظمــه ... فقـد رثـا وبكـى في الله وانتصرا
أبا الوليـد لقـد هيجـت لي شجنـا ... وقد بعثت الجوى والحزن والذكـرا
وأنـت شـاعـر آل الله قـاطبـة ... نافحت عنهم بروح القدس مقتـدرا
يـا رحمة الله أمـي غير صـاغـرة ... ضريحه وامسحي عن وجهـه العفـرا
فـإنـه سـابـق والسـابقـات لها ... في الحق أن تمسح الأعطاف والغررا
أبقـي لـه منبر للإنشاد مكرمـة ... عمت فلا المدر استثنت ولا الوبـرا
ولم يسـل لسـانـاً في مقـاولـة ... وإنما سل عضبـاً صـارمـاً ذكـرا
يـا مقـولا نضر الله الرسـول بـه ... لا زلت في جنة الفـردوس مشتهـرا

[البسيط]

وقال ـ أيضاً ـ رحمه الله ـ يبكي رسول الله ﷺ ويعارض حسان في كلمته المتقدمة قبل، رابعة لكلماته، وهي التي أولها:

آليت ما في جميع الناس مجتهدا ... ...

بهذه الكلمة الموسومة بعد:

قلبي إلى طيبة ذو غلة صادي ... إلى البشير النذير الخاتم الهادي
إلى أبي القاسم الماحي بملته ... كفران كل كفور جهله بادي
حتى أعفر خدي في مواطئه ... غوراً بغور وأنجاداً بأنجاد
وأرسل الدمع سحا في منازله ... مستفرغاً جهد أفلاذ وأكباد
في حيث أودع جبريل رسالته ... وحيا إليه بتوفيق وإرشاد
وأشرب الماء من أروي منابعه ... فطيبه قد سري في ذلك الوادي
يا حب أحمد إني منك في ثقة ... وأنت أحضر أعتادي وأزوادي
سر بي إليه وجاور بي مشابته ... حتى أضمن أكفاني وأعوادي
وما تمكنت من قلبي لتبدع بي ... ولا لتقطني عن ذلك النادي
نور من الله لو أني سريت به ... لما افتقرت إلى هاد ولا حادي
لم يقذف الله في قلبي محبته ... إلا لأحمل فوق الرأس والهاد
متى أقول لوفد الله عن كثب ... يا رايحين انظروني إنني غاد
وقد برئت إلى الرحمن من نشبي ... وقد تخليت عن أهلي وأولادي
مستبدلاً بجوار الله منقطعاً ... إلى الرسول انقطاع العاطف الباد
صلى الإله وأهل الأرض يقدمهم ... أهل السموات من مثني وآحاد
على الذي أنقذ الله العباد به ... من ظلمة الكفر رشدا بعد إفناد
على ابن آمنة المختار من نفر ... ما فوق مجدهم مرمى لمزداد
على النبي الذي تمت نبوته ... وآدم طينة قدت لأجساد
على الرسول بن عبد الله أكرم من ... أوري بنور أضاء الأرض وقاد
وبعده صلوات الله عاطرة ... على الصحابة أعداد بأعداد
وأهله الطيبين الأكرمين فهم ... في الأرض أطهر غياب وشهاد
يا رب واحفظ مقامي في محبتهم ... فإنها وإليك المنتهى زادي

[البسيط]

// فهذا ما تيسر لنا ذكره من مراثي الشعراء في سيد المرسلين وخاتم ١٢٠ ب
الأنبياء. وبقي علينا منها كثير تخطيناه، إما لتخطي الاختيار له والانتقاء، وإما لقصد الاختصار والاكتفاء، وأكثر الشعراء أفحمتهم المصيبة القاصمة للظهور، والرزية المتجددة على بلي الأزمان وتجدد الدهور، عن أن يفوهوا في ذلك ببنت شفة أو يفوا بما يناسب ذلك الكرب العظيم والخطب الجسيم من صفة متصفة، وأولئك أولى الناس بالمعذرة، وأحقهم بالتجاوز عن مقاصدهم المقصرة، فمصاب المسلمين به ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ أعظم من أن تؤدي حقيقته سعة الكلام، أو تستقل أساليب القول المتشعبة ومنادح العبارات المتطنبة المهذبة بأيسر جزء من مآثره الكرام ومحاسنه العظام، أو تفي الألفاظ على اتساعها وتعدد ضروبها وأنواعها بشرح ما يتحمل فيه القلوب المؤمنة من برح الآلام، والإعراب عن قدر مصيبة فقده على الإسلام، فجزاه الله عن نهجه لنا السبيل إلى دار السلام أفضل ما أعده من الجزاء لأنبيائه المختصين من عنايته بشرف الاجتباء والاصطفاء دون الأنام، وأدر عليه وعليهم من سحب الرحمة والبركات والسلام والصلوات ما يزري بهطال الديم وواكف الغمام.

* * *

وهنا انتهى ما يختص من هذا المجموع بمغازي نبينا محمد ﷺ وذكر أيامه وكافة أمره إلى حين وفاته.

ونشرع الآن في صلة ذلك بمغازي خلفائه الثلاثة الأول ـ رضي الله عن جميعهم ـ على نحو ما عملنا به في مغازيه من قصد التهذيب، وبذل الجهد في حسن الترتيب، وربنا الكريم جلت قدرته نعم الوكيل بالمعونة على ذلك، (و) لا حول ولا قوة إلا به، هو حسبي لا إله إلا هو، عليه توكلت وإليه أنيب.

* * *

[انتهى الجزء الثاني من مغازي الرسول ﷺ وسيرته
ويليه ـ إن شاء الله ـ القسم الأول من: مغازي الثلاثة الخلفاء]

فهرست المحتوى

الموضوع	الصفحة
شروع رسول الله ﷺ في حرب المشركين	٥
غزوة بدر الكبرى	١٣
أمر بني قينقاع	٥٩
سرية زيد بن حارثة	٦١
مقتل كعب بن الأشرف	٦٢
غزوة أُحُد	٦٦
غدر عضل والقارة بأصحاب رسول الله ﷺ	١٠١
غزوة بئر معونة	١٠٦
ذكر غزوة بني النضير	١٠٩
غزوة ذات الرقاع	١١٣
غزوة الخندق	١١٨
مقتل سلام بن أبي الحقيق	١٤٧
ذكر إسلام عمرو بن العاص وخالد بن الوليد رضي الله عنهما	١٥٠
غزوة بني لحيان	١٥٣
غارة عيينة بن حِصن على سرح المدينة	١٥٤
غزوة بني المصطلق	١٦١
غزوة الحديبية	١٧٣
غزوة خيبر	١٨٦
عمرة القضاء، وهي غزوة الأمن	٢٠٢
غزوة مؤتة من أرض الشام	٢٠٥
غزوة الفتح	٢١٥
غزوة حنين	٢٣٩
غزوة الطائف	٢٥٤
غزوة تبوك	٢٧١

الموضوع	الصفحة

ذكر إسلام ثقيف ٢٨٧
ذكر حج أبي بكر الصديق رضي الله عنه ٢٩٥
السرايا ٢٩٧
ذكر الوفود على رسول الله ﷺ ٣١٨
وفد بني تميم ٣٢٠
وفد بني عامر ٣٢٥
وفد تجيب ٣٢٧
فروة بن مُسَيْك المرادي ٣٢٩
وفد زبيد ـ عمرو بن معدي كرب ٣٣٢
وفد بني ثعلبة ٣٣٤
وفد بني سعد هذيم ٣٣٥
وفد بني فزارة ٣٣٦
وفد بني أسد ٣٣٨
وفد بهراء ٣٣٩
وفد بني غدرة ٣٤٠
وفد بلي ٣٤٢
ضمام بن ثعلبة ٣٤٤
وفد عبد القيس ٣٤٦
وفد بني مرة ٣٤٨
وفد خولان ٣٤٩
وفد محارب ٣٥١
وفد طيء ٣٥٢
وفد كندة ٣٥٦
وفد صداء ٣٥٧
وفد غسان ٣٥٩
وفد سلامان ٣٦١
وفد بني عبس ٣٦٣
وفد الأزد ـ وفد جرش ٣٦٤

الموضوع	الصفحة

وفد غامد ٣٦٦
وفد بني الحارث بن كعب ٣٦٧
وفد بني حنيفة ٣٧١
وفد همدان ٣٧٣
وفد النخع ٣٧٥
ذكر بعث رسول الله ﷺ إلى الملوك ٣٧٧
ذكر كتاب النبي ﷺ إلى قيصر ٣٧٩
ذكر توجه عبد الله بن حذافة إلى كسرى بكتاب النبي ﷺ ٣٨٦
ذكر إسلام النجاشي وكتاب رسول الله ﷺ إليه ٣٩٠
كتاب رسول الله ﷺ إلى المقوقس ٣٩٣
ذكر كتاب رسول الله ﷺ إلى المنذر ٣٩٦
ذكر كتاب النبي ﷺ إلى جيفر وعبد ابني الجلندي ٣٩٨
كتاب رسول الله ﷺ إلى هوذة بن علي ٤٠٢
ذكر كتاب النبي ﷺ إلى الحارث بن أبي شمر الغساني ٤٠٦
ذكر كتاب النبي ﷺ إلى فروة بن عمرو الجذامي ٤١٢
ذكر حجة الوداع ٤١٥
ذكر مصيبة الأولين والآخرين من المسلمين بوفاة رسول الله ﷺ ٤٢١
بيعة أبي بكر رضي الله عنه ٤٣٨
ذكر غسل رسول الله ﷺ ودفنه ٤٤٨
فهرست المحتوى ٤٧٨